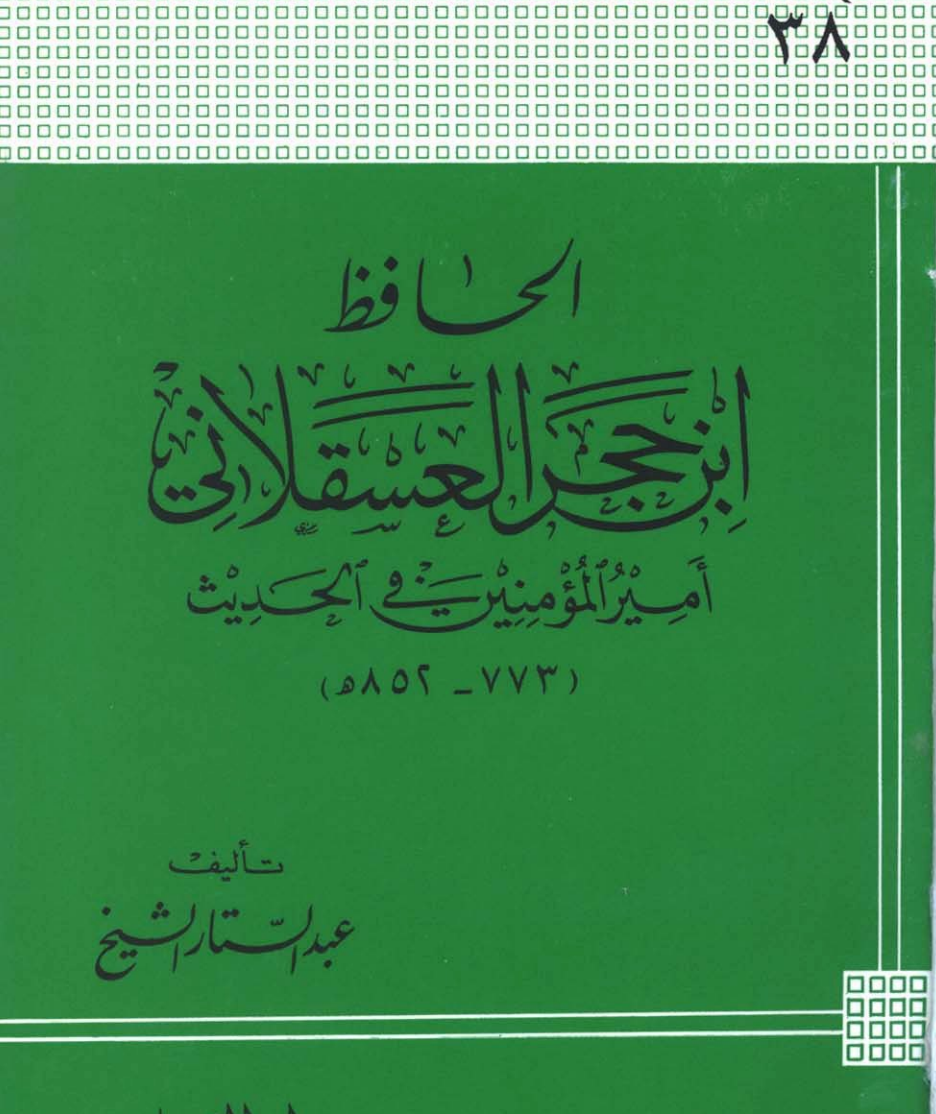
أعلام المسلمين
٣٨



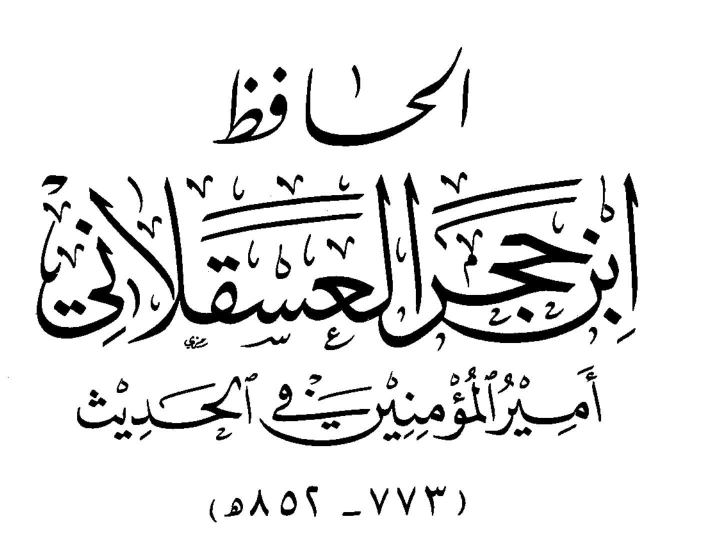
الحافظ ابن حجر العسقلاني
أمير المؤمنين في الحديث
(٧٧٣ ـ ٨٥٢هـ)

تأليف
عبد الستار الشيخ

دار القلم
دمشق

أعلام المسلمين

٣٨

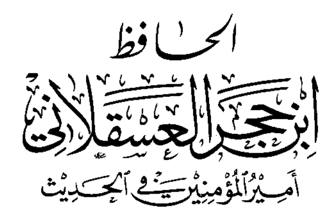


تأليف
عبد الستار الشيخ

دار القلم
دمشق

الطبعة الأولى
١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

دار القلم
للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق - حلبوني - ص.ب : ٤٥٢٣ - هاتف : ٢٢٩١٧٧
بيروت - ص.ب : ١١٣/٦٥٠١ - هاتف : ٣١٦٠٩٣


الحافظ
ابن حجر العسقلاني
أمير المؤمنين في الحديث

هـذا الرَّجُـل

*** (الشيـخ العـالم، الكـامـل الفـاضـل، الإمـام المحـدث، المفيـد المُجيد، الحافظ المتقن، الضابط الثقة المأمون).**

[شيخه الحافظ العراقي]

*** (إمام زمانه، وحافظ وقته وأوانه، وعنده من الذكاء والفطنة وصفاء القريحة ما تحيَّرُ فيه الأبصار).**

[مؤرخ الشام ابن قاضي شهبة]

*** (.. وكـان في حال طلبـه مفيداً في زي مستفيـد، إلى أن انفرد في الشبوبية بين علماء زمانه بمعرفة فنون الحديث، لا سيَّما رجـاله ومـا يتعلق بهم. فألف التواليف المفيدة، المليحة الجليلة، السـائرة الشـاهدة لـه بكل فضيلة، الدالَّة على غزارة فوائده، والمعربة عن حسن مقاصده، جمع فيهـا فأوعى، وفاق أقرانه جنساً ونوعـاً، التي شنَّفت بسماعهـا الأسماع، وانعقـد على كمالها لسان الإجماع، ورزق فيها الحظ السامي عن اللمس، وسارت بها الركبان سير الشمس. وهـو إمام عـلامة، حـافظ محقق، متين الديـانة، حسن الأخـلاق، لطيف المحـاضرة، حسن التعبيـر، عديم النـظير، لم تـر العيون مثلَه، ولا رأى هو مثلَ نفسه).**

[محدث مكة تقي الدين ابن فهد]

*** (حافظ العصر، وأستاذ الدهـر، سلطان العلماء، وملك الفقهـاء: الذي إن سلك بحر التفسير؛ كان الترجمان، والآتي من فرائد فوائده بعقود الجُمان. أو ركب متن الحديث؛ كان أحمد الزمان، وأظهر من خفايا خباياه ما لم يسبق إليه أبو حاتم ولا ابن حبّان. وإن تكلم في الفقه وأصـوله؛ عُلم أنه الشافعي، وأبرز من لوايا رواياه ما لم يتجاسر عليه الإمـام ولا الرافعي.**

أو تيمَّم كلام العرب على اختلاف أنواعه؛ فسيبويه والمبرد، وإن عرض العروض على انشعاب أنحائه؛ فالخليل بن أحمد).

[تلميذه الإمام العلاَّمة البرهان البقاعي]

*** (فريد زمانه، وحامل لواء السنَّة في أوانه، ذهبي هذا العصر ونضاره، وجوهره الذي ثبت به على كثير من الأعصار فخاره، إمام هذا الفن للمقتدين، ومقدَّم عساكر المحدثين، وعمدة الوجود في التوهية والتصحيح، وأعظم الشهود والحكام في بابَي التعديل والتجريح).**

[الحافظ السيوطي]



المقــدّمَة

الحمد لله الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً، وأنـزل فيه قصص الأنبياء وسير أممهم؛ لتكون عـظة وعبرة وآيـة لمن أراد أن يذكـر أو أراد شكوراً.

والصـلاة والسلام على سيِّـد ولد آدم، ومقـدَّم أولي العزم من الـرسل محمد ﷺ؛ الذي بشَّر وأنذر، وأدَّب وعلَّم، وهدى الناس للتي هي أقوم.

ورضي الله عن أصحـابه الـطيبين الطاهـرين، نجوم الاهتـداء، وأئمة الاقتـداء، الذين هـاجروا وهجـروا، وآوَوا ونصـروا، فسبق الآبـاء وتـلاهم الأبناء.

وبـعـد:

فلقد حثَّ القرآن العـظيم على العلم في أول آيات تنـزّل بها الـوحي الأمين، وبقيت الآي تتــوالى في الحض على العلم والإشـادة بـالعلمـاء. ولحكمة عظيمة قصَّ الله ــ سبحانه وتعالى ــ علينـا سير الأنبيـاء والصالحين مـع أممهم في العهود الغـابرة، والكشـف عن مـواقف من صـدَّق المـرسلين أو كذَّب؛ لإيضاح مواضع العبرة والقدوة عند من اتبع الهدى، والتحذيـر من مسلك من كذب وأبـى، فهَوى وتَرْدَى.

﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ من أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ في هَذِهِ الحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنينَ﴾(١).

﴿لَقَدْ كَانَ في قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الأَلْبَابِ...﴾(٢).

---

(١) سورة هود: الآية ١٢٠.

(٢) سورة يوسف: الآية ١١١.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[1].

والعلماء هم ينبوع العلم، ومعين الحكمة، ومصدر النور، وهم في الأمة عقلها المفكر، ونورها الذي يهديها في الظلمات، وبصيرتها التي تميز بها الخبيث من الطيب، وباصرتها التي تسير بها على الطريق المستقيم.

ولقد وعى أئمتنا ما للعلماء من خطر ومكانة وأهمية في استمرار حياة الأمة، وتوقُّد جذوتها، واستمرار فاعليتها؛ منذ وقت مبكر في تاريخنا الإسلامي، فصنفوا في تراجم الرجال، وسِيَر الأئمة الهداة، وتاريخهم ومناقبهم، وفضائلهم ومآثرهم. من أمثال المؤرخ الحافظ الثقة محمد بن سعد في «الطبقات الكبرى»، وإمام أهل الحديث على الإطلاق أبو عبد الله البخاري في «التاريخ الكبير»، وغيرهما كثير . ثم جاء فريق آخر من العلماء فكتبوا في طبقات كل مذهب، وآخرون في طبقات «المحدثين والحفاظ»، أو «المفسرين»، أو «الخلفاء»، أو «النحاة»، أو «الشعراء»، وغير ذلك، حتى كتب بعضهم المطولات، كما فعل السبكي في «طبقات الشافعية الكبرى»، والذهبي في «سير أعلام النبلاء». في حين أفرد بعضهم تراجم لأشخاص منفردين «كسيرة الشيخين» أو «عمر بن عبد العزيز»، أو «الشافعي»، وغيرهم. وتفخر مكتبتنا الإسلامية بهذا الصنف من العلوم، وتباهي به أمم الدنيا شرقاً وغرباً، ماضياً وحاضراً.

وبغية هؤلاء المؤلفين والكتاب من ذلك تحصيل الغرض الأصيل من نشر أخبار أولئك الأعيان؛ لِتُتَّبع آثارهم، ويقتدي بهم مَنْ بعدهم. فيقرأ سِيَرهم من لم يعاين صورهم، ويشاهد محاسنهم من لم يعطه السن أن يعاينهم؛ فيعرف مناصبهم ومراتبهم، ويتحقق مَنْ كَسَتْهُ الآداب حليها، وأرضعته الرياسة ثديها؛ فيجدّ في الطلب ليلحق بهم، ويتمسك بسببهم.

---

(١) سورة ق: الآية ٣٧.

ويذكر محاسنهم وعلومهم، ومواعظهم ومواقفهم وحكمهم؛ فيستدل بها في أموره، ويتدبرها ويتفكر فيها، فينتفع بما قالوه وعانوه. فهو إذ يطالع سير الأنبياء والخلفاء، والعلماء والوزراء، والأدباء والشعراء، والحكماء والعبّاد والصلحاء؛ فإنما مقصوده الوقوف على سيرة حازم ليستفيد منها حسن التدبير، أو عالم فيقفو أثره في تحصيل العلم والإخلاص لله فيه، أو صالح عابد زاهد لينير قلبه ويرتشف من ينابيع حكمته وهَدْيِه[1].

والمرء إذ يطالع ذلك يجتمع له خلاصة التجارب وعصارة الأفكار والمواقف، فيأخذ بالحسن ويجدّ في الطلب، ويجتنب السيِّىء حتى لا يهلك فيه؛ فكأنه يضمّ عُمُرَ غيره إلى عُمُرِهِ:

إذا علم الإنسان أخبار من مضى	توهَّمته قد عاش من أول الدهر
وتحسبه قد عاش آخر عمره	إذا كان قد أبقى الجميل من الذكر
فقد عاش كل الدهر من كان عالماً	حليماً كريماً فاغتنم أطول العمر[2]

ومصاحبة العلماء العاملين الصالحين نعمة تزيد العمر وتباركه وتزكّيه، والأخذ عنهم وقراءة سيرهم هي من أغلى ما تُنفق فيه الأوقات، وتُبذل دونه المُهج والحيوات.

فصاحبْ أهلِ العلمِ خيرُ مصاحبٍ	وخادمُهم لا شكّ أفضلُ خادِمِ
وإن اقتناءَ العلمِ أحسنُ للفتى	من الذهبِ التِّبْريْ وكنزِ الدّراهمِ[3]

ولا شك أن الإمام الحافظ ابن حجر واحد من أولئك الأئمة العلماء الهداة الذين يُقتدى بهم، ويُنتفع بسيرتهم الطيبة، فقد جمع إلى العلم

---

(١) انظر في ذلك فصلاً ممتعاً في «الإعلان بالتوبيخ»: ص ٢٤ ــ ٢٩.

(٢) الإعلان بالتوبيخ: ص ٤٥.

(٣) من قصيدة «نظم الدرر في مدح ملك العلماء ابن حجر» للشيخ شمس الدين محمد بن محمد الطَّنْدَتائي. الجواهر والدرر: ص ٤٦٢.

العملَ، فكان واحداً من أبرز العلماء العاملين، مع العبادة والورع والخشية، وحسن السمت، والهدي الصالح، والتواضع الجمّ، وحسن الشكالة، وطيب المعاملة.

وهو جدير بأن يصنَّف في حياته ومصنفاته كتاب بل أكثر من كتاب. ولقد وفّاه حقه تلميذه النجيب الحافظ السخاوي في كتابه القيم «الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر»، شكراً وعرفاناً لأستاذه الكبير، لما قدّمه له من علم، ونفعه به من معارف. غير أن هذا الكتاب ـ على جلالته ـ أشبه بالمطولات التي تلائم العصر الذي كتب فيه، وحسبك أن تعلم أنه ساق فصلاً في الثناء على شيخه زاد على ستين صفحة، وأورد من المدائح الشعرية في الإمام ومصنفاته مائة وستين صفحة! هذا مع الإسهاب في مواضع لا تعلق لها في صلب الموضوع، بل هي للفوائد أقرب، وبها أشبه.

وقد خار الله لي ـ وأنا قديم الإعجاب بابن حجر ـ أن أخوض غمار هذا المضمار، وأدلي بدلوي في هذا الميدان ـ على كلالة في الفكر، وعجز في البيان ـ لأسطر هذا البحث عن الإمام الحافظ، بطريقة هي أقرب لروح عصرنا، وأسهل تناولاً على جيلنا المسلم من ناحية، وأشمل لدراسة الجوانب المختلفة لشخصية الإمام من ناحية أخرى.

ومن الوفاء لهذا الإمام الكبير أن نجلّي سيرته، وننشر فضائله؛ لنقتدي به، ونجدِّد له الرحمة من بعده:

فكم سهرتْ عيناهُ والناسُ نُوَّمٌ وكمْ كتبتْ يُمناهُ من خبر يُروى[1]

لقد جاء الحافظ ابن حجر في فترة زاهرة وعصر ذهبي للعلوم

---

(١) من قصيدة طويلة للمحب البكري، امتدح فيها ابنَ حجر عند ختم «فتح الباري». الجواهر والدرر: ص ٤٧٩.

الإسلامية بعامة، وعلم الحديث بخاصة، فشارك في الحركة العلمية الواسعة لإحياء وتجديد التراث الإسلامي، الذي عبثت به أيدي التتار الذين أفسدوا في الأرض، وأهلكوا الحرث والنسل، وأحرقوا المكتبات في وحشية مفظعة، وألقوا بثمرات الفكر المسلم ونتاجه خلال دهور في مهابّ الفناء.

ولد الإمام في سنة (٧٧٣هـ) فعاش الربع الأخير من القرن الثامن، وامتدت به الحياة حتى النصف الأول من القرن التاسع، ونشأ نشأة طاهرة صالحة على التقوى والورع، والعلم النافع. ولما شبّ عن الطوق جدّ واجتهد، ورحل في البلاد الإسلامية، وأَتْهَمَ وأَنْجَدَ، وأخذ عن الأعيان، ومفاخر ذلك الزمان، لا يأبه بالمشقات، ولا تقعد به الملذات، يبذل في سبيل ذلك عمره وماله، ولسان حاله يردد مع الشاعر:

الاسكندرية داري إن قَرّ فيها قراري أقضي بتونس ليلي وبالعراق نهاري

حتى نبغ وفاق وساد، وطار ذكره في الآفاق، وكان في حال طلبه مفيداً في زي مستفيد، وانفرد في شبوبيته بعلم الحديث، واغتبط به شيوخه فمن دونهم، وانتفع به الناس، وقصده طلاب العلم من أقطار الأرض، وأصبح مسنِد الدنيا في عصره، وصار إطلاق لفظ «الحافظ» عليه كلمة إجماع.

وخاض في بحارالعلوم، واستخرج من دررها المنثور والمنظوم، وصنف المصنفات الجليلة التي انتشرت في الآفاق، وسارت بها الركبان مسير الليل والنهار، وتهادتها الملوك، وكتبها الأكابر، بقر فيها بطن العلم، وأبرز مُخَدَّرات المعاني بموضحات البيان، حتى جعل ما خفي كالعيان.

وقد حاولت في هذا البحث إعطاء صورة متكاملة عن هذا الحبر البحر، فجاء في خمسة عشر فصلاً، وركّزت على بعض المواضيع التي أهملها كثيرون ممن ترجم لابن حجر، كالفصل الذي أفردته عن العلوم التي برع فيها الإمام؛ حيث تكلمت عن ابن حجر لغوياً أديباً وشاعراً، ومؤرخاً،

ومفسراً، وفقيهاً، ومحدثاً، كما بحثت بشيء من التفصيل عن الأعمال التي تبوأها، وعوامل نبوغه، كذلك سلطت الضوء على «عقيدته» مستلهماً ذلك مما كتبه في «فتح الباري». وأفردت فصلاً ممتعاً لدراسة مصنفاته، والتعريف بها، وتصنيفها حسب العلوم، مع ترتيبها ضمن كل نوع على حروف المعجم. وقد بلغت تصانيفه زهاء (٢٩٠) مصنفاً، بين كبير ومتوسط وصغير، في نحو من ثلاثمائة مجلد!! كذلك تكلمت في فصل مستقل عن «فتح الباري» ودراسة خصائصه ومزاياه، ومنهج الحافظ فيه، وآراء العلماء فيه، ومقارنته مع «عمدة القاري» للإمام البدر العيني. بالإضافة إلى موضوعات أخرى تشكل مع سابقاتها كُلًّا متكاملاً لشخصية الإمام الحافظ رحمه الله.

وأرجو أن يكون هذا الكتاب إسهاماً خيِّراً في نشر سير السلف الصالح، للاقتداء بهم، والنسج على منوالهم، واقتفاء أثرهم، والحب لهم، و (المرء مع من أحب) و (من أحب قوماً حشر معهم).

وَرِّخْهُمُ تحظى بأجرٍ وافر — إذْ ذكرهمْ دينٌ وتقوىً واعتصامْ
الحبُّ في المولَى ملائم سعدنا — والبغضُ فيه محكّ أحكامِ الأنامْ[1]

ولست أدعي أني قد وفَّيت الإمام الحافظ حقه في هذا الكتاب، فهذا أمر عجز عنه معاصروه، ولكنه جهد المقل.

فاللهمَّ إني أبرأ إليك من الحَوْلِ والطَّوْلِ، وأستعين بك على حَزَنِ الأمر وسهله، وأسألك أن تجعل هذا العمل خالصاً لوجهك الكريم، وأن تنفعني به وقارئه وناشره يوم الدين. كما وأسألك الإخلاص في القول والعمل، إليك أسعى، وإليك مآب.

***

---

(١) الإعلان بالتوبيخ: ص ٢٧.

الفصل الأول
عصر الحافظ ابن حجر

عاش الحافظ ابن حجر في الربع الأخير من القرن الثامن وحتى منتصف القرن التاسع الهجري، وهي حقبة من الزمن كانت مصر فيها تحت السيادة المملوكية. ولا شك أن للحياة أثراً فاعلاً في تكوين شخصية كل فرد، وإظهار مكنونات نفسه، وإبراز ملكاته، وتنمية قدراته. لذا فلا بد لنا من إلقاء الضوء ـ في إيماءة سريعة، تفي بالغرض ولا تخرج عن أصل الموضوع ـ على العصر الذي عاش فيه هذا الإمام الذي كان ملء السمع والبصر، ولا يزال؛ لنتلمس من خلالها العوامل التي ساعدت على نبوغ هذا الحبر، الذي سطع نجمه في شبوبيته، حتى طغى على أشياخه.

ونجمل القول في ذلك بدراسة الحالة السياسية، ونثنّي بالاجتماعية، ثم الاقتصادية، فالحياة الدينية، ونختم بالحالة العلمية في تلك الفترة المشرقة من تاريخنا الإسلامي.

فمن الناحية السياسية: وبعد احتضار دولة الأيوبيين، واتساع رقعة النزاع؛ قامت بينهم الحروب ـ وخاصة في مصر والشام ـ وسعى كل منهم إلى تعزيز جانبه وإكثار جنده، فلجأ كل حاكم إلى شراء المماليك[1] ـ أو الرقيق الأبيض ـ وعنوا بتدريبهم وتنشئتهم. من ذلك أن الصالح نجم الدين أيوب قد «اشترى من المماليك الترك ما لم يشترِ أحد من المماليك مثله من قبله، حتى عاد أكثر جيشه مماليكه». وسرعان ما ساعدت

---

(١) طائفة من الأرقّاء يُشترون بالمال، وكان الرق منتشراً في العصور الوسطى، وله تجار متخصصون.

الأحداث على بروز المماليك، وتنامي شوكتهم، واشتداد قوَّتهم، حتى صارت لهم كلمة مسموعة وتأثير فعال في مجريات الأمور(١).

وهؤلاء المماليك كانوا قسمين:

المماليك البحرية: وسُمّوا بذلك لأن الملك الصالح نجم الدين أيوب اختار «جزيرة الروضة» في بحر النيل مركزاً لهم، وكانوا أولي بأس شديد، وشجاعة نادرة فنشَّأهم تنشئة عسكرية، وجعلهم أمراء دولته، وخاصته وحراسه، وكان لهم الفضل في تثبيت ملكه. وسطعت شمسهم بعد انتصارهم في قتال الفرنج وأسر ملكهم «لويس التاسع» ملك فرنسة سنة (٦٤٧هـ). وبعد ذلك بقليل تمكنوا من الاستئثار بالحكم من سنة (٦٤٨ ــ ٧٨٤هـ/ ١٢٥٠ ــ ١٣٨١م)، فحكمت دولتهم زهاء مائة وثلاثين سنةً، خاضت خلالها معارك ظافرة، كبحت جماح التتار، ودفعت خطرهم عن مصر، وكفكفت عدوانهم عن بلاد الشام. وامتد سلطان هؤلاء المماليك حتى وصل ــ أحياناً ــ إلى بلاد المغرب.

وكان آخر سلاطينهم «أمير حاجي» الذي أُعلن حاكماً في سنة (٧٨٣هـ ــ ١٣٨١م) وعمره أحد عشر عاماً!! وتولى تدبير ملكه الأميرَ القوي «برقوق الجركسي»، الذي ما لبث بعد سنة ونصف أن خلع السلطانَ أمير حاجي، وأعلن نفسه حاكماً، وتلقب بلقب «الظاهر»(٢).

وهكذا دالت دولة «المماليك البحرية»، لتحل محلهم دولة «المماليك الجراكسة» وهؤلاء يختلفون عن سابقيهم بأن مبدأ الحكم الوراثي الذي حاول بعض سلاطين «المماليك البحرية» تطبيقه في عناد وإصرار؛ لا نجد له أثراً عند «المماليك الجراكسة» أو «البرجية»(٣). ولذا

(١) مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك: ص ١٦٥ ــ ١٦٩.
(٢) المرجع السابق: ص ٢٤١ ــ ٢٤٧.
(٣) أصل تسميتهم جاءت من أن السلطان المنصور قلاوون أكثر من شراء المماليك =

كثـرت القلاقـل والاضطرابـات في عهدهم لتنـافسهم على السلطة، لكنهم حاصروا تلك الفتن في دائـرة داخلية، وقضـوا عليها، وحـافظوا على شـوكة دولتهم وسطوتها؛ بحيث لم تتمكن قوة خارجية من التدخل في شؤون البلاد أو الانتقاص من سيادتها وأطرافها. وبفضل ذلك استطاعت دولـة المماليـك في ذلـك العصر الصمـودَ في وجه تيمـورلنك، في وقت تهـاوت فيه جميـع الدول القائمة في غرب القارة الآسيوية أمام هجماته[1].

وقد عُمِّرت دولتهم أكثر من مائة وأربع وثلاثين سنة، مـا بين (٧٨٤ ـ ٩٢٣هـ/١٣٨٢ ـ ١٥١٧م)، وتعاقب على عرشها ثلاثة وعشرون سلطاناً.

وبجانب حماية المماليـك للبلاد والـذود عنها، كـانوا يـذودون عن بيضـة الدين، وحـوزة الشريعـة، واشتهروا بـإكرام العلمـاء والتودد إليهم، وتشييـد المسـاجـد، وبنـاء المـدارس والمستشفيـات والقـلاع الحـربيـة، وغيرها.

وبعـد أن غربت شمس دولتهم، انـطوت مصـر تحت لـواء الخـلافـة الإسلامية العثمانية.

الحالة الاجتماعية:

اتصفت الحياة الاجتماعية في مصر في عصر سلاطين المماليك بأنها كانت حياة صـاخبة نشـطة، ملأى بـالحيويـة والحركـة بمختلف مجالاتهـا. وكـانت العقيدة الإسـلامية هي عقيـدة المجتمع، وأحكـام الله نافـذة، ولها قدسية واحترام. وقد حرص السلاطين على إنشاء المرافق العامة كالخانـات والـوكالات والأسبلة والحمـامات والبيمـارستانـات وغيـرهـا. وكـان النـاس

= الجركس، وعني بتربيتهم في أبراج القلعة، فلصق بهم اسم «البرجية»، وعـرفوا بـه في التاريخ. وهم من بلاد «جورجيا» الواقعة بين بحر قـزوين والبحر الأسـود. مصر والشام في عهد الأيوبيين والمماليك: ص ٢٤١.

(١) المرجع السابق: ص ٢٤٨ ـ ٢٤٩.

يشاركون في الاحتفالات بالمناسبات العامة، كتولية سلطان، أو شفائه من مرضه، أو زواجه، أو جلوسه للعلم والمناظرة، ونحو ذلك.

كما كثرت المناسبات الدينية وبولغ فيها حتى صارت ميزة لذلك العصر، وكان الناس يتبادلون التهنئة، ويقيمون الولائم، ويتصدقون على الفقراء، ويبالغون في إظهار السرور.

ولربما كان الدافع من وراء ذلك صرف أنظار الناس عن منافسة الحكام على السلطة، وإشغالهم عما يجري بين السلاطين من اصطراع وتنافس.

ولم يخلُ ذلك العصر من عسف وظلم، وإرهاق لكاهل الناس بالضرائب التي لاقوا منها أذى كبيراً. زد على ذلك التفاوت الطبقي الذي كان سائداً، والذي لا يعترف به الإسلام بل جاء لنَسفه؛ فالمجتمع كان مقسماً إلى عدة طبقات:

أولاها أكثرها حظاً، وهي طبقة الأمراء والمماليك: فهم الطبقة العليا في المجتمع، ويتمتعون بالجزء الأكبر من خيراته، ويعيشون في حصونهم وقلاعهم، ولا يختلطون بعامة الأمة، وجلُّ وقتهم مصروف للفروسية والرياضة وأمور الحرب.

والطبقة الثانية هم العلماء من قضاة ومدرِّسين في المدارس والمساجد، وهؤلاء كانوا يحتلون مكاناً علياً عند الحكام، الذين كانوا يدينون لهم، ويستمعون لرأيهم، ويعملون بمشورتهم. ولهم عند الناس التبجيل والاحترام.

تلي ذلك طبقة التجار والصناع الذين كانوا في يُسْر من العيش، لعدم ارتباطهم بالإقطاع وما فيه من إذلال واستغلال.

وآخر طبقات المجتمع هم سواد الشعب من فلاحين وحرفيين

وأمثالهم، وهؤلاء كانوا يعيشون حياة هي أقرب إلى البؤس والحرمان[1].

أما الحالة الاقتصادية:

فقد أدرك سلاطين المماليك أهمية الزراعة للبلاد، فعنوا بها، وأنشؤوا لذلك الجسور، وشقوا الترع، حتى إن الناصر محمد بن قلاوون أشرف بنفسه على إنشاء بعض الجسور، وكان يخرج مع المهندسين ليوجههم حتى يتم بناء الجسر. فازداد محصول الأرض في ذلك العصر، لكن ذلك لم يَعُدْ على الفلاح بكبير فائدة، فهو يعاني الفقر والحرمان لأن كل أمره بيد الإقطاع.

كما ارتقت الصناعة رقياً كبيراً، وشكَّلت مصنوعات ذلك العصر إنتاجاً فنياً رائعاً، كالأقمشة الفاخرة من الحرير والصوف والكتان والقطن، كذلك المصنوعات المعدنية والزجاج والخزف، والمصنوعات الخشبية.

بيد أن المقام الأول في النشاط الاقتصادي كان للتجارة التي شكلت المصدر الأول للثروة الهائلة التي أفصحت عن نفسها في أعمال المماليك وما تركوه من آثار ومنشآت فخمة. ويرجع نشاط التجارة عبر مصر إلى انسداد معظم طرق التجارة العالمية بين الشرق والغرب بسبب حركة المغول التوسعية، فلم يبقَ آمناً سوى طريق البحر الأحمر ومصر. وقد أدرك سلاطين المماليك هذا، فيسَّروا سُبُلَه، حتى إن الناصر قلاوون أمر نوابه في الثغور أن يحسنوا معاملة التجار وييسروا لهم أمورهم؛ مما أدى إلى ازدهار الحركة التجارية عبر موانىء مصر المختلفة.

كما نشطت التجارة الداخلية، وانتشرت الأسواق الكبرى، مع إحكام الرقابة عليها لمنع التلاعب بالأسعار أو الأوزان أو أصناف البضائع.

---

(١) مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك: ص ٢٨٨ ــ ٢٩٠؛ تغليق التعليق مقدمة المحقق: ١/٣٤ ــ ٣٥.

لكن ساءت المعاملة في عصر «المماليك الجراكسة»، وضاق التجار بذلك ذرعاً، وفتشوا عن طريق غير مصر، حتى اكتشفوا «رأس الرجاء الصالح»؛ فتدهور مركز مصر التجاري[1].

وعلى صعيد الحياة الدينية:

فقد شهدت مصر في عصر المماليك نشاطاً إسلامياً يسترعي الانتباه، وقد بقي في زمانهم بقايا للتشيُّع هو امتداد لجذور «الدولة العبيدية» التي طوَّح بها القائد المسلم صلاح الدين الأيوبي طيب الله ثراه، وجزاه عن الإسلام خيراً.

وقد اتبع سلاطين المماليك سياسة واضحة للقضاء على تلك الآثار «العبيدية» الشوهاء، حتى انتهت آثارهم ـ أو كادت ـ في أواخر عصر المماليك، حتى إن بيبرس حرَّم أي مذهب عدا المذاهب السنِّيَّة الأربعة، بحيث لا يرشح لوظائف القضاء أو الخطابة أو الإفتاء أو التدريس إلَّا إذا كان من أتباع أحد تلك المذاهب السنِّيَّة!!

وكان من ميزات ذلك العصر كثرة المنشآت الدينية، والحرص على تشييد المساجد، حتى زاد عددها في مصر والقاهرة على ألف مسجد، وقلَّ سلطان إلَّا ونال شرف ذلك العمل البار. وكانت رسالة المسجد آنذاك كما أرادها له الإسلام: جامعة إسلامية تزخر بحلقات العلم، وتزدان بكبار العلماء، وليس للعبادة وحسب!

على أن أبرز ظاهرة اتصف بها عصر المماليك هي انتشار التصوف، وإقبال عامة الناس على مشايخهم فيه[2].

---

(١) مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك: ص ٢٨٣ ـ ٢٨٨.

(٢) مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك: ص ٢٥ ـ ٢٧، ٢٩٠ ـ ٢٩٢.

أما الحالة العلمية:

فقد شيَّد المسلمون ــ في مصر والشام ــ في عصر المماليك صرحاً علمياً شامخاً، وإن المرء ليصاب بالدهشة مع الإعجاب والإكبار لما يراه من ذلك التراث الضخم من المؤلفات في شتى العلوم، أنتجتها عقول عباقرة العلم وأساطين المعرفة. ويرجع ذلك إلى عدة أمور:

أولها: أن ما أصاب أطراف العالم الإسلامي من كوارث على يد المغول في بغداد حاضرة الخلافة ومثابة العلم ومنبع العلماء، وما لحق بالأندلس على يد الصليبيين؛ جعل أنظار العلماء تتوجه إلى مصر حتى «صارت محل سكن العلماء، ومحط رحال الفضلاء» كما يقول السيوطي.

ثانيها: ما شعر به العلماء من عظم المسؤولية الملقاة على كواهلهم، والواجب الذي يحتم عليهم تعويض الخسارة المبهظة التي لحقت بالمكتبة الإسلامية ــ نتيجة أعمال التتار ــ وعبثت بجهود الأئمة وتراثهم العلمي الذي شيدوه عبر الدهور الخالية؛ فقاموا بحركة تأليف بارعة نادرة، فائقة شاملة، وأقبلوا على التدوين إقبالاً صرفهم عن مشاغل الحياة وشؤونها، وتنافسوا تنافساً شديداً، وتسابقوا في الإجادة وكثرة الإنتاج، وسدّ كل حاجة دينية أو معرفية أو كونية بمؤلَّف أو بمؤلفات. فكان لذلك أثر فعال في تلك النهضة العلمية الزاهرة الباهرة.

وكان لسلاطين المماليك أثر لا يقل خطراً عن سابقَيْه، فأسهموا في إثراء هذا الميدان، وكان بعضهم مولعاً بسماع التاريخ، وآخر يحرص على عقد المجالس العلمية في القلعة وحضورها، والمشاركة في المسائل التي تثار فيها. ووجد من بعض الأمراء المماليك مَنْ اشتغل بالحديث والفقه والعربية والتاريخ، بل تصدى بعضهم لإقراء الطلبة وتدريسهم. زد على ذلك ما أنشؤوه من دور للعلم ومنارات له، كانت تحتشد فيها الأشياخ والطلبة في تظاهرة علمية رائعة. فقد اعتنوا بالمؤسسات العلمية التي تخرج

منها أولئك الأكابر من أعيان العلماء، من مكاتب ومدارس وخوانق[1] ومعاهد للتعليم ــ التي هي أشبه بالجامعات في عصرنا ــ فتلقى فيها الدروس والمحاضرات في مختلف التخصصات: كالتفسير، والحديث، والقراءات، والفقه وأصوله، والعربية وعلومها، والطب، والفلك، والتأريخ، والجغرافيا، وغيرها، ولكن التركيز كان منصبّاً على العلوم الشرعية.

وكان يخصص لكل مدرسة مدرِّسون يقومون على التعليم فيها، وكان لبعض الأساتيذ معيدون[2]، وتلحق بها خزانة كتب كبيرة. ووقفوا عليها الأوقاف الغنية، وأجروا الجرايات على الأشياخ والطلاب؛ ليضمن لهم ذلك قدراً من الحياة الكريمة، فيصرفوا همهم للبحث والعلم والتخصص فيه. كما وفروا السكن للجميع، رافق ذلك أصناف البر بالشيوخ والطلاب، حتى إن بعض المدارس كان يوزع فيها السكر على كل طالب كل شهر. فتفرغ الطلاب للعلم، وأكبوا عليه، وجدّوا في طلبه، حتى إذا أَنِسَ أحدهم من نفسه المقدرة على الخطابة أو التدريس أو الفتيا أو التأليف، واطمأن شيخه لمقدرته هذه؛ منحه إجازة علمية تخوِّله ذلك.

وبالإضافة إلى خزائن الكتب العامة في المدارس والمساجد، كانت هناك المكتبات الخاصة التي حرص عليها كبار العلماء وطلاب العلم، حتى إن القاضي نجم الدين يحيى بن حجي الحسباني ــ المتوفى سنة

---

(١) الخوانق ــ ومفردها خانقاه ــ وكذلك الرباطات والزوايا: معاهد دينية إسلامية، أنشئت لإيواء المنقطعين للعلم، والزهّاد والعبّاد. ولفظا الرباط والزاوية عربيان، أما الخانقاه ففارسية ومعناها البيت. حسن المحاضرة: ٢/٢٥٦، هامش (١).

(٢) المعيد: ما عليه قدر زائد على سماع الدروس من تفهيم الطلبة ونفعهم. حسن المحاضرة: ٢/٢٥٧، هامش (١).

٨٨٨هـ ـ وكان ولي نظارة الجيش بمصر ـ لما مات وجد عنده زيادة على ثلاثة آلاف مجلد من الكتب النفيسة.

وكانت هناك المكاتب التي حملت على عاتقها التعليم الابتدائي لأطفال المسلمين، وقد أنشأ السلاطين منها عدداً كبيراً، كما تسابق الخيِّرون فشيدوا الكثير، وحبسوا عليها الأوقاف. وعينوا لكل مكتب مؤدِّباً وعريفاً يساعده، واشترط فيهما: العقل والدين والعلم والحلم وحسن الخلق والبعد عن القسوة والعنف.

ومن أبرز تلك المدارس نذكر:

١ ـ المدرسة الظاهرية القديمة: أنشأها الظاهر بيبرس صاحب الفتوحات والآثار العظيمة، وتمَّ بناؤها أول سنة (٦٦٢هـ). وكان يدرس فيها الفقه الحنفي والشافعي، وكذلك الحديث والقراءات.

٢ ـ المدرسة المنصورية: التي أنشأها السلطان المنصور سيف الدين قلاوون سنة (٦٧٩هـ)، ورُتبت فيها دروس فقه على المذاهب الأربعة، وتفسير، وحديث، ودرس طب.

٣ ـ المدرسة الناصرية: ابتدأها السلطان كتبغا، وأتمها الناصر محمد بن قلاوون سنة (٧٠٣هـ)، ورُتب فيها درس للمذاهب الأربعة.

٤ ـ المدرسة الصاحبية البهائية: قرب جامع عمرو بن العاص رضي الله عنه، أنشأها الوزير الصاحب بهاء الدين علي بن محمد سنة (٦٥٤هـ)، وكانت «من أجلِّ مدارس الدنيا» كما يقول المقريزي.

٥ ـ المدرسة المنكوتمرية: بالقاهرة، بناها الأمير سيف الدين منكوتمر الحسامي بجوار داره، واكتملت سنة (٦٩٨هـ).

٦ ـ المدرسة الجمالية: بالقاهرة، بناها الأمير علاء الدين مغلطاي الجمالي ـ وكان وزيراً في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون ـ سنة (٧٣٠هـ).

٧ ــ المدرسة الظاهرية البرقوقية[1]: أسسها الظاهر برقوق، وكمُل بناؤها سنة (٧٨٨هـ)، وافتتحها السلطان نفسه، باحتفال عظيم شهده الأمراء والقضاة.

٨ ــ المدرسة المحمودية: أنشأها الأمير جمال الدين محمود بن علي الأستادار سنة (٧٩٧هـ)، وكان لها شأن عظيم.

كما كان الجامع الأزهر مقراً لدروس الفقه والاشتغال بعلوم الحديث والتفسير والنحو، وتعقد فيه مجالس الوعظ، وحلق الذكر، وغير ذلك. وجامع عمرو بن العاص كانت فيه سنة (٧٤٩هـ) بضع وأربعون حلقة لإقراء العلم، لا تكاد تبرح منه.

وفي الشام: كانت هناك المدرسة الناصرية، والعادلية، والأشرفية، والعمرية، وغير ذلك كثير جداً مما استوعب الكلام عليه النعيمي في «الدارس في تاريخ المدارس».

وكان في الجامع الأموي بدمشق ثلاثة وسبعون متصدراً لإقراء القرآن، وعدد من الحلقات في علوم الفقه والحديث وغيرها[2].

كل ذلك أدّى إلى تعاظم الحركة العلمية الواسعة، وليس أدلُّ على ذلك من وجود تلك الثروة العلمية الهائلة التي أنتجتها قرائح العلماء في عصر سلاطين المماليك، في مختلف أوجه العلم: من تفسير، وحديث، وفقه، وأدب، وتأريخ، وجغرافيا، وطب، وفلك، وفلاحة، ومعارف عامة ــ مما يشي بنشاط علمي وثّاب شهدته مصر في تلك الحقبة من الزمان.

---

(١) وهي غير السابقة التي أسسها الظاهر بيبرس.

(٢) باختصار من: مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك: ٢٩٢ ــ ٢٩٩؛ طبقات الشافعية، لابن قاضي شهبة؛ شذرات الذهب: الأجزاء ٦، ٧؛ حسن المحاضرة: ٢/٢٥٧؛ تغليق التعليق: ١/٣٥ ــ ٤٣؛ العيني وأثره في علم الحديث: ١٤ ــ ٥١ صفحات متفرقة.

●● **ففي اللغة العربية وعلومها** : لمع نجم ابن منظور (ت ٧١١هـ)، والحسن بن القاسم بن عبد الله المرادي المعروف بابن أم القاسم المرادي (ت ٧٤٩هـ)، وسيبويه زمانه جمال الدين بن هشام (ت ٧٦١هـ)، والشاعر ابن نُبَاتَة المصري (ت ٧٦٨هـ)، وبهاء الدين بن عَقيل (ت ٧٦٩هـ)، وأحمد بن محمد بن علي الفيومي (ت ٧٧٠هـ)، وابن أبي حجلة (ت ٧٧٦هـ)، والقَلْقَشَنْدي (ت ٨٢١هـ)، وبدر الدين الدماميني (ت ٨٢٧هـ) وابن حِجَّة الحَمَوِي (ت ٨٣٧هـ)، وغيرهم.

●● **وأما علم التاريخ فكان من أبرز علوم ذلك العصر**: وقد نبغ فيه أساطين المؤرخين من أمثال: الملك المؤيد إسماعيل بن علي أبو الفداء (ت ٧٣٢هـ)، والذهبي (ت ٧٤٨هـ)، وابن كثير (ت ٧٧٤هـ)، وابن الفُرات (ت ٨٠٧هـ)، وابن خَلْدون (ت ٨٠٨هـ)، وابن دُقْمَاق (ت ٨٠٩هـ)، وزين الدين بن الشحنة (ت ٨١٥هـ)، والمَقْريزي (ت ٨٤٥هـ)، وابن تغري بردي (ت ٨٧٤هـ).

ويلتحق به من كتب في السير والتراجم والطبقات: كابن سيد الناس (٧٣٤هـ)، والأُدْفُوي (ت ٧٤٨هـ)، وصلاح الدين الصَّفَدي (ت ٧٦٤هـ)، وابن شاكر الكتبي (ت ٧٦٤هـ)، والتاج السُّبكي (ت ٧٧١هـ)، وابن أبي الوفا القرشي (ت ٧٧٥هـ)، وابن قاضي شُهْبَة (١٨٥هـ).

●● **وفي علوم الجغرافيا والطبيعة والحساب والفلك**: كان هناك أحمد بن يحيى بن فَضْل الله العُمَري (ت ٧٤٩هـ) وهو إمام الجغرافيا والإسطرلاب. والدَّمِيري (ت ٨٠٨هـ) في كتابه «حياة الحيوان». وعالم الفلك والهندسة والحساب علي بن إبراهيم الأنصاري الموقت المعروف بابن الشاطر (ت ٧٧٧هـ). وأحمد بن رجب بن طنبغا عالم بالحساب والفرائض والفلك (ت ٨٥٠هـ).

●● **وفي الفقه وأصوله نبغ أئمة أعلام في مختلف المذاهب**:

فمن الشافعية: مجد الدين أبو بكر بن إسماعيل الزنكلوني (ت ٧٤٠هـ)، وتقي الدين السُّبْكي ـ والد التاج ـ (ت ٧٥٦هـ)، وجمال الدين الإسْنوي (ت ٧٧٢هـ)، والزَّرْكَشي محمد بن بهادُر (ت ٧٩٤هـ)، وأبو نعيم أحمد بن عبد الله العامري (ت ٨٢٢هـ).

ومن الأحناف: ابن التركماني (ت ٧٣١هـ)، وعثمان بن علي الزَّيلعي (ت ٧٤٣هـ)، وعمر بن إسحاق الغزنوي (٧٧٣هـ)، وأكمل الدين محمد بن محمد البابَرْتي (ت ٧٨٦هـ).

ومن المالكية: عيسى بن مسعود الزَّواوِي (ت ٧٤٣هـ)، وخليل بن إسحاق الجندي (ت ٧٦٧هـ)، وبهرام بن عبد الله تاج الدين الدَّمِيري (ت ٨٠٥هـ).

ومن الحنابلة: ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ)، وتلميذه ابن قيِّم الجَوْزِيَّة (ت ٧٥١هـ)، وشمس الدين محمد بن مفلح (ت ٧٦٣هـ)، وعز الدين محمد بن علي العمري المقدسي (ت ٨٢٠هـ).

●● **وفي القرآن وعلومه**: كان هناك من ألَّف في التفسير والقراءات، مع التصدي للتدريس والإقراء في المساجد والمدارس:

كابن تيمية (ت ٧٢٨هـ) في تفسير سور متفرقة، وأبي حيان (ت ٧٤٥هـ) نحوي عصره ومقرئه ومفسِّره، والتقي السُّبْكي (ت ٧٥٦هـ)، وابن كثير (ت ٧٧٤هـ)، والفِيرُوزابادي صاحب القاموس (ت ٨١٧هـ).

وفي القراءات كتب الذهبي (ت ٧٤٨)، وأحمد بن يوسف بن عبد الدائم الحلبي المعروف بالسمين (ت ٧٥٦هـ)، وإمام هذا الفن بلا منازع محمد بن محمد أبو الخير شمس الدين العمري الدمشقي ثم الشيرازي الشافعي الشهير بابن الجَزَري (ت ٨٣٣هـ).

●● **أما الحديث وعلومه**: فقد نال من العناية في ذلك العصر ما لم ينله غيره من العلوم، ولعل السبب الأهم في هذا ـ فيما نحسب ـ ظهور كوكبة من عباقرة العلماء وأفذاذ علم الحديث آنذاك؛ بحيث أثروا

المكتبة الإسلامية في هذا الفن العزيز، مما يجعلنا نجزم بأنه العصر الذهبي للحديث وعلومه، والأمة الإسلامية منذ ذلك الزمن وحتى الآن مدينة لعلماء ذلك العصر، الذين لا تزال كتبهم المرجع الأساس في هذا الميدان في جامعات العالم الإسلامي، وقولهم هو المرجوع إليه في الملمات، وإليهم المفزع في حل المشكلات؛ فهم حفّاظ الحديث، ونقّاد الأسانيد، وحلّالو المعضلات، وموضِّحو المبهمات.

وحسب القارىء أن ينظر في واحد من كتب التراجم لذلك العصر، ليقف مبهوراً أمام أساطين العلماء من أمثال:

القاسم بن محمد البِرْزالي علم الدين (ت ٧٣٩هـ)، والذي بلغ عدد أشياخه ــ من سمع منهم ومن أجازوه ــ ثلاثة آلاف نفس. والحافظ المِزِّي (ت ٧٤٢هـ)، وهو من هو، وقد بلغت مشيخته زيادة عن الألف. وأعجوبة الزمان الحافظ الذهبي (ت ٧٤٨هـ). وهؤلاء ثلاثتهم دمشقيون! وفي مصر نبغ ثلاثة آخرون هم: ابن المُلَقِّن (ت ٨٠٤هـ)، والبُلْقَيْني (ت ٨٠٥هـ)، والعِراقي (ت ٨٠٦هـ).

كما كان في ذلك العصر الزاهر أمثال: ابن التركماني (ت ٧٥٠هـ)، والحافظ العلائي (ت ٧٦١هـ)، وعبد الله بن يوسف الزيلعي (٧٦٢هـ)، ومُغَلْطاي (ت ٧٦٢هـ)، وابن كثير (ت ٧٧٤هـ)، والهَيْثمي (ت ٨٠٧هـ)، والفِيرُوزَابادي (ت ٨١٧هـ)، وإبراهيم بن محمد المعروف بسِبْط ابن العَجَمي (ت ٨٤١هـ)، وابن ناصر الدين الدمشقي (ت ٨٤٢هـ).

وكل هؤلاء لهم مؤلفات في علوم مصطلح الحديث، والأطراف، والرجال، والغريب، والمبهمات، وضبط المشتبه، وإعادة ترتيب المسانيد والمعاجم، وشروح كتب السنَّة، والأحاديث الضعيفة، وغير ذلك مما لا يدخل تحت الحصر.

وكان من نتيجة ذلك التشجيع على العلم وبناء المدارس وقيام كبار الأساتيذ والأشياخ على التدريس فيها؛ نبوغ العلماء في كل فن، وتوافد

الطلاب وتكاثرهم وإقبالهم الشديد على العلوم والمعرفة، ثم ذلك التراث الضخم من المؤلفات التي ازدانت بها المكتبة الإسلامية في جميع العلوم، وكثرت فيها الكتب الموسوعية أمثال: «صبح الأعشى» للقلقشندي، و«نهارية الأرب» للنويري، و«مسالك الأبصار في ممالك الأمصار» لابن فضل الله العمري، و«لسان العرب» لابن منظور، و«سير أعلام النبلاء» و«تاريخ الإسلام» كلاهما للذهبي، ثم «فتح الباري» للحافظ ابن حجر و«عمدة القاري» للبدر العيني.

وقد تحلى علماء هذا العصر ـ إلَّا من شذَّ ـ بالعمل مع العلم، والتقوى والورع، وقيام الليل، والصيام، وقول الحق، والإصلاح بين الناس، وهذا ظاهر في تراجم أولئك الأفذاذ، خلا نفر قصروا عن ذلك لا يأبه الله بهم، ولن يشوهوا الصورة المشرقة لذلك العصر الزاهر.

هذا استعراض وجيز للعصر الذي عاشه الإمام ابن حجر، والمقام يتسع لكتاب، لكن ما نحن فيه إنما هو إضاءة على الطريق لنترسم طريق وحياة هذا الحبر الكبير، ونتعرف طبيعة المجتمع الذي نشأ فيه فنبغ حتى فاق الأقران والأشياخ.



الفَصْلُ الثَّانِي
أَخْبَارُهُ الشَّخْصِيَّة

اسمه ونسبه ونسبته، ولقبه وكنيته وشهرته[1]:

●● **هـو** أحمد بن علي بن محمـد بن محمد بن علي بن محمـود بن أحمد بن حَجَر[2]، الكِنَـانيّ القبيلة، العسقلاني الأصـل، المصري المـولد والمنشأ والدار والـوفاة، الشـافعي، قاضي القضـاة، شيخ الإسـلام، حافظ الدنيا مطلقاً، أمير المؤمنين في الحديث.

●● **كان يلقب شهاب الدين، ويكنى أبا الفضل**، كنّاه بذلك أبوه كما ذكر هو في «إنباء الغمر» في ترجمة والده فقال: «وأحفظ منـه أنه قـال: كنية ولدي أحمد: أبو الفضل»[3].

وكنـاه شيخه العـراقي «أبا العبـاس»، وكـذا كنـاه غيـره. وكنـاه آخـر «أبا جعفر» وهـو شذوذ. ولكن كنيتـه «بأبـي الفضـل» هي التي اشتهر بهـا، وأصبحت لصيقة باسمه عندما ترجم نفسه أو ترجمه غيره. ويبدو أنها كـانت

---

(١) الجـواهر والـدرر: ص ٤٦ ــ ٥٠؛ طبقات الحفـاظ للسيـوطي: ص ٥٥٢؛ ذيـول تذكرة الحفاظ ص ٣٢٦؛ حسن المحاضـرة: ١/٣٦٣؛ معجم المؤلفين: ٢/٢٠؛ البـدر الطالـع: ١/٨٧؛ شذرات الـذهب: ٧/٢٧٠؛ تبصير المنتبـه: ٤/١٥١٤، ١٥١٥؛ الـرسـالـة المستـطرفـة: ص ١٦٢؛ نـظم العقيـان: ص ٤٥؛ ابن حجـر مؤرخاً: ص ١٣ ــ ١٥؛ إتحاف القاري: ص ٧٢.

(٢) وهناك أقوال أخرى وتفصيلات لا يترتب عليها كبير فائدة، فلا نشغـل القارىء بهـا، والذي أثبتناه هو ما رجحه السخاوي في «الجواهر والدرر».

(٣) إنباء الغمر: ١/١٧٥.

محببة إليه، حتى إنه ألف كتاباً سمّاه: «القصد الأحمد بمن كنيته أبو الفضل واسمه أحمد».

●● **وأما نسبته «الكِنَانيّ»**: فنسبة إلى قبيلة كنانة، فهو عربي صليبة. **وأما العَسْقَلَانِيّ**: فنسبة إلى مدينة «عَسْقلان»، ومنها أصل أجداده، وهي تقع بساحل الشام من فلسطين، نقلهم منها صلاح الدين الأيوبي ـ إلى مصر ـ لمّا خرّبها بعد أن رأى المصلحة في ذلك؛ لعجز المسلمين عن حفظها من الفرنج[1].

ويزاد في نسبته: المصري ثم القاهري، لأنه ولد بمصر العتيقة، ثم انتقل إلى القاهرة:

أصلٌ تَفَجَّر نهرُه من عَسْقَلا — نَ وفرعُه روَّى أراضيَ مِصْرِه[2]

●● **وأما شهرته «بابن حَجَر»**: فقد قال السخاوي: «اختلف: هل هو اسم أو لقب؟ فقيل: هو لقب «لأحمد» الأعلى في نسبه، وقيل: بل هو اسم لوالد أحمد المشار إليه، وقد أشار إلى ذلك صاحب الترجمة في جواب استدعاء منظوم بقوله:

من أحمد بن علي بن محمد — بن محمد بن علي الكناني المحتدِ
ولجدّ جدّ أبيه أحمد لقّبوا — حَجَراً وقيل بل اسم والد أحمدِ

وقد رجح السخاوي في «الضوء اللامع» أنه لقب لبعض آبائه، وجزم به الشوكاني قائلاً: «المعروف بابن حجر، وهو لقب لبعض آبائه».

وأما ما ذهب إليه ابن تغري بردي وابن العماد الحنبلي وتبعهما الكتاني من أن «ابن حجر نسبة إلى «آل حجر» قوم تسكن الجنوب الآخِر

---

(١) وقد وُضِعَتْ فيها المعاولُ فجر ليلة الخميس تاسع عشر من شعبان سنة ٥٨٧هـ.

(٢) من قصيدة للحافظ أبي النعيم رضوان بن محمد العقبي، وهو مُسْتَمْلي الحافظ ابن حجر. الجواهر والدرر: ص ٣٨١.

على بلاد الجريد وأرضهم قابس»؛ فهو قول يعوزه الدليل، بل قام الدليل بخلافه، فالحافظ ابن حجر من «قبيلة كنانة» كما نصّ هو على ذلك في ترجمة نفسه، وترجمة أبيه وعمّ أبيه، وكذلك ذكره أعرف الناس به وهو تلميذه السخاوي، وكل من ترجم له أيضاً.

أسلافه وإخوانه[1]:

ابن حجر سليل بيت علم ومآثر، ومكرمات وفضائل، ورث العلم والمجد والأخلاق كابراً عن كابر، فمنذ ولادته غمرته بحار علم ذويه، وتفتحت عيناه على مجد مؤثّل؛ فحمل الراية وتابع الطريق، مسجّلاً لآل حَجَر طارفاً سما على التالد:

حدِّث بما شئتَ عن قومٍ حفظتَ لهم
قديمَ عهدٍ فعاشوا بعدما ماتُوا
إنّ الكرامَ إذا ولَّتْ أصولُهُمُ
تَلِي الفروعُ وتتلوها الكراماتُ[2]

ولقد عبر خليل بن أحمد بن الغرس عن عراقة أسرة ابن حجر، ونبوغهم في العلم، وتقدمهم في المجد والسيادة والشرف، مع النسب الرفيع والسخاء والمكارم؛ فقال[3]:

ويا مَنْ نشا في ذروة المجد يافِعاً
له نسب يعلو على شاهق السُّحبِ
بنو حجر لا يدرك الضدُّ شأوَهم
وليس ذرى الأعلام في الوضع كالهضبِ

---

(١) انظر بالتفصيل: الجواهر والدرر: ص ٥٠ ــ ٦١؛ تبصير المنتبه: ١/٤١٤ ــ ٤١٥؛ شذرات الذهب: ٦/٢٥٢ ــ ٢٥٣، و٦/٣٥٤؛ إنباء الغمر: ١/١٧٤ ــ ١٧٥، ٣/٣٠٢؛ معجم المؤلفين: ٧/٢٢٩؛ ابن حجر مؤرخاً: ص ١٦ ــ ٢٠.

(٢) من قصيدة طويلة لأحمد بن عمر التروجي، ممن تتلمذ على ابن حجر. الجواهر والدرر: ص ٣٣٩.

(٣) الجواهر والدرر: ص ٣٧٨ ــ ٣٧٩.

تفجَّـر منـه أبحُـر العلمِ والعَـطَا — وكم سبقوا من ذي كمال وندى لُبِّ
وإن أمـطر العـافين نَـوْءُ سحـابهم — يعيشـون دهـراً بـالفـواكـه والأَبِّ
أُنـاسٌ إلى أوج الفخـار تسـابقـوا — فـأحبِبْ بهم من سـادة قـادة نُجْبِ
وجوههمُ في ظلمةِ المَحْلِ أشرقتْ — وهمْ في المعالي من صميم ومن صُلْبِ

ويقـول العلامـة فخر الأدبـاء شمس الدين بن حسن النـواجي يمـدح ابن حجر[1]:

لله درُّك مـن سـليـلِ مـآثـرٍ — بـأثيل مَحْمَـدهِ العُـلا تتشـرفُ
شَـهـمٌ أبـيٌّ حـامـدٌ مـتـفـضـلٌ — نَـدْبٌ وفـيٌّ زاهـدٌ مـتـعـفِّـفُ
ورثَ السيـادةَ لا أقـولُ كَـلالَـةً — بـل ذاك مجـدٌ عن أبيـه مخلفُ

●● **فعم والـده فخـر الـدين عثمـان بن محمـد الكنـاني المصـري الشـافعي**: «يعـرف بـابن البـزَّاز ــ بمنقـوطتين ــ وبـابن حجـر، سكن ثغـر الإسكندرية، وانتهت إليه رئاسـة الإفتاء في مـذهب الشافعي هنـاك». ذكره العفيف المَـطري في «ذيل طبقـات الفقهاء» وقـال: «العـلامـة فخـر الـدين أبو عمرو، كان مفتي الثغر، وفقيه الشافعيـة في زمانـه، وكان بحـاثاً نقـالاً، مـات سنة أربـع عشرة وسبعمـائة. تفقـه عليه جمـاعـة منهم: الـدمنهـوري وابن الكويك. وابنه ناصر الدين أحمد كان فاضلاً».

وله ابن آخر هو زين الدين محمد، وكلا الابنين كان فقيهاً.

●● **وأما جده قطب الدين محمد بن ناصر الدين فقد ترجمـه الحافظ ابن حجر فقال**:

«قرأت بخط المحدث نور الدين الهمذاني: توفي العدل قطب الدين

---

(١) المرجع السابق: ص ٤٣٧.

محمد بن ناصر الدين محمد بن جلال الدين علي العسقلاني، ابن البزاز، عُرف بابن حجر ــ بفتح الحاء المهملة والجيم ــ يوم الخميس السابع عشر من ذي الحجة سنة إحدى وأربعين وسبعمائة، سمع من جماعة من مشايخنا، وأجاز له أبو الفضل ابن عساكر وابن القواس وغيرهما».

«وأنجب أولاداً منهم: كمال الدين، وجمال الدين، ومجد الدين، وتقي الدين، وولي الدين، ونور الدين وهو أصغرهم».

●● وأما أبوه نور الدين:

فقد ذكره ابنه فقال: «كان مولده في حدود العشرين وسبعمائة، سمع من أبي الفتح بن سيد الناس وطبقته، وتعانى ــ من بين أخوته ــ بالاشتغال بالعلم؛ فمهر في الفقه والعربية والأدب، وقال الشعر فأجاد، ووقَّع في الحكم، وناب قليلاً عن ابن عقيل، ثم تركه لجفاء ناله من ابن جماعة لما جاء بعد صرف ابن عقيل، من أجل تحققه بصحبة ابن عقيل.

وأقبل على شأنه، وأكثر الحج والمجاورة، وله عدة دواوين منها «ديوان الحَرم»، مدائح نبوية ومكية، في مجلدة. وكان موصوفاً بالعقل والمعرفة، والديانة والأمانة، ومكارم الأخلاق، ومحبة الصالحين، والمبالغة في تعظيمهم. ومن محفوظاته «الحاوي»، وله استدراك على «الأذكار» للنووي، فيه مباحث حسنة. وكان ابن عقيل يحبه ويعظمه، ورأيت خطه له بالثناء البالغ».

ثم قال: «**كان يحفظ الحاوي الصغير، وينظم الشعر، وكان مجازاً بالفتوى، وبالقراءات السبع، حافظاً لكتاب الله تعالى، معتقداً في الصالحين وأهل الخير، جعله الله تعالى منهم**».

وكان قد أوصى أن يكفَّن في ثياب الشيخ يحيى الصنافيري. قال: ففعلنا به ذلك. وهو القائل ومن خطه نقلت:

يـا ربَّ أعضـاء السجـود عتقتهـا	من فضلك الـوافي[1] وأنت الواقي
والعتق يسـري بـالغِنى يـاذا الغنى	فـامنُنْ عَلَى الفـاني بعتق البـاقي

مـات في يوم الأربعـاء ثالث عشـرين شهـر رجب سنـة سبـع وسبعين وسبعمائة، وتركني ولم أكمل أربـع سنين، وأنا الآن أعقله، كـالذي يتخيـل الشيء ولا يتحققه، وأحفظ منه أنـه قال: كنيـة ولدي أحمـد: أبو الفضـل. رحمه الله تعالى».

ومن نظمه الفائق قوله في «واقعة الإسكندرية»[2]:

أيّ خـطبٍ أورث الـجفـنَ سهَـرْ	وكـوى الـقـلب بـنـار وضَـرَرْ
كلمـا قيـل انْـطَفَتْ نـارُ الأسى	زادَ فـي الأحشـاءِ لـلحيـن شـررْ
أيهـا السـائـل عمّـا قـد جـرى	أَفـتَـرْضـى عـن عِـيـان بـخـبـرْ
نـطق الـجـامـدُ من عبـرتـنـا	بـلسـانِ الحـال والـثغـر عَـبَـرْ
نـفـذ الأمـر فـلا رَدَّ لـه	كـلّ شـيءٍ بـقـضـاءٍ وقـدَرْ
حصلتْ في الثَّغـرِ إذ هي فـتنـة	صيّـرت مـا تبصـر العيـن أثـرْ
لـو ترى الأطفـال لمـا أُسـروا	وبـنـو الأصفـر في سـوْءِ ظَفَـرْ
طَـرَقـوا الثغـرَ لعشـرينَ انقضتْ	وثـلاث جئـن مـن قبـل صـفَـرْ
عـام سبـع بعـد ستيـن ولـم	يـك فـيهـا مثلهـا منـذ عَمَـرْ
يـا لهـا من جمعـة[3] قـد فـرّقتْ	بين أحبـابٍ فلم يُـغْنِ الـحـذَرْ

إلى أن قال:

إن قَـتْـلاَنـا لَفِـي بُـردِ الـرّضى	بـيـن جـنّـاتٍ وحـورٍ ونَـهَـرْ

---

(١) وأوردهـا الحافظ في «الفتح»: ١١/٤٥٧، وفيه: «من عبدك الجاني»، وكذا في «إنباء الغمر». والذي أثبتناه من الجواهر والدرر: ص ٥٢.

(٢) كانت سنة (٧٦٧هـ) حيث هاجم القبارصةُ الإسكندريـة، وكانت الغلبـة لهم. انظر الجواهر والدرر: ص ٥٦ ــ ٥٧.

(٣) يشير إلى يوم الجمعة الذي حدثت فيه الوقعة.

عنـد ربّ العـرشِ فـي مقعــده وقـتيــل الــروم فـي حــرٍّ سَقَــرْ

ومع حرصه على العلم فقد كان تاجراً، ومن شعره في المتجر قوله:

إســكــنــدريــة كــم ذا يــســمــو قــمــاشــك عــزّا
فــطــمــت نــفــسـي عــنــهــا فــلــســت أطــلــب بــزّا

وقد جمع إلى ذلك الأمانة والتقوى والورع، حتى لقد نعى على تـاجر تزلّف إلى السلطان فأهداه فيلاً، فقال فيه:

أيـا بائـع المنقـول صـرت مقـامـراً غُلبت فـلا تكثر من القـال والقيـلِ
وكيـدك في تضليـلِ نفسـك واقـعُ من الرُّخ بالشامات يا صاحب الفيلِ

ولقد أثنى عليه كبار العلماء والأئمة، حتى وصفه الحافظ العراقي بأنه «الشيخ الإمام الأوحد، مفتي المسلمين»[1].

ووصفـه العلامـة الفقيه بـرهان الـدين إبراهيم الأبْنـاسِي بـأنـه صـدر المدرسين، فقال ــ وهـو يثني على الحافظ ابن حجـر ــ : «الإمام العـلامة المحدث المتقن المحقق الشيخ شهاب الدين أبـو الفضل أحمـد ابن الشيخ الإمـام العـالم صـدر المـدرسين مفتي المسلمين أبـي الحسن علي الشهيـر بابن حجر، نور الدين الشافعي»[2].

●● وتـزوج نـور الــدين ــ والـد ابن حجــر ــ من امـرأة ثيب هي نِجَار[3] **ابنة الفخـر أبـي بكر بن الشمس محمـد بن إبراهيم الـزفتاوي**[4]**،** أخت صلاح الدين أحمد الزفتاوي التاجر الكارمي. فولدت لـه وهو بـطريق

(١) الجواهر والدرر: ص ٢١٠.
(٢) المرجع السابق: ص ٢٠٥.
(٣) النجـار: الأصل والحسب. وقـد سمّاهـا بعض من ترجم لابن حجـر «تجار» بـالتاء المثناة؛ وهو تصحيف.
(٤) بكسر أوله نسبة لبُليدة من بحري الفسطاط، على ما ذكره السخاوي.

الحجاز ــ في رجب سنة ٧٧٠هـ ــ بنتاً سمّاها «ست الركب» وذلك من تمام المناسبة، وابناً هو إمامنا الذي نترجم له.

ولكن المنية وافت الوالد وابناه لا يزالان طفلين، فابن حجر لم يكمل السنة الرابعة من عمره، وأتمت أخته سبع سنوات.

وكانت أمهما «نجار» قد سبقت أباهما بمدة إلى جوار ربها، فعاشا يتيمين.

●● **وأخته ست الرَّكب هذه**: كانت أكبر منه بثلاث سنين، وقد كان والدهما نور الدين قائماً على تنشئتهما التنشئة الصالحة الطاهرة، التقية النقية، حريصاً على إحضارهما مجالس العلم والأخذ عن كبار العلماء منذ الصغر.

فقد اصطحب ابنته وابنه ــ ست الركب وابن حجر ــ قبل موته للحج والمجاورة بمكة والقدس والخليل، وأوصى بولده إلى «الزكي الخروبي» و«شمس الدين بن القطان»[1]، وترك لهما ثروة طيبة جيدة تعينهم على العيش حياة كريمة، بقيت في معظمها حتى بلغ ابن حجر رشده.

أما «ست الركب» فيحدثنا أخوها عن عناية أبيها بتعليمها، وما بلغته من ذلك، فيقول: «وأجاز لها في السنة التي تليها[2] أبوها، ومن مكة ابن عبد المعطي، ومن المدينة نور الدين الزَّرْندي، ومن المجاورين الكرماني شارح البخاري، ومن حلب محمد والحسين ابنا عمر بن حبيب، ومن دمشق محمد بن أحمد ابن خطيب المِزَّة، والتقي بن رافع، ومن بعلبك العماد بن نردس، ومن تونس شمس الدين بن مرزوق، ومن مصر الحافظ زين الدين العراقي، وأبو الفرج بن الشِّحنة، وصلاح الدين بن مسعود، وآخرون.

---

(١) وسيأتي تفصيل ذلك.

(٢) أي السنة التي تلي ولادتها.

ومـات أبوهـا وهي صغيرة، فنشـأت نشـأة حسنـة، وتعلمت الحفظ، وحفظت الكثير من القـرآن، وأكثرت من مـطالعة الكتب؛ فمهـرت في ذلك جـداً، بحيث كـان يـظن من يـراهـا تقـرأ من الكتـاب أنهـا تحفـظه لجـودة استخراجها! ثم تزوجت وهي صغيرة، وولد لها محمـد، فوافق مـا كناهـا به أبوها»[1].

وكـان قـد تـزوج ستَّ الـركب شمسُ الـدين محمـد بن الســراج بن عبد العزيز الخروبـي، واستولدها صلاح الدين محمداً وفَوْزاً. وأجاز لهمـا بعناية خالهما ــ ابن حجر ــ جماعةٌ.

ومات صلاح الدين قديماً. وأما البنت ــ وهي فوز ــ فقد سافرت إلى الحجاز صحبة زوجهـا، فاختـلّ عقلها بمكـة، واستمرت تهـذي في الكلام جـداً، لكنهـا تستحضـر أوقـات الصلوات والعبـادات، فتؤديهـا أداءً حسنـاً للغاية. وماتت قرب (٨٥٠هـ)، وصلى عليها خالها.

وقد اعتنت ست الركب بأخيها ــ ابن حجر ــ حتى قال فيهـا: «وهي أمي بعد أمي». فأخذ منها مكارم الأخلاق، والصـلاح والتقوى، كمـا انتفع بـآدابها، فبقي يحمـل لها كـل الإجلال والتقـدير والاحتـرام، وأثنى عليهـا فقال:

«وكانت بـي برَّة، رفيقة محسنة، جـزاها الله تعـالى عني خيراً، فلقـد انتفعت بها وبآدابها مع صغر سنها»[2].

ووصفهـا في موضـع آخر قـائلاً: «كـانت قارئـة كاتبـة، أعجوبـة في الـذكـاء، وهي أمي بعـد أمي، أُصبت بهـا في جمـادى الآخـرة من هــذه السنة»[3].

---

(١) و(٢) الجواهر والدرر: ص ٥٨.

(٣) إنباء الغمر: ٣/٣٠٢؛ شذرات الذهب: ٦/٣٥٤.

ويظهر من عبارته الأخيرة تفجعه بموتها، ويذكر وفاتها فيقول: «وماتت شابة في جمادى الآخرة سنة ثمان وتسعين وسبعمائة، عوّضها الله تعالى وإيانا الجنة بمنّه وكرمه»[1].

وقد رثاها في «ديوانه» بمرثية منها[2]:

بكيتُ على تلكَ الشمائلِ غالَها كثيفُ الثَّرى بعد التنعّم واللُّطفِ

بكيتُ على حلمٍ وعلمٍ وعفّةٍ يقارن مع عزّ الهدى هزة الطرْفِ

بكيتُ على الغصنِ الذي اجتُثَّ أصلُه

ولم أجنِ من أزهاره ثمرَ القطفِ

فقدتُ بكِ الأهلينَ قربى وألفةً فأقسمتُ مالي بَعْدَ بُعْدكِ من إلفِ

●● وكان لابن حجر أخ من أبيه، تحدث عنه فقال: «كان لي أخ من أبي، فقرأ الفقه، وفضل، وعرض «المنهاج»، ثم أدركته الوفاة، فحزن الوالد عليه جداً»[3].

كما كان له أخ من أمه اسمه «عبد الرحمن بن الشهاب أحمد بن محمد بن محمد بن عبد المهيمن البكري»، وصفه ابن حجر بأنه: «مهر وحصّل مالاً أصله من قبل أمه، وهي والدتي، فقدّر الله تعالى موته، فورثه أبوه ـ وكان الأب داعية لمقالة ابن العربي ـ فمزق ذلك مع غيره»[4].

* * *

ولادته، وبشارة أبيه به، وزوجاته وأولاده وأحفاده، ومصدر

---

(١) الجواهر والدرر: ص ٥٩.

(٢) المرجع السابق: ص ٥٩، حاشية. وكذا رثاها الأديب البدر البشتكي أحد شيوخ ابن حجر.

(٣) المرجع السابق: ص ٤٩، ٥٨.

(٤) المرجع السابق: ص ٦٠.

رزقه(١):

●● ولادته:

في تلك الأسرة الماجدة العريقة، المتألقة في العلم والحسب والمآثر والمكارم، ولد إمامنا ابن حجر، فزاد عَرْفها طيباً، وحوّل بحر علمها إلى محيط متلاطم الأمواج، فكان في أسرته كألمع درة في التاج.

وحازَ سهامَ الفضلِ من حيث قد غَدا ... قديماً إلى أعلى كِنَانَةَ يُنْسَبُ
أبو الفضل لا ينفكُّ بالفضلِ مُغْرَماً ... ولا عجب أن يعتني بابْنِهِ الأبُ
بنو حَجَرٍ بيتُ عليٍّ وأحمدُ ... له كعبةٌ حَجُّوا لها وتقرَّبُوا
تحلّتْ به الأيامُ فانظرْ تَرَ الضّحى ... يُفَضَّض منها والأصيلَ يُذَهَّبُ
له راحة لو جارتِ الغيثَ في النَّدى ... تقطَّرَ في آثارِها وهو مُتْعَبُ
ألم ترَ أنّ السُّحْبَ أمستْ من الحيا ... إذا ما بدا منه النّدى يَتَسَحَّبُ(٢)

ولد الإمام في الثاني والعشرين من شعبان سنة (٧٧٣هـ) كما نص على ذلك ابن حجر نفسه في جواب على سؤال تلميذه ابن تغري بردي له؛ إذ يقول: «سألته عن مولده؟ قال: في ثاني عشرين شعبان سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة»(٣).

وذكر السخاوي مثله، فقال: «وأما مولده فهو في الثاني والعشرين من

(١) الجواهر والدرر: ص ٤٩، ٦١، ١٣٣، ١٣٤، ٤٢٥ ـ ٤٢٩، ٤٣٠ ـ ٤٣٤، ٤٦٥؛ نظم العقيان: ص ١٧٩؛ البدر الطالع: ٢/٣٥٤ ـ ٣٥٥؛ معجم المؤلفين: ٨/٢٩٥، ١٣/٣٠٤؛ الرسالة المستطرفة: ٢١٦؛ الأعلام: ٨/٢٣٤؛ ابن حجر مؤرخاً: ص ١٤ ـ ١٥، ١٩، ٨٠ ـ ٨٨؛ تغليق التعليق: ١/٥٧ ـ ٥٨، ٧١ ـ ٧٢.
(٢) من قصيدة طويلة للعلامة البارع الشهاب أحمد بن محمد الإشليمي، ممن أخذ عن ابن حجر. الجواهر والدرر: ص ٣٤٦.
(٣) الدليل الشافي: ١/٦٤.

شعبان سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة، على شاطىء النيل بمصر. والمنزل الذي ولد فيه بمصر معروف، استمر في ملك شيخنا، ثم بيع بعده، وهو بالقرب من دار النحاس[1] والجامع الجديد. وانتقل منها إلى القاهرة قبل القرن[2] حين تزوج بأم أولاده، فسكن بقاعة منكوتمر جدّ أبي أمها، المجاورة لمدرسته داخل باب القنطرة، بالقرب من حارة بهاء الدين، واستمر بها حتى مات»[3].

وقد أرَّخ ابن حجر مولده ببيت من الشعر قال فيه:

شعبانُ عامَ ثلاثةٍ من بَعْدِ سَبْـ ـعِ مائةٍ وسَبْعينَ اتفاقُ المولدِ

---

(١) اختطها وردان الرومي مولى عمرو بن العاص، ثم جعلت ديواناً في إمارة مسلمة بن مخلد.

(٢) أي التاسع الهجري.

(٣) انظر: الدليل الشافي: ١/٦٤؛ والجواهر والدرر: ص ٤٩. وقد ذكرت بعض المصادر تاريخ ولادته «في ثاني عشر شعبان» ولعل الياء في «عشر» سقطت، والمقصود «ثاني عشري». وفي لحظ الألحاظ «ثالث عشري» وأحسب أن «ثالث» تحرفت عن «ثاني». وبعض المصادر حذفت يوم الولادة، وبعضها حذف اليوم والشهر، ولا ضير في هذا لأنه على سبيل الاختصار. وقد أطال الدكتور محمد كمال الدين ــ في كتابه: «ابن حجر مؤرخاً»: ص ١٤ ــ الكلام في هذا، وقال بأن الآراء في هذا متضاربة، وليس كما قال؛ فما نقله ابن تغري بردي نص لا يقبل التأويل، ثم الذين قالوا في «ثاني عشري شعبان» هم الأكثر ــ وبعضهم تلامذة ابن حجر ــ فقد ذكره ابن تغري بردي في ثلاثة كتب له، والسخاوي في كتابين، وابن خطيب الناصرية، وابن طولون، وابن العماد. وقد أخطأ الدكتور النقل عن ابن العماد بأنه أرخ الولادة في «الثاني عشر» والذي في الشذرات هكذا: «ولد في ثاني عشري شعبان سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة»: ٧/٢٧٠. كما أخطأ في النقل عن البدر الطالع للشوكاني، بأنه ولد «الثاني من شعبان»، فالذي فيه «ولد في ثاني عشر شعبان سنة ٧٧٣هـ»: ١/٨٨. والله أعلم.

●● بشارة أبيه به:

وقد بشّر أباه به أحدُ الصالحين، وهو الشيخ يحيى الصَّنافيري[1] ـ وكانت له كرامات ومكاشفات ـ ذكر ذلك ابن حجر في معرض ترجمته للشيخ المذكور في «الدرر الكامنة» فقال:

«كان لي أخ من أبي، فقرأ الفقه وفضل، وعرض «المنهاج»، ثم أدركَتْهُ الوفاة؛ فحزن الوالد عليه جداً. فيقال إنه حضر إلى الشيخ يحيى الصنافيري، فبشّره بأن الله تعالى سيخلف عليه غيره، ويعمّره، أو نحو ذلك. فولدت أنا بعد ذلك بيسير، وفتح الله تعالى بما فتح! وكانت مكاشفاته قد كثرت حتى صارت في حد التواتر، فإنني لم ألقَ أحداً من المصريين أدركه إلّا ويحكي عنه في هذا الباب ما لا يحكيه الآخر»[2].

وكان والد صاحبنا قبل وفاته أوصى بولده كبير التجار الزكي الخروبي، فقام بأمره أحسن قيام. وكذا أسند وصيته للشيخ شمس الدين ابن القطان؛ لاختصاصه به، رحمهم الله أجمعين[3].

●● زوجاته:

نشأ ابن حجر نشأة طيبة طاهرة صالحة، فلما بلغ خمساً وعشرين سنة تزوج أولى زوجاته **«أنس ابنة القاضي كريم الدين عبد الكريم بن أحمد بن عبد العزيز ناظر الجيش»** في شعبان سنة (٧٩٨هـ)[4]، بإشارة وصِيِّه العلّامة ابن القطان. وهي من أسرة معروفة بالرئاسة والحشمة والعلم.

فاعتنى بها، وأسمعها الحديث المسلسل بالأولية[5] على شيخه حافظ

---

(١) نسبة إلى صنافير، من أعمال القليوبية.

(٢) الجواهر والدرر: ص ٤٩.

(٣) المرجع السابق: ص ٦١.

(٤) إنباء الغمر: ٣/٢٩٤، ٥/٢٤٧، ٩/٢٤٠.

(٥) انظر تعريفه في: شرح نخبة الفكر: ص ١٣٤؛ قواعد التحديث: ص ١٢٧.

العصر «الزين العراقي»، وكذا أسمعها إياه من لفظ العلاّمة «الشرف ابن الكُوَيْك». وحصل لها جملة من الإجازات باستدعاءات عدد من الحفاظ والمسنِدين، منهم: أبو الخير ابن الحافظ العَلائيّ، وأبو هريرة عبد الرحمن ابن الحافظ الذهبي، وغيرهما من المصريين والشاميين والمكِّيين واليمنيين.

واستصحبها ابن حجر معه إلى الحج سنة (٨١٥هـ)، وأذن لها بعد ذلك في الحج سنة (٨٣٤هـ)، فحجت بمفردها، وجاورت ومعها سبطها وهو صغير.

ولمع نجمها ونبغت حتى قصدها الأفاضل للقراءة عليها، ويشير السخاوي إلى أنها حدثت بحضور زوجها وبعده، وقرأ عليها الفضلاء «فكان يقرأ عليها العلاّمة ابن خضر صحيح البخاري في رجب وشعبان من كل سنة! ومن بعده سبطها. وفي يوم الختم تحتفل بأنواع الحلوى والفاكهة وغيرها، ويهرع الكبار والصغار لحضور هذا اليوم ـ وهو قبل رمضان ـ بين يدي زوجها».

حتى إن السخاوي قد خرَّج لها «أربعين حديثاً عن أربعين شيخاً» قراءة عليها بحضور زوجها، بعد أن أسلف ابن حجر لها بالإعلام بذلك قائلاً على سبيل المداعبة: «قد صرت شيخة»!

وأنجبت له خمس بنات، هن «زين خاتون»، و «فرحة»، و «غالية»، و «رابعة»، و «فاطمة»، ولم تلد ولداً ذكراً.

وكان الإمام كثير التبجيل والتعظيم لها، وكانت هي عظيمة الرغبة فيه. ولم تزل بعده على جلالها وتصوُّنها وتعفُّفها واصطبارها على المصائب، لم يضبط لها هفوة ولا زلَّة، ولقد مات كل أولادها بين يديها فتصبَّرت واحتسبت إلى أن ماتت سنة (٨٦٧هـ). وكانت قبل قد وقفت ما بقي من أملاكها ورزقها على سبطها وذريته، ووهبت وتصدَّقت بما بقي تحت يديها على من به عوز وحاجة ممن يدخلن عليها من الأهل والعجائز.

وحُقَّ لهذه المرأة الباهرة العالمة الفاضلة أن تنال من زوجها الحافظ الكبير كل الإجلال والاحترام والتقدير.

●● وفي سنة أربع وثمانمائة تزوَّج ابن حجر من «أرملة الزين أبي بكر الأمشاطي»، وأنزلها بقاعة المشيخة البيبرسية، فولدت له في السنة التالية لدخوله بها بنتاً سمّاها «آمنة» التي لم تعش طويلاً فقد ماتت في شوال سنة (٨٣٦هـ)، وبموتها طلقت أمها، فإنه كان علق طلاقها عند سفره إلى «آمِد» على موتها.

●● وتزوج «ليلى ابنة محمود بن طوعان الحلبية» عندما سافر مع الأشرف برسباي إلى «آمد» سنة (٨٣٦هـ)، وكانت ثيباً ذات ولدَيْن بالغَيْن، واستمرت معه إلى أن سافر من حلب، ففارقها دون أن يُعلمها بالطلاق، وإنما أسرَّه لبعض خواصه، ملتمساً منه أن لا يعلمها بذلك إلَّا بعد مضيِّ المدة، وكان قد عجل لها النفقة.

وإنما فعل ذلك لأنه لم يتيسر له أن ترحل معه، وحتى لا يشعرها بوحشة مفارقة الأهل والوطن، وقد عبَّر عن ذلك بأبيات رقيقة قال فيها:

رحلتُ وخلَّفتُ الحبيبَ بدارِهِ   برغمي ولم أَجْنَح إلى غيره مَيْلا
أُشاغل نفسي بالحديثِ تعلُّلاً   نهارِي، وفي ليلي أحِنُّ إلى لَيْلى[1]

لذا نراه وقد وجد منها رغبة قوية فيه، يرسل إلى بعض الحلبيين من أخصّائه في تجهيزها له إن اختارت، وإعلامها بالحامل على تطليقها، واعداً إياها بكل جميل، فهي إن قدمت عليه «لا يكون عنده أعز منها، وينزلها أحسن المنازل، ويعوضها عن كل شيء من الفرش والأمتعة، ولا يحوجها إلى شيء»، ووصفها بقوله: «نِعمَ المرأة عقلاً، وحسن خَلْق وخُلُق».

---

(١) الجواهر والدرر: ص ١١٣. ومما يُنسب إليه في هذا المعنى:

قفْ واستمعْ طرباً فلَيْلَى في الدُّجا   باتتْ معانِقتي ولكنْ في الكَرَى
وَجَرى لدمعي رقصةٌ بخيالِها   أَترى دَرَى ذاكَ الرقيبُ بما جَرَى

فاسترقَّ قلبها، فأجابته، وقدمت «مصر» فاستعادها بعد أن أنزلها بقاعة المشيخة البيبرسية، واحتفل بشأنها.

واستمرت في عصمته حتى سافرت إلى حلب في زيارة أهلها في شوال سنة (٨٤١هـ) ففارقها بعد أن أكملت في عصمته خمس سنين[1]. ثم عادت في رجب من السنة التي تليها، فأعادها إلى عصمته، وبقيت عنده حتى مات وورثته. ولم يرزق منها الولد، وتأخرت بعده دهراً، فتوفيت في رجب سنة (٨٨١هـ)، وقد قاربت الثمانين.

●● وتمنى ابن حجر أن يُرزق بمولود ذكر، لعله يخلفه في علمه؛ فتبقى السلسلة العلمية الذهبية مستمرة في «بني حجر» لا ينقطع عقدها، وكان لزوجته أم أولاده جارية اسمها «خاص ترك»، فوقع في خاطره التسرّي بها، وأراد ألَّا يُشعر زوجته بذلك مراعاة لخاطرها. فاقتضى رأيه أن أظهر تغيظاً على الجارية المذكورة، لتقصيرها ببعض الخدمة، وحلف أنها لا تقيم بمنزله، فأسرعت زوجته إلى بيعها، وأرسل هو الشيخَ شمسَ الدين ابن الضياء الحنبلي فاشتراها له بطريق الوكالة، وأَقامت ببعض الأماكن حتى استبرأها، ثم وطئها؛ فحملت له بولده «القاضي بدر الدين أبي المعالي محمد»، وكان مولده في ثامن عشر صفر سنة (٨١٥هـ). وفي اليوم السابع استدعى الطلبة ونحوهم إلى منزل أم أولاده، وعمل لهم شواء، فكانت العقيقة عندها وهي لا تشعر! حتى بلغها الخبر قبل انفصال الولد عن الرضاع، فركبت وأمها من فورها إلى المكان الذي كانت به «خاص ترك» وابنها، وأحضرتهما معها إلى منزلها، فتركتهما ببعض المنازل، إلى أن حضر الإمام ابن حجر ـ وليس عنده شعور بما وقع ـ فاستخبرته عن ذلك، فما اعترف ولا أنكر، فقامت وأحضرت الولد وأمه، فسقط في يده!!

---

(١) إنباء الغمر: ٩/٩؛ ابن حجر مؤرخاً: ص ٨٢ ـ ٨٣.

ولم تــزل بـه حتى نــزل عنهـا لمن تــزوجهـا بعــده، رحمهم الله تعــالى أجمعين[1].

أولاده:

رزق الله سبحانه الإمامَ ابن حجر ستـاً من البنات وذكـراً واحداً، وقـد شاء الله أن يعلي درجة عالمنا هذا بمنحه البنات، لما ثبت عنه ﷺ أنه قـال: «من ابْتُلِي من هذهِ البناتِ بشيءٍ، فأحسنَ إليهنَّ؛ كُنَّ له سِتْراً من النار»[2]. وقـال: «مَنْ عـالَ جـاريتين حتى تبلغـا، جـاء يـوم القيـامـة أنـا وهـو» وضمَّ أصابعه[3].

ولقد قام هـذا العالم الكبيـر والأب الشفيق بشؤون أولاده حق القيام، وحرص على تربيتهم تربية صالحة، وإسماعهم العلم منه ومن كبار معاصريه وأشياخِه، وحصَّل لهم الإجازات في ذلك.

وزاد من بلواه ــ ولعلها خير له في أُخراه إن شـاء الله تعالى ــ أن فَقَـدَ بنـاته الست واحـدة تلو الأخرى أمـام عينيه، بـالتوعـك حيناً، وبـالـطاعـون أخرى!

●● أما البكر في أولاده فهي ابنته زين خاتون:

ولدت في رجب سنة (٨٠٢هـ)، واعتنى بهـا أبوهـا، فعلمها القـراءة والكتابة، واستجـاز لها في سنـة مولـدها كثيـراً من علماء دمشق، وأسمعهـا على شيخيــه العــراقي والهيثمـي، ومن الـجــلال ابن خــطيـب داريــا، وابن الكُوَيْك.

وزوَّجها بالأمير «شاهين الكركي» فولدت له عدة أولاد، ماتوا في حياة

---

(١) ابن حجر مؤرخاً: ص ٨٤.

(٢) رواه الـشيـخــان: الفـتــح: ٢٨٣/٣، ٤٢٦/١٠؛ مسـلم: ٢٠٢٧/٤، حــديث رقم ٢٦٢٩.

(٣) رواه مسلم: ٢٠٢٨/٤، حديث رقم ٢٦٣١.

أبيهم، ولم يتأخر منهم غير أبي المحاسن يوسف المعروف «بسبط ابن حجر»[1].

ماتت بالطاعون وهي حامل سنة (٨٣٣هـ)، عن إحدى وثلاثين سنة. قال في «إنباء الغمر»: «ماتت وهي حامل بالطاعون؛ فجُمعت لها شهادتان»[2].

●● وابنته الثانية فرحة:

وكانت ولادتها في الرابع والعشرين من رجب سنة (٨٠٤هـ)، وحصل لها أبوها إجازات في سنة (٨٠٧هـ) فما بعدها، وأسمعها من «ابن الكويك» وغيره.

وفي سنة (٨١٨هـ) تزوجها محب الدين بن الأشقر[3]، وأنجبت ولداً، مات صغيراً في حياة والديه. توفيت في ربيع الآخر سنة (٨٢٨هـ)، بعد أن حجت في العام الذي قبله مع زوجها، ورجعت متوعكة حتى ماتت عن ثلاث وعشرين سنة وتسعة أشهر[4].

●● وأما غالية:

فكان مولدها في ذي القعدة سنة (٨٠٧هـ)، وأُجيز لها من جماعة. ماتت ــ مع أختها فاطمة الآتية ــ بالطاعون في ربيع الأول سنة (٨١٩هـ)[5] مع بعض عمال أبيها. ولم تكمل اثنتي عشرة سنة.

●● وابنته الرابعة اسمها رابعة:

ولدت في رجب سنة (٨١١هـ)، وأسمعها والدها في سنة (٨١٥هـ)

---

(١) سيأتي الكلام عنه.

(٢) إنباء الغمر: ٨/٢١٢.

(٣) هو محمد بن عثمان بن سليمان الحنفي، ولّي كتابة السرّ، ونظر الجيش، ومشيخة «خانقاه سرياقوس»، ولد بعد سنة (٧٧٠هـ)، وتوفي سنة (٨٦٣هـ).

(٤) إنباء الغمر: ٨/٨٨.

(٥) إنباء الغمر: ٧/٢٠٦.

على الشيخ زين الدين بن حسين المراغي بمكة، وأجاز لها جمع من الشاميين والمصريين.

تزوجها الشهاب ابن مكنون[1]، ودخل بها وهي بكر بنت خمس عشرة سنة، فولدت منه بنتاً سماها «غالية»، ماتت في حياة أبويها. ومات عنها زوجها في رمضان سنة (٨٢٩هـ)، فتزوجها المحب ابن الأشقر ـ وهو زوج أختها فرحة التي ماتت سنة ٨٢٨هـ ـ واستمرت معه حتى ماتت عنده سنة (٨٣٢هـ)[2].

●● وأما فاطمة:

فقد ولدت في ربيع الآخر سنة (٨١٧هـ)، وأجاز لها جماعة، وماتت وهي طفلة في الطاعون في ربيع الأول سنة (٨١٩هـ).

●● وابنته السادسة هي آمنة:

التي رزق بها من زوجته «أرملة الزين الأمشاطي». ولدت آمنة سنة (٨٣٥هـ)، وماتت طفلة في شوال سنة (٨٣٦هـ).

ولده بدر الدين أبو المعالي محمد:

ولد في الثامن عشر من صفر سنة (٨١٥هـ)، وشغله أبوه ـ قبل كل شيء ـ بحفظ القرآن العظيم؛ فحفظه، وصلّى بالناس ـ على جاري العادة ـ في رمضان سنة (٨٢٦هـ) بالخانقاه الركنية البيبرسية، وهو ابن أحد عشر عاماً.

---

(١) هو شهاب الدين أحمد بن محمد، ولد سنة (٧٧٩هـ) بقطية، ونشأ نشأة حسنة، وحفظ «الحاوي» واشتغل في الفرائض، كما اشتغل في العربية قليلاً، ثم ولي قضاء «قطية» بعد أبيه، ثم قضاء «غزة»، ثم استقر في «دمياط» في غاية الإعزاز والإكرام. وكان كثير الاحتمال، حسن الأخلاق، وصاهر ابن حجر على ابنته «رابعة»، ومات عنها في رمضان سنة (٨٢٩هـ)، وكثر الأسف عليه. انظر: شذرات الذهب: ١٨٨/٧.

(٢) إنباء الغمر: ١٨٢/٨.

وأسمعه والده الحديث على الشهاب الواسطي، والفخر الدندلي، وغيرهما. وأجاز له ــ باستدعاء والده ــ جماعة من المسنِدين منهم: عائشة بنت عبد الهادي، وأبو بكر الحسن المراغي، وغيرهما.

وحرص ابن حجر على أن يتمرس ابنه في الفقه، وينبغ فيه بين أقرانه؛ فألَّف لأجله كتابه القيِّم «بلوغ المرام من أدلة الأحكام».

ولازم الابن مجلس أبيه، وسمع عليه الشيء الكثير، وكتب عنه جملة مستكثرة من مجالس الإملاء. ولما ترعرع وبرع اشتغل بالقيام بأمر القضاء والأوقاف، بعناية أبيه، للدربة والتمرن في المباشرة بها.

وولي في حياة أبيه عدة وظائف، أجلُّها: مشيخة الخانقاه البيبرسية، وتدريس الحديث «بالحسينية» ــ ناب عنه أبوه فيها ــ، والإمامة بجامع ابن طولون.

وحج في حياة أبيه وبعده، وأنشأ عدة أماكن، وحدث بالكثير، وكتب على الاستدعاءات، واشترك مع الحافظ السخاوي في مقابلة بعض تصانيف أبيه. وشرح كتاب أبيه «نخبة الفِكَر» في كتاب سمّاه «نتيجة النظر في شرح نخبة الفكر»، في أصول الحديث.

لكنه لما مات أبوه ما التفت إلى شيء من وظائفه، بل لقد عرضت عليه حسبة القاهرة ومصر فما قَبِل؛ لأن «همته لم تكن منصرفة لشيء من ذلك» كما يقول السخاوي.

مات مبطوناً سنة (٨٦٩هـ) بعد أن قاسى شدائد لبث فيها زيادة على مائة يوم، وترك زوجة وولداً، رحمه الله.

وقد تكلم فيه ابن تغري بردي، وعرَّض به ابن فهد المكي، ولعل ذلك لأنه لم يستمر على سَنَن أبيه في العلم، وفرَّط في تصانيفه. وأنصفه السخاوي فقال: «وكان حسن الشكالة، متكرماً على عياله، قَلَّ أن يكون في معناه من نظرائه مثله». وفي موضع آخر قال: «وكان حسن الشكالة، قوي

النفس، شهماً متكرماً على عياله». لكنه انتقده لتفريطه في مصنفات أبيه، فقال: «لكن ـ عفا الله عنه ـ ضيَّع ما كان أولى به الحرص على بقائه من تصانيف أبيه وغيرها مما كتبه بخطه».

حفيده علي بن محمد بن أحمد ابن حجر:

رزق الله أبا المعالي محمداً ابناً سمّاه «علياً»، وكان مولده في ذي القعدة سنة (٨٣٩هـ)[١]، وأحضر مجلس جده، وتردد إليه بعض الفقهاء للتعليم وغيره.

وأما سبط ابن حجر[٢]:

فهو يوسف بن شاهين الكَرَكي، أبو المحاسن جمال الدين، الفقيه المحدث المؤرخ، من أهل القاهرة.

ولد ليلة الاثنين ثامن ربيع الأول سنة (٨٢٨هـ)، وسمع على جده أبي أمه ـ الحافظ ابن حجر ـ كثيراً، وعلى جماعة من الأعيان، وأمعن في الطلب، ودار على الشيوخ، وكتب «الأجزاء» و«الطباق».

وصنف مصنفات منها: «رونق الألفاظ بمعجم الحفاظ» ذيل على تذكرة الحفاظ للذهبي، و«المنتجب بشرح المنتخب» للعلاء التركماني، في علوم الحديث. و«المجمع النفيس بمعجم أتباع ابن إدريس» في طبقات الشافعية، أربع مجلدات. و«الفوائد الوفية بترتيب طبقات الصوفية»، و«النجوم الزاهرة بأخبار قضاة مصر والقاهرة»، و«منحة الكرام بشرح بلوغ المرام»، وغير ذلك.

ووُلِّي تدريس الحديث «بالبيبرسية» وغيرها عن جده، وولي مشيخة «المزهرية». وقد طار ذكره في الآفاق، وتناقلت مؤلفاته الرفاق.

---

(١) إنباء الغمر: ٨/٣٩٠.

(٢) هو ابن بنته زين خاتون. انظر ترجمته في: نظم العقيان: ص ١٧٩؛ البدر الطالع: ٢/٣٥٤ ـ ٣٥٥؛ الأعلام: ٨/٢٣٤؛ معجم المؤلفين: ١٣/٣٠٤، فهرس الفهارس ٢/١١٣٩ ـ ١١٤١.

ولم ينصفه السخاوي في «الضوء اللامع»، لا لسبب يوجب ذلك، بل لمجرد كونه كان يعترض على جده الحافظ ابن حجر أحياناً، أو يغلط في بعض الأحوال كما هو شأن البشر.

توفي يوم الأربعاء سادس عشري محرم سنة (٨٩٩هـ)، رحمه الله رحمة واسعة.

مصدر رزقه:

ولد ابن حجر لأبوين غنيين، فوالده كان تاجراً في مصر العتيقة، وأمه كانت من عائلة غنية موفورة الثراء، ورث عنها ــ مع أخيه لأمه ــ مالاً وفيراً[١]. كذلك فإنه تعانى المتجر[٢]، وكأنه ورث ذلك عن أبيه.

وفي مثل هذا الثراء الطيب الكريم نشأ الإمام، يعيل أسرته ونفسه من ماله، وينفق في الرحلة وطلب العلم، دونما حاجة لمساعدة أحد من الناس، أو هبة من سلطان، والتي كثيراً ما يكون لها ضغط ثقيل على مواقف العالم، إلَّا من رحم الله، وقليل ما هم!

وعندما تقلَّد المناصب العليَّة والوظائف السنيَّة، التي تقاضى عليها الرواتب المجزية؛ كان ينفق ما يناله منها في وجوه الخير، حتى إنه كان لا يأكل اللحم المرتَّب له على السلطان، بل يشتري ما يأكله من ماله الخاص!

يقول السخاوي: «ولم يتفق له ــ رحمه الله ــ أن تنزَّل طالباً ولا صوفياً في مدرسة ولا غيرها، حتى الخشابية فإنه وإن تنزل فيها بعد موت

---

(١) سبق ذكر ذلك في ترجمة أخيه لأمه عبد الرحمن بن الشهاب أحمد البكري، وأن أخاه مات فورثه أبوه الشهاب الذي مزَّق ذلك المال. انظر: ص ٣٦.

(٢) ذكر ذلك ابن العماد في شذرات الذهب: (٧/ ٢٧٠)، ولعل ذلك كان في بداية حياة الحافظ، إذ إن أيامه المتأخرة لا تسمح بذلك؛ لكثرة أعماله ووظائفه ومناصبه واشتغاله بالعلم والتصنيف.

والـده، فلم يقبض من معلومها شيئـاً، كمـا قـرأتـه بخط بعض أصحـابنـا.
وبلغني مما يؤيد ذلك أن القاضي علم الدين قال للمباشر: ارفَع من الأسماء اسم رجلين: أحـدهمـا يحضـر ولا يـطالب، والآخـر لا يحضِـر ويـطالب.
وحكي ذلك لصاحب التـرجمة[1]، فقـال: أما الأول فهـو أنا، فمن الثـاني؟ فقيل: السفطي».

ويـزيد البقـاعي على ذلك فيقـول عن إمامنـا أنه كـان: «**لا يأكـل من هدايا الإخـوان، ولا من مرتبـات السلطان، وكان في السفـر يُشترى لـه من مـالـه مـا يشتهي من دجـاج وغيـره، وربمـا فني ذلـك في المفـاز، قَبِـل البُقْسَماط[2]، ويأكله بسكر ونحوه، ومن معه يأكلون اللحم المرتب له على السلطان، على السفرة التي يأكل عليها**»[3].

ولما ألَّف المصنفات البـديعة الحسنـة، التي طار ذكـرها في حيـاته، تهـادتها الملوك، وأقبل عليها الأكابر، مما جرَّ عليه نفعاً مادياً طـائلاً، سخَّـر كـل ذلك ــ مع ما عنـده من مـال ــ في ميـدان «التنـزه والتعفف والتحـري والاعتماد على النفس»! حتى لا يقع تحت وطـأة أي شخص كان، السلطان فمن دونه. فعاش ــ رضي الله عنـه وطيَّب ثراه ــ في عـزة المؤمن، وكرامـة العالم الحقّ، الذي يحتفظ بمكانته في العلم، والقدوة الصالحة، والوقفات البـاهرة، فلم يضـطر إلى أن يتـزلف، أو يـداهن، أو يتهـاون في واحـد من المواقف، صغر أم كبر، إذ إن للمال سـطوة، وللعالم إزاءه كبـوة، نجّى الله منهـا إمامنـا ابن حجر، فكـان مثال العـالم العامـل، يقول الحق، لا تـأخذه في الله لومة لائم.

***

(١) يعني ابن حجر.
(٢) اسم لنوع من الخبز، يخبز ويجفف. المعجم الوسيط: ص ٦٥.
(٣) نقلاً عن تغليق التعليق: ١/٧٢؛ وابن حجر مؤرخاً: ص ١٠٣.

الفَصْلُ الثَّالِث
حِلْيَتُهُ وَأَخْلَاقُهُ وَعِبَادَتُهُ

صفاته الخَلْقية والخُلُقية[1]:

اجتمع للإمام الحافظ ابن حجر من الأخلاق الرفيعة، والعلم الباهر النادر، مع حسن الطلعة، وجمال الهيئة، وكرم العشرة؛ ما جعله شامة بين العلماء، وشمساً تألقت منذ الضحى في سماء أشياخه ـ فَذَاعَ صيته، ولهجت الألسن بذكره، فرحلت إليه طلاب العلم وأئمته من الأقطار، وأجمع على الثناء عليه علماء الأمصار.

كان ـ رحمه الله تعالى ـ ربعة للقصر أقرب، أبيض اللون، منوَّر الصورة، مليح الشكل، صبيح الوجه، كثّ اللحية أبيضها، قصير الشارب، حسن الشيبة نيِّرها، صحيح السمع والبصر، ثابت الأسنان نقيَّها، صغير الفم، قوي البنية، عالي الهمة، وفيّ الهامة، نحيف الجسم، فصيح اللسان، شجيّ الصوت، جيد الذكاء، عظيم الحذق، راوية للشعر وأيام من تقدمه ومن عاصره.

وكان خفيف المشية ولو عند إقباله على الملوك، خفيف الوضوء في تمام، سريع عقد النية، بل يعيب على من يتردد فيها، وكذا من يبالغ في

---

(١) انظر: الجواهر والدرر: ص ٨٩، ٩١، ٩٢، ١٠٤ ـ ١٠٦، ١١١، ١١٥، ١٢١، ١٢٩، ٢٣٨، ٢٤٨، ٢٥٠، ٢٥١، ٢٥٢، ٢٦٠، ٢٦٢، ٢٦٤، ٣٢٦ ـ ٣٢٧، ٣٤٣، ٣٩٢، ٤٣٨، ٤٤٢ ـ ٤٤٣، ٤٥٨؛ شذرات الذهب: ٢٧٣/٧؛ ابن حجر مؤرخاً: ص ٤١، ٩٩ ـ ١٠٥؛ تغليق التعليق: ٥٩/١ ـ ٦٠، ٩١، ١٦٨ ـ ١٦٩، ١٧٤؛ القول المسدد: ص ١٤ ـ ١٥، ٣١ ـ ٣٢؛ تبصير المنتبه: ١١/١؛ فتح الباري في مواضع كثيرة نشير إليها في أماكنها.

إخراج الحروف بتقطيع الكلمة. لا يتـأنق في مأكله ومشربـه، ولا في آنيته، ويأكل العُلْقَة[1] من الطعام، واليسير من الغذاء، لكنه كـان يتقوى بـالسكر، ويميل إلى قصب السكر ميلاً قوياً. وكان لا يتأنق في الرفيع من الثياب، مـع بصر جيد في تفضيل ملبسه، خبيراً بأمور دينه ودنيـاه، قصير الثيـاب، حسن العمَّة، ظريف العـذبة، وكـذا كان لا يتـأنق في ألفاظـه، بل يعيب على من يتقعر في كلامه.

وكان كثير الصمت إلاَّ لضرورة، شديد الحياء، يقصّ شـاربه وأظـافره بنفسـه، ويتولى غـالبـاً حمـل الإبـريق للوضـوء ونحـوه، وصب المـاء على جسده، مع وجود من يكفيه المؤنـة في ذلك، لا يـواجه أحـداً بمكروه، مـع الصدع بالحق، وقوة النفس فيه، مفشياً للسلام.

وصفه تلميذه ابن تغري بردي فقال: «**وكان ـ عفا الله عنه ـ ذا شيبـة نيـرة، ووقـار، وأبهـة ومهـابـة، مـع مـا احتـوى عليـه من العقـل والحلم والسكون، والسياسة بالأحكام، ومداراة الناس، قَلَّ أن يخاطب الناس بمـا يُكره، بل كان يحسن لمن يسيء إليه، ويتجاوز عمن قدر عليه**»[2].

وقال تلميذه البِقاعي ـ وهو ممن لازمه طويـلاً ـ : «وهو أعجـوبة في سـرعة الفهم، في غـاية الحفظ، إنـه في حسن التصور لـه حدس يُـظن أنه الكشف، وفكـر كأن رقتـه خفي اللطف، وتأمـل يرفـع الأستار عن غـوامض الأسرار، وصبر متين، وجَلَد مبين، وقلب على نوب الأيام ثابت، وجنان من صروف الدهر غير طـائش. ما رأيت أكـظم منه للغيظ، بحيث إنـه لا يظهـر عليـه الغضب إلاَّ نادراً، ولا أجلد على ريب الـزمان، يتلقـاه بصدر واسـع، ويـظهر البشـاشة حتى يـظن من لا خبرة لـه أنه سُـرَّ بـذلـك!! يستعين على

---

(١) هي كل ما يكتفى به من العيش. وفلان لا يأكل إلاَّ علقة: أي ما يمسـك به نفسـه. المعجم الوسيط: ص ٦٢٢.

(٢) المنهل الصافي، نقلاً عن تغليق التعليق: ١/ ٥٩.

الشدائد بالصبر والصلاة؛ حدث أنه كان مرة مع أصحابه فوق الأهرام، فرأوا أناساً قد أحاطوا بدوابهم وغلمانهم، فلم يشكوا أنهم قطاع طرق، فاشتد جزع رفقته، وأما هو فقام يصلي، فكشف الأمر عن أنهم مازحون، وكفاهم الله السوء»[1].

وقال البقاعي أيضاً: «رحلت إليه سنة أربع وثلاثين[2]، **ولم أزل ملازماً له حتى كتبت هذه الترجمة في سنة ست وأربعين؛ فأقسم بالله ما مرت بي سنة من تلك السنين إلَّا رأيته ازداد تواضعاً، على أني لم أزدد له إلَّا مهابة!! ويزيده السن وقاراً وليناً، ونفعاً لعباد الله، وبراً وصبراً على الطلبة. جنابه مأوى طلاب الفضائل والنواضل، الذي إليه يلجؤون وعليه يعولون، وهو من غرائب الدهر في جميع أحواله. لقد نُقلت إلينا أخبار أهل عصرنا شرقاً وغرباً، واجتمعنا بغالب أعيانهم، فلم نر من يقاربه! لا تشغله دنياه ــ على اتساعها ــ عن الاشتغال بالعلم، والإفتاء والتصنيف، والاشتغال والإسماع والتدريس، وقيام الليل، وتعرف الأخبار، ولا يشغله شيء من ذلك عن دنياه. ما رأيت أحداً، شيخاً ولا شاباً، إلا وهو يتعجب من أحواله، ويشهد له بالبركة في أوقاته. وهو مع العلم الزايد، والتغافل عن الهفوات، في غاية اليقظة، والتثبت والحدس الصائب، والنظر الثاقب، فلا يُسْلم قياده لأحد في شيء من فنون مكرهم، وهو لأجل ذلك بديع الأفعال في أحكامه وفضائله، وجميع أحواله. لا يستطيع أحد أن يعيّره في شيء أصلاً، ولا أن يقرب من ذلك. لا يقبل كلام أحَد في غيبة خصمه، فهو آية في حُسن القضاء، ومعرفة دسائس الناس في كلامهم، والاهتداء إلى قطع الأمور. له في المناظرة مسلك غريب، قلَّ أن يثبت له في ذلك أحد»**[3].

---

(١) عنوان الزمان: ١/١٣٦؛ نقلاً عن تغليق التعليق: ١/٦٠.

(٢) أي وثمانمائة.

(٣) عنوان الزمان: ١/١٢٣؛ نقلاً عن تغليق التعليق: ١/١٦٨ ــ ١٦٩.

كل ذلك مع شدة تواضعه، وحلمه وبهائه، وتحرّيه في مأكله ومشربه وملبسه، وبذله، وحسن عشرته، ومزيد مداراته، ولذيذ محاضراته، ورضيّ أخلاقه، وميله لأهل الفضائل، واقتفائه طرق من تقدمه من الصلحاء السادة[1].

ويضيف محدث الحجاز العلامة نجم الدين عمر بن فهد فيصف ابن حجر بأنه كان «محققاً فصيحاً، شديد الذكاء المفرط، حسن التعبير، لطيف المحاضرة، حسن الأخلاق، متين الديانة، عديم النظير، وعليه من الجلالة ما يليق به، وما لأحد بعده إلى درجته وصول، ولسان الحال يقول:

هيهات أن يأتي الزمان بمثله   إن الزمان بمثله لبخيل»[2]

ويقول فيه تلميذه أبو البركات محمد بن شهاب الدين أحمد الغزي: «وعنده من الذكاء والفطنة وصفاء القريحة ما تَحيَّرُ فيه الأبصار، وكان شكلاً حسناً، مهاباً، منوّر الوجه، حليماً، نظيف اللسان، نَكِتاً، طيب الرائحة، أبقاه الله تعالى للمسلمين عموماً، ولمحبيه وطلبته خصوصاً»[3].

هذا وصف مجمل لأخلاق هذا الإمام العالم الرباني القدوة، ولقد شهدت أيام حياته ومواقفه ما يدل على صدق ما وصفه به معاصروه، من أخلاق فريدة، ومكارم نادرة، وخلال زاهرة، وشمائل باهرة.

●● أما تواضعه فقد كان في الذروة:

فهو يعلم أنه لا يتواضع إلاّ كبير، ولا يتكبر إلاّ صغير، ولقد تبوأ ابن حجر في مجتمعه منزلة سامقة، بدءاً من السلطان وانتهاء بعامة الناس، حتى سأله تلميذه الأمير الفاضل تَغْري بَرْمَش مرة فقال: «هل رأيت مثل

---

(١) الضوء اللامع: ٢ / ٣٩.

(٢) الجواهر والدرر: ص ٢٦٠.

(٣) المرجع السابق: ص ٢٤٨.

نفسك؟ فقال: قال الله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ﴾[1] ».

ويذكر السخاوي «أن بعض أصحابه سأله: أنت أحفظ أم الذهبي؟ فسكت، وكان ذلك منه أيضاً تواضعاً، لأنه ـ رضي الله عنه ـ حكى لنا أنه شرب ماء زمزم لما حجّ لينال مرتبة الحافظ الذهبي. قال: ثم حججت بعد مدة تقرب من عشرين سنة، فوجدت من نفسي طلب المزيد على تلك المنزلة؛ فسألت رتبة أعلى منها. قال: فأرجو الله أن أنال ذلك. قلت ـ أي السخاوي ـ: قد حقق الله رجاءه، وشهد له بذلك غير واحد»[2].

ولما تحوّل من «الكاملية» إلى «البيبرسية» لقيه أحد نزلائها قائلاً: «يا سيدي وحشت الكاملية»! فأجابه: «الكاملية مشتقة من الكمال»، يعني: ولست كاملاً[3].

ومن جميل تواضعه إجلاله لأصحاب الفضل والعلماء، فلما قدمتْ عليه عائشة ابنة إبراهيم بن خليل الشَّرائحي ـ وهي ممن قرأ عليهم ـ «أكرمها وأجلسها على بساطه الذي يصلي عليه، لكونها من بيت الحديث»[4].

●● ضبطه لسانه وحلمه وكظمه غيظه:

بالعلم والحلم اشتهرت فقل لنا   هل أنت أحمد عصرنا أم أحنف[5]

بهذا وصفه أديب عصره شمس الدين النواجي[6]، وحُقَّ لابن حجر

---

(١) الجواهر والدرر: ص ١٠٦؛ والآية في سورة النجم رقم (٣٢).

(٢) الجواهر والدرر: ص ١٠٦.

(٣) ابن حجر مؤرخاً: ص ١٠٠.

(٤) الجواهر والدرر: ص ١٢١.

(٥) هو الأحنف بن قيس، ويضرب به المثل في الحلم.

(٦) هو محمد بن حسن بن علي النواجي، ولد سنة (٧٨٨هـ) بنواج ـ من أعمال الغربية بمصر ـ، تفقه وعني بالأدب ففاق أهل عصره، توفي سنة (٨٥٩هـ). وقد أورد له السخاوي جملة كثيرة من المدائح في ابن حجر، ص ٤٣٧ ـ ٤٦٠.

أن يوصف بهذا، فلقد كان ـ رحمه الله ـ كاظماً للغيظ، لا يظهر عليه الغضب إلَّا نادراً، جلداً على ريب الزمان، متلقياً له بصدره[1]، متمثلاً قوله سبحانه: ﴿والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحبّ المحسنين﴾[2].

●● من ذلك أن بعض خصومه عقَّب على كتابه «المجمع المؤسس بالمعجم المفهرس»، في تصنيف جمعه، وبالغ في ذكره بألفاظ لا يقابله عليها إلَّا الذي أنطقه بها، فاطلع ابن حجر على ذلك، فكتب عليه ما نصه: «لا شكوى إلَّا إلى الله، ولا حول ولا قوة إلَّا بالله، وحسبنا الله!! واشتمل هذا التصنيف على نسبة مصنف الأصل[3] إلى أشياء نسبه المعترض عليها إليها، لا تجتمع في آدمي ـ فيما يغلب على الظن ـ فللَّه الأمر». وسردها في نحو خمسين صفحة خارجة عن السب والدعاء عليه، وكذا سبّ ولده والدعاء عليه، فلم يتعرض ابن حجر له بلفظة فاحشة، ولا بكلمة سوء، ولا تشاغل بردّها، بل وَكَلَ الأمر إلى من يجازي المسيء، ولا يضيع أجر من أحسن عملاً.

وكان بعض الشعراء قد عاون في المصنَّف ـ المشار إليه ـ على الرغم من وصل ابن حجر له، وبالغ في هجوه! فما احتمل أتباعُ ابن حجر ولدُه، وأمروا بإحضاره، فأُحضِر، فبلغ الإمامَ ابنَ حجر ذلك، فتغيَّظ عليهم، وأمرهم بصرفه مكرماً، بعد أن أنعم عليه بشيء من الدنيا، وضُبط ما يحصل له منه فكان ألف درهم كل شهر!!

●● وذهب يوماً إلى مدرسته لإلقاء درسه ـ على جاري عادته ـ فوقف من وراء الشباك معتوه يسمى «العرباني»، وابن حجر في «المنكوتمرية» في تلامذته، فأخذ المعتوه في السب الفاحش، والألفاظ

---

(١) عنوان الزمان: ١/٥٥؛ نقلاً عن ابن حجر مؤرخاً: ص ١٠١.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٣٤.

(٣) أي ابن حجر.

القبيحة، فقال الإمام: نقوم إلى أن يفرغ أو يروح. ونهض فدخل من باب الخلوة، وردّ بابها يسيراً، فترك المعتوه الشباك وانصرف، فظن ابن حجر توجهه بالكلية، ففتح باب الخلوة ووقف، وإذا بالمعتوه قد أقبل من باب المدرسة، وزاد على ما كان عليه، فقال: ما بقي إلاَّ الانصراف، وأغلق الباب وترك المخبول فيما هو فيه ساعة، ولم يمكِّن ـ مع كل هذا ـ أحداً من التعرض له، بل سمع به تلك الليلة وقد أمسكه بعضهم بأعوان الوالي ـ لا لهذا السبب ـ فأرسل إليه وأطلقه!!

●● واجتاز يوماً في طائفة من جماعته بباب «جامع الغمري»، فبدت من شخص وقف ببابه ـ يوصف بالجذب ـ كلمات فيها: «عمائم كالأبراج، وأكمام كالأخراج، والعلم عند الله»! فرام بعض جماعته منه تعزيره بالحبس ونحوه، فامتنع قائلاً: هذا مجذوب يسلم له حاله[1].

وأصابه أضعاف ذلك من المنافسين له على المنصب، الذين نازعوه مكانته العلمية وهم دونه بمراتب، أو حسدوه على وظائفه وشقّ عليهم أن لا يكونوا هم المستأثرين بها، مما سنذكره خلال هذا البحث إن شاء الله تعالى.

ولقد أحسن الأديب برهان الدين المليجي وهو يصف تلك الخلال الكريمة في هذا الإمام القَرْم السيد الماجد، فيقول[2]:

خَفَضَتْ مناقبَ أحنفٍ أخلاقُه ... كم عَثْرةٍ رُفعت إليه أَقَالَها

وعنِ الجفاةِ الحلمُ منه عادةٌ ... دهراً يرى أفعالَها[3] أفْعَى لَها

يا سيّداً منحَ العفاةَ نوالَه ... وَمَحَا بهَدْيِ المكرماتِ ضَلالَها

أنتَ الوفيُّ بهمةٍ في أمّةٍ ... ركناً عظيماً ماحياً ما اغتالَها

(١) الجواهر والدرر، نقلاً عن ابن حجر مؤرخاً: ص ١٠١ ـ ١٠٢.
(٢) الجواهر والدرر: ص ٣٢٧؛ فتح الباري ٥٥٦/١٣.
(٣) أفعالها: جمع فعل، وأفعى: هي الحية.

من سيـرةٍ أتـممـتَهـا بـسـريـرةٍ		لمـا رفعتَ عن الـورى أقفـالَهـا[1]

●● ورعه ومراقبته وتحرّيه في مأكله ومشربه وملبسه:

لقد بلغ الإمام من التـورع والتحري والتحـوّط والتوقّي أوجـاً سامقـاً، وابتعـد عن الشبهات فلم تـطمع أن تحـوم حول حمـاه، فكـان يتحـرى في وظائفه مـا هو أدنى إلى الحـلال ليأكـل من معاليمهـا، كما كـان يتعفف عن تعاطي معلوم الخطابـة بالقلعـة أيام قضـائه، بسبب ضعف الـوقف. بل بلغ أعلى من ذلـك، فيما يحـدث به ولي الـدين العراقي فيقـول: «وكـان حسن الشكـالة، حمـولاً، كثير الصـدقـات، متحـريـاً. ولمـا كـان بحلب صحبـة السلطان، كـان له راتب لحم، يؤتى بـه إليـه كـل يـوم من السلطان، فكـان لا يأكله، ويشتري لحماً، وعلى وجهه نور السنة»[2].

«ولا يتنـاول شيئاً ممـا يهـدى لبيتـه، وإذا مـا اضـطر إلى الحضـور في الولائم والمهمات ونحوها ــ مما الغالب على أربـابها عـدم التوقي ــ يـوهم أنـه يأكـل، وربما أعـطى هذا وهـذا، ممن يكون جـالساً على السمـاط من الأتباع ونحوهم مما بين يديه، بحيث يُسرّ صاحب المهم ــ غالبـاً ــ أما هـو فلا يُدْخِل في جوفه من ذلك شيئاً البتة»[3].

«وكـان يعطي خـادمه مـا يشتري بـه له شيئـاً من المأكـل، ويوصيـه أن لا يكلف البائع لأكثر مما يعطيه باختياره. ويسأله مع ذلك عن مصدر أكلته، فإذا ما نسي السؤال، واستطاب الأكل منـه ــ ظناً منـه أنه ممـا جرت العـادة بـأكله ــ يلقي الله في خاطـره السؤال عنه قبـل تمام أكله، فـإذا ما ذكـرت له جهتـه التي لا يحب الأكل منهـا؛ استدعى بـطست وقال: أفعـل كمـا فعـل أبو بكر ــ رضي الله عنه ــ ثم يتقيأ ما في بطنه»[4].

---

(١) في الجواهر: «عن الردى أنصالها»، والذي أثبتناه من «الفتح».

(٢) الجواهر والدرر، نقلاً عن تغليق التعليق: ١/١٧٤.

(٣) و (٤) الجواهر والدرر، نقلاً عن ابن حجر مؤرخاً: ص ١٠٣.

●● **وكان جواداً كريماً كثير البر مواظباً على الصدقات:**

يذكر تقي الدين المَقْريزي «أنه شاهده يهب ـ وهو صبي ـ امرأً المائتي درهم الفضة دفعة واحدة»[1].

وكان يعطي بعض جماعته مالاً جزيلاً ليفرقه على طلبته ونحوهم، ويدفع هو لجماعة آخرين. كما كان يجتمع عنده الفقراء في يوم من السنة معلوم، فيتولى ـ غالباً ـ بنفسه التفرقة عليهم، أو بحضوره. ويتفقد أناساً من المعتبرين في العلم وغيرهم، بالإرسال إلى محالهم، ويتفقد ـ كذلك ـ في كل قليل المحابيس، ويصالح عنهم من ماله، ويحسن للفقراء من الجيران، ويشتري في رمضان عسلاً وسكراً تفرَّق على الناس، توسعة في نفقة الشهر، وفي العيد الزبيب وغيره. وفي عيد الأضحى يرسل بالضحايا إلى الفقراء والمحتاجين، أو يفرّق فيهم ما يساوي مائة دينار. ويبالغ في إخفاء كل هذا نشداناً لحصول صدقة السر[2].

وما أروع وأبرع قول النواجي إذ يصف ابن حجر في هذا، فيقول[3]:

لهُ مع اللَّهِ حسنُ حالٍ ... بظهرِ غيبٍ له ومَشْهَدْ
فما مثلُهُ في وفاً وحلْمٍ ... إنْ وعدَ المرءَ أو توعَّدْ
ولم يقلْ في ندىً وعلمٍ ... لمن أتى سائلاً إلى الغَدْ[4]
ذُو راحةٍ أتعبتْ حسوداً ... قصَّر عن نَيْلها وفَنَّدْ[5]
يا عَمرك الله أمَّ حَبْراً ... عنهُ حديثُ الكرامِ يُسْنَدْ
وارْوِ نَدَى راحتيهِ بَحْراً ... من الطريقين عنه يُورَدْ

---

(١) تغليق التعليق: ١/١٧٤ ـ ١٧٥.

(٢) الجواهر والدرر، نقلاً عن ابن حجر مؤرخاً: ص ١٠٤.

(٣) الجواهر والدرر: ص ٤٤٢ ـ ٤٤٣؛ فتح الباري: ١٣/٥٦١.

(٤) في الجواهر: «إلى غد»، وما أثبتناه من «الفتح».

(٥) التفنيد: اللوم وتضعيف الرأي.

فبابُهُ للوفودِ مَلْجَا ومالُه للعفاةِ مُرْصَدْ
لا عيبَ في جودِهِ سوى أَنَّ شَمْلَ أمواله مُبَدَّدْ

●● تعبده وتبتله وتلاوته القرآن:

ولقد زان كلَّ تلك الخلال الفريدة والخصال المجيدة ملازمتُه العبادة، حتى صار مثلاً يقتدى به، فلقد كان قواماً بالليل متهجداً، حتى في حال سفره وترحاله واشتداد المرض به، إلى أن عجز عن ذلك تماماً، لا يترك جمعة ولا جماعة إلاَّ قهراً عنه، كثير الصوم، حريصاً على عدم تخلية وقته من العبادة.

وقد شهد له بذلك قاضي القضاة الحنفية أبو الفضل ابن الشحنة فقال: «**ورافقته في بعض الأسفار، فرأيته يقوم الليل**»[(١)].

وأكثر من الحج إلى بيت الله الحرام: فقدم الحجاز ــ طفلاً ــ مع والده، وجاور هناك. كذلك وفد ــ وكان حدثاً ــ صحبة وصيِّه الزكي الخروبي، وجاور بمكة سنة (٧٨٤هـ)[(٢)]. وفي سنة (٨٠٠هـ) حج حجة الإسلام، كما حج سنة (٨٠٥هـ)، وكانت الوقفة الجمعة، وجاور بعض سنة (٨٠٦هـ). ثم أتيحت له فرصة السفر إلى الديار المقدسة سنة (٨١٥هـ) فحج أيضاً. وكانت آخر حجة له في سنة (٨٢٤هـ)، ومعه صهره محب الدين ابن الأشقر، وقريبه الزين شعبان، وكانت الوقفة الجمعة كذلك. وكان مقيماً في هذه المرة «بالمدرسة الأفضلية»، أنزله بها قاضي مكة المحب ابن ظَهِيرة[(٣)].

وكان كثير الذكر والتسبيح والاستغفار، يروي السخاوي قائلاً:

---

(١) الجواهر والدرر: ص ٢٦٢.
(٢) المرجع السابق: ص ٦٣.
(٣) الجواهر والدرر: ص ٩١؛ ابن حجر مؤرخاً: ص ٤١؛ تغليق التعليق: ١/ ٩٠ ــ ٩١.

«وتوجه مرة هو وصهره القاضي محب الدين ابن الأشقر في السماسم بالخانقاه، فأخرج من جيبه مصحفاً حمائلياً، وشرع في التلاوة فيه. وكان ـ رحمه الله ـ إذا جلس مع الجماعة بعد العشاء وغيرها للمذاكرة، تكون السبحة داخل كمّه بحيث لا يراها أحد، ويستمر مديرها وهو يسبّح، أو يذكر غالب جلوسه، وربما تسقط من كمّه، فيتأثر لذلك رغبة في إخفائه»(١).

ولقد عبر عن ذلك العلامة عبد السلام بن أحمد البغدادي، فقال فيه(٢):

ويا قائماً في الليل يُحييه قانتاً ... بذكر وقرآنٍ يصلّي ويخشعُ

وقال:

ومُحيي السُّنَّة الشهباء مُذْ دَرَسَتْ ... يُقَطِّع الليلَ تسبيحاً وأوْرادَا

فكان القرآن العظيم أنيسه في ليله، وجليسه في خلوته، يتلوه ويذرف الدموع، لأنه يعلم ما تحمله كلماته من معانٍ، وما تنطوي عليه آياته من مواعظ وزواجر، فيخشى الله حقّ الخشية، و﴿إنَّما يَخْشَى اللَّهَ منْ عبادِهِ العلماءُ﴾. ولقد أحسن النواجي وهو يصف الإمام فيقول(٣):

وَلَهُ إذا سَدَلَ الظلامُ رواقَه ... عينٌ مسهَّدةٌ ودمع يذرفُ

فَألَذُّ ما يُتلى عليهِ كلامُ خا ... لِقِهِ وأشْهى ما إليهِ المُصحفُ

●● صدق سريرته، وإخلاص نيته، واتفاقاته:

فلا غرو أن تكون سريرة هذا العالم الرباني طيبة طاهرة، ونيته صادقة، لربها خالصة، فتآخى المخبر مع المظهر، فأنجبا رجلاً فذاً نادراً قلَّ أن يجود الزمان بمثله.

---

(١) الجواهر والدرر: ص ١١١.
(٢) المرجع السابق: ص ٣٩٢ ـ ٣٩٣.
(٣) المرجع السابق: ص ٤٣٨.

يقول السخاوي: «اتفق أنه جاء للقراءة على الجمال الحِلَاوي[1] في «مسند أحمد» ـ على عادته ـ فوجده مريضاً، فطلع هو والجماعة لعيادته، فأذن له الشيخ في القراءة، فشرع، ففي الحال مرَّ حديث أبي سعيد ـ رضي الله عنه ـ في رُقْية جبريل عليه السلام، قال شيخنا: فوضعت يدي عليه في حال القراءة، ونويت رُقْيَتَه، فاتفق أنه شفي، حتى نزل للجماعة في الميعاد الثاني معافى»[2].

«وكان ينظر في ليلة الأحد ثاني عشر جمادى الأولى سنة أربع وأربعين في «دُمْية القصر» للبَاخَرْزِي، فمرَّ في ترجمة المظفَّر بن علي أن له هذه الأبيات في الرثاء، وهي:

بلاني الزمان ولا ذنب لي ... بلى إن بلواه للأَنْبَلِ
وأعظم ما ساءني صَرْفُهُ ... وفاةُ أبي يوسف الحنبلي
سراج العلوم ولكن خَفَا ... وثوب الجمال ولكن بلِي

قال شيخنا: فتعجبت من ذلك، ووقع في نفسي أن قاضي الحنابلة المحب أحمد بن نصر الله البغدادي يموت بعد ثلاثة أيام بعدد الأبيات ـ وكان متوعكاً ـ فكان كذلك»[3]!

●● حبه للسنة وتعصبه لها:

وكان ـ رحمه الله ـ معظماً لجناب الرسول ﷺ، محترماً لسنته، متبعاً لِهَدْيه، مدافعاً عن أحاديثه، منكراً للبدع، شديد الوطأة على المجترئين على حدود الله.

---

(١) هو أبو المعالي عبد الله بن عمر الحلاوي، ولد سنة (٧٢٨هـ)، وتوفي سنة (٨٠٦هـ)، ترجم له الحافظ في «معجم شيوخه»، وذكر أنه قرأ عليه «مسند أحمد» جميعه.

(٢) و(٣) الجواهر والدرر: ص ١١٥. والمراد بقوله: «قال شيخنا» هو ابن حجر، باطّراد.

يقول في مقدمة كتابه «القول المسدَّد»: «أما بعد: فقد رأيتُ أن أذكر في هذه الأوراق ما حضرني من الكلام على الأحاديث التي زعم بعضُ أهل الحديث أنها موضوعة، وهي في المسند الشهير للإمام الكبير أبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل، إمام أهل الحديث في القديم والحديث، والمطَّلع على خفاياه المثير لخباياه. **عصبيةً مني لا تخل بدين ولا مروءة، وحميَّةً للسنة لا تعدُّ ــ بحمد الله ــ من حميّة الجاهلية؛ بل هي ذبّ عن هذا المصنَّف العظيم، الذي تلقته الأمة بالقبول والتكريم، وجعله إمامهم حجةً يرجع إليه، ويعوّل عند الاختلاف عليه**»[1].

وقال وهو يتكلم عن «الخمر من العنب وغيره»: «والمجمع على تحريمه عصير العنب إذا اشتد فإنه يحرم تناول قليله وكثيره، بالاتفاق. **وحكى ابن قتيبة عن قوم من مجّان أهل الكلام أن النهي عنها للكراهة، وهو قول مهجور لا يلتفت إلى قائله**»[2].

ومن حبه للسنة والتزامه بها إنكاره للبدع التي تعاند ما جاء عن رسول الله ﷺ، ومن ذلك قوله: «من البدع المنكرة ما أُحدث في هذا الزمان من إيقاع الأذان الثاني قبل الفجر بنحو ثلث ساعة في رمضان، وإطفاء المصابيح التي جعلت علامة لتحريم الأكل والشرب على من يريد الصيام؛ زعماً ممن أحدثه أنه للاحتياط في العبادة، ولا يعلم بذلك إلاَّ آحاد الناس. **وقد جرَّهم ذلك إلى أن صاروا لا يؤذنون إلاَّ بعد الغروب بدرجة لتمكين الوقت، زعموا!! فأخَّروا الفطر، وعجَّلوا السحور، وخالفوا السنة، فلذلك قلّ عنهم الخير، وكثر فيهم الشرّ، والله المستعان**»[3].

●● ومن أخلاقه التي يجب أن يتصف بها كل عالم ــ بل كل

---

(١) القول المسدد: ص ٣١ ــ ٣٢.

(٢) فتح الباري: ١٠/٣٥.

(٣) فتح الباري: ٤/١٩٩.

مسلم ـ موضوعيته، وإنصافه في البحث، وعدم التعصب:

فلقد كان ابن حجر سلفياً في ثقافته وعلومه، سبّاقاً لعصره في التحرر والتحرز من التعصب الذي كثيراً ما أهلك العلماء؛ فكان حال تلبّسه في القضاء وغيره من المناصب، وفي بحوثه وتقريراته، وترجيحاته وردوده ـ يتحرز عن الانقياد للخطأ مهما كان مصدره رفيعاً، ميالاً إلى الحق بل والمعاداة فيه[1]، كما سيمر بنا من ذلك الكثير إن شاء الله.

ومن هذا القبيل أمانته في النقل والانتساب إلى المصادر: فهو ينقل من أقوال الأئمة وكتب العلماء ممن سبقه، ويعزو ذلك إلى صاحبه، ويحصره بدءاً ونهاية فيقول مثلاً: «قال فلان... انتهى». بل وينعى على العلماء ممن يبتر كلام غيره، أو يأخذه ولا يعزوه إلى صاحبه، وكتبه طافحة بذلك. وقد صحّ عن سفيان الثوري أنه قال ما معناه: «نسبة الفائدة إلى مفيدها من الصدق في العلم وشُكره، وأن السكوت عن ذلك من الكذب في العلم وكُفْره»[2].

●● ومن عظيم أخلاقه أنه كثيراً ما يشكر الله إذا وفّق لحل إشكال اعتاص على العلماء، أوَ تحرير مسألة غامضة:

من ذلك أنه حرّر اسم السائل في حديث «قلت: وما اليمين الغموس»؟ فقال رحمه الله ـ بعد أن ساق الدليل ـ : «فظهر أن السائل عن ذلك: فراس، والمسؤول: الشعبي، وهو عامر، فللَّه الحمد على ما أنعم، ثم لله الحمد، ثم لله الحمد؛ فإني لم أر من تحرر له ذلك من الشرّاح»[3].

ويتمنى حسن الخاتمة: ويفصح عن ذلك حيث وجد مناسبة لذلك،

(١) انظر: ابن حجر مؤرخاً: ص ١٠٥.

(٢) الجواهر والدرر: ص ١٢٠.

(٣) فتح الباري: ١١/٥٥٦.

فتراه يعلق على حديث عمر رضي الله عنه: «اللهم ارزقني شهادة في سبيلك، واجعل موتي في بلد رسولك ﷺ»، فيقول: «وفيه إشارة إلى حسن الختام، فنسأل الله تعالى أن يختم لنا بالحسنى، وأن يعين على ختم هذا الشرح، ويرفعنا به إلى المحلّ الأسنى، إنه على كل شيء قدير»[1].

وفي موضع آخر يقول ـ معلقاً على حديث العمل في العشر الأواخر من رمضان ـ: «وفي الحديث الحرص على مداومة القيام في العشر الأخير، إشارة إلى الحث على تجويد الخاتمة، ختم الله لنا بخير، آمين»[2].

تلك ومضات مضيئة أبنّا فيها عن بعض جوانب شخصية هذا الإمام العَلَم، والذي تجلت فيه مكارم أخلاق الإسلام في أبهى معانيها، وصفات العلماء في أسمى وأرقى مبانيها. فلا عجب أن أحبته الخاصة والعامة، حتى قال فيه أبو الفضل ابن الشحنة: «**وكان رقيق الطبع ظريفاً، حسن الهمة، له نورانية ووقع في النفوس، ومحبة في القلوب**»[3].

وقال الشيخ العلامة أبو الطيب أحمد بن محمد الحجازي[4]:

وللإمام ابتهالٌ في صبحهم والمساءِ
لربّهم بدعاءٍ لكم بطول البقاءِ
وليس فيهم مُراءٍ حقّاً بغير مِرَاءِ
أعِنْهُ يا خير عونٍ والطُفْ به في القضاءِ[5]

(١) فتح الباري: ٤/١٠٠، ١٠١.
(٢) المرجع السابق: ٤/٢٧٠.
(٣) الجواهر والدرر: ص ٢٦٢.
(٤) ولد في القاهرة سنة (٧٩٠هـ)، ودرس على علماء عصره، ولازم ابن جماعة وولي الدين العراقي وغيرهما. وأقبل على الأدب حتى غلب عليه، وطارح الأدباء، وكان ممن طارحه ابن حجر، وكان كثير الميل إليه. توفي (٨٧٥هـ).
(٥) الجواهر والدرر: ص ٣٥٤ ــ ٣٥٥.

الفصل الرابع
نَشْأَتُهُ وَطَلَبُهُ لِلْعِلْمِ وَرِحَلاتُهُ

نشأته وطلبه للعلم :

فَقَدَ ابن حجر والديه وعمره أربع سنوات: فأبوه مات في رجب سنة (٧٧٧هـ)، وأمه ماتت قبل ذلك وهو طفل. وكان والده قبل وفاته أوصى بولده كبيرَ التجار أبا بكر محمد بن علي بن أحمد الخروبي[1]، فقام بأمره أحسن قيام. وكذا أسند وصيته للشيخ شمس الدين ابن القطان، لاختصاصه به.

فنشأ ــ رضي الله عنه ــ يتيماً، في غاية العفة والصيانة والرياسة في كنف الزكي الخروبي إلى أن مات، وقد راهق، لم يعرف له صبوة، ولم تُضبط عنه زلَّة[2].

ولم يألُ الزكي الخروبي جهداً في رعايته، والعناية بتعليمه، فكان يستصحبه معه عند مجاورته بمكة، وأدخله «المكتب» بعد أن أكمل خمس سنوات. «وممن قرأ عنده في المكتب شمس الدين ابن العلاف ــ الذي ولي حسبة مصر وقتاً ــ وشمس الدين الأطروش. لكن لم يكمل حفظ القرآن العظيم إلاَّ عند فقيهه ومؤدِّبه الفقيه شارح «مختصر التبريزي»

---

(١) هو أبو بكر محمد بن علي، زكي الدين الخروبي، حياته (٧٢٥ ــ ٧٨٧هـ)، تعانى الرئاسة، وعظُم قدره في الدولة، وكان جواداً ممدحاً، حجَّ غير مرة، وجاور، وكان يحفظ القرآن ويجوّده.

(٢) الجواهر والدرر: ص ٦١، ٦٢؛ ذيول تذكرة الحفاظ: ص ٣٢٦؛ شذرات الذهب: ٧/ ٢٧٠.

صدر الدين محمد بن محمد بن عبد الرزاق السَّفْطي المقرىء، أكمله وله تسع سنين»[1].

ولما أكمل اثنتي عشرة سنة صلى بالناس التراويح ـ على جاري العادة ـ بمكة بالمسجد الحرام، سنة (٧٨٥هـ)! حيث إن وصيَّه الزكي الخروبي كان قد حج في سنة أربع وثمانين، واستصحب ابن حجر معه، وكانت وقفة الجمعة، فحجّا، وجاورا، وصلى بالناس في سنة خمس وثمانين وسبعمائة[2].

وكان لوصيّه الخروبي فضل كبير في تهيئة الجو المناسب له، للإقبال على الاشتغال بالعلم، وتوجيهه للأئمة الذين يأخذ عنهم. فسمع إذ ذاك ـ بمكة ـ على الشيخ عفيف الدين عبد الله بن محمد بن محمد النشاوري[3] ثم المكي ـ اتفاقاً بغير قصد ولا طلب ـ غالب «صحيح البخاري» **وهو أول شيخ سمع عليه الحديث**، وذلك بقراءة شهاب الدين أحمد بن محمد الحريري، عرف بالسَّلَاوي[4]. وكان محل السماع تحت سكن الخروبي المذكور، في البيت الذي بباب الصفا، على يمنة الخارج إلى الصفا. وبالبيت المذكور شباك يطل على المسجد الحرام، ويشاهِد مَنْ يجلس فيه الكعبة والركن الأسود. فكان المستمع والقارىء يجلسان عند الشباك المذكور، وكان يجلس فيها مؤدب صاحب الترجمة، ومن يدرس معه[5].

---

(١) الجواهر والدرر: ص ٦٢؛ البدر الطالع: ١/٨٨؛ شذرات الذهب: ٧/٢٧٠.

(٢) الجواهر والدرر: ص ٦٣؛ ذيول التذكرة: ص ٣٢٧.

(٣) ولد سنة (٧٠٥هـ)، وتوفي سنة (٧٩٥هـ)، حدث بالكثير، وسمع عليه ابن حجر «صحيح البخاري» سنة (٧٨٥هـ). شذرات الذهب: ٦/٣١٣.

(٤) هو شهاب الدين أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن عمر بن رضوان الحريري الدمشقي، المعروف بالسلاوي حياته (٧٣٨ ـ ٨١٣هـ)، سمع من ابن رافع وابن كثير وغيرهما، وقرأ «الصحيح» مراراً على عدة مشايخ.

(٥) الجواهر والدرر: ص ٦٣؛ ذيول التذكرة: ص ٣٢٦.

كما بحث في مجاورته تلك ــ سنة ٧٨٥هـ ــ على القاضي الحافظ جمال الدين أبي حامد محمد بن عبد الله بن ظَهِيرة المكي في «كتاب عمدة الأحكام» للحافظ عبد الغني المقدسي. قال ابن حجر: «وكان يعجبني سمته». **فكان أول شيخ بحث عليه في فقه الحديث، ثم كان أول شيخ سمع الحديث بقراءته بمصر بعد ذلك**[1].

وهكذا كان ابتداء الطلب عند إمامنا سنة (٧٨٥هـ) وهو في الثانية عشرة من عمره، ثم عاد صحبة وصيه الزكي الخروبي إلى مصر، ووصلها سنة (٧٨٦هـ)، وأقبل على الاشتغال، فجدَّ واجتهد، فحفظ كتباً من مختصرات العلوم، مثل: «عمدة الأحكام»[2] و«الحاوي الصغير»[3] للقزويني، و«مختصر ابن الحاجب»[4] في الأصول، و«ملحة الإعراب»[5] للحريري، و«منهاج الوصول»[6] للبيضاوي، و«ألفية الحديث» للعراقي،

---

(١) الجواهر والدرر: ص ٦٤ ــ ٦٥؛ ذيول التذكرة: ص ٣٢٦ ــ ٣٢٧؛ التنبيه والإيقاظ: ص ١٤٩ ــ ١٥٠؛ ابن حجر مؤرخاً: ص ٢٢.

(٢) هو «العمدة في الأحكام في معالم الحلال والحرام عن خير الأنام» لابن سرور الجماعيلي المقدسي (ت ٦٠٠هـ).

(٣) هو في فروع الشافعية للفقيه الإمام عبد الغفار بن عبد الكريم القزويني، نجم الدين (ت ٦٦٥هـ). انظر: طبقات الشافعية: ٢/ ١٣٧، الأعلام: ٤/ ٣١.

(٤) هو مختصر كتاب «منتهى السول والأمل في علمي الأصول والجدل» كلاهما لأبي عمرو ابن الحاجب، الفقيه المالكي (٥٧٠ ــ ٦٤٦هـ)، كان أبوه حاجباً فعرف به، الأعلام: ٤/ ٢١١.

(٥) هي منظومة في النحو للقاسم بن علي بن محمد، أبي محمد الحريري الأديب الكبير، صاحب «المقامات الحريرية» حياته (٤٤٦ ــ ٥١٦هـ). الأعلام: ٥/ ١٧٧.

(٦) هو «منهاج الوصول إلى علم الأصول» للعلامة القاضي المفسر عبد الله بن عمر البيضاوي، المولود بالمدينة البيضاء بفارس قرب شيراز. (ت ٦٨٥هـ). الأعلام: ٤/ ١١٠.

و «ألفية ابن مالك» في النحو، و «التنبيه» في فروع الشافعية للشيرازي، وغيرها[1].

وقد ظهرت عليه أمارات النجابة، وعلامات التفوق؛ مما يرهص بمستقبل علمي باهر ينتظره، فإنه رزق حافظة قوية، وذاكرة واعية، وحسن استحضار عجيب.

وكان سريع الحفظ «بحيث كان يحفظ كل يوم نصف حزب، وبلغ من أمره في ذلك أنه حفظ سورة مريم في يوم واحد، وأنه كان في أكثر الأيام يصحح الصفحة من «الحاوي الصغير»، ثم يقرؤها تأملاً مرة أخرى، ثم يعرضها في الثالثة حفظاً!! ولم يكن ـ رحمه الله تعالى ـ حفظه الدرس على طريقة الأطفال، بل كان حفظه تأملاً ـ كما سمعت ذلك من لفظه مراراً ـ على طريقة الأذكياء في ذلك غالباً»[2].

و «إذا مرّ بشيء في المطالعة، فإن كان له غرض في حفظه ألقى إليه باله، وصرف نحوه همته؛ فيحفظه، وإلاَّ فلا»[3].

وقرأ القرآن تجويداً على الشهاب أحمد بن محمد ابن الفقيه علي الخيوطي، ثم على الصدر سليمان بن عبد الناصر الإبشيطي شيئاً من العلم في السنة التي قدم فيها من مكة[4].

ويبدو أن وفاة وصيّه الزكي الخروبي سنة (٧٨٧هـ) كانت سبباً في فتور عزمه عن الاشتغال مدة ثلاث سنوات، من أجل أنه لم يكن له من يحثه على ذلك[5]. فلم يشتغل إلاَّ بعد استكمال سبع عشرة سنة، فلازمَ وصيّه

---

(١) الجواهر والدرر: ص ٦٤؛ البدر الطالع: ١/٨٨.
(٢) الجواهر والدرر: ص ٦٤؛ ذيول التذكرة: ص ٣٢٦.
(٣) عنوان الزمان: ١/٩٢، نقلاً عن تغليق التعليق: ١/١٧٥.
(٤) الجواهر والدرر: ص ٦٥.
(٥) الجواهر والدرر: ص ٦٥؛ ابن حجر مؤرخاً: ص ٢٤.

العلامة شمس الدين ابن القطان، فحضر درسه في الفقه وأصوله والعربية والحساب، وغيرها، وقرأ عليه شيئاً كثيراً من «الحاوي الصغير»، وأجاز له هذا مع كون ابن حجر لم يحمد تصرفه في تركته[1].

ولم تخلُ هذه الفترة ـ التي انتقل فيها ابن حجر من وصي إلى وصي ـ من فائدة، بل اشتغل بطلب ما غلب على العادة طلبه، من أصل وفرع ولغة ونحوها، وطاف على شيوخ الدراية.

وبعد ذلك حُبب إليه النظر في التواريخ وأيام الناس، حتى إنه كان يستأجرها ممن هي عنده، فعلق بذهنه الصافي الرائق شيء كثير من أحوال الرواة. وممن رغّبه في ذلك البدر البَشْتَكي[2]، وأعانه عليه بإعارة «الأغاني» لأبي الفرج الأصفهاني، وغيره[3].

وكذا سمع من الصلاح أبي علي محمد بن محمد بن عبد الكريم الزفتاوي «صحيح البخاري»، بقراءة ولي الدين محمد بن أحمد التِّزمنتي، ومن أبي الفرج عبد الرحمن بن أحمد الغزي، ومن نجم الدين عبد الرحمن بن رزين غالب «صحيح البخاري» بقراءة الجمال أبي حامد ابن ظَهِيرة[4].

«**ونظر في فنون الأدب من أثناء سنة (٧٩٢هـ) ففاق فيها، حتى كان لا يسمع شعراً إلَّا ويستحضر من أين أخذه الناظم**. وتولَّع بذلك، وما زال

---

(١) الجواهر والدرر: ص ٦٥.

(٢) نسبة إلى «خانقاه بشتك»، وكان أحد صوفيتها، وهو محمد بن إبراهيم بن محمد، أبو البقاء الدمشقي الأصل، تعانى الأدب ومهر فيه، ولد وتوفي بالقاهرة (٧٤٨ ـ ٨٣٠هـ). الأعلام: ٥/٣٠٠؛ شذرات الذهب: ٧/١٩٥.

(٣) الجواهر والدرر: ص ٦٥ ـ ٦٦؛ شذرات الذهب: ٧/٢٧٠؛ ابن حجر مؤرخاً: ص ٢٤؛ تغليق التعليق: ١/٨١.

(٤) الجواهر والدرر: ص ٦٦؛ ذيول تذكرة الحفاظ: ص ٣٢٧.

يتبعه خاطره حتى فاق فيه وساد، وطارح الأدباء، وقال الشعر الرائق والنثر الفائق، ونظم مدائح نبوية ومقاطيع، وكتب عنه الأئمة من ذلك».

ويضيف السخاوي فيقول: «وكان ــ رحمه الله ــ عجباً في استحضار ذلك، والمذاكرة به، بحيث رأيت النواجي ــ وهو من علمتَ جلالته في فنون الأدب ومداومته على خدمته ــ وشيخنا صاحب الترجمة يربو عليه، حتى يقضي هو العجب من ذلك! هذا ولم ينظر من بعد القرن[1] في كتب الفن ودواوينه إلَّا اتفاقاً، كما صرح هو بذلك، بل أكثر نظمه قبل سنة (٨١٦هـ). ورأيته قد كتب بخطه على بيتين في ضمن كراسة من نظم البدر البَشْتَكي ما نصه: يا سيدي ــ أحسن الله إليكم ــ رأيت هذين البيتين بخطكم الكريم في طوق الحمامة لأبي محمد ابن حزم، فلعلكم طالعتموها ونسيتم»[2]!!

ويصفه البقاعي فيقول: «وأول اشتغاله سنة سبع وثمانين[3]، فعني

(١) يريد نهاية القرن الثامن الهجري.

(٢) الجواهر والدرر: ص ٦٦ ــ ٦٧؛ ذيول تذكرة الحفاظ: ص ٣٢٧.

(٣) أخذ محقق «تغليق التعليق» في ١/٨١، ١٦١ ــ كلام البِقاعي هذا وقارنه مع أقوال السخاوي من أن ابن حجر نظر في فنون الأدب سنة (٧٩٢هـ)، وأن السخاوي قرأ بخط شيخه أنه بدأ اشتغاله سنة (٧٨٧هـ)، ثم رجّح السخاوي الأول ــ كما فهم المحقق ــ واستنتج المحقق من ذلك صحة رأي البقاعي لأن ابن حجر اشتغل بالحديث سنة (٧٩٣هـ) وانصرف له، ولا تكفي سنة واحدة للاشتغال بالأدب والبروز فيه؛ ولهذا وهَّم المحققُ السخاوي!
والحق أن «المحقق» هو الواهم، لأنه خلط بين أمرين فصّلهما السخاوي بما لا مجال للّبس فيه، فقال: «وأما طلبه للعلم فإنه ــ رحمه الله ــ قرأ القرآن تجويداً على الشهاب أحمد بن محمد ابن الفقيه علي الخيوطي. وبحث في سنة (٧٨٥هـ) ــ وهو ابن اثنتي عشرة سنة ــ في مجاورته بمكة على القاضي جمال الدين».
الجواهر: ص ٦٤.
ثم قال: «على أنني قرأت بخط صاحب الترجمة: وأول اشتغالي بالعلم في سنة =

بـالأدب علماً وعمـلاً، وما زال يتبعـه خاطـره حتى فاق أهـل عصره، فنـظم الشعر الكثير، قصائد وغيرها، فأجاد ما شاء، حتى إنـه لا يُلحق في كثير من ذلك، رقة غزل، ورصانة مدح، ورقة معاني، وجلالة ألفاظ، وبراعة نكت، وتمكين قـوافي، واستعمالاً لـلأنواع التي فصلت في علم المعـاني والبيـان والبديع، على أحسن وجه وأبدع أسلوب، نثره مطرب، ونظمه مرقص»[1].

وتـرك الانصراف للشعـر سنة (٨١٦هـ)، وكـان غالب مـا نظمـه قبـل القرن التاسع، واتجه إلى مـا هو أنجـح له في آخـرته، وأصلح وأهم لحيـاة المسلمين، حيث «حبَّب الله ـ عز وجل ـ إليه فن الحديث النبـوي، **فأقبـل عليـه بكلّيته، وأول مـا طلب بنفسه في سنـة (٧٩٣هـ)، لكنـه لم يكثـر من**

= (٧٨٧هـ)، قلت: لكن مـا قـدمتـه هـو المعتمـد». الجـواهـر: ص ٦٥. ثم قـال السخاوي: «ونظر في فنون الأدب من أثناء سنة (٧٩٢هـ)، ففاق فيها». الجواهـر: ص ٦٥، ويقول: «ولم ينظر من بعد القرن في كتب الفن ودواوينـه إلاَّ اتفاقـاً، كما صرَّح هو بذلك». الجـواهر: ص ٦٧. وهكـذا يتضح أن بـداية طلب العلم كـانت سنة (٧٨٥هـ) ـ وهذا واضح من خلال الصفحـات التي ذكرنـاها في نشـأته وطلبـه للعلم ـ وأن قول السخاوي: «لكن ما قدمته هو المعتمد» أي في بدايـة طلبه للعلم لا النظر في فنون الأدب. وبذا يتضح أن كـلام البقاعي: «وأول اشتغـاله سنـة سبع وثمانين» مأخوذ من كلام ابن حجـر، الذي هـو مرجـوح كما بيّن السخـاوي. ومن ذلك نستنتج أن «المحقق» خلط بين أمـرين: بدايـة طلب العلم، وبدايـة النظر في فنـون الأدب؛ فـوهّم جبـلاً من جبـال العلم، وألصق النـــاس بـابن حجـر، وهـو السخاوي، ثم إن البقاعي لم يصرح بأن سنـة (٧٨٧هـ) هي بدايـة النظر في فنـون الأدب كمـا فهم المحقق. ثم من الـذي قـال إن ابن حجـر نبـغ في الأدب بسنـة واحـدة، وقد نص السخـاوي على أنـه بقي ينظر فيـه حتى نهـايـة القـرن، أي من ٧٩٢ ـ ٨٠٠؟! وسنبين بعـد قليل أن الحـافظ لم يترك كل العلوم وينصرف للحديث فقط، وإن أعطاه الصدارة.

(١) عنوان الزمان للبقاعي: ١/٩٣، نقلاً عن تغليق التعليق: ١/٨١.

الطلب إلاَّ في سنة (٧٩٦هـ)، فإنه ـ كما كتب بخطه رضي الله عنه ـ: «رُفع الحجاب، وفُتح الباب، وأقبل العزم المصمم على التحصيل، وَوُفِّق للهداية إلى سواء السبيل». فأخذ عن مشايخ ذلك العصر وقد بقي منهم بقايا، وواصل الغدوَّ والرواح إلى المشايخ بالبواكر والعشايا. واجتمع بحافظ العصر زين الدين أبي الفضل عبد الرحيم بن الحسين العراقي، فلازمه عشرة أعوام[١]، وتخرَّج به، وانتفع بملازمته، وقرأ عليه «الألفية وشرحها» له بحثاً، وانتهى ذلك في يوم الجمعة ثالث عشرين رمضان سنة (٧٩٨هـ)، بمنزل المصنف «بجزيرة الفيل» على شاطىء النيل. ثم قرأ عليه «النكت على علوم الحديث لابن الصلاح» له، في مجالس آخرها في جمادى الأولى سنة تسع وتسعين»[٢].

«وأكثر من التردد إلى العراقي المذكور، فقرأ عليه غير ما تقدم من الكتب الكبار والأجزاء القصار الكثير، وحمل عنه من أماليه جملة مستكثرة، واستملى عليه بعضها، وأذن له في تدريس «الألفية» و «شرحها» و «النكت على ابن الصلاح»[٣]، وسائر كتب الحديث وعلومه وإفادتها. ولقَّبه بالحافظ، وعظَّمه جداً، ونوَّه بذكره، وقال: إنه لرغبته في الخير غني عن الوصية، زاده الله علماً وفهماً، ووقاراً وحلماً، وسلَّمه حضراً وسفراً، وجمع له الخيرات زمراً»[٤].

والعراقي أول من أذن لابن حجر في التدريس في علوم الحديث، وذلك في سنة (٧٩٧هـ)[٥]، وكان طلبه على الأوضاع المتعارفة بين أهله،

---

(١) من سنة ٧٩٦ ـ ٨٠٦هـ، سنة وفاة العراقي.

(٢) الجواهر والدرر: ص ٦٧.

(٣) الألفية، وشرحها، والنكت، ثلاثتها لشيخه الحافظ العراقي.

(٤) الجواهر والدرر: ص ٧٦ ـ ٧٧؛ نظم العقيان: ص ٤٥؛ ذيول تذكرة الحفاظ: ص ٣٢٨ ـ ٣٢٩.

(٥) الجواهر والدرر: ص ٦٧.

فقرأ وسمع على مسنِدي القاهرة ومصر الكثير، فجاء في أسرع مدة. ووقع له «حديث السِّلَفِيّ» بالسماع المتصل عالياً، وهو أعلى ما يقع حينئذٍ من حديث السِّلفي. وكذا وقع له «حديث الرازي» عن ابن الشحنة، وسمع «جزء سفيان بن عيينة». وأعلى ما سمعه من الأجزاء المنثورة مطلقاً «جزء أبي الجهم العلاء بن موسى»، صاحب الليث بن سعد[1].

«وأكثر من المسموع جداً، ووصل من الكتب الكبار شيئاً كثيراً، ووجد عنده ــ رضي الله عنه ــ من النظر في التواريخ ما أعانه على معرفة الرجال في زمن يسير جداً. ولم تنسلخ تلك السنة ــ أي سنة (٧٩٦هـ) ــ حتى اتسعت معارفه فيه، وخرَّج لشيخه الإمام مسنِد القاهرة برهان الدين أبي إسحاق إبراهيم بن أحمد بن عبد الواحد التنوخي «المائة العشارية»، فكان أول من قرأها على المخرَّجة له في جمع حافل الإمام العلامة الحافظ الناقد ولي الدين أبو زرعة ابن شيخه العراقي في سنة (٧٩٧هـ)، وكذا قرأها عليه غيره من الأعيان»[2].

هذا وهو في حال الطلب، فكان جديراً بقول التقي ابن فهد فيه: **«وكان في حال طلبه مفيداً في زي مستفيد، إلى أن انفرد في الشبوبية بين علماء زمانه، بمعرفة فنون الحديث لا سيما رجاله وما يتعلق بهم»**[3].

وهكذا فإن هذه الفترة من حياة ابن حجر، والتي تمتد من سنة (٧٧٧هـ) ــ سنة دخوله المكتب ــ حتى سنة (٧٩٦هـ) تمثل الركيزة الأولى في تكوين شخصيته العلمية، حيث أتى على ما كان سائداً في عصره من كتب ومتون؛ فأودعها ذاكرته، وبدت ساعتئذٍ إرهاصات النبوغ عليه.

---

(١) المرجع السابق ص ٦٨.

(٢) الجواهر والدرر: ص ٦٨ ــ ٦٩.

(٣) الجواهر والدرر: ص ٢٥٠؛ ذيول تذكرة الحفاظ: ص ٣٣٢.

وتمثل سنة (٧٩٦هـ) منعطفاً بارزاً في حياته العلمية، حيث أقبل على مرحلة منهجية من البحث والتخصص؛ فانكب على الحديث وعلومه انكباباً لا مزيد عليه، فكانت لعلومه الصدارة عنده، ولم يهمل غيره من العلوم، بل بقي على اهتمامٍ بها، واطلاع على الأمهات فيها، والأخذ عن أعيان علمائها.

وهذا خلاف ما فهمه بعض الباحثين من قول ابن حجر: «رُفع الحجاب، وفُتح الباب، وأقبل العزم المصمم على التحصيل، ووفق للهداية إلى سواء السبيل»، من أنه انصرف بكليته إلى الحديث وعلومه.

ونحن نقرر بدون ريب ولا شك أن «علم الحديث» رواية ودراية قد تبوأ مكان الصدارة عند الإمام، وشغل معظم وقته وأكثر مؤلفاته، حتى غلب عليه؛ لكن هذا لا يعني أنه أهمل غيره من العلوم الهامة، والتي نبغ فيها، ولنا على ذلك أدلة كثيرة، منها:

١ ــ ذلك العدد الجمّ من الأئمة العلماء المتخصصين في علوم متنوعة، والذين أخذ عنهم ابن حجر في آن واحد، مما سيمر تفصيله.

٢ ــ الكم الهائل والمتنوع من صنوف العلم والمعرفة التي حصلها في رحلاته العريضة والتي شملت: الحديث وعلومه، والفقه وأصوله، والتفسير والقراءات، واللغة والأدب، والتاريخ، وغيرها.

٣ ــ مؤلفاته التي سطرها طيلة حياته كانت متنوعة، فمما كتب عقب سنة (٨٠٠هـ) مثلاً: الرحمة الغيثية ــ في ترجمة الليث بن سعد ــ فرغ منه سنة (٨٣٤هـ)، والدرر الكامنة فرغه سنة (٨٣٧هـ)، في التراجم. وفي التاريخ «إنباء الغمر» وقف به عند سنة (٨٥٠هـ). وفي الفقه: التلخيص الحبير فرغه سنة (٨١٢هـ)، والدراية سنة (٨٢٧هـ)، وبلوغ المرام سنة (٨٢٨هـ).

وهذا ما يعبر عنه قول السخاوي: «كل ذلك مع اشتغاله بغيره[1] من العلوم، والمحافظة على المنطوق منها والمفهوم، كالفقه والعربية والأصول، وغيرها من العلم المنقول والمعقول»[2].

وقول البِقاعي: «فأطلق عنان عزمه نحو بقية العلوم فأكبّ عليها: الفقه، والنحو، والأصلين، وعلوم الأدب: المعاني والبيان... وغيرها، حتى مهر فيها»[3].

٤ ـ ثم الوظائف التي قام بها: كالقضاء والإفتاء، والوعظ والخطابة، وتدريس الفقه والتفسير، وهذه كلها تدل على اهتمامه بالعلوم الأخرى، وإلاَّ لَقَصَر نفسه على الحديث وتدريسه.

هذا وإن القول بأن ابن حجر انصرف للحديث وعلومه دون غيره هو إجحاف بحق هذا الإمام؛ لأننا نسقط ـ بذلك ـ من بنيانه العلمي بعضاً من أركان تفوقه في كثير من العلوم كالفقه والتفسير والتأريخ[4].

طلبه الفقه وأصوله:

ووجه الحافظ عنايته إلى الفقه وأصوله، ليجتمع له علم الحديث رواية، وفقه متونه ودلالة ألفاظه وأحكامه. فتفقه بابن القطان ـ وصيِّه ـ، وبالإمام الزاهد الفقيه العلامة برهان الدين إبراهيم بن موسى الأَبْناسي[5]، ولازمهما كثيراً، وكان الأبناسي يودّه ويعظمه، لأنه كان من أصحاب والده، وكانت

---

(١) أي بغير الحديث.

(٢) الجواهر والدرر: ص ٦٩

(٣) عنوان الزمان: ١/٣٧ ـ ٣٨، نقلاً عن ابن حجر مؤرخاً: ص ٢٦.

(٤) أشار إلى بعض ما ذكرناه الدكتور محمد كمال الدين في كتابه «ابن حجر مؤرخاً» ص ٢٥ ـ ٢٦.

(٥) قال ابن حجر: الإمام الجامع بين طريقي العلم الشرعي والعلم الحقيقي. الجواهر: ص ٦٩، وسيأتي التعريف به إن شاء الله.

ملازمته له من بعد سنة (٧٩٠هـ)، فبحث عليه في «المنهاج» للنووي، وقرأ عليه غير ذلك[١].

وتفقه أيضاً بشيخ الإسلام علامة الأعلام أبي حفص عمر بن رسلان البُلْقَيني، لازمه مدة، وحضر دروسه الفقهية، وقرأ عليه الكثير من «الروضة» ومن كلامه في حواشيها، وسمع عليه بقراءة العلامة شمس الدين البرماوي «مختصر المزني»، وبالعلامة الرُّحلة أبي حفص عمر بن علي ابن المُلَقِّن، قرأ عليه قطعة من «شرحه الكبير على المنهاج». وقرأ في الفقه والعربية أيضاً على الشيخ الإمام نور الدين علي بن أحمد الأدمي، ولازمه كثيراً[٢].

ولازم العلامة إمام الأئمة عز الدين ابن جماعة في غالب العلوم التي كان يقرئها في سنة (٧٩٠هـ) إلى أن مات في سنة (٨١٩هـ)، وأخذ عنه: «شرح منهاج البيضاوي»، و«جمع الجوامع» وشرحه للشيخ[٣]، و«مختصر ابن الحاجب»، و«المطول» للشيخ سعد الدين، والجزء الخامس من «مسند السرّاج»، وغير ذلك[٤]

وحضر دروس العلامة همام الدين ابن أحمد الخوارزمي، وسمع من فوائده. ومن قبله حضر دروس العلامة قنبر العجمي بالجامع الأزهر، وبدر الدين الطنبذي، والشهاب أحمد بن عبد الله البوصيري[٥]، وأخذ عن

---

(١) الجواهر والدرر: ص ٦٩.

(٢) المرجع السابق: ص ٦٩ ــ ٧٠.

(٣) شرح جمع الجوامع من كتب ابن جماعة.

(٤) الجواهر والدرر: ص ٧٧؛ البدر الطالع: ١/٨٨؛ شذرات الذهب: ٧/١٤٠.

(٥) هو أحمد بن عبد الله البوصيري، توفي سنة (٨٠٥هـ)، وقد خلطه محقق «تغليق التعليق»: ــ ١/٨٥ ــ بالشهاب أحمد بن أبي بكر البوصيري، فجعلهما واحداً، وهو خطأ، فالأول شيخ ابن حجر، والثاني تلميذه. انظر: شذرات الذهب: ٤٨/٧، ٢٣٣.

الشيخ جمال الدين الماريديني الحاسب الموقت من فوائده[1].

ولم يزل ملازماً للبلقيني إلى أن أذن له في الإفتاء والتدريس، ثم أذن له بذلك بعد إذن شيخه الحافظ زين الدين العراقي في آخرين[2]. وصورة إذن البلقيني: «أجزت له أن يفتي بذلك لطالبيه بالتوجيه، فإنه نعم الفاضل النبيه. وكتبه عمر البلقيني»[3]

طلبه اللغة العربية وعلومها:

ووجه ابن حجر همته الوافرة إلى اللغة العربية، التي هي مفتاح فهم كتاب الله تعالى، وفقه حديث رسوله ﷺ، فأخذ عن مجد الدين الفِيرُوزَابادي ـ صاحب القاموس المحيط ـ إمام الدنيا في حفظ اللغة والاطلاع عليها. وعن شمس الدين محمد بن محمد الغُماري، المتفرد في النحو في زمانه. وعن محب الدين ابن هشام[4]، وكان وافر الذكاء حسن التعليم مع الدين المتين[5].

ويضيف السخاوي قائلاً: **«ونظر في لغة العرب ففاق في استحضارها، حتى لقد رأيت النواجي يأتي إليه في كل شهر بما يقف عليه من ذلك وشبهه، فيراجعه فيه، فيزيح عنه إشكاله، ويرشده إلى فهمه بديهة، بحيث يكثر الآن تأسفي على عدم ضبط ما كنت أحضره من ذلك»[6].**

«وقرأ على أحد الأفراد في معناه البدر محمد بن إبراهيم البَشْتَكي

---

(١) الجواهر والدرر: ص ٧٧ ـ ٧٨؛ شذرات الذهب: ٩/٧، ٤٨، ٨٣؛ والطُّنُبُذي: نسبة إلى طنبذ، قرية بمصر.

(٢) الجواهر والدرر: ص ٧٠.

(٣) المرجع السابق: ص ٢٠٨

(٤) هو ابن النحوي المشهور العلامة جمال الدين ابن هشام.

(٥) الجواهر والدرر: ص ٨٠؛ شذرات الذهب: ٣٦١/٦، ١٩/٧.

(٦) الجواهر والدرر: ص ٧٨.

مجلساً واحداً من مقدمة لطيفة في «علم العروض»، وكان السبب في ذلك ما سمعته من شيخنا غير مرة، قال: كنت في أول الأمر أنظم الشعر من غير تقدم اشتغال في العروض، فسألني شخص أن يقرأ عليَّ مقدمة في العروض سريعة المأخذ، وأجبته لذلك وواعدته ليوم عيَّنته له، ثم توجهت في الحال من مصر إلى القاهرة، فاجتمعت بصاحبنا البدر البشتكي، وسألته عن مقدمة في ذلك سهلة التناول، فأشار إليها فأخذتها منه، وقرأت عليه منها مجلساً، استفدت منه معرفة الفن بكماله، ورجعت فأقرأتها السائل، ولم أحتج لقراءة باقيها»[1].

وتعلم الخط المنسوب على «أبي علي الزفتاوي»، و «النور البدماصي»[2].

وطلب القراءات على أئمة هذا الفن:

فقرأ على شيخه العلامة شيخ الإقراء برهان الدين التنوخي، وأذن له الشيخ في الإقراء، وأشهد على نفسه ــ على العادة في ذلك ــ في سنة (٧٩٦هـ)[3].

وأخذ ــ رضي الله عنه ــ بهمة وافرة، سليمة باهرة، في طلب العلوم ــ منقولها ومعقولها ــ حتى بلغ الغاية القصوى، وصار كلامه مقبولاً عند أرباب سائر الطوائف، لا يَعْدُون مقالته لشدة ذكائه وقوة باعه، حتى كان خليقاً بقول القائل:

وكان من العلوم بحيث يُقضى ... له في كل علم بالجميع[4]

---

(١) المرجع السابق: ص ٧٩.

(٢) ابن حجر مؤرخاً: ص ٢٣؛ تغليق التعليق: ١/ ٨٥.

(٣) الجواهر والدرر: ص ٧٨؛ البدر الطالع: ١/ ٨٨؛ شذرات الذهب: ٦/ ٣٦٣ ــ ٣٦٤.

(٤) الجواهر والدرر: ص ٧٩.

رحلاته:

إن مما امتازت به أمتنا الإسلامية تلك الرحلات الشاقة المضنية في طلب العلوم الشرعية وغيرها، وخاصةً ما قام به أئمة الحديث وصيارفته، حتى إن كان أحدهم ليرحل في الحديث الواحد[1]، يبتغون بذلك وجه الله سبحانه، ووصل السند برسول الله ﷺ، لا يلتفتون لمشقات الطريق ووعثاء السفر، ولا يأبهون بمتاع الدنيا وطيب الإقامة ورغد العيش، ولسان قائلهم[2] يقول:

رحلتُ أطلبُ أصلَ العلمِ مجتهداً ... وزينةُ المرءِ في الدنيا الأحاديثُ
لا يطلبُ العلمَ إلَّا بازلٌ ذكرٌ ... وليس يُبغضُهُ إلَّا المخانيثُ
لا تُعْجَبَنَّ بمالٍ، سوف تتركُه ... فإنما هذه الدنيا مواريثُ

وللرحلة عند أئمتنا أهداف سنية ومقاصد جليلة: فمن أهم أهدافها: تحصيل الحديث النبوي، والتثبت من تلك الأحاديث دفعاً للخلل والخطأ، وطلب العلوّ في السند، والبحث عن أحوال الرواة، ومذاكرة العلماء في نقد الأحاديث وعللها.

وللرحلات فوائد جمَّة، تنعكس على الأمة، وعلى العالم الذي يضرب في الأرض مرتحلاً، ويتمثل ذلك في: التمكن من الجوانب العلمية بمعرفة آراء العلماء في الأصقاع فيها، ونشر العلم، واتساع الثقافة العامة، وتنمية الفضائل والكمالات في النفس، وكسب صداقات جديدة خالصة.

ولا بد للرحلة من آداب يجب على طالب العلم مراعاتها: وتتلخص في تقديم السماع من علماء بلده، ثم يرحل إلى الآفاق، ويحسن اختيار

---

(١) ألف الحافظ الثقة الخطيب البغدادي كتابه «الرحلة في طلب الحديث»، تناول فيه الرحلة من أجل الحديث الواحد فقط!

(٢) هو أبو الفضل العباس بن محمد الخُراساني. الرحلة في طلب الحديث: ص ٩٦.

أماكن الرحلة، بأن تكون عامرة بالعلماء الفضلاء، وأن يهتم بكثرة المادة العلمية المتلقاة والمسموع مما ليس عنده، ويعتني بالمذاكرة مع المحققين؛ ليكتسب آلة التعمق في العلم، بأن يطرح ما عنده من إشكالات على أهل التحقيق والتمحيص والنقد. مع مراعاة آداب السفر من حفاظ على العبادات، وذكر الله تعالى، وبذل المال، والتحمل والصبر على متاعب السفر[1].

ولقد تجلّى كل ذلك بأبهى صوره، وأرقى درجاته، في إمامنا الكبير ابن حجر، الذي ما كان ليقنع بثقافة موطنه، لأن طموحه العلمي لا يقف عند حدّ، ولقد عبر هو عن ذلك فقال[2]:

وإذا الـديـارُ تَنَكَّـرتْ سـافـرتُ في ... طلبِ المعـارفِ هـاجـراً لـديـارِي
وإذا أقمتُ فـمؤنـسي كُـتبـي فَـلاَ ... أنفـكُّ في الحـالينِ من أسْفَـارِي

فواصلَ الغدو والترحال إلى الشيوخ والمسنِدين والأئمة بالبواكر والعشايا، لتحصيل الإسناد العالي، والعلم المتنوع المتخصص، والحصول على الإجازات، مبتدئاً ببلده ثم بقية مدن مصر، وبعدها يَمَّمَ شطر البلاد الإسلامية، متخيِّراً تلك التي تعجُّ بالعلماء، ولا تزال قبلة الطالبين، باذلاً في سبيل ذلك ماله، مفنياً عمره، متحملاً للمشاق والمتاعب والأهوال، مسهراً ليله، جافياً نومه؛ فكان في حالة صدق فيها من وصفه فقال[3]:

فكمْ سهـرتْ عينـاهُ والنـاسُ نُـوَّمُ ... وكمْ كتبتْ يُمْنـاهُ من خبرٍ يُـروى

● ● ●

---

(١) باختصار شديد عن مقدمة الدكتور العتر لكتاب «الرحلة في طلب الحديث» للخطيب، ص ١٧ ــ ٣١.
(٢) الجواهر والدرر: ص ٨١.
(٣) هو الشيخ محب الدين البكري، الجواهر والدرر: ص ٤٧٩؛ الفتح: ١٣/٥٥٧.

أولاً ــ رحلاته داخل مصر

رحلته إلى قُوص والصعيد:

وأول ما رحل في سنة (٧٩٣هـ) ــ وعمره عشرون سنة ــ إلى قوص[١] وغيرها من بلاد الصعيد. لكنه لم يستفد بها شيئاً من المسموعات الحديثية، بل لقي جماعة من العلماء، منهم قاضي «هُو»[٢] نور الدين علي بن محمد الأنصاري (ت ٨٠١هـ). وسمع من عبد الغفار ابن نوح حفيد مصنف «الوحيد في سلوك طريق أهل التوحيد». ومن ابن السرّاج قاضي قوص، لقيه بها مع جماعة من أهل الأدب، سمع من نظمهم[٣].

ومات ابن لقاضي «هُو» يكنى أبا العباس، فكتب ابن حجر على قبره[٤]:

رحم الله أعظماً دفنوها ... لك تحت الثرى أبا العباسِ
وسقى المُزْنُ ذلك اللَّحدَ غيثاً ... غَدَقاً هامِلاً بغير قياسِ

وقال يصف أخلاق أهل «هو»[٥]:

نزلتُ في «هُو» بالصعيد على ... قوم على الناس بالعلا تاهُو
في بلدة من صلاحِهمْ عَمَرت ... أقولُ عند أذْكارِهم يَاهُو

رحلته إلى الإسكندرية:

ثم رحل إلى الإسكندرية، ودخلها في أواخر ذي القعدة من سنة (٧٩٧هـ)، فأخذ عن مسنِدها التاج أبي عبد الله محمد بن أحمد بن

---

(١) قوص: مدينة كبيرة غربي النيل من أعمال قنا، وكانت قديماً قصبة صعيد مصر.
(٢) هُو: بلدة قديمة بالجانب الغربي للنيل من أعمال قنا، بالقرب من «قوص».
(٣) الجواهر والدرر: ص ٨١ ــ ٨٢، ١٧٠.
(٤) الجواهر والدرر: ص ٨٣.
(٥) المرجع السابق: ص ٨٢.

عبد الرزاق الشافعي (ت ٧٩٨هـ)، آخر من يروي «حديث السِّلَفِيّ» بالسماع المتصل، وهو ممن سمع عليه الحافظ العراقي شيخ ابن حجر. وسمع بها أيضاً من جماعة من المحدثين والمسنِدين منهم:

أحمد بن محمد ابن الخراط (ت ٨٠٣هـ): وقد سمع عليه «التيسير» للداني، و«الموطأ»، و«الشفا» و«ترجمة القاضي عياض»، و«درء السمط في خبر السبط» لابن الأبار، وبعض «التقصي» لابن عبد البر، و«سداسيات الرازي».

وأحمد بن محمد الأزدي (ت بعد ٨٠٠ بقليل): قرأ عليه مشيخة الرازي.

ومحمد بن أحمد بن سليمان الفِيشي (ت ٧٩٨هـ): قرأ عليه جزءاً خرَّجه الحافظ الدمياطي فيه طرق حديث: «لا يشكرُ اللَّهَ مَنْ لا يشكرُ الناسَ».

وناصر الدين ابن الموفّق (ت ٧٩٩هـ): قرأ عليه مشيخة الرازي بسماعه من ابن المصفى.

ومحمد بن أبي بكر بن محمد بن قِرْطاس (ت ٧٩٩هـ): قرأ عليه مشيخة الرازي بسماعه من ابن المصفى وابن الفرات.

ومحمد بن عبد الرحيم الجَزَري (ت ٧٩٧هـ): قرأ عليه مشيخة الرازي بسنده عن ابن المصفى وغيره، وجزء نعيم بن حماد.

ومحمد بن علي بن أحمد البُوري (ت ٨٠٢هـ): قرأ عليه المسلسل بالأولية، وسداسيات الرازي.

ومحمد بن محمد بن عبد الوهاب بن يفتح الله (ت ٧٩٩هـ): قرأ عليه مشيخة الجوهري الصغرى.

ومحمد بن محمد بن الحسيني التونسي (ت ٨٠٣هـ)، ومحمد بن

أحمد بن محمد المعروف بابن المصري[1].

كما اجتمع بالعلّامة شيخ الإقراء شمس الدين ابن الجزري الذي حضَّه ـ لما رأى من نجابته ـ على الرحلة لا سيما إلى دمشق[2].

وقد جمع ابن حجر جزءاً أسماه «الدرر المضية من فوائد اسكندرية»، ذكر فيه مسموعه هناك، وما وقع له من النظم والمراسلات، وغير ذلك.

وأقام باسكندرية حتى تمت سنة (٧٩٧هـ) المذكورة، ودخل في التي تليها عدة أشهر، وكان معه قريبه الزين شعبان، فاشترك معه في الأخذ عن هؤلاء وغيرهم[3].

ورجع من الاسكندرية إلى مصر فأقام بها إلى يوم الخميس الثاني والعشرين من شوال سنة (٧٩٩هـ)، فظهر منها قاصداً أرض الحجاز ـ راكباً البحر ـ ومن ثَمَّ توجه إلى اليمن.

●● ولنكمل الكلام عن رحلاته داخل القطر المصري[4]، حيث إنه لما رجع من حجة الإسلام إلى بلده ـ سنة ٨٠١هـ ـ جدَّ في استكمال ما بقي عليه من مسموع القاهرة ومصر، وفي شيوخه ومسموعه بهما كثرة:

فممن أخذ عنه بمصر: النجم محمد بن علي البالسي (ت ٨٠٤هـ)، سمع عليه «الموطأ» رواية يحيى بن يحيى الليثي. والفخر محمد بن

---

(١) الجواهر والدرر: ص ٨٤ ـ ٨٥، ابن حجر مؤرخاً: ٣٢ ـ ٣٤، تغليق التعليق: ١/ ٨٧ ـ ٨٩.

(٢) الجواهر والدرر: ص ٨٤.

(٣) المرجع السابق: ص ٨٥.

(٤) آثرنا ذلك حتى تكون الرحلة في كل قطر إسلامي واضحة المعالم، دالة على ما أخذه ابن حجر عن أئمتها، وسمع منهم وأسمعهم. وقد وزعها السخاوي متبعاً تسلسل السنوات، وتخللها عنده استطرادات كثيرة، فلعل ما فعلناه أكثر نفعاً.

محمد القاياتي (ت ٨٠٨هـ)، قرأ عليه بعض الأجزاء الحديثية. والمحب محمد بن يحيى بن عبد الله بن الوَحْدِيَّة (ت ٨٠٣هـ)، سمع عليه شيئاً من مسموعه من «الحلية». وعثمان بن محمد بن وجيه الشُنشِني (ت ٧٩٩هـ)، قرأ عليه «جامع الترمذي» من أوله إلى «باب ما جاء في الصلاة بعد الفجر». وأحمد بن الحسن البَيْدقِي (ت ٨١١هـ)، سمع عليه شيئاً من «سنن أبي داود»، ومحمد بن أحمد بن خواجا الحموي الأصل (ت ٨٠٧هـ)، قرأ عليه خماسيات الدَّارَقُطْنِيّ[1].

وممن أخذ عنه بالقاهرة: أبو إسحاق التنوخي (ت ٨٠٠هـ)، قرأ عليه الكثير، ولازمه طويلاً[2]. وأبو الفرج ابن الشحنة (ت ٧٩٩هـ): قرأ عليه «مستخرج أبي نعيم على صحيح مسلم»، والجزء الثاني من «أمالي المحاملي»، و «مسند الطيالسي»، و «سنن الشافعي»، و «سنن أبي داود»، وغيرها. وعبد الواحد الصردي (ت ٧٩٧هـ): قرأ عليه «أربعين حديثاً» تخريج محمد بن يحيى بن سعد، و «جزء سفيان بن عيينة». وإبراهيم بن داود الآمِدي (ت ٧٩٧هـ): قرأ عليه «كتاب الجمعة» للنسائي، و «ثمانيات النجيب» تخريج أبي العباس بن الطاهري. وأبو المعالي الحِلَاوي (ت ٨٠٧هـ): قرأ عليه «مسند أحمد» جميعه. وأبو العباس السويداوي (ت ٨٠٤هـ): قرأ عليه «سنن النسائي» وغيرها. وأبو العباس الجوهري، والجمال الرشيدي، والصدر محمد بن إبراهيم المناوي، وآخرون.

وسمع بالجيزة على: الصلاح أبي علي الزفتاوي (ت ٧٩٤هـ) معظم «مسند الشافعي».

وسمع بالقرافة: على الشهاب أحمد بن محمد بن الناصح

---

(١) الجواهر والدرر: ص ٩٣ ــ ٩٤.

(٢) انظر فصل «شيوخ ابن حجر».

(ت ٨٠٤هـ)، قال ابن حجر: «أخذت عنه قليلاً، ونعم الشيخ كان، سَمْتاً وعبادة ومروءة».

وبجزيرة الفيل: على شيخه حافظ الوقت العراقي.

وبأنبابة: على العلاّمة ولي الدين العراقي ابن الحافظ العراقي[1].

● ● ●

ثانياً ــ رحلته إلى اليمن

كان ــ رحمه الله ــ لا يخلي ساعة من وقته دونما فائدة، وحيثما حلَّ ووجد من يأخذ عنه لم يألُ في ذلك جهداً. من ذلك أنه لما توجه قاصداً اليمن، وخرج من مصر بحراً إلى أرض الحجاز، في يوم الخميس الثاني والعشرين من شوال سنة (٧٩٩هـ)، ووصل «الطور» يوم الأحد ثاني ذي القعدة ــ لقي بها العلاّمة نجم الدين أبا علي محمد بن أبي بكر المصري ثم المكي المعروف بالمرجاني[2] (ت ٨٢٧هـ)، فقرأ عليه بساحل الطور ــ في خامس ذي القعدة ــ حديثاً.

ورافقه في هذه الرحلة ــ قاصداً المجاورة بمكة ــ صلاح الدين الأقفهسي (ت ٨٢١هـ)، فاستأنس به. وكذا رافقهما أبو بكر بن أبي المعالي الزبيدي القحطاني، وغيره، فتزايد الاستئناس، وانتشرت الفوائد الأدبية، وغيرها بينهم[3]. ثم توجهوا إلى «يَنْبُع» فدخلوها يوم الجمعة ثالث عشر ذي الحجة، وممن لقيه بها جار الله بن صالح بن أحمد الشيباني المكي[4] (ت ٨١٥هـ) فقرأ عليه عدة أحاديث من «الترمذي».

---

(١) الجواهر والدرر: ص ٩٣ ــ ٩٥.

(٢) شذرات الذهب: ١٨٢/٧.

(٣) الجواهر والدرر: ٨٥ ــ ٨٦؛ وابن حجر مؤرخاً: ص ٣٤ ــ ٣٥.

(٤) لكن ذكره السخاوي على سبيل التشكك فقال: «لكن ما أتحقق أنه في هذه الخطرة». الجواهر والدرر: ص ٨٦.

وسافروا، فطلع الأقفهسي من «جدة» إلى «مكة»، وتوجه ابن حجر ومن معه إلى بلاد اليمن، فوصلوها في ربيع الأول من سنة (٨٠٠هـ).

وانساح الإمام في مدن اليمن، فاجتمع بالجمِّ الغفير، وحصَّل الكثير مما أخذه عن أعيان علماء «تعز، وزبيد، وعدن، والمُهجم، ووادي الخصيب» وغيرها.

فممن لقيه في تعز[1]: أبو بكر بن محمد بن صالح بن الخياط (ت ٨١١هـ)، وقد مهر في الفقه، وشارك في فنون غيره، قال ابن حجر: «سمعت من فوائده»[2].

والتقى في زَبيد بجماعة منهم[3]: شهاب الدين بن أبي بكر بن علي الناشِري (ت ٨١٥هـ)، برع في الفقه وشارك في غيره، وجمع كتاباً حافلاً بيَّن فيه فساد مذهب ابن عربي ووهاء عقيدته. قال ابن حجر: «اجتمعت به بزبيد، ونعم الشيخ كان»[4].

والعلاَّمة الشرف إسماعيل بن محمد بن أبي بكر بن المقري (ت ٨٣٧هـ)، وقد مهر في الفقه والعربية والأدب، واستفاد منه الكثير، وسمع هو من ابن حجر كتابه «ضوء الشهاب المنتخب من نظمه»، وطارحه، وأحسن السفارة له عند سلطان بلده. قال ابن حجر فيه إنه ما رأى باليمن أذكى منه[5].

والوجيه عبد الرحمن بن محمد العلوي (ت ٨٠٣ أو ٨٠٤هـ)، وكان شاعراً من أعيان زبيد، سمع ابن حجر من فوائده.

---

(١) الجواهر والدرر: ص ٨٦.
(٢) شذرات الذهب: ٧/٩١.
(٣) الجواهر والدرر: ص ٨٦ ــ ٨٧.
(٤) شذرات الذهب: ٧/١٠٩.
(٥) الجواهر والدرر: ص ٨٦؛ شذرات الذهب: ٧/٢٢٠ ــ ٢٢١.

وعبد اللطيف بن أبي بكر الشَّرْجي (ت ٨٠٢هـ)، وكان أحد أئمة العربية، اجتمع به ابن حجر، وسمع من فوائده، كما سمع هو على ابن حجر شيئاً من الحديث[١].

والموفق علي بن الحسن بن أبي بكر الخزرجي[٢] (ت ٨١٢هـ)، مؤرخ اليمن، اشتغل بالأدب، ولهج بالتاريخ فمهر فيه، وكان ناظماً ناثراً. قال ابن حجر: اجتمعت به بزبيد، وكتب لي مدحاً.

والموفق علي بن محمد بن إسماعيل الناشري (ت ٨١٢هـ)، شاعر اليمن في عصره، قال ابن حجر: لقيته بزبيد وسمعت من نظمه قليلاً.

وممن لقيه بعدن[٣]: الرضى أبو بكر بن يوسف بن أبي الفتح بن المستأذن (ت ٨١٦هـ)، تعانى النظر في الأدب، ومهر في القراءات. قال ابن حجر: «سمعت من نظمه، وسمع مني كثيراً»[٤]. وكتب عن ابن حجر من تصانيفه: «تغليق التعليق»، و «تهذيب التهذيب»، و«لسان الميزان».

وأبو المعالي عبد الرحمن بن حيدر بن علي الشيرازي (ت ٨١٧هـ)، قال ابن حجر: «لقيته بعدن فحدثني عن ست العرب[٥] بنت محمد بن الفخر ابن البخاري بأحاديث من المائة المنتقاة من مشيخة الفخر للعلائي».

وسمع بالمُهجم من: أحمد بن إبراهيم بن أحمد القُوصي، وعلي بن أحمد الصنعاني، والقاضي عفيف الدين عبد الله بن محمد الناشري.

---

(١) انظر ترجمته في شذرات الذهب: ١٧/٧.

(٢) جاء في شذرات الذهب: ٩٧/٧: علي بن الحسين بن أبي بكر بن الحسن الخزرجي الزبيدي. والذي أثبتناه من الجواهر والدرر: ص ٨٧.

(٣) الجواهر والدرر: ص ٨٧.

(٤) شذرات الذهب: ١٢٠/٧.

(٥) توفيت سنة (٧٦٧هـ)، وممن سمع عليها الحافظان العراقي والهيثمي. انظر شذرات الذهب: ٢٠٨/٦.

وبوادي الخصيب: من الجمال محمد بن أبي بكر بن علي المصري (ت ٨٢٠هـ) واجتمع في زَبيد ووادي الخصيب **بالعلّامة شيخ اللغويين مجد الدين الفِيرُوزَابادي**[١] (ت ٨١٧هـ)، فقرأ عليه أشياء من جملتها جزء التقطه ابن حجر من «المشيخة الفخرية»، فيه أزيد من ثمانين حديثاً من العوالي. وتناول منه النصف الثاني من تصنيفه الشهير «القاموس المحيط» لتعذر وجود باقيه حينئذٍ، وأذن له مع المناولة في روايته عنه[٢].

وفي زبيد وتعز اجتمع بالإمام محدث اليمن النفيس سليمان بن إبراهيم العلوي التعزّي الحنفي (ت ٨٢٥هـ)، الذي نعته الفيروزابادي بإمام أهل السنة. قال ابن حجر: «سمع مني وسمعت منه»[٣].

ولقي أيضاً علي بن يحيى الطائي المعروف بابن جميع (ت ٨٠٣هـ)، المفوض إليه أمر عدن، فسُرَّ به كثيراً، وبالغ في الإحسان إليه؛ لكونه كان صديقاً لخال ابن حجر قديماً[٤].

وأخذ عن ابن حجر غالبُ من ذكرنا وغيرهم، واغتبطوا به، واستمدوا من فوائده على جاري عوائده[٥].

وخرَّج وهو هناك من مرويات نفسه «الأربعين المهذبة بالأحاديث الملقبة»، إجابة ملتمس ذلك، وهو النفيس العلوي، خرَّجها في يوم واحد!

---

(١) انظر التعريف به مفصلاً في فصل «شيوخ ابن حجر».

(٢) الجواهر والدرر: ص ٨٧. والمناولة: هي أن يعطي الشيخ للتلميذ صحيفة أو كتاباً ليرويه عنه، وقد تكون مقرونة بالإجازة ــ كما هي هنا ــ أو مجردة عنها. انظر: مقدمة ابن الصلاح: ص ١٦٥ ــ ١٦٩؛ الباعث الحثيث: ١١٨ ــ ١١٩؛ تدريب الراوي: ٢/ ٤٢ ــ ٥٤؛ شرح النخبة: ١٣٩ ــ ١٤٠، وغيرها.

(٣) شذرات الذهب: ٧/ ١٧٠، وذكر أنه شافعي.

(٤) و (٥) الجواهر والدرر: ص ٨٨.

وكتب ـ وهو هناك ـ بخطه «التقييد» لابن نقطة، و «فصل الربيع في فضل البديع» في يومين. وأخذوا عنه: «مشيخة الفخر ابن البخاري» و «المائة العشاريات» لشيخه التنوخي. وكذا حدَّث بكتاب ابن الجَزَري في الأدعية المسمّى «الحصن الحصين»؛ فروَّجه له قبلَ دخول مؤلِّفه إلى اليمن[1].

ولما سمع صاحبُ اليمن الملك الأشرف إسماعيل بن عباس[2] (ت ٨٠٣هـ) بقدوم ابن حجر إلى البلاد اليمنية؛ خطبه للاجتماع به في «زبيد» ففعل ذلك، وأهداه «تذكرته الأدبية» بخطه في أربعين مجلداً لطافاً؛ فأثابه أحسن الإثابة، وعامله بما هو جدير به من الإجلال والاحتفال[3].

ورجع من اليمن صحبة المحمل الذي جهزه الأشرف صاحب اليمن إلى مكة، وقد ازدادت معارفه، وانتشرت علومه ولطائفه. ودخل مكة ـ سنة (٨٠٠هـ) ـ وحج حجة الإسلام[4].

رحلته الثانية إلى اليمن:

على أن ابن حجر رحل إلى اليمن للمرة الثانية سنة (٨٠٦هـ) ـ حيث جاور بمكة بعض تلك السنة ـ فلقي بها أيضاً بعض المذكورين آنفاً وغيرهم، فحملوا عنه وحمل عنهم.

«وفي هذه المرة انصدع المركب الذي كان فيه الإمام، فغرق جميع ما معه من الأمتعة والنقد والكتب، ثم يسر الله تعالى بطلوع أكثرها بعد أن

---

(١) الجواهر والدرر: ص ٨٨؛ وابن حجر مؤرخاً: ص ٣٩ ـ ٤٠.

(٢) قال ابن حجر: كان في ابتداء أمره طائشاً، ثم توقَّر وأقبل على العلم والعلماء، وأحب جمع الكتب، وكان يكرم الغرباء ويبالغ في الإحسان إليهم؛ إنباء الغمر: ٤/٢٦٥.

(٣) الجواهر والدرر: ص ٨٨، ٩١.

(٤) المرجع السابق: ص ٨٩.

أقام ببعض الجزائر هناك أياماً. وصُولح عما جرت العادة بأخذه[1] مما طلع بعد الغرق بمال كثير جداً، بحيث يتعجب من كثرة أصله»[2].

وكان من جملة الكتب التي غرقت مما هو بخطه: «أطراف المزي»[3]، و «أطراف مسند أحمد»، و «أطراف المختارة» وترتيب كل من مسندي الطيالسي وعبد بن حميد[4].

وكان من جملة الذهب العين فيها سبعة آلاف مثقال أو أكثر من الذهب المصري، وديعة لابن مسلم! ولذا تجشم الإمام ابن حجر المشقة، فأقام على التماسها في البحر مدة حتى أُخرجت، واغتصب منها الظَّلمةُ بعض ما جرت عادتهم به، كما أشير إليه[5].

وغادر اليمن متوجهاً إلى بلده، فحجَّ[6]، وعاد إلى جدة، وقرأ بها في المحرم سنة (٨٠٧هـ) على أبي المعالي عبد الرحمن بن حيدر الشيرازي ــ الماضي ذكره ــ أحاديث عشرة انتقاها من «أربعين الحاكم». ثم سافر إلى بلده، فأقام بها على عادته الجميلة.

• • •

ثالثاً ــ رحلته إلى الديار الحجازية المقدسة

رحل إمامنا إلى الحجاز غير مرة للحج والمجاورة والاشتغال

---

(١) هو ما أخذه الذين استخرجوا المال والمتاع والكتب، وقد بالغوا في ذلك وظلموا، كما يشير السخاوي.

(٢) الجواهر والدرر: ص ٨٩ ــ ٩٠.

(٣) هو تحفة الأشراف.

(٤) الكتب الأربعة الأخيرة لابن حجر.

(٥) ويعزو السخاوي ــ نقلاً عن شيخه ــ هذا الغرق إلى «عين» بعض رفقة ابن حجر، الذي دخل عليه مرة واستعرض كتبه، وجعل يتعجب من كثرة ما فيها بخطه!

(٦) قال السخاوي: فيما أظن. الجواهر والدرر: ص ٩١.

بـالعلم[1]، حيث تكون الفـرصة سـانحة للمـذاكـرة على من يصـادفهم من العلماء والشيوخ والمحدثين والمسنِدين، زيادة على علماء تلك الديار.

فكان ممن لقيه بمكة[2] جماعة، منهم:

زين العـابدين عبـد الرحمن بن محمـد بن طـولـوبغـا (ت ٨٢٥هـ)، مسند الشام، تفرد وحدَّث، وحج سنة (٨٢٤هـ)[3]. قـال ابن حجر: لقيتـه بمكة سنة أربع وعشرين وقـد أسنَّ، فسمعت عليه الجـزء الثاني من حـديث علي بن حُجْر.

والبـرهـان إبـراهيم بن محمـد بن صـديق الـدمشقي (ت ٨٠٦هـ)، اشتغـل ومهر، وسمـع من الحجار، وإسحـاق الآمدي، وابن تيميـة، وتفرد بالرواية عنهم[4]. قال ابن حجـر: «لقيته بمكـة بعد أن أجـازني من دمشق، قرأت عليه جزء البانياسي».

والمحـدث المكثر محمـد بن علي بن محمـد بن ضـرغـام بن سُكَّـر (ت ٨٠١هـ)، سمـع مـا لا يحصى ممن لا يحصى، وجمــع كثيـراً. قــال ابن حجر: «سمعت منه بمكة، وقد أقرأ القراءات بها»[5].

وأبو الطيب محمـد بن عمر بن علي السُّحُـولي[6] (ت ٨٠٧هـ). قال ابن حجر: «سمعت منه قليلاً».

---

(١) في سنـة (٨٠٠، ٨٠٦، ٨٠٧، ٨١٥، ٨٢٤)، عدا مجيئـه صحبـة والـده ووصيِّـه الزكي الخروبـي.

(٢) الجواهر والدرر: ص ٩١، ٩٢، ٩٣؛ ابن حجر مؤرخاً: ص ٤١ ـ ٤٣.

(٣) إنباء الغمر: ٧/٤٧٦؛ شذرات الذهب: ٧/١٧٠.

(٤) إنباء الغمر: ٥/١٥٧ ـ ١٥٩؛ شذرات الذهب: ٧/٥٤ ـ ٥٥.

(٥) إنباء الغمر: ٤/٨٧ـ٨٨؛ شذارت الذهب: ٧/١١.

(٦) إنباء الغمر: ٥/٢٦٩؛ شذرات الذهب: ٧/٧٢.

وإمام المقام محمد بن أحمد بن إبراهيم الطبري[1] (ت ٨٠٩هـ).
قال الحافظ: «سمعت منه قليلاً».
والحافظ أبو حامد ابن ظَهيرة[2].
وست الكل[3] ابنة الزين أحمد بن محمد القسطلاني (ت ٨٠٣هـ).
قال ابن حجر: «خرَّج لها صاحبنا صلاح الدين جزءاً سمعته عليها بمكة».
وأبو الخير خليل بن هارون الجزائري (ت ٨٢٦هـ). قال ابن حجر: «لقيته بمكة وسمعت من فوائده».
وظهيرة بن حسين بن علي المخزومي[4] (ت ٨١٩هـ)، أخذ عنه ابن حجر «جزء الغطريفي» لغرابة اسمه.
وأبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن سلامة المكي[5] (ت ٨٢٨هـ)، عني بطلب الحديث، ورحل وطوَّف وحدَّث، وكان عارفاً بالقراءات.

وممن لقيه بمنًى[6]:

العلاّمة الزين أبو بكر بن الحسين المراغي[7] (ت ٨١٦هـ)، نزيل المدينة المنورة، ومحدث الروضة الشريفة. قال ابن حجر: «كان أول اجتماعي به بمنًى سنة (٨٠٠هـ)، فسمعت عليه المسلسل، وقرأت عليه الجزء الثاني من كتاب الطهارة للنسائي، وغير ذلك من الأجزاء». وكذا لقيه بمكة والمدينة المنورة.

---

(١) إنباء الغمر: ٦/٤٠ ـ ٤١؛ شذرات الذهب: ٧/٨٥ ـ ٨٦.
(٢) انظر ص ٦٩ من هذا الكتاب.
(٣) إنباء الغمر: ٤/٢٧٩ ـ ٢٨٠؛ شذرات الذهب: ٧/٢٨.
(٤) إنباء الغمر: ٧/٢٣١؛ شذرات الذهب: ٧/١٣٥ ـ ١٣٦.
(٥) إنباء الغمر: ٨/٨٥ ـ ٨٦؛ شذرات الذهب: ٧/١٨٤ ـ ١٨٥.
(٦) الجواهر والدرر: ص ٩٢.
(٧) إنباء الغمر: ٧/١٢٨ ـ ١٢٩؛ شذرات الذهب: ٧/١٢٠.

وبالمدينة المنورة:

سليمان بن أحمد بن عبد العزيز الهلالي (ت ٨٠٢هـ). قال الحافظ: «لقيته بالمدينة، فقرأت عليه جزء آدم بن أبي إياس العسقلاني»، وسيرته مشكورة[1].

والزين عبد الرحمن بن علي بن يوسف الزرْنَدي (ت ٨١٧هـ)، برع في الفقه وغيره، وولي قضاء الحنفية بالمدينة نحواً من ثلاث وثلاثين سنة مع حسبتها، قال ابن حجر: «حدثنا بمسلسل التمر بالمدينة، ولم أضبط ذلك عنه»[2].

ومحمد بن معالي بن عمر بن عبد العزيز الحراني الحنبلي (ت ٨٠٩هـ). قال ابن حجر: «سمعت منه قليلاً»[3]. وغير هؤلاء.

وقرأ بخُليص[4] ـ من أرض الحجاز ـ على الشمس محمد بن أحمد بن عبد الله القزويني (ت ٨١١هـ). قال الحافظ: «اجتمعت به مراراً، وسمعت منه بخليص أحاديث، وكان كثير الحج والمجاورة بالحرمين»[5].

وكان كثيراً ما يحدث في موسم الحج ببعض مروياته، أو يرشد من يصادفه هناك إلى المعروف له من المسنِدين القادمين للحج أو المجاورة، ليأخذوا عنهم. فقد اجتمع به سنة (٨١٥هـ) جماعة من فضلاء مكة وأعيانها، فقرؤوا عليه، وأخذوا عنه بعض تصانيفه، وأذن لهم بالرواية عنه. وكذا أخذوا عنه في المرة التي بعدها «المسلسل بالأولية» وبعضاً من ترجمة

---

(١) إنباء الغمر: ٤/١٦٣ ـ ١٦٤؛ شذرات الذهب: ٧/١٧.

(٢) إنباء الغمر: ٧/١٦٥؛ شذرات الذهب: ٧/١٢٥.

(٣) إنباء الغمر: ٦/٤٧؛ شذرات الذهب: ٧/٨٧.

(٤) حصن بين مكة والمدينة؛ معجم البلدان: ٢/٣٨٧.

(٥) إنباء الغمر: ٦/١٢٧ ـ ١٢٨؛ شذرات الذهب: ٧/٩٣.

البخاري التي ذكرها في مقدمة «الفتح». وحدث في أيام التشريق بمنًى بجزء من تصانيفه في «الحج»، و «بالأربعين المتباينة»، و«تخريج الأربعين النووية»، و «الكلام على حديث القضاة»، كلها من تخريجه. وأرشد جمعاً من قضاة مكة وأعيانها وطلبتها إلى المسنِد عبد الرحمن بن محمد بن طولوبغا ــ وكان قد حج ــ فأخذوا عنه[١].

● ● ●

رابعاً ــ رحلته إلى الديار الشامية

لقد حثَّ شيخُ الإقراء ابنُ الجزري الإمام ابنَ حجر على الرحلة وخاصة إلى دمشق؛ لأنها محجُّ العلماء، وقبلة طلاب العلم، لما يشع فيها من أصناف العلوم الشرعية وغيرها، وما تغصُّ به من أئمة الهدى والعلم في كل صنوف المعرفة.

فعزم إمامنا على الرحلة إلى بلاد الشام، فظهر من القاهرة في عصر يوم الاثنين، الثالث والعشرين من شعبان سنة (٨٠٢هـ)، وصحبته قريبه الزين شعبان، والتقي الفاسي الحافظ. فسمع بالبلاد التي دخلها ــ من بلاد الشام أو التي في الطريق إليها ــ ما لا يوصف ولا يدخل تحت الحصر كثرة، على أمم كثيرة[٢].

وكان ممن لقيه وأخذ عنه «بسرياقوس»[٣]:

قاضيها صدر الدين سليمان بن عبد الناصر الإبشيطي[٤] (ت ٨١١هـ)،

---

(١) الجواهر والدرر: ص ٩٣.

(٢) الجواهر والدرر: ص ٩٦.

(٣) الجواهر والدرر: ص ٩٦؛ ابن حجر مؤرخاً: ص ٤٤، تغليق التعليق: ١/ ١٠٠ ــ ١٠١. وسرياقوس: إحدى قرى محافظة القليوبية بمصر.

(٤) انظر ترجمته في إنباء الغمر: ١١٨/٦.

فأخذ عنه: «جزء البطاقة»، ومنتقى من «جزء الأنصاري».

و «بقَطْيَة»[1]:

رفيقه وصاحبه الحافظ التقي محمد بن أحمد بن علي الفاسي (ت ٨٣٢هـ). قال ابن حجر فيه: «رافقني في السماع كثيراً بمصر والشام واليمن وغيرها، وكنت أوده وأعظِّمه، وأقوم معه في مهماته، ولقد ساءني موته، وأسفت على فَقْدِ مثله، فللَّه الأمر»[2].

و «بغزة»[3]:

الإمام الشهاب أحمد بن محمد بن عثمان الخليلي (ت ٨٠٥هـ)، قرأ عليه عدة أجزاء. قال ابن حجر: «اجتمعت به ونعم الشيخ كان»[4].

والعلامة أعجوبة الزمان برهان الدين إبراهيم بن محمد بن بهادر الغزي المعروف بابن زُقَّاعَة (ت ٨١٦هـ). قال الحافظ: «اجتمعت به غير مرة، وأخذت عنه من نظمه»[5].

و «بنابُلُس»[6]:

إبراهيم وعلي ابنا محمد بن إبراهيم بن العفيف، وسمع من علي «الأول من أمالي ابن سمعون».

وأحمد بن محمد بن عبد القادر، قرأ عليه «المستجاد من تاريخ بغداد». وأبو بكر بن علي بن أبي بكر بن الحكم. وعيسى بن علي بن محمد بن غانم المقدسي.

---

(١) الجواهر والدرر: ص ٩٦. وقطية: قرية في مصر ـ في وسط الرمل ـ قرب الفرما.

(٢) إنباء الغمر: ١٨٨/٨.

(٣) الجواهر والدرر: ص ٩٦. وغزة: مدينة في أقصى الشام من ناحية مصر، من عمل فلسطين.

(٤) إنباء الغمر: ٥/٩٤ ـ ٩٥.

(٥) المرجع السابق: ١١٩/٧.

(٦) الجواهر والدرر: ص ٩٧. ونابُلُس: مدينة مشهورة بأرض فلسطين.

و «بالرملة»[1]:

الإمام الشهاب أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد مهندس الحرم، يعرف بابن العجمي، وبابن مهندس الحرم، (ت ٨٠٣هـ). قال ابن حجر: «سمعت منه بالرملة، ووجدته حسن المذاكرة»[2].

وعبد الله بن سليمان بن عبد الله الأجاري ثم المقدسي. قال الحافظ: «سمعت عليه الفوائد التي في آخر جزء الأنصاري».

و «ببيت المقدس»[3]:

أحمد بن محمد بن عبد الكريم، سمع منه شيئاً من «المعجم الصغير» للطبراني.

وإمام المسجد الأقصى الشهاب أحمد بن محمد بن علي بن محمد بن مثبِّت المالكي (ت ٨١٣هـ)، سمع منه ابن حجر الأحاديث التي في «ثمانيات النجيب»، وغيرها.

والقاضي الشهاب أحمد بن ناصر بن خليفة الباعُوني الشافعي (ت ٨١٦هـ)، سمع الحديث، وتفقه، وكان شاعراً مجيداً، وخطيباً مصقعاً. قال ابن حجر: «اجتمعت به ببيت المقدس، وأنشدني من نظمه، وسمعت عليه جزءاً سمعه من أحمد بن محمد الأيكي صاحب الفخر، ثم اجتمعت به بالقاهرة»[4].

وأبو بكر بن عثمان بن خليل الحوراني الحنفي (ت ٨٠٤هـ)، قرأ عليه المسلسل بالأولية، وجزء البطاقة.

---

(١) الجواهر والدرر: ص ٩٧. والرملة: مدينة بفلسطين، وكانت رباطاً للمسلمين.

(٢) إنباء الغمر: ٤/٢٥٩؛ شذرات الذهب: ٧/٢٥.

(٣) الجواهر والدرر: ص ٩٧ ــ ٩٨.

(٤) انظر: إنباء الغمر: ٧/١٢٤ ــ ١٢٦. وباعونة: قرية بالقرب من عجلون.

والحسن بن موسى بن إبراهيم المكي الشافعي[1] (ت ٨١٧هـ)، سمع منه المسلسل بسماعه على الميدومي.

وصالح بن خليل بن سالم الغزي[2] (ت ٨٠٤هـ)، سمع عليه المسلسل.

وإمام قبة الصخرة عبد الرحمن بن محمد بن حامد المقدسي (ت ٨٠٧هـ)، وعبد الهادي بن عبد الله البسطامي المقدسي (ت ٨٠٩هـ) ولم يكمل الثلاثين، وغزال بنت عبد الله القلقشندية، ومولاها شمس الدين محمد بن إسماعيل بن علي القلقشندي (ت ٨٠٩هـ)، ومحمد بن عمر بن عيسى البصري (ت ٨١١هـ)، ومحمد بن محمد ابن اليسر المؤذن.

و **«بالخليل»**[3]:

لقي محمد بن محمد بن علي بن يحيى المنيحي الحنفي.

و **«بدمشق وصالحيتها»**[4]:

سمع من خلائق منهم: محمد بن محمد بن محمد بن منيع، ومحمد بن محمد بن محمد بن عمر بن قوام، وأحمد بن آقبرص بن بُلْفَاق، وأبو بكر بن إبراهيم الفرائضي، وأبو بكر بن عبد الله بن عبد الهادي، وأبو العباس أحمد بن عبد الحق، وأحمد بن علي بن يحيى الحسني، وفاطمة وعائشة ابنتا محمد بن عبد الهادي، وفاطمة ابنة محمد بن المنجا، وخديجة ابنة إبراهيم البعلبكية، وعبد القادر بن محمد بن إبراهيم الأرموي،

---

(١) انظر ترجمته في إنباء الغمر: ٧/١٥٤.

(٢) المرجع السابق: ٥/٣٤.

(٣) الجواهر والدرر: ص ٩٨. والخليل مدينة قرب بيت المقدس فيها قبر الخليل إبراهيم عليه السلام.

(٤) الجواهر والدرر: ص ٩٨ ــ ١٠٠. والصالحية: هي الآن أحد أحياء دمشق، تقع في سفح جبل قاسيون، بديعة المنظر، تضجّ بالعمران.

ومحمد بن عبد الرحمن ابن الحافظ الذهبي، وعبد الله بن محمد بن أحمد ابن قدامة، وغيرهم.

و «بالزعيفرينة»[1]:

أخذ من أبي العباس أحمد بن إسماعيل بن خليفة الحُسباني ثم الدمشقي، (ت ٨١٥هـ)، أكثر السماع بدمشق والقاهرة. قال ابن حجر: «اجتمعت به مراراً، وأعارني كثيراً من أجزائه التي كان يضنّ بها على غيري»[2].

و «بالنَّيْرَب»[3]:

سمع من المحدث أنس بن علي الأنصاري[4] (ت ٨٠٧هـ)، وعبد الرحمن بن يوسف بن أحمد بن الكفري[5] (ت ٨٠٩هـ)، قال ابن حجر: «قرأت عليه جزء المؤمل بن إهاب، ومن مسموعاته جزء إسحاق رواية الماسرجسي».

مدة إقامته في الشام وكثرة مسموعاته ومطالعاته:

أقام بها مائة يوم، فقد دخلها في الحادي والعشرين من رمضان سنة (٨٠٢هـ)، وبقي فيها إلى أول يوم من المحرم سنة (٨٠٣هـ)، ونزل فيها على صاحبه علي بن محمد بن محمد الدمشقي، المعروف بابن الأدمي[6]، (ت ٨١٦هـ).

وحصل له في هذه المدة ــ مع قضاء أشغاله ــ ما بين قراءة وسماع

---

(١) الجواهر والدرر: ص ١٠٠.

(٢) إنباء الغمر: ٧/٧٨ ــ ٨٠؛ شذرات الذهب: ٧/١٠٨ ــ ١٠٩.

(٣) الجواهر والدرر: ص ١٠٠. والنيرب: قرية مشهورة بدمشق، وسط البساتين. قال ياقوت الحموي: أنزه موضع رأيته. معجم البلدان: ٥/٣٣٠.

(٤) إنباء الغمر: ٥/٢٢٨ ــ ٢٢٩.

(٥) ترجمته في إنباء الغمر: ٦/٣٣ ــ ٣٤.

(٦) ترجمته في إنباء الغمر: ٧/١٣٦؛ شذرات الذهب: ٧/١٣١.

من الكتب المجلدات خاصة: ثلاثة مجلدات من «المعجم الأوسط» للطبراني، ومن «معجمه الكبير» مجلد، و«الصغير» بتمامه مجلد، و«الدعاء» له، مجلد. و«المعرفة» لابن مَنْدَه في أربعة، و«السنن» للدارقطني، في اثنين، و«مسند مسدَّد» و«الموطأ» لأبي مصعب، كل واحد منهما في مجلد. ومن كل كتاب من «صحيح ابن خزيمة، وابن حبان» مجلد، ومن «المختارة» للضياء خمسة، ومن «الاستيعاب» لابن عبد البر، واحد. و«الطهور» لأبي عبيد، و«الذكر» لجعفر الفريابي، و«فضائل الأوقات» للبيهقي، و«الإيمان» لابن منده، و«مكارم الأخلاق» للخَرائِطي، كل واحد من هذه الكتب في مجلد. ومن «مسند الدارمي» مجلد، وقطعة من «مساوىء الأخلاق» للخرائطي، و«الخراج» ليحيى بن آدم، و«مشيخة الباغْبَان»، و«الشمائل» للترمذي، و«الأدب» للبيهقي، و«علوم الحديث» للحاكم، و«الإرشاد» للخليلي، و«حديث قتيبة» للعيار، و«اختلاف الحديث» لابن قتيبة، و«آداب الحكماء» و«ذم الكلام» للهروي، و«السنن» للشافعي رواية ابن عبد الحكم، و«غرائب شعبة» لابن منده؛ كل واحد من هذه الكتب في مجلد. ومن «مشيخة مسعود الثقفي» مجلد، ومن «مسند أبي يعلى الموصلي» مجلد، و«الكنجروديات»[1] في نسختين، مجلد.

فمن هذه الكتب ما يكون مجلدة ضخمة، ومنها ما يكون مجلدة لطيفة، فتكون نحو الثلاثين مجلداً ضخماً، تكون نحو أربعمائة وخمسين جزءاً حديثية، خارجاً عن الأجزاء الحديثية، وهي تزيد على هذا القدر. فيكون ما حصله في تلك الرحلة ما يقارب ألف جزء حديثي[2].

---

(١) هي خمسة أجزاء، خرجها علي بن موسى الشهير بالسكري، من حديث أبي سعيد محمد بن عبد الرحمن الكنجرودي، كما خرجها البيهقي من حديثه أيضاً. الرسالة المستطرفة: ص ٩٣.

(٢) الجواهر والدرر: ص ١٠١ ـ ١٠٢. والجزء هو كتاب جمعت فيه الأحاديث =

هـذا وقد علق ــ رضي الله عنـه ــ في غضون هـذه المـدة بخـطه من الأجزاء الحديثيـة، والفوائـد النثريـة، والسماعات التي يُلحقها في تصـانيفه ونحوها؛ ثمان مجلدات فأكثـر، وأطراف كتـاب «المختارة» للحـافظ ضياء الدين المقدسي في مجلد ضخم، لو لم يكن له عمل في طول المدة إلاَّ هي لكانت كافية في جلالته[1].

ولمـا تواتـرت الأخبار بمجيء المغـول[2] إلى دمشق آثـر العـودة إلى بلده، فظهر من دمشق في أول يوم من سنة (٨٠٣هـ)، وقـد اتسعت معارفـه كثيراً، وأظهر لعلماء الشام وفضلائها حفظاً كثيراً، واغتبـطوا به، وشهـدوا له بالتقدم في فنون الحديث إلى أعلى رتبـة. فأقـام على طريقتـه في التصنيف والإقراء، والإملاء والكتابة، بـل لم يهمل سمـاعه على الشيـوخ وانتخابـه. ويسّر الله له من إقبال الشيوخ عليه وطاعتهم له أمراً عجيباً، بل كانت الشيوخ لا تتعدى أمره؛ وثوقاً منهم به، واعتماداً على وفور ديانته[3].

= المروية عن رجل واحد، سواء كان ذلك الرجل في طبقة الصحابة، أو من بعـدهم، كجزء أحاديث أبـي بكر، وجزء أحاديث مالك. وقد يطلق الجزء على كتاب جُمعت فيـه أحاديث حـول موضـوع واحـد. انـظر: شـرح النخبـة ٥٧ هـامش، الـرسـالـة المستطرفة: ص ٨٦.

(١) الجواهر والدرر: ص ١٠٢ ــ ١٠٣.

(٢) وقد طرق تيمورلنك بمن معه «دمشق» في ربيع الآخر سنة (٨٠٣هـ)، وأول ما نزلت جيوشه في «داريا» ثم «قطنا» ــ بلدتان كبيرتان قريبتان من دمشق ــ غيرهما، وأحاط بالمدينة، ودخلها. وبعد أن أخذ «قلعة دمشق» أباح لمن معه السلب والنهب والقتل والإحـراق، فلم يـدعـوا شيئـاً قـدروا عليـه إلاَّ فعلوه، وطـرحـوا على أهلهـا أنـواع العذاب، وسبوا النساء والأولاد، وفجروا بالنساء نهـاراً، ولا زالوا على ذلـك أيامـاً، وألقوا النار على المباني حتى احترقت بأسرها، ورحل عنها يوم السبت ثالث شعبان سنـة (٨٠٣هـ). فإنـا لله وإنا إليـه راجعون. شـذرات الذهب بـاختصار: ٧/٦٤ ــ ٦٥.

(٣) الجواهر والدرر: ص ١١١ ــ ١١٢.

رحلته إلى حلب[1]:

كان ابن حجر ـ رحمه الله ـ وهو بدمشق قد عزم على التوجه إلى البلاد الحلبية، ليأخذ عن خاتمة المسنِدين بها «عمر بن أيدغمش ـ ت ٨٠١»؛ فبلغته وفاته، فتخلف عن التوجه إليها. ثم يسّر الله عز وجل بعد دَهرٍ ـ وذلك في سنة (٨٣٦هـ) ـ له السفر إلى حلب، وذلك أن السلطان «الأشرف برسباي ـ ت ٨٤١هـ» توجه إلى «آمِد»، لدفع أذى التركمان الذين تغلبوا على بلاد آمد وماردين وغيرها، بعد «الكائنة اللنكية»[2] ـ وقد كثُر إفسادهم ونهبهم أموال الرعايا، وقطع الطرق على القوافل ـ فخرج بالعسكر المصري، وخرج معه ابن حجر قاضي الشافعية، ورفقته قضاة المذاهب الثلاثة الأخرى، وكان ذلك بعد صلاة الجمعة، حادي عشر رجب من السنة المذكورة، ووصلوا الشام في النصف من شعبان[3].

وفي طريقه إلى الشام لم يخلِ وقته من فائدة ـ على جاري عادته ـ فقد كتب وسمع بالبلاد التي مرّ بها:

فكتب في «بِلْبِيس»[4]: عن رفيقه قاضي المالكية العلامة محمد بن أحمد البسطامي (ت ٨٤٢هـ) بحثاً دار في المناظرة بينهما.

وسمع بظاهر «بَيْسان» من رفيقه قاضي الحنابلة المحب أحمد بن نصر الله البغدادي (ت ٨٤٥هـ) حديثاً من سنن أبي داود.

وبصالحية دمشق: كتب حكاية عن قاضي المنصورة شمس الدين ابن كميل.

---

(١) مدينة عظيمة واسعة كثيرة الخيرات طيبة الهواء، ثانية مدن سورية، تقع في الشمال منها، وتبعد عن دمشق حوالي (٣٥٠) كيلومتراً.

(٢) حيث تغلب تيمورلنك ـ بمن معه ـ على دمشق وحلب، كما أسلفت.

(٣) الجواهر والدرر: ص ١١٦، ١٢٠.

(٤) المرجع السابق: ص ١١٧. وبِلْبِيس: مدينة بينها وبين فسطاط مصر عشرة فراسخ، على طريق الشام. معجم البلدان: ١/ ٤٧٩.

وبالخَرَبة ــ وهي دون دمشق ــ : أخذ حكاية عن القاضي عز الدين بن عبد العزيز الحنبلي، بشأن ابن تيمية وعلمه الغزير.

وكتب عن البدر العيني شيئاً من نظمه، وعن أبي ذر ابن الحافظ البرهان أبي الوفا سبط ابن العجمي(١).

ووصل إلى دمشق في النصف من شعبان فنزل بالمدرسة العادلية الصغرى(٢)، وعقد مجلس الإملاء «بجامع بني أمية»، فحضره جمع وافر من الأعيان والفضلاء والطلبة، فأملى «الحديث المسلسل بالأولية»، ثم حديث «احفظ الله يحفظك» و «نضّر الله امرأً»، مع الكلام عليهما. وأقاموا بدمشق إلى العشرين من شعبان ثم رحلوا، وفي عودته إلى القاهرة ــ في ذي الحجة ــ سمع أيضاً بدمشق على جماعة من الأعيان(٣).

وتوجهوا إلى حلب، فوصل إلى «حمص» فكتب بها عن محمد بن محمد ابن القواس المخزومي. **وفي «حماة»(٤)** كتب عن شاعرها التقي ابن حجة الحنفي أشياء من نظمه، وعن الشيخ نور الدين علي بن يوسف بن

---

(١) الجواهر والدرر: ص ١١٧ ــ ١١٨.

(٢) كانت تقع داخل باب الفرج شرقي باب القلعة الشرقي، ثم حرقت بعد سنة (١٩١٠م)، ولم يبق منها سوى بعض جدرانها. كانت داراً لابن موسك، ملكتها الخاتون زهرة بنت الملك العادل أبي بكر محمد بن أيوب، ثم ملّكتها لابنة عم أبيها باي خاتون، فوقفتها هذه على زهرة خاتون المملكة، ومن بعدها تكون «مدفناً ومدرسة ومواضع للسكنى. وشرطت للمدرسة: مدرساً ومعيداً وإماماً ومؤذناً وبوّاباً وقيّماً وعشرين فقيهاً، وجعلت لمصالحها ومصارفها أوقافاً كثيرة». الدارس: ٣٦٨/١.

(٣) انظر: الجواهر والدرر: ص ١٢٠ ــ ١٢١.

(٤) ورد عند السخاوي ــ في الجواهر: ص ١٢١ ــ ١٢٢ ــ أنه وصل «حماة» ثم «حمص»، والصواب كما ذكرناه؛ لأن «حمص» قبل «حماة» للمتجه من دمشق إلى حلب. وحمص تبعد عن دمشق (١٦٥) كيلومتراً، وحماة تبعد زهاء (٢٠٠) كيلومتراً.

مكتوم الشيباني جزءاً فيه «عشرة أحاديث من عشرة الحداد»، وغيرها، وكذا عن الشمس محمد بن أحمد الحموي المعروف بابن الأشقر، حديثاً من البخاري.

ولما أشرفوا على «حلب» تلقاهم أهلها، ومن جملتهم العلامة محب الدين ابن الشحنة، فسلّم على ابن حجر، وهنأه بالسلامة، فسأله الحافظ عن محدث الديار الحلبية برهان الدين سبط ابن العجمي[1]، فذكر له أنه بخير، فقال له: «لم أشد الرحل، ولا استبحت القصر إلاَّ للقيِّه»!! ودخلوا «حلب» في الخامس من رمضان، فنزل ابن حجر عند قاضي الشافعية بحلب العلامة علاء الدين ابن خطيب الناصرية (ت ٨٤٣هـ)، وأقام بحلب خمسة عشر يوماً[2]، سمع من أعيانها، وطوف في البلاد والقرى التي حولها.

فسمع بها على برهان الدين سِبْط ابن العَجَمي[3] «الحديث المسلسل بالأولية»، و«مشيخة الفخر ابن البخاري» تخريج ابن الظاهري، وغير ذلك. وسمع بعض «عشرة الحداد» على القاضي أبي جعفر ابن الضياء، والشهاب أحمد بن إبراهيم المعروف بابن العديم (ت ٨٤٧هـ)، وكتب عن علاء الدين ابن خطيب الناصرية السابق أشياء من نظمه، وعن آخرين.

وهكذا كان دأبه عدم التحاشي عن التقاط الفائدة والسماع، ممن هو أعلى سنداً منه، ولو كان دونه في المرتبة، على جاري عادة الأئمة[4].

---

(١) هو والد أبي ذر الماضي قبل قليل. (٢) الجواهر والدرر: ص ١٢٢.

(٣) هو إبراهيم بن محمد بن خليل الطرابلسي ثم الحلبي، كان إماماً حافظاً بارعاً مفيداً، سمع الكثير، وألف التآليف المفيدة الحسنة، يقال له: البرهان الحلبي، وسبط ابن العجمي حياته (٧٥٣ ــ ٨٤١هـ). شذرات الذهب: ٧/٢٣٧ ــ ٢٣٨؛ الأعلام: ١/٦٥.

(٤) الجواهر والدرر: ص ١٢٢ ــ ١٢٣.

ورحل عن حلب فسمع بظاهر «البيرة» من القاضي كمال الدين محمد بن ناصر الدين محمد بن البارزي (ت ٨٥٦هـ) قصيدة الأديب «شيخ علي» التي امتدح بها البدر ابن الشهاب محمود، كان الكمال سمعها من ناظمها.

ورجع مع البدر العيني (ت ٨٥٥) ـ صاحب عمدة القاري ـ إلى بلده «عينتاب»، فصليا عيد الفطر، وسمع عليه إمامنا بظاهرها ثلاثة أحاديث، أحدها من «مسند أحمد» والآخران من «صحيح مسلم».

ورحل إلى «جبرين»، وقرىء بها عليه. وكتب عن الشرف يحيى بن أحمد بن العطار (ت ٨٥٣هـ) بـ «زاوية خضر» من شعره وشعر غيره.

وبالقرب من «السحولية» ـ ظاهر حلب ـ سمع على البرهان إبراهيم بن علي بن ناصر الدمياطي (ت ٨٤٧هـ) جزءاً فيه «منتقى من مسند الحارث» و «منتقى من العلم» لأبي خيثمة.

وسمع بـ «الباب» و «بُزاعة» من الشهاب أحمد بن أبي بكر بن أحمد الحنبلي، المعروف بابن الرسام (ت ٨٤٤هـ) شيئاً من أربعين القاضي المرداوي.

وسمع على آخرين[1] في بلدان أخرى، ثم رجع إلى حلب فأقام بها حتى رجعت العسكر.

وقد حصل في رحلته هذه فوائد ونوادر علقها في تذكرته التي سماها «جلب حلب»، في نحو أربعة أجزاء حديثية[2].

كما حدّث هناك وأقرأ، وعقد مجالس الإملاء: فحدث بحلب هو والبرهان الحلبي معاً بأشياء، من ذلك: «المحدث الفاصل بين الراوي

---

(١) الجواهر والدرر: ص ١٢٤ ـ ١٢٨، وقد أورد الحافظ تفصيلاً عن رحلته في كتابه «إنباء الغمر» في حوليتي (٨٣٦هـ، ٨٣٧هـ)، ٨/ ٢٧٤ ـ ٢٨١، ٢٩٥ ـ ٢٩٦.

(٢) الجواهر والدرر: ص ١١٧.

والواعي» للرامَهُرْمُزي، قرأه عليهما البقاعي. وأملى بمحراب الحنابلة من الجامع الكبير بها مجلساً في يوم الثلاثاء خامس عشر رمضان، افتتحه بالحديث المسلسل بالأولية[1]. وعقد مجلس الإملاء أيضاً في ثالث عشر شوال، فحضره أعيان الحلبيين كالبرهان المذكور، والعلامة البدر ابن سلامة، وأعيان المصريين، واستمر يملي كل يوم ثلاثاء، حتى أكمل ستة مجالس غير الأول[2]. كما قرىء عليه ــ بجبرين ــ وعلى ابن خطيب الناصرية كتابُ «الأربعين» لابن المجبِّر. كذلك قرىء عليه أشياء كثيرة رواية ودراية: فمن الرواية «مسند الشافعي»، ومن الدراية «شرح التحفة»[3].

وقد علّق بخطه في حال إقامته بدمشق وحلب أشياء كثيرة جداً تزيد على مجلدين، فمن ذلك أنه انتقى من «شرح البخاري» للحافظ برهان الدين الحلبي مجلداً، وانتقى تاريخ قزوين للرافعي المسمى «بالتدوين»، وانتقى زوائد الألفاظ للغزي، ولخص «ثبت» البرهان الحلبي، وما علقه من تاريخ حلب المسمى «الدر المنتخب في تكملة تاريخ حلب» لابن خطيب الناصرية[4].

وصلى بالناس صلاة الكسوف ــ بالجامع الكبير بحلب ــ فما سلّم إلّا وقد انجلت الشمس، وغربت فصلوا المغرب بالجامع[5].

كذلك بيَّن في هذه السفرة بسائر البلاد التي اجتاز بها فسادَ ما بثّه الشمس محمد بن أحمد الفرياني ــ نسبة إلى «فريانة» إحدى مدن إفريقية ــ المغربي من الأسانيد المركبة المختلقة في تلك النواحي، فرجع

---

(١) المرجع السابق: ص ١٢٥.

(٢) المرجع السابق: ص ١٢٦.

(٣) الجواهر والدرر: ص ١٢٧، ١٢٩.

(٤) الجواهر والدرر: ص ١٢٩؛ إنباء الغمر: ١/ ٤.

(٥) إنباء الغمر: ٨/ ٢٨٠.

الكثير عن الرواية عنه[1].

وبعد أن طوّف بالبلدان التي حول حلب عاد إليها، وتوجه مع العسكر المصري في يوم السبت سابع ذي الحجة، ونزلوا بدمشق، وخطب بالسلطان ــ إذ أمره بذلك ــ في «جامع بني أمية» يوم الجمعة في السابع والعشرين من ذي الحجة في «وداع السنة» وارتحلوا من دمشق في اليوم الذي يليه ــ وهو السبت ــ ووصلوا إلى القاهرة في يوم الأحد العشرين من المحرم سنة (٨٣٧هـ)[2].

ورافقه في هذه السفرة قريبه الزين شعبان، ونقيبه الشهاب ابن يعقوب، وموقّعه ناصر الدين ابن المهندس، وتلميذه العلامة البِقاعي، وغيرهم من الأتباع[3].

وهكذا شهدت حياة هذا الإمام رحلات كثيرة في طول البلاد الإسلامية وعرضها[4]، فأخذ عن أعيانها، وسمع منهم وأسمعهم، واستفاد منهم وأفادهم، فكان ــ في حال الطلب ــ مفيداً في زي مستفيد، وكان كالغيث أينما وقع نفع.

ولقد صدق تلميذه البقاعي إذ يقول فيه[5]:

كم قد رحلتَ وقد سمعتَ مصنَّفاً	فالدينَ قد أحييتَ بالأسفارِ
وسكنتَ في العليا تقىً وفضائلاً	أنت الشهابُ بكَ اهتداءُ الساري

---

(١) الجواهر والدرر: ص ١٢٩.

(٢) الجواهر والدرر: ص ١٢٨ ــ ١٢٩. و «وداع السنة»: تقليد متبع يشبه في أيامنا الاحتفال برأس السنة الهجرية.

(٣) الجواهر والدرر: ص ١٢٩.

(٤) ذكر السخاوي البلاد التي رحل إليها شيخه الحافظ، ورتبها على حروف المعجم. الجواهر والدرر: ص ١٣٠.

(٥) الجواهر والدرر: ص ٣٢٩ ــ ٣٣٠؛ فتح الباري: ١٣/ ٥٥٢.

الفَصل الخامِس
شيُوخُهُ وَأَساتِيْذُهُ

●● لقد طوّف ابن حجر ورحل إلى كثير من الأقطار، واجتمع بفحول الرجال، وخُصَّ بأساتذة حفاظ كبار، أخلصوا في تثقيفه وتعليمه وتوجيهه؛ فكان لهم الأثر الحسن في تكوين شخصيته الفذة، وتأثر بهم في تواليفه الكثيرة البديعة. ولقد حصل له من العناية الربانية، والتوفيقات الإلّهية، أن اجتمع له من الشيوخ «الذين يُشار إليهم ويعوَّل في حل المشكلات عليهم، ما لم يجتمع لأحد من أهل عصره، لأن كل واحد منهم كان متبحراً ورأساً في فنٍّ اشتهر به، لا يلحق فيه: فالبُلْقَيني في سعة الحفظ وكثرة الاطلاع، وابن المُلَقِّن في كثرة التصانيف، والعراقي في معرفة علم الحديث ومتعلقاته، والهيثمي في حفظ المتون واستحضارها، والمجد الشيرازي[1] في حفظ اللغة واطلاعه عليها، والغُمَاري في معرفة العربية ومتعلقاتها، وكذا المحب ابن هشام كان حسن التصرف فيها؛ لوفور ذكائه، وكان الغماري فائقاً في حفظها، والأَبْناسِي في حسن تعليمه وجودة تفهيمه، والعز ابن جماعة في تفننه في علوم كثيرة بحيث إنه كان يقول: أنا أقرىء في خمسة عشر علماً، لا يعرف علماء عصري أسماءها! والتنوخي في معرفة القراءات وعلوِّ سنده فيها»[2].

بل إن الإمام الحافظ نفسه قد أشار إلى ذلك في ترجمة الفِيرُوزَابادي، فقال: «وهو آخر الرؤوس الذين أدركناهم مؤخراً، فإني

---

(١) هو الفيروزابادي صاحب القاموس المحيط.

(٢) الجواهر والدرر: ص ٧٩ ــ ٨٠.

أدركت على رأس القرن رؤساء في كل فن: كالبلقيني، والعراقي، والغماري، وابن عرفة، وابن الملقن، والمجد هذا»[1].

●● وشيوخه كثيرون جداً، وقد جمعهم ابن حجر ــ وفاءً لهم وليتذكر عهدهم ــ في كتاب جليل القدر هو «المَجْمَع المؤسَّس للمُعْجَم المُفَهْرَس»، ورتبهم على حروف المعجم، وقسمهم قسمين: الأول من حمل عنه عن طريق الرواية، والثاني من أخذ عنه شيئاً في المذاكرة والدراية. ورتبهم من حيث العلو إلى خمس مراتب[2]. وذكر في ترجمة كل شيخ جميع مسموعه عليه ــ وإن لم يستوعب في بعضهم ــ ليكون كالفهرست لمسموعاته. وجملتهم نحو أربعمائة وخمسين شيخاً له بالسماع والإجازة الخاصة دون الإجازة العامة. كما ذكر شيوخه، وعرَّف بهم في فهرس مروياته «تجريد أسانيد الكتب المشهورة والأجزاء المنثورة»، المسمى بالمعجم المفهرس.

وقد تولى السخاوي ذكر شيوخ أستاذه، وعدَّهم، وزاد فيهم عما ذكره شيخه طائفة قليلة، وقسمهم ثلاثة أقسام:

القسم الأول: فيمن سمع منه الحديث، ولو حديثاً تاماً، وعدتهم (٢٣٠) نفساً.

القسم الثاني: فيمن أجاز له، وعدتهم (٢٢٥) نفساً.

القسم الثالث: فيمن أخذ عنه مذاكرة أو إنشاءً، وعدتهم (١٨٩) نفساً.

فمجموعهم (٦٤٤) نفساً، فيهم زهاء (٥٥) امرأة، تكرر فيهم ستة عشر نفساً، فالخالص من ذلك (٦٢٨) شيخاً[3].

---

(١) الجواهر والدرر: ص ٨٠. قال السخاوي: «وابن عرفة إنما أجاز له».

(٢) انظر الكلام على هذا الكتاب في بحث «مصنفات ابن حجر».

(٣) انظر بالتفصيل ما جاء في الجواهر والدرر: ص ١٣٥ ــ ١٧٧.

وبهمته الوافرة، ونشاطه الموصول، وذكائه الوقاد، وحافظته الواعية، وفهمه الثاقب الخارق؛ استوعب كمّاً هائلاً مما عند هؤلاء الأساتيذ في كل فن أجادوه، أو علم بذلوه، حتى صار ملء السمع والبصر، فسارت بذكره الركبان، وتحدث باسمه كل لسان، وازدانت المراجع بتقريراته وتحقيقاته، والمكاتب بتآليفه ومصنفاته.

وقد سبق لنا ذكر جملة صالحة من أشياخه، وتعريف موجز بكل منهم، خلال كلامنا عن نشأته وطلبه العلم ورحلاته، ونشير الآن ببعض من التفصيل إلى الرؤوس منهم في كل علم من العلوم التي أخذها إمامنا ابن حجر عنهم.

● ● ●

أولاً ــ شيوخه في القراءات وحفظ القرآن وتجويده

١ ــ التنوخي (٧٠٩ ــ ٨٠٠هـ)[١]:

هو إبراهيم بن أحمد بن عبد الواحد بن عبد المؤمن، التنوخي، البعلي الأصل، الدمشقي المنشأ، نزيل القاهرة، الشيخ برهان الدين الشامي، المقرىء المجوّد، المسنِد الكبير.

ولد سنة تسع وسبعمائة ــ أو أوائل عشر ــ وجدَّ واجتهد، حتى أجاز له العلماء مثل: إسماعيل بن مكتوم، وابن عبد الدائم، والقاسم ابن عساكر، وجمع كثير يزيدون على الثلاثمائة. ثم طلب الحديث بنفسه، فسمع الكثير من أبي العباس الحجار، والبِرْزَالي، والمِزِّي، وخلق يزيدون على المائتين.

وعني بالقراءات فأخذ عن الجعبري والبرقي وغيرهما، ثم رحل فأخذ

(١) انظر ترجمته في: إنباء الغمر: ٣٩٨/٣ ــ ٤٠١؛ شذرات الذهب: ٣٦٣/٦ ــ ٣٦٤؛ الجواهر والدرر: ص ٧٨.

عن أبي حيان وابن السراج وغيرهما، ومهر في القراءات، وكتب مشايخه له خطوطهم، وصار شيخ الديار المصرية في القراءات والإسناد.

وأقبل على الفقه، فتفقه «بدمشق» على شيوخها إذ ذاك، ثم رحل إلى «حماة» فتفقه على شرف الدين البارزي، وإلى «حلب» فتفقه على ابن النقيب، ثم إلى «القاهرة» فأخذ عن شمس الدين ابن القماح، وصحب العز ابن جماعة وسمع عليه.

تصدر للتدريس والإقراء والإفتاء في دمشق والقاهرة، وانتفع به خلق كثيرون، منهم ابن حجر.

ملازمة ابن حجر له: لازمه الحافظ ثلاث سنوات، وصل فيها عليه كثيراً من مسموعاته التي تفرد بها، وأذن له ـ التنوخي ـ بالإقراء سنة (٧٩٦هـ). وتوفي في جمادى الأولى سنة ثمانمائة.

قال ابن حجر: «أخذت عنه الكثير من الكتب الكبار والأجزاء، ولازمته مدة طويلة». وقال: «وخرجت له عشاريات مائة، ثم خرجت له المعجم الكبير في أربعة وعشرين جزءاً، فصار يتذكر به مشايخه وعهده القديم، فانبسط للسماع وحُبب إليه، فأخذ عنه أهل البلد والرحالة، فأكثروا عنه، وكان قد أضرَّ بأخرة، وحصل له خلط ثقل منه لسانه، فصار كلامه قد يخفى بعضه، بعد أن كان لسانه ـ كما يقال ـ كالمبرد، ومات فجأة من غير علة».

ومما قرأ الحافظ أو سمع عليه: صحيح البخاري، سنن الترمذي، سنن النسائي، الموطأ رواية الليثي، مسند الدارمي، صحيح ابن حبان، مساوىء الأخلاق للخرائطي، الثاني من حديث ابن مسعود لابن صاعد، مشيخة الرازي، جزء أبي الجهم، جزء ابن نحلة[1]، وغيرها.

---

(١) الجواهر والدرر: ص ١٧٨ ـ ٢٠٢.

٢ ــ صدر الدين محمد بن محمد بن محمد بن عبد الرزاق السَّفْطي المقرىء (ت ٨٠٨هـ):

ينسب إلى بلدة «سَفْط» من قرى مصر. أكمل ابن حجر عنده حفظ القرآن العظيم، بعد أن كان قرأه في «المكتب» عند شمس الدين ابن العلاف، وشمس الدين الأطروش[١].

٣ ــ الشهاب أحمد بن محمد ابن الفقيه علي الخيوطي (ت ٨٠٧هـ):

اشتغل كثيراً، وعني بالقراءات، ورافق ابن حجر في سماع الحديث. قرأ الحافظ عليه القرآن تجويداً[٢].

● ● ●

ثانياً ــ شيوخه في الفقه

١ ــ البُلْقَيْنِيّ[٣] (٧٢٤ ــ ٨٠٥هـ):

هو عمر بن رَسْلاَن بن نصير بن صالح بن شهاب بن عبد الخالق بن عبد الحق، الشيخ الفقيه المحدث، الحافظ المفسر، الأصولي المتكلم،

---

(١) المرجع السابق: ص ٦٢.

(٢) الجواهر والدرر: ص ٦٤.

(٣) انظر ترجمته في: إنباء الغمر: ٥/١٠٧ ــ ١٠٩؛ طبقات الشافعية: ٤/٣٦؛ طبقات المفسرين: ٢/٥؛ ذيول تذكرة الحفاظ: ٢٠٦، ٣٦٩؛ طبقات الحفاظ للسيوطي: ٥٤٢؛ شذرات الذهب: ٧/٥١؛ البدر الطالع: ١/٥٠٦؛ الأعلام: ٥/٤٦؛ معجم المؤلفين: ٧/٨٤.. وغيرها. وأغلب المصادر على ضبط «البُلْقيني» بضم الباء وسكون اللام وكسر القاف، لكن الزركلي رجَّح فتح القاف؛ لأبيات وردت في «الضوء اللامع» من قول هلال المغربي:

قالوا شيوخ لم يطيقوا عدّهم … فأعدهم بالألف والألفَيْنِ

لكن سيدنا وعالم عصرنا … شيخ الشيوخ إمامنا البلقَيْني

انظر الأعلام: ٢/٧٤ هامش.

النحوي اللغوي، المنطقي الجدلي، الخلافي النظار، شيخ الإسلام، بقية المجتهدين، منقطع القرين، فريد الدهر، أعجوبة الزمان، سراج الدين أبو حفص الكناني، العسقلاني الأصل، البلقيني المولد، المصري، الشافعي.

مولده في شعبان سنة (٧٢٤هـ) ببلقينة، من قرى مصر الغربية، حفظ القرآن وهو ابن سبع سنين ببلده، وحفظ «الشاطبية» و«المحرر» للرافعي، و«الكافية الشافية» لابن مالك، و«مختصر ابن الحاجب».

له الذهن السليم والذكاء الذي على كبر السن لا يريم، ولولا أن نوع الإنسان مجبول على النسيان لكان معدوماً فيه؛ فلم يكن في الحفظ وقلة النسيان من يماثله بل ولا من يدانيه، بحيث إنه لم يمت حتى كان قصارى الماهر في العلم أن ينسب نفسه إليه، ويتبجح بالقراءة عليه.

ومن نوادر حفظه أنه أول ما دخل «الكاملية» وطلب من ناظرها بيتاً، فاعتلَّ عليه ولم يعطه، واتفق مجيء شاعر الناظر بقصيدة، وأنشده إياها بحضرة البلقيني، فقال للناظر: قد حفظتُها! فقال له الناظر: إن كان كذلك أعطيتك بيتاً، فأملاها له من حفظه جميعها! فأعطاه البيت.

درس الفقه على الشيخ نجم الدين الأسواني، وابن عدلان، وزين الدين الكتناني، وحضر عند الشيخ تقي الدين السُّبْكي، وبحث معه الفقه. وبرع في المذهب الشافعي، وانتهت إليه رياسته، وله فيه ترجيحات واختيارات.

وأخذ الأصول عن الشيخ شمس الدين الأصفهاني، والنحو والأدب عن الشيخ أبي حيان، وتخرج بغيرهم من مشايخ العصر.

وسمع «صحيح البخاري» من جمال الدين ابن شاهد الجيش، و«مسلم» من ابن القماح، وسمع بقية الكتب الستة وغيرها من المسانيد وغيرها من جماعة.

أجاز له من دمشق الحافظان الذهبي والمزي، كما أجاز له ابن الخباز وابن نباتة، وآخرون.

اشتهر اسمه، وعلا ذكره، وظهرت فضائله، وبهرت فوائده، واجتمعت الطلبة للاشتغال عليه بكرة وعشيّاً.

وكان عظيم المروءة، جميل المودة، كثير الاحتمال، كثير المباسطة مع مهابته، وكان يعمل مجلس الوعظ، ويجمع عنده الفقراء والصلحاء، ويحصل له خشوع وخضوع، وشهد جمع بأنه العالم الذي على رأس القرن. وكان كثير الصدقة، طارحاً للتكلف، قائماً بالحق، ناصراً للسنة، قامعاً لأهل البدعة.

ودارت عليه الفتوى بحيث إنها كانت تأتيه من أقطار الأرض البعيدة، وكان موفقاً فيها، يجلس للكتابة عليها من بعد صلاة العصر إلى الغروب من رأس القلم[1] غالباً! إلى أن صار يضرب به المثل في العلم، ولا تركن النفس إلاَّ إلى فتواه. وكان لا يأنف من تأخير الفتوى عنده إذا أشكل عليه منها شيء، إلى أن يحقق أمرها من مراجعة الكتب!!

ولقد كثر ثناء العلماء عليه، فقال البرهان الحلبي: «رأيته رجلاً فريد دهره، لم تر عيناي أحفظ منه للفقه وأحاديث الأحكام، وقد حضرتُ دروسه مراراً وهو يقرىء في «مختصر مسلم» للقرطبي، يقرؤه عليه شخص مالكي، ويحضر عنده فقهاء المذاهب الأربعة، فيتكلم على الحديث الواحد من بكرة إلى قريب الظهر، وربما أذن الظهر ولم يفرغ من الحديث»!!!

قال الشوكاني: «وهذا تبحر عظيم، وتوسُّع باهر، فإن استغراق هذا الوقت الطويل في الكلام على حديث واحد يتحصل منه كراريس».

---

(١) أي من حفظه بلا احتياج إلى مراجعة كتاب!

وقال له ابن كثير: «أذكرتنا ابن تيمية»! وكذا قال له ابن شيخ الجبل: «ما رأيت بعد ابن تيمية أحفظ منك».

وتولى البلقيني مناصب سنيَّة منها الإفتاء في «دار العدل» رفيقاً لبهاء الدين السُّبْكي، والتدريس: حيث ولي تدريس «الزاوية» ستاً وثلاثين سنة يقرر بها المذهب الشافعي. و «الحجازية» و «الملكية» و «جامع طولون» و «الظاهرية البرقوقية»، وغيرها.

والقضاء: حيث ولي قضاء العسكر بعد ابن السبكي، وقضاء دمشق عوضاً عن تاج الدين السبكي، فباشره دون السنة، وعاد إلى القاهرة متوفراً على الاشتغال والفتيا والتصنيف.

أما مصنفاته: فله الكثير، لكن لم يكمل منها إلّا القليل، لأنه ــ كما قال تلميذه ابن حجر ــ «كان يشرع في الشيء، فَلِسَعَةِ علمه يطول عليه الأمر، حتى إنه كتب من شرح البخاري على نحو عشرين حديثاً مجلدين! وعلى «الروضة» عدة مجلدات تعقبات، وعلى البدر الزركشي مجلداً ضخماً».

ومن تآليفه: «التدريب»، و «تصحيح المنهاج»، و «الملمات بردّ المهمات»، و «ترتيب الأم على الأبواب»، و «الينبوع في إكمال المجموع»، و «الفوائد المحضة على الشرح والروضة»، و «محاسن الاصطلاح» في الحديث، و «شرح البخاري»، و «شرح الترمذي».. وغيرها.

ابن حجر وشيخه البلقيني:

قال ابن حجر: «لازمت الشيخ مدة، وقرأت عليه عدة أجزاء حديثية، وسمعت عليه أشياء، وحضرت دروسه الفقهية، وقرأت عليه الكتب: من «الروضة»، ومن كلامه في حواشيها، و «دلائل النبوة» للبيهقي، وقرأت عليه المسلسل بالأولية». كما قرأ عليه جزءاً من «الحلية»، والجزء التاسع

والعشرين من «أمالي الضبي». وسمع عليه الكثير من صحيح البخاري وصحيح مسلم، والكثير من سنن أبي داود، ومختصر المزني[1].

توفي البلقيني ـ رحمه الله ـ في ذي القعدة سنة (٨٠٥هـ)، ودفن بمدرسته التي أنشأها بدرب بهاء الدين، ورثاه ابن حجر ـ وكان في الحج ـ بقصيدة طنانة زيادة على مائة بيت، مطلعها:

يا عين جودي لفقد البحر بالمطر   واذري الدموع ولا تبقي ولا تذري
لورد ترداد دمع ذاهباً سبقت   شهب الدموع بعيني جرية النهر

ابن المُلَقِّن[2] (٧٢٣ ـ ٨٠٤هـ):

هو عمر بن علي بن أحمد بن محمد بن عبد الله، الإمام العلامة، شيخ الإسلام وعلم الأئمة الأعلام، عمدة المحدثين، وقدوة المصنفين، سراج الدين أبو حفص الأنصاري، الأندلسي الأصل، المصري المعروف بابن الملقن.

وكان أصل أبيه من الأندلس، فتحول منها إلى التكرور، ثم قدم القاهرة فاستوطنها وتأهَّل بها، وولد له ابنه عمر هذا في ربيع الأول سنة (٧٢٣هـ)، ومات عنه وهو ابن سنة، فأوصى به إلى الشيخ عيسى المغربي ـ وكان يُلَقِّن القرآن بجامع ابن طولون ـ فتزوج بأمه، وتربى عمر في حجره، ونُسب إليه، فصار يعرف «بابن المُلَقِّن». وكان هو يغضب من ذلك، ولم يكتبه بخطه، إنما كان يكتب «ابن النحوي»، لأن أباه كان نحوياً معروفاً بالتقدم في ذلك.

---

(١) الجواهر والدرر: ص ٦٩ ـ ٧٠؛ تغليق التعليق: ١/١١٥.

(٢) انظر ترجمته في: إنباء الغمر: ٥/٤١ ـ ٤٦؛ طبقات الشافعية: ٤/٤٣؛ طبقات الحفاظ للسيوطي: ص ٥٤٢؛ ذيول تذكرة الحفاظ: ص١٩٧، ٣٦٩؛ شذرات الذهب: ٧/٤٤؛ البدر الطالع: ١/٥٠٨؛ الأعلام: ٥/٥٧؛ معجم المؤلفين: ٧/٢٩٧.. وغيرها.

سمع الحديث الكثير، حتى إنه ذكر مرة أنه سمع ألف جزء حديثية، فسمع على ابن سيد الناس، والقطب الحلبي، وتخرج في الحديث بزين الدين الرحبي، وعلاء الدِّين مُغَلْطاي، وكتب عنهما الكثير. وأكثر من تحصيل الأجزاء والكتب الكبار، وسمع بمصر من الأعيان، وارتحل إلى دمشق فسمع بها من متأخري أصحاب الفخر ابن البخاري، وأجاز له جماعة كالمِزِّي.

وعني بالفقه فأخذ عن شيوخ عصره، فتفقه بالتقي السبكي والعز ابن جماعة، وغيرهما. وأخذ العربية عن أبي حيان والجمال ابن هشام، وغيرهما. وفي القراءات عن البرهان الرشيدي. واشتغل في كل فن، حتى قرأ في كل مذهب كتاباً.

وكان من أعذب الناس ألفاظاً، وأحسنهم خُلقاً، وأجملهم صورة، كثير المروءة والإحسان والتواضع، موسعاً عليه، كثير الكتب جداً، ثم احترق غالبها قبل موته.

ارتفع قدره، واشتهر ذكره، وبَعُدَ صيته، فأشغل الناس قديماً، ودرَّس عدَّة سنين، وتصدى للإفتاء دهراً، وناب في القضاء عمراً.

أثنى عليه الأئمة قديماً، واعتدل ابن حجر فقال بأنه في أول أمره كان أعظم منه في آخره، وأجحف ابن حجي في قوله فيه: «كان ينسب إلى سرقة التصانيف، فإنه ما كان يستحضر شيئاً ولا يحقق علماً، ويؤلف المؤلفات الكثيرة على معنى النسخ من كتب الناس». وقد رد الشوكاني هذا فقال: «وفي هذا الكلام من التحامل ما لا يخفى على منصف، فكتبه شاهدة بخلاف ذلك، منادية بأنه من الأئمة في جميع العلوم، وقد اشتهر صيته، وطار ذكره، وسارت مؤلفاته في الدنيا».

وصنف في كل فن، واشتهر بكثرة التصانيف، حتى كان يقال إنها بلغت ثلاثمائة مجلدة ما بين كبير وصغير. ومن تصانيفه:

«شرح الحاوي»، و«شرح البخاري» في عشرين مجلداً، ثم شرح «زوائد مسلم»، و«زوائد أبي داود»، و«زوائد الترمذي»، و«زوائد النسائي»، و«زوائد ابن ماجه»، وشرح «الألفية» في العربية، و«منهاج البيضاوي»، و«مختصر ابن الحاجب». ومن مؤلفاته أيضاً: «البدر المنير» تخريج أحاديث الرافعي، ثم اختصره في «الخلاصة»، ثم اختصره في «المنتقى»، و«تخريج أحاديث المهذب»، و«تخريج أحاديث الوسيط»، و«الإعلام بفوائد عمدة الأحكام» وهو من أحسن مصنفاته، و«الإشراف على أطراف الكتب الستة»، و«طبقات المحدثين»، و«طبقات القرّاء»، و«طبقات الأولياء».. وغيرها كثير جداً.

احترق غالب كتبه قبل موته، وتغير حاله بعدها، فحجبه ولده نور الدين إلى أن مات في ربيع الأول سنة (٨٠٤هـ) بالقاهرة رحمه الله رحمة واسعة.

ابن حجر وشيخه ابن الملقن:

صحب الحافظُ هذا الإمامَ الأعجوبة، وسمع منه وقرأ عليه، ويقول في ذلك: «قرأت على الشيخ قطعة كبيرة من شرحه الكبير على المنهاج، وأجاز لي، وقرأت عليه السادس والسابع من أمالي المخلِّص، والمسلسل بالأولية بسماعه من أحمد بن كشتغدي، والجزء الخامس من مشيخة النجيب»(١).

٣ ــ الأبْناسِي(٢) (٧٢٥ ــ ٨٠٢هـ):

هو إبراهيم بن موسى بن أيوب، الأبناسي الشافعي، برهان الدين أبو محمد، العالم الفقيه العابد، شيخ الشيوخ بالديار المصرية.

---

(١) الجواهر والدرر، ص ٧٠؛ ابن حجر مؤرخاً: ص ٢٨؛ تغليق التعليق: ١/ ١٢١.

(٢) انظر ترجمته في: إنباء الغمر: ٤/ ١٤٤ ــ ١٤٧؛ طبقات الشافعية: ٤/ ٥؛ شذرات الذهب: ٧/ ٢؛ الأعلام: ١/ ٧٥؛ معجم المؤلفين: ١/ ١١٧.

ولـد بـأبْنـاس ـ قـريـة صغيـرة بـالـوجـه البحـري من مصـر ـ سنـة (٧٢٥هـ). تخــرج في الفقـه على جمــال الـدين الإسنــوي وولي الـدين المنفلوطي، وغيرهما. وتخرج في الحديث بمُغَلْطاي، وسمـع على الوادي آشي، وأبـي الفتـح الميدومي، ومحمـد بن إسماعيـل الأيوبـي، وطـائفـة، بـالقاهـرة. وسمع من العفيف عبـد الله ابن الجمـال المـطري، وخليـل بن عبد الرحمن وغيرهما بمكة، ورحل إلى دمشق وسمع بها. وقد حج وجـاور مرات.

ومما سمعـه: صحيــح البخـاري، وسنن أبـي داود، والتــرمـذي، والنسـائي، والموطـأ، والشفاء. وخـرَّج له الـولي العراقي «مشيخـة» حدث بها، وبالكتب الستة وغيرها.

قال فيه ابن حجر: «مهر في الفقـه والأصول والعـربـيـة، وبنى زاويـة بالمقس[1] ظاهـر القاهـرة، وأقام بهـا، يحسن إلى الطلبـة، ويجمعهم على التفقه، ويرتب لهم ما يأكلون، ويسعى لهم في الـرزق، خصوصـاً الواردين من الضواحي؛ فصار أكثر الطلبة بالقاهرة من تلامذته، وتخرج به منهم خلق كثير! وكان حسن التعليم، لين الجانب، متواضعاً، بشوشاً، متعبداً متقشفاً، مطرح التكلف».

وقـد تولى هـذا الإمام العـالم الربـاني التدريس «بمـدرسـة السلـطان حسن»[2]، و«بـالآثار النبـوية»[3]، و«بـالجـامـع الأزهر».

---

(١) وهو بين يدي القاهرة، على النيل.

(٢) تقـع تجاه القلعـة بالقـاهرة، أنشـأها السلطان نـاصـر حسن بن النـاصـر محمـد بن قلاوون. طبقات الشافعية: ١١٢/٣.

(٣) قيـل إن هذه الآثـار النبوية كانت بحيـازة جماعـة بينبع، اشتـراهـا الصـاحب بهـاء الدين بن حنا، ونقلها إلى مصر، وبنى لها مسجداً خاصاً مطلاً على النيل.

وله مصنفات في الحديث والفقه والأصول والعربية، منها: «العدة من رجال العمدة» تراجم عمدة الأحكام، «الدرة المغنية في شرح الألفية»، و«الشذا الفياح من علوم ابن الصلاح».

حج وجاور مرات، وتوفي في المحرم سنة (٨٠٢هـ) آيباً من الحج «بعيون القصب» بالقرب من عقبة أيلة، ودفن هناك، رحمه الله.

ابن حجر وشيخه الأبناسي:

قال الحافظ :«سمعت منه كثيراً، وقرأت عليه الفقه».

وكانت ملازمته له من بعد سنة (٧٩٠هـ)، ومما قرأه عليه: «المنهاج» للنووي، وقطعة كبيرة من سنن الترمذي، والمسلسل، وغير ذلك.

٤ ـ ابن القطان[1] (٧٣٠ ـ ٨١٣هـ):

هو محمد بن علي بن محمد بن عمر بن عيسى، شمس الدين ابن القطان، المصري الشافعي، يعرف بابن القطان، حرفة أبيه وأخيه. وهو وصيُّ الحافظ.

ولد سنة (٧٣٠هـ)[2]، ونشأ في طلب العلم، ولازم الشيخ بهاء الدين ابن عقيل، وقرأ في الأصول على عماد الدين الإسنائي، والعربية على شمس الدين ابن الصائغ.

وصفه ابن حجر فقال: «طلب العلم، وجَدَّ إلى أن وَجَد، ومهر في الفقه والعربية وفي القراءات وصنف بها. وعلق على الألفية شرحاً، ورأيت بخطه شرح الحاوي لشيخنا ابن الملقن في مجلدين، كتبه عن مؤلفه في

---

(١) انظر ترجمته في: إنباء الغمر: ٦/٢٥٩ ـ ٢٦٠؛ طبقات الشافعية: ٤/٥٧؛ شذرات الذهب: ٧/١٠٤؛ البدر الطالع: ٢/٢٢٦؛ الأعلام: ٦/٢٨٧؛ معجم المؤلفين: ١١/٥٧؛ الجواهر والدرر: ص ٦٥، ٧٠.

(٢) وفي بعض المراجع سنة ميلاده (٧٣٧هـ).

سنة خمسين. ودرَّس في عدة أماكن، وأفتى، وقد انفرد في مصر بذلك، حتى كان كثير من الرؤساء يقدمه على كثير من المشايخ؛ لقوة ذهنه وكثرة استحضاره. ثم ناب في الحكم[1] عن القاضي جلال الدين[2]، ومات على ذلك في شوال سنة ثلاث عشرة وثمانمائة. وهو أول شيخ اشتغلت عليه، وكان أبي قد جعله أحد الأوصياء، فتصرف تصرفاً عجيباً، سامحه الله»!!

وهذا من الحافظ في غاية الإنصاف والنزاهة والتورع والتحوُّط، لأن هذا الوصيَّ قد أساء في تركته، ومع ذلك ما ندت من ابن حجر كلمة تعريض، بل ــ كما ترى ــ وصفه بما هو لائق به[3]، والله يرحم الجميع.

من مصنفاته: «السهل» في القراءات السبع، و«بسط السهل» شرحه في مجلدين، و«ذيل على طبقات الإسنوي» و«شَرح ألفية ابن مالك» يزيد على أربعة مجلدات، و«المشرب الهني في شرح مختصر المزني».

علاقة ابن حجر بشيخه وما أخذ عنه:

حضر الحافظُ درسه في الفقه وأصوله، والعربية، والحساب، وغيرها، وقرأ عليه شيئاً كثيراً من «الحاوي الصغير»، وأجاز له.

●● وقرأ في الفقه والعربية أيضاً على الشيخ الإمام نور الدين علي بن أحمد الأدمي (ت ٨١٣هـ) ولازمه كثيراً. وأول شيوخه في الفقه ابن القطان والأدمي، ثم الأبناسي وابن الملقن، فالبلقيني.

● ● ●

---

(١) أي القضاء.

(٢) أي البلقيني.

(٣) وقد نقل في الجواهر والدرر: ــ ص ٦٥ ــ عن ديوان ابن حجر بيتين شنَّع فيهما على ابن القطان للسبب المذكور، فلعل ذلك كان إبّان وقوع الحادثة، وفي الآخر كان الأمر على ما ذكرناه من المسامحة.

ثالثاً ــ شيوخه في أصول الفقه

ونكتفي بـالكـلام على شيخـه إمـام الأئمـة ابن جمـاعـة[1] (٧٤٩ ــ ٨١٩هـ):

هـو محمـد بن أبـي بكـر بن عبـد العـزيـز بن محمـد بن إبـراهيم بن سعد الله بن جماعـة، عز الـدين أبو عبـد الله، الكناني، الحمـوي الأصل، المصري، الشافعي، الشيـخ الإمام العـلاّمة، المحقق المفنن، الأصـولي، المتكلم الجدلي النظار، النحوي اللغوي، البيـانيّ، أستاذ الـزمان، وفخـر الأوان، الجـامع لأشتـات جميع العلوم، شيـخ الديـار المصريـة في العلوم العقلية.

ولد في ذي القعدة سنة (٧٤٩هـ) بطريق ينبـع، وحبب إليه الاشتغـال فأكب عليه، ولـم يلتفت إلى شيء من الأشياء، إلاَّ إليه.

قـال ابن حجر: «سمـع من القـلانسي والعَـرَضي وغيـرهمـا، وحفظ القـرآن في شهر، كـل يوم حـزبين!! واشتغل بـالعلوم على كبر، وأخـذ عن السـرّاج الهنـدي، والضيـاء القِـرْمي، والمحب نـاظـر الجيش، والعـلاء السِّيـرامي، وابن خلدون، والحِـلاَوي، والتـاج السُّبْكي، وأخيـه البهـاء، والسراج البلقيني، وغيرهم».

وكـان من علوِّ همته أنـه لا ينـظر شيئاً إلاَّ أحب أن يقف على أصله، ويشارك فيه، حتى مهر في علوم عديدة منها: الفقه، والتفسير، والحـديث، والأصـلان، والجـدل والخِـلاف، والنحـو والصـرف، والمعـاني والبيـان والبديع، والمنطق والهيئة والحكمة، والزِّيج والطب، والفـروسية، والـرّمح

---

(١) انـظر ترجمتـه في: إنبـاء الغمـر: ٧/٢٤٠ ــ ٢٤٣؛ طبقـات الشـافعيـة: ٤/٤٩؛ طبقات المفسرين: ٢/٩٧؛ شذرات الذهب: ٧/١٣٩؛ البدر الطالـع: ٢/١٤٧؛ الأعلام: ٦/٥٦؛ معجم المؤلفين: ٩/١١١ وغيرها.

والنشاب والدَّبوس، والثقاف والرمل، وصناعة النفط، والكيمياء، وفنون أخر. وأما الشعر فكان ينظم شعراً عجيباً، غالبه بلا وزن!

وكان يقول: أعرف خمسة عشر علماً لا يعرف علماء عصري أسماءها.

وأتقن العلوم، وصار بحيث يقضى له في كل فن بالجميع، حتى صار المشار إليه بالديار المصرية في الفنون العقلية، ويفاخرون به علماء العجم في كل فن. وأقرأ وتخرج به طبقات من الخلق، وكان أعجوبة زمانه في التقرير، وخضع له في ذلك كل أحد، وسلَّم له القريب والبعيد، وفضلاء مصر كلهم عيال عليه في ذلك.

وكان يتحرى ألا يكون إلَّا على طهارة، ولا يمكِّن أحداً من الغيبة، مع ما هو فيه من ممازحة الطلبة ومفاكهتهم، والتواضع المفرط.

أما مصنفاته فكثيرة جاوزت الألف ـ كما يقول ابن حجر ـ وجمع أسماءها في جزء منفرد، ولكن ضاع أكثرها بيد الطلبة، ومن عيون تلك المصنفات:

في الأصول: «شرح جمع الجوامع»، و«نكت عليه»، و«ثلاث نكت على مختصر ابن الحاجب»، و«حاشية على شرح البيضاوي للإسنوي»، و«حاشية على متن المنهاج»، و«حاشية على العَضد»، وغير ذلك.

وفي النحو: «حاشية على شرح الألفية لابن الناظم لها»، و«حاشية على التوضيح لابن هشام»، و«حاشية على المغني له»، و«ثلاثة شروح على القواعد الكبرى له»، و«ثلاثة شروح على القواعد الصغرى له»[1]، وغيرها.

---

(١) المغني والقواعد الكبرى والقواعد الصغرى هي للإمام النحوي ابن هشام الأنصاري، وقد خلطها محقق تغليق التعليق: ـ ١/١٢٨ ـ بكتب الأصول، فذكرها معها!!

وفي المعاني والبيان: «مختصر التلخيص»، و «ثلاث حواشٍ على المطول»، و «حاشية على المختصر».

وفي الفقه: «نكت على المهمات» و «نكت على الروضة» و «شرح التبريزي».

وفي الحديث: «شرح علوم الحديث لابن الصلاح»، و «تخريج أحاديث الرافعي»، و «ثلاثة شروح على منظومة ابن فَرْح في الحديث»، وغير ذلك.

ومن مصنفاته أيضاً: «الأنوار» في الطب، و «نكت على فصول أبقراط»، و «فلق الصبح في أحكام الرمح»، و «أوثق الأسباب في الرمي بالنشاب»، و «الأمنية في علوم الفروسية»، و «الأسوس في صناعة الدبوس»، وغير ذلك الكثير.

توفي ــ رحمه الله ــ في شهر ربيع الآخر سنة (٨١٩هـ)، شهيداً بالطاعون، ولم يخلف بعده مثله.

ابن حجر وشيخه ابن جماعة:

تخرج بهذا الإمام خلائق كثيرون، وطار اسمه، وانتشر ذكره في الآفاق، وقصده الناس من الشرق والغرب، ومن أعيان من تخرج به الحافظ ابن حجر، حيث لازمه في غالب العلوم التي كان يقرئها، خلال مدة طويلة جداً من سنة (٧٩٠هـ) إلى (٨١٩هـ). وقد أخذ عنه في الأصول[1]: «شرح منهاج البيضاوي»، و «جمع الجوامع»، وشرحه لابن جماعة نفسه، و «المختصر الأصلي» لابن الحاجب، و «النصف الأول من شرحه» للقاضي

---

(١) جاء في ذيول تذكرة الحفاظ ــ ص ٣٣٠ ــ أن ابن حجر أخذ الأصول عن «نصرة الإسلام العز عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز بن جماعة»، وهو وهم، وإنما أخذ الأصول عن عز الدين محمد بن أبي بكر الذي ترجمنا له. وقد نبه الطهطاوي على ذلك في «التنبيه والإيقاظ»: ص ١٥٠ ــ ١٥١.

عضد الدين، و «المطول» لسعد الدين، وغير ذلك.

وقد أثنى ابن حجر على شيخه الفذ هذا، فقال: «كنت لا أسميه في غيبته إلَّا إمام الأئمة».

● ● ●

رابعاً ـ شيوخه في اللغة والنحو والأدب

١ ـ الفِيرُوزَابادي[1] (٧٢٩ ـ ٨١٧هـ):

هو محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم بن عمر بن أبي بكر بن إدريس بن فضل الله، الشيرازي، الفيروزابادي، اللغوي، الشافعي، إمام عصره في اللغة.

ولد في سنة (٧٢٩هـ) بكارزين ـ من أعمال شيراز ـ فحفظ القرآن وهو ابن سبع سنين، وانتقل إلى شيراز وهو ابن ثمان، وأخذ اللغة والأدب عن والده، ثم عن قوام الدين عبد الله بن محمود، وغيرهما من علماء شيراز. وارتحل إلى العراق، ودخل واسط، وقرأ بها القراءات العشر، ثم دخل بغداد فأخذ عن تاج الدين محمد بن السباك، وقرأ عليه «المشارق» للصغاني. ثم ارتحل إلى دمشق فأخذ بها عن أكثر من مائة شيخ منهم التقي السُّبكي، ودخل بعلبك وحماة وحلب، ودخل القدس فقطن به نحو عشر سنين، وسمع من الحافظ صلاح الدين العلائي، ودرَّس وتصدَّر. ثم دخل القاهرة فكان ممن لقيه بها الجمال الإسنوي، والبهاء ابن عقيل، وابن هشام، والعز ابن جماعة، وابن نباتة، وغيرهم. وحج فسمع بمكة من اليافعي وغيره. وجال في البلاد الشمالية والمشرقية، ودخل الروم والهند، ولقي

---

(١) انظر ترجمته في: إنباء الغمر: ٧/١٥٩ ـ ١٦٣؛ طبقات الشافعية: ٤/٦٣؛ طبقات المفسرين: ٢/٢٧٥؛ البدر الطالع: ٢/٢٨٠؛ شذرات الذهب: ٧/١٢٦؛ مفتاح السعادة: ١/١١٧؛ الجواهر والدرر: ص ٨٠، ٨٧؛ الأعلام: ٧/١٤٦؛ ومعجم المؤلفين: ١٢/١١٨، وغيرها.

جمعاً من الفضلاء، وحمل عنهم شيئاً كثيراً، وسمع الكثير من مشايخ الشام والعراق ومصر وغيرها.

وكان كثير الكتب حتى إنه قال: «اشتريت كتباً بخمسين ألف مثقال ذهب»!! ولا يسافر إلاَّ وهي معه في عدة أعدال على عدة جمال، ويفتحها في غالب المنازل، ويطالع فيها.

ومن مروياته: الكتب الستة، وسنن البيهقي، ومسند أحمد، وصحيح ابن حبان، ومصنف ابن أبي شيبة، وقرأ «صحيح مسلم» بدمشق على ناصر الدين محمد بن جهبل في ثلاثة أيام.

وكان سريع الحفظ، ويحكى عنه أنه كان يقول: ما كنت أنام حتى أحفظ مائتي سطر!!

وأما معرفته باللغة واطلاعه على نوادرها فأمر مستفيض، فقد كان بحر علم لا تكدره الدلاء.

لقي في رحلاته الملوك والأكابر، ونال عندهم وجاهة ورفعة، وأكرموه، فلما دخل «زَبيد» تلقاه سلطانها الأشرف إسماعيل بالقبول، وبالغ في إكرامه، وصرف له ألف دينار، سوى ألف أخرى أمر بها ناظرَ عدن بتجهيزه بها. واستمر مقيماً في كنفه على نشر العلم، فكثر الانتفاع به، وأضاف إليه قضاء اليمن، فبقي فيه إلى حين وفاته، وهي مدة تزيد على عشرين سنة. حتى إنه صنف له كتاباً، وأهداه له على أطباق، فملأها الأشرف له دراهم!! وأراد الفيروزابادي سنة (٧٩٩هـ) التوجه إلى مكة، فكتب إلى السلطان بذلك، فاستعطفه السلطان أن يبقى في اليمن قائلاً: **«لقد كانت اليمن عمياء فاستنارت، فكيف يمكن أن نتقدم وأنت تعلم أن الله قد أحيى بك ما كان ميتاً من العلم؟! فبالله عليك إلاَّ ما وهبت له بقية هذا العمر. والله يا مجد الدين يميناً بارة، إني أرى فراق الدنيا ونعيمها ولا فراقك أنت اليمنَ وأهلَه»!!.**

ألا حيّى الله هذا السلطان المبارك الذي يعظم العلماء، ويرى فراقهم أصعب من فراق كرسي الحكم!

ولم يكن المجد قط دخل بلداً إلّا وأكرمه متوليها مع المبالغة، مثل شاه منصور بن شجاع صاحب «تبريز»، والأشرف صاحب «مصر»، وابن عثمان ملك الروم، وأحمد بن أويس صاحب «بغداد»، وغيرهم.

أما مصنفاته فكثيرة جليلة: ففي التفسير: «بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز» و«تنوير المقباس في تفسير ابن عباس»، و«تيسير فاتحة الإياب في تفسير فاتحة الكتاب»، و«الدر النظيم المرشد إلى مقاصد القرآن العظيم»، وغيرها.

وفي الحديث: «شوارق الأنوار العلية في شرح مشارق الأنوار النبوية»، و«منح الباري بالسيح الفسيح الجاري في شرح صحيح البخاري»[1]، و«الدرر الغوالي في الأحاديث العوالي»، و«تسهيل طريق الوصول إلى الأحاديث الزائدة على جامع الأصول»، وغير ذلك.

وفي التاريخ: «نزهة الأذهان في تاريخ أصبهان»، و«تعيين الغرفات للمعين على عين عرفات».

---

(١) جاء في البدر الطالع: ـ ٢/٢٨٢ ـ أن اسمه «فتح الباري في شرح صحيح البخاري»، وقال الشوكاني: «ولعل ابن حجر لم يسمع بذلك حيث سمى شرحه بهذا الاسم». اهـ. قلت: وهذا ليس بصواب؛ فابن حجر اطلع على شرح شيخه، ولم يرتضه، وقال فيه: «صار الشيخ مجد الدين يدخِل في شرح البخاري من كلام ابن العربي في «الفتوحات» ما كان سبباً لشين الكتاب المذكور، ولم أكن أتهم الشيخ بالمقالة المذكورة، إلّا أنه كان يحب المداراة». إنباء الغمر: ٧/١٦١. ثم إن تسمية «فتح الباري» ليست من ابتداع الفيروزابادي ـ إن سلّمنا بأن اسم كتابه كذلك ـ بل سبقه إليها ابن رجب الحنبلي (ت ٧٩٥هـ)، وجاء آخرون بعد ابن حجر فسمّوا كتبهم بهذا الاسم. انظر: إتحاف القاري: ص ٤٠٦.

وفي اللغة: «اللامع المعلم العجاب الجامع بين المحكم والعباب»، أكمل منه خمسة مجلدات، ويقدر ــ لو تمَّ ــ بمائة مجلد، و«القاموس المحيط»[1] وهو عديم النظير، و«تحبير الموشين فيما يقال بالسين والشين»، وغيرها.

مات ــ رحمه الله ــ في ليلة العشرين من شوال سنة (٨١٧هـ) بزبيد، وقد ناهز التسعين، وهو ممتع بسمعه وحواسه.

ابن حجر وشيخه الفيروزابادي:

أخذ عن المجد أكابر العلماء في كل بلد دخله، ومن جملتهم الحافظ ابن حجر والمقريزي والبرهان الحلبي. وقد اجتمع ابن حجر به في رحلته إلى اليمن، يروي ذلك فيقول: «اجتمعت به في زبيد، ووادي الخصيب، وناولني جلَّ القاموس، وأذن لي مع المناولة أن أرويه عنه، وقرأت عليه من حديثه عدة أجزاء، وسمعت منه المسلسل بالأولية بسماعه من السُّبكي».

٢ ــ الغُمَاري[2] (٧٢٠ ــ ٨٠٢هـ):

هو محمد بن محمد بن علي بن عبد الرزاق الغماري ثم المصري، المالكي، شمس الدين. ولد في ذي القعدة سنة (٧٢٠هـ)، وأخذ العربية عن أبي حيان[3] وغيره، وسمع الكثير من مشايخ مكة، كاليافعي والفقيه خليل، وسمع بالاسكندرية من النويري، وابن طرخان، وحدث بالكثير.

---

(١) قال الأديب نور الدين ابن العفيف المكي الشافعي لما قرأ «القاموس» على مؤلفه:

مُذْ مَدَّ مجدُ الدين في أيامِهِ ... من فيضِ بحرِ علومِه القاموسا
ذهبتْ «صحاحُ» الجوهريِّ كأنها ... سحرُ المدائن حين ألقى موسى

شذرات الذهب: ٧/ ١٣٠.

(٢) انظر ترجمته في: إنباء الغمر: ٤/ ١٧٩ ــ ١٨١؛ شذرات الذهب: ٧/ ١٩؛ الجواهر والدرر: ص ٨٠.

(٣) هو محمد بن يوسف بن علي، أبو حيان الأندلسي الغرناطي، نحوي عصره ولغويّه، ومفسِّره ومحدِّثه، ومقرئه ومؤرخه وأديبه. حياته (٦٥٤ ــ ٧٤٥هـ).

قال ابن حجر: «كان عارفاً باللغة العربية، كثير المحفوظ للشعر، قوي المشاركة في الأدب، ما زال ينفع ويفيد حتى أصبح شيخ النحاة بمصر بدون مدافع». مع مشاركة في القراءات والأصول والفروع والتفسير.

توفي في شعبان سنة (٨٠٢هـ)، عن اثنتين وثمانين سنة، وعدَّه ابن حجر من الرؤوس الذين أدركهم على رأس القرن التاسع.

ابن حجر وشيخه الغماري:

قال الحافظ: «حدثنا بالبردة بسماعه من أبي حيان عن ناظمها، وأجاز لي غير مرة».

٣ ـ البدر البشتكي[1] (٧٤٨ ـ ٨٣٠هـ):

هو محمد بن إبراهيم بن محمد، أبو البقاء، بدر الدين الأنصاري البشتكي، دمشقي الأصل، مولده ووفاته بالقاهرة، نسبته إلى «خانقاه بشتك».

شاعر أديب مشهور، ولد سنة (٧٤٨هـ) بجوار جامع «بشتك الناصري». نشأ محباً للعلم، وحفظ القرآن وعدة مختصرات، وتعانى الأدب فمهر فيه، ولازم ابن أبي حجلة وابن الصايغ، ثم قدم ابن نباتة فلازمه، ثم رافق جلال الدين ابن خطيب داريا، وأخذ عن البهاء السبكي وغيره.

وحفظ «الكتاب» في فقه الحنفية ثم تحول شافعياً، وأمعن النظر في كتب ابن حزم، فغلب عليه حبه. وسلك كل طريق، واشتغل في فنون كثيرة، لكنه لم يتقن شيئاً منها. أخذ الأدب، عن ابن نباتة، وقال الشعر

---

(١) انظر: إنباء الغمر: ٨/١٣٢ ـ ١٣٣؛ شذرات الذهب: ٧/١٩٥، البدر الطالع: ٢/٩٣؛ الأعلام: ٥/٣٠٠؛ معجم المؤلفين: ٨/٢١٥؛ الجواهر والدرر: ص ٧٨ ـ ٧٩.

الحسن فكاد يحكيه في الرقة والانسجام، وشعره سائر وقد ذكر منه المصنفون في الأدب شيئاً كثيراً.

كان له قدرة على النسخ بحيث يكتب في اليوم خمس كراريس، وكتب لنفسه ولغيره ما لا يدخل تحت الحصر، فكان لأجل ما يكتبه موسعاً عليه في دنياه.

قال فيه ابن حجر: «وفي الجملة كان عديم النظير في الذكاء وسرعة لإدراك، إلَّا أنه تبلَّد ذهنه بكثرة النسخ».

من كتبه: «طبقات الشعراء» كبير، و«مركز الإحاطة» اختصر به «الإحاطة» في مجلدين، وجمع ديوان شيخه ابن نباتة، وفاته كثيرٌ استدركه عليه ابن حجر، ولم يجمع هو نظم نفسه مع كثرته، فجمعه الشهاب الحجازي.

مات يوم الاثنين ثالث وعشرين جمادى الآخرة سنة (٨٣٠هـ).

ابن حجر وشيخه البدر البشتكي:

لازم ابن حجر شيخه هذا، وأفاد منه، وقال في ذلك: «لازمته بضع سنين، وسمعت منه كثيراً من شعره وفوائده».

وقد كثر انتفاعه به وبكتبه في الأدبيات، ومما قرأ عليه مقدمة لطيفة في علم العروض.

٤ ــ المحب ابن هشام[1] (٧٤٩هـ ــ ٧٩٩هـ):

هو محب الدين محمد ابن العلّامة جمال الدين عبد الله بن يوسف بن هشام. حضر على الميدومي وغيره، وقرأ العربية على أبيه وغيره، وشارك في غيرها قليلاً.

---

(١) هو ابن العلّامة اللغوي ابن هشام صاحب «مغني اللبيب» وغيره. انظر ترجمته في: إنباء الغمر: ٣٥٩/٣؛ شذرات الذهب: ٣٦١/٦؛ الجواهر والدرر: ص ٨٠.

كان إليه المنتهى في حسن التعليم مع الدين المتين. مات في رجب سنة (٧٩٩هـ) عن نحو من خمسين سنة.

أخذ ابن حجر عنه العربية، وسمع عليه «علوم الحديث لابن الصلاح» وبعض الأجزاء الحديثية.

● ● ●

خامساً ـ شيوخه في الحديث

هيَّأ الله لإمامنا الحافظ ابن حجر من أئمة علم الحديث ورجاله مَنْ كان كل منهم أمة وحده، يشار إليه، وتخضع الرقاب لقوله، ولا تقصد الطلبة سواه، ولعل هذا من أكبر الأسباب التي أثرت في شخصية ابن حجر العلمية؛ فغلب عليه طلب الحديث، حتى لمع نجمه فيه وشيوخه أحياء، وشهدوا له بالحفظ، ورجعوا إليه في المشكلات. ونشير في هذه الإلماحة الوجيزة إلى عيون الأعيان من أولئك الشيوخ، وعلى رأسهم:

١ ـ الحافظ العراقي[1] (٧٢٥ ـ ٨٠٦هـ):

هو عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحمن بن أبي بكر بن إبراهيم، الكردي، الرازناني الأصل، المهراني المصري، الشافعي، زين الدين أبو الفضل. الإمام الأوحد، العلاّمة الحجة، الحبر الناقد، عمدة الأنام، حافظ الإسلام، فريد دهره ووحيد عصره، مَنْ فاق في الحفظ والإتقان في زمانه، وشهد له بالتفرد في فنِّه أئمة عصره وأوانه، محدث الديار المصرية المشهور بالحافظ العراقي.

---

(١) انظر ترجمته في: إنباء الغمر: ٥/١٧٠ ـ ١٧٦؛ طبقات الشافعية: ٤/٢٩؛ ذيول تذكرة الحفاظ: ص ٢٢٠، ٣٧٠؛ طبقات الحفاظ للسيوطي: ص ٥٤٣؛ شذرات الذهب: ٧/٥٥؛ البدر الطالع: ١/٣٥٤؛ الأعلام: ٣/٣٤٤؛ معجم المؤلفين: ٥/٢٠٤، وغيرها.

ولد بمنشأة المهراني بين مصر والقاهرة، على شاطىء النيل، في جمادى الأولى سنة (٧٢٥هـ)، وكان أصل أبيه من بلدة يقال لها «رازنان» ــ من عمل إرْبل ــ قدم القاهرة صغيراً، ونشأ بها.

حفظ القرآن العظيم وله من العمر ثماني سنين، وأقدم ما وجد له من السماع سنة (٧٣٧هـ)، وحفظ «التنبيه»، واشتغل في العلوم، وكان أول اشتغاله في القراءات والعربية، فأول من أخذ عنه ذلك جماعة، منهم: الشيخ ناصر الدين محمد بن سمعون، وبرهان الدين ابن لاجين، والشهاب أحمد بن يوسف السمين. وأخذ الفقه وأصوله عن العلّامة جمال الدين الإسنوي، والعماد البلبيسي، وابن عدلان، وغيرهم.

كان مفرط الذكاء، سريع الحفظ جداً، فقد حفظ من «الإلمام» في يوم واحد أربعمائة سطر، وحفظ نصف «الحاوي» في الفقه في خمسة عشر يوماً. فأشار عليه القاضي عز الدين ابن جماعة بطلب الحديث، وعرَّفه الطريق في ذلك، فطلبه على وجهه من سنة (٧٤٢هـ).

أخذ علم الحديث عن الشيخ علاء الدين ابن التركماني الحنفي، وبه تخرج وانتفع، فسمع عليه وعلى ابن شاهد الجيش، وابن عبد الهادي، وأبي الفتح الميدومي، وجماعة من مشايخ مصر والقاهرة، كمحمد بن علي القطرواني، ومحمد بن إسماعيل ابن الملوك، وابني الرفعة ومظفر العطار، وخلائق. وحُبب إليه هذا الفن فتوغل فيه.

ورحل إلى دمشق وحمص وحماة وحلب، وطرابلس وصفد وبعلبك، وبيت المقدس والخليل ومكة المشرفة والمدينة المنورة، وسمع في كل منها من خلائق، منهم: تقي الدين السُّبْكي، والحافظ العلائي، والعفيف المطري. وهمَّ بالرحلة إلى «تونس» لسماع الموطأ رواية يحيى بن يحيى؛ فلم يتفق له ذلك.

واشتهر بهذا الفن فتقدم فيه، وانتهت إليه رياسته في البلاد

الإسلامية، مع المعرفة والإتقان والحفظ، بحيث إنه لم يكن له فيه نظير في عصره، وشهد له بالتفرد فيه عدة من حفاظ عصره، منهم السبكي والعلائي وابن جماعة وابن كثير والإسنائي؛ فكانوا يبالغون في الثناء عليه، حتى قال ابن جماعة: كل من يدعي الحديث بالديار المصرية سواه فهو مدعٍ.

وقال ابن حجر: صار المنظور إليه في هذا الفن من زمن الشيخ جمال الدين الإسنائي وهلم جراً، ولم نرَ في هذا الفن أتقن منه، وعليه تخرج غالب أهل عصره.

وبرع في علوم أخرى منها القراءات، والفقه وأصوله، والنحو واللغة والغريب، لكن غلب عليه الحديث.

وكان رحمه الله صالحاً خيِّراً ديِّناً، ورعاً عفيفاً، صيِّناً متواضعاً، حسن النادرة والفكاهة، ذا أخلاق حسنة، منوَّر الشيبة، جميل الصورة، كثير الوقار، قليل الكلام إلَّا في محل الضرورة فإنه يكثر الانتصار، تاركاً لما لا يعنيه، طارحاً للتكلف، شديد الاحتراز في الطهارة، شديد التواضع، لا يَرى له على أحد فضلاً، كثير الحياء، ليس بينه وبين أحد شحناء، حليماً واسع الصدر، طويل الروح لا يغضب إلَّا لأمر عظيم، ويزول في الحال! ليس عنده حقد ولا غش ولا حسد لأحد، ولا يواجه أحداً بما يكره، ولو آذاه وعاداه، مع صدعه بالحق وقوة نفسه فيه، لا تأخذه في الله لومة لائم، إذا قام في أمر لا يرده عنه أحد، ولا يقوم شيء دونه، لا يهاب سلطاناً ولا أميراً في قول الحق، وإن كان مرّاً، يتشدد في موضع الشدة، ويلين في موضع اللين.

وكان ـ رحمه الله ـ كثير التلاوة إذا ركب، وافر الحرمة والمهابة، نقي العرض، ماشياً على طريقة السلف الصالح من المواظبة على قيام الليل، وصيام الأيام البيض من كل شهر، والست من شوال، والجلوس في محله بعد صلاة الصبح يذكر الله إلى أن ترتفع الشمس، فيصلي الضحى.

قال ابن حجر: «ولم أرَ في جميع مشايخي أحسن صلاة منه». وحج مرات، وجاور بالحرمين الشريفين.

قصده طلاب العلم من مشارق الأرض ومغاربها، فرحل إليه للأخذ عنه والسماع عليه الجمّ الغفير، الكبير منهم والصغير، فلازموه وانتفعوا به، منهم: ابنه الإمام الحافظ الفقيه ولي الدين أبو زرعة، والحافظ الهيثمي، وبرهان الدين الأبناسي، وكمال الدين الدميري، وجمال الدين ابن ظهيرة، والبرهان الحلبي، والحافظ الإمام ابن حجر.

أما وظائفه: فقد ولي تدريس الحديث بدار الحديث الكاملية، والفاضلية، وجامع ابن طولون، وولي قضاء المدينة النبوية وخطابتها وإمامتها في ثاني عشر جمادى الأولى سنة (٧٨٨هـ)، ثم صُرف بعد مضي ثلاث سنوات وخمسة أشهر. وشرع في «إملاء الحديث» من سنة (٧٩٦هـ) فأملى أكثر من أربعمائة مجلس. قال الحافظ: «كانت أماليه يمليها من حفظه، متقنة مهذبة محررة، كثيرة الفوائد الحديثية».

توفي سنة (٨٠٦هـ)، يقول ابن حجر: «مات الشيخ عقب خروجه من الحمام في ثامن شعبان، وله إحدى وثمانون سنة وربع سنة، نظير عمر شيخنا شيخ الإسلام سراج الدين، وفي ذلك أقول في المرثية:

لا ينقضي عجبي من وفق عمرهما ... العام كالعام حتى الشهر كالشهر
عاشا ثمانين عاماً بعدها سنة ... وربع عام سوى نقص لمعتبر»

أما مصنفاته فكثيرة جليلة، منها:

تخريج أحاديث الإحياء، سماه «إخبار الأحياء بأخبار الإحياء» كملت مسودته، ثم اختصره في «المغني عن حمل الأسفار في الأسفار»، «الألفية» في مصطلح الحديث، وشرحها، و«شرح الترمذي» ذيّل فيه على شرح ابن سيِّد الناس، وكتب منه نحو عشر مجلدات، و«التقييد والإيضاح لما أطلق وأغلق من كتاب ابن الصلاح»، و«تقريب الأسانيد

وتـرتيب المسانيـد»، و «النجم الوهـاج في نظم المنهـاج» يعني في الأصول للبيضاوي، ويقع في (١٣٦٧) بيتاً. و «الألفية في غريب القرآن» منظومة في ألف بيت. و «الـدرر السنيـة في نـظم السيـرة الــزكيـة» ألف بيت. ونــظم «الاقتراح» لابن دقيق العيد في (٤٢٧) بيتاً. وغير ذلك مما يطول ذكره.

ابن حجر وشيخه العراقي:

لازم ابن حجـر شيخه هـذا مدة طـويلة عبر هـو عنهـا فقـال: «لازمت شيخنا عشر سنين، تخلل في أثنائها رحلاتي إلى الشام وغيرها، وقرأت عليه كثيـراً من المسانيـد والأجزاء، وبحثت عليـه شرحـه على منـظومتـه، وغيـر ذلك».

وقال: «أول ما اجتمعت به في سنة ست وثمـانين، فقرأت عليـه، ثم فتر العزم إلى رمضـان سنة ست وتسعين». وهـذا يعني أن الحافظ قـد لازمه حتى وفاته من سنة (٧٩٦) إلى (٨٠٦هـ).

ومما قرأ ابن حجر على شيخه العراقي أو سمعه عليه:

سنن البيهقي: من أوله إلى باب الجهـر بالتـأمين، ثم إلى آخر كتـاب الحج على الهيثمي. سنن الدارقطني، وقرأه كذلك على الهيثمي. الشمائل للترمذي، وسمعه على الهيثمي. القراءة خلف الإمام للبخاري، وقرأه أيضاً على الهيثمي. رفـع اليدين في الصـلاة للبخـاري، وسمعـه على الهيثمي. الدعاء للطبراني، وعلى الهيثمي كذلك. المسلسل بالأولية. جـزء من مسند أحمد. الألفية، وشرح الألفية، والتقييد والإيضاح، الثـلاثة للعـراقي. جزء من الحليـة. سيرة ابن هشـام. كتاب الـزكاة ليـوسف بن يعقوب القـاضي. معجم أبـي يعلى. فوائد أبـي القاسم الرازي في ثلاثين جزءاً. وأجزاء كثيرة من العـوالي والفوائـد والأمالي[1]، وحمـل من أماليـه جملة نـافعـة من علم الحديث سنداً ومتناً، وعللاً واصطلاحاً.

---

(١) الجواهر والدرر: ١٩١ ــ ٢٠٣، وإنما أطلت بعض الشيء في ترجمة العـراقي لأنه أكبر شخصية تأثر بها ابن حجر من بين شيوخه.

٢ ـ الهيثمي[١] (٧٣٥ ـ ٨٠٧هـ):

هو علي بن أبي بكر بن سليمان بن أبي بكر، الهيثمي، المصري، الشافعي، الإمام الأوحد، الزاهد، الحافظ، نور الدين أبو الحسن.

ولد في رجب سنة (٧٣٥هـ) بالقاهرة، ونشأ بها، فقرأ القرآن، وصحب الشيخ زين الدين العراقي وهو صغير، فسمع معه من ابتداء طلبه على أبي الفتح الميدومي، وابن الملوك، وابن القطرواني، وغيرهم من المصريين، ومن ابن الخباز، وابن الحموي، وابن قيم الضيائية، وغيرهم من الشاميين.

ثم رحل مع العراقي جميع رحلاته، ورافقه في جميع مسموعاته بمصر والقاهرة، والحرمين، وبيت المقدس، ودمشق وبعلبك وحمص وحماة وحلب، وطرابلس، وغيرها، ولم ينفرد أحدهما عن الآخر إلاَّ بمسموعات يسيرة، وشيوخ قليلة. وهو مكثر سماعاً وشيوخاً.

وتزوج بنت العراقي، وتخرج به في الحديث، وقرأ عليه أكثر تصانيفه، وكتب عنه جميع مجالس إملائه. وكان يخدمه ويبالغ في ذلك، حتى قال ابن حجر: «ورأيت من خدمة الشيخ نور الدين هذا لشيخنا ـ يعني العراقي ـ وتأدبه معه، من غير تكلف لذلك، ما لم أره بغيره، ولا أظن أحداً يقوى عليه».

وكان ـ رحمه الله تعالى ـ إماماً حافظاً عالماً، ورعاً زاهداً، متقشفاً متواضعاً، خيِّراً هيِّناً ليِّناً، سليم الفطرة، شديد الإنكار للمنكر، كثير الاحتمال للأذى، محباً للغرباء وأهل الدين والعلم والحديث. وكان من محاسن القاهرة، ومن أهل الخير، غالب أوقاته في اشتغال وكتابة، كثير التلاوة بالليل، والتهجد، حتى وصفه تلميذه ابن حجر، فقال فيه وفي

---

(١) انظر ترجمته في: إنباء الغمر: ٥/٢٥٦ ـ ٢٦٠؛ ذيول تذكرة الحفاظ: ص ٢٣٩، ٣٧٢؛ طبقات الحفاظ للسيوطي: ص ٥٤٥؛ شذرات الذهب: ٧/٧٠؛ البدر الطالع: ١/٤٤١؛ الأعلام ٤/٢٦٦؛ معجم المؤلفين: ٧/٤٥، وغيرها.

العراقي: «وقد عاشرتهما مدة، فلم أرهما يتركان قيام الليل».

وكان كثير المحفوظات لمتون الأحاديث واستحضارها، حتى كأنها بين يديه، يأخذ منها ما يشاء، ويدع ما يشاء، وكان ذلك يعجب العراقي، وربما رجح في حفظ المتون على العراقي.

وبعد موت العراقي أخذ عنه الناس فأكثروا، ومع ذلك فلم يغير حاله، ولا تصدر ولا تمشيخ، ولم يزل على طريقته حتى مات ليلة الثلاثاء تاسع وعشرين رمضان سنة (٨٠٧هـ) بالقاهرة، رحمه الله.

وله مصنفات جليلة، منها: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، موارد الظمآن لزوائد ابن حبان على الصحيحين، بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث، تقريب البغية في ترتيب أحاديث الحلية، ترتيب ثقات ابن حبان، غاية المقصد في زوائد أحمد.. وغيرها.

ابن حجر وشيخه الهيثمي:

قرأ الحافظ عليه قريناً للعراقي[1] ومنفرداً، وقد قال في هذا: «قرأتُ عليه الكثير قريناً للشيخ، ومما قرأت عليه بانفراد: نحو النصف من «مجمع الزوائد» له، ونحو الربع من «زوائد مسند أحمد»، و «مسند جابر» من مسند أحمد، وغير ذلك». و «سمعت من لفظه المسلسل».

وقد تتبع ابن حجر أوهامه في «مجمع الزوائد»، فلما بلغه أنّ ذلك شقّ عليه، تركه رعاية له!

٣ ــ جمال الدين ابن ظَهِيرة[2] (٧٥١ ــ ٨١٧هـ):

هو محمد بن عبد الله بن ظهيرة بن أحمد بن عطية بن ظهيرة، القرشي المخزومي، المكي، الشافعي، جمال الدين أبو حامد. الإمام

---

(١) وقد سبقت الإشارة إلى ما قرأه ابن حجر على شيخيه معاً.

(٢) انظر ترجمته في: إنباء الغمر ٧/١٥٧ ــ ١٥٩؛ طبقات الشافعية: ٤/٥٤؛ ذيول تذكرة الحفاظ: ص ٢٥٣، ٣٧٥؛ طبقات الحفاظ للسيوطي: ص ٥٤٨؛ شذرات الذهب: ٧/١٢٥؛ البدر الطالع: ٢/١٩٦؛ الجواهر والدرر: ص ٦٤ ــ ٦٥، ١٤٨؛ معجم المؤلفين: ١٠/٢٢١. وغير ذلك.

العلامة الحافظ، قاضي مكة وخطيبها، وناظر حرمها وأوقافها والحسبة بها، وشيخها في الفتوى والتدريس، وعليه بها دارت الفتوى على مذهب ابن إدريس، حافظ الحجاز وفقيهه وشيخ الإسلام به.

مولده في ليلة عيد الفطر سنة (٧٥١هـ) بمكة المشرفة، فنشأ بها على عفة وصيانة ونزاهة.

اشتغل في صغره، وطلب بنفسه؛ فحصَّل فنوناً من العلم، وقرأ بالروايات السبع على التقي البغدادي وغيره. وتفقه على فقهاء بلده كعمّه العلامة قاضي القضاة شهاب الدين أحمد، وشيخ الإسلام قاضي القضاة بمكة العلامة كمال الدين أبـي الفضل النويري، وأجازه بالإفتاء والتدريس، ولازمهما وانتفع بهما.

سمع الحديث على عدة شيوخ، منهم: الإمام أبو الفضل المدعو بخليل بن عبد الرحمن المالكي ــ وهو أقدم شيوخه سماعاً ــ والجمال محمد بن أحمد الأنصاري، والعلامة عفيف الدين عبد الله بن أسعد اليافعي، وغيرهم من القادمين إلى مكة.

وارتحل إلى مصر فسمع بها من جماعة، كابن القاري وعز الدين ابن جماعة، وتفقه بالبلقيني، ولزم العراقي في الحديث. ولازم شيخ الإسلام بهاء الدين السبكي، وحضر دروسه، وتفقه به، وصحبه إلى دمشق فسمع بها من ابن أميلة في آخرين. وسمع بعدة من بلاد الشام كبيت المقدس، وبعلبك، وحلب، وغيرها. ورحل إلى الإسكندرية فسمع بها من جماعة، وغير ذلك من الأقطار.

برع في علوم عدة، منها الحديث، والفقه، والنحو. وأجازه البلقيني بأربعة علوم: الحديث، والفقه، وأصوله، والعربية، وأجازه ابن الملقن بالفتوى والتدريس.

وتصدر بعد سنة (٧٧٠هـ) بمكة للإفادة، فأفتى وتصدى للتدريس

بضعاً وأربعين سنة، وولي قضاء مكة من سنة (٧٨٦هـ) إلى أن مات، وصُرف خلال ذلك مراراً، ومات وهو على القضاء، وكان حسن السيرة في قضائه.

وكان ـ رحمه الله ـ ذا دين وعبادة، وصلاح واشتغال وإفادة، مع رفعة القدر والرتبة والسيادة، منجمعاً عن الناس، ساكناً متواضعاً، قليل الكلام فيما لا يعنيه، مع الوقار والسمت الحسن، وسلامة الصدر، له أوراد كثيرة وعبادة لا يقطعها في طول الزمن.

ازدحم عليه الطلبة من مكة من الغرباء القادمين إليها، فأخذوا عنه، وانتفعوا به، وكثرت تلامذته، وسمع منه الأئمة والحفاظ، ومن أعيان تلامذته ابن حجر والعلامة محمد بن إبراهيم الوزير.

كتب بخطه الكثير، وله تعاليق وفوائد، فشرح قطعة من «الحاوي»، وجمع جزءاً فيما يتعلق بزمزم، ونظم قواعد الإعراب لابن هشام، وله شعر كثير حسن.

توفي ليلة الجمعة (١٦) رمضان سنة (٨١٧هـ).

ابن حجر وشيخه ابن ظهيرة:

ابن ظهيرة هو أول شيخ بحث عليه الحافظ في علم الحديث في كتاب «عمدة الأحكام» لعبد الغني المقدسي، وذلك سنة (٧٨٥هـ) أثناء مجاورته بمكة، وهو ابن اثنتي عشرة سنة، كما أسلفنا. كما كان أول شيخ سمع الحديث بقراءته بمصر في السنة التي تليها ـ أي (٧٨٦هـ) ـ وسمع عليه غير ذلك.

امتدح ابن حجر شيخه فقال: «وكان يعجبني سَمْتُه».

٤ ـ فاطمة بنت المُنَجَّا التنوخية[1] (٧١٢ ـ ٨٠٣هـ):

---

(١) انظر إنباء الغمر: ٤/٣١٣؛ الجواهر والدرر: ص ١٠٠، ١٤٤؛ تغليق التعليق: =

هي فاطمة بنت محمد بن أحمد بن محمد بن عثمان بن المنجا، أم الحسن، التَّنُوخِيَّة، الدمشقية.

ولدت سنة (٧١٢هـ)، وأسمعت على عبد الله بن الحسين بن أبي التائب، وأجاز لها أبو بكر الدشتي، وابن عساكر، وأبو بكر بن أحمد بن عبد الدائم، وإسماعيل بن يوسف بن مكتوم، وست الوزراء بنت عمر بن المنجا، وآخرون.

وكانت خاتمة المسنِدين في دمشق، عالمة بالحديث، أخذ عنها جماعة، منهم الحافظ ابن حجر. توفيت في حصار دمشق سنة (٨٠٣هـ)، رحمها الله تعالى.

ابن حجر وشيخته فاطمة التنوخية:

قال الحافظ: «قرأت عليها الكثير من الكتب الكبار، والأجزاء». ومما قرأه عليها:

كتاب «الأوائل» لأبي بكر بن أبي شيبة، و«الأطعمة» لعثمان بن سعيد الدارمي، و«فضائل الإمام الشافعي» لابن شاكر القطان، و«القضاء والشهود» لأبي سعيد محمد بن علي النقاش، و«فضائل الصحابة» تخريج أبي علي البرداني، و«بر الوالدين» للبخاري، و«القناعة» لأبي العباس أحمد بن محمد بن مسروق، و«العزلة والانفراد» و«القناعة» كلاهما لابن أبي الدنيا، و«العلم» ليوسف بن يعقوب القاضي، و«العشرة» و«المناسك» كلاهما لأبي القاسم الطبراني، و«فضائل القرآن» لابن الضريس، و«أمثال الحديث» للرامهرمزي، و«البكاء» لجعفر الفريابي.. وغير ذلك كثير.

= ١/١٤٧ ـ ١٤٩، ٤٨٤؛ الأعلام: ٥/١٣٢، وقد أرَّخ هذا الأخير وفاتها سنة (٧٧٨هـ)، وليس بصواب، لأنه لا يستقيم مع أخذ ابن حجر عنها، فعمره سنة (٧٧٨هـ) كان خمس سنوات، وفيها دخل «الكتّاب».

٥ ـ فاطمة المقدسية[1] (٧١٩ ـ ٨٠٣هـ):

هي فاطمة بنت محمد بن عبد الهادي بن عبد الحميد بن عبد الهادي المقدسية، ثم الصالحية، الحنبلية، أم يوسف.

أصلها من بيت المقدس، واشتهرت في صالحية دمشق، وتوفيت بها، وحدثت بالكثير. كانت عالمة بالحديث، أسمعت الكثير على الحجار وغيره، وأجاز لها العلماء من دمشق وحلب وحماة وحمص ومصر وغيرها.

فمن «دمشق» أجاز لها أبو نصر الشيرازي، وأبو محمد ابن عساكر، وغيرهما. ومن «حلب» أبو بكر بن عبد اللطيف بن محمد، ويوسف بن محمد بن محمد النصيبي، وإبراهيم بن صالح العجمي، في آخرين. ومن «حماة» الشيخ شرف الدين ابن البارزي، وغيره. ومن «حمص» خطيبها علي بن عبد الله بن يوسف بن مكتوم. ومن «مصر» حسن بن عمر الكردي، وعبد الرحيم المنشاوي، وآخرون.

ماتت في شعبان سنة (٨٠٣هـ)، وقد جاوزت الثمانين.

ابن حجر وشيخته فاطمة المقدسية:

قال الحافظ: «قرأت عليها الكثير من الكتب والأجزاء بالصالحية، ونعم الشيخة كانت». كما قرأ على أختها عائشة[2]، وقال في ذلك: «قرأت على عائشة هذه وعلى أختها فاطمة كثيراً من مسموعهما على الحجار».

ومما قرأه على فاطمة وحدها: كتاب «الإيمان» لمحمد بن إسحاق بن مَنْدَه. وكتاب «التفسير» المأثور عن مالك، جمع علي بن أحمد بن داود الزراد. وكتاب «صفة النبي ﷺ» لأبي علي محمد بن هارون بن شعيب.

---

(١) انظر ترجمتها في: إنباء الغمر: ٣١٣/٤ ـ ٣١٤؛ شذرات الذهب: ٣٣/٧؛ الجواهر والدرر: ص ١٠٠، ١٤٤؛ الأعلام: ١٣٢/٥، تغليق التعليق: ١٤٩/١ ـ ١٥٣، ٤٨٤.

(٢) سيأتي التعريف بها بعد قليل.

و «الدعاء» للحسين بن إسماعيل المحاملي. و «السنن المأثورة» للشافعي، رواية محمد بن عبد الله بن عبد الحكم عنه. و «الدعاء» لمحمد بن فضيل. و «العقل» لداود بن المُحَبَّر. و «الرحلة» للخطيب البغدادي. و «فضل الصلاة على النبي ﷺ» لإسماعيل بن إسحاق القاضي. و «فضل عشر ذي الحجة» لابن أبي الدنيا. و «سجدات القرآن» لإبراهيم الحربي.

وقرأ عليها من الأجزاء الكثير، ومن ذلك:

- الجزء الأول من حديث علي بن حجر بن إياس السعدي.
- الجزء الأول من حديث أبي الحسن العتيقي.
- الجزء الأول من أمالي محمد بن إسحاق بن منده.
- الجزء الأول والثاني من «كتاب الصلاة» لأبي العباس السرّاج.
- الجزء الثاني من «فوائد» أبي الحسن ابن بشران.
- الجزء الثاني من حديث هدبة بن خالد.
- الجزء الثالث من حديث أبي علي الفضل بن خزيمة.
- الجزء الثالث من حديث أبي العباس الأصم.
- الجزء الخامس من حديث إسماعيل بن محمد الصفار.
- من أول الجزء السابع من «فوائد» أبي الحسن الخِلَعي إلى آخر الجزء العشرين، وهو آخرها.
- الجزء التاسع من «فوائد» المُزَكِّي.
- المجالس الخمسة السلمانية، إملاء السِّلَفِيّ.
- جزء من حديث أبي بكر الآجريّ.
- جزء فيه منتقى من ثلاثة أجزاء من انتخاب السِّلفي عن جعفر السرّاج.
- جزء من حديث محمد بن يحيى الذهلي.

.. وغير ذلك كثير.

وهذا نبأ غريب، وخبر عجيب، عن أولئك العظماء الذين حفظوا

السنَّة، وذادوا عن حمى الشريعة. وإن الإنسان ليقف وقفة إجلال أمام هاتين الشيختين المباركتين، الطاهرتين العالمتين، اللتين كانتا أستاذتين لإمام فذّ هو ابن حجر! وهكذا فلتكن نساءُ المسلمات، فديننا العظيم جاء للذكر والأنثى، والعلم مطلوب من كليهما. ولقد سطر السلف الصالح في ذلك أطيب الأثر في هذا المجال، وإن واحدة مثل «فاطمة المقدسية» التي تروي عن الأئمة أمثال هذه الكتب والأجزاء، ثم تقرئها لكبار العلماء؛ لتستحق قول الشاعر:

ولو كان النساء كمن ذكرنا ... لفضلت النساء على الرجال

فلا التأنيث لاسم الشمس عيب ... ولا التذكير فخر للهلال

ولقد قرأ الإمام الكبير الشهاب ابن حجر على نيِّف وخمسين امرأة، سطر أسماءهن وما قرأه أو سمعه عليهن في معجم شيوخه، فرحمهم الله جميعاً، وجزاهم عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

● ● ●

ومن أعيان شيوخه أيضاً:

١ ـ إبراهيم بن علي بن ناصر، برهان الدين الدمياطي الحلبي الشافعي، (ت ٨٤٧هـ).

٢ ـ أحمد بن إبراهيم بن محمد بن عمر بن عبد العزيز بن أبي جرادة، العقيلي الحنفي، المعروف بابن العديم، (ت ٨٢٧هـ).

٣ ـ أحمد بن الحسن بن محمد بن زكريا السويدائي ـ نسبة إلى السويداء بحوران جنوب سورية ـ (ت ٨٠٤هـ).

٤ ـ أحمد بن عبد الله بن حسن البوصيري، (ت ٨٠٥هـ).

٥ ـ أحمد بن عمر بن علي بن عبد الصمد البغدادي الجوهري، (ت ٨٠٩هـ).

٦ ـ أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن عمر، الأيكي الفاسي، يلقب

زَغْلِش، ويُعرف بابن العجمي وبابن المهندس، (ت ٨٠٣هـ).

٧ ـ إسماعيل بن إبراهيم بن محمد بن علي، القاضي الحنفي، (ت ٨٠٢هـ).

٨ ـ عبد الرحمن بن أحمد بن المبارك بن حماد، الغزي ثم القاهري، أبو الفرج، ويعرف بابن الشِّحْنَة، (ت ٧٩٩هـ).

٩ ـ عبد الله بن عمر بن علي، أبو المعالي، المعروف بالحِلَاوي، (ت ٨٠٧هـ).

١٠ـ علي بن محمد بن سعد بن محمد بن علي، الطائي الشافعي، الحلبي، قاضي حلب وفقيهها، المعروف بابن خطيب الناصرية، (ت ٨٤٣هـ).

١١ـ علي بن محمد بن محمد بن أبي المجد بن علي، الدمشقي، يعرف بابن الصايغ، وبابن خطيب «عين ثرماء»[١]، (ت ٨٠٠هـ).

١٢ـ عمر بن محمد بن أحمد بن سليمان، البالسي، ثم الصالحي، (ت ٨٠٣هـ).

١٣ـ محمد بن أحمد بن أبي بكر بن محمد، الطائي الحموي الشافعي، ويعرف بابن الأشقر، (ت ٨٥٠هـ).

١٤ـ محمد بن أحمد بن سليمان بن يعقوب الأنصاري، النيسابوري الأصل، ثم الدمشقي، المعروف بابن خطيب داريّا[٢]، (ت ٨١٠هـ).

١٥ـ محمد بن إسماعيل بن علي بن الحسن بن علي، القَلْقَشَنْدي، المصري، ثم المقدسي، الشافعي، (ت ٨٠٩هـ).

---

(١) هي قرية في غوطة دمشق، مشهورة على لسان العامة بـ «عين ترما».

(٢) بلدة كبيرة مشهورة قريبة من دمشق.

١٦ـ محمد بن عبد الرحمن ابن الحافظ الذهبي، الكَفْربَطْناوي ـ نسبه إلى كَفْرَبَطْنا[1] ـ (ت ٨٠٣هـ).

١٧ـ محمد بن عمر بن علي الشُّحُولي، اليمني ثم المكي، (ت ٨٠٧هـ).

١٨ـ محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن حيدرة، الشافعي، الدُّجْوي ـ نسبه إلى دجوة، قرية على شط النيل ـ (ت ٨٠٩هـ).

١٩ـ محمد بن محمد بن عبد اللطيف بن أحمد، المعروف بابن الكُوَيْك الربعي، التكريتي ثم الإسكندري، الشافعي، المسنِد المحدث، (ت ٨٢١هـ).

٢٠ـ محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن علي بن يوسف، أبو الخير، المعروف بابن الجَزَري، شيخ القراء بلا مدافع، (ت ٨٣٣هـ).

٢١ـ محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد، المعروف بالبدر العيني، والعينتابي ـ نسبه إلى عينتاب[2] ـ الإمام الكبير، صاحب «عمدة القاري»، (ت ٨٥٥هـ).

٢٢ـ همام الدين بن أحمد الخوارزمي، الشافعي، (ت ٨١٩هـ).

• • •

ومن النساء:

١ ـ خديجة بنت إبراهيم بن إسحاق بن إبراهيم بن سلطان، البعلبكية، (ت ٨٠٣هـ). قرأ عليها: «معرفة الصحابة» لابن منده، و «مسند مسدَّد»، ومن «صحيح ابن حبان» من أول القسم الرابع إلى آخر الكتاب.

٢ ـ خديجة بنت أبي بكر بن علي بن أبي بكر بن عبد الملك،

---

(١) قرية بغوطة دمشق.

(٢) بلدة حسنة قريبة من حلب.

الصالحية، المعروفة ببنت الكوري. قال ابن حجر: حدثتنا عن زينب بنت الكمال، وماتت في حصار دمشق سنة (٨٠٣هـ).

٣ ـ سارة بنت تقي الدين علي بن عبد الكافي السُّبْكي، (ت ٨٠٥هـ). قال ابن حجر: سمعنا منها قديماً.

٤ ـ عائشة بنت إبراهيم بن خليل، البعلبكية ابنة الشرائحي، أخت الحافظ جمال الدين (ت ٨٤٢هـ)، وسمع عليها ابن حجر منتقى الذهبي من مشيخة الفخر ابن البخاري، والمسلسل بالأولية.

٥ ـ عائشة بنت محمد بن أحمد بن عمر بن سليمان، البالسية، (ت ٨٠٣هـ).

٦ ـ عائشة بنت محمد بن عبد الهادي بن عبد الحميد بن عبد الهادي، المقدسية، ثم الصالحية، الحنبلية، محدثة دمشق، كان عندها «صحيح البخاري» على مسنِد الآفاق «الحجار» سماعاً، و «صحيح مسلم» على الشرف عبد الله بن الحسن سماعاً.

قرأ عليها ابن حجر كثيراً، وعلى أختها فاطمة التي سبق ذكرها قريباً، توفيت (٨١٦هـ).

قال الحافظ: «تفردت بالسماع من الحجار ومن جماعة، وسمع منها الرحالة فأكثروا، وكانت سهلة في الإسماع، سهلة الجانب».

٧ ـ مريم بنت أحمد بن محمد الأذرعي، سمعت الكثير، وأجاز لها الأئمة والمسنِدون. قال ابن حجر: «خرجتُ لها معجماً في مجلدة، وقرأت عليها الكثير من مسموعاتها، وأشياء كثيرة بالإجازة، ونعمت الشيخة كانت ديانة وصيانة ومحبة في العلم».
توفيت سنة (٨٠٥هـ)، وقد عاشت أربعاً وثمانين سنة.

● ● ●

وهكذا نشأ إمامنا ابن حجر في بيت علم، وتفتحت عيناه على طلبه، وحفظ القرآن، مع الحج والمجاورة منذ نعومة أظفاره، ثم رحل رحلات واسعة، أخذ فيها فأكثر عن أعيان المسنِدين، وأوعية العلم، وأئمة الهدى، وقد هيَّأ الله له في كل علم وفنٍّ رؤوسه ونوابغه وعباقرته، كل ذلك مع الزهد والتقوى، والورع والعبادة، ومكارم أخلاق القرآن، فغاص في بحار العلم والعمل، وخرج بأوفى نصيب.

فلنتابع سيرة هذا الإمام، ولنقف وقفات فاحصة أمام صرح العلوم التي برع فيها، وقد لمع نجمه، وتألقت شمسه في حياة أشياخه، حتى صار حديث كل مجلس، وبغية كل طالب.



الفصل السادس
العلوم التي برع فيها

لقد وهب الله الحافظ ابن حجر ذكاءً وقاداً، وحافظة واعية، ونشاطاً متواصلاً، واطلاعاً واسعاً، مع صفاء الذهن، ولطافة الحس، ورقة العاطفة، وجمال الأسلوب، وجزالة الألفاظ، وجودة الفهم، والقراءة المركزة مع السرعة الفائقة؛ مما جعلته نجماً لامعاً في كل أقطار العالم الإسلامي وأمصاره، ونابغة من أفراد النوابغ في علوم كثيرة، وبخاصة في علم الحديث.

وليس على الله بمستنكر — أن يجمع العلم في واحد

فلقد كان واحداً من أعيان الأفذاذ في الحديث، والفقه، والتفسير، والتأريخ، والعربية والشعر، والخطابة، والفتيا، والإملاء والإقراء، والقضاء، فإذا رأيته وجدته أمة في فرد، وإذا لقيته أَلْفَيْتَ الناس في رجل!

ولقد أحسن الشاعر[1] في وصفه إذ يقول فيه مادحاً:

حَبْرٌ وَبَحْرٌ عن الزلّاتِ في سِنَةٍ — جوداً وفضلاً وفي المعروف يقظانُ
في كل علمٍ تراه فوق سادتِهِ — سلوه فالشيخ في فتواه مِلْسَانُ
فكم له في الورى من حلِّ مشكلةٍ — وفي الفصاحة ما قُسٌّ وسَحْبَانُ[2]

---

(١) هو شعبان الآثاري، من قصيدة طويلة أوردها السخاوي في الجواهر والدرر: ص ٣٨٣ ـ ٣٨٥.

(٢) قس: هو قُسّ بن ساعدة الإيادي، أحد حكماء العرب، ومن كبار خطبائهم في الجاهلية (ت ٢٣ق. هـ). وسَحْبان: هو سحبان بن زفر بن إياس الوائلي، خطيب يضرب به المثل في البيان، يقال: «أفصح من سحبان». (ت ٥٤هـ).

مفتٍ خطيبٌ إمامٌ مقرئٌ حَكَمٌ عدلٌ صدوقٌ وفي الأشعارِ حسّانُ

فلنسر في رحاب عظمة هذا الإمام الذي فاق أقرانه، وأتعب مَنْ بعده في لحاقه؛ ولنتعرف على ومضات من جوانب التفوق في العلوم التي برع فيها، رحمه الله تعالى.

• • •

أولاً ـ ابن حجر اللغوي النحوي الشاعر الأديب

أقبل ابن حجر على فنون الأدب سنة (٧٩٢هـ) ـ وقد قارب العشرين من عمره ـ وتولع به، وما زال يتبعه خاطره، حتى فاق فيه وساد، وطارح الأدباء، وقال الشعر الذي هو أرق من النسيم، نثره مطرب، وشعره مرقص. وكان عجباً في استحضار الشعر، وسعة الاطلاع على مصادره ومعرفة قائليه.

من ذلك ما حصل له ـ وهو لا يزال في بداية الطلب ـ مع البدر البشتكي[١] الأديب الشهير.

ومنه ما جاء في «إنباء الغمر»[٢] تعليقاً على حادثة سرقة وقعت من رجل يدعى «ابن القماح»، فنقل الحافظ قول بدر الدين ابن الصاحب في تلك الحادثة ـ وكان بلغه أنه عثر فسقط فانكسرت يده ـ :

قالوا بأن يد القمَّاح قد كُسرت فأعلنت أختها بالويل والغِير
تأخر القطع عنها وهي سارقة فجاءها الكسر يستقصي عن الخبر

فعقب الحافظ قائلاً: «وقد اهتدم ذلك برمَّته من البيتين السائرين في تاريخ ابن خَلِّكان[٣]:

(١) انظر ص ٧٢ من هذا الكتاب.
(٢) إنباء الغمر: ٢/٥٤ ـ ٥٥.
(٣) يريد «وفيات الأعيان».

إن العماد بن جبريل أخا علمٍ ... له يد أصبحت مذمومة الأثر
تأخر القطع عنها وهي سارقة ... فجاءها الكسر يستقصي عن الخبر»

ومثال آخر أسوقه من «فتح الباري»، حيث قال البخاري في الترجمة[1]: «وقال ابن عُيينة عن خَلَف بن حَوْشَب: كانوا يستحبون أن يتمثّلوا بهذه الأبيات عند الفتن، قال امرؤ القيس:

الحربُ أولُ ما تكونُ فَتِيّةً ... تسعى بزينتها لكلِّ جهولِ
حتى إذا اشتعلتْ وشبَّ ضِرامها ... وَلَّتْ عجوزاً غيرَ ذاتِ حليلِ
شَمطاءَ يُنْكَرُ لونُها وتغيَّرتْ ... مكروهةً للشمِّ والتقبيلِ

قال ابن حجر: «قوله: قال امرؤ القيس» المحفوظ أن الأبيات المذكورة لعمرو بن معد يكرب الزبيدي، كما جزم به أبو العباس المبرد في «الكامل»، وكذا رويناه في كتاب «الغرر من الأخبار» لأبي بكر حمد بن خلف القاضي المعروف بوكيع، قال: حدثنا معدان بن علي، حدثنا عمرو بن محمد الناقد، حدثنا سفيان بن عيينة عن خلف بن حوشب، قال: عمرو بن معد يكرب». وبذلك جزم السهيلي في «الروض»، ووقع لنا من وجه آخر ـ وفيه زيادة ـ رويناه في «فوائد الميمون بن حمزة المصري».

●● كما كان على معرفة تامة بالعروض وبحور الشعر، وعلومه، وأغراضه ومراميه، وقد سطر في مواضع كثيرة ردوده على كبار الأئمة في هذا المجال:

ـ من ذلك ما ردّ على ابن بطال، وهو يشرح ما تمثّل به النبي ﷺ من شعر، قال الحافظ[2]: «قوله: (اللهم لا عيش إلَّا عيش الآخرة)، قال ابن بطال: هو قول ابن رواحة ـ يعني تمثل به النبي ﷺ ـ ولو لم يكن من لفظه لم يكن بذلك النبي ﷺ شاعراً. قال: وإنما يسمى شاعراً من قصده،

---

(١) فتح الباري: ١٣/٤٧، ٤٩، «باب الفتنة التي تموج موج البحر».
(٢) الفتح: ٧/٣٩٤.

وعلم السبب والوتد وجميع معانيه من الزحاف ونحو ذلك». فقال ابن حجر معقباً: «كذا قال، وعلم السبب والوتد ـ إلى آخره ـ إنما تلقوه من العروض التي اخترع ترتيبها الخليل بن أحمد، وقد كان شعر الجاهلية والمخضرمين والطبقة الأولى والثانية من شعراء الإسلام قبل أن يصنفه الخليل، كما قال أبو العتاهية: أنا أقدم من العروض! يعني أنه نظم الشعر قبل وضعه. وقال أبو عبد الله بن الحجاج الكاتب:

قد كان شعر الورى قديماً من قبل أن يُخلق الخليل

ـ وقال في موضع آخر[1]: «وقوله: (اللهم لولا أنت ما اهتدينا)، قال ابن التين: هذا ليس بشعر ولا رجز، لأنه ليس بموزون». فعقب الحافظ قائلاً: «وليس كما قال، بل هو رجز موزون، وإنما زِيدَ في أوله سبب خفيف، ويسمى الخزم، بالمعجمتين».

ـ وفي تعليقه على ما تمثَّل به أبو هريرة رضي الله عنه بقول الشاعر:

يا ليلةً مِن طُولِها وعَنائِها على أنّها من دارةِ الكفرِ نَجَّتِ

يقول: «قال الكرماني: ولا بد من إثبات فاء أو واو في أوله ليصير موزوناً»، فرد عليه قائلاً: «وفيه نظر؛ لأن هذا يسمى في العروض الخَرْم ـ بالمعجمة المفتوحة والراء الساكنة ـ وهو أن يُحذف من أول الجزء حرف من حروف المعاني، وما جاز حذفه لا يقال لا بد من إثباته، وذلك أمر معروف عند أهله»[2].

●● هذا مع اقتداره الفائق على معرفة معاني الشعر، وأغراضه ومراميه، حتى إن كبار الأدباء كانوا يأتونه ليحل لهم ما اعتاص فهمه عليهم:

قال السخاوي: «ونظر في لغة العرب ففاق في استحضارها، حتى

---

(١) الفتح: ١٠/٥٤٣.

(٢) الفتح: ٥/١٦٢، ١٦٣. و «دارة الكفر»: الدارة أخص من الدار، وقد كثر استعمالها في أشعار العرب.

لقد رأيت النواجي[1] يأتي إليه في كل شهر بما يقف عليه من ذلك وشبهه، فيراجعه فيه، فيزيح عنه إشكاله، ويرشده إلى فهمه بديهة، بحيث يكثر الآن تأسفي على عدم ضبط ما كنت أحضره من ذلك»[2].

وإذا استشهد بشيء من الشعر، يشرحه بلغة واضحة، وألفاظ رشيقة، وأسلوب ينساب انسياباً، ويصل إلى فهم قارئه دونما عنت.

استمع إليه وهو يتكلم على ما تمثلت به جارية حمزة بن عبد المطلب: «أَلَا يا حمزُ للشُّرُفِ النِّواءِ»، قال: «الشرف: جمع شارف. والنِّواء ـ بكسر النون والمد مخففاً ـ: جمع ناوية، وهي الناقة السمينة. وحكى المرزباني في «معجم الشعراء» أن هذا الشعر لعبد الله بن السائب بن أبي السائب المخزومي جد أبي السَائب المخزومي المدني، وبقيته:

....	وهن معقلات بالفِناءِ
ضعِ السكينَ في اللبَّاتِ منها	وضرِّجْهنَّ حمزة بالدماءِ
وعجِّلْ من أطايبها لشَرْبٍ	قديداً من طبيخ أو شواءِ

والشرب ـ بفتح المعجمة وسكون الراء بعدها موحدة ـ: جمع شارب، كتاجر وتجر. والفناء ـ بكسر الفاء والمد ـ: الجانب، أي جانب الدار التي كانوا فيها. والقديد: اللحم المطبوخ. والتضريج ـ بمعجمة وجيم ـ: التلطيخ»[3].

●● ولقد وظّف ابن حجر هذا النبوغ والاقتدار على الشعر لخدمة دينه، والتعبير عن الأحداث التي شهدها وأرّخ لها، بل إنه قد ينظم المعاني

---

(١) هو محمد بن حسن بن علي بن عثمان، شمس الدين النواجي، أديب عصره، ينسب إلى «نواج» من غربية مصر. حياته (٧٨٨ ـ ٨٥٩هـ).

(٢) الجواهر والدرر: ص ٧٨.

(٣) الفتح: ٦/ ٢٠٠.

الحديثية التي يشرحها، ليسهل حفظها:

ـ فعند شرحه لحديث: (سبعة يظلهم الله في ظله، يوم لا ظل إلّا ظله)، قال: «وقد نظم السبعةَ العلامةُ أبو شامة عبد الرحمن بن إسماعيل، فيما أنشدَنَاهُ أبو إسحاق التنوخي إذناً عن أبي الهدى أحمد بن أبي شامة، عن أبيه سماعاً من لفظه، قال:

وقال النبي المصطفى إن سبعة ... يظلهم الله الكريم بظله
محب عفيف ناشىء متصدق ... وباك مصل والإمام بعدله

ووقع في «صحيح مسلم» من حديث أبي اليَسَر مرفوعاً: (من أنظر معسراً، أو وضع له؛ أظلّه الله في ظله، يوم لا ظل إلّا ظله)، وهاتان الخصلتان غير السبعة الماضية، فدلَّ على أن العدد المذكور لا مفهوم له»[1]. ثم قال: «ثم تتبعت بعد ذلك الأحاديث الواردة في مثل ذلك، فزادت على عشر خصال، وقد انتقيت منها سبعة وردت بأسانيد جياد، ونظمتُها في بيتين تذييلاً على بيتي أبي شامة، وهما:

وزد سبعة: إظلال غاز وعونه ... وإنظار ذي عسر وتخفيف حمله
وإرفاد ذي غرم وعون مكاتب ... وتاجر صدق في المقال وفعله»[2]

ـ وكذلك ما نظمه وهو يشرح حديث آداب الطريق، فقال: «قوله: (قالوا: وما حق الطريق؟ قال: غض البصر، وكفّ الأذى، وردّ السلام، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر) ». وذكر ما في الأحاديث الأخرى من آداب غير هذه فقال: «في حديث أبي طلحة الأولى والثانية، وزاد: (وحسن الكلام). وفي حديث أبي هريرة الأولى والثالثة، وزاد: (وإرشاد ابن السبيل، وتشميت العاطس إذا حمد). وفي حديث عمر عند أبي داود: (وتغيثوا الملهوف، وتهدوا الضال). وفي حديث البراء عند أحمد

---

(١) أي أن الأصناف غير منحصرة بسبعة فقط.

(٢) الفتح: ٢/١٤٣ ـ ١٤٤، وفيه مزيد تفصيل، اكتفينا منه بهذه الإشارة.

والترمذي: (اهدوا السبيل، وأعينوا المظلوم، وأفشوا السلام)، وفي حديث ابن عباس عند البزار من الزيادة: (وأعينوا على الحمولة). وفي حديث سهل بن حنيف عند الطبراني من الزيادة: (ذكر الله كثيراً). وفي حديث وحشي بن حرب عند الطبراني من الزيادة: (واهدوا الأغبياء، وأعينوا المظلوم)». قال: «ومجموع ما في هذه الأحاديث أربعة عشر أدباً، وقد نظمتها في ثلاثة أبيات[1]، وهي:

جمعت آداب من رام الجلوس على الط — ريق من قول خير الخلق إنساناً
افشِ السلامَ وأحسِنْ في الكلا — مِ وشمِّت عاطساً وسلاماً ردّ إحسانا
في الحمل عاوِنْ ومظلوماً أعِنْ وأغِثْ — لهفَانَ اهدِ سبيلاً واهدِ حيرانا
بالعُرْفِ مُرْ، وانْهَ عن نُكْرٍ وكُفَّ أذىً
وغضَّ طرْفاً، وأكْثِرْ ذكرَ مولانا»

●● فلا غرو أن عدّه الأئمة «ثاني السبعة الشهب من الشعراء»[2]، كما قال السيوطي. حتى إن الشيخ شرف الدين عيسى الطُّنُوبي قال مادحاً الإمام ونبوغه في الشعر[3]:

وأنت الذي في الشِّعر مالِكُ رقِّه — رقيت على حسَّانه وابن زيدون

وقال مؤرخ الديار المصرية تقي الدين المقريزي فيه: «وله شعر

---

(١) الفتح: ١١/٨، ١١. والآداب متضمنة في الأبيات الثلاثة الأخيرة، والأول للتوطئة.

(٢) نظم العقيان: ص ٤٥. وكان بالقاهرة سبعة من الشعراء اجتمعوا في عصر واحد، وكل منهم كان يدعى بالشهاب، وهم: «ابن حجر، ابن الشاب التائب، ابن أبي السعود، ابن مبارك شاه، ابن صالح، الحجازي، المنصوري». كما في هامش نظم العقيان.

(٣) الجواهر والدرر: ص ٤٠٧، والطنوبي: نسبة لبلدة «طنوب» من أعمال المنوفية.

أعذب من الماء الزلال، وأعجب من السحر، إلَّا أنه حلال! وقد اخترت منه وإن كان كله مختاراً»[1].

وقال الشوكاني: «**له يد طولى في الشعر، قد أورد منه جماعة من الأدباء المصنفين أشياء حسنة جداً، كابن حجة في «شرح البديعية»، وغيره، وهم معترفون بعلوّ درجته في ذلك**»[2].

●● وله ديوان شعر يحتوي (١٧٦٧) بيتاً، عبر هو عن مضمونه فقال في مقدمته:

«أما بعد: حمداً لله على إحسانه، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي اجتمعت أنواع المحاسن في ديوانه، وعلى آله وصحبه الذين كان كل منهم نَسِيجَ وَحْدِهِ، وفريد زمانه. وبعد: فقد سئلت غير مرة أن أجرّد من منظومي طرفاً مهذباً، وأن أفرد من مقاطيعي التي تلهي عن المواصيل ما يكون منها مرقصاً ومطرباً، فكتبت هذه الأوراق سبعة أنواع، من كل نوع سبعة أشياء، إلَّا الأخير. فافتتحت بالنبوات، ثم الملوكيات، ثم الأخوانيات، ثم الغزليات، ثم الأغراض المختلفة، ثم الموشحات، ثم المقاطيع»[3].

نماذج من شعره[4]:

●● قال في قصيدة يمدح فيها النبي ﷺ:

هو رحمة للناس مهداة فيا ... ويحَ المعاند إنه لا يُرحمُ

نال الأمانَ المؤمنون به إذا ... شبَّتْ وقوداً بالطغاةِ جهنّمُ

---

(١) الجواهر والدرر: ص ٢٣٩.

(٢) البدر الطالع: ١/٩١.

(٣) نقلاً عن تغليق التعليق: ١/١٦٢.

(٤) ذيول تذكرة الحفاظ: ص ٣٤١؛ نظم العقيان: ص ٥١؛ الجواهر والدرر: ص ١٣٤؛ البدر الطالع: ١/٩١؛ تغليق التعليق: ١/١٦٣ ـ ١٦٤.

اللَّهُ أيده فليس عن الهوى ... في أمرِهِ أو نهيهِ يتكلمُ
فليحذرِ المرءُ المخالفُ أمرَه ... من فتنةٍ أو من عذابٍ يؤلمُ
ذو المعجزاتِ الباهراتِ فَسَلْ بها ... نُطْقَ الحصا وبَهَائماً قد كلّموا

وقال في مطلع قصيدة في مدح النبي ﷺ:

وكنتُ أكتمُ حبي في الهوى زمناً ... حتى تكلم دمعُ العينِ فانكشَفَا
سألتُ قلبيَ عن صبري فأخبرني ... بأنّه حين سرتم عنيَ انصَرفَا
وقلت للطَّرْفِ أينَ النوم بعدهمُ ... فقال: نومي وبحر الدمع قد نزفا

ويقول في رجاء الشفاعة:

يقول حسودي إذ مدحتُ محمداً ... ليشفعَ لي: هل أنت بالشعر واصلُ؟
وهل لك عند المصطفى من وسيلةٍ ... وهل أنت مستجدٍ؟ فقلتُ: وسائلُ

●● ومن عيون شعره العذب الرقيق في التوبة ورجاء المغفرة:

يا ربِّ ذكّرني فقدْ قدَّرْتَني ... من يوم مبدأ نشأتي نَسَّاءً!
وإذا خطوتُ إلى الخَطَا فاغفرْهُ لي ... كَرَماً فأنتَ خلقتني خطّاءً!

ويقول:

خليليَّ ولَّى العمرُ منّا ولم نتبْ ... وننوي فِعالَ الصالحاتِ ولكنّا
فحتّى متى نبني البيوتَ مَشيدةً ... وأعمارُنا منّا تُهَدُّ وما تُبْنَى؟!

وفي الاستعداد للآخرة ورجاء رحمة الله تعالى يقول:

قَرُبَ الرحيلُ إلى ديارِ الآخرَهْ ... فاجعلْ إلٰهي خيرَ عُمري آخرَهْ
آنِسْ مبيتي في القبور ووحدتي ... وارحمْ عظامي حين تبقى ناخِرَهْ
فَلَئِنْ رحمتَ فأنتَ أكرمُ راحمٍ ... فبحارُ جودِكَ يا إلٰهي زاخرَهْ
فأنا المفرِّط والذي أيامُهُ ... ولَّتْ بأوزارٍ غدتْ متكاثِرَهْ
والْطُفْ به في حالِهِ ومآلِهِ ... يا مالكَ الدنيا وربَّ الآخرَهْ

وقال في شعبان سنة (٨٤٩هـ)[1] وهو يتحدث عن «مجالس الإملاء» التي كان يعقدها، ثم يرجو ربه القبول والمغفرة:

ستاً وسبعين عاماً رحتُ أحسبُها ... من سرعةِ السير ساعات فيا خَجَلا

إذا رأيتُ الخطايا أَوْ بَقَتْ عملي ... في موقفِ الحشرِ لولا أنّ لي أمَلا

توحيدُ ربي يقيناً والرجاءُ له ... وخدمتي ولإكثارِ الصلاة عَلَى

محمدٍ في صباحي والمساءِ وفي ... خَطّي ونُطْقِي عساها تمحق الزَّلَلا

فأقربُ الناس منه في قيامتهِ ... مَنْ بالصلاة عليه كان مشتغلا

يا ربِّ حقِّقْ رجائي والأُلى سمِعوا ... مني جميعاً بعفوٍ منك قد شَمَلا

وهذه أبيات غاية في الرقة والعذوبة، والإنابة والتوبة، واللجوء إلى الله سبحانه، وهو لا يُلحق فيها، ولا بقريب منها.

ومن نظمه في الدنيا، وماذا يرجو الإنسان منها؛ قوله:

ثلاثٌ من الدنيا إذا هي حُصِّلَت[2] ... لشخصٍ فلن يخشى من الضّرِ والضَّيْرِ

غنىً عن بنيها والسلامةُ منهمُ ... وصحّةُ جسمٍ ثم خاتمةُ الخيرِ

ومن روائعه قوله:

بنده الأزرق لمّا ... شدّه مَنْ قد سباني

جدول فوق كثيب ... دار يسقي غصن بانِ

قال الشوكاني: «وهذا غاية في الحسن لا يُلحق».

ومن قوله في «رحلته إلى الحج وطلب العلم بالحجاز» يعبر عن اشتياقه لزوجه وأولاده وحفدته:

مَنْ لديارٍ عن مَقيلي شاسِعَهْ ... وأمس كانت لمقالي سامِعَهْ

أدعو فلا يُجيبني إلاَّ الصَّدى ... رجعَ خطاب لا يفيدُ سامعَهْ

---

(١) وعمره إذ ذاك (٧٦) سنة، وإلى ذلك الإشارة في صدر البيت الأول.

(٢) كذا في نظم العقيان: ص ٥١؛ وفي هامش البدر الطالع ـ ١/٩١ ـ : «أقبلت».

ومنــزلاً كــان لِـطَرْفي مَـنْـزَهــاً   بــه فُلَيْــذَاتُ حشــايَ الهــالِعَــهْ
مـحـمــدٌ وأحـمــدُ ابـنُ أخـتِــهِ   وأمّــه وأخــتــهــا ورابِــعَــهْ
أربــعــةٌ أصــل وفــرع خــامس   أُفَــدِّيه بــزهــرة تُــزفُّ يــانعَــهْ
وأمّهم جــامـعــةُ الشَّـمْــلِ لهـمْ   كــأنَّ روحي بعـدهم في جــامِعَــهْ
حـفــاظ عيـني وبُــدور مـنــولـي   ونــور عيني وشموسي الـطالعَــهْ
يــرتــاح قـلبي عــنــد ذكــراهــمُ   تهتــز خُضــراً لغيــوثٍ هــامعَــهْ
نـفسـي تـذوب من نــار الـنَّـوى   فتستمــدّ منــه عيـني الــدامِعَــهْ
مــا فــارَقْتُهُمْ عن قِــلاَ نفسٌ دعتْ   داعيــة الحــج فَـلَيُتَّ طـالعَــهْ
تــؤمُّ بـيـتَ الـلَّهِ تــرجــو عــفــوَهُ   ورحــمــةُ الله الـكــريـم واسـعَــهْ
وتــرتجي بعــد قضــاءِ حَــاجِهَــا   من حَجِّهــا أنْ تستقــلَّ راجعَــهْ

●● بَيْـدَ أن الحافظ قـد صرف همته ومـواهبـه إلى مـا هـو أهم من الأدب، وأنفع للمسلمين؛ كالحـديث والفقه والتأريخ والتـدريس والإملاء والقضاء، وغير ذلك. لكنه ظل يتردد على موائد الشعر، فيتفكه بمقطوعة، أو يتنـدر ببيتين يحلو له فيهمـا جناس أو تـوريـة أو لغـز، ويـطارج شعـراء عصره، أو يمدح من يسـدي إليه جميـلاً، أو يتشوق إلى وطنـه إذا كان عنـه نائياً.

وقد عبر السخاوي عن ذلك فقال: «وهو لـم ينظر من بعد القرن[١] في كتب الفن ودواوينه إلاَّ اتفاقاً، كما صرح هو بذلك، بل أكثر نـظمه قبـل سنة (٨١٦ هـ)».

ولنستمع إلى ابن حجر نفسه يبين لنا سبب ذلك، بنظم بـديع مـطرب رقراق، جادت به قريحته المطبوعة، في جواب «لغز» الشريف صلاح الدين الأسيوطي، فيقول[٢]:

(١) أي الثامن الهجري.
(٢) نظم العقيان: ص ٥٢ ــ ٥٣.

أتانيَ لغزٌ منك للعقل مدهشٌ ... قؤولٌ لما قالَ الكرامُ فعولُ
تنظَّمَ في سلكِ البلاغةِ درُّهُ ... وكمْ لك عندي في القلائدِ لُولُو
يقولُ جواباً لاعتذاري تهكُّماً ... لأنتَ مليٌّ بالجوابِ كفيلُ
نعم كان لي مَيْلٌ إلى الشعر برهةً ... وأبكار فكري ما لهنّ بُعولُ
فشعَّبَ مني فكرتي عبءُ منصبٍ ... تحمَّلْتُهُ في كاهِليَّ ثقيلُ
وفصْلُ قضايا في تفاصيل أمرِها ... فصولٌ وكم عند الخصومِ فُضُولُ
ومجلسُ إملاءٍ وخطبةُ جمعةٍ ... ودرسٌ وتعليلٌ له ودليلُ
حديثٌ وتفسيرٌ وفقهٌ قِوامُها ... عقول تعاني فهمها ونُقولُ
لمستَنْبَطاتِ الفقه مُستَنْبِطَاتُها ... تزورُ فإنْ لم أضبطَنَّ تزولُ
وطالبُ إسماعٍ وفتيا وحاجة ... وطالب علم في البحوث سؤولُ
وكُلُّهُمُ يرجو نجاحَ مُرَادِهِ ... ويصخبُ إن أرجأْتُهُ ويصولُ
وهذا إلى أوقاتِ نومٍ وراحةٍ ... وأكلٍ وشربٍ يعتريه ذهولُ
وفي نَفَسٍ ترويحُ نَفْسٍ أجمُّهَا ... وتأنيس هزلٍ هزلهنّ هزيلُ
وأمر مَعادي رحتُ فيه مفرِّطاً ... وأمر معاشي قد حواهُ وكيلُ
ولا تنسَ أبناءَ الرسائلِ إنَّهمْ ... متى عُوِّقوا نحوَ العقيقِ يميلُوا
فهل لامرئٍ هذي تفاصيلُ أمرهِ ... فراغٌ لنظمٍ فارغٍ فيقولُ
وأنَّى ترى مَنْ ليس بالشعر شاعر ... تطيع مفاعيل له وفعولُ
ولست الذي يرضى سلوك خلاف ما ... يدلّ عليه العقل وهو خليلُ
فأنظم ما لو قاله الغير مسندا ... لعاد وسيف الطَّرْف منه كليلُ
فعذراً فما أخَّرتُ نظمَ جوابكم ... لبخلٍ ولكن ما إليه سبيلُ
وقد صحَّ قولي إن جسميَ منحلا ... وجسم انتحالي للقريض نحيلُ
فإن أنت لم تعذرْ أخاكَ وجدتهُ ... وإيثاره للصبر عنك جميلُ
ولغزك في القلب استقرّ مقامُهُ ... وثلثاه للقلب الذكي مثيلُ
نفيس فإن قلَّبتَه فنفوس من ... يعاني الصّبا ظلَّت إليه تميلُ

وقلْبُـهُ أيضـاً تلقَ عــونَ مســافـرٍ يــطيـبُ إذا هبَّت عـليـه قـبــولُ
بقيتَ صـلاحَ الدين تمنع بـالنُّهى فســاداً لـه في الفــاضلين دخـولُ
ولِمْ لا يجـوز العقـل اجمــع سيِّـدٌ غــدا حمــزة عمّــاً لــه وعـقيــلُ

وأمـا في النحو فليس بـأقل مِن تقـدّمِـهِ في الأدب وتفـوّقـه فيـه، وإن البـاحث المتأمـل لما كتبـه في «فتح البـاري» ـ الذي صبّ فيـه صيّب علمه الغزير، وتجلّت فيه عبقريته في كل العلوم التي بـرع فيها ـ ليجـد ما يبهـره من طول باعه في هذا الفن، وسعة اطلاعه، وقوة حجته، وندرة اقتداره على حل الإشكالات النحوية، أو الاستشهاد لها بـالآية والحـديث، أو الرد على كبـار أئمة النحـو. ولقد أنصفـه فخر الأدبـاء شمس الدين النـواجي عندمـا وصفه بقوله:

ورُضْتَ جمـاحَ النحوِ حتى ملكتَـهُ وأصبحتَ فيه مالكاً وابنَ مالـكِ(١)

ومثل هذه الشهادة من هذا الأديب لها ما وراءها، وهي تدل عما عاينه معاصرو ابن حجر من تفوق وسبق، وليس الخبر كالعيان. وأسوق هنا بعض الأمثلة لتأكيد هذا الجانب في شخصية ابن حجر العلمية:

●● فعند شرح قوله ﷺ: (لـو كان لي مثـل أُحُدٍ ذهبـاً ما يَسُـرُّني أن لا يمـرّ عليَّ ثلاث وعنـدي منـه شيء، إلاَّ شيء، أَرْصُـدُهُ لِـدَيْنٍ)؛ يقـول: «قوله: (لو كان لي مثل أحد ذهبـاً): قال ابن مـالك: فيـه وقوع التمييـز بعد «مثل»، وهو قليـل، ونظيـره قولـه تعالى: ﴿ولـو جئنا بمثله مـدداً﴾. قولـه: (ما يسرني أن لا يمر): قال ابن مالك: فيه وقوع جواب «لو» مضـارعاً منفيـاً بما، والأصل أن يكون ماضياً مثبتاً، وكأنه أوقـع المضارع مـوقع المـاضي، أو يكون الأصل: ما كان يسرني، فحذف كان وهو جواب لو، وفيه ضمير هو

---

(١) الجواهر والـدرر: ص ٤٥٢. وابن مالـك: هو الإمـام الشهير صـاحب «الألفية» في النحو.

الاسم، و «يسرني» الخبر. وحذْف كان مع اسمها وبقاء خبرها كثير، وهذا أولى»[1].

وعند شرح قوله ﷺ: (نِعْمَ المَنيحةُ اللَّقْحةُ الصَّفِيُّ منحةً، والشاة الصّفي تَغْدو بإناء وتروحُ بإناء)، يقول: «وقوله (منحة): منصوب على التمييز، قال ابن مالك: فيه وقوع التمييز بعد فاعل «نعم» ظاهراً، وقد منعه سيبويه إلاَّ مع الإضمار مثل: ﴿بِئْسَ للظَّالمينَ بَدَلاً﴾ وجوَّزه المُبَرَّد، وهو الصحيح»[2].

وجاء في حديث عائشة: «فكان عامر بن فهيرة غلاماً لعبد الله بن الطفيل بن سخبرة أخو عائشة لأمها»؛ يقول الحافظ ـ معلقاً على عبارة «أخو عائشة» ـ: «في رواية الكشميهني: «أخي عائشة»، وهما جائزان، الأولى على القطع، والثانية على البدل»[3].

●● ويستدل للنحو بالقرآن والحديث:

من ذلك شرحه لحديث النبي ﷺ: (إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم، وإني خشيتُ أن يلقي في أنفسكما شيئاً)؛ يقول: «قوله: (في أنفسكما): هو مثل قوله في الرواية الأخرى: (في قلوبكما)، وإضافة لفظ الجمع إلى المثنى كثير مسموع كقوله تعالى: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ »[4].

وفي حديث أبي حُميدٍ الساعدي قال: «غزونا مع النبي ﷺ غزوة تبوك، فلما جاء وادي القرى إذا امرأة في حديقة لها...». قال الحافظ: «قوله: (إذا امرأة في حديقة لها): استدل به على جواز الابتداء بالنكرة،

---

(١) فتح الباري: ٥/٥٦.

(٢) الفتح: ٥/٢٤٢، ٢٤٤.

(٣) الفتح: ٧/٣٨٩، ٣٩٠. وقد أشار ابن حجر إلى انقلاب اسم «عبد الله بن الطفيل» وصوابه «الطفيل بن عبد الله بن سخبرة».

(٤) الفتح: ٤/٢٨٢.

لكن بشرط الإفادة. قال ابن مالك: لا يمتنع الابتداء بالنكـرة المحضة على الإطلاق، بل إذا لم تحصل فائدة، فلو اقترن بالنكرة المحضة قرينة يتحصل بها الفائدة؛ جاز الابتداء بها، نحو: انطلقت فإذا سبع في الطريق»[1].

●● وله ردود نحوية قيِّمة:

منها ما جاء في شرح الحديث الشريف: (إذا سمعتم الإقـامة فـامشوا إلى الصـلاة وعليكم بـالسَّكينـة والـوَقـار...)، يقـول: «قـولـه: (وعليكم بالسكينة والوقار): كذا في رواية أبـي ذر، ولغيره: (وعليكم السكينة)، بغير باء». ثم قال: «واستشكل بعضهم دخول الباء، قال: لأنه متعدٍّ بنفسه كقوله تعـالى: ﴿عليكم أنفسكم﴾، وفيـه نـظر؛ لثبـوت البـاء في الأحـاديث الصحيحة: كحديث (عليكم برخصة الله)، وحديث: (فعليه بالصوم فإنه له وجـاء)، وحديث: (فعليـك بالمـرأة)، قالـه لأبـي طلحة في قصـة صفيـة، وحديث: (عليك بعيبتك) قالته عائشة لعمر، وحديث: (عليكم بقيام الليل)، وحديث: (عليك بخويصة نفسـك)، وغير ذلـك. ثم إن الذي علل بـه هذا المعترِض غير مـوفٍ بمقصوده، إذ لا يلزم من كـونه يجـوز أن يتعدّى بنفسـه امتناع تعدّيه بالباء، وإذا ثبت ذلك فيدل على أن فيه لغتين، والله أعلم»[2].

وفي حـديث أم حبيبة قـالت: «قلت يا رسـول الله، هل لـك في بنت أبـي سفيان؟ قال: (فأفعل ماذا)؟ قلت: تَنْكِحُ». يقـول الحافظ معلقاً على قـوله ﷺ: (فـأفعلِ مـاذا؟). فيه شـاهد على جـواز تقديم الفعـل على «ما» الاستفهامية، خلافاً لمن أنكره من النحاة»[3].

ومن ردوده البـارعة مـا جاء في شـرح حديث حـارثـة بن وهب قـال: «صلّى بنـا النبـي ﷺ آمَنَ ما كـان بمنًى ركعتين». قال ابن حجـر: «قولـه:

---

(١) الفتح: ٣/٣٤٣، ٣٤٥.
(٢) الفتح: ٢/١١٧ ـ ١١٨.
(٣) الفتح: ٩/١٤٢، ١٥٨.

(آمن): أفعل تفضيل من الأمن. قوله: (ما كان): قال الطيبي: ما مصدرية، ومعناه الجمع لأن ما أضيف إليه أفعل يكون جمعاً، والمعنى: صلى بنا والحال أنَّا أكثر أكواننا في سائر الأوقات أمناً. وسيأتي في «باب الصلاة بمنى» من كتاب الحج عن آدم عن شعبة بلفظ «عن أبي إسحاق» وقال في روايته: «ونحن أكثر ما كنا قط وآمنه». وكلمة «قط» متعلقة بمحذوف تقديره: ونحن ما كنا أكثر منا في ذلك الوقت ولا أكثر أمناً. وهذا يستدرك به على ابن مالك حيث قال: استعمال قط غير مسبوقة بالنفي مما يخفى على كثير من النحويين! وقد جاء في هذا الحديث بدون النفي»[1].

وله بحوث نحوية فذة، وفوائد نادرة، يصعب الإشارة إليها في هذه العجالة، وفيما ذكرناه غنية للدلالة على عبقرية هذا الإمام في هذا الميدان، كيف لا وهو يتصدى لشرح كلام الله سبحانه وحديث رسوله ﷺ؟

وأما في اللغة فقد فاق أعيانها في سعة الاطلاع عليها، وحفظها، وسرعة استحضارها، حتى إن كبار أدباء عصره كانوا يختلفون إليه ليزيل عنهم ما أشكل عليهم. والذي يطلع على التراث العلمي الضخم للحافظ يقضي العجب من تفوقه في لغة القرآن، ويجد نفسه مضطراً لتأمل معالم بارزة في شخصية لغوي جبل في الحفظ والفهم، هو كالفيروزابادي، مع السلاسة في التعبير، وعذوبة اللفظ، ورقة الأسلوب، وجزالة العبارة، ووضوح الإشارة، دونما تقعر في البيان، أو استخدام حوشي الكلام، بل يأخذك إلى فهم فكرته دونما عناء، مع الرصانة وشموخ العبارة، كالماء ينساح حاملاً معه جواهره ولآلئه.

وإن الذي يقرأ لابن حجر في شرحه الكلام النبوي؛ ليجد ما يعجبه، بل ويطربه، حيث تتزاحم عند الإمام معالم العظمة والسبق والإبداع: فيستدل للمعنى اللغوي بالقرآن والحديث، ويشير إلى نكت

---

(١) الفتح: ٢/٥٦٣ ـ ٥٦٤.

لغوية، وإذا لزم الأمر حرَّر بحوثاً وفوائد لغوية، ويستدرك على أئمة اللغة ويردّ عليهم، بعد أن يستوعب آراءهم، ويطلع على مصنفاتهم بما يدهش العقل حقا!! ويشفع ذلك باختيارات لغوية. كل هذا بلغة سهلة ميسورة، مع سعة في العطاء، ووجازة في العبارة، وتلك هي البراعة، وهذا هو التفوق بعينه.

●● فمن استشهاده للمعنى اللغوي بالقرآن والسنّة:

ما شرح به قوله سبحانه وتعالى: ﴿بلاء من ربكم﴾ فقال: «وتحرير ذلك أن لفظ البلاء من الأضداد، يُطلق ويراد به النعمة، ويطلق ويراد به النقمة، ويطلق أيضاً على الاختبار. ووقع ذلك كله في القرآن: كقوله تعالى: ﴿بلاء حسناً﴾ فهذا من النعمة والعطية. وقوله: ﴿بلاء عظيم﴾، فهذا من النقمة، ويحتمل أن يكون من الاختبار، وكذلك قوله: ﴿ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم﴾. والابتلاء بلفظ الافتعال يراد به النقمة والاختبار أيضاً»[1].

وعند شرح قوله ﷺ: (الإيمان بضع وستون شعبة)، يقول: «قوله: (بضع): بكسر أوله، وحكي الفتح لغة، وهو عدد مبهم مقيد بما بين الثلاث إلى التسع كما جزم به القزاز. وقال ابن سيده: إلى العشر. وقيل: من واحد إلى تسعة. وقيل: من اثنين إلى عشرة. وقيل: من أربعة إلى تسعة. وعن الخليل: البضع السبع. ويرجح ما قاله القزاز ما اتفق عليه المفسرون في قوله تعالى: ﴿فلبث في السجن بضع سنين﴾. وما رواه الترمذي ــ بسند صحيح ــ أن قريشاً قالوا ذلك لأبي بكر، وكذا رواه الطبري مرفوعاً»[2].

---

(١) الفتح: ٧/١٩٠.

(٢) الفتح: ١/٥١. والمراد بقول قريش لأبي بكر: ما جرى بينه وبينهم في قصة غلبة الروم لفارس، المذكورة في أول «سورة الروم».

●● ومن ذلك النكت والفوائد والبحوث اللغوية:

●● فمن الفوائد اللغوية:

شرحه لمعنى: (وايم الله)، قال: «قوله: (وايمُ الله): همزته همزة وصل عند الجمهور، وقيل: يجوز القطع. وهو مبتدأ وخبره محذوف، أي: أيم الله قسمي. وأصله: أيمن الله، فالهمزة حينئذٍ همزة قطع، لكن لكثرة الاستعمال خُففت فوصلت. وحكي فيها لغات: أيمنُ الله مثلثة النون، و «مِنُ الله» مختصرة من الأولى، مثلثة النون أيضاً. و« أيم الله» كذلك، و «م الله» كذلك، وبكسر الهمزة أيضاً، و «أم الله»[1].

وفي تفسير «المفلس» يقول: «المفلس شرعاً من تزيد ديونه على موجوده، سمِّي مفلساً لأنه صار ذا فلوس بعد أن كان ذا دراهم ودنانير، إشارة إلى أنه صار لا يملك إلَّا أدنى الأموال وهي الفلوس. أو سمِّي بذلك لأنه يُمنع التصرف إلَّا في الشيء التافه كالفلوس، لأنهم ما كانوا يتعاملون بها إلَّا في الأشياء الحقيرة. أو لأنه صار إلى حالة لا يملك فيها فلساً، فعلى هذا فالهمزة في «أفلس» للسلب»[2].

●● ومن النكت اللغوية:

قوله: «الأحابيش ــ بالحاء المهملة والموحدة وآخره معجمة ــ: واحدها أحبوش بضمتين ــ وهم بنو الهون بن خزيمة بن مدركة، وبنو الحارث بن عبد مناة بن كنانة، وبنو المصطلق بن خزاعة ــ كانوا تحالفوا مع قريش، قيل تحت جبل يقال له «الحبشي» أسفل مكة، وقيل: سمّوا بذلك لتحبُّشهم أي تجمعهم، والتحبش: التجمع، والحباشة: الجماعة»[3].

---

(١) الفتح: ٥٩٨/٦.
(٢) الفتح: ٦٢/٥.
(٣) الفتح: ٣٣٤/٥.

●● **ومن بحوثه اللغوية القيمة:**

قوله في تعريف البلاغة: «اختلف في تعريف البلاغة، فقيل: أن يبلغ بعبارة لسانه كُنْهَ ما في قلبه. وقيل: إيصال المعنى إلى الغير بأحسن لفظ. وقيل: الإيجاز مع الإفهام، والتصرف من غير إضمار. وقيل: قليل لا يُبهم، وكثير لا يسأم. وقيل: إجمال اللفظ، واتساع المعنى. وقيل: تقليل اللفظ وتكثير المعنى. وقيل: حسن الإيجاز مع إصابة المعنى. وقيل: سهولة اللفظ مع البديهة. وقيل: لمحة دالّة، أو كلمة تكشف عن البغية. وقيل: الإيجاز من غير عجز، والإطناب من غير خطأ. وقيل: النطق في موضعه، والسكوت في موضعه، وقيل: معرفة الفصل والوصل. وقيل: الكلام الدال أوله على آخره، وعكسه. وهذا كله عن المتقدمين. وعرف أهل المعاني والبيان «البلاغة» بأنها: مطابقة الكلام لمقتضى الحال، والفصاحة وهي خلوّه عن التعقيد. وقالوا: المراد بالمطابقة ما يحتاج إليه المتكلم بحسب تفاوت المقامات، كالتأكيد وحذفه، والحذف وعدمه، أو الإيجاز والإسهاب، ونحو ذلك. والله أعلم»[1].

●● **ومن بدائعه وهو يتكلم في الموضوع أو يشرح الفكرة أنه يؤدي الغرض بعبارة وجيزة مع سعة العطاء، وتلخيص لكلام الأئمة بأسلوب مشرق منير:**

اصغِ إليه وهو يشرح قول ضمام بن ثعلبة رضي الله عنه للنبي ﷺ: «إني سائلك فَمُشَدِّدٌ عليك في المَسْأَلة، فلا تَجِدْ عليَّ في نَفسِك»، يقول الحافظ: «قوله (فلا تجد): أي لا تغضب. ومادة «وجد» متحدة الماضي والمضارع، مختلفة المصادر، بحسب اختلاف المعاني: يقال في الغضب: «موجدة»، وفي المطلوب: «وجوداً»، وفي الضالَّة: «وجداناً»، وفي الحب: «وَجداً» بالفتح، وفي المال: «وُجداً» بالضم، وفي الغنى:

(١) الفتح: ١٣/١٧٧.

«جِدَة» بكسر الجيم، وتخفيف الدال المفتوحة على الأشْهَر في جميع ذلك. وقالوا أيضاً في المكتوب: «وِجَادة» وهي مولَّدة»(١).

وأما ردوده على اللغويين فقائمة على الحجة والبرهان والمنطق القويم:

ـ من ذلك قوله في شرح حديث النبي ﷺ: (يا معشر النساء تصدَّقن، فإني أُرِيتُكُنَّ أكثرَ أهل النار)، يقول: «قوله (يا معشر النساء): المعشر كل جماعة أمرهم واحد، ونُقل عن ثعلب أنه مخصوص بالرجال، وهذا الحديث يردُّ عليه، إلَّا إن كان مراده بالتخصيص حالة إطلاق المعشر لا تقييده كما في الحديث»(٢).

وفي حديث الاستسقاء: «... فأتى الرجلُ إلى نبي الله ﷺ فقال: يا رسول الله، بَشَقَ المسافرُ، ومُنِعَ الطريقُ»، يقول ابن حجر: «قال الخطابي: «بشق» ليس بشيء، وإنما هو «لثق» ـ يعني بلام ومثلثة بدل الموحَّدة والشين ـ يقال: لثق الطريق أي صار ذا وحل، ولثق الثوب إذا أصابه ندى المطر. قال الخطابي: ويحتمل أن يكون: «مشق» ـ بالميم بدل الموحدة ـ أي صارت الطريق زلقة، ومنه مشق الخط. والميم والباء متقاربتان. وقال ابن بطال: لم أجد لبشق في اللغة معنى. وفي «نوادر اللحياني»: نشق ـ بالنون ـ أي نشب، انتهى. وفي النون والقاف من «مجمل اللغة» لابن فارس، وكذا في «الصحاح»: نشق الظبي في الحبالة: أي علق فيها. ورجل نشق: إذا كان ممن يدخل في أمور لا يتخلص منها».

ويعقب ابن حجر على هؤلاء جميعاً فيقول: «ومقتضى كلام هؤلاء أن الذي وقع في رواية البخاري تصحيف؛ وليس كذلك، بل له وجه في اللغة، لا كما قالوا، ففي «المنضد» لكراع: بشق ـ بفتح الموحدة ـ: تأخر

---

(١) الفتح: ١/١٤٨، ١٥١.

(٢) الفتح: ١/٤٠٦.

ولم يتقدم. فعلى هذا فمعنى «بشق» هنا ضَعُفَ عن السفر، وعجز عنه، كضعف الباشِقِ وعجزه عن الصيد، لأنه ينفر الصيد ولا يصيد»[1].

وفي حديث أبي بكرة قال: «كنا عند رسول الله ﷺ فانكسفت الشمس». يقول: «قوله (فانكسفت الشمس): يقال: كسفت الشمس ـ بفتح الكاف ـ وانكسفت بمعنًى، وأنكر القزاز «انكسفت»، وكذا الجوهري حيث نسبه للعامة، والحديث يرد عليه»[2].

وفي معنى قوله تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ يقول: «قال أبو عبيدة في قوله تعالى ﴿فأوجس منهم خيفة﴾: أي: فأضمر منهم خيفة أي خوفاً، فذهبت الواو فصارت ياءً من أجل كسرة الخاء. قال الكرماني: مثل هذا الكلام لا يليق بجلالة هذا الكتاب[3] أن يذكر فيه. انتهى». ويعقب ابن حجر قائلاً: «وكأنه رأى فيه ما يخالف اصطلاح المتأخرين من أهل علم التصريف، فقال ذلك، حيث قالوا في مثل هذا: أصل خيفة خوفة، فقلبت الواو ياء لكونها بعد كسرة. وما عرف أنه كلام أحد الرؤوس العلماء باللسان العربي، وهو أبو عبيدة مَعْمَر بن المُثَنّى البصري»[4].

ومن هذا القبيل ما جاء في إحدى تراجم البخاري في صحيحه، وهو قوله: «باب تزويج النبي ﷺ عائشةَ، وقُدومِها المدينةَ، وبنائِه بها». يقول ابن حجر: «وقد تُعُقِّب قوله: «بنائه بها»؛ اعتماداً على قول صاحب «الصحاح»: العامة تقول: بنى بأهله، وهو خطأ، وإنما يقال: بنى على أهله، والأصل فيه أن الداخل على أهله يضرب عليه قبة ليلة الدخول، ثم قيل لكل داخل بأهله: بانٍ. انتهى. ولا معنى لهذا التغليط؛ لكثرة استعمال

---

(١) الفتح: ٢/٥١٦ ـ ٥١٧.

(٢) الفتح: ٢/٥٢٦ ـ ٥٢٧.

(٣) يريد «صحيح البخاري»؛ لأن الإمام البخاري أورد كلام أبي عبيدة المذكور.

(٤) الفتح: ٦/٤٢٦.

الفصحاء له، وحسبك بقول عائشة: «بنى بي»، وبقول عروة في آخر الحديث الثالث: «وبنى بها»(١).

ومن روائع ردوده واستدراكاته شرحه لقول أبي بكر الصديق: «لَاهَا اللَّهِ إذاً، لا يَعْمِدُ إلى أَسَدٍ من أُسْدِ اللَّهِ، يُقاتِلُ عن الله ورسولِهِ ﷺ، فيعطيك سَلَبَهُ». فبعد أن يستوعب الآراء في الكلام على «لاها الله إذاً»، يقول: «وإذا تقرر ذلك أمكن حمل ما ورد من هذه الأحاديث عليه، فيكون التقدير: لا والله حينئذٍ. ثم أراد بيان السبب في ذلك فقال: لا يعمد، إلخ، والله أعلم. وإنما أطلت في هذا الموضع لأنني منذ طلبت الحديث، ووقفت على كلام الخطابي، وقعت عندي فيه نفرة للإقدام على تخطئة الروايات الثابتة، خصوصاً ما في الصحيحين. فما زلت أتطلّب المخلص من ذلك، إلى أن ظفرت بما ذكرته، فرأيت إثباته كله هنا، والله الموفق»(٢).

ومن طرائف ردوده ما أورده في شرح قوله ﷺ: (تُحْشَرُونَ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا)، فيقول: «قوله (غُرْلًا) ـ بضم المعجمة وسكون الراء ـ جمع أغرل، وهو الأقلف، وزنه ومعناه، وهو من بقيت غرلته وهي الجلدة التي يقطعها الخاتن من الذكر. قال أبو هلال العسكري: لا تلتقي اللام مع الراء إلّا في أربع كلمات: «أرل» اسم جبل، و«ورل» اسم حيوان معروف، و«حرل» ضرب من الحجارة، والغرلة. واستُدرك عليه كلمتان: «هرل» ولد الزوجة، و«برل» الديك الذي يستدير بعنقه. والستة حوشية، إلّا الغرلة»(٣).

وهذا كله نابع من سعة اطلاع هذا الإمام على كتب اللغويين،

---

(١) الفتح: ٧/٢٢٣، ٢٢٤.

(٢) الفتح: ٨/٣٧ ـ ٤٠.

(٣) الفتح: ١١/٣٧٨، ٣٨٤.

وآرائهم، وتعمقه فيها، وحسن تصرفه، وسرعة بديهته واستحضاره لمراده؛ كما يظهر ذلك واضحاً عندما يتناول شرح اللفظة أو العبارة، بكثرة ما يستدل له من كتب أساطين اللغة.

ففي شرح حديث حذيفة قال: «كان النبي ﷺ إذا قام من الليل يَشُوصُ فاهُ بالسواك»، يقول: «قوله (يشوص) ـ بضم المعجمة وسكون الواو بعدها مهملة ـ والشوص ـ بالفتح ـ الغسل والتنظيف، كذا في «الصحاح»، وفي «المحكم»: الغسل عن كراع، والتنقية عن أبي عبيد، والدلك عن ابن الأنباري»[1].

وفي معنى القلنسوة يقول: «قوله (والقَلَنْسُوَة): غشاء مبطن يستر به الرأس، قاله القزاز في «شرح الفصيح». وقال ابن هشام: هي التي يقال لها العمامة الشاشية. وفي «المحكم»: هي ملابس الرأس، معروفة، وقال أبو هلال العسكري: هي التي تغطى بها العمائم، وتستر من الشمس والمطر»[2].

وعند شرح حديث أبي حميد الساعدي في وصف صلاة النبي ﷺ، حيث يقول: «فإذا رفع رأسه استوى حتى يعود كل فقار مكانه»، يقول الحافظ: «قوله (حتى يعود كل فقار). الفَقَار ـ بفتح الفاء والقاف ـ جمع فقارة، وهي عظام الظهر، وهي العظام التي يقال لها خرز الظهر، قاله القزاز. وقال ابن سيده: هي من الكاهل إلى العجب. وحكى ثعلب عن «نوادر ابن الأعرابي» أن عدتها سبعة عشر. وفي «أمالي الزجّاج»: أصولها سبع غير التوابع. وعن الأصمعي: هي خمس وعشرون، سبع في العنق، وخمس في الصلب، وبقيتها في أطراف الأضلاع. وحكى في «المطالع» أنه وقع في رواية الأصيلي: بفتح الفاء، ولابن السكن: بكسرها، والصواب

(١) الفتح: ١/٣٥٦.
(٢) الفتح: ١/٤٩٣.

بفتحها. والمراد بذلك كمال الاعتدال»[1].

ومن توقف عند كلامه على «حديث أم زَرْع» وجد العجب العجاب، فقد لخص ما ذكره الأئمة في شرح هذا الحديث، بعبارات وجيزة، وقال مبيناً مصادره في ذلك: «وقد شرح حديث أم زرع إسماعيلُ بن أبي أويس شيخ البخاري، روينا ذلك في «جزء إبراهيم بن ديزيل الحافظ» من روايته عنه. وأبو عُبَيد القاسم بن سلاَّم في «غريب الحديث»، وذكر أنه نقل عن عدة من أهل العلم لا يحفظ عددهم، وتعقب عليه فيه مواضعَ أبو سعيد الضرير النيسابوري، وأبو محمد بن قتيبة، كل منهما في تأليف مفرد، والخطابي في «شرح البخاري»، وثابت بن قاسم. وشرحه أيضاً الزبير بن بكار، ثم أحمد بن عبيد بن ناصح، ثم أبو بكر بن الأنباري، ثم إسحاق الكاذي في جزء مفرد، وذكر أنه جمعه عن يعقوب بن السكِّيت، وعن أبي عبيدة، وعن غيرهما. ثم أبو القاسم عبد الحكيم بن حبان المصري، ثم الزمخشري في «الفائق»، ثم القاضي عياض وهو أجمعها وأوسعها، وأخذ منه غالب الشراح بعده. وقد لخصت جميع ما ذكروه»[2]!!

وقد لخص الحافظ كل ما جاء عند هؤلاء، بعبارات جامعة، وأسلوب فذ، بنحو من عشرين صفحة[3]، والعلم مواهب، وصدق الله القائل: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾.

وما أروع قول الشرف عيسى بن حجاج السعدي في مدح الإمام[4]:

وعلى الخليل ونحوه يسمُو وفي لغةٍ يفوق أبا عبيدة مَعْمَرَا

• • •

(١) الفتح: ٢/٣٠٨.

(٢) الفتح: ٩/٢٥٥ ـ ٢٥٦.

(٣) الفتح: ٩/٢٥٦ ـ ٢٧٧.

(٤) الجواهر والدرر: ص ٤٠٣. والشاعر المذكور هو: عيسى بن حجاج بن عيسى بن =

لقد كان من توفيق الله لهذا الإمام الكبير أن قذف في قلبه حب اللغة وعلومها، فتوجه إليها، وبرع في فنونها، وفاق في نثرها ونظمها، ونحوها وغريبها؛ وذلك لأن اللغة آلة فهم كل علم، ومفتاح كل فنّ، وسبيل تذوق وجوه إعجاز الكتاب الحكيم، والكشف عن خبايا جوامع الكلم النبوي. وتلك نعمة منَّ الله بها على إمامنا ابن حجر، فهو إذ أتقن هذا العلم الهام، توجه يقرع أبواب مختلف العلوم، وفي مكنته آلات فتح المغاليق، وأسباب النبوغ.

ونحن إذ أطلنا بعض الشيء في هذا الباب؛ فلأهمية هذا الجانب في حياة ابن حجر من جهة، ولأن من ترجم له أغفل هذه الميزة البارزة، أو مرَّ عليها كسحابة صيف؛ من جهة أخرى. وبرأينا أن «ابن حجر اللغوي» أس الأساس في شوامخ علوم ابن حجر المختلفة، بل إن هذا الفصل جدير بأن يفرد بالتأليف مع مصنفاته في اللغة وعلومها.

● ● ●

ثانياً ــ ابن حجر المؤرخ

منذ الأيام الأولى لاشتغال ابن حجر بالعلم حُبب إليه النظر في التواريخ وأيام الناس، ووقائع الأحداث، وأحوال الرواة؛ حتى إنه كان يستأجر كتب التاريخ ممن هي عنده، فيجيل ناظريه فيها، ويعمل فكره، فعلق بذهنه الصافي الرائق شيء كثير من ذلك، وقد رغَّبه في هذا العلم البدر البَشْتكي وغيره[1].

= شداد، الشرف السعدي القاهري، قال فيه ابن حجر: مهر في الشعر ومعرفة اللغة، سمعت منه فوائد ونوادر، وسمعت من نظمه الكثير، ومدحته بعدة قصائد. حياته (٧٣٠ ــ ٨٠٧هـ).

(١) الجواهر والدرر: ص ٦٥ ــ ٦٦، وقد سبق تفصيل ذلك ص ٧١.

وساعدته ـ في أيامه التالية ـ عوامل كثيرة على المضي قدماً في هـذا المضمار، حتى برع فيه ونبغ، ومن ذلك:

رحلاته الـواسعة التي جـال خلالهـا في البلاد الإسـلامية، فتلقى عن الأشياخ والأئمة، وعاين البلدان، وعايش الشعوب، ووقف على الأحداث، ثم تلك الوظائف الهامة التي تصدى لها في عصر سلاطين المماليك، والتي هيـأت له السبـل للوقوف على مجـريات السيـاسـة ودخـائلهـا، ومكّنتـه من الاتصال المباشر بمصادر التأريخ لأحداث عصره، سواء كانت المصادر هي السلاطين أنفسهم، وما يجري لهم أو حـولهم من أحداث، أو كبار رجالات الدولة، أو طلاب العلم، أو الوثائق السياسية التي تبرم أو تنفّذ، ونحو ذلك. وهـو مـا مكن لـه الاطـلاع على شؤون الـدولـة، والتعـرف على وثـائقهـا وسيـاستها، والتثبت من صحـة أخبارهـا، حتى لقد تفـرّد بـذكـر الكثيـر من الحـوادث، وجوانب الشخصيـة التي يترجمهـا، بل ربمـا عُـدّ ـ أحيـانـاً ـ مصدراً وحيداً لبعض التراجم[1].

وقد انعكس هذا على كتاباته التاريخية، فصبغها بالصبغة الشمـولية، كمـا يتجلى ذلك في كتـابه «إنبـاء الغمر»، خـاصة تـأريخـه للسنـوات التي عاصرها، وقد اتسعت معارفه، وتفتحت أمامه الآفاق؛ مما اعتبر ـ بحق ـ «مؤرخ القرن التاسع»[2].

وصدق فيه قول البدر البشتكي[3]:

كـأنـهُ وهــو بـالتـاريخِ مشتغــلٌ	مــطالـعٌ كـلَّ مجمـوعٍ ومفتــرقِ
على المـلائك مستـوفٍ يسـاوقهم	ما حلَّ بالكون من مـاضٍ ومُلْتَحَقِ

(١) ابن حجر مؤرخاً: ص ٣١٠.

(٢) كما يقول الدكتور بشار عواد معـروف في كتابـه «الذهبي ومنهجـه في كتابـه تاريـخ الإسلام»: ص ١٢٧.

(٣) من ديوانه الذي جمعه الشهاب الحجازي: الجواهر ص ٤١٥.

وقد صنف الإمام كتباً كثيرة جليلة في هذا الميدان، سواء في التراجم، أو التاريخ الحَوْلي مع التراجم، أو تاريخ الرجال الرواة: كالإصابة في تمييز الصحابة، والدرر الكامنة وذيل الدرر الكامنة، ورفع الإصر عن قضاة مصر، وإنباء الغمر بأنباء العمر، وتهذيب التهذيب، ولسان الميزان. كما كتب في «السيرة» كتاباً مفرداً، وكلامه في «الفتح» على السير والمغازي كافٍ للدلالة على جلالته في علم التاريخ.

ويعدّ الحافظ من بين أحسن الذين كتبوا في تراجم المعاصرين له، كما فعل في كتابه «المجمع المؤسس» الذي ترجم فيه لأشياخه، كلٍ بما يليق بجلالته، وسعة علمه، وإفادة ابن حجر منه.

والعجيب أن كثيراً ممن عنوا بدراسة الحركة الفكرية في ظل الدولة المملوكية ـ في القرنين الثامن والتاسع الهجريين ـ قد أسقطوا ابن حجر من سلك المؤرخين! ويعود ذلك لثلاثة أمور:

أولها: الخطأ الشائع الجائر ـ والذي وقع في شَرَكه كثير من الكتاب حتى الإسلاميين ـ القائل بأن نتاج ذينك القرنين ليس إلَّا كتابات تتمثل في الشروح والمختصرات، أو الجمع التأليفي الموسوعي الخالي من الإبداع والجدة، سواء في المادة أو في المنهج.

والثاني: غلبة جانب «المحدث» عند ابن حجر على غيره من الجوانب العلمية الكثيرة التي نبغ فيها؛ لذا فالكثيرون ممن عني بترجمته قد أثبتوه في سلك الحفاظ والمحدثين، وأهملوه كمؤرخ، وإن تيسَّر لهم تقديم كلمة عجلى في هذا الصدد فإنه يأتي في ظل «المقريزي» أو في طيات الحديث عنه، باعتباره معاصراً لأحد شوامخ التأريخ.

والثالث: إغفال هذا النوع من الباحثين دراسة مؤلفات ابن حجر التاريخية، أو الوقوف على أهميتها[1].

---

(١) انظر: ابن حجر مؤرخاً ص ٧ ـ ٨، ٣٠٩، للدكتور محمد عز الدين، وقد أنصف ابنَ حجر في دراسته تلك.

●● ومفهوم التاريخ عند ابن حجر ذو وشيجة قوية بعلم الحديث النبوي، الذي فاق فيه فصار حافظ الدنيا بلا مدافع؛ لذا فهو عندما يسوق الحدث التاريخي، أو يكتب الترجمة لشخص ما، لا يترك ذلك دون أن يُعمل فيه النقد الموضوعي الذي هو رئة المحدث التي يتنفس بها.

وقد تجلت خاصية «النقد» عند الإمام في كل بحث، ورافقته في كل مجال، سواء في الأدب أو اللغة أو النحو، أو التأريخ ـ أحداثاً وتراجم ـ أو علم الرجال، أو الحديث وعلله ودرجته صحة وضعفاً، أو الفقه ومنازع الفقهاء وأدلتهم، وترجيح الأقوى، أو تعقب المصنفين والباحثين إن أخطؤوا، أو أخذوا كلام غيرهم فلم ينسبوه إلى صاحبه. لا يجامل أحداً، كما لا يظلم ولا يبخس أحداً حقه. وله في كتبه التفاتات بارعة في النقد وأصوله، خاصة كتابه الفذ «فتح الباري»، وكذا «لسان الميزان»، وغيرهما.

وهذه الصفة ـ فيما نرى ونعتقد ـ ميزة شامخة مضيئة في شخصية الحافظ، وفضيلة له، ومنقبة، لا ينبغي أن تضيق بها صدور المخلصين والباحثين، فإن هذا دين، يجب على الأئمة تأديته على وجهه صافياً نقياً.

ولقد اكتسب الإمام الحافظ هذه الصفة البارزة الأصيلة من خلال تمرُّسه بعلم الحديث النبوي، وتمحيص علله، وبهرجة الدخيل عليه، كما تأثر بوضوح بكتابات مؤرخ الإسلام الشهير الحافظ الذهبي؛ وقد تجلى هذا واضحاً عندما شرب «ابن حجر» ماء زمزم لينال مرتبة الذهبي، ثم شربه أخرى ليرتقي درجة فوق تلك!

هذا المسلك الناقد في كتابات ابن حجر عموماً، والتاريخ والتراجم خصوصاً؛ كان سبباً كبيراً في تعرضه لكثير من العداوات والمشاحنات في زمانه، ووجد من يثيرها من رقاد فيما بعد[١].

---

(١) انظر تعليقات الكوثري على «ذيول تذكرة الحفاظ» وخاصة ترجمة الحافظ =

ومن ذلك ما ذكره السخاوي قائلاً: «انتقد بعض المعاصرين لشيخنا كثيراً من تراجم «معجمه» بانتقادات ساقطة، فلم يكن ذلك بمانع من التنافس في تحصيل المعجم، والتناقل عنه إلى وقتنا، بين العرب والعجم، بل كان ــ ولله الحمد ــ سبباً لإخماد القائم بإظهاره ونشره وعدم استتاره، مع إطفاء ذكره، وإخفاء فخره، بحيث إنه ما مات حتى صار عبرة، وصار محفوفاً بالندامة والحسرة»[1].

ويتجلى منهج الحافظ في النقد التاريخي في فتياه التي ردَّ بها على سؤال سائل يتعلق بهذا النوع من الكتابة التاريخية الناقدة.

أما السؤال ففحواه[2]: «ما يقال في مؤرخ يذكر تراجم الناس على ما يعلم منها من خير وشرّ، قاصداً بذكر الشرّ التنفير ممن يكون ذلك صفته، مما عساه يُنقل عنه في ذلك من أمر ديني، وبما زلَّ فيه تبعاً لهواه، ولا سيما إذا كان هذا المؤرخ ناقلاً عن أحد ممن تقدمه، وذلك مع استحضاره وخوفه مما ورد في اتباع الهوى وعدم ميله إليه، فاعترض عليه معترض، فقال له: هذا غيبة لا تحل»؟

فرد الحافظ ابن حجر بما يلي:

«الحمد لله. اللهم اهدني لما اختُلِف فيه من الحق بإذنك.

الذي يتصدى لكتابة التاريخ قسمان: قسم يقصد ضبط الوقائع، فهو

= ابن حجر، ففيه الكثير من التعصب على الحافظ، والناظر في كتاب «التنكيل لما في تأنيب الكوثري من الأباطيل» يرى عجائب للكوثري ــ غفر الله لنا وله ــ في الحط على الأئمة أمثال الشافعي ومالك!!

(١) الإعلان بالتوبيخ: ص ٥٧.

(٢) جاء ذلك في مجموع تحت عنوان: «شروط المؤرخ في كتابة التاريخ، خمس فتاوى لم تنشر لخمسة من أعلام القرن التاسع الهجري». نشرها الأستاذ فؤاد سيد في «مجلة معهد المخطوطات بالقاهرة». وأشار إليها السخاوي ضمناً في «الإعلان بالتوبيخ»: ص ٥٣ ــ ٥٤. ونحن نقلنا النص عن «ابن حجر مؤرخاً» ٢٤٣ ــ ٢٤٥.

غير مقيد بصنف منه، ولكن يلزمه التحري في النقل، فلا يجزم إلا بما يتحققه، ولا يكتفي بالنقل الشائع، ولا سيما إن ترتب على ذلك مفسدة من الطعن في حق أحد من أهل العلم والصلاح. وإن كان في الواقعة أمر قادح في حق المستور؛ فينبغي ألا يبالغ في إفشائه، ويكتفي بالإشارة لئلا يكون المذكور وقعت منه فلتة، فإذا ضبطت عليه لزمه عارها أبداً. فيحتاج المؤرخ أن يكون عارفاً بمقادير الناس، وبأحوالهم وبمنازلهم، فلا يرفع الوضيع، ولا يضع الرفيع.

والقسم الثاني: من يقتصر على تراجم الناس، فمنهم من يعمم، ومنهم من يتقيد، وعلى كل منهما أن يسلك المسلك المذكور في حق من يترجمهم: فالمشهور بالخير والدين والعلم لا تُتبع مساويه، فإنه غير معصوم. والمستور قد تقدم حكمه. والمجاهر بالفسق والفجور؛ إذا خُشي من ستر حاله ترتب مفسدة ــ كالاغترار بجاهه أو ماله أو بنسبه ــ فَيُضَمّ إلى من ليس على طريقته[1]، فهذا يجوز له بهذا القصد أن يبين حاله بالنسبة لرفيقه أو أخيه أو قريبه، كأخوين ــ مثلاً ــ اشتهرا بالعلم، وأحدهما كان مشهوراً بالفقه والديانة، والآخر بعكسه. وربما وجب عليه بيان هذا المجاهِر إذا كان هناك من يغترّ به.

وقد بسط شيخ الإسلام «النواوي» القول في ذلك في آخر «كتاب الأذكار»، وبين حال من يباح ذكره بما فيه، وأحال عليه في زياداته في «الروضة»، فمن أراد الوقوف عليه فقد أرشدته إليه. ومن جملته: بيان حال المحدّث.

ثم الذي يتقيد بصنف من الناس: تارة يكون محدثاً، وتارة يكون غير محدِّث، فالمحدث: أصل وضع فنّه بيان الجرح والتعديل، فمن عابه

---

(١) أي على سبيل المقارنة بالضد، إذ بالضد تتضح الأشياء.

بذكره لعيب المجاهر بالفسق أو المتصف بشيء مما ذكر، أو ملبّس، أو مشارك للمجاهر في صفته؛ فيخشى أن يسري إليه الوصف.

ثم هذا المحدث يكون تارة بلغ درجة الاجتهاد في الجرح والتعديل، وتارة يكون ناقلاً عن غيره:

فالأول: هو الذي تقدم تفصيل حاله.

والثاني: يلزمه تحري الصدق في النقل، ولا يعتمد على مجرد التشنيع في كل أحد، فإن للناس أغراضاً متفاوتة، بل يُنظر في الناقل: فإن كان ثقة ليس بمتّهم في المنقول عنه، فليعتمده، وإن سماه فهو لساحته، وإن شكر فيه فليقتصر على الإشارة، ولا يجزم بما يتردد فيه، بل يأتي فيه بصيغة التمريض.

وإن كان الناقل له ممن يُنسب إلى المجازفة، أو كان بينه وبين المنقول عنه حظ نفس؛ فليجتنب النقل عنه، فإن اضطر إلى ذلك، فليكشف أمره، ويتبرأ من عهدته.

وأما كلام أئمة النقل في الجرح والتعديل فأشهر من أن نذكر له أمثلة. وقد خاض في ذلك من لم يُشَكّ في ورعه كالإمام أحمد، والبخاري وهو القائل: «ما اغتبت أحداً منذ علمت أن الغيبة حرام». ومن المتأخرين الحافظ تقي الدين صاحب «الكمال في معرفة الرجال» الذي هذّبه المِزّي، ولقد كان من الورع بمكان مشهور.

وأما اعتراض من اعترض في ذلك، زاعماً أن ذلك غيبة؛ فإن كان جاهلاً فليعلم، فإن أصرَّ فليؤدَّب بما يليق، ليرتدع عن الخوض فيما ليس له به علم. وإن كان منسوباً للعلم، فاللوم عليه أشد، لأنه يصير معانداً، فليقابل بما يليق به من الزجر، حتى يرجع عن الطعن في البري، والذبّ عن المفتري، ويُثاب ولي الأمر ـ أيده الله تعالى ـ على ذلك، وبالله التوفيق».

ومن خلال هذه الفتيا نتبين منهج ابن حجر في النقد، ونجمله فيما يلي:

١ ـ أن مهمته كمحدث تستوجب إثبات فنه ـ الجرح والتعديل ـ فلا يرفع الوضيع، ولا يضع الرفيع، بل لكل منزلته.

٢ ـ لا يتأتى له ذلك إلاَّ بمعرفة تامة بأحوال الناس ومقاديرهم، والتحري في النقل، وعدم الاستسلام لكتابات الآخرين، بل لا بد من إعمال الفكر فيها.

٣ ـ أنه لا يشيع النقل عن مصدر إلاَّ إذا كان صاحبه ثقة، فإن كان غير ذلك: فإما أن يذكر الخبر قرين مصدره، لإلقاء التبعة على صاحبه. أو يأتي به بصيغة التمريض. وفي حال كون المصدر منحازاً أو متعنتاً، يهمل النقل عنه، وإن اضطر نقل عنه وزيّف قوله.

٤ ـ أنه يعامل التراجم تبعاً لحال أصحابها: فالمشهورون بالصلاح لا تتبع سقطاتهم، والمستورون لا يبالغ في كشفهم، بل يكتفي بالإشارة. والمجاهرون بفسقهم يضمُّون إلى الصالحين، فبالضدِّ تتضح الأشياء، أو يعرّي فعلهم.

٥ ـ أنه يطبق علم «الجرح والتعديل» على رجال ترجماته، ومصادره، وعلى الحوادث أيضاً.

٦ ـ أنه يعتقد أن الإقدام على هذا العمل النقدي واجب مجزوم بثوابه، وليس لأحد أن يعترضه[1].

●● وقد اعتنى الحافظ «بالنقد التاريخي» ومارسه في مختلف جوانب كتاباته، ملحًّاً عليه بشتى الطرق التي في مكنته التعبير بها؛ انطلاقاً

---

(١) باختصار عن «ابن حجر مؤرخاً»: ص ٢٤٥ ـ ٢٤٧، وقد قام المؤلف ببيان الجانب التطبيقي النقدي لهذا المنهج لابن حجر في كتابه «إنباء الغمر».

من مفهومه للتاريخ، وهو مفهوم ذو صلة وطيدة بعلم الحديث وما يتبعه من جرح وتعديل، إضافة إلى تذوقه الأدبي، وحسّه التأريخي النقاد.

وقد شمل «منهجه التأريخي النقدي» أنواعاً من النقد تتمثل في:

١ ـ نقد الرجال من خلال الكشف عن الصفات الأصيلة فيهم، المعبرة عن حالهم.

٢ ـ إصدار الأحكام والتقاويم على الملوك والسلاطين، ونواب السلطنة والأمراء، والمباشرين والقضاة، من خلال مقاييس خاصة بكل طبقة على حدة، متبوعة بصفات مبحوثة فيهم، ومثبتة لديهم، سلباً وإيجاباً.

٣ ـ ثم نقد الحوادث: ويتمثل ذلك بنقد الروايات التاريخية، وإصدار الأحكام على الحوادث ورجالها معاً.

٤ ـ نقد المصادر: وذلك إما بنقد النقول منها على أنها جزئيات تخضع لتصديق العقل أو ردّه لها، أو بالنقد الشمولي للمصدر ككل.

ومع ذلك فقد وقع له ـ رحمه الله تعالى ـ الخطأ في مواضع، نتيجة لسهو اعتراه، أو إخلال بالدقة في النقل عن بعض مصادره في مواضع معدودة، أو لأنه لم يكن ممن يتوجه إلى الكتابة التاريخية بالكلية[١].

وليس هذا بدعاً، وحسب الرجل علماً أن تعد أخطاؤه، وفي هذا يقول السخاوي: و«بالجملة فالمؤرخون ـ كغيرهم من سائر المصنفين ـ في كلامهم الخمير والعفين، والسعيد مَنْ عُدّت غلطاته، وما اشتدت سقطاته، فكل إنسان سوى ما استدركوا يؤخذ من كلامه ويترك، وهي الدنيا لا يكمل فيها شي، ولا يخلو مصنف من نشر وطي»[٢].

---

(١) ابن حجر مؤرخاً: ص ٣١٦ ـ ٣١٧.
(٢) الإعلان بالتوبيخ: ص ٦١.

●● والخصلة التي توائم النقد هي «الإنصاف» فهاتان الصفتان يجب ألا تنفكّ واحدة عن الأخرى، خاصة عند الأئمة والمصنفين. وميزة «الإنصاف» من كبرى خصائص الإمام ابن حجر، وهي تشكل أضوأ درة في تاجه العلمي؛ فلا يقوده النقد إلى التعنت والإجحاف، كما لا يهوي به الحب في وادي التغاضي أو التغافل.

وهذا «الإنصاف» لم يكُ قاصراً على التراجم أو الحدث التاريخي، بل تعداه إلى كل مجال سطّر فيه بحثاً، أو ألّف كتاباً، أو أملى مجلساً.

ـ من ذلك ما جاء في ترجمة «يشبك بن أزدمر»، قال الحافظ فيه: «كان مشهوراً بالشجاعة والفروسية. وقال العينتابي[1]: كان ظالماً، لم يشتهر عنه خير! كذا قال. وقد باشر نظر «الشيخونية»، ورأيت أهلها يبتهلون بالدعاء له، والشكر منه»[2].

ويقول ابن حجر في ترجمة «دمرداش المحمدي الظاهري»: «وكان دمرداش مهيباً عاقلاً مشاركاً في عدة مسائل، كثير الإكرام لأهل العلم والعناية بهم، اجتمعت به فوجدته يستحضر كثيراً من كلام الغزالي وغيره. قال القاضي علاء الدين الحلبي في «تاريخه»: كان لا يواجه أحداً بما يكره، وقد بنى جامعاً بحلب، ووقف عليه أوقافاً كثيرة، وله زاوية بظاهر طرابلس لها أوقاف كثيرة. وهذا بخلاف قول العينتابي: ليس له معروف»[3]!!

ومن ذلك تعقباته في «اللسان» على الحافظ الذهبي في مواضع كثيرة، منها: قال الذهبي: «عبد العزيز بن حيان الموصلي، عن هشام بن عمار

---

(١) هو البدر العيني رحمه الله صاحب «عمدة القاري»، وما نقله ابن حجر عنه فمن «عقد الجمان» له، وقد تعقبه الحافظ كما ترى.

(٢) إنباء الغمر: ٧/١٦٤.

(٣) إنباء الغمر: ٧/١٩٩.

بخبر باطل، فما أدري ما أقول». انتهى. فيتعقبه ابن حجر قائلاً: «بلى والله لو شئت لدريت ما تقول، قل ما قاله الأئمة ولا تخف! قال ابن عساكر في تاريخه: عبد العزيز بن حيان بن صابر بن حريث، أبو القاسم الأزدي، سمع بدمشق عن هشام بن عمار ودحيم بن إبراهيم، وبحمص محمد بن مصفى، وبمصر محمد بن رمح، وغيرهم. وروى أيضاً عن أبي بكر بن أبي شيبة، وابن نمير، وأبي جعفر النفيلي، وغسان بن الربيع، والحمّاني، وجماعة. روى عنه ابناه زيد وإبراهيم، وأبو عَوَانة الإسفراييني في صحيحه، وذكره أبو زكريا يزيد بن محمد بن إياس في «طبقات أهل الموصل»، يقال: كان فيه فضل وصلاح، طلب الحديث ورحل فيه، وسمع من الشاميين والعراقيين، وغيرهم، وحدث الناس عنه دهراً. توفي سنة إحدى وستين ومائتين، فهذه ترجمة هذا الرجل»! ثم يذكر الحافظ الحديث الباطل الذي أشار الذهبي إليه، ويبين أن الآفة من هشام بن عمار، الذي يروي عنه عبد العزيز هذا[1].

وفي موضع آخر يقول الذهبي: «علي بن أبي حَمَلة، مولى قريش، شيخ ضمرة بن ربيعة القرشي الحمصي، أبو علي الرملي، ما علمت به بأسا، ولا رأيت أحداً إلى الآن تكلم فيه، وهو صالح الأمر، ولم يخرج له أحد من أصحاب الكتب الستة مع ثقته». انتهى. فيقول الحافظ: «وإذا كان ثقة، ولم يتكلم فيه أحد؛ فكيف تذكره في الضعفاء؟! وكان يكنى أبا نصر، قرأ عليه عطية بن قيس، ورأى واثلة بن الأسقع. قال البخاري: مات سنة ست عشرة ومائتين»[2].

ومع ذلك كان يجلّ الذهبي وينصفه، استمع إليه وهو يدافع عنه في نفس الكتاب: «غالب بن غالب، عن أبيه عن جده، قال العقيلي: إسناد

(1) لسان الميزان: ٤/٢٩ ـ ٣٠.
(2) لسان الميزان: ٤/٢٢٧.

مجهول، عن جندب، عن خريم بن فاتك مرفوعاً: (عدلت شهادة الزور الشرك بالله). رواه عنه عمرو بن زياد الباهلي انتهى[1]. وقرأت بخط الحسيني أن هذا هو غالب بن عبيد الله المتقدم، كذا ذكره العقيلي. كذا قال، وليس ذاك بكافٍ في الرد على الذهبي، ثم راجعت العقيلي، فوجدت الصواب مع الذهبي»[2].

ومثل هذا كثير، وإنما نشير هنا إلى المعالم الرئيسة، ونمثِّل لها بما يؤيدها.

●● ولهذا فإن الحافظ لم يستسلم للهالات المشهّرة من العلماء، فيأخذ كل رأي لهم فيمن يُترجَم له؛ بل يتناول آراءهم بالنقد والتمحيص، قائده في ذلك العدل، ونهجه الإنصاف، مهما علا قدر من ينقل عنهم، واتضع من يترجم له.

والأمثلة على هذا لا تدخل تحت الحصر، منها ما جاء في كتابه القيِّم «تقريب التهذيب»، مثلاً:

١ ـ «أبان بن إسحاق الأسدي النحوي، كوفي ثقة، تكلم فيه الأزدي بلا حجة».

٢ ـ «أبان بن صالح بن عمير بن عبيد القرشي، مولاهم، وثقه الأئمة، وَوَهِمَ ابنُ حزم فجهَّله، وابن عبد البر فضعَّفه. من الخامسة»[3].

٣ ـ «زياد بن عبد الله بن الطفَيْل العامري، البَكّائي ـ بفتح الموحدة وتشديد الكاف ـ أبو محمد الكوفي، صدوق، ثبت في المغازي، وفي حديثه عن غير ابن إسحاق لِينٌ، من الثامنة، لم يثبت أن وكيعاً

---

(١) انتهى كلام الذهبي.

(٢) لسان الميزان: ٤/ ٤١٥.

(٣) تقريب التهذيب: ١/ ٣٠، ترجمة ١٥٦، ١٥٩.

كذَّبه، وله في البخاري موضع واحد متابعة»[1].

٤ ـ «عبد الله بن معاذ بن نَشيط ـ بفتح النون بعدها معجمة ـ الصنعاني، صاحب مَعْمر، صدوق، تحامل عليه عبد الرزاق، من التاسعة»[2].

٥ ـ «عبد الملك بن حبيب، الأندلسي، أبو مروان، الفقيه المشهور، صدوق، ضعيف الحفظ، كثير الغلط، من كبار العاشرة»[3].

٦ ـ «القاسم بن أميَّة الحذَّاء ـ بالمهملة والذال المعجمة الثقيلة ـ بصري صدوق، من كبار العاشرة، ضعَّفه ابن حبان بلا مستند»[4].

٧ ـ «القاسم بن أبي أيوب الأسدي الأعرج الواسطي، أصبهاني الأصل، ثقة، من السادسة. وزعم أبو نُعيم أنه القاسم بن بَهْرام، وفرق بينهما ابن حبان فذكر ابن بهرام في الضعفاء، وهو الصواب»[5].

٨ ـ محمد بن عمر بن واقد الأسلمي، الواقدي، المدني القاضي، نزيل بغداد، متروك مع سعة علمه! من التاسعة»[6].

٩ ـ مقاتل بن حيَّان النَّبَطي ـ بفتح النون والموحدة ـ أبو بسطام، البلخي الخزاز ـ بزايين منقوطتين ـ صدوق فاضل. أخطأ الأزدي في زعمه أن وكيعاً كذَّبه، وإنما كذَّب الذي بعده. من السادسة»[7].

---

(١) تقريب التهذيب: ١/١٦٨، ترجمة ١١٨.

(٢) المرجع السابق: ١/٤٥٢، ترجمة ٦٤٩.

(٣) المرجع السابق: ١/٥١٨، ترجمة ١٣٠٤.

(٤) المرجع السابق: ٢/١١٥، ترجمة ٦.

(٥) المرجع السابق: ٢/١١٥، ترجمة ٧.

(٦) المرجع السابق: ٢/١٩٤، ترجمة ٥٦٧.

(٧) المرجع السابق: ٢/٢٧٢، ترجمة ١٣٤٦، ويريد بالذي بعده «مقاتل بن سليمان الأزدي».

●● وله وقفات تاريخية قيمة، وتحقيقات ناقدة بارعة، تعاضدت فيها عبقرية المؤرخ وعقلية المحدث الناقد:

- يقول في وقت إسلام العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه: «اختلف في ذلك فقيل: أسلم قبل الهجرة، وأقام بأمر النبي ﷺ له في ذلك لمصلحة المسلمين، روى ذلك ابن سعد من حديث ابن عباس، وفي إسناده الكلبي، وهو متروك. ويردّه أن العباس أُسر ببدر، وقد فدى نفسه ـ كما سيأتي في المغازي واضحاً ـ. ويردّه أيضاً أن الآية التي في قصة المستضعفين نزلت بعد بدر بلا خلاف. فالمشهور أنه أسلم قبل فتح خيبر، ويدل عليه حديث أنس في قصة حجاج بن عِلَاط كما أخرجه أحمد والنسائي. وروى ابن سعد من حديث ابن عباس أنه هاجر إلى النبي ﷺ، وردّه بقصة الحجاج المذكور. والصحيح أنه هاجر عام الفتح في أول السنة، وقدم مع النبي ﷺ فشهد الفتح، والله أعلم»[1].

- وفي قصة سعد بن أبي وقاص، وقوله ﷺ له: (إنَّكَ أَنْ تَدَعَ ورثتكَ أغنياءَ خيرٌ من أنْ تَدَعَهُمْ عالةً يتكفَّفُونَ الناسَ في أيديهم)، يقول: «قال الفاكهي شارح العمدة: إنما عبر ﷺ بالورثة لأنه اطلع على أن سعداً سيعيش ويأتيه أولاد غير البنت المذكورة[2]، فكان كذلك، وولد له بعد ذلك أربعة بنين، ولا أعرف أسماءهم، ولعل الله أن يفتح بذلك». فيعقب الحافظ قائلاً: «وأما قول الفاكهي إنه ولد له بعد ذلك أربعة بنين، وإنه لا يعرف أسماءهم؛ ففيه قصور شديد، فإن أسماءهم في رواية هذا الحديث بعينه عند مسلم من طريق عامر ومصعب ومحمد ثلاثتهم عن سعد، ووقع ذكر عمر بن سعد فيه في موضع آخر. ولما وقع ذكر هؤلاء في هذا الحديث عند مسلم، اقتصر القرطبي على ذكر الثلاثة. ووقع في كلام بعض شيوخنا تعقب عليه بأن له أربعة من الذكور غير الثلاثة، وهم: عمر

---

(١) فتح الباري: ٣/٢٢٠.

(٢) أي المذكورة في قول سعد: «ولا يرثني إلَّا ابنة».

وإبراهيم ويحيى وإسحاق، وعزا ذكرهم لابن المديني وغيره. وفاته أن ابن سعد ذكر له من الذكور غير السبعة أكثر من عشرة، وهم: عبد الله، وعبد الرحمن، وعمرو، وعمران، وصالح، وعثمان، وإسحاق الأصغر، وعمر الأصغر، وعمير ــ مصغراً ــ وغيرهم. وذكر له من البنات ثنتي عشرة بنتاً، وكأن ابن المديني اقتصر على ذكر من روى الحديث منهم، والله أعلم»[1].

●● وله تصويبات غاية في الدقة والبراعة لما وقع في أسماء الرجال من قلب أو تصحيف، وتصويب للوفيات، وتمييز للصحابة من غيرهم، وتحقيق وقت إسلامهم، ونحو ذلك.

ــ ففي قصة «قيس بن صِرْمة الأنصاري» الذي جاء اسمه هكذا في «صحيح البخاري»، ذكر ابن حجر ما جاء في اسمه من روايات أُخَر، وحصرها في: «صرمة بن قيس، أبو قيس ابن عمرو، أبو قيس بن صرمة، صرمة بن أبي أنس، صرمة بن أنس، صرمة بن مالك». ثم قال: «والجمع بين هذه الروايات أنه أبو قيس صرمة بن أبي أنس قيس بن مالك بن عدي بن عامر بن غنم بن عدي بن النجار، كذا نسبه ابن عبد البر وغيره. فمن قال: قيس بن صرمة؛ قَلَبَه كما جزم الداودي والسهيلي وغيرهما، فإنه وقع مقلوباً في رواية حديث الباب[2]. ومن قال: صرمة بن مالك؛ نسبه إلى جده. ومن قال: صرمة بن أنس؛ حذف أداة الكنية من أبيه. ومن قال: أبو قيس بن عمرو؛ أصاب كنيته وأخطأ في اسم أبيه. وكذا من قال: أبو قيس بن صرمة، وكأنه أراد أن يقول: أبو قيس صرمة، فزاد فيه ابن. وقد صحَّفه بعضهم، فرويناه في «جزء إبراهيم بن أبي ثابت» من طريق عطاء عن أبي هريرة، قال: «كان المسلمون إذا صلوا العشاء حرم عليهم الطعام

(١) فتح الباري: ٣٦٦/٥.
(٢) يريد حديث الباب الذي في البخاري «كتاب الصوم ــ باب ١٥»؛ الفتح: ١٢٩/٤.

والشراب والنساء، وأن ضمرة بن أنس الأنصاري غلبته عينه» الحديث. وقد استدرك ابن الأثير في الصحابة ضمرة بن أنس في حرف الضاد المعجمة على من تقدمه؛ وهو تصحيف وتحريف، ولم ينتبه له، والصواب: صرمة بن أبي أنس، كما تقدم، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب. وصرمة بن أبي أنس مشهور في الصحابة يكنى أبا قيس»[1].

ـ ومن ذلك قوله في مناقب خالد بن الوليد رضي الله عنه وأرضاه: «أسلم بين الحديبية والفتح، ويقال: قبل غزوة مؤتة بشهرين ـ وكانت في جمادى سنة ثمان ـ ومن ثم جزم مُغَلْطَاي بأنها كانت في صفر، وكان الفتح بعد ذلك في رمضان. وحكى ابن أبي خيثمة أنه أسلم سنة خمس، وهو غلط؛ فإنه كان بالحديبية طليعة للمشركين، وهي في ذي القعدة سنة ست. وقال الحاكم: أسلم سنة سبع، زاد غيره: وقبل عمرة القضاء. والراجح الأول وما وافقه». ثم قال: «ومات على فراشه سنة إحدى وعشرين، وبذلك جزم ابن نمير، وذلك في خلافة عمر بحمص. ونُقل عن دُحَيْم أنه مات بالمدينة، وغلَّطوه. ووقع في كلام ابن التين وتبعه بعض الشراح شيء يدل على أنه مات في خلافة أبي بكر؛ وهو غلط قبيح أشد من غلط دحيم»[2].

ـ وفي كلامه على حديث أم المؤمنين صفية، الذي يرويه عنها علي بن الحسين ـ رضي الله عنهما ـ: «أن صفية زوج النبي ﷺ أخبرته أنها جاءت إلى رسول الله ﷺ تزوره في اعتكافه في المسجد في العشر الأواخر من رمضان»، يقول الحافظ: «وفي تصريح علي بن الحسين أنها حدثته ردّ على من زعم أنها ماتت سنة ست وثلاثين، أو قبل ذلك؛ لأن علياً إنما ولد بعد ذلك سنة أربعين أو نحوها. والصحيح أنها ماتت سنة خمسين، وقيل بعدها. وكان علي بن الحسين حين سمع منها صغيراً»[3].

---

(١) فتح الباري: ٤/١٣٠ ـ ١٣١.
(٢) الفتح: ٧/١٠١.
(٣) الفتح: ٤/٢٧٨.

ـ وفي تحقيق سنة إسلام جرير بن عبد الله البجلي يقول: «اختلف في إسلامه، والصحيح أنه في سنة الوفود سنة تسع، ووهم من قال إنه أسلم قبل موت النبي ﷺ بأربعين يوماً؛ لما ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ قال له: (استنصت الناس)، في حجة الوداع، وذلك قبل موته ﷺ بأكثر من ثمانين يوماً. وكان موت جرير سنة خمسين، وقيل بعدها»(١).

●● ومعرفة تاريخ إسلام الرجل، أو سنة وفاته، شيء هام عند علماء الحديث ونقّاده وشرّاحه؛ لمعرفة إمكانية سماع الرجل ممن يروي عنه، وتبيين المبهمات وتحديدها، والاستدلال للأحكام الفقهية والوقائع التاريخية، وغير ذلك.

ومن أمثلة ذلك، مما حققه ابن حجر اعتماداً على حسّه التأريخي، وحسن استحضاره، وبراعة استدلاله:

ـ يقول: «اختلف في أول وقت فرض الزكاة، فذهب الأكثر إلى أنه وقع بعد الهجرة، فقيل: كان في السنة الثانية قبل فرض رمضان، أشار إليه النووي في باب السير من «الروضة». وجزم ابن الأثير في «التاريخ» بأن ذلك كان في السنة التاسعة، وفيه نظر، فقد تقدم في حديث ضمام بن ثعلبة، وفي حديث وفد عبد القيس، وفي عدة أحاديث، ذكر الزكاة، وكذا مخاطبة أبي سفيان مع هرقل، وكانت في أول السابعة، وقال فيها: «يأمرنا بالزكاة». ويضيف الحافظ قائلاً: «ومما يدل على أن فرض الزكاة كان قبل التاسعة حديث أنس المتقدم في «العلم» في قصة ضمام بن ثعلبة وقوله: «أنشدك الله، آلله أمرك أن تأخذ هذه الصدقة من أغنيائنا فتقسمها على فقرائنا»؟ وكان قدوم ضمام سنة خمس كما تقدم. وإنما الذي وقع في التاسعة بعث العمال لأخذ الصدقات، وذلك يستدعي تقدم فريضة الزكاة قبل ذلك»(٢).

---

(١) الفتح: ١٣٢/٧.　　(٢) الفتح: ٢٦٦/٣.

ـ وفي حديث ابن عباس: «أن رسول الله ﷺ بعث بكتابه إلى كسرى مع عبد الله بن حذافة السهمي»، يقول ابن حجر: «قوله (عبد الله بن حذافة) هذا هو المعتمد، ووقع في رواية عمر بن شبة أنه خنيس بن حذافة؛ وهو غلط فإنه مات بأُحد، فتأيَّمت منه حفصة، وبَعْثُ الرسل كان بعد الهدنة سنة سبع»[1].

ـ ومثال أخير: عن زيد بن وَهْبٍ قال: «رأى حذيفةُ رجلًا لا يتم الركوع والسجود، قال: ما صليتَ، ولو مُتَّ مُتَّ على غير الفطرة التي فَطَر اللَّهُ محمداً ﷺ». قال الحافظ: «قوله (لا يتم الركوع والسجود): وفي رواية عبد الرزاق (فجعل ينقر ولا يتم ركوعه)، زاد أحمد، عن محمد بن جعفر، عن شعبة: (فقال: منذ كم صليت؟ فقال: منذ أربعين سنة». ومثله في رواية الثوري، وللنسائي من طريق طلحة بن مصرف، عن زيد بن وهب مثله. وفي حمله على ظاهره نظر، وأظن ذلك هو السبب في كون البخاري لم يذكر ذلك؛ وذلك لأن حذيفة مات سنة ست وثلاثين، فعلى هذا يكون ابتداء صلاة المذكور قبل الهجرة بأربع سنين أو أكثر، ولعل الصلاة لم تكن فرضت بعد»[2]!

●● ولا بد من الإشارة إلى خاصية أخرى في شخصية ابن حجر المؤرخ خصوصاً ـ وهي عنده على العموم ـ تلك هي أمانته في النقل، وتحريه في ردِّ الحق إلى صاحبه: فقد ينقل النصّ بحروفه، أو ينتقي منه ويتصرف فيه مع الحفاظ على النسق الترتيبي للمصدر الأصلي، وقد يغير النسق إن لزم الأمر، وفي كل ذلك يشير إلى قائله، أو المصدر الذي أخذ منه. وهذا مطّرد في كل كتبه صغيرها وكبيرها، وهذا من أعظم وأجلّ مزايا

---

(١) الفتح: ٨/١٢٦، ١٢٧.

(٢) الفتح: ٢/٢٧٤ ـ ٢٧٥. وقد ذكر الحافظ عقب ذلك توجيهين بعيدين للرواية، بأن يكون أراد بالعدد المبالغة، أو ممن كان يصلي قبل إسلامه، ثم أسلم فحصلت المدة المذكورة، ولا يخفى ما فيهما.

هذا الإمام. وقد يسهو عن ذلك أحياناً، كما هو شأن البشر.

●● ونختم هذا الفصل بالتنبيه على جانب آخر في شخصية ابن حجر المؤرخ، وهي كونه عالماً بالنسب وأسماء القبائل وأصولها وبطونها. وله في هذا اطلاع نادر، وردود قيمة فاحصة ناقدة. وقد ساق بحثاً بيَّن فيه الردّ على من زعم أن «علم النسب علم لا ينفع، وجهل لا يضر»[1].

ــ ومن أمثلة ذلك قوله عن أبي جَمْرة ــ تلميذ ابن عباس ــ: «اسمه نصر بن عمران بن نوح بن مخلد الضُّبَعي ــ بضم الضاد المعجمة وفتح الموحدة ــ من بني ضُبَيعة ــ بضم أوله مصغراً ــ وهم بطن من عبد القيس كما جزم به الرشاطي. وفي بكر بن وائل بطن يقال لهم بنو ضبيعة أيضاً، وقد وهم من نسب أبا جَمْرة إليهم من شراح البخاري، فقد روى الطبراني وابن منده في ترجمة نوح بن مخلد ــ جد أبي جمرة ــ أنه قدم على رسول الله ﷺ فقال له: (ممن أنت)؟ قال: من ضبيعة ربيعة، فقال: (خير ربيعة عبد القيس، ثم الحي الذي أنت منهم)[2].

ــ وأثناء كلامه على «نَوْف البِكَاليّ» يقول: «ونوف ــ بفتح النون وبالفاء ــ والبكالي ــ بفتح الموحدة وكسرها، وتخفيف الكاف ووهم من شدَّدها ــ منسوب إلى بكال بطن من حِمْيَر، ووهم من قال: إنه منسوب إلى بِكيل ــ بكسر الكاف ــ بطن من همدان، لأنهما متغايران. ونوف المذكور تابعي من أهل دمشق، فاضل، عالم لا سيما بالإسرائيليات»[3].

ــ ويعلق على قول البخاري: (عبد الله بن زيد بن عاصم المازني، مازن الأنصار)، فيقول: «قوله: (مازن الأنصار): احتراز عن مازن تميم، وهو مازن بن مالك بن عمرو بن تميم. أو مازن قيس، وهو مازن بن

---

(١) الفتح: ٦/٥٢٧.
(٢) الفتح: ١/١٣٠.
(٣) الفتح: ١/٢١٩.

منصــور بن الحــارث بن خَصَفــة ــ بمعجمــة ثم مهمـلة مفتــوحتين ــ ابن قيس بن عيـلان. ومازن بن صعصعـة بن معـاويـة بن بكـر بن هـوازن. ومازن ضبة، وهو مازن بن كعب بن ربيعة بن ثعلبة بن سعد بن ضبة. ومازن شيبان، وهو مـازن بن ذهل بن ثعلبـة بن شيبـان وغيـرهم. قال الـرشاطي: مازن في القبائل كثير، والمازن في اللغة: بيض النمل»[1].

ــ وفي بيـان نسب «عُكْـل وعُـرَيْنَـة» يقــول: «وزعم ابن التين تبعـاً للداودي أن عرينة هم عكل؛ وهو غلط، بل هما قبيلتـان متغايـرتان: عكـل من عــدنـان، وعــرينـة من قحــطان. وعُكْـــل ــ بضم المهملة وإسكــان الكـاف ــ: قبيلة من تيم الـربـاب. وعُـرَيْنَــة ــ بـالعين والــراء المهملتين والنون، مصغراً ــ حي من قضـاعة، وحي من بجيلة، والمـراد هنا الثـاني، كذا ذكره موسى بن عقبة في «المغـازي»، وكذا رواه الـطبري من وجـه آخر عن أنس. ووقع عند عبد الرزاق من حـديث أبـي هريـرة ــ بإسنـاد ساقط ــ أنهم من بني فـزارة، وهـو غلط؛ لأن بني فـزارة من مضـر لا يجتمعـون مـع عكل ولا مع عرينة أصلاً»[2].

ــ وفي شـرح قول البخـاري: «باب غـزوةِ ذاتِ الرقـاع، وهي غزوةُ مُحاربِ خَصَفَة»، يقول: «وخصفة ــ بفتح الخاء المعجمـة والصاد المهملة ثم الفـاء ــ هـو ابن قيس بن عيــلان بن إليـاس بن مضــر. ومحـارب هــو ابن خصفة، والمحاربيون من قيس ينسبون إلى محارب بن فهر بن مالك بن النضـر بن كنانـة بن خزيمـة بن مدركـة بن إليـاس بن مضـر، وهم بـطن من قريش، منهم حبيب بن مسلمـة الــذي ذكـره في أواخــر غـزوة الخنــدق. ولم يحرر الكرماني هذا الموضع، فـإنه قـال: قولـه (محارب) هي قبيلة من فهـر، وخصفة هـو ابن قيس بن عيلان. وفي شـرح قول البخـاري «محارب

(١) الفتح: ٢/٥٠٠.
(٢) الفتح: ١/٣٣٧.

خصفة» بهذا الكلام من الفساد ما لا يخفى، ويوضحه أن بني فهر لا ينسبون إلى قيس بوجه. نعم وفي العرنيّين محارب بن صباح، وفي عبد القيس محارب بن عمرو، ذكر ذلك الدمياطي وغيره؛ فلهذه النكتة أضيفت محارب إلى خصفة لقصد التمييز عن غيرهم من المحاربيين، كأنه قال: محارب الذين ينسبون إلى خصفة، لا الذين ينسبون إلى فهر، ولا غيرهم»[1].

وحسبنا هذه الإشارات القليلة، واللفتات المضيئة، فلعلها أوضحت هذا الجانب الهامّ من شخصية الإمام رحمه الله. ولنتابع اكتشاف المخبوء مع «ابن حجر المفسر».

• • •

ثالثاً ـ ابن حجر المفسِّر

الاهتمام بكتاب الله تعالى، وإعطاؤه الأولوية، حفظاً وفهماً، ومعرفة بالقراءات، ثم الاشتغال بعلومه وتفسيره، ومعرفة ناسخه من منسوخه، ومطلقه من مقيده، وعامّه من خاصّه، وغير ذلك ـ كان دأب الأئمة والعلماء، ذلك لأنه أصل الإسلام، وعمدة أحكامه، وأساس تشريعاته.

ولقد أخذ الحافظ ابن حجر من ذلك بنصيب وافر، وهو يعتبر آية من آيات الله تعالى في التفسير، فكان يأتي بمجالسه ودروسه في التفسير بدقائق ومهمات وغرائب لا توجد في سائر التفاسير، بل ينشئها من فكره، ولا يشتغل بإبداء ما في التفاسير من المنقول، لسهولة ذلك على من يطالعها[2].

وله في هذا المجال الرحيب مؤلفات تليق به كإمام عظيم، من أجلّها: الإعجاب ببيان الأسباب، والإحكام لبيان ما في القرآن من الإبهام،

---

(١) الفتح: ٧/٤١٨.

(٢) ملخصات من الجواهر والدرر للجزائري، نقلاً عن تغليق التعليق: ١/١٦٥.

والإتقان في جمع أحاديث فضائل القرآن، وغير ذلك[1].

ثم إنه قد تصدى لتدريس التفسير بالمدرسة الحسينية والقبة المنصورية لمدة طويلة، وهذا يتطلب اطلاعاً كبيراً على مصنفات هذا العلم الزاخر الوسيع.

وإن الناظر المتأمل لما كتبه الحافظ في «فتح الباري» عند شرحه لكتابَي «التفسير» و «فضائل القرآن» من صحيح البخاري؛ ليجد تقدمه وبراعته في هذا المضمار، ورسوخ قدمه فيه.

ولم يتضح هذا الجانب عند كثير ممن ترجم الحافظ ابن حجر، ومن أشار إليه منهم لم يوفِّه حقه، وذلك لأن كثيراً من العلوم التي نبغ فيها الإمام بقيت في ظل «ابن حجر المحدث» ـ على الأقل عند من كتب عنه ـ الذي غطى على معظم جوانب شخصيته العلمية الباهرة المتعددة مجالات السَّبْق والتفوق.

ولسنا نشك في تفوّقه وعبقريته في التفسير واقتداره عليه، على نحو ما كان عند أئمة التفسير المشهورين.

وفي ذلك يقول الشرف عيسى بن حجاج السعدي[2]:

بلغ النهايةَ في الحديث المنتقى ... وروى الصِّحاحِ وفي الرواية حرَّرَا
والذِّكرَ فسَّرهُ على نحوِ الذي ... قد ألَّف الكشَّاف في أمِّ القُرى

ويؤكد النواجي هذا المعنى قائلاً[3]:

وفي مُحْكَمِ التنزيلِ أُوتيتَ آيةً ... فأنتَ بها كشَّافُ ليلِ المعاركِ

فتراه يتكلم في إعجاز القرآن، وعلومه، وأسباب النزول متى وأين،

---

(١) انظر بالتفصيل «فصل مصنفات ابن حجر ـ مصنفاته في علوم القرآن».

(٢) الجواهر والدرر: ص ٤٠٣، ويريد بالكشاف تفسير الزمخشري.

(٣) الجواهر والدرر: ص ٤٥٢.

ويفسر الآيات بالمأثور، ويعتمد في هذا القويَّ من الأخبار ويرد الضعيف، ثم يفسر باللغة، وينبه على الناسخ والمنسوخ، والمكي والمدني، ويبين المبهمات في القرآن، ويوفق بين ما قد يبدو متعارضاً من الآيات، مع سعة الاطلاع على القراءات، والتنبيه على الشاذ منها، وردود قيمة في ذلك كله، مشفوعة بالحجة، مؤيدة بالبرهان، وله فوائد وتنبيهات، وبحوث وحِكَم، وغير ذلك مما يصعب حصره.

●● ومن روائعه قوله في إعجاز القرآن: «وأشهر معجزات النبي ﷺ القرآن؛ لأنه ﷺ تحدى به العرب وهم أفصح الناس لساناً وأشدهم اقتداراً على الكلام بأن يأتوا بسورة مثله، فعجزوا مع شدة عداوتهم له وصدّهم عنه، حتى قال بعض العلماء: أقصر سورة في القرآن: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الكَوْثَرَ﴾، فكل قرآن من سورة أخرى كان قدر ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾، سواء كان آية أو أكثر أو بعض آية؛ فهو داخل فيما تحداهم به!! وعلى هذا فتصل معجزات القرآن من هذه الحيثية إلى عدد كثير جداً. ووجوه إعجاز القرآن من جهة حسن تأليفه، والتئام كلماته، وفصاحته، وإيجازه في مقام الإيجاز، وبلاغته؛ ظاهرة جداً. مع ما انضم إلى ذلك من حسن نظمه، وغرابة أسلوبه، مع كونه على خلاف قواعد النظم والنثر. هذا إلى ما اشتمل عليه من الإخبار بالمغيبات، مما وقع من أخبار الأمم الماضية، مما كان لا يعلمه إلاَّ الأفراد من أهل الكتاب، ولم يُعلم أن النبي ﷺ اجتمع بأحد منهم، ولا أخذ عنهم. وبما سيقع فوقع على وفق ما أخبر به في زمنه ﷺ وبعده. هذا مع الهيبة التي تقع عند تلاوته، والخشية التي تلحق سامعه، وعدم دخول الملال والسآمة على قارئه وسامعه، مع تيسّر حفظه لمتعلميه، وتسهيل سرده لتاليه. ولا ينكر شيئاً من ذلك إلاَّ جاهل أو معاند. ولهذا أطلق الأئمة أن معظم معجزات النبي ﷺ القرآن. ومن أظهر معجزات القرآن إبقاؤه مع استمرار الإعجاز، وأشهر ذلك تحديه اليهود أن يتمنوا الموت، فلم يقع ممن سلف منهم ولا خلف، من تصدى لذلك

ولا أقدم، مع شدة عداوتهم لهذا الدين، وحرصهم على إفساده والصدّ عنه، فكان ذلك أوضح معجزة»(١).

●● وأما كلامه في أسباب النزول:

فقد ألف في ذلك كتاباً مستقلاً، وجاء في «الفتح» شيء كثير جداً من هذا القبيل، من ذلك كلامه على سبب نزول سورة الإخلاص، قال: وجاء في سبب نزولها من طريق أبي العالية عن أبيّ بن كعب «أن المشركين قالوا للنبي ﷺ: انسب لنا ربك! فنزلت». أخرجه الترمذي والطبري، وفي آخره قال: «لم يلد ولم يولد: لأنه ليس شيء يولد إلاَّ سيموت، ولا شيء يموت إلاَّ يورث، وربنا لا يموت ولا يورث. ولكن لم يكن له كفواً أحد: شبه ولا عدل». وأخرجه الترمذي من وجه آخر عن أبي العالية مرسلاً، وقال: هذا أصح. وصحَّح الموصولَ ابنُ خزيمة والحاكم، وله شاهد من حديث جابر عند أبي يعلى والطبري، والطبراني في الأوسط»(٢).

ويرفض في هذا المجال ما ضعُف دليله، أو عارضه دليل أقوى منه ولا يمكن الجمع: ومثال هذا ما جاء في أن سبب نزول ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ شكواه ﷺ ومرضه(٣). وورد سبب آخر يذكره الحافظ فيقول: «ووجدت الآن في الطبراني ـ بإسناد فيه من لا يُعرف ـ أن سبب نزولها وجود جرو كلب تحت سريره ﷺ، لم يشعر به؛ فأبطأ عنه جبريل لذلك». وقصة إبطاء جبريل بسبب كون الكلب تحت سريره مشهورة؛ لكن كونها سبب نزول هذه الآية غريب، بل شاذ مردود بما في الصحيح، والله أعلم. وورد لذلك سبب ثالث، وهو ما أخرجه الطبري من طريق العوفي، عن ابن عباس قال: «لما نزل على رسول الله ﷺ القرآن، أبطأ عنه جبريل أياماً، فتغير بذلك، فقالوا: ودَّعه ربُّه وقَلاهُ! فأنزل الله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ

---

(١) الفتح: ٥٨٢/٦.
(٢) الفتح: ٧٣٩/٨.
(٣) كما في صحيح البخاري، الفتح: ٧١٠/٨، وكانت ليلتين أو ثلاثاً.

رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾. ومن طريق إسماعيل مولى آل الزبير قال: «فتر الوحي حتى شقَّ ذلك على النبي ﷺ وأحزنه، فقال: لقد خشيت أن يكون صاحبي قلاني! فجاء جبريل بسورة والضحى». وذكر سليمان التيمي في السيرة التي جمعها ورواها محمد بن عبد الأعلى، عن معتمر بن سليمان، عن أبيه قال: «وفتر الوحي، فقالوا: لو كان من عند الله لتتابع، ولكن الله قلاه!! فأنزل الله :والضحى، وألم نشرح بكمالهما». وكل هذه الروايات لا تثبت، والحق أن الفترة المذكورة في سبب نزول «والضحى» غير الفترة المذكورة في ابتداء الوحي، فإن تلك دامت أياماً، وهذه لم تكن إلَّا ليلتين أو ثلاثاً، فاختلطتا على بعض الرواة، وتحرير الأمر في ذلك ما بيَّنته»[1].

بل ويرد على كبار الأئمة المفسرين إذا جانبهم الصواب، ففي سبب نزول قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي قالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي﴾، يقول: «والعجب مما أورده الطبري من طريق العوفي عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية في عبد الرحمن بن أبي بكر. وقد تعقَّبه الزَّجَّاج فقال: الصحيح أنها نزلت في الكافر العاقّ، وإلَّا فعبد الرحمن قد أسلم فَحَسُنَ إسلامه، وصار من خيار المسلمين، وقد قال الله في هذه الآية: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ إلى آخر الآية؛ فلا يناسب ذلك عبد الرحمن. وأجاب المهدوي عن ذلك بأن الإشارة بأولئك للقوم الذين أشار إليهم المذكور بقوله: ﴿وقد خلت القرون من قبلي﴾، فلا يمتنع أن يقع ذلك من عبد الرحمن قبل إسلامه ثم يسْلِم بعد ذلك. وقد أخرج ابن أبي حاتم من طريق ابن جريج عن مجاهد، قال: نزلت في عبد الله بن أبي بكر الصديق. قال ابن جريج: وقال آخرون: في عبد الرحمن بن أبي بكر. قلت: والقول في عبد الله كالقول في عبد الرحمن؛ فإنه أيضاً أسلم وحسُن إسلامه. ومن طريق أسباط عن

---

(١) الفتح: ٨/٧١٠.

السدي قال: نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر، قال لأبويه ـ وهما أبو بكر وأم رومان ـ وكانا قد أسلما وأبى هو أن يسلم، فكانا يأمرانه بالإسلام، فكان يردّ عليهما ويكذبهما، ويقول: فأين فلان، وأين فلان ـ يعني مشايخ قريش ـ ممن قد مات؟! فأسلم بعد، فحسن إسلامه، فنزلت توبته في هذه الآية: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا﴾. قلت: لكن نفي عائشة أن تكون نزلت في عبد الرحمن وآل بيته أصح إسناداً وأولى بالقبول»[1].

●● وأما تفسيره الآيات فبالقرآن أو بالحديث، أو بقول الصحابي، أو باللغة:

ـ ففي قوله سبحانه وتعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾، يقول: «عن عكرمة قال: ﴿للذين أحسنوا﴾ قالوا: لا إله إلاَّ الله، الحسنى: الجنة، وزيادة: النظر إلى وجه الله الكريم. وقد ورد ذلك في حديث مرفوع أخرجه مسلم والترمذي وغيرهما من طريق حماد بن سلمة، عن ثابت، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن صهيب، قال: قال رسول الله ﷺ: (إذا دخل أهل الجنةِ الجنةَ نودوا: إن لكم عند الله وعداً، فيقولون: ألم يبيّض وجوهنا، ويزحزحنا عن النار، ويدخلنا الجنة؟! قال: فيكشف الحجاب، فينظرون إليه، فوالله ما أعطاهم شيئاً هو أحب إليهم منه). ثم قرأ: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الحُسْنَى وَزيادة﴾[2]».

ـ وفي تفسير قوله تعالى: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً﴾ يقول: «روى النسائي بإسناد صحيح من حديث حذيفة قال: «يجتمع الناس

---

(١) الفتح: ٨/٥٧٧. ويريد بنفي عائشة ـ رضي الله عنها ـ ما جاء في البخاري ـ في نفس الموضع ـ عنها قالت: «ما أنزل الله فينا شيئاً من القرآن، إلاَّ أن الله أنزل عذري».

(٢) الفتح: ٨/٣٤٧.

في صعيد واحد، فأول مدعو محمد فيقول: (لبيك وسعديك، والخير في يديك، والشرّ ليس إليك، المهدي من هديت، عبدك وابن عبديك، وبك وإليك، ولا ملجأ ولا منجا منك إلاّ إليك، تباركت وتعاليت)، فهذا قوله: ﴿عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً﴾، وصححه الحاكم. ولا منافاة بينه وبين حديث ابن عمر في الباب[1]، لأن هذا الكلام كأنه مقدمة الشفاعة».

ـ ومن الروائع ما أورده في تفسير ما جاء في البخاري عن ابن عباس: (وسئل ابن عباس ﴿لا يَنْطِقُونَ﴾. ﴿واللَّهِ ربِّنَا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾. ﴿اليومَ نَخْتِمُ عَلَى أفْوَاهِهِمْ﴾؟ فقال: إنه ذو ألوانٍ: مرةً ينطِقونَ، ومرةً يُخْتَمُ عليهم)، فيقول: «أخرج عبد بن حميد من طريق علي بن زيد عن أبي الضحى أن نافع بن الأزرق وعطية أتيا ابن عباس فقالا: يا ابن عباس، أخبرنا عن قول الله تعالى: ﴿هَذَا يومُ لاَ يَنْطِقُونَ﴾، وقوله: ﴿ثمّ إنّكُمْ يومَ القيامةِ عندَ ربّكمْ تَخْتَصِمُونَ﴾، وقوله: ﴿واللَّهِ ربِّنا ما كُنّا مُشْرِكِينَ﴾، وقوله: ﴿وَلاَ يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثاً﴾؟ فقال: ويحك يا ابن الأزرق!! إنه يوم طويل وفيه مواقف: تأتي عليهم ساعة لا ينطقون، ثم يؤذن لهم فيختصمون، ثم يكون ما شاء الله يحلفون ويجحدون، فإذا فعلوا ذلك ختم الله على أفواههم، وتؤمر جوارحهم فتشهد على أعمالهم بما صنعوا، ثم تنطق ألسنتهم فيشهدون على أنفسهم بما صنعوا، وذلك قوله: ﴿وَلاَ يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثاً﴾».

وروى ابن مردويه من حديث عبد الله بن الصامت قال: قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص: أرأيت قول الله: ﴿هذا يوم لا ينطقون﴾؟

---

(١) هو حديث ابن عمر الذي ورد بتفسير الآية، ولفظه: عن ابن عمر يقول: «إن الناس يصيرون يوم القيامة جُثاً، كل أمة تتبع نبيها، يقولون: يا فلان اشفع، حتى تنتهي الشفاعة إلى النبي ﷺ، فذلك يوم يبعثه الله المقام المحمود». الفتح: ٨/٣٩٩ ـ ٤٠٠.

فقال إن يوم القيامة له حالات وتارات، في حال لا ينطقون، وفي حال ينطقون. ولابن أبي حاتم من طريق معمر، عن قتادة، قال: إنه يوم ذو ألوان»[1].

●● ويشرح الآيات ويوفق بين الآراء ويزيل الإشكال:

من ذلك ما جاء في شرح حديث البراء رضي الله عنه قال: «تعدُّون أنتم الفتح فتح مكة، وقد كان فتح مكة فتحاً، ونحن نعدّ الفتح بيعةَ الرِّضوان يومَ الحديبية». يقول الحافظ: «قوله: (ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان) يعني قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً﴾. وهذا موضع وقع فيه اختلاف قديم، والتحقيق أنه يختلف ذلك باختلاف المراد من الآيات: فقوله تعالى: ﴿إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً﴾ المراد بالفتح هنا الحديبية، لأنها كانت مبدأ الفتح المبين على المسلمين؛ لما ترتب على الصلح الذي وقع منه الأمن ورفع الحرب، وتمكّن من يخشى الدخول في الإسلام والوصول إلى المدينة من ذلك، كما وقع لخالد بن الوليد وعمرو بن العاص وغيرهما، ثم تبعت الأسباب بعضها بعضاً، إلى أن كمل الفتح». ويضيف قائلاً: «وأما قوله تعالى في هذه السورة: ﴿وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً﴾ فالمراد بها فتح خيبر على الصحيح؛ لأنها هي التي وقعت فيها المغانم الكثيرة للمسلمين. وقد روى أحمد وأبو داود والحاكم من حديث مجمع بن جارية[2] قال: «شهدنا الحديبية، فلما انصرفنا وجدنا رسول الله ﷺ واقفاً عند كُرَاع الغَمِيمِ وقد جمع الناس، قرأ عليهم: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً...﴾ الآية، فقال رجل: يا رسول الله، أَوَ فتح هو؟ قال: (أي والذي نفسي بيده إنه لفتح). ثم قسمت خيبر على أهل الحديبية. وروى سعيد بن منصور ـ بإسناد

---

(١) الفتح: ٨/٦٨٦.

(٢) جاء في الفتح: «مجمع بن حارثة»، وهو تصحيف، وانظر: سنن أبي داود: ٣/١٧٤ حديث رقم ٢٧٣٦؛ والمستدرك: ٢/١٣١.

صحيح ـ عن الشعبي في قوله: ﴿إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً﴾ قال: صلح الحديبية، وغفر له ما تقدم وما تأخر، وتبايعوا بيعة الرضوان، وأطعموا نخيل خيبر، وظهرت الروم على فارس، وفرح المسلمون بنصر الله. وأما قوله تعالى: ﴿فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحاً قَرِيباً﴾ فالمراد الحديبية. وأما قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾، وقوله ﷺ: (لا هجرة بعد الفتح) فالمراد به فتح مكة باتفاق. فبهذا يرتفع الإشكال، وتجتمع الأقوال، بعون الله تعالى»[1].

●● ويرجح في تفسيره للآي الحكيم ما ينصره الدليل:

ـ من ذلك قوله: «اختلف في تأويل قوله: ﴿إِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾[2]: فالأكثر على أنها من الولاية، والمعنى: إن وليتم الحكم. وقيل: بمعنى الإعراض، والمعنى: لعلكم إن أعرضتم عن قبول الحق أن يقع منكم ما ذُكر. والأول أشهر، ويشهد له ما أخرج الطبري في «تهذيبه» من حديث عبد الله بن مُغَفَّل قال: سمعت النبي ﷺ يقول: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ قال: (هم هذا الحي من قريش، أخذ الله عليهم إن ولوا الناس أن لا يفسدوا في الأرض، ولا يقطعوا أرحامهم)»[3].

ـ وفي معنى قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ يقول: «اختلف السلف في المراد بالورود في الآية، فقيل: هو الدخول. روى عبد الرزاق عن ابن عيينة، عن عمرو بن دينار أخبرني من سمع ابن عباس، فذكره. وروى أحمد والنسائي والحاكم من حديث جابر مرفوعاً: (الورود: الدخول، لا يبقى برٌّ ولا فاجر إلاّ دخلها، فتكون على المؤمنين برداً وسلاماً). وروى الترمذي وابن أبي حاتم من طريق السدّي سمعت مُرَّةَ

(١) الفتح: ٧/٤٤١ ـ ٤٤٢.

(٢) يريد قوله تعالى: ﴿فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم﴾. سورة محمد ﷺ: الآية (٢٢).

(٣) الفتح: ٨/٥٨١.

يحدّث عن عبد الله بن مسعود قال: يَـرِدُونَها ـ أو يلجونها ـ ثم يصدرون عنها بأعمالهم. قال عبد الرحمن بن مهدي: قلت لشعبة: إن إسرائيل يرفعه! قال: صدق، وعمداً أدعه. ثم رواه الترمذي عن عبد بن حميد عن عبيد الله بن موسى، عن إسرائيل مرفوعاً. وقيل: المراد بالورود الممر عليها. رواه الطبري وغيره من طريق بشر بن سعيد، عن أبي هريرة، ومن طريق أبي الأحوص عن عبد الله بن مسعود، ومن طريق معمر وسعيد، عن قتادة، ومن طريق كعب الأحبار، وزاد: «يستوون كلهم على متنها، ثم ينادي منادٍ: أمسكي أصحابك، وَدَعِي أصحابي، فيخرج المؤمنون نديّة أبدانهم». وهذان القولان أصح ما ورد في ذلك، ولا تنافي بينهما؛ لأن من عبَّر بالدخول تجوّز به عن المرور، ووجهه أن المارّ عليها فوق الصراط في معنى من دخلها، لكن تختلف أحوال المارّة باختلاف أعمالهم، فأعلاهم درجة من يمرّ كلمح البرق. ويؤيد صحة هذا التأويل ما رواه مسلم من حديث أم مُبَشِّر «أن حفصة قالت للنبي ﷺ لما قال: (لا يدخل أحد شهد الحديبيةَ النارَ): أليس الله يقول: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا﴾؟ فقال لها: (أليس الله تعالى يقول: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا. . .﴾ الآية»؟! وفي هذا بيان ضعف قول من قال: الورود مختص بالكفار، ومن قال: معنى الورود الدنوّ منها، ومن قال: معناه الإشراف، ومن قال: معنى ورودها ما يصيب المؤمن في الدنيا من الحمى»[1].

وهذا نابع من سعة اطلاعه ـ رحمه الله ـ على أقوال المفسرين ومصنفاتهم، وحسن استحضار بغيته عندما يريد، وهو في ذلك يأتي بأشياء تثلج الصدر، وتبهر العقل، ويعضدها بما في بحر علمه من أحاديث وآثار احتوتها كتب السنة ودواوينها؛ فيجمع بين الخيرين، ويلتقي البحران في خضمّ علمه على أمر بديع.

(١) الفتح: ٣/١٢٤.

وأدلة ذلك كثيرة واضحة، منها ما جاء في شرحه العظيم «فتح الباري» عند حديثه على «صفة الشمس والقمر»(١)، وكلامه على «صفة الجنة وأنها مخلوقة»(٢)، و «صفة النار وأنها مخلوقة»(٣)، وشرحه لآيات من «سورة طه» وغيرها في قصة سيدنا موسى عليه السلام مع قومه ومواقفه من فرعون(٤)، وشرحه لقوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلا سَائِبَةٍ وَلا وَصِيلَةٍ وَلا حَامٍ﴾(٥)، وأيضاً تفسيره لقوله سبحانه: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأرضُ غيرَ الأرضِ﴾(٦) وغير ذلك كثير جداً.

●● كل ذلك مع سعة العطاء بوجيز العبارة ولطيف الإشارة:

ـ ففي تفسير قوله تعالى: ﴿خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ﴾ يقول: «قال الفراء: خافضة لقوم إلى النار، رافعة لقوم إلى الجنة. وعن محمد بن كعب: خفضت أقواماً كانوا في الدنيا مرتفعين، ورفعت أقواماً كانوا في الدنيا منخفضين، وأخرجه سعيد بن منصور. وعن عبد الرزاق عن معمر، عن قتادة في قوله: ﴿خافضة رافعة﴾، قال: شملت القريب والبعيد، حتى خفضت أقواماً في عذاب الله، ورفعت أقواماً في كرامة الله. وروى ابن أبي حاتم من طريق سماك عن عكرمة، عن ابن عباس نحوه، ومن طريق عثمان بن سراقة عن خاله عمر بن الخطاب نحوه، ومن طريق السدي قال: خفضت المتكبرين، ورفعت المتواضعين»(٧).

ـ وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾،

---

(١) الفتح: ٦/٢٩٨ ـ ٣٠٠.
(٢) الفتح: ٦/٣٢٠ ـ ٣٢٣.
(٣) الفتح: ٦/٣٣١ ـ ٣٣٣.
(٤) الفتح: ٦/٤٢٤ ـ ٤٢٧.
(٥) الفتح: ٨/٢٨٣ ـ ٢٨٥.
(٦) الفتح: ١١/٣٧٥ ـ ٣٧٦.
(٧) الفتح: ٨/٦٢٦.

يقـول: «أصـل الفتنـة الاختبـار، ثم استعملت فيمـا أخـرجـه الاختبـار إلى المكروه، ثم استعملت في المكروه: فتارة في الكفر، كقوله: ﴿وَالفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾. وتارة في الإِثم، كقـوله: ﴿أَلَا في الفِتْنَـةِ سَقَطُوا﴾. وتـارة في الإِحـراق، كقـولـه: ﴿إنَّ الـذِينَ فَتَنُـوا الـمُـؤْمِنِينَ﴾. وتــارة في الإزالـة عن الشيء، كقوله: ﴿وَإِنْ كادوا لَيَفْتِنُونَكَ﴾ وتارة في غير ذلك. والمـراد بها في هذا الموضع الاختبار، على بابها الأصلي، والله أعلم»[1].

●● ولم يُخْلِ تفسيره من وقفات بارعة في إعراب القرآن الحكيم:

ففي قـوله تعـالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَـا تَتْلُو الشَّياطِينُ عَلَى مُلْكِ سُليمـانَ وَمَا كَفَـرَ سُليمانُ وَلَكِنَّ الشيـاطينَ كَفَرُوا...﴾، يقـول رحمه الله: «و«مـا» في قوله: ﴿ما تتلو الشياطين﴾ موصولة على الصواب، وغلط من قال إنها نافية، لأن نظم الكلام يأباه. و«تتلو» لفظه مضارع، لكن هو واقع موقع المـاضي، وهو استعمال شائع. ومعنى تتلو: تتقوَّل، ولذلك عدّاه بعلى، وقيـل: معناه تتبع أو تقرأ، ويحتـاج إلى تقديـر، قيل هـو: تقرأ على زمـان مُلك سليمان. وقوله: ﴿وما كفر سليمـان﴾: «ما» نـافية جـزماً، وقـوله: ﴿ولكن الشيـاطين كفـروا﴾: هـذه الـواو عـاطفـة لجملة الاستـدراك على مـا قبلهـا. وقـولـه: ﴿يعلّمـون الناس السحـر﴾: النـاس مفعـول أول، والسحـر مفعـول ثـانٍ، والجملة حـال من فاعـل كفـروا، أي كفـروا معلّمين. وقيـل: هي بـدل من كفروا، وقيل: استئنافية، وهـذا على إعادة ضميـر يعلّمون على الشيـاطين، ويحتمل عوده على الذين اتبعوا، فيكون حالاً من فـاعل اتبعـوا أو استئنافـاً. وقوله: ﴿وما أنزل﴾: «مـا» موصـولة، ومحلهـا النصب عطفـاً على السحر، والتقدير: يعلّمون الناس السحر والمنزل على الملكين. وقيل: الجر، عطفاً على مُلك سليمان، أي تقوّلاً على ملك سليمان وعلى ما أنـزل. وقيل: بـل هي نافية عطفاً على ﴿وما كفر سليمان﴾؛ والمعنى: ولم ينزل على المَلَكين

(١) الفتح: ١١/٥٠٤ ـ ٥٠٥.

إباحة السحر. وهذان الإعرابان ينبنيان على ما جاء في تفسير الآية عن البعض، والجمهور على خلافه، وأنها موصولة»[1].

ـ وفي قوله تعالى: ﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْماً فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ﴾، يقول: «والأوليان: أي الأحقّان بالشهادة لقرابتهما ومعرفتهما. وارتفع ﴿الأوليان﴾ بتقدير: هما، كأنه قيل: مَن الشاهدان؟ فأجيب: الأَوْلَيان، أو هما بدل من الضمير في ﴿يقومان﴾، أو من ﴿آخران﴾، ويجوز أن يرتفعا باستحقّ، أي من الذين استحق عليهم انتداب الأوليين منهم للشهادة، لاطلاعهم على حقيقة الحال. ولهذا قال أبو إسحاق الزَّجّاج: هذا الموضع من أصعب ما في القرآن إعراباً، قال الشهاب السمين: ولقد صدق ـ والله ـ فيما قال»[2].

●● وأما في القراءات فله فيها باع طويل لا يقل عما هو عليه في التفسير، فلقد أخذ هذا العلم عن شيخ القراء الإمام أبي إسحاق التنوخي. وقد جاء في «الفتح» ما يدل على تمكنه في هذا الفن، ومهارته فيه، وتفسير ما اختلف فيه، والردّ على الأئمة حيث يجب ذلك.

وأجتزىء ببعض الأمثلة:

ـ ففي قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ﴾، يسوق كلام أبي عبيدة في الآية، حيث قال في قوله: ﴿والجبلة الأولين﴾: أي الخلق، هو من جُبل على كذا، أي تخلق، وفي القرآن: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا﴾ مثقل وغير مثقل، ومعناه الخلق. انتهى. ويعقب الحافظ قائلاً: «وقوله: مثقَّل وغير مثقّل لم يبين كيفيتهما، وفيهما قراءات: ففي المشهور بكسرتين وتشديد اللام، لنافع وعاصم. وبضمة ثم سكون، لأبي عمرو وابن عامر. وبكسرتين واللام خفيفة، للأعمش. وبضمتين واللام خفيفة،

---

(١) الفتح: ١٠/٢٢٤.

(٢) الفتح: ٥/٤٠٩، ٤١٠.

للباقين. وفي الشواذ: بضمتين ثم تشديد، وبكسرة ثم سكون، وبكسرة ثم فتحة مخففة. وفيها قراءات أخرى»[1].

ـ وفي قوله سبحانه: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾، يقول: «قرأ الجمهور ﴿عم﴾ بميم فقط، وعن ابن كثير بالهاء، وهي هاء السكت، أجرى الوصل مجرى الوقف. وعن أبيّ بن كعب وعيسى بن عمر بإثبات الألف على الأصل، وهي لغة نادرة»[2].

ـ ومن تعقباته ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى﴾، قال: «قال الفراء: أجمع القراء على ﴿سكارى وما هم بسكارى﴾. ثم روى بإسناده عن ابن مسعود ﴿سَكْرَى وَمَا هُمْ بِسَكْرَى﴾، قال: وهو جيد في العربية. انتهى. ونقله الإجماع عجب، مع أن أصحابه الكوفيين: يحيى بن وثاب، وحمزة، والأعمش، والكسائي؛ قرؤوا بمثل ما نقل عن ابن مسعود، ونقلها أبو عبيد عن حذيفة وأبي زرعة بن عمرو، واختارها أبو عبيد. وقد اختلف أهل العربية في «سكرى» هل هي صيغة جمع على فعلى مثل مرضى، أو صيغة مفرد فاستغنى بها عن وصف الجماعة»[3].

بل إنه تتبع ما اختلف فيه القراء ـ من لدن الصحابة فمن بعدهم ـ في سورة الفرقان، ولخصه بأوضح عبارة، وأخصر بيان[4]. وله في هذا المجال اطلاع يبهر الألباب، ويدعو للتعجب والإعجاب؛ وحسبك أن تعلم أن من الكتب التي طالعها في القراءات الكتاب الكبير المسمى «بالجامع الأكبر والبحر الأزخر» لعيسى بن عبد العزيز اللخمي، وهو يقع

---

(١) الفتح: ٨/٤٩٨.
(٢) الفتح: ٨/٦٨٩.
(٣) الفتح: ٨/٤٤٢.
(٤) الفتح: ٩/٣٣ ـ ٣٨.

في نحو ثلاثين مجلدة[1]!!

●● وهو في ذلك كله يعتمد في تفسيره على الآثار القوية، ويرفض التشاغل بالضعيف منها، ويوفق بين ما قد يبدو متعارضاً من الآيات، ويتكلم على الناسخ والمنسوخ، والعام والخاص، ويشير إلى المكي والمدني من السور، مبيناً أن جميع ما نزل بعد الهجرة معدود في المدني على الأرجح، ويذكر السور المتفق على أنها مدنية، والتي اختلف فيه منها، والآيات التي نزلت بعد الهجرة وهي في سورة مكية، وآخر آية نزلت، وآخر سورة؛ سواء كانت الآخرية لمعظم السورة، أو لها كلها. ويتكلم على ما وقع في القرآن على وزن الشعر، وغالبها أشطار أبيات، والقليل منها وقع وزن بيت تام، والمعرَّب في القرآن، والمبهمات فيه، مع ذكر آراء العلماء في هذا، والرد حيث يتوجب ذلك.

هذا مع بحوث قيمة في التفسير، كالبحث في معنى قوله تعالى: ﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾. وفوائد كثيرة نادرة في علوم القرآن والتفسير، مثل: حذف البسملة من سورة براءة، ومعنى السبع المثاني، ومعنى اسم السورة أو الاختلاف في لفظها كالممتحنة، وتحقيق أول ما نزل من القرآن، وحِكَم ومناسبات الآيات وأسماء السور، وتنبيهات قيمة على السورة التي لم يورد البخاري فيها حديثاً، فيورد الحافظ ما يناسبها[2]. وغير ذلك مما يطرب القلب، وينمي العقل، ويغذي الروح.

ونحن نجزم يقيناً لو أن ابن حجر تصدى لتصنيف كتاب في تفسير القرآن العظيم؛ لزاحم به عيون أمهات التفاسير المشهورة. وحسبنا هذه

---

(١) الفتح: ٩/٣٦.

(٢) وقد تركت الإشارة إلى مواضع ذلك؛ تخفيفاً، وغالبه يقع في الجزء الثامن والتاسع من الفتح.

الإضاءة المشرقة، ولنقف نردد مع الشرف عيسى بن سليمان الطنوبي ما قاله في الحافظ ابن حجر[1]:

وبيَّنتَ في التفسيرِ حُكْمِ[2] مسائلِ الْـ ـخِلَافِ بما أظهرتَ من كنزِ مدفونِ

كَرأيِ ابن عباسٍ ورأيِ مجاهدٍ ورأيِ عطاءٍ ثم رأيِ ابنِ سيرينِ

وقرَّرتَ للقرّاءِ ما كانَ نافعاً أتى عن أبي عمرٍو ووَرْشٍ وقَالونِ

وحقّقتَ حُكمَ الرَّوْمِ فيه وغُنَّةٍ ومدٍّ مع الإشْمامِ والوصلِ واللّينِ

وأعربتَهُ عن سيبويهِ وشيخهِ وأبديتَ فرْقاً بين نُونٍ وتنوينِ

وأسندتَ فيهِ عن شيوخٍ كثيرةٍ لهم طرقٌ تعلُو فَفُزْتَ بأجرَيْنِ

• • •

رابعاً ــ ابن حجر الفقيه

الفقه من العلوم الإسلامية العظيمة، التي حظيت باهتمام واعتناء علمائنا، من لدن الصحابة الكرام رضي الله عنهم وحتى عصرنا الحالي؛ وذلك لعلو قدره، وجليل نفعه، ورفعة منزلته، وقبل ذلك لأهميته وضرورته، فبه يعبد المسلم ربه على بصيرة، ولمثل هذا أشار عطاء بن أبي رباح الفقيه الشهير بقوله: «مجالس الذكر هي مجالس الحلال والحرام، كيف تشتري وتبيع، وتصلي وتصوم، وتنكح، وتطلق، وتحج، وأشباه ذلك»[3].

ولقد كان من نعمة الله تعالى على إمامنا ابن حجر أن هيأ له أسباب أخذ الفقه والنبوغ فيه، وكانت بداية ذلك بتوجيه من شيخه المحب محمد بن يحيى بن عبد الله بن الوَحْدِيَّة[4]، إذ رآه حريصاً على سماع

---

(١) الجواهر والدرر: ص ٤٠٨؛ والفتح: ١٣/٥٥٩ ــ ٥٦٠.

(٢) كذا في الفتح، وفي الجواهر: «كل».

(٣) المجموع: ١/٣٥ ــ ٣٦.

(٤) ذكره الحافظ في معجم شيوخه، وقال عنه: اشتغل كثيراً في عدة فنون، ومال إلى الشعر فأجاد. (ت ٨٠٣هـ).

الحديث وكتبه، فقال له: «اصرف بعض هذه الهمة إلى الفقه، فإنني أرى بطريق الفراسة أن علماءَ هذا البلد سينقرضون، وسيُحتاج إليك، فلا تقصر بنفسك». يقول ابن حجر: «فنفعتني كلمته، ولا أزال أترحم عليه لهذا السبب»[1].

فأكبَّ على الفقه وأصوله، وتطلبه عند أئمته، فلزم أعيان هذا الشأن، وعلى رأسهم البُلْقَيني وابن المُلَقِّن والأبْناسي، فنهل من علومهم، وجدَّ واجتهد، حتى نبغ وتفوق وأذن له شيخُه إمامُ الفقهاء في مصر السراجُ البلقيني بالإفتاء والتدريس، وكتب له: «أجزت له أن يفتي بذلك لطالبيه بالتوجيه، فإنه نعم الفاضل النبيه»[2].

وفقه الحافظ على طريقة فذة فريدة، تجمع بين الحديث وفقهه، وهذان العلمان قلَّ أن يجتمعا في شخص، وما جادت الأمة الإسلامية إلاَّ بالقلائل من هذا الطراز في كل جيل. فابن حجر لا يشق له غبار في ميدان الحديث، فهو جُذَيْلُهُ المُحَكَّكُ وعُذَيْقُهُ المُرَجَّبُ، قد حاز قصب السبق فيه، وضمَّ إليه فقه الحديث، والقدرة البارعة على الاستنباط من النص، والجمع بين الأشباه، والتأليف بين النظائر. فهو يعتبر بحق محدث الفقهاء، وفقيه المحدثين في عصره.

ويشهد له في هذا أمران جليلان:

أولهما: تلك المصنفات الفذة والتآليف الكثيرة التي حرَّرها في الفقه وأحاديث الأحكام، التي هي غاية في الإحكام، ونادرة بين كتب هذا الشان، مثل كتاب: «بلوغ المرام» و «التلخيص الحبير»، و «الدراية»، و «شرح الروضة»، و «شرح مناسك المنهاج للنووي»، وغيرها[3].

---

(١) الجواهر والدرر: ص ١١٤.

(٢) الجواهر والدرر: ص ٢٠٨.

(٣) انظر فصل «مصنفات ابن حجر ـ مصنفاته في الفقه».

وثانيهما: الوظائف التي تولاها، فقد وكلت إليه وظيفة الإفتاء، وقاضي القضاة الشافعية. وهذا يتطلب فقهاً واسعاً، وقدرة فائقة على استنباط الأحكام الفرعية من النصوص الشرعية، والاجتهاد في كل مستجد مما يواجهه، أو يرد عليه من أسئلة. خاصة إذا علمنا أنه بقي في منصب «قاضي القضاة» زهاء عشرين سنة.

ويكفي للوقوف على جلالته في الفقه أن نعلم أن كتابه «عجب الدهر في فتاوى شهر» ـ ويقع في مجلد ـ يشتمل على ثلاثمائة مسألة، أجاب عنها في مدة شهر واحد، تجرد لكتابتها ليستدل على كثرة ما يرد منها! هذا ما دوَّنه في شهر، غير المسائل التي لم يجمعها، أو أجاب عنها بمجالسه. وهو مع هذا يشتغل بالعلوم الأخرى، وبمناصبه، وتصنيف الكتب، ومجالس الإملاء، والخطابة، والإقراء، وغير ذلك.

●● والكلام على «ابن حجر الفقيه» عريض الأكناف، غزير المادة، بعيد المدى، متعدد الجوانب. وقد تجلت عبقريته الفقهية بكل إمكانياتها، وكامل مكنوناتها، في شرحه لأبواب الفقه وأحاديث الأحكام وما جرى مجراها في «صحيح البخاري».

ونحن نؤكد على دراسة شخصية الرجل ـ ابن حجر أو غيره ـ من خلال تراثه الذي خلَّفه؛ لأنه أدلُّ دلالة، وأصدق صدقاً، من الكلام الإنشائي، أو الثناء والإطراء من الآخرين.

ونشير في إلماحة سريعة إلى الخطوط الرئيسة في هذا المضمار، مع التمثيل بمثال أو أكثر على كل جانب؛ لتتكامل الصورة الفقهية عند الإمام، كما تتعاضد أعضاء الجسد الواحد في تكوين الشخصية الإنسانية.

●● إن أبرز نقطة وأضوأ ميزة نجدها عند «ابن حجر الفقيه» هي أنه يلحُّ على التمسك بالسنَّة، وعدم مخالفة الحديث، أو التحيُّل عليه، بل وينعى على المخالف ويرد عليه:

يقول ــ في معرض شرحه قول البخاري في إحدى تراجمه ــ: «قوله (فإذا عزم الرسول ﷺ لم يكنْ لبشرٍ التقدُّمُ على الله ورسوله): يريد أنه ﷺ بعد المشورة إذا عزم على فعل أمر مما وقعت عليه المشورة وشرع فيه؛ لم يكن لأحد بعد ذلك أن يشير عليه بخلافه، لورود النهي عن التقدم بين يدي الله ورسوله في آية الحجرات. وظهر من الجمع بين آية المشورة وبينها تخصيص عمومها بالمشورة، فيجوز التقدم لكن بإذن منه حيث يستشيره، وفي غير صورة المشورة لا يجوز لهم التقدم. فأباح لهم القول جواب الاستشارة، وزجرهم عن الابتداء بالمشورة وغيرها، ويدخل في ذلك الاعتراض على ما يراه بطريق الأولى. **ويستفاد من ذلك أن أمره ﷺ إذا ثبت لم يكن لأحد أن يخالفه، ولا يتحيَّل في مخالفته، بل يجعله الأصل الذي يردُّ إليه ما خالفه، لا بالعكس كما يفعل بعض المقلِّدين، ويغفل عن قوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ الآية**»[1].

ــ من ذلك كلامه على إطالة السجود في صلاة الكسوف الوارد في حديث ابن عمرو، وفي آخره قول عائشة رضي الله عنها: «ما سجدت سجوداً قط كان أطولَ منها». يقول الحافظ: «زاد مسلم فيه: «ولا ركعت ركوعاً قط كان أطول منه». وقد تقدم في رواية عروة، عن عائشة بلفظ: «ثم سجد فأطال السجود». وفي أوائل صفة الصلاة من حديث أسماء بنت أبي بكر مثله، وللنسائي من وجه آخر عن عبد الله بن عمرو بلفظ: «ثم رفع رأسه فسجد وأطال السجود»، ونحوه عنده عن أبي هريرة. وللشيخين من حديث أبي موسى: «بأطول قيام وركوع وسجود رأيته قط». ولأبي داود والنسائي من حديث سمرة: «كأطول ما سجد بنا في صلاة قط». وكل هذه الأحاديث ظاهرة في أن السجود في الكسوف يطول كما يطول القيام والركوع. وأبدى بعض المالكية فيه بحثاً، فقال: لا يلزم من كونه أطال أن

---

(١) الفتح: ١٣/٣٤١.

يكون بلغ به حد الإطالة في الركوع. وكأنه غفل عمـا رواه مسلم في حديث جابر بلفظ: «وسجوده نحو من ركوعه»! وهذا مذهب أحمـد وإسحاق وأحـد قـولي الشافعي، وبـه جـزم أهـل العلم بـالحـديث من أصحـابـه، واختـاره ابن سـريج والنـووي، وتعقبه صـاحب «المهذب» بـأنـه لم ينقل في خبـر، ولم يقـل به الشـافعي. اهـ. ورُدَّ عليه في الأمـرين معاً: فـإن الشافعي نص عليـه في «البويـطي»، ولفظه: ثم يسجـد سجدتين طـويلتين، يقيم في كل سجدة نحواً مما قام في ركوعه. (تنبيه): وقع في حديث جابر الذي أشـرت إليـه عند مسلم تـطويل الاعتـدال الـذي يليـه السجـود، ولفـظه: «ثم ركـع فأطال، ثم رفع فأطال، ثم سجد». وقال النووي: هي رواية شاذة مخـالفة، فلا يعمل بها، أو المراد زيادة الطمأنينة في الاعتدال لا إطالته نحو الـركوع! وتُعقِّب بما رواه النسائي وابن خزيمة وغيرهما من حـديث عبد الله بن عمـرو أيضاً، ففيه: «ثم ركـع فأطـال حتى قيل لا يـرفع، ثم رفـع فأطـال حتى قيل لا يسجـد، ثم سجد فـأطـال حتى قيـل لا يـرفـع، ثم رفـع فجلس فـأطـال الجلوس حتى قيـل لا يسجـد، ثم سجــد». لفظ ابن خـزيـمـة من طـريق الثوري عن عطاء بن السائب، عن أبيـه عنه، والثوري سمع من عطاء قبـل الاختلاط؛ فالحديث صحيح. ولم أقف في شيء من الروايات على تطويل الجلوس بين السجـدتين إلاّ في هذا، وقـد نقل الغـزالي الاتفـاق على تـرك إطـالته، فـإن أراد الاتفاق المـذهبـي فـلا كـلام، وإلاَّ فهـو محجـوج بهـذه الرواية»[1].

ــ وفي قـوله تعـالى: ﴿حَـافِـظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ والصَّـلاَةِ الـوُسْـطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾، يقول الحافظ رحمه الله: «روى التـرمذي والنسـائي من طريق زِرّ بن حُبيش قال: قلنـا لعبيدة: سـل علياً[2] عن الصـلاة الوسـطى،

(١) الفتح: ٢/٥٣٩.
(٢) أي علي بن أبـي طالب الخليفة الراشد رضي الله عنه.

فسأله، فقال: كنا نرى أنها الصبح، حتى سمعت رسول الله ﷺ يقول يوم الأحزاب: (شغلونا عن الصلاة الوسطى، صلاة العصر). انتهى. وهذه الرواية تدفع دعوى من زعم أن قوله: «صلاة العصر» مدرج من تفسير بعض الرواة، وهي نص أن كونها العصر من كلام النبي ﷺ، وأن شبهة من قال إنها الصبح قوية، لكن كونها العصر هو المعتمد. وبه قال ابن مسعود وأبو هريرة، وهو الصحيح من مذهب أبي حنيفة وقول أحمد والذي صار إليه معظم الشافعية لصحة الحديث فيه. قال الترمذي: هو قول أكثر علماء الصحابة. وقال الماوردي: هو قول جمهور التابعين. وقال ابن عبد البر: هو قول أكثر أهل الأثر. وبه قال من المالكية ابن حبيب وابن العربي وابن عطية. ويؤيده أيضاً ما روى مسلم عن البراء بن عازب: «نزل حافظوا على الصلوات وصلاة العصر، فقرأناها ما شاء الله، ثم نسخت فنزلت: ﴿حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى﴾، فقال رجل: فهي إذن صلاة العصر؟ فقال: أخبرتك كيف نزلت»[1].

●● ويذكر المسألة الفقهية ويستشهد لها بالدليل:

ففي أثناء كلامه على حديث «قرأ النبي ﷺ «المؤمنون» في الصبح، حتى إذا جاء ذِكر موسى وهارون، أو ذِكْر عيسى، أخذته سعلة فركع» يقول: «قال النووي: وفي الحديث جواز قطع القراءة، وجواز القراءة ببعض السورة». ويعقب الحافظ قائلاً: «وأدلة الجواز كثيرة، وقد تقدم حديث زيد بن ثابت أنه ﷺ قرأ الأعراف في الركعتين، ولم يذكر ضرورة، ففيه القراءة بالأول وبالأخير. وروى عبد الرزاق ـ بإسناد صحيح ـ عن أبي بكر الصديق أنه أمَّ الصحابة في صلاة الصبح بسورة البقرة، فقرأها في الركعتين، وهذا إجماع منهم. وروى محمد بن عبد السلام الخُشَنِي ـ بضم الخاء المعجمة بعدها معجمة مفتوحة خفيفة ثم نون ـ من طريق الحسن البصري قال: غزونا خراسان ومعنا ثلاثمائة من الصحابة، فكان

---

(١) الفتح: ١٩٦/٨.

الرجل منهم يصلي بنا، فيقرأ الآيات من السورة، ثم يركع». أخرجه ابن حزم محتجاً به. وروى الدارقطني ـ بإسناد قوي ـ عن ابن عباس أنه قرأ الفاتحة وآية من البقرة في كل ركعة»[1].

●● وكثيراً ما ينتصر للجمهور ما قام معهم الدليل، وإلاَّ ردَّ عليهم:

ـ ففي قوله ﷺ: (ليس لنا مَثَل السَّوْءِ، الذي يعود في هبته كالكلب يرجع في قيئه)، يقول: «قوله: (ليس لنا مثل السوء): أي لا ينبغي لنا معشر المؤمنين أن نتصف بصفة ذميمة يشابهنا فيها أخس الحيوانات في أخس أحوالها، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ، وَلِلَّهِ المَثَلُ الأَعْلَى﴾. ولعل هذا أبلغ في الزجر عن ذلك وأدلّ على التحريم مما لو قال مثلاً: لا تعودوا في الهبة. وإلى القول بتحريم الرجوع في الهبة بعد أن تقبض ذهب جمهور العلماء، إلاَّ هبة الوالد لولده؛ جمعاً بين هذا الحديث وحديث النعمان[2] الماضي. وقال الطحاوي: قوله: «لا يحل» لا يستلزم التحريم، وهو كقوله: (لا تحل الصدقة لغني)، وإنما معناه: لا تحل له من حيث تحل لغيره من ذوي الحاجة، وأراد بذلك التغليظ في الكراهة، قال: وقوله: (كالعائد في قيئه) وإن اقتضى التحريم لكون القيء حراماً، لكن الزيادة في الرواية الأخرى ـ وهو قوله (كالكلب) ـ تدل على عدم التحريم؛ لأن الكلب غير متعبد، فالقيء ليس حراماً عليه، والمراد التنزيه عن فعلٍ يشبه فعل الكلب. وتُعقِّب باستبعاد ما تأوله، ومنافرة سياق الأحاديث له، وبأن عرف الشرع في مثل هذه الأشياء يريد به المبالغة في الزجر، كقوله: (من لعب بالنردشير فكأنما غمس يده في لحم خنزير)»[3].

---

(١) الفتح: ٢/٢٥٥، ٢٥٦.

(٢) يريد حديث النعمان بن بَشير: «أن أباه أتى به إلى رسول الله ﷺ فقال: إني نَحَلْتُ ابني هذا غلاماً. فقال: (أَكُلَّ وَلَدِكَ نَحَلْتَ مِثْلَهُ)؟ قال: لا. قال: (فارْجِعْهُ)». الفتح: ٥/٢١١.

(٣) الفتح: ٥/٢٣٥ ـ ٢٣٦.

ـ وفي شرح قول البخاري في إحدى تراجمه «باب إذا أسلَمَ قومٌ في دار الحرب ولهم مالٌ وأَرَضُونَ فهي لهم»، يقول ابن حجر: «أشار بذلك إلى الرد على من قال من الحنفية: إن الحربي إذا أسلم في دار الحرب، وأقام بها حتى غلب المسلمون عليها؛ فهو أحق بجميع ماله إلاَّ أرضه وعقاره، فإنها تكون فيئاً للمسلمين. وقد خالفهم أبو يوسف في ذلك، فوافق الجمهور. ويوافق الترجمة حديث أخرجه أحمد عن صخر بن العيلة البجلي قال: «فرَّ قوم من بني سليم عن أرضهم فأخذتها، فأسلموا، وخاصموني إلى النبي ﷺ؛ فردها عليهم، وقال: (إذا أسلم الرجل فهو أحق بأرضه وماله) »[1].

ـ ويرد على الجمهور إذا ضعُف دليلهم، من ذلك ما جاء في «مسألة الكفاءة في النسب في النكاح»، حيث يقول في «باب الأكفاء في الدين»: جمع كُفْء: المثل والنظير: «واعتبار الكفاءة في الدين متفق عليه، فلا تحل المسلمة لكافر أصلاً. وقد جزم بأن اعتبار الكفاءة مختص بالدين مالكٌ، ونقل عن ابن عمر وابن مسعود، ومن التابعين عن محمد بن سيرين وعمر بن عبد العزيز واعتبر الكفاءة في النسب الجمهور». ثم يقول ـ بعد أن يسوق قول أبي حنيفة والشافعي وأحمد ـ: «ولم يثبت في اعتبار الكفاءة بالنسب حديث، وأما ما أخرجه البزار من حديث معاذ رفعه: (العرب بعضهم أكفاء بعض، والموالي بعضهم أكفاء بعض)؛ فإسناده ضعيف. واحتج البيهقي بحديث واثلة مرفوعاً: (إن الله اصطفى بني كنانة من بني إسماعيل) الحديث، وهو صحيح أخرجه مسلم؛ لكن في الاحتجاج به لذلك نظر»[2].

●● ويرد على الفقهاء والأئمة بالحجة القوية والبرهان الساطع:

ـ ففي بيان عدم وجوب «سجود التلاوة» بشرح حديث ابن عمر

---

(١) الفتح: ٦/١٧٥.

(٢) الفتح: ٩/١٣٢ ـ ١٣٣ باختصار.

رضي الله عنهما: «إنَّ اللَّهَ لم يَفْرِضِ السجودَ إلاَّ أنْ نَشاء»، يقول: «استدل بقوله: «لم يفرض» على عدم وجوب سجود التلاوة. وأجاب بعض الحنفية على قاعدتهم في التفرقة بين الفرض والواجب بأن نفي الفرض لا يستلزم نفي الوجوب، وتُعقِّب بأنه اصطلاح لهم حادث، وما كان الصحابة يفرقون بينهما، ويغني عن هذا قول عمر: «ومن لم يسجد فلا إثم عليه». واستدل بقوله: «إلاّ أن نشاء» على أن المرء مخيَّر في السجود، فيكون ليس بواجب. وأجاب من أوجبه بأن المعنى: إلاَّ أن نشاء قراءتها، فيجب! ولا يخفى بُعده، ويردّه تصريح عمر بقوله: «ومن لم يسجد فلا إثم عليه»؛ فإن انتفاء الإثم عمن ترك الفعل مختاراً يدل على عدم وجوبه»[1].

ـ وقال في «باب الخُلع»[2]: وأجمع العلماء على مشروعيته إلاَّ بكر بن عبد الله المزني التابعي المشهور، فإنه قال: لا يحل للرجل أن يأخذ من امرأته في مقابل فراقها شيئاً؛ لقوله تعالى ﴿فَلاَ تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً﴾. فأوردوا عليه: ﴿فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيما افْتَدَتْ بِهِ﴾، فادعى نسخها بآية النساء، أخرجه ابن أبي شيبة وغيره عنه. وتعقب ــ مع شذوذه ــ بقوله تعالى في النساء أيضاً: ﴿فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ منْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ﴾، وبقوله فيها: ﴿فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا﴾ الآية، وبالحديث، وكأنه لم يثبت عنده أو لم يبلغه، وانعقد الإجماع بعده على اعتباره، وأن آية النساء مخصوصة بآية البقرة، وبآيتي النساء الآخرتين»[3].

●● بل إنه يردُّ على مذهبه الشافعي، إذا رأى أن حجة الشافعية ضعيفة، أو قام الدليل ضدهم مع سلامته من الطعن أو المعارضة أو نحو ذلك:

---

(١) الفتح: ٢/٥٥٧، ٥٥٩.

(٢) هو في اللغة: فراق الزوجة على مال. وضابطه شرعاً: فراق الرجل زوجته ببذل قابل للعوض يحصل لجهة الزوج.

(٣) الفتح: ٩/٣٩٥ ـ ٣٩٦.

ـ ففي شرحه لحديث عائشة رضي الله عنها: «جهر النبي ﷺ في صلاة الخسوف بقراءته»، يقول الحافظ: «استدل به على الجهر بالنهار، وحمله جماعة ممن لم يرَ بذلك على خسوف القمر، وليس بجيد لأن الإسماعيلي روى هذا الحديث من وجه آخر عن الوليد بلفظ: «كسفت الشمس في عهد رسول الله ﷺ» فذكر الحديث، وكذا رواية الأوزاعي التي بعده صريحة في الشمس». ثم يذكر أحاديث وردت في هذا الأمر، فعند أحمد: «خسفت الشمس على عهد النبي ﷺ، فأتى النبي ﷺ فكبر ثم كبر الناس، ثم قرأ فجهر بالقراءة». وفي مسند الطيالسي: «أن النبي ﷺ جهر بالقراءة في صلاة الكسوف». وعند الترمذي والطحاوي: «صلى صلاة الكسوف وجهر بالقراءة فيها». ثم يقول رحمه الله: «وقد ورد الجهر فيها عن علي مرفوعاً وموقوفاً، أخرجه ابن خزيمة وغيره، وقال به صاحبا أبي حنيفة، وأحمد، وإسحاق، وابن خزيمة وابن المنذر وغيرهما من محدثي الشافعية، وابن الغربي من المالكية. وقال الطبري: يخير بين الجهر والإسرار. وقال الأئمة الثلاثة: يسرُّ في الشمس، ويجهر في القمر. واحتج الشافعي بقول ابن عباس: «قرأ نحواً من سورة البقرة»، لأنه لو جهر لم يحتج إلى تقدير، وتعقب باحتمال أن يكون بعيداً منه، لكن ذكر الشافعي ـ تعليقاً ـ عن ابن عباس أنه صلّى بجنب النبي ﷺ في الكسوف فلم يسمع منه حرفاً، ووصله البيهقي من ثلاثة طرق أسانيدها واهية، وعلى تقدير صحتها فمثبت الجهر معه قدر زائد فالأخذ به أولى»[1].

●● كل ذلك ناتج من طول باعه، وسعة اطلاعه، وسيلان ذهنه، وقوة استحضاره للأقوال مشفوعة بالأدلة. والمتتبع لأبحاثه الفقهية يقضي العجب من كثرة اطلاعه على مسائل الخلاف[2]، وحفظه لأقوال الأئمة في المسألة الواحدة:

---

(١) الفتح: ٢/٥٤٩ ـ ٥٥٠.

(٢) وقد أشار الحافظ إلى مثل هذا بقوله: «ولقد تتبعت كتب الخلاف كثيراً، فلم أقف =

فتراه في مواضع كثيرة يطيل النَّفَس، ويسرد الأدلة الكثيرة في الموضوع؛ من ذلك قوله في العدد الذي تقوم به صلاة الجمعة: «لم يتعرض البخاري لعدد من تقوم بهم الجمعة، لأنه لم يثبت منه شيء على شرطه، وجملة ما للعلماء فيه خمسة عشر قولاً»[(١)]. ثم سردها.

ومنها كلامه على المسافة التي إذا أراد المسافر الوصول إليها ساغ له قصر الصلاة، فذكر أن فيها نحواً من عشرين قولاً، ثم شرع يذكر الأحاديث والآثار والآراء الواردة في ذلك[(٢)].

وكلامه في لبس الثوب الأحمر للرجل، حيث يقول: «وقد تلخص من أقوال السلف في لبس الثوب الأحمر سبعة أقوال». وذكرها مع أدلتها[(٣)].

وبحثه في القَدْر الذي تُقطع فيه يد السارق، حيث ذكر فيه عشرين مذهباً[(٤)].

ومن ذلك أيضاً ما ذكره عن العلماء في ساعة الإجابة التي في يوم الجمعة، وقد جمع أقوال العلماء فيها ـ من الصحابة والتابعين ومن بعدهم ـ فبلغت اثنين وأربعين قولاً، مع أدلتها، ثم رجح ما هو أقرب للحق[(٥)].

●● وقد ظهرت براعة المحدث في فقهه، حيث يستوعب ما جاء من

= فيها على مسألة واحدة انفرد بها الليث عن الأئمة من الصحابة والتابعين؛ إلاَّ في مسألة واحدة وهي أنه كان يرى تحريم أكل الجراد الميت». انظر: الرحمة الغيثية: ص ١٠١، ومراده بالليث هو ابن سعد الإمام العَلَم.

(١) الفتح: ٢/ ٤٢٢ ـ ٤٢٣.

(٢) الفتح: ٢/ ٥٦٦ فما بعدها.

(٣) الفتح: ١٠/ ٣٠٥ ـ ٣٠٦.

(٤) الفتح: ١٢/ ١٠٦ ـ ١٠٧.

(٥) الفتح: ٢/ ٤١٦ ـ ٤٢١.

أحاديث وآثار في المسألة، ويجمعها من الصحاح والسنن والمسانيد والمجاميع والمصنفات، ويورد الأحاديث المرفوعة والموقوفة على الصحابة وآراء التابعين بأسلوب رائع:

وحسبك أن تعلم ــ مثلاً ــ أنه أورد في «باب لا طلاق قبل نكاح»[1] سبع صفحات ملأها بالأحاديث والآثار، وأشبع القول في سندها وصحة الاستدلال بها.

●● هذا مع بحوث فقهية قيمة قلَّ أن توجد عند غيره بمثل هذه الطريقة من البراعة في الاستدلال والإحاطة والإنصاف.

من ذلك بحثه في معنى «المسجد الحرام» وحدوده حيث يقول: اختلف أهل التأويل في المراد بقوله هنا: ﴿المسجد الحرام﴾[2] هل هو الحرم كله، أو مكان الصلاة فقط؟ واختلفوا أيضاً هل المراد بقوله: ﴿سواء﴾ في الأمن والاحترام، أو فيما هو أعم من ذلك؟ وبواسطة ذلك نشأ الاختلاف المذكور أيضاً. قال ابن خزيمة: لو كان المراد بقوله تعالى: ﴿سواء العاكف فيه والباد﴾ جميع الحرم، وأن اسم المسجد الحرام واقع على جميع الحرم؛ لما جاز حفر بئر ولا قبر، ولا التغوط ولا البول، ولا إلقاء الجيف والنتن. قال: ولا نعلم عالماً منع من ذلك، ولا كره لحائض ولا لجنب دخول الحرم، ولا الجماع فيه، ولو كان كذلك لجاز الاعتكاف في دور مكة وحوانيتها، ولا يقول بذلك أحد، والله أعلم. قلت[3]: والقول بأن المراد بالمسجد الحرام الحرم كله ورد عن ابن عباس

---

(١) الفتح: ٩/٣٨١ ــ ٣٨٧.

(٢) من قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عن سَبيلِ اللَّهِ والمَسْجِدِ الحَرامِ الَّذي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَواءً الْعَاكِفُ فيهِ والْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فيهِ بِإِلْحادٍ بظلمٍ نُذِقْهُ منْ عذابٍ أليمٍ﴾. سورة الحج: آية ٢٥.

(٣) القائل هو ابن حجر.

وعطاء ومجاهد، أخرجه ابن أبـي حاتم وغيره عنهم، والأسانيـد بذلـك كلها إليهم ضعيفة»[1].

ومن الأبحـاث القيمة النـادرة: بحثه في حكم أطفـال المشركين هـل يدخلون الجنة أم لا[2]، وحكم نقل الزكـاة[3]، وأن الثواب في العبـادة يكثر بكثـرة النصب والتعب[4]، وجـواز أكـل غـراب الـزرع المسمى «الزاغ»[5]، وتحريم أكل جميع أنواع الفئران[6]، وإذا اشترى شيئاً وباعه قبل قبضـه هل يجوز[7]، وحكم عطية الأب لابنه وهل تجب التسويـة في عطيـة الأولاد[8]، وحكم المراهنة في السباق على الخيل ونحوها[9]، وحكم الصـلاة على غير النبـي ﷺ كقـول: «اللهم صـلِّ على فـلان»[10]، ومعنى التغني بـالقـرآن وحكمـه[11]، وحكم التزوّج[12]، وحضـور العرس إذا كـان فيه منكـر[13]، وطلاق الثلاث[14]، والشرب قاعـداً وقائمـاً[15]، وحكم القيام للقـادم[16]. وغير ذلك كثير جداً.

---

(١) الفتح: ٣/٤٥١. وواضح ميل الحافظ لما قاله ابن خزيمة، وهو رأي سديد وجيه.

(٢) الفتح: ٣/٢٤٦.

(٣) الفتح: ٣/٣٥٧.

(٤) الفتح: ٣/٦١١.

(٥) الفتح: ٤/٣٨.

(٦) الفتح: ٤/٣٩.

(٧) الفتح: ٤/٣٣٥.

(٨) الفتح: ٥/٢١٤ ــ ٢١٥.

(٩) الفتح: ٦/٧٢ ــ ٧٣.

(١٠) الفتح: ٨/٥٣٤.

(١١) الفتح: ٩/٦٨ ــ ٧٢.

(١٢) الفتح: ٩/١١٠ ــ ١١١.

(١٣) الفتح: ٩/٢٥٠.

(١٤) الفتح: ٩/٣٦٢ ــ ٣٦٥.

(١٥) الفتح: ١٠/٨٢ ــ ٨٣.

(١٦) الفتح: ١١/٤٩ ــ ٥٤.

●● وله كثير من الترجيحات والتقريرات والاختيارات:

من ذلك قوله في «ركعتي تحية المسجد» إذا جلس المرء هل يشرع له القيام ليأتي بهما؛ قال: «صرح جماعة بأنه إذا خالف وجلس لا يُشرع له التدارك، وفيه نظر لما رواه ابن حبان في صحيحه من حديث أبي ذر أنه «دخل المسجد فقال له النبي ﷺ: (أَرَكَعْتَ ركعتين)؟ قال: لا، قال: (قم فاركعها)». ترجم عليه ابن حبان أن تحية المسجد لا تفوت بالجلوس. قلت: ومثله قصة سُلَيْك»[1].

وقوله في التنفل قبل صلاة العيد: «والحاصل أنّ صلاة العيد لم يثبت لها سنة قبلها ولا بعدها، خلافاً لمن قاسها على الجمعة. وأما مطلق النفل فلم يثبت فيه منع بدليل خاص، إلاَّ إن كان ذلك في وقت الكراهة الذي في جميع الأيام، والله أعلم»[2].

وقوله في مسألة نقل الميت: «اختلف في جواز نقل الميت من بلد إلى بلد: فقيل: يكره لما فيه من تأخير دفنه، وتعريضه لهتك حرمته. وقيل: يستحب. والأولى تنزيل ذلك على حالتين: فالمنع حيث لم يكن هناك غرض راجح؛ كالدفن في البقاع الفاضلة، وتختلف الكراهة في ذلك فقد تبلغ التحريم. والاستحباب حيث يكون ذلك بقرب مكان فاضل، كما نص الشافعي على استحباب نقل الميت إلى الأرض الفاضلة كمكة وغيرها، والله أعلم»[3].

---

(١) الفتح: ١/٥٣٨. وقصة سليك هي ما جاء في حديث جابر بن عبد الله قال: «جاء سُلَيْكٌ الغَطَفَانيُّ يومَ الجمعةِ، ورسولُ الله ﷺ يخطبُ، فَجَلَسَ. فقال له: (يا سُلَيْكُ، قمْ فارْكَعْ ركعتينِ، وَتَجَوَّزْ فيهما)» لفظ مسلم. انظر: الفتح: ٢/٤٠٧؛ مسلم: ٢/٥٩٦ ـ ٥٩٧.

(٢) الفتح: ٢/٤٧٦.

(٣) الفتح: ٣/٢٠٧.

●● **وله في ميدان الفقه الرحيب عبارات وجيزة، جامعة بليغة، تدل على تمكنه وحسن تصرفه:**

من ذلك قوله في النذر: «النذر في اللغة التزام خير أو شر. وفي الشرع التزام المكلَّف شيئاً لم يكن عليه، منجزاً أو معلقاً، وهو قسمان: نذر تبرُّر، ونذر لجاج. ونذر التبرر قسمان: أحدهما ما يتقرب به ابتداءً «كَلِلَّه عَليَّ أن أصومَ كذا»، ويلتحق به ما إذا قال: لله عليَّ أن أصوم كذا شكراً على ما أنعم به علي من شفاء مريضي، مثلاً. وقد نقل بعضهم الاتفاق على صحته واستحبابه، وفي وجه شاذ للشافعية أنه لا ينعقد. والثاني: ما يتقرب به معلقاً بشيء ينتفع به إذا حصل له: كإن قدم غائبي، أو كفاني شرّ عدوي؛ فعليَّ صوم كذا، مثلاً. والمعلق لازم اتفاقاً، وكذا المنجز في الراجح. ونذر اللجاج قسمان: أحدهما: ما يعلقه على فعل حرام أو ترك واجب؛ فلا ينعقد في الراجح، إلَّا إن كان فرض كفاية، أو كان في فعله مشقة فيلزمه. ويلتحق به ما يعلقه على فعل مكروه. والثاني: ما يعلقه على فعل خلاف الأَوْلَىٰ، أو مباح، أو ترك مستحب، وفيه ثلاثة أقوال للعلماء: الوفاء، أو كفارة يمين، أو التخيير بينهما. واختلف الترجيح عند الشافعية، وكذا عند الحنابلة، وجزم الحنفية بكفارة اليمين في الجميع، والمالكية بأنه لا ينعقد أصلاً»[1].

هذا إضافة إلى تحرير النزاع بين العلماء في المسائل الفقهية، والكلام على أصول الفقه، وتبيين الناسخ من المنسوخ مع الرد على من قال بالنسخ وحقيقة الأمر ليست كذلك. ويتكلم على خصائصه ﷺ بالحجة والدليل، مع تعقب من يقول بالخصوصية لمجرد الاحتمال. وينقل مواضع الإجماع عند الأئمة، ويحرر ما لم يكن كذلك، ويشرح الحديث ويذكر ما استنبطه الفقهاء منه من أحكام، ويبين أقوال مذهبه والأصح منها والمختار، والقديم والجديد، وكذا في المذاهب الأخرى.

---

(١) الفتح: ١١/٥٧٢ ـ ٥٧٣.

وهو في كل ذلك نزاع إلى الالتزام بالنص، والاحتماء بالدليل، سواء وافق مذهبه أو خالفه، وسواء قال به الجمهور أم لا، ما دام الحديث سالماً من الطعن، ولم يعارضه ما هو أقوى منه، وسَلِمَ الاستدلال به.

وبرأينا لو تصدى عالم فقيه فجرَّدَ ما في «الفتح» من بحوث فقهية، ومسائل وأحكام مع أدلتها، وهذب ذلك وبوَّبه؛ لجمع كتاباً حافلاً في الفقه المقارن المدعَّم بالأدلة مع ترجيح الراجح منها، مما يمكن وضعه في صف أفضل وأوسع الكتب الفقهية.

وبلغ من إجلال العلماء والفقهاء لفقه الحافظ ابن حجر وفتاواه، أن العلّامة قاضي الحنابلة أحمد بن نصر الله البغدادي رُفعت إليه فتيا أجاب عنها ابن حجر، فكتب تحت خطه ما نصه: «ما أجاب به سيدنا ومولانا قاضي القضاة ـ أسبغ الله ظلاله ـ هو العمدة، ولا مزيد لأحد عليه، فإنه إمام الناس في ذلك:

إذا قالتْ حَذامِ فصدِّقوها   فإن القولَ ما قالت حذام»[1]

وما أجدر الإمام الحافظ بما قاله فيه الشيخ محب الدين البكري[2]:

ولا غَرْوَ أن الشافعيَّ إمامَنا   يُباهي بكَ الأصحابَ بالنقلِ والفتوى

• • •

خامساً ـ ابن حجر المحدِّث

إن الباحث ليحار من أين يبدأ حين يتكلم عن «ابن حجر المحدث»، فهو بَحْرٌ وأنّى للبحر ما عنده من اللآلىء والجواهر، وحَبْرٌ سما حتى تتمنى السماء أن يتوسط كبدها لتدور شموسها وكواكبها في فلكه الزاهر، وروضة تستقلُّ الرياض نفسها أمامه لما عنده من الأزاهر النواضر. فلقد كان

(١) الجواهر والدرر: ص ٢٤٠.

(٢) الجواهر والدرر: ص ٤٧٩، الفتح: ١٣/ ٥٥٧.

ـ طيب الله ثراه ـ نادرة النوادر في علم الحديث رواية ودراية، أقبل عليه بنفس توّاقة، وقلب واعٍ، وذهن وقاد؛ فنبغ في معرفة علل الأحاديث ونقد الأسانيد، وأسماء الرجال، وأحوال الرواة، والجرح والتعديل، والمتفِق والمفترِق، والمُؤْتَلِف والمُخْتَلِف؛ حتى حاز قصب السَّبْق في مختلف فنون الحديث الكثيرة، فصار حاكم حكامها، ومالك زمامها، وغدا عَلَم الأعلام، وشيخ شيوخ الإسلام، حافظ الدهر، وفريد العصر، طويل الباع، واسع الاطلاع، مديد المناقب، نَسِيجَ وَحْدِهِ، وعمدة من جاء بعده.

سطعت شمسه في سن مبكرة بوجود أساتيذه من أساطين علماء الحديث الشريف، حيث هيأ الله له أولئك الأفذاذ في هذا العلم المنيف، وعلى رأسهم حافظ وقته أبو الفضل العراقي، فلازمه وأكبَّ على الأخذ عنه إكباباً لا مزيد عليه، ولزمه عشر سنوات أخذ خلالها جميع صنوف هذا الفن، حتى أذن له في التدريس في علوم الحديث سنة (٧٩٧هـ)، وعمر ابن حجر إذ ذاك (٢٤) سنة[(١)]!!

ولم ينل ذلك إلَّا بكثرة الطلب، وندرة الدأب، والترحال والتطواف، فضرب أكباد الإبل، وشرَّق وغرَّب، وأتهم وأنجد، وسمع الكتب الكبار والأجزاء الصغار، والمسانيد والمصنفات، والمجاميع والمشيخات، والعالي والنازل؛ فكان أعلى ما وقع له أحاديث عشاريات، اختار منها عشرة أحاديث في جزء صغير سماه «العشرة العشارية»[(٢)].

وقد شرب ماء زمزم لينال مرتبة الذهبي، ويحدث عن ذلك فيقول: «شربت ماء زمزم لثلاث: أحدها أن أنال مرتبة الحافظ الذهبي، فوجدت بحمد الله أثر ذلك».

---

(١) الجواهر والدرر: ص ٦٧.

(٢) انظر: «فصل مصنفات ابن حجر ـ مصنفاته في علوم الحديث». والعشاريات: ما كان بينه وبين النبي ﷺ في السند عشرة أنفس.

وحكى عنه تلميذه الحافظ السخاوي أنه «شرب ماء زمزم لما حجَّ في سنة ثمانمائة ـ أو سنة خمس وثمانمائة ـ لينال مرتبة الذهبي. قال: ثم حججت بعد مدة تقرب من عشرين سنة، فوجدت من نفسي طلب المزيد على تلك المنزلة؛ فسألت رتبة أعلى منها، قال: فأرجو الله أن أنال ذلك».

قال السخاوي: «قد حقق الله رجاءه، وشهد له بذلك غير واحد»[1].

وانتهت إليه رياسة علم الحديث وهو في شرخ الشباب، حتى قال ابن تغري بردي: «كان رحمه الله حافظ العصر، حافظ المشرق والمغرب، أمير المؤمنين في الحديث، انتهت إليه رياسة علم الحديث من أيام شبيبته بلا مدافعة»[2].

ولما حضرت العراقيَّ الوفاةُ قيل له: «من تخلف بعدك؟ قال: ابن حجر، ثم ابني أبو زرعة، ثم الهيثمي»[3]. والعراقي توفي سنة (٨٠٦هـ) وعمر ابن حجر: (٣٣) سنة!!

ويا أسانيد أخبار بجوهرها ... ما كان أعلاكِ بل ما كان أغلاكِ

ويا دراري اضْمحلّي بالشهاب فقد ... مَحَا سَنَا ابنِ عليٍّ حُسْنَ مَرْآكِ[4]

ويشهد للحافظ في هذا أمور جليلة:

أولها: شهادة عباقرة هذا الفن، من أشياخه ومعاصريه ومن جاء بعده. وثانيها: توليه تدريس الحديث وعلومه في عدة مدارس، منها في «خانقاه بيبرس» نحواً من عشرين سنة، ثم إملاؤه أكثر من ألف مجلس في الحديث من حفظه، وأماليه زهاء عشر مجلدات. وثالثها ـ وهو أجلها ـ تلك التصانيف الكثيرة النادرة، المليحة الجليلة، المفيدة السائرة، والتي

---

(١) الجواهر والدرر: ص ١٠٦، ١٠٧.

(٢) المنهل الصافي: ١/ ١٠٤، نقلاً عن مقدمة تبصير المنتبه: ١/ ١٠.

(٣) طبقات الحفاظ للسيوطي: ص ٥٥٢.

(٤) من شعر العلاّمة الأديب شمس الدين النواجي. الجواهر والدرر: ص ٤٥٦.

نيَّفت في الحديث وعلومه على مائة وسبعين مصنفاً، طرقت كل أبواب هـذا الفن الجليل، ففتحت مغاليقه: فقد ألَّف في مصطلح الحديث، وعلم الرجال والجرح والتعديل، وخرج التخاريج الكثيرة من الأربعينات والعشاريات، والعوالي والأجزاء، والأطراف والمعاجم والمشيخات، وطرق الحديث الواحد، والزوائد، وشروح كتب الحديث، وتلخيص كتب الحديث، وترتيبها، واختصارها، وغير ذلك.

ولمثل هذا وصفه الحافظ السيوطي قائلاً: «فريد زمانه، وحامل لواء السنَّة في أوانه، ذهبي هـذا العصر ونضاره، وجوهره الذي ثبت به على كثير من الأعصار فخاره، إمام هـذا الفن للمقتدين، ومقدَّم عساكر المحدِّثين، وعمدة الوجود في التوهية والتصحيح، وأعظم الشهود والحكام في بابي التعديل والتجريح. شهد له بالانفراد ــ خصوصاً في شرح البخاري ــ كلٌّ مسلم، وقضى له كل حاكم بأنه المعلم. له الحفظ الواسع الذي إذ وصفته فحدِّث عن البحر ابن حجر ولا حرج! والنقد الذي ضاهى به ابن معين، فلا يمشي عليه بهرجٌ هَرَج، والتصانيف التي شبَّهتها إلَّا بالكنوز والمطالب، فمن ثَم قُيِّض لها موانع تحول بينها وبين كل طالب. جمَّل الله به هذا الزمان الأخير، وأحيى به وبشيخه[1] سنَّة الإملاء بعد انقطاعه من دهر كثير»[2].

وقد كان آية من آيات الله تعالى في عباده في سعة اطلاعه، وسيلان حفظه، وقوة استحضاره:

يحدث السخاوي فيقول: «وقد كنت أسأله عن أسانيد، فيكتبها لي بخطه من حفظه. وبلغني أن الظاهر جقمق أمر القاضي ولي الدين السفطي بإسماع عدة من كتب الحديث بالجامع الأزهر. ففعل ذلك، وأمر

---

(١) يعني الحافظ العراقي.

(٢) نظم العقيان: ص ٤٥.

بإخفاء يوم الختم عن صاحب الترجمة[1]؛ خوفاً من أن يكون هو صاحب المجلس، فاتفق أنه علم فحضر، وبقي كلما أخذ القارىء ــ وهو الحاكي لي ذلك ــ كتاباً، يسرد شيخنا مُسنده من حفظه! حتى خُتمت الكتب كلها، فتعجب الناس، وكاد السفطي ــ رحمهما الله ــ أن يقدَّ عيناً. والمقام وراء هذا كله»[2].

وحسبك أن تعلم أن كتابه الفريد «تغليق التعليق» قد فرغ من تصنيفه سنة (٨٠٣هـ) وعمره ثلاثون سنة، اعتمد في تأليفه على زهاء (٣٥٠) مصنفاً ما بين كبير وصغير. وقد ذكر في نهايته أسانيده في الكتب الكبار التي خرج منها الأحاديث التي لم يَسُقْ أسانيدها خلال الكتاب، وهي (٦٤) كتاباً من أمثال: الكتب الستة، ومسند الشافعي، ومسند أحمد، ومسند ابن راهويه، ومسند مسدَّد، وسنن الدارقطني، وسنن سعيد بن منصور، وسنن البيهقي، وصحيح ابن خزيمة، وصحيح ابن حبان، والتمهيد لابن عبد البر، وتاريخ بغداد، وطبقات ابن سعد، وغيرها[3]. وقد استخرج محقق «تغليق التعليق» أسماء (٢٧٩) مصنفاً ذكرها الحافظ خلال كتابه[4].

والمطلع على موارده في «فتح الباري» يقضي العجب، ويقف أمام جبل من جبال الحفظ والاطلاع المدهش النادر، وكتابه «المعجم المفهرس»[5] خير دليل على ذلك.

ولولا أن الفكر والقلب يلحّان لمعرفة المزيد، واكتشاف كنوز هذا الإمام؛ لاكتفيت بما ذكرت، لكنني ــ واستكمالاً لجوانب البحث ــ أشير

---

(١) أي ابن حجر.
(٢) الجواهر والدرر: ص ١٢٧. ومعنى يقدُّ عيناً: تفقأ عينه من الغيظ.
(٣) تغليق التعليق: ٥/٤٤٢ ــ ٤٧٣.
(٤) تغليق التعليق: ١/٢٤٣ ــ ٢٦٥.
(٥) انظر التعريف به في «فصل مصنفات ابن حجر ــ مصنفاته في علم الحديث».

هنا إلى شذرات من كوامن علم ابن حجر في فنون الحديث، وأذكر بعض درره في هذا العلم الشريف.

●● ففي مصطلح الحديث له كلام نفيس، ومصنفات بديعة:

مثل: «نخبة الفِكَر في مصطلح أهل الأثر»، و«نزهة النظر شرح نخبة الفكر»، و«النكت على علوم الحديث لابن الصلاح»، وغيرها من الكتب التي تبحث في المضطرب والمُدْرَج، والمعلول والمرسل. وكلها شاهدة على أنه مالك ناصية هذا العلم، وفارس ميدانه، والحائز على قصب السبق في ميدان رهانه. وقد وصف العلّامة كمال الدين الشُّمُنِّي[1] كتابه «نخبة الفِكَر» بأن مؤلفه «قد رتبه ترتيباً بديعاً، وسلك في تهذيبه مسلكاً مَنِيعاً، فهو وإنِ صغُر حجمه كُنَيْفٌ مُلِيءَ عِلْماً»[2].

●● أما في علم الرجال وما فيه من بيان أسمائهم، وضبط ما يشكِل منها، أو تمييز ما قد يختلط، ومعرفة بلدانهم وتواريخ وفياتهم، وأشياخهم ومن روى عنهم، مع الجرح والتعديل، وغير ذلك؛ فإليه المنتهى في ذلك جميعاً:

فقد انفرد فيه بين أعيان عصره، وصار كلامه عمدة أهل هذا الفن الجليل الخطير، ومصنفاته فيه أضحت موئل من جاء بعده حتى عصرنا الحاضر. فمن ذا من العلماء يستغني عن: «تهذيب التهذيب»، أو «تقريب التهذيب»، أو «لسان الميزان»، أو «تعجيل المنفعة»، أو «تبصير المنتبه»، وغيرها من الكتب التي حرَّرها بقلم الناقد البصير، والمطلع الخبير؟! ومما يدعو للعجب أن «تهذيب التهذيب» قد فرغ الحافظ منه سنة (٨٠٨هـ)، وعمره حينئذٍ (٣٥) سنة!

---

(١) هو محمد بن محمد بن حسن الشمني، وقد شرح النخبة، ونَظَمها أيضاً، حياته (٧٦٦ ـ ٨٢١هـ).

(٢) الجواهر والدرر: ص ٢١٩. وكُنَيْف: تصغير كِنْف، وهو تصغير تعظيم، والكنف: وعاء يكون فيه أداة الراعي.

والذي يقلب النظر في «تقريب التهذيب» تأخذه الدهشة من براعة الحافظ واقتداره، حيث إنه يلخص كل ما قيل في الراوي بعبارة قصيرة، جامعة محرَّرة؛ مثل: «ثقة ثبت»، «ثقة»، «صدوق»، «صدوق له أوهام»، «ضعيف»، «مقبول»، «مجهول»، «متروك». ويضبط بالحروف ما يشكِل من الأسماء، ويبين طبقة الراوي، وسنة وفاته؛ كل ذلك بما لا يتجاوز السطر أو السطرين على الأغلب.

وقد قال الحافظ في ذلك ـ مجيباً لمن سأله تلخيص «تهذيب التهذيب» ـ: «ثم رأيتُ أن أجيبَه إلى مسألته، وأسعفه بطِلبته، على وجه يحصل مقصوده بالإفادة، ويتضمن الحسنى التي أشار إليها وزيادة، وهي أني أحكم على كل شخص منهم بحكم يشمل أصح ما قيل فيه، وأعدَلِ ما وصف به، بألخَصِ عبارة، وأخْلَصِ إشارة؛ بحيث لا تزيد كل ترجمته على سطر واحد غالباً، يجمع اسم الرجل، واسم أبيه وجده، ومنتهى أشهرِ نسبَته ونَسَبِه، وكُنيته ولَقبه، مع ضبط ما يُشْكِل من ذلك بالحروف، ثم صفته التي يختص بها من جرح أو تعديل، ثم التعريف بعصر كل راوٍ منهم؛ بحيث يكون قائماً مقام ما حذفته من ذكر شيوخه والرواة عنه، إلاَّ من لا يؤمن لَبسه»(١).

كما صدَّر كتابه بمقدمة ذكر فيها ألفاظ مراتب الجرح والتعديل، وهي في اثنتي عشرة مرتبة، وحصر طبقاتهم في اثنتي عشرة طبقة(٢).

●● وأما مذهبه في الجرح والتعديل فيتضح من خلال مقدمته لكتابه العظيم «لسان الميزان»:

فالجرح إن كان مفسراً قُبل، وإلاَّ عُمل بالتعديل. ومن جُهل حالُه ولم يُعلم فيه سوى قول إمام من أئمة الحديث؛ فالقول قول هذا الإمام. وممن يُتوقَّف في قبول قوله في الجرح من كان بينه وبين من جرحه عداوة

---

(١) تقريب التهذيب: ١/٣ ـ ٤.

(٢) المرجع السابق: ١/٤ ـ ٦.

سببها الاختلاف في الاعتقاد، ويلتحق به ما يكون سببه المنافسة في المراتب.

وأما التعديل فينبغي أن يتأمل أيضاً أقوال المزكّين ومخارجها، فقد يقول العدل: فلان ثقة، ولا يريد به أنه ممن يحتج بحديثه، وإنما ذلك على حسب ما هو فيه، ووجه السؤال عنه. فقد يسأل عن الرجل الفاضل المتوسط في حديثه فيقرن بالضعفاء، فيقال: ما تقول في فلان وفلان وفلان؟ فيقول: فلان ثقة؛ يريد أنه ليس من نمط من قرن به...[1].

هذا وقد طفحت كتب الحافظ بما يشهد له بالأستاذية الكبرى والمعرفة التامة في كشف أحوال الرواة، ودرجتهم من الثقة أو الضعف، وبيان المتشابه، والمؤتلف والمختلف، وتاريخ ولادتهم ووفياتهم، وإمكان سماعهم ولقائهم، ونحو ذلك من توابع هذا العلم الخضمّ الواسع.

من ذلك ردُّه لقول ابن المنادي «إنّ الأعمش أخذ بركاب أبي بكرة الثقفي»، فقال الحافظ: «إنه غلط فاحش، لأن الأعمش ولد إما في سنة إحدى وستين أو تسع وخمسين، وأبو بكرة مات سنة إحدى أو اثنتين وخمسين؛ فكيف يتهيأ أن يأخذ بركاب من مات قبل مولده بعشر سنين أو نحوها؟ وكأنه ــ والله أعلم ــ: أخذ بركاب ابن أبي بكرة، فسقطت «ابن» وثبت الباقي». ثم تعجب ابن حجر من الحافظ المِزّي مع حفظه ونقده كيف خفي عليه هذا[2]!!

ويقول السخاوي: «وأخرج المعافى بن زكريا النهرواني في المجلس الرابع والستين من «الجليس» له، من طريق معمر بن شبيب بن شيبة أنه

(١) انظر: لسان الميزان: ١/١٥ ــ ١٧.
(٢) الإعلان بالتوبيخ: ص ٩.

سمع المأمون يقول: امتحنت الشافعي في كل شيء فوجدته كاملاً، وقد بقيت خصلة وهي أن أسقيه من النبيذ ما يغلب على الرجل الجيد العقل، وأنه استدعي به، وسقاه، فما تغير عقله، ولا زال عن حجته! وقال المعافى عقبها: الله أعلم بصحتها. قال شيخنا في «لسانه»[1]: لا يخفى على من له أدنى معرفة بالتاريخ أنها كذب، وذلك أن الشافعي دخل مصر على رأس المائتين، والمأمون إذ ذاك بخراسان، ثم مات الشافعي بمصر سنة دخل المأمون من خراسان إلى العراق، وهي سنة أربع ومائتين، فما التقيا قط والمأمون خليفة! وكيف يعتقد أن الشافعي يفعل هذا وهو القائل: لو أن الماء البارد يفسد مروءتي ما شربت إلَّا ماءً حاراً»[2]!!

●● ومن كلام الحافظ في علم الرجال ما طفح به «الفتح» من التعريف برجال البخاري وغيرهم، فمما ذكره عن رجال البخاري وشيوخه:

ـ قوله: «أحمد بن محمد المكي: هو أبو الوليد الأزرقي، جد أبي الوليد محمد بن عبد الله صاحب تاريخ مكة. وفي طبقته أحمد بن محمد المكي أيضاً، لكن كنيته أبو محمد، واسم جده عون، ويعرف بالقواس. وقد وهم من زعم أن البخاري روى عنه، وإنما روى عن أبي الوليد، ووهم أيضاً من جعلهما واحداً»[3].

ـ ويعرف بشيوخ البخاري فيقول: «قوله: (حدثنا أبو الربيع سليمان بن داود): هو الزهراني العَتَكي ـ بفتح المهملة والمثناة ـ البصري، نزيل بغداد، اتفق البخاري ومسلم على الراوية عنه، ومن جملة ما اتفقا عليه إخراج هذا الحديث[4] عنه. وفي طبقته اثنان كل منهما أيضاً

---

(١) أي ابن حجر في لسان الميزان.

(٢) الإعلان بالتوبيخ: ص ١١.

(٣) الفتح: ١/٢٥٥.

(٤) هو حديث الإفك الطويل.

أبو الربيع سليمان بن داود: أحدهما الخُتَّلي ـ بضم المعجمة وتشديد المثناة المفتوحة ـ بغدادي انفرد مسلم بالرواية عنه. والرِّشْديني ـ بكسر الراء وسكون المعجمة ـ مصري، لم يخرجا له، وروى عنه أبو داود والنسائي»(١).

ـ وفي موضع آخر يتكلم على سند البخاري: «حدثنا الفضل بن يعقوب، حدثنا عبد الله بن جعفر الرَّقيُّ حدثنا المعتمر بن سليمان، حدثنا سعيد بن عبيد الله الثقفي...» يقول الحافظ: «قوله (المُعْتَمِر بن سليمان): كذا في جميع النسخ بسكون العين المهملة وفتح المثناة وكسر الميم، وكذا وقع في «مستخرج الإسماعيلي» وغيره في هذا الحديث. وزعم الدمياطي أن الصواب: المُعَمَّر ـ بفتح المهملة وتشديد الميم المفتوحة بغير مثناة ـ قال: لأن عبد الله بن جعفر الرقي لا يروي عن المعتمر البصري. وتُعقّب بأن ذلك ليس بكافٍ في ردّ الروايات الصحيحة، وهب أن أحدهما لم يدخل بلد الآخر، أما يجوز أن يكونا التقيا مثلاً في الحج أو في الغزو؟ وما ذكره معارض بمثله؛ فإن المعمر بن سليمان رقيّ وسعيد بن عبيد الله بصري، فمهما استبعد في لقاء الرقيّ البصري جاء مثله في لقاء الرقي للبصري. وأيضاً فالذين جمعوا «رجال البخاري» لم يذكروا فيهم المعمر بن سليمان الرقي، وأطبقوا على ذكر المعتمر بن سليمان التيمي البصري. وأغرب الكرماني فحكى أنه قيل: الصواب في هذا معمر بن راشد، يعني شيخ عبد الرزاق. قلت: وهذا هو الخطأ بعينه؛ فليست لعبد الله بن جعفر الرقي عن معمر بن راشد رواية أصلاً. والله المستعان»(٢).

ـ وفي موضع آخر من «الفتح»: «حدثنا سليمان بن حرب قال: حدثنا حماد بن زيد، عن ثابت، عن أبي رافع، عن أبي هريرة: أن رجلاً

---

(١) الفتح: ٥/٢٧٢.

(٢) الفتح: ٦/٢٦٣.

أسودَ ــ أو امرأة سوداءَ ــ كان يَقُمُّ المسجد، فمات فسأل النبي ﷺ عنه، فقالوا: مات. . . ». قال الحافظ: «قوله (عن أبي رافع): هو الصائغ، تابعي كبير، ووهم بعض الشراح فقال: إنه أبو رافع الصحابي»[1].

ولسنا نريد بهذه الأمثلة أن ندلّل على علم الحافظ وطول باعه في هذا المجال؛ بل هي إشارات وإلماحات، فالشمس لا تبالي بمن يشير لوُجُودِها، وعظيمِ نفعها وَجُودِها.

●● والذي يقلب الفكر في «لسان الميزان» ــ الذي ذيّل به على «ميزان الاعتدال» للحافظ الناقد الذهبي ــ ويقف على عمل ابن حجر فيه، يجد تفوق هذا الإمام وبراعته، وأنه بحر علم خضمّ متلاطم الأمواج، كثير الجواهر المنظومة، غزير اللآلىء المنثورة، استدراكاته صائبة نادرة، وفوائده جليلة متكاثرة:

فهو بالإضافة إلى أنه يضيف تراجم كاملة برأسها، فله أيضاً زيادات أثناء الترجمة، يأتي بها بعد أن يسوق كلام الذهبي ويكتب (انتهى)، فكل ما بعد هذه الكلمة في الترجمة هو لابن حجر، وقد تكون الإضافة أضعاف ما جاء به الذهبي. ويتعقب الذهبيَّ في أحايين كثيرة، وتعقباته له أصناف وألوان:

فهي إما لمزيد بيان مَنْ وَثَّقَ المترجَم له، أو جرحه، مما فيه موافقة أو مخالفة لما ساقه الذهبي. أو التنصيص حرفياً على لفظ من ينقل عنه الذهبي، تحرياً للأمانة العلمية. أو ذِكر تتمة كلام من نقل عنه الذهبي، لمزيد الإيضاح. أو ردّ الكلام إلى قائله، وعزوه إلى صاحبه الأصلي، فيما لم يبينه الذهبي، كأن يقول الحافظ: «وهذه عبارة يحيى بن معين، وهذه الترجمة مأخوذة من كلام العقيلي، وهذا أخذه من كلام الجوزقاني في كتاب «الأباطيل»، وهذا اختصره المؤلف من كلام الخطيب، وهذا الكلام

(١) الفتح: ١/٥٥٣.

جميعه كلام ابن القطان في «بيان أوهام الأحكام» له». أو بيان لخبر أو حديث أشار إليه الذهبي، وذِكْر درجة إسناده. أو توضيح إشكال قد يلحق بالمترجَم له، خوف اختلاطه بغيره. أو تصويب لاسم المترجَم له. أو قال الذهبي: لا أعرفه، فساق الحافظ من ترجم له. أو بيان لإجحاف في الاختصار، صدر من الذهبي؛ مما يترتب عليه أهمية. أو التصحيف في أسماء الرجال أو تحريفها. أو غلط في معرفة الصحابة وأسمائهم. وتصحيح الأحاديث أو توهيتها. أو التنبيه على أسماء انقلبت ولم يتنبه لها الذهبي. ويعيب على الذهبي عدم عزو النص إلى صاحبه، في مواضع ليست قليلة. وينبه على تناقضاته ـ أحياناً ـ في أسماء الرجال، أو وهم وقع منه، أو سهو طرأ عليه، أو تكرار للترجمة الواحدة، أو زلل في النقل من المصادر، فيصوبه ابن حجر. وغير ذلك[١].

ومن الأمثلة على ذلك:

ـ «السري بن عبد الحميد: شيخ لبقيَّة، متروك الحديث، حديثه «ليس في صلاة الخوف سهو». انتهى[٢]. وهذا غلط، والصواب: عبد الحميد بن السري، فانقلب، وسيأتي على الصواب في عبد الحميد»[٣].

«عاصم أبو مالك العطار: شيخ لزيد بن الحباب، مجهول. انتهى. وذكره ابن حبان في الثقات، فقال: العطاردي، وقال: يروي عن الحسن.

---

(١) استنبطنا هذا كله من خلال استقرائنا لمنهج وعمل الحافظ في كتابه «لسان الميزان». رحم الله الذهبي وابن حجر ورضي عنهما، وجزاهما عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

(٢) هذه الكلمة أينما وردت في «اللسان» فلبيان انتهاء كلام الذهبي، وكل كلام بعدها هو من تعقيب ابن حجر.

(٣) لسان الميزان: ٣/١٣.

قلت: وهو الصواب، سقطت الدال والياء على الذهبي»[1].

«عبد الله بن عبدوس: عن محمد بن عبد الله الأنصاري، قال الدارقطني: ليس بالقوي. انتهى. وإنما هو عبد الله بن محمد بن حاضر، الملقب عبدوس، وقد كرره في عبد الله بن حاضر أيضاً على الخط، فحذفته»[2].

«يعقوب بن إبراهيم الجُرجاني: حافظ، قال السلمي: ذكر الدارقطني فقال: أقام بمكة مدة وبالرملة وبمصر، وكان من الحفاظ المصنفين والمخرجين الثقات، لكن فيه انحراف عن علي، اجتمع على بابه جماعة من أصحاب الحديث، فذكر ذبح الدجاجة. انتهى. هذا هو الجوزجاني شيخ النسائي، وهذا هو من الأوهام العجيبة، وهو غلط نشأ عن تصحيف وانقلاب، والصواب: إبراهيم بن يعقوب الجوزجاني لا الجرجاني، وهو شيخ النسائي المشهور، وهو الموصوف بهذه الصفات، وقصة الدجاجة مذكورة في ترجمته في التهذيب»[3].

ـ ومن ذلك: «سوار بن عمر: لا يدرى من هو، قال البخاري: لم يصحّ حديثه، وهو مرسل، ذكره ابن عدي. انتهى. وعلى المؤلف في هذه الترجمة مؤاخذات: الأولى: أنه صحابي، وإنما ذكره البخاري وتبعه ابن عدي على قاعدتهما، وقد شرط المؤلف أنه لا يتبعهما، ولا يخرج من كان صحابياً. الثانية: أنه ابن عَمْرٍو، بفتح أوله وسكون الميم، لا بضمها وفتح الميم. الثالثة: أن البخاري إنما ذكره في «سَوَاد» ـ بتخفيف الواو وبعد الألف دال ـ وتبعه ابن أبي حاتم، لكنه ذكره أيضاً فيمن اسمه سوار كالذي هنا، والحديث الذي ذكره في الترجمتين واحد. الرابعة: أن المؤلف

(١) المرجع السابق: ٣/٢٢١.
(٢) المرجع السابق: ٣/٣١٤.
(٣) المرجع السابق: ٦/٣٠١ ـ ٣٠٢.

فهم من قول البخاري: لا يصح حديثه وهو مرسل، أن الإرسال من قِبَلِهِ، وليس كذلك، بل الإرسال بين الراوي عنه وبينه! قال البخاري في حديث ابن سيرين عن سواد بن عمرو الأنصاري «قلت: يا رسول الله، إني رجل حُبِّبَ إليَّ الجَمال» الحديث؛ حديثه مرسل، يعني أن ابن سيرين أرسله عنه لأنه لم يدركه»[1].

ـ «عبد الوهاب عن ابن عمر، وعنه يحيى بن سعيد الأنصاري، لا يُدرى من هو. انتهى. وهذا ذكره ابن أبي حاتم وقال: سألت عنه أبا زرعة فقال: لا أعرفه. فكان عزوه إليه أولى. وهذا هو ابن بخت فيما أظن، وهو من رجال التهذيب»[2].

ـ «عمر بن الحكم الهذلي: شيخ بصري، قال أبو حاتم والبخاري: ذاهب الحديث. قلت: ومجهول. انتهى. وهذه الزيادة مما يتعجب منها، فإنها بقية كلام أبي حاتم، فكان حقه أن يقول: زاد أبو حاتم: ومجهول. وذكره الساجي وابن الجارود في الضعفاء»[3].

●● **ومن ردوده الشديدة على الذهبي في التوثيق:**

ـ «الحسين بن الفضل البجلي، الكوفي العلامة المفسر، أبو علي نزيل نيسابور. يروي عن يزيد بن هارون والكبار، ولم أرَ فيه كلاماً، لكن ساق الحاكم في ترجمته مناكير عدة، فالله أعلم. انتهى. وما كان لذكر هذا الرجل في هذا الكتاب معنى؛ فإنه من كبار أهل العلم والفضل، واسم جده عمير بن القاسم بن كيسان، كوفي الأصل. قال الحاكم: كان إمام عصره في معاني القرآن، لقد أنزله عبد الله بن طاهر في الدار التي ابتاعها له سنة (٢١٧هـ)، فبقي فيها يعلم الناس العلم خمساً وستين سنة! ومات وله مائة

---

(١) اللسان: ٣/١٢٧ ـ ١٢٨.
(٢) اللسان: ٤/٩٤.
(٣) اللسان: ٤/٣٠١.

وأربع سنين، وقبره مشهور يزار. ثم ذكر طائفة من مشايخه، ثم ذكر أن عبد الله بن طاهر لما ولّاه المأمون خراسان، سأله في استصحاب ثلاثة من العلماء فسمّاه منهم . . . ثم ذكر شيئاً من أفراده وغرائب حديثه، فساق له خمسة عشر حديثاً ليس فيها حديث مما يُنكر بكون سنده ضعيفاً حتى يلزق الوهم بالحسين، بل لا بد فيه من راوٍ ضعيف غيره. فلو كان كل من روى شيئاً منكراً استحق أن يُذكر في الضعفاء؛ لما سلم من المحدثين أحد لا سيما المكثر منهم. فكان الأوْلى ألا يذكر هذا الرجل لجلالته. والله أعلم»[1].

ـ «عائذ بن أيوب: عن إسماعيل بن أبي خالد، لا يصح حديثه، قاله العقيلي، وساق له حديثاً باطلاً. انتهى. وإنما قال العقيلي: لا يصح سنده، ثم ساق له من طريق عبد الله بن عبد العزيز بن أبي رواد عن عائذ بن أيوب رجل من أهل طوس عن إسماعيل، عن الشعبي، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ رفعه: (طلب العلم فريضة على كل مسلم). ثم ساقه من طريق سفيان بن عيينة، عن أيوب بن عائذ، عن الشعبي، قال: ما رأيت أحداً كان أطلب للعلم من مسروق. قال العقيلي: هذا هو الحديث، وعبد الله بن عبد العزيز أخطأ في السند والمتن، وقلب اسم الراوي. قلت: فظهر أن لا ذنب لعائذ بن أيوب، بل لا وجود له!! وأيوب بن عائذ من رجال التهذيب»[2].

ـ «مسلمة بن القاسم القرطبي: كان في أيام المستنصر الأموي، ضعيف، وقيل: كان من المشبِّهة. روى عن أبي جعفر الطحاوي وأحمد بن خالد بن الحباب. انتهى. قلت: هذا رجل كبير القدر، ما نسبه

---

(١) اللسان: ٢/٣٠٧ ـ ٣٠٨، وقد اختصرتُ شيئاً من الترجمة.

(٢) اللسان: ٣/٢٢٥ ـ ٢٢٦.

إلى التشبيه إلاَّ من عاداه، وله تصانيف في الفن، وكانت له رحلة لقي فيها الأكابر»[1].

وصدق شمس الدين النواجي إذ يقول في ابن حجر[2]:

وَعُنِيتَ بالذهبيّ في «ميزانه» ... بالنّقد فيما بَهْرَجُوهُ وزيَّفُوا
حرّكتَ فيه له «لساناً» مرهَفاً ... كالسيفِ يرهبُهُ الحسامُ المرهَفُ
لا غَرْوَ أن يقضي بقطعِ نزاعهمْ ... فاللّفظ عضبٌ واليَراعُ مثقّفُ

●● ومنهج الحافظ في النقد شيّد على العدل، وأسّس على الإنصاف، وزيِّن بالغيرة على الأكابر والثقات؛ لذا فهو شديد الوطأة على من أساء القول فيهم:

وقد عنَّف على الذهبي في غيرما موضع لأنه غمز بعض الثقات لروايتهم خبراً باطلاً، الكذب فيه من غيرهم، فمن ذلك:

ــ «عثمان بن أحمد بن السماك أبو عمرو الدقاق: صدوق في نفسه، لكن روايته لتلك البلايا عن الطيور كوصيته أبي هريرة، فالآفة من بعده، أما هو فوثَّقه الدارقطني. قال ابن السماك: وجدت في كتاب أحمد بن محمد الصوفي، حدثنا إبراهيم بن حسين، عن أبيه، عن جده، عن علي رضي الله عنه مرفوعاً ــ من أسمج الكذب متنه ــ: من أدرك منكم زماناً يطلب فيه الحاكة العلم، فالهرب الهرب. قيل: أليسوا من إخواننا؟ قال: هم الذين بالوا في الكعبة، وسرقوا غزل مريم، وعمامة يحيى، وسمكة عائشة من التنور. وهذا الإسناد ظلمات، وينبغي أن يُغمز ابن السماك بروايته لهذه الفضائح[3]. ولو فتح المؤلف على نفسه ذكر من روى خبراً كذباً آفته من غيره؛ ما سَلِمَ معه سوى القليل من المتقدمين فضلاً عن

---

(١) اللسان: ٣/٣٥ ــ ٣٦. وترجمته مطولة، اكتفيت منها بما أشرت إليه.
(٢) الجواهر والدرر: ص ٤٣٩.
(٣) إلى هنا ينتهي كلام الذهبي كما في ميزان الاعتدال: ٣/٣١.

المتأخرين. وإني لكثير التألم من ذكره لهذا الرجل الثقة في هذا الكتاب بغير مستند ولا سلف، وقد عظَّمه الدارقطني، ووصفه بكثرة الكتابة والجد في الطلب، وأطراه جداً. وقال الحاكم في المستدرك: حدثنا أبو عمرو بن السماك الزاهد حقاً. قلت: وهو مع ذلك عَليُّ الإسناد، قد لحق بعض شيوخ البخاري، ومات بعد البخاري بنحو من مائة سنة»(1).

ـ «محمد بن أحمد بن عبد الباقي بن منصور: قال ابن ناصر: لم يكن ضابطاً. انتهى. وهذا الرجل هو ابن الخاضبة، والعجب من الذهبي كيف أقرَّ لابن ناصر على هذا؛ فابن الخاضبة من كبار الحفاظ، وترجمته مبسوطة في طبقاتهم؟! قال أبو سعد ابن السمعاني: كان حافظاً فهماً، تفقه زماناً، وكان حافظ بغداد، والمشار إليه في القراءة الصحيحة والنقل المستقيم، وكان مع ذلك صالحاً ورعاً، ديِّناً خيِّراً»(2).

ـ «محمد بن جرير بن يزيد الطبري، الإمام الجليل المفسر، أبو جعفر، صاحب التصانيف الباهرة، مات سنة (٣١٠هـ)، ثقة صادق، فيه تشيع يسير، وموالاة لا تضر. أقذع أحمد بن علي السليماني الحافظ فقال: كان يضع للروافض! كذا قال السُّليماني، وهذا رجم بالظن الكاذب، بل ابن جرير من كبار أئمة الإسلام المعتمدين، وما ندعي عصمته من الخطأ، ولا يحل لنا أن نؤذيه بالباطل والهوى، فإن كلام العلماء بعضهم في بعض ينبغي أن يُتَأَنَّى فيه، ولا سيما في مثل إمام كبير. فلعل السليماني أراد الآتي(3). انتهى. ولو حلفت أن السليماني ما أراد إلَّا الآتي لبررت،

---

(1) اللسان: ٤/١٣١ ـ ١٣٢، باختصار.

(2) اللسان: ٥/٥٧، وترجمته قرابة الصفحة، اجتزأت منها بما يدل على الغرض.

(3) المراد بالآتي الترجمة التالية، وهو «محمد بن جرير بن رستم، أبو جعفر الطبري»، وقد اشترك مع الطبري الإمام الشهير في اسمه واسم أبيه ونسبه وكنيته ومعاصرته وكثرة تصانيفه. وهو رافضي له تواليف، رماه بالرفض عبد العزيز الكتاني. انظر اللسان: ٥/١٠٣.

والسليماني حافظ متقن كان يدري ما يخرج من رأسه، فلا أعتقد أنه يطعن في مثل هذا الإمام بهذا الباطل. والله أعلم»[1].

● وبمثل هذه الشدة رد الحافظ على القاضي عياض عند شرح حديث البخاري «حدثنا مسدَّد قال: حدثنا يحيى عن سيف ــ يعني ابنَ سُليمان ــ قال: سمعت مجاهداً قال: أُتي ابن عمر فقيل له: هذا رسول الله ﷺ دخل الكعبة، فقال ابن عمر: فأقبلت والنبي ﷺ قد خرج، وأجد بلالاً قائماً بين البابين، فسألت بلالاً فقلت: أصلَّى النبي ﷺ في الكعبة؟ قال: نعم، بين الساريتين اللتين على يساره إذا دخلتَ، ثم خرج فصلى في وجه الكعبة ركعتين».

قال الحافظ: «. . . وأما ما نقله عياض أن قوله: «ركعتين» غلط من يحيى بن سعيد القطان، لأن ابن عمر قد قال: «نسيت أن أسأله كم صلى»، قال: وإنما دخل الوهم عليه من ذكر الركعتين بعد! فهو كلام مردود، والمغلِّط هو الغالط، فإنه ذكر الركعتين قبل وبعد، فلم يَهِمْ من موضع إلى موضع، ولم ينفرد يحيى بن سعيد بذلك حتى يغلط، فقد تابعه أبو نعيم عند البخاري والنسائي، وأبو عاصم عند ابن خزيمة، وعمر بن علي عند الإسماعيلي، وعبد الله بن نمير عند أحمد، كلهم عن سيف، ولم ينفرد به سيف أيضاً؛ فقد تابعه عليه خصيف عن مجاهد عند أحمد، ولم ينفرد به مجاهد عن ابن عمر، فقد تابعه عليه ابن أبي مُليكة عند أحمد والنسائي، وعمرو بن دينار عند أحمد أيضاً باختصار. ومن حديث عثمان بن أبي طلحة عند أحمد والطبراني بإسنادٍ قوي، ومن حديث أبي هريرة عند البزار، ومن حديث عبد الرحمن بن صفوان قال: «فلما خرج سألت من كان معه، فقالوا: صلى ركعتين عند السارية الوسطى»، أخرجه الطبراني بإسنادٍ صحيح. ومن حديث شيبة بن عثمان قال: «لقد صلى ركعتين عند العمودين» أخرجه الطبراني بإسنادٍ جيد. **فالعجب من الإقدام على تغليط**

---

(١) اللسان: ٥/١٠٠ ــ ١٠٣.

جبل من جبال الحفظ بقول من خفي عليه وجه الجمع بين الحديثين، فقال بغير علم، ولو سكت لسلم، والله الموفق»[1].

ـ ومن ذلك أيضاً أنه وقف على حواشٍ كتبها ابن رجب الحنبلي على نسخة من «القراءة خلف الإمام» للبخاري، ووصفه له بالميل ونوعٍ هوى وغلبة التعصب، وأن علي بن المديني ليس بفقيه، ولو لزم البخاريُّ أحمدَ وتفقه به كان خيراً له من لزوم علي بن المديني وتخبيطه!

فكتب الحافظ ما نصه: «الحواشي التي فيه[2] بخط الشيخ زين الدين ابن رجب الحنبلي البغدادي، نزيل دمشق. ولقد أظهر فيها من التعصب والتهوُّر ما كان ينبغي له أن يتنزه عنه، ولكن من يبلغ به الغضب إلى أن يقول في علي بن المديني ليس بفقيه؛ يسقط معه الكلام، والسلام!! كأنه ما طرق سمعَه قولُ البخاري إنه ما رأى أعلم من علي بن المديني، وقد رأى أحمد وتلك الطبقة، وطبقة قبلهم بقليل»[3].

●● وأما طول باعه في تخريج الحديث، وطرقه وشواهده، وسعة اطلاعه على الروايات التي جاء بها الحديث، والأئمة الذين رووه، والكتب التي خرَّجته؛ فهو شيء يدعو للإعجاب، ويبعث على التأمل:

فابن حجر ـ كما وصفه العلامة أبو بكر بن حجة الحموي ـ: «إذا غامر في أمر يروم، لم يقنع بما دون النجوم»[4].

ومن الأدلة على ذلك أنه ألَّف عشرات الأجزاء الحديثية، كل جزء

---

(١) الفتح: ١/٥٠٠ ـ ٥٠١.

(٢) أي في كتاب «القراءة خلف الإمام».

(٣) الجواهر والدرر: ص ٣٠٧. وابن رجب هو: عبد الرحمن بن أحمد بن رجب، السَّلامي البغدادي ثم الدمشقي، أبو الفرج زين الدين، حافظ للحديث، من كبار العلماء. حياته (٧٣٦ ـ ٧٩٥هـ).

(٤) الجواهر والدرر: ص ٣٦٣.

منها في طرق حديث واحد، مثل: طرق حديث «الأعمال بالنيات»، و «صلاة التسابيح»، و «القضاة ثلاثة»، و «ماء زمزم لما شرب له»، و «من كذب عليَّ متعمداً»، وغير ذلك كثير[1].

فمثلاً طرق حديث «لا تسبوا أصحابي»: صنف فيه جزءاً تتبع فيه طرق هذا الحديث ومخارجه في كتب كثيرة جداً؛ عند ابن أبي شيبة في مسنده ومصنفه، وأبي نعيم في مستخرجه على مسلم، وابن ماجه، وابن حبان في صحيحه، وطِرَاد في «فضائل الصحابة»، وابن أبي خثيمة في تاريخه، وابن عساكر في تاريخه، ووكيع في «فضائل الصحابة» وفي نسخته، وأحمد في مسنده، والبزار في مسنده، وخيثمة في «فضائل الصحابة»، والهيثم بن كُلَيْب الشاشي في مسنده، وأبي عوانة في صحيحه، والجَوْزَقي في المتفِق، وتمام في فوائده، والبيهقي في السنن الكبير، وابن منجويه في الجزء التاسع من «فوائد المُزَكِّي»، والحافظ أبي محمد بن الأخضر في «فوائد شهدة الكاتبة»، وفي جزء البغوي، وأبي عبيد في غريب الحديث، وفي فوائد أبي محمد الأبنوسي، وفي أمالي محمد الوارق، وفي البشرانيات، والإسماعيلي في صحيحه، والطيالسي في مسنده، والكجي في السنن، والحسن بن سفيان في مسنده، وفي أمالي المحاملي، وابن مردويه في التفسير، وعبد بن حميد في مسنده، وفي فوائد الحداد، والبرقاني في المصافحة، ومسدَّد في مسنده، وفي فوائد الزبيبي، والطبراني في الأوسط، وابن المديني في العلل، والدارقطني في الأفراد، وغيرهم. وطرقه عند هؤلاء مبسوطة في الجزء الذي أفرده[2].

ـ وعند وصله للأحاديث المعلقة تجلت عبقريته الفذة، واطلاعه النادر، وحسن استحضاره، ومن ذلك مثلاً: «قال عبيد الله بن عمر، عن

---

(١) انظر: «فصل مصنفات ابن حجر ـ مصنفاته في الحديث وعلومه».

(٢) جزء في طرق حديث «لا تسبوا أصحابي» ص ٣٣ ـ ٨٠.

ثابت، عن أنس رضي الله عنه: «كان رجل من الأنصار يؤمهم في مسجد قباء، وكان كلما افتتح سورة يقرأ بها لهم في الصلاة مما يقرأ به، افتتح بـ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ حتى يفرغ منها، ثم يقرأ سورة أخرى معها. . . » الحديث بتمامه. فقد تتبع ابن حجر هذا الحديث وساقه موصولاً عند: الترمذي في «جامعه»، والبزار في «مسنده»، وابن حبان في «صحيحه»، والطبراني في «الأوسط»، وأبي نعيم في «مستخرجه»، والجوزقي في «مستخرجه»، وابن خزيمة في «صحيحه»، والحاكم في «المستدرك»، والبيهقي في «السنن الكبرى»[1].

● ومن أمثلة اطلاعه على كثرة المرويات في الموضوع الواحد، ما جاء في «فتح الباري» في «باب رفع الأيدي في الدعاء»، حيث ذكر الأحاديث الواردة في رفع الأيدي في الدعاء مطلقاً، رداً على من حصر رفع اليدين في الاستسقاء حسب، وقال بأن «فيه أحاديث كثيرة أفردها المنذري في جزء، سرد منها النووي في «الأذكار» وفي «شرح المهذب» جملة، وعقد لها البخاري أيضاً في «الأدب المفرد» باباً ذكر فيه حديث أبي هريرة: «قدم الطفيل بن عمرو على النبي ﷺ فقال: إن دوساً عصت، فادعُ الله عليها، فاستقبل القبلة، ورفع يديه فقال: اللهم اهدِ دوساً»، وهو في الصحيحين دون قوله: «ورفع يديه». وحديث جابر «أن الطفيل بن عمرو هاجر»، فذكر قصة الرجل الذي هاجر معه، وفيه: «فقال النبي ﷺ: اللهم وليديه فاغفر، ورفع يديه» وسنده صحيح، وأخرجه مسلم. وحديث عائشة أنها: «رأت النبي ﷺ يدعو رافعاً يديه يقول: اللهم إنما أنا بشر. . . » الحديث، وهو صحيح الإسناد. ومن الأحاديث الصحيحة في ذلك ما أخرجه المصنف[2] في «جزء رفع اليدين»: رأيت النبي ﷺ رافعاً يديه يدعو لعثمان». ولمسلم من حديث عبد الرحمن بن سمرة في قصة الكسوف: «فانتهيت إلى

---

(١) تغليق التعليق: ٢/٣١٤ ـ ٣١٧.

(٢) أي البخاري.

النبـي ﷺ وهـو رافع يـديه يـدعو». وعنـده في حديث عـائشة في الكسـوف أيضاً: «ثم رفع يـديه يـدعو». وفي حـديثها عنـده في دعائـه لأهل البقيـع: «فرفع يديه ثلاث مرات. . .» الحديث. ومن حديث أبـي هريرة الطويل في فتـح مكـة: «فـرفــع يـديـه وجعـل يـدعــو». وفي الصحيحين من حـديث أبـي حميد في قصة ابن اللُّتْبِيَّة: «ثم رفع يديه حتى رأيت عفرة إبطيه يقول: اللهم هل بلَّغت». ومن حديث عبد الله بن عمرو: «أن النبـي ﷺ ذكـر قول إبراهيم وعيسى، فرفع يديـه وقال: اللهم أمتي». وفي حـديث عمر: «كـان رسـول الله ﷺ إذا نـزل عليـه الـوحي يُسمـع عنـد وجهـه كـدوي النحـل، فأنزل الله عليه يوماً، ثم سرِّي عنه، فاستقبل القبلة، ورفع يـديه ودعـا. . .» الحـديث، أخرجـه الترمـذي واللفظ له، والنسـائي والحاكم. وفي حـديث أسامة: «كـنـت ردف النبـي ﷺ بعرفات، فرفع يديه يدعو، فمالت به ناقته فسقط خطامها، فتناوله بيده وهو رافع اليد الأخرى». أخرجـه النسائي بسنـد جيد. وفي حديث قيس بن سـعـد عنـد أبـي داود: «ثم رفـع رسول الله ﷺ يـديه وهـو يقول: اللهم صلواتـك ورحمتـك على آل سعـد بن عبـادة. . .» الحديث، وسنده جيد. والأحاديث في ذلك كثيرة»[1].

●● ومن أبـرز صفـات «ابن حجـر المحـدث» نقـده لـلأحــاديث، وحكمـه عليها صحـة أو ضعفاً أو وضعـاً، وقد تـلألأت هذه الصفـة في كل مصنفـاتـه، وخـاصـة «الفتـح»، ولم يستسلم لكـل رأي أتـاه إذا وجـد فيـه ما يستدعي النقد:

من ذلك قوله: «تنبيه: أخرج الترمذي والحاكم وأبو الشيخ من حديث ابن عبـاس رفعه: (إذا زلـزلت تعدل نصف القـرآن، والكافـرون تعدل ربـع القـرآن). وأخرج التـرمـذي أيضـاً وابن أبـي شيبـة وأبـو الشيـخ من طـريق سلمة بن وردان عن أنس «أن الكافرون والنصر تعدل كل منها ربع القـرآن.

---

(١) فتح الباري: ١١/١٤٢.

وإذا زلزلت تعدل ربع القرآن». زاد ابن أبي شيبة وأبو الشيخ: «وآية الكرسي تعدل ربع القرآن». وهو حديث ضعيف لضعف سلمة، وإن حسَّنه الترمذي! فلعله تساهل فيه لكونه من فضائل الأعمال. وكذا صحَّح الحاكم حديث ابن عباس، وفي سنده يمان بن المغيرة، وهو ضعيف عندهم»(١).

ـ وفي موضع آخر يقول: «أخرج أبو عبيد في «فضائل القرآن» من طريق عبيد الله بن عبد الرحمن عن بعض أصحاب النبي ﷺ رفعه قال: «فضل قراءة القرآن نظراً على من يقرؤه ظَهراً كفضل الفريضة على النافلة». وإسناده ضعيف. ومن طريق ابن مسعود موقوفاً: «أديموا النظر في المصحف» وإسناده صحيح»(٢).

●● وقد حكم الحافظ ـ في مواضع مختلفة ـ على كثير من الأحاديث بالوضع أو البطلان، أو بأنها لا أصل لها، واشتد على الوضّاعين في أحايين كثيرة؛ غضَباً للسنة وطهرها ونقائها، وغيظاً على الكذابين المجترئين على الله ورسوله وسنته:

فمن ذلك:

ـ «من قال حين يسمع المنادي: مرحباً بالقائلين عدلاً، مرحباً بالصلاة وأهلاً؛ كتب الله له ألفي ألف حسنة، ومحا عنه ألفي ألف سيئة، ورفع له ألفي ألف درجة». قال الحافظ: المتن باطل(٣).

ـ «من حمل طعاماً بيده إلى أهله وعياله؛ غفر الله له ذنب سبعين سنة». قال الحافظ: حديث باطل(٤).

---

(١) الفتح: ٩/٦١ ـ ٦٢.
(٢) الفتح: ٩/٧٨.
(٣) لسان الميزان: ٦/١٩٩ ـ ٢٠٠.
(٤) تحذير المسلمين من الأحاديث الموضوعة على سيد المرسلين: ص ٨٤.

ـ «من لم يداوم على أربع قبل الظهر لم تَنَلْهُ شفاعتي». قال: لا أصل له[١].

ـ «اتَّخِذوا عند الفقراء أيادي، فإن لهم دولةً يوم القيامة». قال: لا أصل له[٢].

ـ «إن الله نقل لذة طعام الأغنياء إلى طعام الفقراء». قال: موضوع[٣].

ـ «تَخَتَّمُوا بالزبرجد فإنه يُسْرٌ لا عُسْرَ فيه». قال: موضوع[٤].

ـ «الجِيزَة روضة من رياض الجنة، ومصر خزائنُ الله في أرضه». قال: كذب موضوع[٥].

ـ «الصلاة خلف العالم بأربعة آلاف وأربعة وأربعين». قال: باطل[٦].

ـ «مَنْ أكل مع مغفورٍ له، غُفِر له». قال: هو كذب موضوع[٧].

ـ «مَن رُبِّيَ صغيراً حتى يقول: لا إلّه إلاَّ الله، لم يحاسبْه اللَّهُ». قال: باطل[٨].

ـ «الويلُ كل الويل لمن ترك عياله بخير وقَدِمَ على ربه بِشَرٍّ». قال: موضوع[٩].

---

(١) المرجع السابق: ص ٨٦.
(٢) المرجع السابق: ص ١٢٢.
(٣) المرجع السابق: ص ١٢٤.
(٤) المرجع السابق: ص ١٣٠.
(٥) المرجع السابق: ص ١٣٣.
(٦) المرجع السابق: ص ١٤١.
(٧) المرجع السابق: ص ١٥٣؛ والمقاصد الحسنة: ص ٦٢٨.
(٨) المرجع السابق: ص ١٥٩.
(٩) المرجع السابق: ص ١٦٤.

ومن هذا القبيل ما جاء في كتابه «تبيين العجب بما ورد في فضل رجب»، حيث يقول: «وأما الأحاديث الواردة في فضل رجب، أو فضل صيامه، أو صيام شيء منه، صريحة؛ فهي على قسمين: ضعيفة وموضوعة»[1].

ويقول في موضع آخر من الكتاب المذكور: «وورد في فضل رجب من الأحاديث الباطلة أحاديث لا بأس بالتنبيه عليها، لئلا يغترَّ بها، فمنها[2]:

– حديث: «رجب شهر الله، وشعبان شهري، ورمضان شهر أمتي». رواه أبو بكر النقاش المفسر، أنبأنا أحمد بن العباس الطبراني، أنبأنا الكسائي، أنبأنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة، عن أبي سعيد الخدري. وهو سند مركب، ولا يُعرف لعلقمة سماع من أبي سعيد، والكسائي المذكور في السند لا يُدرى من هو، وليس هو علي بن حمزة المقدسي؛ فإنه أقدم من هذه الطبقة بكثير. والعهدة في هذا الإسناد على النقاش»[3].

– ومنها: «رجب شهر الله الأصم، من صام من رجب يوماً إيماناً واحتساباً؛ استوجب رضوان الله الأكبر». وهو متن لا أصل له، اختلقه أبو البركات السقطي، وركَّب له إسناداً، فزعم أن جابر بن يّسن أخبره»[4].

– ومنها حديث: «من فرَّج عن مؤمن كربة في رجب، أعطاه الله تعالى في الفردوس قصراً مدَّ بصره. أكرموا رجباً يكرمكم الله بألف كرامة». وهو متن لا أصل له، بل اختلقه أبو البركات هبة الله بن المبارك السقطي، لا بارك الله فيه، ووضع له إسناداً رجاله ثقات»[5].

---

(١) تبيين العجب: ص ١٤.
(٢) تبيين العجب: ص ٢٠.
(٣) تبيين العجب: ص ٢٠ ــ ٢١.
(٤) المرجع السابق: ص ٢٦.
(٥) المرجع السابق: ص ٢٧ ــ ٢٨.

ـ ومن روائع شدته على الوضاعين قوله ـ بعد أن ساق حديثاً طويلاً في صفحتين في فضل صوم رجب والعمل فيه ـ: «. . . وهذا حديث موضوع ظاهر الوضع، قبّح الله من وضعه، فوالله لقد قَفَّ شعري من قراءته في حال كتابته، فقبَّح الله من وضعه ما أجرأه على الله وعلى رسوله!! والمتهم به عندي: داود بن المحبَّر أو العلاء بن خالد، كلاهما قد كُذِّب. ومكحول لم يدرك أبا الدرداء، ولا والله ما حدث به مكحول قط»[1].

●● ومع كل هذا العلم المحيط المتنوع الزاخر، والاطلاع الواسع الباهر، والاستدراك القيِّم النادر؛ فقد كان الإمام جمَّ التواضع في علمه، سهل التراجع عن خطئه، إذا تبدى له أنه جانبه الصواب في رأي أو اجتهاد سبق وقاله، فينبه عليه بجهارة دونما مواربة؛ وهذا من تمام ورعه وتدينه، ودقة فهمه لقيمة العلم وأخلاق العلماء، وهكذا فليكن العالم، بل كل مسلم.

ـ ومن أمثلة ذلك ما جاء في شرحه لما أورده البخاري في «باب ما جاء في العلم»: «واحتجَّ بعضهم في القراءة على العالم بحديث ضِمام بن ثعلبة، قال للنبي ﷺ: (آللَّهُ أمرَكَ أن تُصلِّي الصلواتِ؟ قال: نعم)». يقول الحافظ:

«قوله (واحتجّ بعضهم): المحتج بذلك هو الحميدي شيخ البخاري، قاله في كتاب «النوادر» له، كذا قال بعضُ من أدركته، وتبعتُه في «المقدمة»، ثم ظهر لي خلافه وأن قائل ذلك أبو سعيد الحداد، أخرجه البيهقي في «المعرفة» من طريق ابن خزيمة قال: سمعت محمد بن إسماعيل البخاري يقول: قال أبو سعيد الحداد: عندي خبر عن النبي ﷺ في القراءة على العالم، فقيل له؟ فقال: قصة ضمام بن ثعلبة قال: آلله

(١) المرجع السابق ص ٤٥ ـ ٤٧. ومكحول هو الشامي: ثقة فقيه مشهور. وقد ادعى مختلقو هذا الحديث أنه رواه عن أبي الدرداء.

أمرك بهذا؟ قال: (نعم). انتهى»[1].

ـ وفي موضع آخر يقول: «وقد كنت أمليت في أوائل «كتاب الوضوء» أن قصة الإفك وقعت قبل نزول الحجاب؛ وهو سهو، والصواب بعد نزول الحجاب، فليصلح هناك»[2].

ـ وعند شرح حديث أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ قال: «خرجنا مع النبي ﷺ في بعض أسفاره في يوم حارٍّ، حتى يضع الرجل يده على رأسه من شدة الحرّ، وما فينا صائم إلاَّ ما كان من النبي ﷺ وابنِ رواحة».

يقول ابن حجر: «وقد كنت ظننت أن هذه السفرة غزوة الفتح، لما رأيت في «الموطأ» من طريق أبي بكر بن عبد الرحمن عن رجل من الصحابة قال: «رأيت رسول الله ﷺ بالعَرْجِ[3] في الحرِّ، وهو يصب على رأسه الماء ـ وهو صائم ـ من العطش ومن الحرِّ، فلما بلغَ الكَدِيد[4] أفطر»؛ فإنه يدل على أن غزاة الفتح كانت في أيام شدَّة الحر، وقد اتفقت الروايتان على أن كلاًّ من السفرتين كان في رمضان؛ لكنني رجعت عن ذلك، وعرفت أنه ليس بصواب، لأن عبد الله بن رواحة استشهد بمؤتة قبل غزوة الفتح بلا خلاف، وإن كانتا جميعاً في سنة واحدة وقد استثناه أبو الدرداء في هذه السفرة مع النبي ﷺ، فصحَّ أنها كانت سفرة أخرى. وأيضاً فإن في سياق أحاديث غزوة الفتح أن الذين استمروا في الصحابة صياماً كانوا جماعة، وفي هذا أنه عبد الله بن رواحة وحده»[5].

---

(١) الفتح: ١/١٤٨ ـ ١٤٩.

(٢) الفتح: ٨/٤٦٣. والموضع الذي أشار إلى وقوع السهو منه فيه هو في الفتح: ١/٢٤٩.

(٣) قرية جامعة على طريق مكة من المدينة.

(٤) موضع بين مكة والمدينة، على اثنين وأربعين ميلاً من مكة.

(٥) الفتح: ٤/١٨٢.

●● فلا عجب بعد هذا كله ـ وما ذكرناه غيض من فيض، وقطرة من بحر ـ أن يثني عليه العلماء ويمتدحه الأكابر، ويعترف القاصي والداني، والمخالف والموافق؛ بأنه أستاذ علوم الحديث وفنونه كلها بلا مدافع.

ولو تقدم الزمان بابن حجر لكان واحداً من أصحاب الكتب المشهورة التي حفظت أحاديث السنة المطهرة، ولزاحم بمنكبيه أساطين الرواية والدراية في القرون المتقدمة المباركة، ولكن شاءت حكمة الله تعالى أن يأتي بأخرة من الزمان، ليجدد للأمة عصر الحديث الزاهر أيام الشيخين وأبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجه وأحمد والطيالسي وابن راهويه والدارقطني والبيهقي وغيرهم.

وصدق الحافظ رضوان بن محمد العقبي ـ مُسْتَمْلي ابن حجر ـ إذ يقول في الإمام[1]:

هذا أمير المؤمنين بسنَّةٍ	هذا مَليكُ أولي العلوم بقُصْرِهِ
هو أحمد الورع، الفقيه الشافعي	نعمانُ وقت، وهو مالك عصرهِ
هذا بخاريُّ الزمان ومسلمٌ	كل الأئمة وافقوا في شكرهِ

لقد سطعت شمس ابن حجر في عصره، فحجب بضيائه كل نجوم الحديث التي توهَّجت آنذاك، وهو لا يزال نجماً لامعاً، وكوكباً درياً متوقداً، يستضيء به كل من عمل في مهيع الحديث الزخّار. وما فتىء علماء الحديث وطلابه، من بعد ابن حجر وحتى عصرنا؛ ينهلون من فيض علمه وجواهره المكنونة، ولا تزال مصنفاته عمدة علم الحديث بشتى علومه في جامعات العالم الإسلامي ومعاهده ومدارسه، ولا يزال ذكره غضاً طرياً على ألسنة هؤلاء جميعاً.

وقد كثر الثناء عليه حتى وصفوه بأنه «أمير المؤمنين في الحديث»،

---

(١) الجواهر والدرر: ص ٣٨٢.

وأنه «البيهقي الثاني»، وأنه «بخاري زمانه». حتى إن العلامة المفوَّه عز الدين عبد السلام المقدسي ـ شيخ «الصلاحية» ـ قال فيه: «إن لم يكن مثل البخاري فلا يقصر عنه»[1]!!

وقال فيه محدث الحجاز ومفيد الدنيا نجم الدين عمر بن فهد: «الإمام العلامة، علم الأعلام، عمدة المحققين، حافظ السنة، بركة هذه الأمة، خاتمة الحفاظ، ناقد الأسانيد والألفاظ، عين الأعيان، مفخر الزمان، من لم تر العيون كنظيره، قاضي القضاة شهاب الدين. فريد عصره، ونَسِيجُ وَحْدِهِ، وإمام وقته. انتهى إليه علم الأثر، ومعرفة العلل، وأسماء الرجال، وأحوال الرواة، والجرح والتعديل، والناسخ والمنسوخ، والمشكلات؛ تُشَدُّ إليه الرحال في معرفة ذلك». ثم أردف قائلاً: «وقد سارت بفضائله الركبان، ورُحل إليه من أقطار البلدان. ومحاسنه كثيرة، وهو أكبر من أن ينبِّه على سيرته مثلي، فلو حللت بين الركن والمقام، وحلفت أني ما رأيتُ بعيني مثلَه، ولم ترَ عينُ مَن رآه مثلَه، ولا رأتْ عينُه مثلَ نفسه؛ لَبَرْرت»[2].

وقال الحافظ العلامة تاج الدين ابن الغرابيلي: «**أقسم بالله أنه ما دخل دمشق بعد ابن عساكر أحفظ منه»، وكان يرجِّحه على المِزّي والبِرْزالي والذهبي، ويقول: «إنه اجتمع فيه ما تفرق فيهم، من حسن التأليف، وحفظ المتون والأسانيد، وزاد عليهم قوة الاستنباط، والجمع بين مختلف الأدلة»**[3].

لذا قال الشوكاني:

ثم تصدى لنشر الحديث، وقصر نفسه عليه مطالعةً وإقراءً، وتصنيفاً وإفتاءً، وتفرد بذلك. وشهد له بالحفظ والإتقان القريبُ والبعيد، والعدو

(١) الجواهر والدرر: ص ٢٤٢.
(٢) الجواهر والدرر: ص ٢٦٠.
(٣) المرجع السابق: ص ٢٣٢.

والصديق، حتى صار إطلاق لفظ «الحافظ» عليه كلمة إجماع»[1].

ولأختم هذا الفصل بهذه الأبيات من الشعر، مما قيل في إمامنا رحمه الله:

قال الشيخ محب الدين البكري[2]:

أبا الفضل يا قاضِي القضاة وحَبْرهم ... ترى السنَّة الغراء من حفظه تُرْوَى
أماليه تأتي عسْجداً وجواهراً ... عَلَتْ وَغَلَتْ، خُذها بإسناده الأقوى

وقال شمس الدين الدجوي[3]:

ومهَّد في الحديثِ مصنفاتٍ ... شريفات فنعم الماهِدونَا
علا سَنَداً ترى الأشياخَ فيه ... إلى عليائهِ يترجَّلونَا
وما في العسقلاني من كلام ... كفاهُ اللَّهُ شرَّ الحاسدينَا
سوى حفظ سَرى شرقاً وغرباً ... وأعلى ذكرَه في الحافظينَا
نشدت له القوافيَ بادَرَتْني ... بوافرها وفيما يُنشدونَا
تُرى كالشافعي يكون علماً ... وأحمدَ في الرواية أن يكونَا



---

(١) البدر الطالع: ١/٨٨. ومعنى قوله: «حتى صار إطلاق لفظ «الحافظ» عليه كلمة إجماع»: أن العلماء إذا قالوا «قال الحافظ»، أو وردت هذه العبارة هكذا مطلقة في مصنَّفٍ ما؛ فالمراد ابن حجر لا غير. وإذا أرادوا غيره من حفاظ الحديث بيَّنوه، فقالوا مثلاً: الحافظ الذهبي، الحافظ الزيلعي، الحافظ العراقي، الحافظ العلائي، الحافظ المزي، الحافظ ابن كثير، وهكذا.

(٢) الجواهر والدرر: ص ٤٧٩؛ الفتح: ١٣/٥٥٧

(٣) الجواهر والدرر: ص ٤٢١ ـ ٤٢٢؛ الفتح: ١٣/٥٥٥.

الفَصل السَابع
الأعمَال الّتي قام بها والمناصِب التي تبوّأها

قام الحافظ ابن حجر بأعمال جليلة، وولّي مناصب متعددة، وشغل وظائف سنيَّة، كالتدريس والإملاء، والقضاء والإفتاء، والوعظ والخطابة، وخزن الكتب، وغيرها. وقد أذن له أشياخه ــ كالبلقيني والعراقي ــ بالإفتاء والتدريس؛ فتصدى لنشر الحديث وغيره، قراءة وإقراءً، وتصنيفاً وإملاء، وتدريساً وإفتاءً.

ولنتناول هذه الوظائف والمناصب التي شغلها على وجه الإيجاز:

● ● ●

أولاً ــ الإملاء

الإملاء أعلى مراتب الرواية والسماع، وفيه أحسن وجوه التحمُّل وأقواها، فيجلس العالم ويملي من حفظه أو من كتاب، ويبين ما في الحديث من أحكام، وفوائد وأبحاث، ويتكلم عليه صحة وضعفاً، وعلى رجاله جرحاً وتعديلاً، وغير ذلك. ويُسْتحب أن يتخذ مُسْتَمْلِياً عالماً متيقظاً ذكياً؛ ليبلِّغ عن العالمِ المملي ما يحدث به ويمليه، حتى يسمع الحضور كافة، وإذا كثر الجمع بحيث لا يكفي مُسْتَمْلٍ واحد اتخذ مستملين أو أكثر[1].

ولأهمية الإملاء وجلالته كان لا يتصدى له إلاَّ المحدث البارع العارف، الذي بلغ رتبة عالية من العلم والمعرفة؛ لذا كان دأب كبار الحفاظ والمحدثين على مرِّ العصور الزاهرة المتقدمة. وقد دَرَسَتْ مجالسُه

---

(١) تدريب الراوي: ٢/١٣٢ ــ ١٣٣؛ أصول الحديث: ٤٤٤ ــ ٤٤٧.

بعد الإمام ابن الصلاح (ت ٦٤٣هـ) إلى أواخر أيام الحافظ العراقي، فافتتحه سنة (٧٩٦هـ)، فأملى أربعمائة مجلس وبضعة عشر مجلساً إلى سنة وفاته (٨٠٦هـ). ثم أملى ولده أبو زرعة إلى أن مات سنة (٨٢٦هـ) أكثر من ألف مجلس وكسراً(١).

وأما الحافظ ابن حجر فقد شرع في عقد مجالس الإملاء ابتداء بسنة (٨٠٨هـ) وانتهاء بسنة (٨٥٢هـ) ـ وهي السنة التي توفي بها ـ فزادت مجالسه على ألف مجلس، احتواها مصنّفه «الأمالي الحديثية» في عشر مجلدات(٢).

ومجلس الإملاء لا يقع إلاَّ في يوم واحد من الأسبوع، كراهية السآمة على الناس، واقتداء بفعل الرسول ﷺ حيث كان يتخوَّل الناس بالموعظة. وغالب عمل الحفاظ أنهم كانوا يعقدون مجلس الإملاء يوم الجمعة بعد صلاتها(٣). وتراوح هذا اليوم عند ابن حجر بين «الثلاثاء» و «الجمعة».

وعدد المملين لدى ابن حجر يزيدون على مائة وخمسين نفساً، هم من عِلْية أصحابه، ومن كبار العلماء، ومنهم:

المحدث شهاب الدين أحمد بن أبي بكر البوصيري الشافعي (ت ٨٤٠هـ). والإمام العلامة عز الدين عبد السلام بن أحمد البغدادي الحنفي (ت ٨٥٩هـ). والعلامة كمال الدين محمد بن حسن الشُّمُنّي المالكي (ت ٨٢١هـ). والحافظ رضوان بن محمد العقبي (ت ٨٥٢هـ). والعلامة المحقق أبو إسحاق إبراهيم بن خضر العثماني (ت ٨٥٢هـ).

---

(١) تدريب الراوي: ٢/ ١٣٩. وجاء فيه أن وفاة أبي زرعة ابن الحافظ العراقي في سنة (٨٥٢هـ)، وهو سبق قلم.

(٢) تدريب الراوي: ٢/ ١٣٩؛ ذيول تذكرة الحفاظ: ص ٣٨١؛ الرسالة المستطرفة: ص ١٦٢.

(٣) تدريب الراوي: ٢/ ١٣٩ ـ ١٤٠.

والعلامة القاضي نور الدين علي بن سالم المارديني، والفخر ابن درباس. . وغيرهم. وكثيراً ما كان يسعى من دونهم في المرتبة والمكانة لِنَيْل هذا الشرف في مجلس الحافظ؛ فلا يُجابون.

●● ومحل عقد مجلس الإملاء يكون في المسجد، أو المدارس والقاعات، أو بيت المملي، وقد أملى ابن حجر في منزله وفي مدارس متعددة.

فأول ما شرع في الإملاء ـ سنة ٨٠٨هـ ـ إملاء كتاب «الإمتاع بالأربعين المتباينة بشرط السماع» في ستة عشر مجلساً بالشيخونية[١]، وبعضها بمنزله بمصر على شاطىء النيل. ثم أملى بعدها عشاريات الصحابة المسمى بـ «الإصابة» بالشيخونية وبالمدرسة «الجمالية المستجدة» برحبة العيد، أول ما فتحت، وبالمدرسة المنكوتمرية المجاورة لمنزله، وبالخانقاه البيبرسية؛ حتى استكمل بالأمكنة المذكورة من العشاريات المشار إليها زيادة على مائة مجلس. كما عقد المجلس الحافل للإملاء بالخانقاه البيبرسية فأملى بها المجالس المطلقة التي لم يتقيد فيها بكتاب، بل في الغالب يحرص على المناسبات في الأزمان والوقائع. وقد أملى بالخانقاه البيبرسية هذه عشرين سنة.

ولم تقتصر أماليه على مصر، بل أملى بدمشق عند المرور بها[٢] مجلساً حافلاً بجامع بني أمية، يوم الثلاثاء (١٦) شعبان من سنة (٨٣٦هـ). كذلك أملى بحلب سبعة مجالس، ابتدأ فيها يوم الثلاثاء (١٥) رمضان، وختمها في يوم الثلاثاء (١٢) ذي القعدة من نفس السنة. ثم لما رجع إلى وطنه ـ وقد انقطع الإملاء بالقاهرة نصف سنة ـ جدَّده، وشرع بإملاء

---

(١) اسم لمدرسة أنشأها الأمير سيف الدين شيخو العمري.

(٢) عندما سافر صحبة الأشرف برسباي سنة (٨٣٦هـ).

تخريج أحاديث الأذكار للنووي، واستمر بالإملاء إلى قبيل وفاته رضي الله عنه وأجزل مثوبته[1].

●● وقد يكون الإملاء من كتاب يقرأ فيه المملي، أو من حفظه، وهو عند الحافظ ابن حجر كان مخرَّجاً كله من حفظه، مهذباً محرراً، متقناً غاية الإتقان. وكان منه ما هو مقيد بكتاب لا يتعداه إلى غير موضوعه ـ كما فعل في «الإصابة» وغيره ـ كما كان له مجالس لم يتقيد فيها بكتاب، وهذه وتلك تكون كثيرة النفع؛ لاحتوائها على الكثير من الفوائد الحديثية: من أبحاث ونكت نفيسة، مع تحري ما علا سنده وقصُر متنه، وكثرت فوائده، والتنبيه على المستفاد منه، والكلام على صحة الحديث أو حُسْنه أو ضعفه أو علَّته إن كان معلولاً، والتعريف بالمروي عنهم من الشيوخ وغيرهم، وضبط مشكل في الأسماء، أو غريب، أو معنى غامض في المتن، وتجنب ما لا تحتمله عقول الحاضرين ولا يفهمونه كأحاديث الصفات خشية وقوعهم في التشبيه والتجسيم. وغير ذلك[2].

وقد أشار العلامة الأديب شمس الدين النواجي إلى تلك الفوائد في مجالس إملاء ابن حجر، فقال[3]:

وبمجلس الإملاءِ تملأ سَمْعَنا ... دُرَراً بها أُذنُ الرُّواة تشنَّفُ

وإذا أتيتَ بطُرْفةٍ شهدَ الورَى ... حقّاً بأنكَ يا إمامُ مطرِّف

ومجالس الإملاء هذه غالباً ما كانت تستفتح بقراءة قارىء حسن

---

(١) الجواهر والدرر: ص ١٢٠، ١٢٥، ٣٨٠؛ ذيول تذكرة الحفاظ: ٣٣٥؛ شذرات الذهب: ٧/٢٧١؛ الرسالة المستطرفة: ص ١٥٩؛ تغليق التعليق: ١/٦٣ ـ ٦٦؛ ابن حجر مؤرخاً: ص ٥٦ ـ ٥٧.

(٢) تدريب الراوي: ٢/١٣٧ ـ ١٣٨؛ ابن حجر مؤرخاً: ص ٥٧ ـ ٥٨.

(٣) الجواهر والدرر: ص ٤٣٩. ومطرِّف المشار إليه في البيت الثاني هو: مطرف بن عبد الله بن مطرف، أبو مصعب المدني، روى عنه البخاري وأبو زرعة الدمشقي، وغيرهما من الأكابر. تهذيب التهذيب: ١٠/١٥٨.

الصوت شيئاً من القرآن، ثم يبسمل المملي ويحمد الله ويصلّي على رسول الله ﷺ. وفي مجلس الحافظ كان الاستفتاح بسورة الأعلى، والصلاة على رسول الله ﷺ، والدعاء له وللحاضرين والأئمة الماضين. وقد استُفسر من الحافظ عن خصوصية سورة الأعلى دون غيرها؟ فقال: «تبعت في ذلك شيخنا العراقي، وفيها من المناسبة قوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى﴾، وقوله: ﴿فَذَكِّر﴾، وقوله: ﴿صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾».

وتُختم مجالس الإملاء ـ وخاصة المطلقة ـ بإنشادات من نظمه، أو ببعض الحكايات والنوادر والإنشادات، التي القصد منها ترويح القلوب، وأولاها ما كان في الزهد والآداب ومكارم الأخلاق. فإذا ما نجز مجلس الإملاء، وقد تحرر في كراسة، قوبلت على الأصل الذي حرره؛ قصداً للغاية في الإتقان[1].

لقد أحيى الحافظ رحمه الله «سنة الإملاء» زهاء أربعة عقود، فأملى من حفظه على مدى أربعين سنة مجالس تزخر بالفوائد، وتغصّ بالحاضرين، فارتفعت راية السنّة عالية، ونال الحافظ السنا والسؤدد والثناء الجميل.

وصدق العلامة أبو العباس أحمد بن محمد ابن عرب شاه[2] الدمشقي الحنفي إذ يقول في الإمام:

فإذا تصدى مُمْلِياً نادى الهدى ... يا أمَّةَ الهادي هلمُّوا تهتدُوا
هذا أمينُ الأمةِ الحَبْرُ الذي ... من بحره نهر الشريعة يُوردُ

---

(١) تدريب الراوي: ٢/ ١٣٥، ١٣٨، ابن حجر مؤرخاً: ص ٥٨.

(٢) ولد بدمشق سنة (٧٩١هـ)، ونشأ بها، وتحول إلى سمرقند ـ مع إخوته ـ وأقام بها طويلاً مع الاشتغال والدرس، وتقدم في غالب العلوم، وأنشأ النظم الفائق والنثر الرائق. ثم دخل دمشق بعد سنة (٨٢٤هـ) وعكف على التأليف، ثم تحول إلى القاهرة، واتصل بأكابر أعيانها. توفي (٨٥٤هـ).

خُضْ بَحَر لفظِ حديثِه تَغْشَ العُلا ... واجزمْ بصدقِكَ ناطقاً إذ تُسنِدُ[1]

يا منْ بطيبِ حديثِه مَلَكَ الوَرَى ... فالكلّ عند سماعِهِ لكَ أعبُدُ

حلَّيتَ أسماعاً وذوْقَ أولي النُّهَى ... من درٍّ شهدٍ دُرُّهُ مُتَنَضِّدُ

وعقود أحكام الكتاب بسنَّةٍ ... إجماعُ أهل الدينِ فيها يُعقدُ

وكسوتَ أخبارَ النبيّ جلالةً ... فلها العُلا ولك السَّنَا والسُّؤددُ[2]

• • •

ثانياً ـ التدريس

لقد حث الإسلام على العلم والتعلم في غير ما آية وحديث، وغدت وظيفة التدريس جليلة القدر، عظيمة النفع، وللقائم عليها مكانة سامقة في النفوس، ولمثل ذلك أشار أبو الأسود الدُّؤَلي التابعي الثقة والعلامة الفاضل: «ليس شيء أعز من العلم، الملوك حكام على الناس، والعلماء حكام على الملوك»! ولقد كان هذا واضحاً لدى القائمين على أمر مصر، فبعد سقوط بغداد سنة (٦٥٦هـ)، وإتلاف الكتب، وتخريب المكتبات، أصبحت مصر قلعة للإسلام، ومنارة لنشر علومه وثقافته؛ فأكثر الحكام والسلاطين والصلحاء والعلماء من المدارس والربط والزوايا، ووقفوا عليها الأوقاف الكثيرة، وشجعوا العلماء على التدريس فيها، فقصدها الطلاب من كل حدب وصوب.

وكان يتصدر للتدريس بهذه المدارس فحول العلم وأساطين المعرفة، وكان ابن حجر على رأسهم،لاسيَّما وقد أَذن له بالتدريس كبار أشياخه، وقد كثرت معارفُه واشتهر ذكره، وبَعُدَ صيته وطار في الآفاق، وارتحل إليه العلماء للأخذ عنه. وقد عني ابن حجر عناية فائقة بالتدريس

---

(١) هذا البيت يجمع كل حروف الهجاء، وقد أشار السخاوي إلى ذلك.

(٢) الجواهر والدرر: ص ٣٥١.

الذي لم يصرفه عنه شيء البتة، حتى أيام توليه القضاء والإفتاء، بل كان لا يقدم عليه أي منصب مهما بلغ من الرفعة. فتصدر لتدريس العلوم الشرعية المختلفة في أماكن متعددة وكثيرة.

(أ) تدريس التفسير:

فقد ولِّي تدريسه في: «المدرسة الحسينية» سنة (٨٢٩هـ)، وذلك أنه اطلع على كتاب وقفها، فوجد فيه مدرساً للتفسير وآخر للحديث، ولم يجد بها أحداً، بل كانا شاغرين من عهد الواقف، فلما علم ذلك التمس من الناظرين عليها تقريره في التفسير وتقرير ولده في الحديث، وأن يأذنا لولده في الاستنابة؛ فكان ذلك. فباشر الوظيفتين كلتيهما: التفسير بطريق الأصالة، والحديث نيابة عن ولده، إلى أن رغب عن التفسير للزين السندبيسي.

وفي القبة المنصورية[1]: وقد قام بالتدريس فيها بعد شمس الدين البرماوي، واستمر التدريس فيها بيده حتى مات.

(ب) تدريس الحديث:

الحديث بشتى علومه أبرز ما برع الحافظ فيه، حتى اشتهر به وغلب عليه، ولقد كثرت المدارس التي تولى تدريس الحديث فيها، وهي:

١ ــ الشيخونية: وهي أول مكان ولي فيه تدريس الحديث، وذلك في شوال (٨٠٨هـ)، عوضاً عن الشيخ الشمس ابن معبد المدني المالكي، بحكم نزوله عنه.

٢ ــ قبة الخانقاه البيبرسية[2]: ابتدأ تدريسه بها سنة (٨١٣هـ)، بعد ولايته لمشيخة الصوفية ونظرها ــ بها ــ بيسير، وأناب عنه فيها البرهان ابن خضر، ومن بعده الشمس ابن حيان.

---

(١) بناها المنصور قلاوون (ت ٦٧٦هـ).

(٢) أنشأها ركن الدين بيبرس الجاشنكيري سنة (٧٠٦هـ).

٣ ــ الجمالية المستجدة: ولآه تدريس الحديث بها واقفُها جمال الدين يوسف البيري ــ (ت ٨١٢هـ) ــ في رجب سنة (٨١١هـ)، وعمل بها مجلساً حضره الواقف والأكابر، تكلم فيه على حديث (من بنى لله مسجداً). واستمر يدرس بها إلى أن نزل عن ذلك لبعض جماعته وهو ابن خلف الله الشمني سنة (٨١٩هـ)؛ لتشاغله عنها بدرس الفقه بالشيخونية.

٤ ــ جامع ابن طولون[1]: ولي التدريس به سنة (٨٣٣هـ) عوضاً عن التقي علي حفيد ابن العراقي بحكم وفاته.

٥ ــ القبة المنصورية: تولى التدريس بها عوضاً عن صدر الدين أحمد بن محمود العجمي، ثم رغب عنه للبدر ابن الأمانة، وذلك حين رغب عن درس الفقه بالشيخونية.

٦ ــ ثم ولي مشيخة الحديث بالمدرسة الزينية: وذلك بعد الفراغ من عمارتها، في رجب سنة (٨٥١هـ)، بالتماس الواقف وحاشيته قصداً لحصول التجمُّل بابن حجر.

٧ ــ وولي أيضاً مشيخة دار الحديث الأشرفية بدمشق، بعد شغورها من بعد موت الجمال ابن الشرايحي مدة طويلة. فلما دخل ابن حجر الشام سنة (٨٣٦هـ)، أعطاها للحافظ ابن ناصر الدين الدمشقي، وحضر فيها معه، واستمرت مع ابن ناصر الدين حتى مات سنة (٨٤٢هـ).

٨ ــ كما ولي مشيخة إسماع الحديث بالمدرسة المحمودية: وقد ولي التدريس بها سنة (٨٠٩هـ) بعد وفاة البدر الطُّنْبُذِيّ، وكان يستخلف فيها من اختاره من طلبته[2].

---

(١) أنشأه الأمير أحمد بن طولون، وتم الفراغ منه سنة (٢٦٦هـ).

(٢) انظر: ابن حجر مؤرخاً: ص ٦٠ ــ ٦١؛ تغليق التعليق: ١/٦٦ ــ ٦٨.

(ج) تـدريس الفقـه:

وقد ولي الحافظ تدريس الفقه في عدة أماكن:

١ ــ الشيخونية: رغب لـه عنها ــ لقـاء مال ــ الشيـخ علي بن سند اللواتي الأبيـاري النحـوي ــ (ت ٨١٤) ــ سنـة (٨١١هـ)، ولمـا أصبـح ابن حجر قاضياً نزل عنها سنة (٨٢٧هـ).

٢ ــ الشـريفية الفخـرية: ولي تـدريس الفقه بهـا سنة (٨٠٨هـ)، ثم رغب عنها فيما بعد للنور القمني.

٣ ــ الكهارية: ثم رغب عنها لابن الأمانة.

٤ ــ المؤيـديـة[1]: ولي تـدريس فقـه الشـافعيـة بهـا أول مـا فتحت سنـة (٨٢٢هـ). درس بـالمحراب، وأقبـل السلطان ليحضر عنـده وهو في إلقـاء الـدرس، ومنعـه من القيـام لـه، فلم يقم!! واستمـر فيمـا هـو بصدده، وجلس السلطان عنده مليّاً.

٥ ــ الخروبية البدرية: وقـد ولي التدريس بهـا في الثامن عشـر من رمضان سنة (٨٣١هـ)، ثم نزل عنه فيما بعد.

٦ ــ الصالحية النجمية: ابتدأ تدريسه بها سنة (٨٣٣هـ)، عوضاً عن حفيـد ولي الدين العراقي، ثم صار بعد ذلك مضافاً لوظيفة القضاء. لكنه لما انفصـل ابن حجر عن القضـاء آخـر مـرة انتـزع لـه تـدريسهـا تـطييبـاً لخاطره، وليس خلعة لذلك.

٧ ــ الصـلاحية المجـاورة لقبة الإمـام الشـافعي ونـظرهـا: في رجب سنـة (٨٤٦هـ). ولما رجع الـوَنَائي من الشـام منفصلاً عن قضـائها، سعى

---

(١) أنشأها المؤيـد شيخ المحمـودي، وتعرف الآن بجـامع المؤيـد، بجوار بـاب زويلة بالغورية.

للتدريس بها لكونها وظيفة صهره التلواني، فتركه ابن حجر له اختياراً في صفر سنة (٨٤٨هـ)[1].

وكانت طريقته في إلقاء الدروس متميزة عن أقرانه، ويظهر فيها جانب الإبداع، بالنظر لما يثيره من مسائل تقوم على الاستنباط والنقد، والإشارة إلى الفوائد الكثيرة، واللفتات البديعة، التي هي جزء من بحر علمه الفيّاض.

وقد أحسن شيخه البدر البشتكي إذ يقول فيه[2]:

نَـزْرُ الكـلامِ إذا مـا الحلْمُ أَوْلَعَـه ... بالصمتِ أفصحَ عنه المدحُ في الورقِ
فـإن تكلَّم خلَّى النـاطقـون لـه ... عن غـايـة مـا بهـا شَـأوٌ لمُسْتبِقِ
مـا فاضَ علمـاً وبذلاً يـوم مسـألـة ... إلَّا خشيتُ على نفسي من الغـرقِ
إنْ قِيسَ بـالبدرِ قـال البدرُ معتـرفـاً ... لقد رَقَى طَبَقاً في المجـدِ عن طبقِ

● ● ●

ثالثاً ــ الإفتـاء

ولي ابن حجر إفتاء «دار العدل» واحداً وأربعين عاماً، وذلك من سنة (٨١١هـ)، واستمرت هذه الوظيفة معه حتى مات.

واتسمت فتاويه بالإيجاز مع حصول الغرض، ولا سيما في المسائل التي لا نقل فيها، فلقد كان أحسن علماء عصره تصرفاً وتخريجاً واستنباطاً بالدلائل المعتبرة. وكان يكتب منها في اليوم ـ غالباً ـ أكثر من ثلاثين فتيا، وقلَّ أن يمضي له يوم لا يكتب في المجلس الواحد نحواً من عشرين فتيا، حتى إن كان ليكتب وهو على راحلته مسافراً، أو وهو متشاغل بغيرها من الحديث، مما يشير إلى تمكنه من مادتها.

---

(١) إنباء الغمر: ٢٤٢/٩ ــ ٢٤٣؛ شذرات الذهب: ٢٦٥/٧؛ ابن حجر مؤرخاً: ص ٦٢، ٩٧.

(٢) الجواهر والدرر: ص ٤١٤.

ولعل هذا كان تحقيقاً لنيته في شربه ماء زمزم حيث شربه لثلاث، منها ــ كما يقول هو ــ : «أن ييسر لي الكتابة على الفتاوى كشيخنا السراج البلقيني، حيث كان يكتب عليها من رأس القلم بغير مراجعة غالباً؛ فيسَّر الله تعالى لي ذلك، بحيث ضبطت المهم من فتاوى شهر، فكان في مجلدة سميتها «عجب الدهر»[1].

وكانت الفتاوى ترد إليه من مواضع شتى، متضمنة موضوعات مختلفة: حديثية، أو فقهية، نثرية وشعرية، فيردّ عليها بما يناسب مادتها. وكان يُرى منه العجب في معرفة مقاصد السائلين من عباراتهم المعجرفة، فإن عمِّي عليه المراد كتب تحت السؤال أو بجانبه: «يكتبه طالب علم». وإذا علم أن مذهبه ــ وهو الشافعي ــ لا يوافق غرض السائل؛ أرشده لمن عنده ما ينفعه. وقد يطلع على تعنت السائل، فيترك الرد قصداً لردع من هذا سبيله، وهذا في النادر.

في قَصَبِ السَّبْقِ ما رأيْنا	مثالَه في الجياد جَوَّدْ
تهزُّ أصواتُ سائليهِ	أعطافَهُ للنَّدى فَيَمْتَدْ
وينبري للعَطَا فيُزري	بالبحرِ في جَزْرِهِ وفي المِدْ[2]

ورجل مثل الإمام ابن حجر يكتب الفتيا في حله وترحاله، ويجيب على ما يرد عليه من الأقطار كافة؛ فإن هذا يتحصل منه شيء كثير جداً. وقد أراد الحافظ البرهان على ذلك، فجمع المهم من فتاوى شهر في كتابه المشار إليه آنفاً، وفيه ثلاثمائة مسألة! فهذا ما وقع له تدوينه في شهر واحد، عدا ما لم يدوِّنه مما أفتى به في أماكن مختلفة، وأوقات متفرقة. فإذا كان مثل هذا الكم في شهر، فكم يكون في السنة، ثم في الإحدى

---

(١) الجواهر والدرر: ص ١٠٧.

(٢) الجواهر والدرر: ص ٤٤٣؛ فتح الباري: ١٣/٥٦٢، من قصيدة طويلة للشمس النواجي، أنشدها عقب ختم «فتح الباري».

والأربعين سنة التي تصدر فيها للفتوى؟! فهو بلا ريب رقم يفوق الوصف، وتضيق به صدور المجلدات لو دوِّن. ولو أن ذلك كله قد جُمع لكان أعظم من كل كتب الفتوى على الإطلاق، ولتبوأ في المكتبة الفقهية الإسلامية مكان الصدارة بلا مراء.

وقد بلغ الحسد ببعض المعاصرين للإمام الحافظ أن انتقد بعض فتاويه، وشنَّع عليه لخطأ وقع به، وهذا التصرف ـ بدون شك ـ بعيد عن الإنصاف وخلق الإسلام؛ فمَن مِنَ العلماء يعرو عن الخطأ والنسيان، والذهول والسهو؟! ولمثل هؤلاء صدَّر ابن حجر ـ طيَّب الله ثراه وأعلى نزله ـ كتابه «عجب الدهر» بمقدمة قال فيها:

«أما بعد: فإن من غلب عليه الحسد، وقف على فتوى مخطىء وقع عند كاتبها ذهول عن تقييد ما يوهم الإطلاق فيه، فشنَّع عليَّ في ذلك، وبالغ، مع أنه عند التأمل لا يخفى المراد!! فلما بلغني ذلك حداني على تدوين ما يقع لي من الأسئلة في شهر واحد؛ ليعذر من يقف عليها فيراها وصوابها أكبر من خطئها، فإن الإنسان طبع على النسيان، والسعيد من غلب صوابه على خطئه»!!

ويعقب السخاوي فيقول: «فمن يفتي في الشهر بأكثر من ثلاثمائة، لا يستغرب إذا أخطأ منها في ثلاثة، بل في ثلاثين»!

وأعظم صفة تحلى بها الإمام ابن حجر ـ ويجب على كل عالم أن يتصف بها ـ حرصه على أن لا يحابي بالفتيا أحداً، ولو عظم، وله في ذلك مواقف طيبة، يفخر بها الفقيه المسلم الحرّ، الذي لا يخضع لسطوة، ولا يخشى جفوة.

من ذلك ما أورده الحافظ في «إنباء الغمر»[1] بشأن كتابة محضر

---

(١) إنباء الغمر: ٧/٣٨٧ ـ ٣٨٨.

بتكفير «قرا يوسف» وولده، وإثباته على القضاة، والطواف به على المشايخ ليكتبوا في ظاهره بتصويب الحكم المذكور، وإلزام السلطان وكاتب السرّ له بذلك، فتأبّى عليهم، ودافعهم، ولم يقم بما عهد إليه، تقديماً لحق الله تعالى، وعدم المحاباة في دينه.

وكذلك توقفه في الفتيا بالإذن لملك الشرق «شاه رخ»، الذي طلب من الأشرف برسباي كسوة الكعبة، فأشار ابن حجر إلى أنه إن خشي منه الفتنة فيجاب دفعاً للضرر، وقال في ذلك: «وتسرع جماعة إلى عدم الجواز، ولم يستندوا إلى طائل، بل إلى موافقة هوى السلطان»(١).

● ● ●

رابعاً ـ القضاء

لقد رغّب الإسلام في القضاء لمن استجمع شروطه، وقَوِيَ على إعمال الحق، ووجد له أعواناً على ذلك، دون مداهنة ولا مواربة ولا خوف من سطوة أحد، وقد قال رسول الله ﷺ: (لا حسد إلاَّ في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً فسلَّطه على هَلَكَتِهِ في الحق، وآخرُ آتاه الله حكمة فهو يقضي بها ويعلمها).

قال الحافظ معلقاً على هذا الحديث من «صحيح البخاري»:

وفي الحديث الترغيب في ولاية القضاء لمن استجمع شروطه، وقوي على إعمال الحق، ووجد له أعواناً؛ لما فيه من الأمر بالمعروف، ونصر المظلوم، وأداء الحق لمستحقه، وكف يدّ الظالم، والإصلاح بين الناس، وكل ذلك من القربات، ولذلك تولاه الأنبياء ومَنْ بعدهم من الخلفاء الراشدين. ومن ثم اتفقوا على أنه من فروض الكفاية؛ لأن أمر الناس لا يستقيم بدونه، فقد أخرج البيهقي بسند قوي: أن أبا بكر لما ولي

---

(١) فتح الباري: ٣/٤٦٠؛ وابن حجر مؤرخاً: ص ٦٣.

الخلافة ولِّى عمر القضاء. وبسند آخر قوي: أن عمر استعمل عبد الله بن مسعود على القضاء. وكتب عمر إلى عماله: استعملوا صالحيكم على القضاء واكفوهم. وبسند آخر ليِّن أن معاوية سأل أبا الدرداء ــ وكان يقضي بدمشق ــ: من لهذا الأمر بعدك؟ قال: فضالة بن عبيد. وهؤلاء من أكابر الصحابة وفضلائهم. وإنما فرَّ منه مَنْ فَرّ خشية العجز عنه، وعند عدم المعين عليه. وقد يتعارض الأمر، حيث يقع تولية من يشتد به الفساد إذا امتنع المصلح، والله المستعان. وهذا حيث يكون هناك غيره، ومن ثم كان السلف يمتنعون منه، ويفرون إذا طلبوا له»[1].

وقد عُرض على ابن حجر النيابة في القضاء قبل سنة (٨٠٠هـ)، وذلك من قِبَل صدر الدين محمد بن إبراهيم المناوي (ت ٨٠٣هـ)، فامتنع. كما عُرض عليه منصب القضاء في الأيام المؤيدية وأيام الظاهر ططر، فأبى أيضاً. كذلك فإن «المؤيد شيخ» كان قد عرض عليه منصب القضاء مراراً، ورغَّبه بما يدرُّ عليه من المعاليم بأن للقاضي بدمشق في الشهر عشرة آلاف درهم فضة، فأصرَّ على الامتناع، وبالغ في الاستعفاء. حتى إن ملك اليمن الناصر ابن الأشرف قد ترك منصب القضاء شاغراً ــ بعد وفاة الفيروزابادي ــ لمدة سنتين، ينتظر قدوم ابن حجر ليوليه إياه، فلم يحقق رجاءه [2]، لأنه كان مصمماً على عدم الدخول في القضاء، ولا يؤثر على الاشتغال بعلم الحديث شيئاً.

●● لكن موقفه تغير فيما بعد، بسبب إسناد بعض المهام المتعلقة بالقضاء إليه، وهي:

١ ــ في سنة (٨٢٢هـ) أسند «المؤيد شيخ» إليه الحكم في قضية خاصة، هي الفصل بين الهروي ــ قاضي القضاة الشافعية آنئذٍ ــ وبين

---

(١) الفتح: ١٣/ ١٢٠، ١٢١.

(٢) الجواهر والدرر: ص ٣٦٢؛ ابن حجر مؤرخاً: ص ٦٤ ــ ٦٥.

خصومه من الخليليين والمقادسة. وقد أشار ابن حجر إلى ذلك قائلاً: «فلما كان في الثامن من شهر ربيع الأول، قدم طائفة من الخليل والقدس صحبة الناظر عليهم... فشكوا منه[1] أنه أخذ منهم مالاً عظيماً في أيام نظره، فابتُليتُ بالحكم بينهم بأمر السلطان، فتوجه الحكم على الهروي، فخرج في الترسيم»[2].

٢ ـ قبول النيابة في القضاء عن صديقه الودود جلال الدين البلقيني (ت ٨٢٤هـ)، بعد إلحاحٍ وتكرير سؤال من القاضي له في ذلك، فاستجاب له، وإن لم يباشر من الأحكام إلاً اليسير مما لا يستغني فيه عنه.

٣ ـ استقر القاضي ولي الدين ابن العراقي (ت ٨٢٦هـ) في القضاء بعد وفاة ابن البلقيني، وحدث أن التمس من ابن حجر النيابة عنه؛ فأجابه دفعاً لتوهم مزية للقاضي جلال الدين عليه.

٤ ـ على أن الأمر الكبير الذي دفع بابن حجر لقبول القضاء ما حدث بينه وبين علم الدين صالح ابن البلقيني. و«العَلَم» المذكور ابن لشيخ ابن حجر ـ أعني السراج البلقيني ـ وأخ لعزيز عليه هو «الجلال البلقيني»، كما كان قد قرأ على ابن حجر في «محاسن الاصطلاح»، فلما استشير الحافظ في ولاية «علم الدين» للقضاء؛ امتدحه، فكان ذلك.

وحدث من القاضي «علم الدين» أنه سأل ابن حجر في تنفيذ مكتوب «الخشابية»، فأجابه الحافظ لذلك، ونفَّذ ما أسند إليه؛ ظناً منه أن في إسناد

---

(١) أي من الهروي.
(٢) إنباء الغمر: ٧/٣٤٥.

تنفيذه إليه تشريفاً من القاضي له «لعلو منزلته عنده»، ولم يتوهَّم أنه يترفع عليه بذلك! فما كان إلَّا اليسير حتى رأى من «العَلَم» ما لم يألفه منه من قبل. فوجد الحافظ في هذا الموقف من الاستفزاز والنيل من كرامته ما لا يليق بعالم، فكيف بابن حجر؟! فكان هذا سبباً للإجابة لما عُرض عليه قضاء القضاة الشافعية بالديار المصرية، بتفويض الملك الأشرف برسباي، وذلك في السابع والعشرين، من المحرم سنة (٨٢٧هـ)، بعد انفصال «علم الدين» المذكور.

ثم لا زال يباشر القضاء، ويُصرف ويعاد إليه مراراً، إلى أن عزل نفسه في الخامس والعشرين من جمادى الآخرة سنة (٨٥٢هـ)، فاستمر منفصلاً عنه، عازماً على عدم العود إليه، من كثرة ما توالى عليه من المحن بسببه، حتى مات. فكانت مدة ولايته في المرار كلها تزيد على إحدى وعشرين سنة بأشهر[١].

وهذا يعني أنه خلال خمس وعشرين سنة[٢] لم يُصرف عنه سوى ما دون خمسة أعوام، توالى خلالها عدد ممن عُزل بهم مثل: الهروي، والعَلَم البلقيني، والقاياتي، وغيرهم رحمهم الله أجمعين.

●● ولقد كان ابن حجر أهلاً لهذا المنصب، لعلو رتبته، وسموِّ منزلته، وغزارة علمه، وقد شهد له بذلك معاصروه، وعبر عن ذلك تلميذه العلّامة الشهاب أحمد بن محمد الإشليمي فقال[٣]:

أسيِّدنا قاضي القضاة ومَنْ بهِ ... تُهنَّى ولاياتٌ ويُغبطُ منصِبُ
ويا واحداً قد زانَ علياهُ أربعٌ ... تقىً وعلومٌ واحتشامٌ ومنسِبُ

---

(١) حسن المحاضرة: ٢/١٧٤؛ شذرات الذهب: ٧/٢٧١؛ ابن حجر مؤرخاً: ص ٦٥ ـ ٦٧.

(٢) أي من بداية توليه القضاء سنة (٨٢٧هـ) إلى أن عزل نفسه سنة (٨٥٢هـ).

(٣) الجواهر والدرر: ص ٣٤٨.

تـولَّيْتَهـا بـالعلمِ لا الجـاهِ رتبـةً غدتْ بك تـزهى من فخارٍ وتُعجبُ
وقـد كنتَ أكفى الناسِ قـاطبةً لهـا أتتْ بابَك العالي لمجدكَ تخـطبُ
فـأنت بما ولِّيت أولى وأنت بـالمعا رفِ والـمـعـروفِ أدْرى وأدْرَبُ
وكـلٌّ غمـامٍ غيـرُ فضلكَ مُـقْلِعٌ وكـلٌّ وميضٍ غيـرُ بـرقِـكَ خُلَّبُ

فلقد كانت للحافظ دراية فائقة بالأحكام، وخبرة واسعة بـالمصطلح، ومقدرة فذة على حل المشكلات، مع الديانة والتورع والتحري في الأحكام الشرعية، زان ذلك نزاهـة وتواضـع زائد، واستجـلاب لخاطـر الصغير قبـل الكبير، وتصميم على الأمور، وإحسان للفقراء والطلبة، لكن عكر ذلك كله نكـد وعناد وتعب، مـع كثرة الأعـداء وقلة المنصفين؛ مما جعـل ابن حجـر يندم على قبوله «وظيفة القضـاء»، لكون أربـاب الدولـة لا يفرقـون بين أولي الفضـل وغيـرهم، ويبـالغـون في اللوم حيث ردَّت إشـاراتهم، وإن لم تكن على وفق الحق، بل يعادون على ذلك. واحتياج القاضي بسببه إلى مـداراة الكبير والصغير، بحيث لا يمكنـه مع ذلـك القيام بكـل ما يـرومه على وجـه العدل؛ مما جعل ابن حجر يصـرح بأنـه جنى على نفسه بتقلده أمـر القضاء لهم، وأنه ما بقيت شعرة في بدنه تقبل اسم القضاء. بل إنـه قال ذات مـرة: «إن من آفـة التلبس بالقضـاء أن بعضهم ارتحـل إلى لقـائي[1]، وأنـه بلغـه تلبُّسي بوظيفة القضاء؛ فرجع»[2].

●● ولقد كان الإمام محمود السيـرة في القضاء، ولـه مواقف صلبـة رائعة، سطرها بأحـرف من نور على جبهـة القضاء، حتى غـدت شامـة في تاريخ القضاة ومواقفهم، فمن ذلك:

١ ــ أنه لم يكن حريصاً على منصب القضاء أو الاستمرار فيه:

ولقـد صرَّح في غيـر موضـع بأن القضـاء والقدر هـو الذي أوقعـه في

(١) أي للأخذ عنه.
(٢) انظر: ابن حجر مؤرخاً: ص ٦٧؛ تغليق التعليق: ١/ ٧١.

«القضاء». وبأنه ما سُرَّ بالولاية، لكن ساءه العزل. وبأن المحرك له على البقاء فيه هو ولده، بل كثيراً ما كان ولده يسعى في ذلك ويتكلف من غير علم الوالد، إلى أن يجاب. فلقد كانت عوائد هذا المنصب من المال لا تغري ابن حجر، بل كان يبذل فيه من حُرِّ ماله، ويشير السخاوي إلى أن دوادار السلطان قد تكلم مع ابن حجر بعد صرفه عن القضاء في وزن مال ليعود، فامتنع من ذلك منشداً:

الدويدارُ قال لي: أنا أقضي مأربكْ
قمْ زنِ المالَ، قلتُ: لا، حفظَ اللَّهُ جانبكْ

ويقول السخاوي معلقاً على هذا: «على أن شيخنا لم يكن يتوقف عن البذل، بحيث إنه كان يكلفه في أيام الظاهر ــ فقط ــ ثلاثة عشر ألف دينار، من خالص ماله من ذلك ستة، وباقيه كان من فائض الأوقاف، ويشهد عليه بوصوله إليه، وأن يصرفه في مصارفه»!! بل إن الحافظ نفسه كان قد كتب ما يتعلق بذلك قائلاً: «نبذل في القضاء المال لأجل عزل زيد، فيبقى أن يؤجر لا أن يؤزر، والأعمال بالنيات».

كما أنه روسل بالاجتماع بالسلطان بعد عزله في (١٥) ذي القعدة سنة (٨٤٦هـ)، وكان قد صمم على عدم القبول من أول يوم، فاجتمع به القاضي المالكي، وبلَّغه عن جماعة ما يقتضي التخويف والتهديد إذا استمر على الإعراض، بما يخشى منه على المال والولد والعرض، فقبل على ذلك.

زد على ذلك أنه عزل نفسه من القضاء عندما حضر من القاضي المالكي ــ بحضرة السلطان ــ كلام لا يليق به، واشتد في ترفعه وامتناعه من العود إلى المنصب مما أوجد السلطان عليه[1].

---

(١) إنباء الغمر: ١٨٧/٩ ــ ١٨٩؛ ابن حجر مؤرخاً: ص ٦٨ ــ ٦٩.

كل هذا يردُّ ما ادعاه ابن فهد المكي حيث يقول في ابن حجر: «وكان يتخلله في غضون ذلك من التملك قلة رضىً، ويشاع صرفه، فيهدي إليه ما يليق به من المال، فيرده في المنصب!! فلو تنزَّه عنه، ولزم الاشتغال بالعلم ليلاً ونهاراً، وحج إلى بيت الله، وزار قبر نبيه ﷺ، وجاور بالحرمين الشريفين؛ لازداد بذلك رفعة ووجاهة عند الله تعالى والمسلمين، لكنه عُجن قلبه بمحبة ذلك!! وفتن فيه بولده، فأوقعه في المهالك، فالله تعالى يلهمه طريق الخير، ويصرف عنه كل ضير، ويديم تقاه، ويحفظه من جميع الأسواء ويتولاه»(1).

وهذا من ابن فهد اجتراء ورجم بالظن، وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً، فسيرة الحافظ تشهد ببطلان ما ذكر، وما قدمناه كافٍ في هتك عوار هذا الكلام. ومنزلة ابن حجر في قلوب جماهير الأمة أسمى من الكواكب الدراري، وأطهر من الطهر! وأما التزامه بالاشتغال والتصنيف، فقد كتب ما يعجز عنه فئة من العلماء. وما أجمل قول أبي الطيب المتنبي، وما أجدر الحافظ به:

وهبني قلت هذا الصبح ليل ... أيعمى العالمون عن الضياء؟!

وقد ردَّ الكوثري ــ رحمه الله ــ على ابن فهد في مقولته تلك، فقال: «كأن المصنف يريد أن يجعل جميع العلماء من المجاورين بالحرمين الشريفين مثله، غير ناظر إلى ما يترتب على ذلك من اختلال مصالح المسلمين بتوسيد الأمور إلى غير أهلها. وابن حجر قد نفع المسلمين بقبوله القضاء مدة طويلة، ولم يمنعه ذلك من نشر العلم وكثرة التأليف، وتلامذته المبرزون، وتصانيفه الممتعة؛ شهود عدل على ذلك. وأما كونه يصرف المال في هذا السبيل، فمما لا نعول عليه من غير دليل». انتهى. ونقول: بل قام الدليل ضده، ولله الحمد، وغفر الله لابن فهد.

---

(1) ذيول تذكرة الحفاظ: ص ٣٣٠ ــ ٣٣٢، مع الهوامش.

٢ ـ أنه لم يحرص على المنصب حرصه على صون كرامته كقاضٍ، وعدم إهدارها أو المساس بها، لا يخشى التهديد أيّاً كان مصدره. ولقد كانت تصرفاته مع أرباب الدولة شاهدة على تصلبه في الحق، وعدم التهاون أو المجاملة، ومن ذلك:

ـ أن السلطان قرَّر بعض الأمراء في شيء من الأنظار التي استرجعها ابن حجر، وجاءه الرسول عن السلطان بأنه إن لم يجب لذلك وإلَّا! وسكت الرسول! فبادر ابن حجر بعزل نفسه قائلاً: «عثر الحمار بشهوة المكاري».

ـ مبادرته بعزل نفسه للتكلم في نزاهة القضاء بحضرة السلطان: كان ذلك عند قراءة تقليد السلطان «الظاهر جقمق» بالقصر، فقال ابن حجر: عزلت نفسي. فقال له السلطان: أعدتك، فقبِل، وخلع عليه وعلى رفقته، ورسم بإعادة الأوقاف التي خرجت عن القاضي الشافعي، فأعيدت بتوقيع جديد. وعندما حضر لتهنئة السلطان بالشهر الجديد، أكد عليه في ألَّا يقبل رسالة مشجوة، ولا يؤجر وقفاً لذي جاه، لسؤاله له في التأكيد عليه بذلك، لينتفع به في الوصول إلى غرض الحق.

ـ إزعاجه للسلطان بعد إخراج مشيخة البيبرسية عنه، ونهره لكاتب السِّر ودوادار السلطان لتكلمه معه بالتركية؛ تعمية لابن حجر عن مرادهم! ويشير السخاوي إلى أن السلطان انزعج من ذلك حتى صارت ركبته تهتز!

ـ رسالته الجريئة إلى السلطان وقد هضم حقه وأخذ في مقاهرته، بل والسعي في عزل السلطان دفعاً للظلم والجور. فقد حدث أن سقطت منارة «الفخرية القديمة»، فتغيَّظ السلطان على ابن حجر ظناً منه أن الناظر على المدرسة ينوب عنه، ثم تبين أنه ليس في ذلك ولاية ولا نيابة. لكن انتهز الأعداء ذلك ليوغروا صدرالسلطان عليه، فازداد غضباً على غضب، وراسله بأن ينعزل عن الحكم، ويغرم دية الموتى. فراسله ابن حجر مع «العلاء ابن أقبرس» بقوله: «القاضي جلال الدين البلقيني قتيل ططر،

والقـاضي ولي الدين ابن العـراقي قتيـل الأشـرف بـرسبـاي، وأنـا قتيلك!!
وأرجـو أن الله تعالى يقضي للمـظلوم من الظالم»! ولكن الـرسالـة لم تصله
لإشـارة العلاء بـذلك إلى الخليفـة، واستشارتـه في تبليغها، ومنعـه إياه من
ذلك خشية على ابن حجر.

كمـا أن السخاوي يشيـر إلى أن ابن حجر التمس من رفيقـه القـاضي
الحنفي سعد الدين ابن الـديري أن ينفـذ ما يصـدر منه بخلع السلطان، فنمَّ
القاضي عنه بصفاء الخاطـر، لا بقصد الأذيـة مما أوغـر صدر السلطان على
ابن حجر!

**وقد شهد له بالعـدل والجرأة وإخمـاد سوط الـظلم ورفع منـار الحق
العلّامةُ الشهاب أحمد بن مبارك الحنفي، إذ يقول[1]:**

إذا ما حضرتَ اليومَ مجلسَ حكمِه ... ترى منه مـا فيه الخـلاص له غَـدَا
ترى الشافعيَّ الظاهر الحكم من أذى ... يؤدّي قضاءً ظاهـرَ العدلِ في الأَدَا
ويُخمد سوط الظلمِ في مصرَ نهيُهُ ... ألم تنـظرِ الطاغين في مصـر هُمَّدَا
ويصلح بين الـظبـي والذئب أمـرُه ... فلستَ تـرى ظبـيَ الفـلاةِ مشـرَّدَا
فتًى عزَّ منه الجار في جانب الحمى ... فقـد صار لا يُعـدى عليـه إذا عَـدَا

ويقول العلّامة الأديب النواجي[2]:

مـاضـي الشكيمـة لا يثْني أعنّتـه ... جـاهٌ ولا عن طـريق الحقِّ يلويـهِ
بل كلُّ ما يسخط الرحمنَ يسخـطهُ ... حتمـاً وما كـان يُرضي اللَّهَ يُـرضيهِ
ومـا تـردَّد فيـه قـال إن يـكُ منْ ... عنـدِ الإلٰـهِ حقـيـقـاً فهـو يمضيـهِ

٣ ــ أن تلبُّسه بالقضـاء جعله يتصل بسـائر طبقـات مجتمعه، ابتـداءً
بالسلاطين ورجالات الدولة، ومروراً بالعلماء، وانتهـاءً بعامـة الناس. وقـد

---

(١) الجواهر والدرر: ص ٣٤٣.
(٢) المرجع السابق: ص ٤٥٨.

واجه عداء الكثيرين بسبب صلابته وقوله الحق، لا تأخذه في الله لومة لائم. زد على ذلك كتاباته عنهم، خاصة فيما يتعلق باستقراراتهم الوظيفية، مستخدماً الجرح والتعديل دون محاباة. أضف إليه العداء المتولد عن التنافس على المنصب الواحد. وهذا أمر طبيعي يصدر عن كل أحد.

٤ ــ وقد شهدت أيام تلبُّسه بالقضاء قومات له في الله تعالى، لصلاح الناس، وإصلاح المجتمع، وهذا ما كان ليصدر من ابن حجر لولا شغله لهذا المنصب، ومعاناته الشديدة فيه. ومن ذلك:

ــ ما حدث في السنة الأولى من ولايته، حيث دافع عن التجار، وقام معهم قصداً لعدم تطرق الظلم عليهم، وأيدهم، فتبعه القاضي المالكي والحنفي، وانفرجت الأمور عنهم وعن غيرهم.

ــ تكلمه مع السلطان في أن لا تطفأ قناديل رمضان إلَّا قبل طلوع الفجر، لما يحصل من الإجحاف والإضرار بالناس ممن ينام ثم يستيقظ وهو عطشان حيث يمنع من الشرب، ظناً منه أن ذلك حرام.

ــ موقفه الفذ من اضطراب قيمة النقد، وقد أشار ابن حجر إلى ذلك قائلاً: «وفي هذا الشهر[1] نودي على الفلوس أن يباع الرطل المنقى منها بثمانية عشر درهماً، ففرح من كان عنده منها حاصل، وحزن من عليه منها دَيْن، لما يقاسونه من نواب الحكم في إلزامهم إعطاء ذلك بالوزن الأول، وفيه بخس كثير! وبنيتُ أن ذلك لا يلزم على الإطلاق، بل لا بد فيه من شروط. واقتضى الحال كتابة مراسيم للشهود أن لا يكتبوا وثيقة في معاملة ولا صداق ولا غيره إلَّا بأحد النقدين: الذهب أو الفضة، بسبب شدة اختلال أحوال الناس، واختلاف أحوال الفلوس التي صارت هي النقد عندهم في عرفهم... فحسمت هذه المادة من هذا التاريخ على يد من

---

(١) هو ربيع الآخر من سنة (٨٣٢هـ).

وفقه الله لذلك، وهو كاتبه[١]. وتمادى الاختلاف بسبب ما كان كتب أولاً، فلم يزل يضمحل بحمد الله تعالى»[٢].

ـ حمايته الأوقاف: حيث أمر بتجديد الجوانب التي فيها السيوفيين والصيارفة بظاهر الصاغة، وعلومها. وقام بتبييض الجوانب المجاورة للكاملية ـ وكانت في نظره في جملة أوقاف البيبرسية ـ لأنها كانت شعثة ـ مع أنها محكمة البناء ـ مما جعل بعض الأعيان يحسِّن للأشرف برسباي أخذها، فلما صارت تضيء بفعل ابن حجر كفّوا عنها.

ـ بالإضافة إلى تصدّيه لبعض التصرفات الجائرة، كالذي صدر بخصوص الشيخ شمس الدين ابن سراج الدين الميموني: وذلك أن القاضي التفهيني قد غضب منه، فادعى عليه بالزندقة، وحكم بسفك دمه، وقال للقاضي الحنفي: نفِّذ لي! فقال: حتى ينفذ الشافعي ـ يعني ابن حجر ـ. فامتنع ابن حجر من التنفيذ عندما سأله السلطان ذلك، وقال: «وقعت عندي ريبة تمنع من تنفيذ هذا الحكم، فإني أعرف هذا الرجل، وقد ذُكر لي أن في عقله خللاً، والقاضي سارع بالحكم في حال غضبه»[٣]. وطال البحث في ذلك، وآل الأمر إلى أن انفكَّ من القتل على يد ابن حجر، قصداً للحق.

٥ ـ وقد تحرّى ابن حجر ـ قدر استطاعته ـ الدقة في اختيار النواب والوكلاء والأمناء عنه في القضاء، وراعى فيهم أن يكونوا من عِلْيَةِ أصحابه، وقد حصل جلُّهم فيما بعد على المناصب الرفيعة في الدولة.

وكثيراً ما كان يرسل إليهم مراسيمه بالتحذير والإنذار والتخويف من غضب الله. ويتفقد أحوالهم، ويحملهم على المعدلة بين الناس. ومع ذلك

---

(١) أي ابن حجر.
(٢) إنباء الغمر: ٨/١٦٩ ـ ١٧٠.
(٣) المرجع السابق: ٨/٧٥ ـ ٧٧.

لم يكن راضياً عنهم، بحيث كان يقول بأخرة: «ليس في نوابي من يفتح عليه العين»! طمعاً منه في أن ينهجوا نهجه الفذ، وطريقته الطاهرة[1].

يقول العلّامة تقي الدين ابن حجة الحموي:

«وقد انتهت الغاية بولايته إلى أن صار شرط كل واقف ماشياً، وقضت نوابه بالحق، فصار كل منهم يقتل الباطل قاضياً»[2].

وقال الشيخ شمس الدين محمد بن زين بن محمد الطَّنْتَدائي[3]:

يقــدِّم في النيّـاتِ مَنْ صــحَّ دينُـهُ ... ولم يَخْشَ في التقديمِ لومـةَ لائِمِ
ومنـه أتـانـا خيرُ قــاضٍ وحـاكمٍ ... نـقيٌّ تـقيٌّ صـارم خيـر صـارم
رأينـا لـه في الحكم أحسن سيــرة ... ورفـق ومـفـهـوم وخـيـر مـلازم

ولمثل هذه الخلال الفريدة، والصفات الحميدة، والمواقف المجيدة، والسيرة الطيبة؛ أجمع الأئمة على توليته، وغرست في قلوب الناس محبته.

قال ابن حجة الحموي: «ولما كان الجناب الكريم الشهابي هو الذي حصل الإجماع من أئمة العرف على تقديمه، ورسم اختيار الشريف برسم تقليده، فما خالف مسلم في تورية مرسومه، وقال المتعبدون بالعلم: هذا إمامنا الجامع الكبير، وقال لسان الميزان: إن هذا ــ بشهادة الله ــ صاحب التحرير، وهذا صدر العلماء الذي اطمأن به قلب الزمان، واشتد ظهره»[4].

---

(١) انظر: ابن حجر مؤرخاً: ص ٦٨ ــ ٧٣.
(٢) الجواهر والدرر: ص ٣٦٣.
(٣) عالم بالقراءات، كثير النظم، ومن نظمه قصة يوسف عليه السلام في ألف بيت. توفي سنة (٨٤٥هـ) عن نحو ٩٠ عاماً. أصله من طنطا. والأبيات في الجواهر والدرر: ص ٤٦٣.
(٤) الجواهر والدرر: ص ٣٦٣، وقد أشار إلى بعض مصنفات الحافظ.

وكتب العلّامة قاضي الحنابلة المحب ابن نصر الله البغدادي بعد عزل الهروي بابن حجر ما نصه: «كان يوماً مشهوداً، وحصل للناس سُروران عظيمان: أحدهما بولايته، لأن محبته مغروسة في قلوب الناس. والثاني بعزل الهروي»[1].

ـ وكان الناس ـ علماء وعامة ـ يحزنون لعزله، ويبتهجون بعودته، وقد كثر ما قيل في ذلك، فمنه ما قاله القطب أبو الخير محمد بن عبد القوي المكي، لما أعيد ابن حجر إلى القضاء سنة (٨٤٢هـ)[2]:

أقاضي قضاة المسلمين ومن غَدَتْ ... محاسنُه للمكرماتِ نظامَا
لقد سرَّني عودُ الضمير ولم أزلْ ... أُسرُّ لكم بالصالحاتِ دوامَا
وإني لمطبوعٌ على الودِّ مخلصٌ ... لكم بولائي بداءةً وختامَا
فَدُمْ للهدى بيتاً يُؤَمُّ ورُحْلةً ... لطلاب علمٍ قاصديكَ نهامَا

• • •

خامساً ـ الخطابة والإمامة والوعظ

كان الإمام الحافظ خطيباً مصقعاً، وواعظاً مبدعاً، وصفه العلّامة الأديب النواجي فقال[3]:

وكم هزَّ أعوادَ المنابرِ وعظُهُ ... فأحيى فؤادَ الهالكِ المتهالِكِ

وقد تولى وظيفة الخطابة «بالجامع الأزهر» برغبة التاج محمد ابن رزين له عنها سنة (٨١٩هـ)، ثم تولى الخطابة «بجامع عمرو بن العاص»[4].

---

(١) المرجع السابق: ص ٢٤٠.
(٢) المرجع السابق: ص ٤٦٤.
(٣) المرجع السابق: ص ٤٥٢.
(٤) هو أول مسجد أسس بمصر بعد الفتح الإسلامي لها.

كما كان يخطب بالسلطان «بجامع القلعة» أيام تلبسه بالقضاء، وربما أناب عنه غيره. وكذلك كان يخطب بالسلطان الأشرف برسباي عندما صحبه إلى «آمد» في السفرة الحلبية. ومن ذلك خطبته به ــ إذ أمره بذلك ــ في «جامع بني أمية» بدمشق، يوم الجمعة السابع والعشرين من ذي الحجة، في وداع سنة (٨٣٦هـ)[١].

ــ كما أسندت إليه وظيفة الوعظ بجامع الظاهر بالحسينية، تلقاها عن الشيخ نور الدين الرشيدي بحكم وفاته.

ومنصب الخطابة له خطره وأهميته، ومن خلاله يتصل الخطيب بسائر طبقات المجتمع، ويعبر عما يدور في بلده وسائر بلاد المسلمين، بل والدنيا من حولهم. لذا فقد اغتنم ابن حجر هذا الدور الرائد للمنبر وأعطاه ما يليق به: حيث كان يقوم بنشر ما يحدث من أمور سياسية داخلية وخارجية، ويعمل على إبطال المنكرات في المجتمع، والإشارة الصريحة إليها، وينبه على مكانة العلماء وينزلهم منازلهم، ويشتد على أخطاء وخرافات العوام والجهال مما يلصقونه بالدين، وينبه بين يدي السلطان والأمراء على أن من لغا فلا جمعة له. ويصلي بالناس صلاة الخسوف والكسوف، ويصلي على الغائبين المتوفين من العلماء والصالحين.

وكان لخطبه وقع في القلوب، وتأثير بعيد المدى في النفوس، ويزداد وهو على المنبر من المهابة والنور والخفر بما لا مزيد عليه[٢].

● ● ●

---

(١) الجواهر والدرر: ص ١١٦، ١٢٨ ــ ١٢٩.

(٢) ابن حجر مؤرخاً: ٧٤ ــ ٧٦؛ تغليق التعليق: ١/ ٦٦.

سادساً ــ المشيخات

ولي ابن حجر مشيخة «البيبرسية» ونظرها[1] بعد العلاء الحلبي الذي رغب عنها لابن حجر في سنة (٨١٣هـ)، وسعى شمس الدين ــ أخو جمال الدين الإستادار ــ إلى أن اشترك مع ابن حجر في المشيخة سنة (٨١٥هـ)، ثم انتزعها منه سنة (٨١٦هـ). ثم أعيدت لابن حجر سنة (٨١٨هـ) حيث كتب السلطان «المؤيد شيخ المحمودي» له توقيعاً بها في ثاني عشر ربيع الآخر من تلك السنة، ولبس بها خلعة، وصُرف أخو جمال الدين منها. واستمرت بيد ابن حجر إلى جمادى الأولى سنة (٨٤٩هـ)، حيث قرر «الظاهر ططر» الشمسَ القاياتي بدلاً عنه، ثم أعيد ابن حجر إلى المشيخة في ربيع الثاني سنة (٨٥٢هـ)، لكن تدبير ولده كان سبباً في عزله عنها، وبقي له نظرها.

ويشير السخاوي إلى أن ابن حجر قد رتب أسماء المستحقين بها على حروف المعجم؛ فاحتذي به في ترتيب ديوان الجيش، وكثير من مستحقي المدارس وغيرهم. وكانوا من قبل في تعب زائد[2].

● ● ●

سابعاً ــ خزن الكتب بالمحمودية

تقع «المدرسة المحمودية» بقصبة رضوان، مكان الجامع المعروف الآن «بجامع الكردي»، في أول الخيمية من باب زويلة، وكان فيها خزانة

---

(١) انتشرت الخانقاوات ــ وهي بيوت الصوفية ــ في عصر المماليك، وجرت العادة بأن يعين لكل «خانقاه» شيخ يشترط أن يكون من جماعة الصوفية، بشرط لا يكون اتخذ من التصوف حرفة له. كما يتخذ لها ناظر للقيام على مصالح الخانقاه، والإشراف على أوقافها وصيانتها، وتنفيذ شروط الواقف لها، ومراقبة أرباب وظائفها.

(٢) ابن حجر مؤرخاً: ص ٧٧ ــ ٧٨.

كتب ضخمة نادرة، وصفها المقريزي بأن «**فيها كتب الإسلام من كل فن، وهي من أحسن مدارس مصر**».

وتنسب إلى محمود بن علي الإستادار الذي أنشأها سنة (٧٩٧هـ)، وقال عنها الحافظ في «إنباء الغمر»: «إن الكتب التي بها ــ وهي كثيرة جداً ــ من أنفس الكتب الموجودة الآن بالقاهرة. وهي من جمع البرهان ابن جماعة في طول عمره، فاشتراها محمود الإستادار من تركته بعد موته، ووقفها، وشرط أن لا يخرج منها شيء من مدرسته».

«**وقد أسند للحافظ ابن حجر مهمة خزن كتبها، والإشراف على ما فيها من النوادر، فقد كان بها نحو أربعة آلاف مجلد. فعمل لها فهرستاً على الحروف في أسماء التصانيف، وفهرستاً آخر على الفنون.**

وكان يقيم بها في الأسبوع ــ غالباً ــ يوماً واحداً، وتيسَّر على يديه عود أشياء مما كان ضاع منها قبل، كما كان كثيراً ما يفتديها بكتبه. وقد انتفع ابن حجر بها كثيراً، حيث كان يكتب طوال الأسبوع قائمة بما يحتاجه من المراجعة، ليتذكره في يوم حلوله بها»[١].

●● **هذا وقد رُشِّح لبعض الوظائف فلم يقبل:**

منها التوجه عن السلطان «المؤيد شيخ المحمودي» في الرسلية إلى اليمن سنة (٨١٩هـ)، فاستعفى من ذلك، فأُعفي. وتولي قضاء دمشق في عهده كذلك، عُرض عليه مراراً فامتنع. وتولي قضاء اليمن وكتابة سرِّها للملك الأشرف صاحبها، فلم يجب[٢].

● ● ●

---

(١) تدريب الراوي ــ مقدمة المحقق ــ: ١/ ١٣ ــ ١٤؛ إنباء الغمر: ٢/ ٢٩٣ ــ ٢٩٤؛ ابن حجر مؤرخاً: ٧٨ ــ ٧٩؛ تغليق التعليق: ١/ ٦٩.

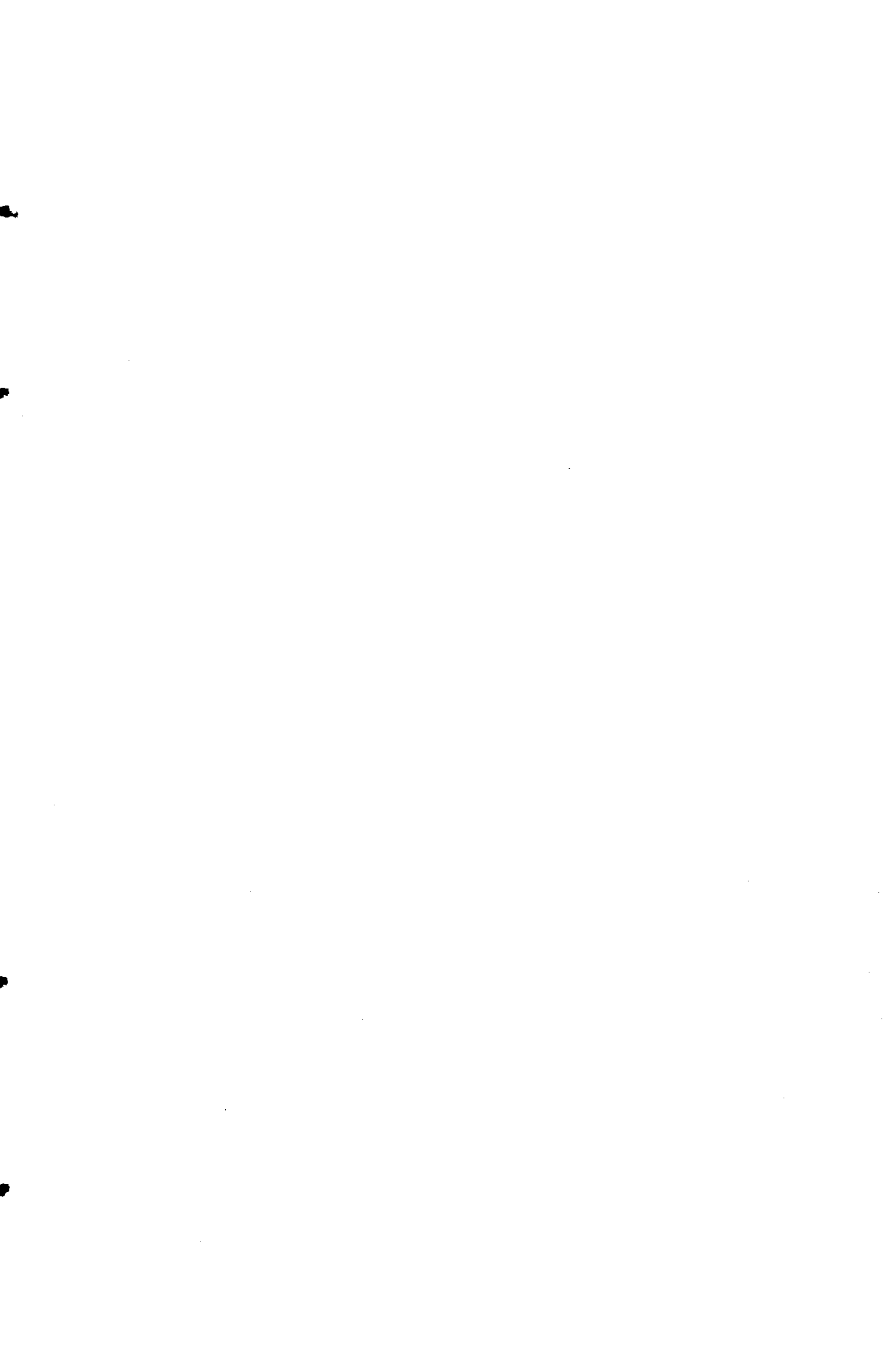
(٢) إنباء الغمر: ٣/ ٨٨، ٩٥، ١٧٨، ٧/ ٢٠٧، ٢١٧، ٢٣٠؛ ابن حجر مؤرخاً: ص ٧٩.

وهذه الأعمال التي شغلها الحافظ ابن حجر والمناصب التي تبوأها، على مدى ما يزيد عن الأربعين سنة، من إملاء وتدريس، وإفتاء وقضاء، وخطابة ووعظ وإمامة، ومشيخات وإدارة خزانة كتب ـ كافية للدلالة على عظمة هذا العَلَم الشامخ، وهي أعمال تنوء بالعصبة من العلماء. أضف إلى كل هذا تلك التصانيف الممتعة، المتقنة المحررة، الكثيرة المتنوعة، التي سطرها بقلم فكره الثاقب، فهي ـ كذلك ـ تدعو للتأمل والإعجاب، بل والتساؤل: كيف تسنّى للحافظ أن يقوم بكل هذه الأعمال والأعباء؟! وإن المؤمن لا يملك إلاَّ أن يتلو قوله سبحانه وتعالى: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾.

إذن: فما هي المؤهلات التي ساعدت ابن حجر على القيام بكل ما سبق؟ وما هي عوامل النبوغ التي رفعته مكاناً عليّاً، حتى تفرد بين معاصريه وأتعب من أراد اللحاق به ممن جاء بعده؟

لنتابع في الفصل التالي عوامل نبوغ هذا الإمام رحمه الله.





الفَصل الثامِن
العَوامِلُ الّتِي سَاعَدَتْ عَلىٰ نُبُوغِهِ وَتَفَوُّقِهِ

لقد أودع الله في كل إنسان قَدْراً من المواهب والملكات، وجملة من الاستعدادات والإمكانيات والطاقات، فإذا تعاضدت المواهب الربانية للمرء ــ كالذكاء وسرعة الحفظ وجودة الفهم ــ مع الطاقات والفاعليات المكتسبة ــ كحسن استغلال الوقت والجِدِّ والاجتهاد، والدأب في التعلم والتحصيل ــ وردف ذلك عامل ثالث لا يقل أهمية عن سابقَيْه وهو البيئة التي يعيش فيها الإنسان، ثم تمَّ توجيه كل ذلك الوجهة الصحيحة التي توافق الرغبة المكنونة في النفس ــ فعندئذٍ يكون النبوغ والتفوق، ويبرز الإنسان فرداً مميزاً بين أقرانه، وشمساً ساطعة بين معاصريه.

ولقد رُزق إمامنا الحافظ ابن حجر من كل ذلك أوفر نصيب: فالذكاء المتوهِّج الوقّاد، وسرعة الحافظة النادرة، وطلب العلم والانكباب على الأشياخ بما لا مزيد عليه، مع التطواف والترحال وكثرة الأسفار، ثم البيئة الصالحة، التقية النقية، التي ضربت في العلم والعمل جذوراً قديمة راسخة، وبعد كل هذا توجيهه تلك المواهب والظروف والطاقات الوجهة السليمة، فيما يوافق رغبته الكامنة في نفسه؛ فكان من وراء ذلك تلك الظاهرة الفذة، والمعلمة البارزة في القرن التاسع الهجري، ألا وهي «الحافظ ابن حجر العسقلاني».

ولعل أصدق ما يعبر عن ذلك قول المرتضى الزبيدي: **«أما الحافظ أبو الفضل فهو محض منة من الله تعالى، على مصر خاصة، وعلى من سواهم عامة»**[1].

---

(١) تاج العروس: مادة (ح ج ر).

فلنتناول ببعض من التفصيل تلك العوامل التي ساعدت على نبوغه وتفوقه حتى على أساتذته وأشياخه:

١ ــ بيئته الخاصة:

فالأسرة التي يُنَشَّأ فيها الإنسان في بواكير أيامه لها الأثر الأكبر في طبعه بطوابع مميزة واتجاهات معينة، تبقى تفعل فعلها فيه حتى مماته، قليلاً أو كثيراً، حسبما يجد من ظروف أو توجهات. لأن الأسرة هي المحضن الأول المبكر، والمؤثر الفاعل في نفسية النشء اللينة، التي تتصلب على أسس يغرسها الأبوان في محضن الطفولة، ويرثها الطفل عن أسلافه.

ولقد هيأ الله سبحانه لهذا الإمام أطيب أسرة وأطهر عرق: فقد تميزت أسرته بالعلم الأصيل، الذي حُفَّ بالتقوى والصلاح، فورث العلم والعمل كابراً عن كابر؛ فجَدُّه قد اشتهر بطلب العلم والأخذ عن الأكابر، وعم والده كان فقيهاً بحاثاً، ووالده مهر بالفقه والعربية والأدب وأجاد الشعر، وكان تقياً ورعاً، محباً للصالحين، واصطحب ابنه في حجِّه ومجاوراته بمكة المشرفة، وأوصى به إلى الزكي الخروبيّ، الذي أحسن في تنفيذ الوصية، فاعتنى بابن حجر، وأدخله الكتَّاب، فحفظ القرآن وهو ابن تسع، وأخذه معه إلى مكة وأسمعه على الشيوخ. وأخته ست الركب كانت أعجوبة في الذكاء، وتولت رعايته وتأديبه حتى قال فيها: «هي أمي بعد أمي». فنشأ نشأة صالحة تقية، في غاية العفة والصيانة والرصانة، لم يُعرف له صبوة، ولم تُضبط عنه زلَّة، مع كثرة المال، وفراغ البال.

٢ ــ ثراؤه:

لقد ورث ابن حجر عن أبيه وأمه مالاً كثيراً، وجَّهه الوجهة السليمة في طلب العلم وما يتبع ذلك من نفقات كثيرة في شراء الكتب، والتطواف والأسفار، فيسَّر الله له الصعب، وقرَّب له البعيد.

٣ ـ ورعه وتقواه:

وهذا من جملة ما تلقاه في محضنه الطاهر، حيث نشأ على العلم المحصَّن بالتقوى والورع والإخلاص، فهذه الصفات هي التي تحمي العالم وعلمه، وتُبقي له الأثر والذكر في الدنيا، والذخر والأجر في الآخرة، ولا خير في علم عريٍّ عن هذا.

ولقد أشرنا إلى طرف طيب من السيرة التقية الصالحة للإمام، في ورعه وتقواه في مأكله ومشربه وملبسه، وزهده وتحرّيه، وتنزهه عن الشهوات، ودوام مراقبته، وصدقته وإحسانه، وتبتله وصيامه وقيامه، وغير ذلك. وكل هذا له أثر كبير فيما فتح الله عليه من علوم، ووفقه له من تصانيف، وقد قال الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾.

وهذا يشكل الحصن الحصين للعالم، ويقذف في قلوب الناس محبته والاطمئنان إلى أقواله وقبول تآليفه، وكل هذا قد حصل للحافظ ابن حجر.

٤ ـ مواهبه:

لقد أكرم الله إمامنا بمواهب كثيرة جليلة، وكل موهبة منها وصلت إلى قمة قممها: فالذكاء المفرط، والحافظة الواعية، وحسن الاستحضار، وجودة الفهم، ودقة الملاحظة، والقراءة السريعة المركزة، وسرعة الكتابة والتأليف. وقد عبَّر الخطيب الأديب برهان الدين ابن أحمد المليجي عن ذلك فقال[1]:

مَنْ رامَ يحصُرُ فضلَ ما أُوتِيْه مِن ... غُررِ الهباتِ مفصَّلاً إجْمالَها
أعياهُ حَصْراً بعضُها وبحقِّه ... آلَى وأقسمَ لا يَرى أمْثَالَها

●● أما ذكاؤه وجودة فهمه: فقد وصفه محدث الحجاز نجم الدين ابن فهد بأنه «شديد الذكاء المفرط، حسن التعبير، لطيف المحاضرة، حسن الأخلاق، متين الديانة، عديم النظير».

---

(١) الجواهر والدرر: ص ٣٢٦.

وقال: «ولقد كان للدنيا بوجوده الجمال والبهجة والفخر، وللناس به أنس، ولهم منه فوائد جمَّة، ولا أعلم في المشرق والمغرب من كان يفهم هذا الشأن مثله»[1].

ويقول الحافظ السخاوي واصفاً سرعة حفظه بأنه: «رُزق في صغر سنِّه الحفظ؛ بحيث كان يحفظ كل يوم نصف حِزْب، وبلغ من أمره في ذلك أنه حفظ سورة مريم في يوم واحد! وأنه كان في أكثر الأيام يصحح الصفحة من «الحاوي الصغير»، ثم يقرؤها تأملاً مرة أخرى، ثم يعرضها في الثالثة حفظاً!! ولم يكن ــ رحمه الله ــ حفظه الدرس على طريقة الأطفال، بل كان حفظه تأملاً ــ كما سمعت ذلك من لفظه مراراً ــ على طريقة الأذكياء في ذلك غالباً»[2].

ويقول البِقَاعي ــ أحد أبرز تلامذة الإمام ــ: «حدثنا سنة تسع وثلاثين أنه ما درس قط شيئاً، وإنما يحفظ بالتكرار والتأمل، وأنه إذا مرَّ بشيء في المطالعة فإن كان له غرض في حفظه ألقى إليه باله، وصرف نحوه همته، وإلاَّ فلا»[3].

ويحدث السخاوي عن سعة حفظه، وحسن استحضاره، فيذكر واقعة حكاها له صاحبه الشيخ نور الدين ابن أبي اليُمن المكي عن البساطي قال: «سألت شيخنا الزين العراقي عن حديث: (المُكاتَبُ قِنٌّ ما بقي عليه درهم)[4] مَنْ صحَّحه؟ فقال: لا أدري. فلقيتُ ابن حجر يومئذٍ ــ وهو إذ ذاك ليس في لحيته شعرة بيضاء! ــ فسألته عنه، فقال في الحال: صححه ابن حبان والحاكم من حديث عبد الله بن عمرو، وهما في كتب

---

(١) المرجع السابق: ص ٢٦٠، ٢٦١.

(٢) المرجع السابق: ص ٦٤.

(٣) عنوان الزمان: ١/ ٩٢، نقلاً عن تغليق التعليق: ١/ ١٧٥.

(٤) العَبْد القِنّ: الذي مُلِكَ هو وأبواه.

شيخنا، وعيَّن له مكان الحديث»[1].

ويقول في موضع آخر: «ومن سعة حفظه أنه حضر ليلة من ليالي رمضان بجانب الحاكم للصلاة خلف ابن الكُويز، وصلّى للناس التراويح عقب ختمه القرآن على جاري عادة الأولاد فجلس بجانب المحراب ينتظر مجيء المذكور، وكان الشيخ شهاب الدين ابن أسد يقرأ في «الترغيب والترهيب» للمنذري للجماعة الحاضرين إلى أذان العشاء. فلما انتهت القراءة ثم الصلاة، قال له شيخنا: يا شيخ شهاب الدين، سقط من نسختك حديث كذا وحديث كذا!! فقال: والله يا مولانا شيخ الإسلام بل حذفت ذلك عمداً لعدم إتقاني للفظهما الساعة، وما تيسَّر لي قبل المجيء تحريرهما، فسكت»[2].

وقد جمع إلى ذلك النباهة الفائقة، والتيقظ اليقظ، حتى إنه كان يكتب الفتوى مع إسماعه لقراءة طلاب العلم عليه، دونما إخلال بواحدة منهما.

من ذلك أنه اجتمع مرة بمؤرخ العصر التقي المقريزي، فتحدثا، وابن حجر مشغول بالكتابة، فرامَ المقريزي قطع الحديث لئلا يشغله عما هو فيه، فقال له: «إن ذلك لا يمنعني عن الإصغاء والفهم لما تقوله، بل ربما أكون حين الكتابة أحضر بالاً مني عند عدمها، في بعض الأوقات»[3].

ويقول السخاوي: «وكان رحمه الله ــ لسعة حفظه ووفور استحضاره ــ لا يمتنع من كتابة الفتوى، بل والتصنيف وغيره في حالة الإسماع، ويردُّ مع ذلك على القارىء السَّقط في السند، والتحريف فيه وفي

---

(١) الجواهر والدرر: ص ٢٣٧ ــ ٢٣٨، وقد ذكر السخاوي أن البساطي عرض ذلك على العراقي، فكشف المظانَّ التي عزا ابن حجر الحديث إليها؛ فوجد الأمر كما قال.

(٢) الجواهر والدرر: ص ٣٢١ ــ ٣٢٢.

(٣) المرجع السابق: ص ١٠٩.

المتن، وأمره في ذلك أجلُّ من أن يذكر. وقد حكي لي قاضي القضاة البدر ابن التَّنَسي ــ رحمهُ الله تعالى ــ قال: كنت آتيه للقراءة عليه، فلا أراه يترك الكتابة حين قراءتي، فعل ذلك معي مراراً. فقلت في نفسي: أنا أجيء من المكان البعيد، وهو لا يعبأ بي؟! فعسى أن يحصل خلل أو تحريف، وصرت في ألمٍ بذلك. فأضمرت في نفسي يوماً أنني أتعمد إسقاط شيء، أمتحنه به، ففعلت ذلك، فبمجرد أن مررت فيه رفع رأسه وقال: أعد! فأعدت القراءة على الصواب، فأطرق، وعلمت أنه غير غافل عني».

قال السخاوي: «ورأينا منه العَجب في ذلك»[1].

●● ومن مواهبه النادرة القراءة السريعة مع الضبط التام:

«فقد قرأ السنن لابن ماجه في أربعة مجالس، وقرأ صحيح مسلم بالمدرسة المنكوتمرية على مسنِد مصر الشرف أبي الطاهر محمد بن العز محمد بن الكُوَيْك الربعي، في أربعة مجالس سوى مجلس الختم، وذلك في نحو يومين وشيء، فإنه كان الجلوس من بكرة النهار إلى الظهر»[2].

«وكذا قرأ كتاب النسائي الكبير على الشرف المذكور في عشرة مجالس، كل مجلس منها نحو أربع ساعات».

«وأسرع شيء وقع له أنه قرأ في رحلته الشامية «معجم الطبراني الصغير» في مجلس واحد بين صلاتي الظهر والعصر، وهذا الكتاب في مجلد، يشتمل على نحو من ألف حديث وخمسمائة حديث؛ لأنه خرَّج فيه عن ألف شيخ، عن كل شيخ حديثاً أو حديثين.

ومن الكتب الكبار التي قرأها في مدة لطيفة «صحيح البخاري»،

---

(١) المرجع السابق: ص ٣١٩. وقد جاء مثل ذلك عن الحافظ الدارقطني والحافظ المزي، وغيرهما.

(٢) الجواهر والدرر: ص ١٠٣.

حدث به الجماعة من لفظه بالخانقاه البيبرسية في عشرة مجالس، كل مجلس منها أربع ساعات»[1].

«وفي مدة إقامته بدمشق ـ وكانت شهرين وثلث شهر ـ قرأ فيها قريباً من مائة مجلد، مع ما يعلقه ويقضيه من أشغاله»[2].

---

(١) المرجع السابق: ص ١٠٤.

(٢) ذيول تذكرة الحفاظ: ص ٣٣٦ ـ ٣٣٧. لكن هذا لم يعجب الكوثري حيث يقول ـ في حواشيه على ذيول التذكرة ـ معلقاً على قراءة الحافظ المعجم الصغير في مجلس واحد: «وهذا غاية في الإسراع، وما يبلغ إلى هذا الحدِّ من السرعة في القراءة يفوِّت الضبط، ويوقِع في التخليط، وإن افتتن بذلك كثير من المحدثين، وليس هذا مما يعد منقبة للمكثرين من السماع والتسميع، ولعل الأوهام التي نراها في كتب ابن حجر تأتي من هذه الناحية»!

ونحن نقول: إن الأوهام التي في كتب ابن حجر ليست شيئاً غريباً، وهل في دنيا المسلمين، بل في تاريخ العلم عند كل أمم الأرض، عالم لم يَهِمْ ويَسْهُ ويخطِئ؟! وهم أولاء كبار علماء الإسلام ـ في شتى الفنون ـ قد وهَّم بعضهم بعضاً، وأشار اللاحق إلى خطأ السابق في مواضع تكثر أو تقلّ، وأخطاء ابن حجر وأوهامه إذا قيست بما عند غيره لم تكد تذكر، وإذا أخذنا بعين الاعتبار والإنصاف الكمّ الهائل الذي خلَّفه من تصانيف ـ مع ما كان يشغله من مناصب وأعمال ـ كانت أوهامه نقطة من بحر. وقد انعقد لسان الإجماع على جودة تصانيفه ودقتها وإتقانها، ولو أن عالماً جرَّد قلمه وحمل نفسه على نسخ كتب بحجم مصنفات الحافظ ـ ولا نقل تصنيف مثلها ـ لوقع منه أضعاف ما وقع لابن حجر من السهو والخطأ؛ فالإنسان محل الذهول والنسيان، وليس القلم بمعصوم من الطغيان.

وأما أن قراءته لم تكن قراءة ضبط، فهذا ادعاء باطل! ومن أين له هذا، وهو شيء لم يذكره أحد ممن ترجم ابن حجر، سابقاً أو لاحقاً، على اختلاف مشاربهم؟! ثم واقع حال ابن حجر في إملائه وإسماعه وتدريسه وتصنيفه وتخريجه؛ يشهد ببطلان ذلك الادعاء.

وأما قوله إنّ هذا مما افتتن به كثير من المحدثين وليس بمنقبة، فنقول: بل هو محض منَّة وكرامة ومنحة من الله تعالى، وبركة في أوقات وحواس ذلك السلف =

●● **كذلك سرعته في الكتابة، وقد كتب بخطه ما لا يدخل تحت الحصر:**

فمن ذلك ما يذكره السخاوي عنه أنه كتب ـ في رحلته الأولى إلى اليمن ـ كتاب «التقييد»[1] لابن نقطة في خمسة أيام، و «فصل الربيع في

= الصالح. وقد تكاثرت الأخبار في «سرعة القراءة والمباركة في الوقت» عن الأكابر، من لدن الصحابة وحتى عصرنا. وإلاَّ فماذا يقول الكوثري ـ رحمه الله ـ فيما صح عن عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه أوتر بركعة قرأ فيها القرآن كله؟! والشافعي الذي كان يختم القرآن في رمضان ستين مرة مع ما له من أشغال وعبادة وغيرها؟ وكذلك كثرة المؤلفات التي خلَّفها كثير من علمائنا التي إذا قيست بأعمارهم لكانت ضرباً من الخيال، وخذ مثلاً «ميزان الاعتدال» للذهبي، الذي ألَّفه في أربعة أشهر إلَّا يومين، ويقع في أكثر من (٢٦٠٠) صفحة، تضمنت زهاء (١١٠٠٠) ترجمة في الجرح والتعديل! وهذا الذهبي يروي أن الخطيب البغدادي قرأ «البخاري» في ثلاثة مجالس، ولم ينتقد هذا الخبر، وكذا ابن فهد لم يستغرب ما وقع لابن حجر؛ لأن هذا مألوف عندهم غير مستهجن. وهذا إمام الشام في عصره جمال الدين القاسمي نقل طرفاً من تلك الأخبار عن الخطيب البغدادي والفيروزابادي والعراقي وابن حجر، ثم قال: «فرحم الله هذه الهمم العالية، وأسكنها غرف الجنان السامية»؛ الفضل المبين: ص ٢١١ ـ ٢١٣. كما ذكرها في كتابه «قواعد التحديث»، وساق ما حدث له من إسماع صحيح مسلم وسنن ابن ماجه والموطأ، ومطالعة «تقريب التهذيب» مع التعليق والتصحيح والتحشية، ثم يقول: «وهذه الكتب قرأتها بإثر بعضها، فأجهدت نفسي وبصري، حتى رمدت بأثر ذلك، شفاني الله بفضله، وأشفقت من العَوْد إلى مثل ذلك، وتبين أن الخيرة في الاعتدال. لا يُنكر أن بعض النفوس لا تتأثر بمثل ذلك لقوة حواسها، وللإنسان بصيرة على نفسه هو أدرى بها» ص ٢٦٢ ـ ٢٦٣. وهذا غاية في الإنصاف من هذا العالم الجليل، وغفر الله للكوثري، ورحم الله الجميع. وانظر أيضاً: فهرس الفهارس ٢/١٠٤٤ ـ ١٠٤٩.

(١) هو تراجم الرواة الذين اتصلت من طريقهم الكتب الستة وغيرها من الكتب والمسانيد.

فضل البديع»[1] في يومين متتاليين، فرغ منه وقت العصر من اليوم الثاني[2].

ويضيف السخاوي قائلاً: «وسمعته يقول: كنت أكتب في تلخيصي «لتهذيب المِزّي» إلى الزوال كرّاساً في الكامل». وهو كسلاسل الذهب، غاية في النسبة، يكون بخط غيره نحو كراسين فأكثر.

ثم يقول: «وسمعت أنه كان يكتب من «البخاري» جزءاً من ثلاثين في اليوم. ومن الغريب أنه انتقى «فهرست الحافظ السِّلَفِيّ» وهو متوجه إلى مكة حال ركوبه في المحارة سائراً، على ما رأيته بخطه. وكذا بلغني أنه كان يكتب وهو في الشقدف[3] في رجوعه من اليمن إلى مكة»[4].

---

(١) للزكي عبد العظيم بن عبد الواحد المصري، ويقع في تسع كراريس.

(٢) الجواهر والدرر: ص ٨٨، ١٠٨.

(٣) مركب معروف في الحجاز.

(٤) الجواهر والدرر: ص ١٠٨، وقد ذكر المزيد في ص ١٠٨ ــ ١٠٩. هذا وقد جوَّد الحافظ ابن حجر الخطَّ على نور الدين البدماصي حين مجاورته بمكة سنة (٧٨٦هـ)، ثم على شيخه الإمام المفيد شيخ الكتاب محمد بن أحمد الزفتاوي، وأخذ عن شيخ مُكتب الوقت الزين عبد الرحمن بن الصايغ، الذي كتب عنده يسيراً، وأذن له أن يكتب على طريقة الكتاب؛ الجواهر والدرر: ص ١٠٧ ــ ١٠٨.

وقد شهد له بحسن الخط شيخه البدر البشتكي فقال: «وكتب الخط الحسن طريقة الشيخ جمال الدين محمد بن نباتة المصري، وكتب به الكثير»؛ الجواهر: ص ٢٢٦. وقال ابن قاضي شهبة: «وكتب الأجزاء والطباق بخطه الحسن وبهر في الحديث»؛ الجواهر: ص ٢٤٣، والطباق: السماعات. وذكرت مثل ذلك محققة «جزء الوقوف»: ص ١٦.

لكن الكوثري ــ رحمه الله ــ زعم أنه رديء الخط، ومع رداءة خطه ما كان يجري في كتاباته على نمط واحد، وكثيراً ما يتراجع عما كتبه أولاً، فيغير في كتاباته، حتى تصبح مبيضته مسودة. باختصار عن ذيول التذكرة: ص ٣٣٦. =

●● ونتج عن ذلك سرعته في التأليف مع جودته وإتقانه:

من ذلك أنه استخرج «جزء الوقوف على ما في صحيح مسلم من الموقوف» في ثلاثة أيام. حيث قال الحافظ في نهاية ذلك الجزء: «علقه الفقير أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن علي بن حجر في ثلاثة أيام، من أول ذي الحجة سنة ثلاث وثمانمائة بحلب، حرسها الله تعالى»[1].

وذكر السخاوي أن من جملة ما خرجه شيخه في رحلته الأولى إلى اليمن «كتاب الأربعين المهذبة بالأحاديث الملقبة» في يوم واحد[2].

وكتابه «الرحمة الغيثية في الترجمة الليثية» ألَّفه في يومين، كما ذكر ذلك في آخره حيث قال: «علقه أحمد بن علي بن حجر في يومين، آخرهما الثالث عشر من شعبان سنة أربع وثلاثين وثمانمائة»[3].

٥ ـ مداومته على طلب العلم، وانكبابه عليه، وأخذه عن كبار علماء عصره:

لقد رُزق الإمام همة عالية وثّابة، لا تعرف الصعب، ولا تأبه بالمشقات، فشمَّر عن ساعة الجد، وجدَّ في الطلب «وأخذ ـ رضي الله عنه ـ بهمَّة وافرة، سليمة باهرة، في طلب العلوم، منقولها ومعقولها، حتى بلغ الغاية القصوى، وصار كلامه مقبولاً عند أرباب سائر الطوائف، لا يعدون مقالته لشدة ذكائه، وقوة باعه»[4].

= ونحن وإن كنا نعتقد بأن هذا ليس منقصة لابن حجر، والتراجع عما كتبه وتعديله ليس بِدْعاً؛ لكن الإنصاف أن نأخذ برأي من رآه وعاصره من أشياخه وتلامذته وأقرانه، ونؤكد ذلك بما نراه من التراث الضخم الذي نشر من تصانيف ابن حجر، فلو كان رديء الخط كيف تسنّى لهم قراءته ونشره؟!

(١) جزء الوقوف: ص ١١٩.

(٢) الجواهر والدرر: ص ٨٨.

(٣) الرحمة الغيثية: ص ١٥١.

(٤) الجواهر والدرر: ص ٧٩.

وواصل الغدوَّ والرواح إلى المشايخ في البواكر والعشايا، وأكثر من الأسفار والترحال في ديار الإسلام، وضرب أكباد المطيِّ، وركب البحر وتعرض للأهوال غير مرة، في سبيل تحصيل العلم، خالصاً لله تعالى.

وكان من تمام نعم الله عليه، ومن أسباب تفوقه ونبوغه؛ توفر رؤوس العلماء في كل فن، فأطال ملازمتهم وأكثر من الأخذ عنهم، من أمثال: العراقي، والهيثمي، والبلقيني، وابن الملقن، وابن جماعة، والفيروزابادي، والغماري، والتنوخي، وغيرهم ممن سبق ذكرهم.

وبلغ من حرصه على طلب العلم أنه استأجر بعض الكتب، وسعى في إعارة بعضها له. ومن عجائب ذلك الحرص أنه في السفرة الحلبية أراد قراءة «مشيخة الفخر ابن البخاري» على محدث الديار الحلبية سبط ابن العجمي، فلم يكن بحلب من المشيخة المذكورة نسخة، فجهز ابن حجر من أحضرها له من دمشق[1]!!

٦ ــ حسن استغلاله وقته، وتنظيمه له، وعدم إضاعته لحظة منه دونما فائدة:

فالوقت رأسمال الإنسان، وبحسن استغلاله ينال المعالي والمكارم في الدنيا، ويفوز ــ إن أخلص ــ برضوان الله في جنته وكرامته في الآخرة، ومن أضاع وقته فقد ضيَّع نفسه، ومن أهدر جزءاً من وقته، فإنما يبتر بعضاً من جسمه وعمره.

ولقد سطر السلف الصالح مواقف في حسن استغلال الوقت والإفادة منه هي غاية في الروعة والإجلال والإكبار. ولقد كان ابن حجر واحداً من ذلك الرهط المبارك، حيث ضرب أروع الأمثلة في المحافظة على الوقت، ودقة تنظيمه، والبراعة في استغلاله؛ بحيث لا يضيع لحظة دونما فائدة من

---

(١) المرجع السابق: ص ١٢٢ ــ ١٢٣.

تعلم أو تعليم أو تصنيف أو عبادة، أو غير ذلك مما يعود عليه وعلى مجتمعه بالفائدة.

يقول السخاوي: «إنما كانت همته المطالعة والقراءة، والسماع، والعبادة، والتصنيف، والإفادة، بحيث لم يكن يُخْلي لحظة من أوقاته عن شيء من ذلك، حتى في حال أكله وتوجهه وهو سالك، كما حكى في ذلك بعض رفقته الذين كانوا معه في رحلته. وإذا أراد الله أمراً هيأ أسبابه».

ثم يقول: «وقد سمعته ـ رحمه الله ـ يقول غير مرة: إنني لأتعجب ممن يجلس خالياً عن الاشتغال».

ويضيف السخاوي قائلاً: «ويدل على مصداق قوله، ما أخبرني به بعض أصحابنا، أنه شاهده يوماً بالمدرسة الصالحية النجمية[1]، وهو جالس في بعض بيوتها، ولم يكن عنده إذ ذاك شيء من الكتب، فاستدعى من بعض من حضره مصحفاً، فبادر لذلك، فأخذ في التلاوة منه، فمرَّ على سورة أخطأ الكاتب في عدِّ آيها، فكتب مقابلها بالهامش: الصواب كذا، أو: بل عدتها كذا. فلم يسهل عليه ـ رضي الله عنه ـ أن يجلس بطّالاً، ولم يخلِ المصحف مع ذلك من فائدة، وهكذا كان دأبه في غالب ما يقف عليه من الكتب العلمية والأدبية وغيرها».

و «توجه مرة للمدرسة المحمودية فلم يجد مفتاحها، كان قد سهى عنه بمنزله، فأمر بإحضار نجار، وشرع هو في الصلاة إلى أن انتهى النجار من فتح الباب. وقيل له: لو أرسلت أحضرت المفتاح من البيت كان أقل كلفة؟ فقال: هذا أسرع، ويحصل الانتفاع بالمفتاح الثاني».

«وتوجه مرة هو وصهره القاضي محب الدين ابن الأشقر في السّماسم بالخانقاه، فأخرج من جيبه مصحفاً حمائلياً، وشرع في التلاوة فيه. وكان

(١) أسسها الملك الصالح نجم الدين أيوب، وتتكون من أربع مدارس، واحدة لكل مذهب.

ـ رحمه الله ـ إذا جلس مع الجماعة بعد العشاء وغيرها للمذاكرة تكون السبحة داخل كمِّه بحيث لا يراها أحد، ويستمرُّ يديرها وهو يسبِّح أو يذكر غالب جلوسه. وربما تسقط من كمِّه، فيتأثر لذلك رغبة في إخفائه. وكان حين كان يصلي الشيخ غرس الدين خليل الحسيني بجانبه التراويح؛ يستخبر منه عن المتشابه في القرآن، حتى لا يخلو جلوسه بين الترويحتين من فائدة»[1].

تلك هي سيرته في الإفادة من وقته، وعدم تضييع لحظة منه، وكأنه يردد مع الشاعر قوله:

همَّتي دُونَها السُّها والزُّبانا قد عَلَت جهدها فما يتدانى
فأَنا متعَبٌ معنًّى إلى أَنْ تتفانى الأيامُ أو أَتَفَانَى

أما طريقته في استغلال وقته، وتنظيم ساعات يومه «فكان في أوائل أمره يصلي الصبح بغَلَس في جامع الحاكم، ثم صار ـ ولعله بعد ولايته القضاء ـ يصليه وقت الإسفار بالمدرسة المنكوتمرية، يجيء إليها من خلوته النافذة لمنزل سكنه، فإذا فرغ من الصلاة، فإن كان لأحد حاجة كلَّمه، ثم يدخل إلى منزله، فيشتغل بأذكار الصباح أو التلاوة. ثم يأخذ بالمطالعة والتصنيف إلى وقت صلاة الضحى، فيصليها، ثم إن كان بالباب مَنْ يستأذن للقراءة ظهر إليهم، فقرأ بعضهم رواية، وبعضهم دراية، واستمر جالساً معهم إلى قرب الظهر. ثم يدخل إلى منزله قدر ثلث ساعة، ثم يقوم فيصلي الظهر داخل بيته، ثم يطالع أو يصنف إلى بعد أذان العصر بنحو ثلثي ساعة، أو أقل أو أكثر، فيظهر إلى المدرسة، فيجد الطلبة وغيرهم في انتظاره، فيصلي بهم العصر، ثم يجلس للإقراء. وفي غضون قراءتهم عليه، وكذا في نوبة الصباح؛ يكتب على ما يجتمع عنده من الفتاوى الحديثية والفقهية وربما دار بينه وبين الطلبة كلام في بعضها.

---

(١) الجواهر والدرر: ص ١١٠ ـ ١١١.

ولا ينتهي ـ غالباً ـ من هذه الجلسة إلَّا عند الغروب، فيدخل إلى منزله، فإن لم يكن صائماً تعشى، وإلَّا انتظر الأذان، فيأكل، ثم يصلي، ويشتغل أو يطالع إلى أن يسمع العشاء، فيقوم إلى المدرسة، فيجد جمعاً من الطلبة أيضاً في انتظاره، فيصلي ركعتين، ثم يجلس للقراءة غالباً، أو للمذاكرة، أكثر من ساعة، ثم يقوم فيصلي العشاء بالجماعة، ثم يدخل إلى بيته، فيصلي سنَّة العشاء. وأما في أيام الدروس والولايات، فيختل هذا النظام قليلاً»[1].

٧ ـ توافر الكتب والمراجع لديه:

الكتب والمكتبات هي المعين الثرّ الذي ينهل منه العالم، فيغذي فكره وعقله، حيث يطلع على الآراء المتعددة في الموضوع الواحد، والمسألة الواحدة، وينظر في طرق التفكير والاستنباط ومناهج التأليف عند جماهير العلماء؛ فيتخير منها ما يشاء، ليخط لنفسه المنهج الذي يريد.

ولقد توفر للإمام الحافظ من ذلك الشيء الكثير، فقلَّ من المدارس التي كانت قريبة منه إلَّا وفيها خزانة كتب جامعة: مثل خزانة كتب «المدرسة الظاهرية القديمة»، التي فيها الأمهات من سائر العلوم، وخزانة كتب «المدرسة الصاحبية البهائية»، وأيضاً الخزانة التي في «المدرسة المحمودية» التي تولى ابن حجر أمانتها والقيام على شؤونها، وكان يقيم فيها يوماً من الأسبوع، وفيه يراجع ويحرِّر ويبحث عما استشكله طوال أيام ذلك الأسبوع، حيث تتوفر المراجع لديه هناك. بل يذكر البقاعي أنه كان عند ابن حجر من الكتاب الواحد عدة نسخ، فيراجع كلًّا منها، بل أحياناً يراجع أصولها وأصول أصولها؛ فيعرف من أين أخذ اللاحق عن السابق[2]. لذا جاءت مصنفاته في غاية التحرير والجودة والإتقان.

---

(١) ملخصات من الجواهر والدرر للشيخ طاهر الجزائري، ص ٥٢ ـ ٥٤، نقلاً عن تغليق التعليق: ١/١٧٨ ـ ١٧٩.

(٢) عنوان الزمان: ١/١٣٦، نقلاً عن تغليق التعليق: ١/١٧٧.

٨ ــ مناصبه ووظائفه التي شغلها:

فمنصب القضاء والإفتاء والتدريس والإملاء والخطابة وغيرها؛ قد فتحت أمامه مجالاً واسعاً خصباً للبحث والتنقيب، والتتبع والاطلاع الدائم العريض، وذلك بما يطرح عليه من أسئلة، أو يعترضه من إشكالات، أو فيما يجري بينه وبين أقرانه وتلامذته من بحوث ومناقشات، كلها تدفعه لمزيد البحث وديمومته؛ فتتسع معارفه، وتتنامى مداركه. وقد انعكس ذلك على تواليفه الزاهرة البديعة.

٩ ــ رفقته وإعانتهم له بالقراءة والكتابة، والعارية والمذاكرة، والتنبيه على ما قد يبدر منه من خطأ أو سهو:

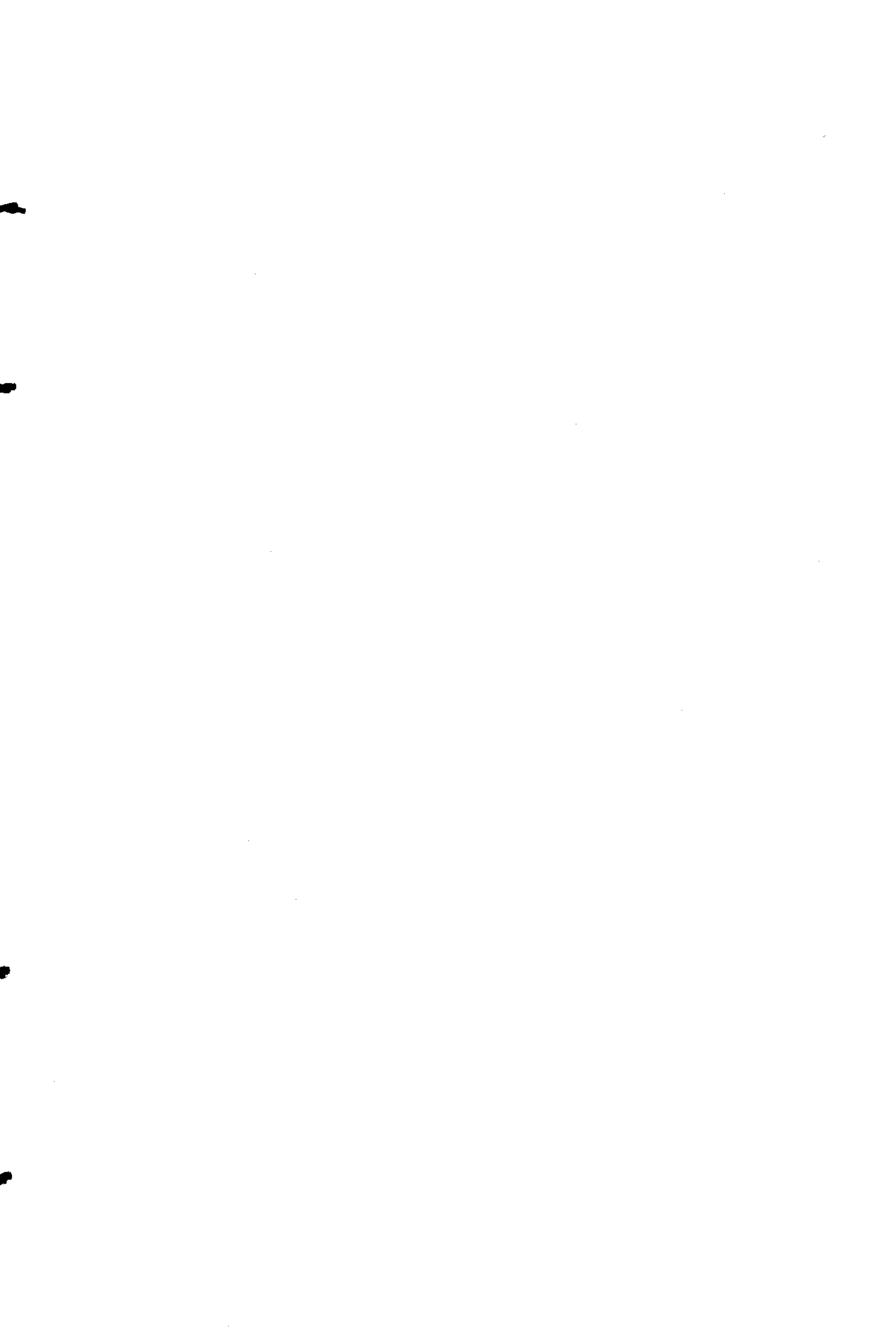
أولئك الرفقة الذين رُزقهم ابن حجر، قد وصفهم السخاوي بأنهم: «كانوا غاية في الديانة والتواضع والاغتناء بالبيان والاهتمام بفنونه، والبعد عن التوغل في الغلِّ والحسد والكتمان وتكرر ذكر ما يقتضي الامتنان. فذا يعين رفيقه نوبة بالقراءة، ومرة بالكتابة، وأخرى بالعارية، ووقتاً بالمذاكرة، ومرة بالتنبيه على ما السلامة منه مختصة بالمعصومين. والآخر يفعل مع رفيقه أيضاً كذلك ويُجَمِّل كل واحد منهم الآخر بقلمه ولسانه، ويوجه ما ظاهره القبيح من قول أو فعل بالتوجيه المرضي، حتى يصرفه عما يخالفه، ويثني من تأخرت وفاته على صاحبه الثناء الجميل وربما يرثيه إن أحسن. ولتلبُّسهم بذلك كانت لهم جلالة ووجاهة، وفيهم كثرة»[1].

هذه العوامل مجتمعة حريَّة بأن يتخرج بها ذلك العَيْلم الفذ، الذي كان قمة القمم، وصدر المتصدرين، في علوم كثيرة، وخاصة الحديث وفنونه.



---

(١) الجواهر والدرر: ص ١٠٩.



الفصل التاسع
تلاميذه

اشتهر أمر ابن حجر بين الخاصة والعامة، وعلا ذكره، وارتفع قدره، وطارت مصنفاته في الآفاق، وتبوأ في العلم مكاناً علياً؛ فأصبح مهوى أفئدة الطالبين، ومحطّ رحالهم، فتوافدوا إليه من الأقطار، وقرؤوا عليه، وسمعوا منه.

وقد كان ـ رحمه الله ـ محباً لطلابه، يبشّ في وجوههم، ويحسن إليهم، ويقضي حوائجهم، ويلاطفهم؛ مما زادهم فيه حباً، وله توقيراً وتبجيلاً.

يقول البدر البشتكي: «وهو حسن الوجه، لطيف المعاشرة، محب للطلبة، له ثروة، وحصل له إقبال من أعيان الديار المصرية، وما نزل ببلدة إلّا أقبل عليه كبراؤها، وأدْنَوه منهم»[1].

ويقول العلامة الحافظ التقي أبو الطيب الفاسي: «وله من حسن البِشْر، وحلاوة المذاكرة والمروءة، وكثرة العناية لقضاء حوائج أصحابه، ما كَثُرَ الحمدُ له بسببه»[2].

ويقول محدث حلب العلامة أبو ذر ابن البرهان الحلبي[3]: «وأما لطائفه وملاطفاته للطلبة والإحسان إليهم، فلا تكاد توصف، وقد كنت أسمع به وبأوصافه، فلما شاهدته رأيته فوق ذلك:

---

(١) الجواهر والدرر: ص ٢٢٦.

(٢) المرجع السابق: ص ٢٢٧.

(٣) المرجع السابق: ص ٢٥٥.

كانت مُساءَلةُ الركبان تُخبرني ... عن أحمد بن علي أحسن الخَبرِ
لما التقينا فلا واللهِ ما سمعتْ ... أُذني بأحسن مما قد رأى بَصَرِي

فلا عجب أن توافدت عليه طلبة العلم، وسعوا للأخذ عنه، فركبوا الصعاب، واستعذبوا في سبيل ذلك المشاق، حتى أناخوا برحاب علمه، وأخذوا عنه طبقة بعد طبقة، وتخرج به كثير من الشيوخ والأقران.

وفي ذلك يقول السخاوي: «كثرت طلبته حتى كان رؤوس العلماء من كل مذهب من تلامذته. وأخذ الناس عنه طبقة بعد أخرى، وألحق الأبناء بالآباء، والأحفاد وأبناءهم بالأجداد، ولم يجتمع عند أحد مجموعهم»[1].

ويقول البرهان البقاعي[2]:

رحَلَتْ إليكَ الطالبونَ ليقتدوا ... وتتابعوا سُبقاً من الأقطارِ
وتراكضوا خيلَ الشبيبةِ حين لمْ ... توكس بوهْنٍ أو بوصف عوارِي
فارقتُ في أرض البِقَاع عشائري ... أطوي إليكَ فيافياً وصحارِي
فارقتُ منهم كلَّ أروع ماجدٍ ... حامي الذِّمارِ بسيفه والجارِ

ولقد سرد السخاوي في «الجواهر والدرر» أسماء جماعة من الذين أخذوا عنه رواية ودراية، وأوصل عددهم إلى خمسمائة شخص.

وسوف نعرّف بأعيان هؤلاء على وجه الإيجاز، وبآخرين منهم باختصار.

١ ـ الحافظ السَّخَاوي[3] (٨٣١ ـ ٩٠٢هـ):

هو محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر بن عثمان بن

---

(١) المطالب العالية: ١/الصفحة هـ.
(٢) الجواهر والدرر: ص ٣٣٠؛ فتح الباري: ١٣/٥٥٢ ـ ٥٥٣.
(٣) انظر ترجمته في: البدر الطالع: ٢/١٨٤؛ شذرات الذهب: ٨/١٥؛ الأعلام: =

محمد، شمس الدين، السخاوي الأصل، القاهري المولد، الشافعي المذهب. أصله من «سخا» من قرى مصر، ومولده في القاهرة، ووفاته في المدينة.

من أكابر العلماء، مؤرّخ حجة، علامة في الحديث ورجاله، والتفسير والفقه واللغة والأدب، انتهى إليه علم الجرح والتعديل.

ولد في ربيع الأول سنة (٨٣١هـ)، وحفظ كثيراً من المختصرات، وقرأ على الجمال ابن هشام، وصالح البلقيني، والشرف المناوي، والشمني، وابن الهمام، وابن حجر ولازمه وانتفع به، وتخرج به في الحديث، وأقبل على هذا الشأن بكليته، وتدرب فيه، وسمع العالي والنازل، وأخذ عن مشايخ عصره بمصر ونواحيها حتى بلغوا أربعمائة شيخ، ثم حج وأخذ عن مشايخ مكة والمدينة، ثم عاد إلى وطنه، وارتحل إلى الإسكندرية والقدس والخليل ودمياط ودمشق وسائر جهات الشام ومصر، وبرع في هذا الشأن، وفاق الأقران، وحفظ من الحديث ما صار به متفرداً عن أهل عصره. ثم حج في سنة (٨٧٠هـ) هو وأهله وأولاده، وجاور وانتفع به أهل الحرمين، ثم عاد إلى القاهرة، وأملى الحديث على ما كان عليه أكابر مشايخه ومشايخهم، وانتفع الناس به. ثم حج مرات، وجاور مجاورات، وخرّج لجماعة من شيوخه أحاديث، وجمع كتاباً في تراجم شيوخه في ثلاثة مجلدات.

وكان يروي صحيح البخاري عن أزيد من مائة وعشرين نفساً! واجتمع له من المرويات بالسماع والقراءة ما يفوق الوصف، وكان بينه وبين النبي ﷺ عشرة أنفس.

= ٦/١٩٤؛ معجم المؤلفين: ١٠/١٥٠؛ ونظم العقيان للسيوطي، وقد شنع عليه وبخسه حقه، لما بينهما من منافسة، انظر: ص ١٥٢.

وسمع الكثير على شيخه الحافظ ابن حجر، ولازمه أشد الملازمة، وحمل عنه ما لم يشاركه فيه غيره، وأخذ عنه أكثر تصانيفه.

وقد غلبت عليه محبة شيخه الحافظ ابن حجر، فصار لا يخرج عن غالب أقواله، كما غلبت على ابن القيم محبة شيخه ابن تيمية، وعلى الهيثمي محبة شيخه العراقي.

له اليد الطولى في المعرفة بأسماء الرجال، وأحوال الرواة، والجرح والتعديل، وإليه يُشار في ذلك، ولقد قال بعض العلماء: لم يأت بعد الحافظ الذهبي مثله سلك هذا المسلك، وبعده مات فن الحديث، وأسف الناس على فَقْده، ولم يخلّف بعده مثله.

وكان بينه وبين البرهان البقاعي والجلال السيوطي ما بين الأقران من المنافسة.

قال عنه شيخه ابن حجر: «هو أمثل جماعتي».

وقال تلميذه جار الله ابن فهد المكي: «ولقد والله العظيم لم أر في الحفاظ المتأخرين مثله، ويعلم ذلك كل من اطلع على مؤلفاته، أو شاهده».

ومن مصنفاته البديعة:

١ ــ فتح المغيث في شرح ألفية الحديث للعراقي.

٢ ــ شرح التقريب للنووي.

٣ ــ بلوغ الأمل في تلخيص كتاب الدارقطني في العلل.

٤ ــ المقاصد الحسنة.

٥ ــ الجواهر المكللة في الأحاديث المسلسلة.

٦ ــ شرح الشمائل للترمذي.

٧ ــ الذيل على رفع الإصر لابن حجر.

٨ ــ الذيل على طبقات القراء لابن الجزري.

٩ ــ الذيل على دول الإسلام للذهبي.
١٠ ــ الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التوريخ.
١١ ــ الضوء اللامع لأهل القرن التاسع.
١٢ ــ التاريخ المحيط، على حروف المعجم.
١٣ ــ القول البديع في أحكام الصلاة على الحبيب الشفيع.
١٤ ــ الغاية في شرح الهداية.
١٥ ــ القناعة فيما تمس إليه الحاجة من أشراط الساعة. وغير ذلك كثير.

توفي بالمدينة المنورة يوم الأحد الثامن والعشرين من شعبان من سنة (٩٠٢هـ)، ودفن بالبقيع بجوار مشهد الإمام مالك، رحمهما الله تعالى.

٢ ــ برهان الدين البِقَاعي[١] (٨٠٩ ــ ٨٨٥هـ):

هو الإمام برهان الدين إبراهيم بن عمر بن حسن الرُّبَاط ــ بضم الراء وتخفيف الباء ــ ابن علي بن أبي بكر، البقاعي، الشافعي، الإمام الكبير العلامة، المحدث الحافظ المفسر، المؤرخ الأديب.

ولد تقريباً سنة (٨٠٩هـ) بقرية «خربة روحا» من عمل البِقَاع، ونشأ بها، ثم تحول إلى دمشق، ثم فارقها ودخل بيت المقدس ثم القاهرة.

أخذ عن أساطين عصره، فقرأ على التاج ابن بهادر في الفقه والنحو، وعلى ابن الجزري في القراءات، والحديث عن ابن حجر. وأخذ عن التقي الحصني، والقاياتي، وأبي الفضل المغربي، وابن ناصر الدين، والحافظ ابن حجر ولازمه طويلاً.

قال الشوكاني: «... وبرع في جميع العلوم، وفاق الأقران، لا كما قال السخاوي إنه ما بلغ رتبة العلماء، بل قصارى أمره إدراجه في الفضلاء،

---

(١) انظر ترجمته في: نظم العقيان: ص ٢٤؛ شذرات الذهب: ٧/٣٣٩؛ البدر الطالع: ١/١٩؛ الأعلام: ١/٥٦؛ معجم المؤلفين: ١/٧١، وغيرها.

وأنه ما علمه أتقن فناً، قال: وتصانيفه شاهدة بما قلته! قلت: بل تصانيفه شاهدة بخلاف ما قاله، وأنه من الأئمة المتقنين المتبحرين في جميع المعارف، ولكن هذا من كلام الأقران في بعضهم بعض، بما يخالف الإنصاف، لما يجري بينهم من المنافسات تارة على العلم وتارة على الدنيا». ثم قال: «ومن أمعن النظر في كتاب المترجم له في التفسير الذي جعله في المناسبة بين الآي والسور، عَلِمَ أنه من أوعية العلم المفرطين في الذكاء، الجامعين بين علمي المعقول والمنقول. وكثيراً ما يشكل عليَّ شيء في الكتاب العزيز فأرجع إلى مطولات التفاسير ومختصراتها فلا أجد ما يشفي، وأرجع إلى هذا الكتاب فأجد ما يفيد في الغالب»[1].

وقد حج وغزا ورابط، وامتُحن فصبر، وتوفي رحمه الله في ليلة السبت ثامن عشر رجب سنة (٨٨٥هـ)، ودفن خارج دمشق من جهة قبر عاتكة.

ترجم له السخاوي في «الضوء اللامع» ترجمة مظلمة؛ لما كان بينهما من المنافسة وأنصفه السيوطي والشوكاني، رحم الله الجميع.

وبالجملة فقد كان البقاعي من أعاجيب الدهر وحسناته، وقد برع في فنون عديدة، وتميز وناظر وانتقد حتى على شيوخه. وصنف تصانيف عديدة جليلة منها:

١ ــ نظم الدرر في تناسب الآي والسور، سبع مجلدات، يعرف بمناسبات البقاعي، أو تفسير البقاعي.
٢ ــ عنوان الزمان في تراجم الشيوخ والأقران، أربعة مجلدات.
٣ ــ عنوان العنوان، مختصر عنوان الزمان.
٤ ــ الباحة في علمي الحساب والمساحة.

---

(١) البدر الطالع: ١/ ٢٠؛ والكتاب المشار إليه هو «نظم الدرر في تناسب الآي والسور».

٥ ـ بذل النصح والشفقة للتعريف بصحبة ورقة.
٦ ـ إشعار الواعي بأشعار البقاعي، ديوان شعر.
٧ ـ جواهر البحار في نظم سيرة المختار.
٨ ـ تنبيه الغبي بتكفير عمر بن الفارض وابن عربي.
٩ ـ القول المفيد في أصول التجويد.
١٠ ـ مختصر في السيرة النبوية والثلاثة الخلفاء.

٣ ـ زَكَرِيّا الأَنْصَاري[١] (٨٢٦ ـ ٩٢٦هـ):

هو زكريا بن محمد بن أحمد بن زكريا الأنصاري، السنيكي ثم القاهري، الأزهري، الشافعي، زين الدين، شيخ الإسلام، قاضي القضاة، من حفاظ الحديث، قاض، مفسر، فقيه، عالم مشارك في الفقه والفرائض والتفسير والقراءات، والتجويد والتصوف والنحو والتصريف والمنطق والجدل.

ولد بسنيكة[٢] سنة (٨٢٦هـ) ونشأ بها، وحفظ القرآن وعمدة الأحكام وبعض مختصر التبريزي، ثم تحول إلى القاهرة سنة (٨٤١هـ)، فقطن في الجامع الأزهر، وكمل حفظ «المختصر»، ثم حفظ المنهاج، والألفية النحوية، والشاطبية والرائية، ونحو النصف من ألفية الحديث.

وأقام بالقاهرة يسيراً، ثم رجع إلى بلده، وداوم الاشتغال وجدّ فيه، وكان ممن أخذ عنه: القاياتي، والعَلَم البُلْقَيْني، والشرف السبكي، والشمس الونائي، والحافظ ابن حجر، والزين رضوان، في آخرين. وحضر

---

(١) انظر ترجمته في: نظم العقيان: ص ١١٣؛ شذرات الذهب: ٨/١٣٤؛ البدر الطالع: ١/٢٥٢؛ الأعلام: ٣/٤٦؛ معجم المؤلفين: ٤/١٨٢؛ الرسالة المستطرفة: ص ٢١٥؛ إتحاف القاري: ص ١٢٥. وفي بعضها خلاف في سنة ولادته ووفاته.

(٢) بُليدة بشرقية مصر.

دروس الشرف المناوي، وأخذ عن الكافيجي وابن الهمام، ومن لا يحصى كثرة.

ورجع إلى القاهرة فلم ينفك عن الاشتغال والإشغال، مع الطريقة الجميلة، والتواضع، وحسن العشرة، والأدب والعفة، والانجماع عن أبناء الدنيا، مع التقلل وشرف النفس، ومزيد العقل، والاحتمال والمداراة.

وأذن له غير واحد من شيوخه في الإفتاء والإقراء، منهم شيخ الإسلام ابن حجر، وتصدى للتدريس في حياة شيوخه، وانتفع به الفضلاء طبقة بعد طبقة.

وولي تدريس عدة مدارس إلى أن رقي إلى منصب قضاء القضاة بعد امتناع كثير. ولم يزل ملازم التدريس والإفتاء والتصنيف، وانتفع به خلائق لا يحصون، منهم ابن حجر الهيتمي، الذي قال عن شيخه زكريا: «... فهو عمدة العلماء الأعلام، وحجة الله على الأنام، حامل لواء المذهب الشافعي على كاهله، ومحرر مشكلاته، وكاشف عويصاته، في بكره وأصائله، ملحق الأحفاد بالأجداد، المتفرد في زمنه بعلوّ الإسناد، كيف ولم يوجد في عصره إلاّ من أخذ عنه مشافهة أو بواسطة أو بوسائط متعددة».

ومصنفاته أشهر من أن تذكر، وهي كثيرة تزيد على الستين، نذكر منها:

١ ــ فتح الرحمن بكشف ما يلتبس من القرآن، في التفسير.
٢ ــ فتح الجليل، تعليق على تفسير البيضاوي.
٣ ــ تحفة الباري على صحيح البخاري، في اثني عشر مجلداً.
٤ ــ شرح ألفية العراقي، في مصطلح الحديث.
٥ ــ شرح شذور الذهب، في النحو.
٦ ــ تحفة نجباء العصر، في التجويد.
٧ ــ تنقيح تحرير اللباب، فقه.

٨ ــ غاية الوصول، في أصول الفقه.
٩ ــ أسنى المطالب في شرح روض الطالب، فقه.
١٠ ــ شرح إيساغوجي، في المنطق.
وغيرها كثير.

توفي رحمه الله يوم الجمعة رابع ذي الحجة بالقاهرة، ودفن بالقرافة بالقرب من الإمام الشافعي.

٤ ــ ابن الخَيْضِري[١] (٨٢١ ــ ٨٩٤هـ):

هو محمد بن محمد بن عبد الله بن خيضِر، قطب الدين أبو الخير ابن الخيضري، الزبيدي الدمشقي الشافعي. محدث، حافظ، أصولي، فقيه، مؤرخ، نسابة.

أصله من عرب البلقاء، ولد في «بيت لهيا» ــ من قرى دمشق ــ في رمضان سنة (٨٢١هـ)، ونشأ يتيماً في كفالة أمه. ونشأ بدمشق وأخذ عن جماعة منهم: ابن قاضي شهبة، والعلاء ابن الصيرفي. وسمع الحديث من شيوخ بلده والقادمين إليها، وتدرب بالحافظ ابن ناصر الدين والنجم ابن فهد، وقد زاد عدد مشايخه ببلده على المائتين. ثم ارتحل إلى القاهرة فسمع من ابن حجر ولازمه وأخذ عنه جملة من تصانيفه، وسمع على غيره. وسمع ببيت المقدس على ابن رسلان وطبقته، وسمع الكثير. وكان قد اجتمع بالحافظ ابن حجر بالشام وكتب عنه، وقرأ عليه، وانتفع به.

وصفه شيخه ابن حجر بالحفظ. وولّي قضاء الشافعية بدمشق، وكتابة السرّ بها، وعدّة مدارس بدمشق.

ومن تصانيفه:

(١) انظر ترجمته في: نظم العقيان: ص ١٦٢؛ البدر الطالع: ٢/٢٤٥؛ الرسالة المستطرفة: ص ١٢٥؛ الدارس في تاريخ المدارس: ١/٧، ٨؛ الأعلام: ٧/٥١، معجم المؤلفين: ١١/٢٣٧؛ إتحاف القاري: ص ٣٢٠، وغيرها.

١ ــ اللمع الألمعية لأعيان الشافعية في ثلاثة مجلدات.
٢ ــ الاكتساب في تلخيص كتاب الأنساب، في ثلاثة مجلدات.
٣ ــ البرق اللموع لكشف الحديث الموضوع، في مجلدين.
اختصر فيه موضوعات ابن الجوزي، وناقشه في كثير منها.
٤ ــ صعود المراقي في شرح ألفية العراقي.
٥ ــ شرح التنبيه للشيرازي، في فروع الشافعية.
٦ ــ اللفظ المكرم بخصائص النبي الأعظم.
٧ ــ الروض النضر في حال الخضر.

توفي في ربيع الأول سنة (٨٩٤هـ) بالقاهرة.

٥ ــ التقي ابن فهد المكي[1] (٧٨٧ ــ ٨٧١هـ):

هو محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن فهد، المكي، الشافعي، تقي الدين أبو الفضل.

ولد بأصفون ــ من صعيد مصر ــ وانتقل مع أبيه إلى مكة ــ وطن أسرته وأجداده ــ سنة (٧٩٥هـ)، فحفظ بها القرآن، والعمدة وألفية النحو والحديث.

وأول طلبه سنة (٨٠٤هـ)، فسمع الكثير من شيوخ بلده القادمين إليها، فكان ممن سمع عليه: ابن صديق، والزين المراغي، وأبو اليمن الطبري، والشريف عبد الرحمن الفاسي. ولقي باليمن الفيروزابادي وآخرين، ودخل اليمن مرتين. وانتفع بالجمال ابن ظهيرة، والصلاح خليل الأقفهسي، وابن الجزري المقرىء، والحافظ ابن حجر لما لقيه بمكة، وسمع من لفظه «المسلسل بالأولية»، وشيئاً من ترجمة البخاري، وجزءاً في

---

(١) انظر ترجمته في: ذيول تذكرة الحفاظ: ص ٢ ــ ٥؛ البدر الطالع: ٢/٢٥٩؛ نظم العقيان: ص ١٧٠؛ الأعلام: ٧/٤٨؛ معجم المؤلفين: ١١/٢٩١.

الحج، ونخبة الفكر، وتخريج الأربعين النووية، وقرأ عليه الإمتاع بالأربعين المتباينة بشرط السماع، وكلها مصنفات لابن حجر.

برع في الحديث، وأكثر من المسموع والشيوخ، وجدّ واجتهد، وعرف العالي والنازل، وشارك في فنون الأثر، وصار المعوّل عليه في هذا الشأن ببلاد الحجاز قاطبة، وكتب بخطه الكثير، وجمع المجاميع، وانتقى وخرّج لنفسه ولشيوخه فمن بعدهم.

ومصنفاته عديدة منها:

١ ـ نهاية التقريب وتكميل التهذيب بالتذهيب، جمع فيه بين تهذيب الكمال ومختصريه للذهبي وابن حجر.

٢ ـ النور الباهر الساطع من سيرة ذي البرهان القاطع، في السيرة النبوية.

٣ ـ الجنة بأذكار الكتاب والسنة.

٤ ـ وسيلة الناسك في المناسك.

٥ ـ لحظ الألحاظ بذيل طبقات الحفاظ. وغيرها.

توفي يوم السبت سابع ربيع الأول سنة (٨٧١هـ) بمكة، ودفن بالمعلاة.

٦ ـ الكمال ابن الهُمَام[١] (٧٩٠ ـ ٨٦١هـ):

هو محمد بن عبد الواحد بن عبد الحميد بن مسعود، السيواسي[٢] الأصل ثم الإسكندري، ثم القاهري، الحنفي، كمال الدين المعروف بابن الهمام.

---

(١) انظر ترجمته في: شذرات الذهب: ٢٩٨/٧؛ البدر الطالع: ٢٠١/٢؛ مفتاح السعادة: ٢٤٤/٢؛ الأعلام: ٢٥٥/٦؛ معجم المؤلفين: ٢٦٤/١٠، وغيرها.

(٢) سيواس من بلاد الروم.

عـالم مشـارك في الفقـه والأصـول، والتفسيـر، وعلم الـطبيعـة، والفرائض، والحساب، والتصوف، والنحو والصرف والمعاني، وغير ذلك.

ولـد بـالإسكنـدريـة ونبـغ في القـاهـرة، وأقـام بحلب مـدة، وجـاور بالحرمين، ثم كان شيخ الشيوخ بالخانقاه الشيخـونية بمصـر. وكان معـظماً عند الملوك وأرباب الدولة.

قـدم القاهـرة صغيراً، وحفظ عـدة من المختصرات، وعـرضهـا على شيوخ عصره، ثم شـرع في الطلب، فقـرأ على بعض أهل بلده بعـد أن عاد إليها، ثم رجع إلى القـاهرة، فقـرأ على العز ابن عبـد السلام، والبسـاطي، والشمني، والجلال الهندي، والـولي العراقي، والعـز ابن جماعـة، وسافـر إلى القدس وقرأ على علمائه. وسمع من جماعة كالحـافظ ابن حجر وغيـره ولم يكثر من علم الرواية، وتبحّر في غيره من العلوم وفاق الأقران.

وكان دقيق الذهن، عميق الفكر، يدقق المبـاحث حتى يحيّر شيـوخه فضـلاً عن من عداهم؛ بحيث كـان يشكك عليهم في الاصـطلاح ونحـوه، حتى لا يدرون ما يقولون!

تفرد في عصره بعلومه، وطار صيته، واشتهر ذكره، وأذعن له الأكابر فضلاً عن الأصاغر، وفضّله كثير من شيوخه على أنفسهم.

وقـد درّس بمدارس، وقـرره الأشرف بـرسباي في مـدرسته، وألبسـه الخلعة.

وصنف التصانيف النافعة، ومنها:

١ ــ فتـح القـديـر، في شـرح الهـدايـة، ثمـاني مجلدات في فقـه الحنفية.

٢ ــ التحرير، في أصول الفقه.

٣ ــ المسايرة في العقائد المنجية في الآخرة.

٤ ــ زاد الفقير، مختصر في فروع الحنفية.

٥ ــ كراسة في إعراب «سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم».

مات في يوم الجمعة سابع رمضان سنة (٨٦١هـ) بمصر، وحضر السلطان فمن دونه، وتأسف الناس على فقده، ولم يخلف بعده مثله، رحمه الله.

٧ ــ قاسم بن قُطْلُوبُغا[1] (٨٠٢ ــ ٨٧٩هـ):

هو قاسم بن قطلوبغا، زين الدين أبو العدل السودوني ــ نسبة إلى معتق أبيه سودون الشيخوني ــ الجمالي، المعروف بقاسم الحنفي. عالم بفقه الحنفية، مؤرخ باحث.

ولد بالقاهرة ونشأ بها، وحفظ القرآن العظيم، ثم أخذ في الجدّ حتى شاع ذكره، وانتشر صيته، وأثنى عليه مشايخه.

أخذ عن علماء عصره ومنهم الحافظ ابن حجر، وقد وصف شيخه قائلاً: «شيخنا العالم العلامة، الحافظ الفهامة، الجامع بين التحقيق والحفظ...»[2].

وقد عرف بالذكاء وقوة الحافظة، حتى وصفه شيخه ابن حجر بـ «الإمام العلامة، المحدث، الفقيه الحافظ».

ومصنفاته كثيرة مفيدة، منها:

١ ــ تاج التراجم، في علماء الأحناف.

٢ ــ رجال شرح معاني الآثار للطحاوي.

٣ ــ ثقات الرجال.

٤ ــ غريب القرآن.

---

(١) انظر ترجمته في: شذرات الذهب: ٣٢٦/٧؛ البدر الطالع: ٤٥/٢؛ الأعلام: ١٨٠/٥؛ معجم المؤلفين: ١١١/٨؛ الرسالة المستطرفة: ص ١٣١.

(٢) الجواهر والدرر: ص ٢٥٣.

٥ ـ نزهة الرائض في أدلة الفرائض.

٦ ـ الفتاوى.

٧ ـ رسالة في القراءات العشر.

وبالجملة فهو من حسنات الدهر، توفي في ربيع الآخر سنة (٨٧٩هـ) عن سبع وسبعين سنة بالقاهرة.

٨ ـ ابن تَغْري بَرْدي[1] (٨١٣ ـ ٨٧٤هـ):

هو يوسف بن تغري بردي بن عبد الله، الحنفي، أبو المحاسن، جمال الدين. إمام علامة، مؤرخ بحاثة.

ولد بالقاهرة، وحفظ القرآن العظيم، ولما كبر اشتغل بفقه الحنفية وحفظ القدوري، وتفقه بشمس الدين محمد الرومي وبالعيني وغيرهما، وأخذ النحو عن التقي الشمني ولازمه كثيراً، وتفقه به أيضاً، وأخذ التصريف عن الشيخ علاء الدين الرومي وغيره. وأخذ البديع عن الشهاب ابن عربشاه الحنفي وغيره، وحضر على ابن حجر العسقلاني وانتفع به، وأخذ عن أبي السعادات ابن ظهيرة وابن العليف، وغيرهما. ثم حبب إليه علم التاريخ فلازم مؤرخي عصره مثل العيني والمقريزي، واجتهد في ذلك إلى الغاية، وساعدته جودة ذهنه وحسن تصوره وصحة فهمه، ومهر وكتب، وحصّل وصنف، وانتهت إليه رياسة هذا الشأن في عصره. وسمع شيئاً كثيراً من كتب الحديث، وأجازه جماعات لا تحصى مثل ابن حجر والمقريزي والعيني.

أثنى على شيخه ابن حجر فقال: «وهو أوحد من لقيناه»[2].

---

(١) انظر ترجمته في: شذرات الذهب: ٣١٧/٧؛ البدر الطالع: ٣٥١/٢؛ الأعلام: ٢٢٢/٨؛ معجم المؤلفين: ٢٨٢/١٣. ومعنى «تغري بردي» بلغة التتار: الله أعطى. شذرات الذهب: ١٠٩/٧.

(٢) الجواهر والدرر: ص ٢٥١.

ومن مصنفاته:

١ ـ المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي.

٢ ـ الدليل الشافي على المنهل الصافي، مختصر المنهل.

٣ ـ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة.

٤ ـ مورد اللطافة في من ولي السلطنة والخلافة.

٥ ـ حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور.

توفي بالقاهرة خامس ذي الحجة سنة (٨٧٤هـ).

٩ ـ أبو ذر ابن البرهان الحلبي[١] (٨١٨ ـ ٨٨٤هـ):

هو أحمد بن إبراهيم بن محمد بن خليل الطرابلسي الأصل، الحلبي الشافعي. الإمام البارع الأديب، محدث حلب، موفق الدين أبو ذر، ابن الإمام العالم الحافظ برهان الدين أبي الوفا سبط ابن العجمي.

ولد سنة ثماني عشرة وثمانمائة، وأخذ الفن عن والده، والحافظ ابن ناصر الدين، والحافظ ابن حجر، ولازمه لما كان بحلب.

وسمع وكتب وجمع مجاميع، وصار هو المشار إليه في الحديث بحلب. وقد اغتبط به شيخه ابن حجر وأحبه؛ لذكائه وخفة روحه.

من مصنفاته:

١ ـ كنوز الذهب في تاريخ حلب.

٢ ـ التوضيح لمبهمات الجامع الصحيح.

٣ ـ مبهمات مسلم.

٤ ـ قرة العين في فضل الشيخين والصهرين والسبطين.

مات في ذي القعدة سنة (٨٨٤هـ) رحمه الله.

---

(١) انظر ترجمته في: نظم العقيان: ص ٣٠؛ شذرات الذهب: ٧/٣٣٩؛ الأعلام: ١/٨٨؛ معجم المؤلفين: ١/١٤٢، وغيرها.

١٠ ـ ابن مَزْني[١] (٧٨١ ـ ٨٢٣هـ):

هو ناصر بن أحمد بن يوسف، الفزاري البَسكري، المعروف بابن مزني، أبو زيان. مؤرخ، مغربي الأصل، من أهل الجزائر.

ولد ببسكرة، ومرَّ بالقاهرة حاجاً سنة (٨٠٣هـ)، واتصل بالمؤرخ ابن خلدون، ولازم ابن حجر.

من آثاره كتاب ضخم في «تاريخ الرواة» مات قبل تبييضه، قال ابن حجر ـ في ترجمة تلميذه هذا ـ : «جمع تاريخاً لو قُدِّر أن يبيضه لكان مائة مجلد، وكان قد مارس ذلك إلى أن صار أعرف الناس به، فإنه جمع منه في مسوداته ما لا يعدّ ولا يدخل تحت الحدّ، ومات قبل تبييضه، فتفرق شذر مذر».

وعمي قبل وفاته بسنة، وتوفي في شعبان سنة (٨٢٣هـ) بالقاهرة.

١١ ـ أبو الفضل ابن الشِّحْنَة[٢] (٨٠٤ ـ ٨٩٠هـ):

هو محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن محمود بن غازي، الثقفي الحلبي، الحنفي، محب الدين أبو الفضل، المعروف بابن الشحنة.

أحد الأعيان، قاضي القضاة الحنفية، فقيه، أصولي، محدث، مؤرخ، أديب، ناظم ناثر.

---

(١) انظر: إنباء الغمر: ٤٠٤/٧؛ الإعلان بالتوبيخ: ص ١١١؛ البدر الطالع؛ ٣١٤/٢؛ الأعلام: ٣٤٧/٧؛ معجم المؤلفين: ٦٨/١٣.

(٢) انظر: نظم العقيان: ص ١٧١؛ شذرات الذهب: ٣٤٩/٧؛ البدر الطالع: ٢٦٣/٢؛ الأعلام: ٥١/٧؛ و«آل الشحنة» نسبتهم إلى جدّ لهم اسمه محمود، كان شحنة حلب، وهو ما نسميه اليوم رئيس الشرطة أو مدير البوليس». عن هامش الأعلام.

ولد في رجب سنة (٨٠٤هـ) بحلب، ونشأ بها، فأخذ عن جماعة من أعيانها، ورحل إلى دمشق والقاهرة فأخذ عن أعيانهما.

كان يتوقد ذكاءً وفطنة، وولي قضاء حلب وكثيراً من أمورها، حتى صار المرجع إليه في غالب الأشياء بها. وانتقل إلى مصر فولي بها كتابة السر سنة (٨٥٧هـ)، وأقام أقل من سنة، ونفي إلى بيت المقدس، فأقام إلى سنة (٨٦٢هـ)، وأذن له بالعودة إلى حلب، فعاد، ثم إلى مصر، فأعيد إلى كتابة السرّ بها سنة (٨٦٦هـ)، وأضيف إليه قضاء الحنفية. ثم صرف عن العمل سنة (٨٧٧هـ)، ومرت به محن وشدائد. ومات وهو شيخ «الخانقاه الشيخونية» بالقاهرة.

وكان فصيحاً مفوّهاً، ذا رياسة وحشمة وافرة وجلالة عند السلاطين فمن دونهم، وأبهة زائدة، وميل إلى المناصب وقدرة على تحصيلها، ودراية في كل ذلك.

وانتفع بالحافظ ابن حجر، وأثنى عليه، ومما قاله: «ورافقته في بعض الأسفار، فرأيته يقوم بالليل، وكان شيخي ورفيقي، فإني سمعت بقراءته على شيخنا الحافظ أبي الوفا. وشيخ شيخي، فإنني أحدث شيئاً من نظم والدي عن القاضي علاء الدين ابن خطيب الناصرية، وابن خطيب الناصرية أخذ عنه. وكانت بيني وبينه مباسطات ومكاتبات، وكان يكرمني ويحسن إليّ، رحمه الله تعالى»[1].

وله تصانيف، منها:

١ ــ طبقات الحنفية.

٢ ــ المنجد المغيث في علم الحديث.

٣ ــ نهاية النهاية في شرح الهداية، فقه حنفي.

٤ ــ ترتيب مبهمات ابن بشكوال على أسماء الصحابة.

---

(١) الجواهر والدرر: ص ٢٦٢.

٥ ـ نزهة النواظر في روض المناظر، تاريخ.

مات في المحرم سنة (٨٩٠هـ) رحمه الله.

١٢ ـ ابن خطيب النَّاصِرِيَّة[١] (٧٧٤ ـ ٨٤٣هـ):

هو علي بن محمد بن سعد بن محمد بن علي، الجبريني الحلبي الطائي الشافعي، المشهور بابن خطيب الناصرية، علاء الدين أبو الحسن، العلامة قاضي الشافعية بحلب. مؤرخ، مفسر، محدث، فقيه.

ولادته ووفاته بحلب، ولم يخلف بعده مثله ولا قريباً منه.

أثنى على الحافظ ابن حجر جداً، ومما قاله: «وهو حافظ الإسلام، علامة في معرفة الرجال واستحضارهم، والعالي والنازل... وهو أحد مشايخي الذين قرأت عليهم بالقاهرة»[٢].

وقال في موضع آخر: «وقرأت عليه بحلب الجزء المعروف بـ «جزء بيبى الهَرْثَمية» بمنزلي، وسمع ذلك عليه أولادي وجماعتي»[٣].

١٣ ـ ابن الغرابيلي[٤] (٧٩٦ ـ ٨٣٥هـ):

هو محمد بن ناصر الدين محمد بن محمد بن محمد بن مسلم بن عليّ بن أبي الجود الكَرَكي ابن الغرابيلي، الشافعي، تاج الدين، ويعرف بابن الغرابيلي. حافظ، مؤرخ. ولادته ووفاته بالقاهرة.

أثنى عليه شيخه ابن حجر فقال: «... وأقبل على الحديث بكليته.

---

(١) انظر: البدر الطالع: ١/٤٧٦؛ شذرات الذهب: ٧/٢٤٧؛ الأعلام: ٥/٨؛ معجم المؤلفين: ٧/٢٠٠. والجبريني: نسبته إلى «بيت جبرين الفستق» بشرقي حلب.

(٢) الجواهر والدرر: ص ٢٣٨.

(٣) المرجع السابق: ص ٢٣٩.

(٤) انظر: إنباء الغمر: ٨/٢٦٩ ـ ٢٧١؛ معجم المؤلفين: ١١/٢٩٦؛ شذرات الذهب: ٧/٢١٥.

فسمع الكثير، وعرف العالي والنازل. . . وسمع الكثير ببلده، ورحل إلى دمشق، ورحل إلى القاهرة فلازمني إلى أن حرر نسخته من «المشتبه»[1] غاية التحرير». ثم قال: «وكان الأكابر يتمنون رؤيته والاجتماع به، لما يبلغهم من جميل أوصافه، فيمتنع إلَّا أن يكون الكبير من أهل العلم، رحمه الله تعالى».

١٤ ـ رِضْوان العُقْبي[2] (٧٦٩ ـ ٨٥٢هـ):

هو رضوان بن محمد بن يوسف بن سلامة بن البهاء بن سعيد، زين الدين أبو النَّعيم، العقبي الشافعي، المستملي، المصري، البارع، مفيد القاهرة. مولده بمنية عقبة الجيزة، وإليها نسبته.

أخذ عن الأعيان، وسمع منهم، وكتب عنهم، كالزين العراقي والبرهان الشامي، وابن الشحنة، وغيرهم ولازم ابن حجر، وكتب عنه الكثير، وتفقه به، وكان مُسْتَمْليه. توفي بالقاهرة سنة (٨٥٢هـ).

١٥ ـ تَغْري بَرْمَش بن عبد الله (ت ٨٥٢):

الأمير الفاضل سيف الدين الجلالي المؤيدي، نائب القلعة بالديار المصرية، له فضل ومعرفة بالحديث لا سيما أسماء الرجال، وله مشاركة جيدة في الفقه والتاريخ والأدب. وكان محسناً لفنون الفروسية، فصيحاً باللغة العربية والتركية.

اعتنى بالحديث، ولازم ابن حجر، وأخذ عنه، وقرأ عليه سنن أبي داود. وقرأ ما لا يحصى على مَنْ لا يحصى. وتوفي في رمضان سنة (٨٥٢هـ)، عن نيف وخمسين سنة.

١٦ ـ أبو إسحاق بن درباس (ت ٨١٧هـ):

هو أحمد بن أحمد بن علي بن أبي بكر بن أيوب، أبو إسحاق الكردي

---

(١) يعني: «تبصير المنتبه بتحرير المشتبه».

(٢) انظر: شذرات الذهب: ٧/٢٧٤ ـ ٢٧٥؛ الأعلام: ٣/٢٧.

القاهري، المحدث، طلب العلم، وعني بالحديث، ولازم ابن حجر، قال السخاوي: وكان أحد المنزلين عنده، ومما سمعه عليه «النخبة» بقراءة الشمني سنة (٨١٥هـ)، وكتب من تصانيفه «تغليق التعليق». توفي سنة (٨١٧هـ)، ولم يكتهل.

١٧ ــ نفيس الدين العلوي (٧٤٥ ــ ٨٢٥هـ):

هو سليمان بن إبراهيم بن عمر، نفيس الدين العلوي[1]، التِّعِزي، الحنفي. شيخ المحدثين ببلاد اليمن وحافظهم. أخذ الناس عنه طبقة بعد طبقة، ورحلوا إليه من الآفاق، وتتلمذ له ما لا يحيط به الحصر.

قال ابن حجر: «وسمع مني وسمعت منه»[2].

١٨ ــ الكلوتاتي (٧٦٢ ــ ٨٣٥هـ):

أحمد بن عثمان بن محمد بن إبراهيم بن عبد الله، الكرماني الأصل، القاهري، الحنفي، المحدث.

أخذ عن ابن حجر علم الحديث، ووصفه «بشيخنا الإمام العالم، الحافظ الحجة، المتقن، عمدة أصحاب فنون الحديث»[3].

١٩ ــ البدر ابن التَّنَسي (ت ٨٥٣هـ):

هو محمد بن أحمد بن محمد، التنسي المالكي، قاضي القضاة، بدر الدين. أخذ عن ابن حجر والجمال الأقفهسي والعز ابن جماعة وولي الدين العراقي، وغيرهم.

اشتهر بالفضيلة، وانتشر ذكره. توفي في صفر سنة (٨٥٣هـ).

---

(١) نسبته إلى علي بن راشد، شيخه. انظر: البدر الطالع: ١/ ٢٦٥.

(٢) إنباءالغمر: ٧/ ٤٧٤. وانظر ما استفاده النفيس وقرأه على ابن حجر، في الجواهر والدرر: ص ٨٨، ٢٢١.

(٣) الجواهر والدرر: ص ٢٣١ ــ ٢٣٢.

٢٠ ـ البُوصِيرِي (٧٦٢ ـ ٨٤٠هـ):

شهاب الدين أحمد بن أبي بكر بن إسماعيل بن سَليم بن قايماز بن عثمان، البوصيري الكناني، الشافعي، أبو العباس. من حفاظ الحديث.

مصري، ولد بأبو صير ـ من الغربية قرب سمنود ـ وتعلم بها وبالقاهرة.

ولازم العراقي على كبر، فسمع منه الكثير. قال ابن حجر: «ثم لازمني في حياة شيخنا[١] فكتب عني لسان الميزان، والنكت على الكاشف، وسمع علي الكثير من التصانيف وغيرها...»[٢].

مات في المحرم بالرميلة، وله ثمان وسبعون سنة.

٢١ ـ محمد بن ناصر الدين السعدي الحنبلي (٨٣٥[٣] ـ ٩٠٠هـ):

هو محمد بن ناصر الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن خالد بن إبراهيم السعدي، المصري الحنبلي، بدر الدين، أبو المعالي، قاضي القضاة، شيخ الإسلام، الإمام العلامة الرحلة.

من أعيان الحنابلة، سمع على الحافظ ابن حجر وغيره من أعيان الديار المصرية وغيرها ممن ورد إلى القاهرة.

٢٢ ـ أحمد بن محمد بن عبد الله بن كحيل (٨٠٢ ـ ٨٦٩هـ):

ولد بتونس، ونشأ بها، وأخذ عن علمائها، وعني بالنحو والفقه وعلم الوثائق والأحكام. ورحل، ولقي ابن حجر، وحضر مجالسه وبحث عليه في التفسير والحديث والبيان وغيرها.

---

(١) أي العراقي.

(٢) إنباء الغمر: ٨/٤٣١.

(٣) أو سنة (٨٣٦هـ) كما ذكر في شذرات الذهب على التردد، ٧/٣٦٦.

٢٣ ـ شمس الدين ابن حسان (ت ٨٥٥هـ):

محمد بن محمد بن محمد بن حسان، شمس الدين، الموصلي الأصل، المقدسي، نزيل القاهرة، الشافعي، العلامة المفتنّ.

ولد في أول القرن التاسع الهجري، وسمع من جماعة منهم ابن حجر.

٢٤ ـ شهاب الدين ابن الأخصاصي (٨١٨ ـ ٨٨٩هـ):

أحمد بن محمد بن محمد الدمشقي، يعرف بابن الأخصاصي. ولد سنة (٨١٨هـ)، وأخذ الفقه عن التقي ابن قاضي شهبة وغيره. وقرأ على ابن حجر «شرح النخبة». توفي سنة (٨٨٩هـ).

٢٥ ـ ابن قَوْقَب (٨١٩ ـ ٨٩٣هـ):

إبراهيم بن عبد الرحمن بن أحمد بن محمد الأنصاري الخليلي، المعروف بابن قَوْقَب.

اشتغل ومهر، وأخذ عن ابن حجر «شرح النخبة» كما قرأ عليه «صحيح البخاري» وغير ذلك.

٢٦ ـ شهاب الدين المنوفي (٨١٤ ـ ٨٧٠هـ):

أحمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن موسى، المنوفي الشافعي، الإمام الفاضل، الأديب البارع، الشاعر الماهر.

ولد سنة (٨١٤هـ) بمنوف، واشتغل ومهر في الفقه والحديث، وصحب ابن حجر طويلاً، وأخذ الحديث عنه، واختص به، ولازمه في مجلس الإملاء وغيره. توفي سنة (٨٧٠هـ).

٢٧ ـ الشهاب التَّروجي (ت ٨٦٠هـ):

هو أحمد بن عمر بن أحمد بن منصور التروجي الشافعي، ويعرف بابن عمر. ولد بتَرُوجَة ـ من أعمال البحيرة قرب

الاسكندرية ــ واشتغل كثيراً، وأخذ عن مشايخ عصره كالبلقيني وابن حجر، ونظم الشعر. توفي سنة (٨٦٠هـ) بالاسكندرية.

٢٨ ــ الشهاب الإشليمي (٨٢١ ــ ٨٦١هـ):

أحمد بن محمد بن صالح الإشليمي، العلامة البارع، الأديب الفاضل، ولد سنة (٨٢١هـ) في قرية «سمنديل» ــ من أعمال الغربية بمصر ــ ثم تحول منها إلى «إشليم» ــ من الغربية أيضاً ــ وإليها نُسب ثم انتقل إلى القاهرة، ودرس بها، وسمع من كثيرين كابن حجر والقاياتي والتقي الشمني. وقد أجاد نظم الشعر. توفي سنة (٨٦١هـ).

٢٩ ــ عبد الأول المرشدي (٨١٧ ــ ٨٧٢هـ):

هو عبد الأول بن محمد بن إبراهيم. ولد سنة (٨١٧هـ) بمكة، ونشأ بها ودرس، وأقبل على اللغة والنحو والبديع وأصول الفقه والفرائض. ثم ارتحل إلى مصر فأخذ عن جماعة أجلّهم ابن حجر، وكان كثير الميل والإصغاء إليه، ووصفه «بالفاضل الباهر الأوحد، مفيد الطالبين، فخر المدرسين». توفي سنة (٨٧٢هـ).

٣٠ ــ الشرف الطُّنُوبي (٨٠١ ــ ٨٦٣هـ):

عيسى بن سليمان الطنوبي، ولد بالقاهرة سنة (٨٠١هـ) وحفظ القرآن وكتباً، واشتغل وأخذ عن علماء وقته ومنهم ابن حجر، ولازمه، وسمع عليه الكثير، وناب عنه في القضاء. توفي سنة (٨٦٣هـ). ونسبته إلى «بلدة طُنُوب» من أعمال المنوفية.

٣١ ــ إبراهيم الطباطبي (ت ٨٦٣هـ):

إبراهيم بن أحمد بن عبد الكافي الطباطبي، برهان الدين، أبو الخير، المقرىء الصوفي، الشافعي.

أخذ عن المحب الطبري والكمال الكازروني والحافظ ابن حجر، وتصدى للإقراء بالحرمين، وأخذ عنه الأماثل، وتوفي بمكة.

٣٢ ــ المحب البكري (٧٨٢ ــ ٨٥١هـ):

محمد بن محمد بن محمد البكري، أبو يحيى، محب الدين. ولد سنة (٧٨٢هـ) بالقاهرة، وسمع على علماء وقته، ولازم ابن حجر في الأمالي وغيرها، وكتب بخطه الكثير من شرحه للبخاري وغيره، وامتدحه بعدة قصائد. كان خيراً فاضلاً. توفي سنة (٨٥١هـ).

٣٣ ــ نعمة الله الجَرَهي (٨١٥ ــ ٨٤٠هـ):

هو نعمة الله بن محمد بن عبد الرحيم بن عبد الكريم الجرهي، ولد سنة (٨١٥هـ) بشيراز.

قال فيه شيخه ابن حجر: «مات وله دون الثلاثين سنة، ولد بشيراز، وسمع الكثير، وحبب إليه الطلب، وسمع من أبيه وجماعة بمكة، ثم قدم القاهرة فأكثر عني وعن الشيوخ، وفهم وحصل كثيراً من تصانيفي، ومهر فيها، وكتب الخط الحسن، وعرف العربية».

٣٤ ــ ابن الصيرفي (٨٢٩ ــ ٩٠٥هـ):

هو أحمد بن صدقة بن أحمد بن حسن بن عبد الله، الإمام العلامة، أحد أذكياء الدهر، شهاب الدين، المعروف بابن الصيرفي، المصري الشافعي.

ولد في ذي الحجة سنة (٨٢٩هـ). سمع الحديث على الحافظ ابن حجر، وقرأ عليه «شرح النخبة»، وأتقن القراءات، والفقه، والأصلين، والعربية، والمعاني والبيان، وفن الأدب، والمنطق، والصرف، والفرائض والحساب.

وأخذ عن الكثير، منهم: الجلال المحلي، والمناوي، وعلم الدين البلقيني، والعيني، وغيرهم. وتوفي في شعبان سنة (٩٠٥هـ).

٣٥ ـ فخر الدين التليلي (٧٩٥ ـ ٨٩٢هـ):

عثمان بن علي التليلي الحنبلي، فخر الدين، الإمام العلامة الخطيب. أخذ الحديث عن الحافظ ابن حجر، والفقه عن الشيخ عبد الرحمن أبي شعر، وولي الإمامة والخطابة بجامع الحنابلة بصالحية دمشق مدة تزيد على ستين سنة.

توفي في شعبان سنة (٨٩٢هـ)، وله سبع وتسعون سنة.

٣٦ ـ ابن بصال (٧٧٣ ـ ٨٤٧هـ):

علي بن أحمد بن خليل بن ناصر، المشهور قديماً بابن السقطي، وأخيراً بابن بصال، الاسكندراني الأصل.

قال ابن حجر: «... لازم مجالس الإملاء عندي نحواً من عشرين سنة».

٣٧ ـ أبو الوفا الصالحي (٨٣٣ ـ ٩٠١هـ):

خليل بن أبي الصفا إبراهيم بن عبد الله، الصالحي الحنفي، المحدث. ولد سنة (٨٣٣هـ) وأخذ عن الحافظ ابن حجر، والسعد الديري، والعيني، والقاياتي، والعَلَم البلقيني، وغيرهم.

٣٨ ـ ابن أبي شريف (٨٢٢ ـ ٩٠٦هـ):

محمد بن محمد بن أبي بكر بن علي بن أبي شريف، المقدسي الشافعي، المري، أبو المعالي كمال الدين ابن الأمير ناصر الدين.

الشيخ الإمام، الفقيه الأصولي، المفسر، المتكلم. ولد بالقدس سنة (٨٢٢هـ)، ونشأ بها، وحفظ القرآن العظيم، والشاطبية والمنهاج الفقهي وعرضهما على ابن حجر، والمحب ابن نصر الله الحنبلي، والسعد الديري، والعز المقدسي في سنة (٨٣٩هـ). ثم حفظ ألفية ابن مالك وألفية الحديث.

ورحل إلى القاهرة سنة (٨٤٤هـ)، وأخذ عن علمائها منهم ابن حجر، وكتب له إجازة وصفه فيها «بالفاضل البارع الأوحد»، والشمس القاياتي، والعز البغدادي، وغيرهم.

توفي في جمادى الآخرة سنة (٩٠٦هـ).

٣٩ ـ ابن قاضي عَجْلُون (٨٣١ ـ ٨٧٦هـ):

محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن، نجم الدين الزرعي ثم الدمشقي الشافعي، المعروف بابن قاضي عجلون.

ولد في ربيع الأول سنة (٨٣١هـ) بدمشق، ونشأ بها، فحفظ شيئاً كثيراً من المختصرات، زيادة على اثنين وعشرين كتاباً. قدم القاهرة وقرأ على ابن حجر والمحلي والعيني وابن الهمام والشمني، وغيرهم. وتميز في غالب الفنون، ودرَّس بمواطن، وتصدر بجامع بني أمية.

كان إماماً علامة، متقناً، حجة، ضابطاً، جيد الفهم، لم يكن بالشام من يناظره، ولا بالديار المصرية بالنسبة إلى استحضار الفنون لفظاً ومعنى، وإن كان قد يوجد في التحقيق من هو أمتن منه.

توفي في شوال سنة (٨٧٦) في «بِلْبِيس»، عائداً إلى دمشق، ودفن بالقاهرة، عن خمس وأربعين سنة!

٤٠ ـ البِلْبِيسي[(١)] المقدسي (٨١٩ ـ ٨٨٨هـ):

محمد بن خليل بن يوسف بن علي، البلبيسي الرملي المقدسي، الشافعي، أبو حامد، نزيل القاهرة.

ولد بالرملة سنة (٨١٩هـ)[(٢)]، وحفظ كثيراً من المختصرات، وأخذ

---

(١) ينسب إلى بِلْبِيس ـ بكسر الباءين ـ مدينة بينها وبين فسطاط مصر عشرة فراسخ على طريق الشام.

(٢) وقيل (٨١٧هـ).

عن الشهاب ابن رسلان، ولازمه، وأخذ عن غيره. ثم ارتحل إلى القاهرة وأخذ عن الحافظ ابن حجر والمناوي وجماعة. وحج فأخذ عن أشياخ المدينة النبوية ومكة. ودرس بمواطن، وناب في القضاء عن جماعة. توفي في شهر صفر سنة (٨٨٨هـ).

٤١ ـ السراج ابن برهان الدين الجَعْبَري[١]:

عمر بن محمد بن علي بن محمد ابن العلامة برهان الدين الجَعْبَري. ولد سنة (٨٠٥هـ) ببلاد الخليل، ودرس وتفقه، وبحث في النحو، وطاف على الشيوخ، ورحل إلى القاهرة، فأخذ الحديث عن ابن حجر، ومدحه.

٤٢ ـ برهان الدين ابن زين الدين الخضر:

هو الإمام إبراهيم بن زين الدين الخضر، قرأ على ابن حجر «فتح الباري»، وقد قال الحافظ في ذلك مثنياً على تلميذه هذا:

«أما بعد، فقد قرأ عليَّ هذا الكتاب المسمى «فتح الباري» إلَّا يسيراً منه فسمعه وفاته القليل منه ـ وذلك ظاهر في التبليغ في الهوامش بخط صاحبه وكاتبه ـ الإمام العالم العلامة، الفاضل الماهر الباهر المعين برهان الدين، مفيد الطالبين جمال المدرسين ابن زين الدين الخضر، حفظ الله عليه ما وهبه، وختم له بالخيرات حتى يفوز بالمرغبة ويأمن المرهبة. وأجزت له أن يرويه عني كله، وأن يفيده لمن أراد، وأن يروي عني جميع ما تجوز عني روايته»[٢].

• • •

(١) نسبه لقلعة «جَعْبَر» على الفرات، بين بالس والرقة، قرب صفّين.

(٢) فتح الباري: ١٣/٥٤٧، وانظر أسماء الأئمة الذين حضروا مجلس ختم «الفتح» في الجزء ١٣/٥٤٧ ـ ٥٤٨.

ونكتفي بهذا التعريف ببعض تلامذة الإمام الحافظ ابن حجر، وهم من أعيان العلماء في مختلف فنون العلم من حديث وفقه وتفسير وتأريخ وأدب ونظم وغير ذلك. رحم الله الجميع رحمة واسعة.



الفَصل العَاشِر
مَوَاقِفُهُ مِنْ كِبَارِ ٱلعُلَمَاءِ مِمَّنْ سَبَقَهُ وَعَلَاقَاتُهُ بِشَخْصِيَّاتِ عَصْرِهِ

مواقفه من كبار العلماء والأئمة السابقين:

لقد شهد تاريخ الأمة الإسلامية على مر العصور وجود علماء كبار، وأئمة عظام، تمتعوا بهمم عالية شامخة، فأتعبوا نهارهم بالبحث والترحال، وأسهروا ليلهم بالتصنيف والقيام، وبذلوا في سبيل ذلك ــ إرضاء لله تعالى ــ مهجهم، ونور أبصارهم، وعقولهم، وأموالهم؛ فخلَّفوا كنوزاً هائلة من العلم في شتى فنونه وأصنافه.

والإنسان بطبعه محلّ النسيان، لا يعرو عن الخطأ والسهو والذهول، كما أن القلم ليس بمعصوم من الخلل والتحريف، والسقط والتصحيف. ولم ينجُ من هذه العوارض أحد مهما عَلَتْ رتبته، وعظمت عبقريته وحافظته ونباهته، إنما تتفاوت الدرجات والرتب بقلَّة ذلك أو كثرته.

وتجاوز سقطات الأئمة والأكابر واجب على كل باحث منصف، مع الإشارة إليها أداء للأمانة، والترحُّم على صاحبها والثناء عليه، وفاءً له، ما دامت نيته سليمة وأخطاؤه قليلة لا تذكر أمام صوابه وكثرة تصانيفه وغزارة علمه. وتتبع سقطات الآخرين لمجرد تضخيمها وغمز صاحبها؛ لوثة فكرية يرفضها ديننا الحنيف، وقد وقع فيها البعض، ممن دفعهم ــ غالباً ــ حسد، أو تنافس، أو تعصب مذهبي.

وابن حجر الإمام الفذّ مثال رائع في هذا الميدان، فهو كثير الترحُّم على الأكابر، جمّ الاحترام والتبجيل لهم ولإنتاجهم العلمي؛ لكن هذا

لم يحمله على أن يغضّ الطرف ـ وهو الحافظ الناقد ـ عن أخطائهم، والتنبيه على زلّاتهم؛ أداءً لحقّ العلم، حتى لا يسقط في تلك الأخطاء من لا يجيد كشفها.

●● فهو مثلاً ردَّ على ابن الصلاح ـ وغيره ـ لقوله في حديث «المِغْفَر» أن مالكاً تفرد به. فتتبع الحافظ طرقه، فبلغ عدة من حدث به عن الزهري غير مالك سبعة عشر نفساً[1].

كما ردَّ عليه في أن مثال «الحديث المتواتر» قليل يعزّ وجوده، فقال: «وما ادعاه من العزّة[2] ممنوع، وكذا ما ادعاه غيره من العدم، لأن ذلك نشأ عن قلة الاطلاع على كثرة الطرق وأحوال الرجال وصفاتهم، المقتضية لإبعاد العادة أن يتواطؤوا على كذب، أو يحصل منهم اتفاقاً...»[3].

●● وتعقب ابنَ الجوزي في كتابه «الموضوعات»، والحاكمَ في «مستدركه» بإنصاف، وقال: «غالب ما في كتاب ابن الجوزي موضوع، والذي يُنتقد عليه بالنسبة إلى ما لا ينتقد قليل جدّاً، وفيه من الضرر أن يُظن ما ليس بموضوع موضوعاً، عكس الضرر بمستدرك الحاكم؛ فإنه يظن ما ليس بصحيح صحيحاً. ويتعين الاعتناء بانتقاد الكتابين، فإن الكلام في تساهلهما أعدم الانتفاع بهما إلاَّ لعالم الفن؛ لأنه ما من حديث إلاَّ ويمكن أن يكون قد وقع فيه تساهل»[4].

ومثال ذلك حديث «صلاة التسابيح» حيث يقول ابن حجر: «وقد وقع فيه مثال ما تناقض فيه المتأوّلان في التصحيح والتضعيف، وهما الحاكم

---

(١) انظر فصل «مصنفات ابن حجر ـ مصنفاته في علوم الحديث»، طرق حديث المغفر.
(٢) يقال «عزَّ الشيءُ»: قَلَّ فلا يكاد يوجد.
(٣) شرح نخبة الفكر: ص ١٢ ـ ١٣.
(٤) تدريب الراوي: ١/ ٢٧٩.

وابن الجوزي، فإن الحاكم مشهور بالتساهل في التصحيح، وابن الجوزي مشهور بالتساهل في دعوى الوضع؛ كل منهما روى هذا الحديث، فصرَّح الحاكم بأنه صحيح، وابن الجوزي بأنه موضوع!! والحق أنه في درجة الحسن لكثرة طرقه»[(١)].

●● وكذا تعقب «الحافظَ المِزِّيَّ» في «الأطراف» في غيرما موضع، بل ألف كتابه «النكت الظراف أو الاعتراف بأوهام الأطراف» مستدركاً عليه أو متعقباً له.

●● وتعقباته للحافظ الذهبي كثيرة جداً، خاصة في «لسان الميزان»، وقد أشرنا إلى طرف منها في فصل «ابن حجر المحدث»[(٢)].

وكذا ردّ عليه في «الكاشف»، ومن ذلك ما جاء في ترجمة: «رافع بواب مروان عن ابن عباس، وعنه علقمة بن وقاص وغيره. وعلَّم عليه البخاري والنسائي». فتعقبه ابن حجر في ثلاثة مواطن أخطأ الذهبي فيها[(٣)].

وتعقباته للأئمة ـ في مختلف العلوم ـ لا تدخل تحت الحصر، وعمله ذاك هو محض نصيحة للأمة، وأداء لحق الأمانة، ومن جملة من استدرك أو ردّ عليه أو بيَّن خطأه: أبو علي الجياني، والدارقطني، وابن عبد البر، وابن حزم، وابن العربي، والخطابي، ابن القيم، والزركشي، وابن التين، وابن بطال، والمهلب، والكرماني، والداودي، والطحاوي، وابن كثير، وابن تيمية، وعياض، ومغلطاي، والدمياطي، وغيرهم كثير[(٤)].

---

(١) مشكاة المصابيح: ٣/١٧٨٢، وانظر التفصيل: ص ١٧٧٩ ـ ١٧٨٢؛ وانظر مزيداً من ردوده على ابن الجوزي في «القول المسدَّد»: ص ٥٢ ـ ٧٩.

(٢) انظر ص ٢٣٣ ـ ٢٤٠ من هذا الكتاب.

(٣) انظر: الكاشف: ١/٢٣٣؛ الجواهر والدرر: ص ٢٧٤ ـ ٢٨٠.

(٤) وقد ذكرنا طرفاً من ردوده وتعقباته في دراستنا لفتح الباري: ص ٥٢١ ـ ٥٣٠.

وقد جمع ابنُ حجر إلى النقد الإنصافَ، والاعتراف بالفضل لذي الفضل، وردَّ الحق إلى صاحبه:

وقد مرَّ من هذا طرف صالح خلال بحثنا، ونذكر هنا مثالين:

أولهما: ما جاء في «لسان الميزان» حيث يقول الذهبي: «علي بن عقيل بن محمد، أبو الوفاء الظفري الحنبلي: أحد الأعلام، وفرد زمانه علماً ونقلاً، وذكاءً وتفنناً، له كتاب «الفنون» في أزيد من أربعمائة مجلد، إلَّا أنه خالف السلف، ووافق المعتزلة، في عدة بدع، نسأل الله العفو والسلامة، فإن كثرة التبحر في الكلام ربما أضرَّ بصاحبه، ومن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه. انتهى[1]. وهذا الرجل من كبار الأئمة، نعم كان معتزلياً، ثم أشهد على نفسه أنه تاب عن ذلك، وصحَّت توبته، ثم صنف في الردِّ عليهم. وقد أثنى عليه أهل عصره ومن بعدهم، وأطراه ابن الجوزي، وعَوَّل على كلامه في أكثر تصانيفه. وقال أبو سعيد ابن السمعاني: علي بن عقيل بن محمد بن عقيل بن محمد بن عبد الله الحنبلي، أبو الوفاء، كان إماماً فقيهاً مبرزاً، مناظراً مجوداً، كثير المحفوظ، مليح المحاورة، حسن العشرة، مأمون الصحبة... وأقام دهراً طويلاً يفتي ويدرِّس، ومتَّعه الله بسمعه وبصره، ولم يخلِّف سوى كتبه، وثياب بدنه، فكانت بمقدار تجهيزه وأداء دَيْنه! وقال ابن الجوزي: قرأت بخطه: إني لا يحل لي أن أضيع ساعة من عمري، فإذا تعطل لساني من مذاكرة ومناظرة، وبصري من مطالعة؛ عملت في حال فراشي وأنا مضطجع فلا أنهض إلَّا وقد يحصل لي ما أسطره. وإني لأجد من حرصي على العلم في عشر الثمانين أشد مما كنت وأنا ابن عشرين»[2]!

فانظر ــ أخي القارىء ــ كم بين كلام الذهبي وكلام ابن حجر من

---

(١) انتهى كلام الذهبي، وما بعده لابن حجر.

(٢) لسان الميزان: ٤/٢٤٣ ــ ٢٤٤، وقد اختصرتُ بعضاً من الترجمة.

فرق في الثناء والإنصاف، ثم ـ والأهم من ذلك ـ تبرئته من بدعة الاعتزال التي تاب منها، وإنما الأعمال بخواتيمها.

ثانيهما: ما ذكره السخاوي في «الإعلان بالتوبيخ» حيث قال: «ولما خطَّأَ المِزّيُّ نَقْلَ الحافظ عبد الغني في «الكمال» أن جابر بن نوح الحِمَّاني مات سنة ثلاث ومائتين، وقال: بل سنة ثلاث وثمانين ومائة؛ ردَّه شيخنا وقال: إنه من أعجب ما وقع للمزي في كتابه من الخطأ. وأيده بقول الذهبي أن أحمد بن حنبل ـ أحد من روى عن الحماني ـ لم يرحل إلَّا بعد سنة ست وثمانين[1]، وكذلك من الرواة عنه أحمد بن بديل القاضي ومحمد بن طريف البجلي، وهما لم يسمعا إلَّا بعد التسعين. وبهذا كله يترجح قول صاحب الكمال»[2].

وهكذا فليكن الاعتراض والرد: اعتراف لصاحب الفضل بفضله، وردُّ الحق إلى صاحبه، والدفاع عن الثقات والبرآء، إذا علق بسيرتهم ما لا يليق بهم. ولن يضير النقد أحداً، وحسب العالم علماً ورفعة أن تُعدَّ أخطاؤه.

●● ومن هذا القبيل التنبيه على من أخذ تصنيف غيره فادَّعاه لنفسه، وزاد فيه قليلاً ونقص منه، ولكن أكثره مذكور بلفظ الأصل. وقد نعى ابن حجر على من فعل ذلك، لا يجامل أحداً حتى ولو كان من أعيان أشياخه، فالحق أحق أن يتبع.

وهذا كثير مبثوث في تصانيفه، وقد أفرد له فصلاً ـ نقل السخاوي منه في الجواهر ـ فقال:

«البحر للروياني، أخذه من «الحاوي» للماوردي. «الأحكام

(١) أي: ومائة.

(٢) الإعلان بالتوبيخ: ص ٨ ـ ٩، ووقع فيه «الزهري» بدل «الذهبي»، وهو تحريف فالزهري مات (١٢٤هـ)، وانظر: تهذيب التهذيب ٢/ ٤٠.

السلطانية» لأبي يعلى، أخذها من كتاب الماوردي، ولكن بناها على مذهب أحمد. «شرح البخاري» لمحمد بن إسماعيل التيمي، أخذه من شرح أبي الحسن ابن بطّال. «شرح السنة» للبَغوي، مستمدّ من شرحَي الخطابي على البخاري وأبي داود. «الكلام على تراجم البخاري» للبدر ابن جماعة، أخذه من «تراجم البخاري» لابن المنيِّر. «اختصار علوم الحديث» لابن أبي الدم، أخذه من «علوم الحديث» لابن الصلاح بحروفه، وزاد فيه كثيراً. «محاسن الاصطلاح وتضمين كتاب ابن الصلاح» لشيخنا البلقيني، كل ما زاده على ابن الصلاح مستمد من «إصلاح ابن الصلاح» لمُغَلْطاي. «شرح البخاري» لشيخنا ابن المُلَقِّن، جمع النصف الأول من عدة شروح، وأما النصف الثاني فلم يتجاوز فيه النقل من شرحَي ابن بطال وابن التين»[1].

وكتب معلقاً على «طبقات الشافعية» وذَيْلٍ عليه، كلاهما لشيخه ابن الملقن، ما نصه: «نظرت هذا الكتاب من أوله إلى آخره، وقابلت التراجم جميعها على كتاب «الطبقات الوسطى» للقاضي تاج الدين السبكي؛ فوجدت الجميع إلَّا اليسير منقولاً منها بحروفها، والقدر اليسير الزائد لعله عشرة تراجم لا يزيد على ذلك.

ولقد طال تعجبي من شيخنا فيما اعتمده من ذلك، فما كان يضرّه لو قال في خطبته إنه التقطه من تصنيف من سبقه إليه؟ أتراه ظن أن «طبقات» تاج الدين تدفن معه في القبر فلا تظهر؟! وما جوَّز قط أن يُنقل منها نسخة أخرى!! إن هذا الشيء عجيب». قال: «ولم أقف على طبقاته التي هذه ذيل عليها، وأظنها ملخصة من «الطبقات الكبرى»، ومن «طبقات» الإسنوي، والعلم عند الله تعالى»[2].

---

(١) الجواهر والدرر: ص ٣١٥ ــ ٣١٦.

(٢) الجواهر والدرر: ص ٣١٦.

ومن ذلـك مـا كتبـه على نسخـة من «شـرح العمـدة» لشمس الـدين البرماوي، فقال: «إن هذا الكتاب مشى فيه الشيـخ شمس الدين ـ عفـا الله تعالى عنه ـ على شرح شيخنا سراج الدين ابن الملقن، من أوله إلى آخره، ينتخب فـوائده، ويحصـل مقاصـدَه، وربما لم يـزد فيـه إلّا الشيء اليسيـر؛ بحيث لو تصدى حاذق إلى انتزاع مـا زاده، لم يزد على كـراس أو كراسين. ولو تصدى لتتبُّع ما قدم من شرح شيخنا من الفوائد التي تضاهي مـا انتخبه؛ لكان قدر مـا كتبه. ولـو كان تجـرّد لعمل نُكَتٍ على كتـاب شيخنا، تحـريراً واستدراكاً، ونحو ذلك؛ لكان أظهر لبيان فضله، وقوة تفننه، مع السلامة من الإغارة على كلام شيخه من غير أن ينسبه إليه، فليس ذلك من شكر العلم، والله المستعان»[1].

علاقته بشخصيات عصره من الشيوخ والأقران والتلاميذ

أولاً ـ مع شيوخه وأساتذته

أخـذ الحافظ ابن حجـر علومه ومعـارفه عن الجمّ الغفيـر من الشيوخ والمحدثين والمسنِدين، الذين تباينت درجاتهم في العلم، وتفاوتت طبقاتهم في السنِّ، وتغايرت أذواقهم وأمزجتهم وطبائعهم.

فكـان ـ رحمه الله ـ يسلك مـع الجميع مـا ييسـر لـه الأخـذ عنهم، متأدباً معهم بما تأصَّل في نفسه من آداب اكتسبها من الحديث النبـوي الذي تحمَّله وحفظه. وكان يهضم نفسه ـ على جاري عادة أهل العلم والـدين ـ ويبالغ في إجلالهم وإعظامهم وتوقيرهم، في الشهود والغيبة.

يقـول ـ مثلاً ـ في شيخـه الزين العـراقي: «شيخنا الإمـام العـلامـة حـافظ عصره، زين الـدين عبـد الـرحيم بن الحسين العـراقي، تغمـده الله

---

(١) المرجع السابق: ص ٣١٧ ـ ٣١٨.

بالرحمة والرضوان»[1]. وأما شيخه العز ابن جماعة فكان لا يسميه في غيبته إلاّ «إمام الأئمة»[2].

وتراه يهش في وجه من يأتيه أو يستقدمه من الشيوخ والمحدثين ليأخذ عنه، ويكرمه ويجلسه على بساطه الذي يصلي عليه، كما فعل مع المسنِدة عائشة بنت إبراهيم بن خليل الشرائحي. أو يخرج مسرعاً لتلقيه على الباب، مرحِّباً به، ولربما قبَّل يد أحدهم في بعض الأحايين إذا لقيه[3].

وكان دأبه عدم التحاشي عن التقاط الفائدة والسماع ممن هو أعلى سنداً منه، ولو كان دونه في المرتبة على جاري عادة الأئمة، لا يصدّه عن ذلك علوّ منصبه، بل يتظاهر بفعله، مع إمكان خلاف ذلك[4]. وينسب كل شيء إلى قائله، ولو كان من تلامذته[5].

ولربما وجد لدى شيخه ثقلاً وعسراً في التحديث، فيصبر على ذلك، ويحركه بالقراءة كلمة كلمة؛ فيسهِّل الله له ذلك بحسن مقصده، أو يخرِّج لشيخه ـ الذي هذه حاله ـ «مشيخته»؛ فيتذكر عهده القديم، ويفرح بذلك، فينبسط للتحديث، كما حصل له مع البرهان التنوخي، حيث خرَّج له «المعجم» و«المائة العشارية»، فانبسط للتحديث، فلازمه ابن حجر زيادة على ثلاث سنين[6].

ويعود من ألمَّ به مرض منهم، وقد يرقيه بالمأثور من السنَّة، فيكتب

---

(١) القول المسدد: ص ٣٢.

(٢) الجواهر والدرر: ص ٧٧.

(٣) المرجع السابق: ص ١٢١.

(٤) المرجع السابق: ص ١٢٣؛ وانظر: ابن حجر مؤرخاً: ص ٨٩.

(٥) الجواهر والدرر: ص ١١٩.

(٦) الجواهر والدرر: ص ١١٢.

الله الشفاء على يديه، كما حصل له مع شيخه «الجمال الحلاوي»[1].

وقد راعى ــ قدر استطاعته ــ شعورهم، حتى إنه لما تتبع أوهام شيخه الهيثمي في كتابه «مجمع الزوائد»، وبلغ ذلك الهيثميَّ، فشقَّ عليه؛ ترك ابن حجر ذلك رعاية له[2].

ومن برّه لهم بعد مماتهم أن صنف كتابه «المجمع المؤسس للمعجم المفهرس»، ليتذكر عهدهم، ويجدد لهم الرحمة بعدهم[3].

بل إنه كان يرعاهم بعد موتهم في ذرياتهم، من ذلك أنه بلِّغ برغبة السلطان «الظاهر جقمق» في الإقدام على أمور مهولة في حق ولدي شيخه البلقيني، وهما: «علم الدين البلقيني» و«جلال الدين البلقيني»؛ فأسرع إلى السلطان متوسلاً إليه في إبطال ذلك، مع مشقة إبطال ذلك في أحدهما على السلطان، فتمَّ ذلك لمكان ابن حجر. وكل هذا من إجلاله لشيخه البلقيني في ذريته وأهله[4].

ومن غرائب وعجائب شفاعته أن السلطان حلف ليضربنَّ شخصاً من أبناء العلماء ألف عصا؛ فراجعه ابن حجر في الصفح عنه، وأن يكفِّر عن يمينه، فتأبى، فلا زال يتلطف به، حتى أمر بجمع عيدان ضرب بها دفعة واحدة، بعد أن قرأ قوله تعالى: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِب بِهِ وَلَا تَحْنَثْ﴾»[5].

●● لكن ذلك لم يمنعه من انتقادهم، أو من تصويب خطأ وقعوا فيه في مصنفاتهم:

---

(١) المرجع السابق: ١١٥.

(٢) شذرات الذهب: ٧/٧٠؛ ابن حجر مؤرخاً: ص ٩٠.

(٣) قال هذا في مقدمة كتابه المذكور، وسيأتي التعريف بهذا الكتاب إن شاء الله.

(٤) و(٥) ابن حجر مؤرخاً: ص ٩٠، والآية رقم ٤٤ من سورة «صٓ».

ـ فقد انتقد «شرح البخاري» لشيخه الفيروزابادي، لِمَا رأى فيه من كلام ابن عربي في «الفتوحات المكية»[1].

ـ كما رد على ابن المُلَقِّن في مواضع كثيرة، منها عند التعريف بمحمد بن محبوب شيخ الإمام البخاري، حيث يقول: «ومحمد بن محبوب شيخه هو أبو عبد الله البناني المصري، وهو غير محمد بن الحسن الذي لقبه محبوب، ووهم من وحَّدهما كشيخنا ابن الملقِّن، فإنه جزم بذلك، وزعم أن البخاري روى عنه هنا، وروى عن رجل عنه؛ وليس كذلك، بل هما اثنان أحدهما في عداد شيوخ الآخر. وشيخ البخاري اسمه محمد، واسم أبيه محبوب، والآخر اسمه محمد، واسم أبيه الحسن، ومحبوب لقب محمد لا لقب الحسن، وقد أخرج له البخاري في «كتاب الأحكام» حديثاً واحداً قال فيه: «حدثنا محبوب بن الحسن»، وسبب الوهم أنه وقع في بعض الأسانيد: «حدثنا محمد بن الحسن محبوب»؛ فظنوا أنه لقب الحسن، وليس كذلك»[2].

ـ وعلى شيخه البلقيني، فيقول: «وذكر لي محدث الديار الحلبية[3] أن شيخنا سراج الدين البلقيني استبعد قول أبي هريرة لعمر: «لأنا أقرأ لها منك»[4] من وجهين:

أحدهما: مهابة عمر، والثاني: عدم اطلاع أبي هريرة على أن عمر لم يكن يقرؤها مثله. قلت: عجبت من هذا الاعتراض، فإنه يتضمن الطعن على بعض رواة الحديث المذكور بالغلط، مع وضوح توجيهه: أما الأول

(١) انظر ص ١٢٨ من كتابنا هذا.

(٢) الفتح: ١٠/٥٠٧؛ وانظر مثالاً آخر في ١١/٣٠٠.

(٣) هو برهان الدين الحلبي، وقد مر ذكره في فصل «رحلاته».

(٤) وقع هذا في حديث البخاري (٥٣٧٥)، وفيه قصة جوع أبي هريرة، وأنه استقرأ عمر الآية طمعاً في أن يدخله عمر بيته فيطعمه.

فإن أبا هريرة خاطب عمر بذلك في حياة النبي ﷺ، وفي حالة كان عمر فيها في صورة الخجلان منه، فجسر عليه. وأما الثاني فيعكس ويقال: وما كان أبو هريرة ليقول ذلك إلّا بعد اطلاعه، فلعله سمعها من لفظ رسول الله ﷺ حين أنزلت، وما سمعها عمر ــ مثلاً ــ إلّا بواسطة»[١].

ــ ومن تعقباته لشيخه الحافظ العراقي، قوله: «أخرج النسائي من طريق سليمان بن يسار عن عُبَيد الله بن عباس أي ابن عبد المطلب «أن الغميصاء أو الرميصاء أتت النبي ﷺ تشكو من زوجها أنه لا يصل إليها، فلم يلبث أن جاء فقال: إنها كاذبة، ولكنها تريد أن ترجع إلى زوجها الأول. فقال: (ليس ذلك لها حتى تذوق عُسَيْلَتَه). ورجاله ثقات، لكن اختُلف فيه على سليمان بن يسار. ووقع عند شيخنا[٢] في «شرح الترمذي» عَبْد الله بن عباس، مكبّر، وتعقب على ابن عساكر والمزي أنهما لم يذكرا هذا الحديث في «الأطراف»، ولا تعقب عليهما، فإنهما ذكراه في مسند عبيد الله ــ بالتصغير ــ وهو الصواب»[٣].

وفي موضع آخر عند شرحه حديث ابن عمر ــ رضي الله عنهما ــ عن النبي ﷺ قال: (الحمى من فيح جهنم، فأطفئوها بالماء)، يقول: «حديث ابن عمر أخرجه[٤] من طريق عبد الله بن وهب عن مالك، وكذا مسلم، وأخرجه النسائي من طريق عبد الرحمن بن القاسم، عن مالك، قال الدارقطني في «الموطآت»: لم يروِه من أصحاب مالك في «الموطأ» إلّا ابن وهب وابن القاسم، وتابعهما الشافعي وسعيد بن عفير، وسعيد بن داود. قال: ولم يأتِ به معن ولا القعنبي ولا أبو مصعب ولا ابن بكير.

(١) الفتح: ٩/٥٢٠.
(٢) هو الحافظ العراقي.
(٣) الفتح: ٩/٤٦٥.
(٤) أي البخاري.

انتهى. وكذا قال ابن عبد البر في «التقصي»، وقد أخرجه شيخنا في «تقريبه»[1] من رواية أبي مصعب عن مالك؛ وهو ذهول منه، لأنه اعتمد فيه على «الملخص» للقابسي، والقابسي إنما أخرج «الملخص» من طريق ابن القاسم عن مالك. وهذا ثاني حديث عثرت عليه في «تقريب الأسانيد» لشيخنا ــ عفا الله تعالى عنه ــ من هذا الجنس، وقد نبهت عليه نصيحة لله تعالى، والله أعلم»[2].

هكذا فليكن العلم، وهكذا فليكن العلماء، فَرُدُودُهم وتعقباتهم لا لهوًى أو منافسة أو حبِّ ظهور، أو غيرها من حظوظ النفس؛ بل هي نصيحة لله خالصة لوجهه.

● ● ●

ثانياً ــ علاقته بأقرانه

لقد استحوذ ابن حجر على منزلة سامقة في مجتمعه، حتى عند أشياخه، وانضاف إلى ذلك تلك المناصب العليَّة والوظائف السنيَّة التي شغلها؛ مما أثار عليه حفيظة بعض أقرانه من أعيان عصره، فاندفعوا منافسين له، راغبين في انتزاع بعض ما لديه من مناصب وتجريده منها، بل تتبعه بعضهم في بعض مصنَّفاته، وشنَّع في الرد عليه.

حَسَدُوا الفتى إذْ لمْ ينالُوا سَعْيَهُ ... فالنَّاسُ أعداءٌ لهُ وخصومُ[3]

والتنافس بين الأقران قديم، لم يخلُ منه عصر من الأعصار، ولقد قال ابن عباس رضي الله عنهما: «استمعوا علم العلماء، ولا تصدِّقوا

---

(١) هو «تقريب الأسانيد» للعراقي.

(٢) الفتح: ١٠/ ١٧٥.

(٣) من شعر أبي الأسود الدؤلي. انظر: جامع بيان العلم وفضله: ٢/ ١٩٨.

بعضهم على بعض، فوالذي نفسي بيده لَهُم أشد تغايراً من التيوس في زربها»[1].

وإلى مثل هذا أشار الإمام الحافظ الذهبي بقوله: «كَلاَمُ الأقران بعضهم في بعض لا يُعْبَأُ به، لا سيما إذا لاحَ لك أنه لعداوة أو لمذهب أو لحسد، ما ينجو منه إلَّا من عصم الله. وما علمتُ أن عصراً من الأعصار سَلِمَ أَهْلُه من ذلك سوى الأنبياء، والصدِّيقين، ولو شئت لسردتُ من ذلك كراريس. اللهم فلا تجعل في قلوبنا غِلًّا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم»[2].

وما بدر في هذا المجال بين العلماء يجب ألا يُلتفت إليه، ولا يقرأ إلَّا للاعتبار، ويكون كل الاهتمام بالجانب المضيء، والحسنات العظيمة، والخير الكثير، الذي أسدوه لهذه الأمة. «ومن لم يحفظ من أخبارهم إلَّا ما بدر من بعضهم في بعض على الحسد والهفوات، والغضب والشهوات، دون أن يعنى بفضائلهم؛ حُرم التوفيق، ودخل في الغيبة، وحاد عن الطريق»[3].

وما سيرد في هذه الفقرة يجب أن يحمل على ما صدَّرنا به كلامنا فيها، مما نقلناه عن أئمة الدين والعلم والصلاح.

●● ولعل أعظم معاندي ابن حجر ومناوئيه هو «علم الدين صالح البُلْقَيْني»[4]:

ابتدأ ذلك لما أسند العَلَم البلقيني ــ في توليه القضاء ــ مكتوب

---

(١) جامع بيان العلم وفضله: ٢/١٨٥، وقد ساق الإمام ابن عبد البر في هذا فصلاً طويلاً، فانظره ثَمَّ ١٨٤ ــ ٢٠٠.

(٢) ميزان الاعتدال: ١/١١١.

(٣) جامع بيان العلم: ٢/١٩٩.

(٤) هو ابن سراج الدين البلقيني ــ شيخ ابن حجر ــ وكان إماماً فقيهاً، قوي الحافظة، =

«الخشابية» لشيخه ابن حجر، فأجابه ابن حجر لذلك، ظناً منه أن في ذلك تشريفاً من «القاضي العَلَم» له، لعلو منزلته عنده، فما كان إلَّا اليسير حتى تبين له أن ذلك وهم، وعهد منه ما لم يألفه من قبل، مما اضطر ابن حجر أن يقبل القضاء ـ وقد تمنَّع مراراً ـ لما عُرض عليه إذ ذاك. وظل «العلم البلقيني» ينافس ابن حجر على القضاء[1]، ويزين لشمس الدين القاياتي ولشمس الدين السفطي انتزاع بعض الوظائف من ابن حجر.

كما حاول العَلَم نفسه انتزاع بعض وظائف ابن حجر، ومن ذلك أخذ نظر «جامع ابن طولون» ونظر «الناصرية» ليسكت عن طلب العود للقضاء والسعي فيه، وتفويض ابن حجر له ذلك، وأخذه توقيعاً سلطانياً. ثم سعيه بعدها عليه في المنصب، بل ورفضه الشكر لابن حجر عليه إجابة للسلطان، مما كان سبباً في عزل ابن حجر له من النظر عليهما، فما بالى بذلك، واستمر يتحدث فيهما افتياتاً من غير مبالاة[2].

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحدِّ، بل إن «علم الدين» حرص على الزواج بأرملة ابن حجر بعد موته، وخطبها وأرسل لها المهر، وكاد ذلك أن يتم لولا تدخل السخاوي، فرجع «العَلَم» عن ذلك، واستعاد ما دفعه لها. كذلك تتبعه فيما كتبه في «معجمه» بشأن ذويه، وانتقاده له بعبارات ساقطة.

فأثار ذلك كله حفيظة ابن حجر، وانعكس على ما كتبه بشأن «العَلَم» في «إنباء الغمر» و«رفع الإصر»؛ فوصفه بالتهور والإقدام على ما لا يليق، وتناوله المال من أي جهة كانت[3].

= مهاباً، له جلالة ووقع في صدور الخاصة والعامة، أخذ عن جملة من الأعيان منهم ابن حجر، وأخذ عنه الفضلاء من كل ناحية، وهو حامل لواء مذهب الشافعي في عصره. وفاته سنة (٨٦٨هـ)، رحمه الله تعالى.

(١) حسن المحاضرة: ٢/١٧٤. (٢) إنباء الغمر: ٣/٤٧٤.

(٣) إنباء الغمر: ٣/٢٧٩ ـ ٢٨٠؛ ابن حجر مؤرخاً: ص ٩٢ ـ ٩٣.

ومع ذلك فإنه لما أمر الظاهر جقمق «علَم الـدين البلقيني» بالخـروج من القاهرة منعزلاً، فتوجـه مع نقيب الجيش فـأقام «بـالمدرسـة الحجازيـة» بـالقرب من بيتـه تمهيداً لتنفيـذ ذلك؛ فتـدخل ابن حجـر، وشفـع لـه عنـد السلطان، فردَّه إلى بيته[1]!

●● ومن منافسيه شمس الدين القاياتي[2]:

الذي تولى القضاء بعد عزل ابن حجر في المحرم سنة (٨٤٩هـ)[3]، وسعى في انتزاع «البيبرسية» من ابن حجر، فتمَّ لـه ذلك في جمـادى الأولى سنـة (٨٤٩هـ) أيضاً، ممـا كـان سببـاً في تحـوُّل ابن حجـر بـأولاده منهـا، وتحويل مجلس إمـلائه إلى «الكمـالية»، ولم يحمـد العقلاء للقـاياتي هـذا الفعل! وكان كل قليل يشكو ابنَ حجر من غير تحقق.

ومع ذلك فإن ابن حجر لما ترجمه مدحه قائلاً: «باشر القضاء بنـزاهة وعفَّة، ولم يأذن لأحد من النواب إلَّا لعدد قليل، ويتثبت في الأحكـام جداً، وفي جميع أموره»[4].

وهـذا من الإمام الحـافظ في غايـة التجرد والتـورع والخشيـة من الله سبحانه.

●● ومنهم بدر الدين العيني[5]:

وكان بينه وبين ابن حجـر صداقـة وصحبة، وذهبـا معاً رفقـة السلطان

---

(١) ابن حجر مؤرخاً: ص ٩٤.

(٢) هو شمس الدين محمد بن علي بن محمد بن يعقوب القاياتي ـ نسبة إلى «قـايات» بلدة قرب الفيوم ـ ثم القاهري الشـافعي. قاضي القضـاة ومحقق الوقت، وعـلّامة الآفـاق، برع في الفقـه والعربيـة والأصلين والمعاني، وسمـع الحـديث، وحـدث باليسير. توفي (٨٥٠هـ).

(٣) حسن المحاضرة: ٢/١٧٤.

(٤) إنباء الغمر: ٩/٢٤٧؛ الإعلان بالتوبيخ: ص ٦٨؛ ابن حجر مؤرخاً: ص ٩٤.

(٥) هو محمود بن أحمد بن موسى، العينتابـي الأصل والمولد والمنشأ، المصري الدار =

ـ في السفـرة الحلبية ـ واستضـاف العينيُّ ابنَ حجر في بلدتـه «عينتاب»، فلبّـى الحـافظ ذلـك. وأخـذ كـل منهمـا عن الآخـر، فكتب ابن حجـر عن العيني شيئاً من نظمه، وسمع عليه ثلاثة أحاديث ـ أحـدها من مسند أحمد والآخران من صحيح مسلم ـ بظاهر «عينتـاب»، كما حضـر العيني مجلس إملاء ابن حجر في «حلب».

١ ـ وقد عكر هذه الصحبة المنافسة الشـديدة بينهمـا[1]، فصار كـل منهمـا يتتبع الآخـر، وأول ما بـدأ الخلاف بينهمـا أنه اتفق أن المئـذنة التي بنيت على البرج الشمالي بباب زويلة «للجامع المؤيدي» قـد مالت، فـرسم محضر بهدمها، فقال ابن حجر معرِّضاً بالعيني:

لجـامـع مـولانـا المؤيَّـد رَوْنَقٌ ... منـارتُـهُ بـالحُسْنِ تـزهُـو وبـالـزيْنِ
تقولُ وقد مالتْ عن القصدِ: أمْهِلوا ... فليسَ على جسمي أضرُّ من العينِ

= والوفاة، الحنفي، المعروف بالعيني، الإمام العلاّمة المحدث، عمـدة المؤرخين، قاضي القضاة الحنفية، وأحد أوعية العلم. توفي (٨٥٥هـ).

(١) وقد ذكر الأستاذ صالح معتوق في كتابه: «بدر الدين العيني وأثره في علم الحديث» أن من أسباب التنافس بين الإمامين العيني وابن حجر، أن العيني حنفي وابن حجـر شافعي، وأن الخلاف بين الأحناف والشافعية قديم! وقـال: «تقلّدا منصب القضاء، وتقـرّبا من السلطان، ومـال كل منهمـا إلى أن يكـون الأكثـر حـظا من السلطان»!! ص ١٦٧.
ونحن نقول: ما هكذا يكون من يترجم لأولئك الأكابر، وما علاقـة خلاف الأحنـاف والشافعية بتنافس الرجلين؟! أفكان كل منهما يدافع عن مذهبه؟ كلا، ولمّـا! وواقع الحال يدفع في صدر كلامه، ثم إن الذين نافسوا ابن حجر معظمهم من الشافعيـة، وهم: علم الدين البلقيني، والشمس القايـاتي، والشمس الهروي، وشمس الـدين الـونائي، ممـا سيمر معنـا بعد قليـل؛ فماذا يقـول الأستاذ هنـا؟! ثم إن قـولـه بـأن ابن حجر كان يتقرب للسلطان، ويريد أن يكون أكثر حظاً عنـده، هو محض ادعـاء تردُّه سيرة ابن حجر الطاهرة في القضاء وقد ذكرنا ذلك بالتفصيل، ولله الحمد.

فذكر بعض الجلساء للعيني أن ابن حجر عرَّض به، فغضب وردَّ عليه قائلاً:

منـارةٌ كعـروسِ الحُسْنِ إذ جُلِيَتْ وهـدمُهـا بقضـاءِ اللَّهِ والـقَـدَرِ
قالوا: أصيبتْ بعينٍ، قلتُ: ذا غلطٌ مـا أوجبَ الهـدمَ إلا خِسَّـةُ الحجـرِ

وقد طعن ابن حجر في صحة نسبة هذين البيتين للعيني، وقال: «وعرف كل من يذوق الأدب أنهما ليسا له، لأنه لم يقع له قريب من ذلك». وإنما استعان بالشاعر النواجي، وقد قال ابن حجر معلقاً على ذلك: «قلت: هما للشيخ العلاّمة كمال الدين النواجي، عفا الله عنهم أجمعين»[1].

٢ ــ وقد تحامل العيني على ابن حجر، واتهمه في تردده على السلطان بما لا يليق، فقال فيه وفي قاضي الأحناف سعد الدين الديري: «كانا يقاسيان مشقة تلك السلالم والمدارج، حتى كان الناس يسمونهما فقهاء الأطباق، وكل هذا من عدم حفظ حرمة العلم».

وقد ردَّ السخاوي ذلك بعد أن نقله، فقال: «وكأنه[2] ــ رحمه الله ــ لم يستحضر حين كتابته لهذا ملازمته وتودده للأشرف في قراءة التاريخ ونحوه، بل لو كان في أيامه قاضياً لبادرهما إلى الطلوع. وأرجو أن يكون قصد الجميع بذلك حسناً، رحمهم الله وإيانا»[3].

وما ذكرناه سابقاً من موقف ابن حجر الرافض لقبول القضاء، وتمنُّعه طويلاً من قبوله، ثم لما انخرط فيه كانت له تلك المواقف الخالدة، والجرأة في قول الحق، وعدم المداهنة؛ كل ذلك مما يرد دعوى العيني غفر الله له.

٣ ــ وتتبع ابنُ حجر بالتعقب بعضَ مصنفات العيني، من ذلك

---

(١) إنباء الغمر: ٢٨١/٧؛ ابن حجر مؤرخاً: ص ٩٥؛ بدر الدين العيني لمعتوق: ص ١٦٧ ــ ١٦٨.
(٢) أي العيني.
(٣) بدر الدين العيني لمعتوق: ص ٧٩ ــ ٨٠.

مـا نظمـه في سيرة «المؤيـد شيخ المحمـودي»، فتتبعـه ابن حجـر، وجـرَّد الأبيات الركيكة بلا وزن، فبلغت نحو أربعمائـة بيت في كتاب سمـاه «قَذَى العَيْن من نَظْم غُراب البَيْن»[1].

٤ ــ كمـا انتقـد ابن حجـر التـاريـخ الكبيـر للعيني المسمى «عقـد الجمان في تاريخ أهل الزمان»، لكنه لم يتتبع عثـراته فيـه، فقال في مقـدمة «إنباء الغمر»: طـالعت عليه[2] تـاريخ القـاضي بدر الـدين محمود العيني، وذكر أن ابن كثير عمدته في تاريخه، وهو كما قال، لكن منذ قطع ابن كثير، صارت عمدته على تاريخ ابن دقماق، حتى يكاد يكتب منه الـورقة الكـاملة متوالية، وربما قلده فيما يَهِمُ فيه، حتى في اللحن الظاهـر مثل: اخلع على فلان. وأعجب منه أن ابن دقماق يذكر في بعض الحادثات ما يـدل على أنه شـاهدهـا، فيكتب البدر كـلامه بعينـه بما تضمنـه، وتكون تلك الحـادثـات وقعت بمصر، وهو بعيد في عينتاب!! ولـم أتشاغل بتتبـع عثراتـه، بل كتبت منـه ما ليس عنـدي مما أظن أنـه اطلع عليه من الأمـور التي كنا نغيب عنهـا ويحضرها»[3].

وهذا في غاية الإنصاف في التنبيه على مواطن الغلط، وعدم التشاغل بتتبعها، ثم التصريح بأنه ينقل عنه ما هو مهم مما لم يعاينه ابن حجر.

٥ ــ وكـل من الإمامين شـرح «صحيح البخـاري»، فكان العيني في كتابه «عمدة القاري» يتتبع ابن حجر في «فتـح الباري»، وينقـل عنه الـورقة والورقتين، ثم يحصي عليه بعض المآخذ[4]، فتصـدى له ابن حجر منتصفاً

(١) المرجع السابق: ص ١١٠، ١٦٨؛ ابن حجر مؤرخاً: ص ٩٦.
(٢) أي على كتابه «إنباء الغمر».
(٣) إنباء الغمر: ١/ ٤ ــ ٥.
(٤) وسيمر بنا ــ إن شاء الله تعالى ــ تفصيـل ذلك عنـد دراستنا للفتـح، والموازنـة بينه وبين العمدة.

في كتابين هما:

الاستنصار على الطاعن المعثار: فقد انتقد العيني ـ في شرحه للبخاري ـ خُطْبَتَي ابن حجر لشرحَيْه على البخاري، وعاب عليه أن يفضِّل شرحه على شروح من تقدمه، فردَّ عليه ابن حجر بهذا الكتاب، وقد وافقه علماء عصره على ما أورده فيه، مشيرين إلى فساد انتقاد العيني، ومصوبين صنيع ابن حجر[1].

انتقاض الاعتراض: ردَّ به على كثير من اعتراضات العيني على «فتح الباري»، واخترمته المنيَّة قبل أن يتمَّه.

ومع كل ذلك فإن الحافظ ذكر العينيَّ في معجم شيوخه «المجمع المؤسس للمعجم المفهرس» وكذا ترجمه في «رفع الإصر عن قضاة مصر» باختصار.

كما كان العيني يستفيد من ابن حجر، خصوصاً عند تصنيفه «رجال الطحاوي»، حيث ينقل السخاوي قائلاً: «ورأيته يسأل شيخنا في مرض موته ـ وقد جاء ليعوده ـ عن مسموعات الزين العراقي، فقال له: ليست مجموعة في كتاب، لكنني أوردت في ترجمته من معجمي ما أخذته عنه، وذلك شيء كثير، فانظروه، فإذا حصلتموه نأخذ في النظر في الباقي»[2].

كما ألف ابن حجر جزءاً هو «الأجوبة الآنية على الأسئلة العينية»، فيه إجابات أسئلة العيني له.

وهذا يدل على سموِّ نفسيهما، وكريم أخلاقهما، وما حدث بينهما لا يخدش في منزلتهما إن شاء الله تعالى، رحمهما الله وأجزل مثوبتهما.

●● ومن المنافسين لابن حجر في وظائفه ومراكزه العلمية:

---

(١) انظر تفصيل ذلك في الجواهر والدرر: ص ٢٢٤ ـ ٢٢٦، وجاء فيه «الاستبصار».

(٢) بدر الدين العيني لمعتوق: ص ١٦٩ ـ ١٧٠.

* **السفطي**: الذي أزعج ابن حجر في ولده، وبسط فيه لسانه، فألف ابن حجر كتابه «ردع المجرم في الذب عن عرض المسلم»؛ لعظة من يسيء الظن بالمسلم ويتعمد ظلمه. بل لقد انتزع السفطي من ابن حجر تدريس «الصالحية»، والنظر عليها، ووليهما! فدعا عليه ابن حجر بانقضاء الأجل في عامه، فتمَّ له ذلك، بعد أن أهين السفطي وامتُحن وسُجن[1].

* **شمس الدين الهروي**[2]: فقد جرت بينهما مناظرات، بان فيها خطأ الهروي، وارتفعت منزلة ابن حجر عند السلطان والناس.

* **شمس الدين الهرماوي**: الذي سعى إلى انتزاع التدريس من ابن حجر «بالمؤيدية»؛ حيث أنهى الهرماوي إلى السلطان أن شرط «المؤيّد» أن لا يكون المدرس بالمدرسة المؤيدية قاضياً، وأعانه على ذلك قوم آخرون، فانتزع تدريسها من ابن حجر. فسعى ابن حجر فأظهر كتاب الوقف، وقد سكت عن الشرط المذكور، فأعيد له تدريسها[3].

* **شمس الدين الوَنَائي**[4]: الذي سعى ــ لما عاد من الشام منفصلاً عن قضائها ــ في انتزاع تدريس «الصلاحية» من ابن حجر، فتنازل ابن حجر له عنها برغبته، فباشرها سنة ونيِّفاً، ثم ضعف نحو الشهرين، إلى

---

(١) ابن حجر مؤرخاً: ص ٩٤ ــ ٩٥.

(٢) هو محمد بن عطاء الهروي الشافعي، وللعلماء فيه مدح وقدح، توفي سنة (٨٢٩هـ). انظر: شذرات الذهب: ص ٧/١٨٩؛ البدر الطالع: ٢/٢٠٦؛ ابن حجر مؤرخاً: ص ٩٦.

(٣) ابن حجر مؤرخاً: ص ٦١ ــ ٦٢، ٩٦.

(٤) هو محمد بن إسماعيل بن محمد بن أحمد الوناني ــ نسبة إلى «ونا» قرية بصعيد مصر ــ القرافي، الشافعي، اشتغل بالعلم، واشتهر بالفضل، وصحب جماعة من الأعيان. ولي تدريس «الشيخونية»، ثم ولي قضاء الشام مرتين، ثم رجع بعد أن استعفى من القضاء فأعفي سنة (٨٤٧هـ). توفي سنة (٨٤٩هـ).

أن توفي رحمه الله تعالى[1].

• • •

ثالثاً ــ علاقته بطلبته وتلامذته

لقد كانت أخلاق ابن حجر وعلاقته بتلاميذه قبساً من هدي النبوة، واتباعاً والتزاماً لما وعاه وحفظه من الكَلِم النبوي الطيب، فكان يبسط لهم وجهه، ولا يغلق دونهم بابه، ويوسع عليهم من ماله، ويسعى بجاهه لقضاء حوائجهم العلمية والدنيوية. وكان معهم هيناً ليناً، رفيقاً رقيقاً، حليماً مهيباً، لطيفاً ودوداً، لا ينصرف عن أحدهم بوجهه حتى يكون هو المنصرف.

فكثيراً ما كان يرشد طلبته إلى المحدثين والمسنِدين ليقرؤوا عليهم، ويتحمَّلوا الحديث عنهم، وربما شكوا إليه جفوة بعض الأشياخ، فيكتب لهم يرغِّبهم في التحديث، فينزلون على رغبته لمكانته. وغالباً ما يعين الطالب بالكتابة لما يرومه من أجوبة لبعض المسائل أو سرد الأسانيد.

وإذا ما قصده أحدهم ــ بعد فراغ الدرس ــ وقد همَّ بدخول بيته، وقف له طويلاً لا يفارقه، حتى يكون الطالب هو المنصرف، كما هي عادة رسول الله ﷺ.

ويعيرهم كتبه حتى ضاع منها زيادة على مائة وخمسين سفراً، التمسها في السوق فلم يحصِّل معظمها. بل إن بعضهم ليطلب جزءاً حديثياً مفرداً، طلباً للخفة حيث وجهته إلى مكان بعيد، فلا يتيسر ذلك؛ فيقطع الإمام نسخة من مجموع بخطه، ليرسلها إليه! وقد يقصده طلبته ــ وقد استعاروا من غيره كتاباً فَفُقِد ــ رجاء تفريج كربهم لدى المعير بما استكتبهم عوضاً

---

(١) إنباء الغمر: ٢٤٢/٩ ــ ٢٤٣؛ شذرات الذهب: ٢٦٥/٧؛ ابن حجر مؤرخاً: ص ٩٧.

عنه؛ فيقوم لهم بذلك، كما حدث مع العز الحسيني، فقد استكتبه «تاج الدين البلقيني» عوضاً عن كتاب استعاره من والده، وضاع، فذكر «العز» ذلك لشيخه ابن حجر، فقام معه في الفحص عند الكتبيين، وبذل كبير الجهد، فلم يظفر به، فأعان الإمامُ تلميذَه بورق أو ثمنه، ليجدد منه نسخة بدل التي ضاعت.

وكثيراً ما يتفقد الطلبة ـ سيَّما الغرباء والوافدين عليه ـ منفقاً عليهم، ويعينهم بكتبه، ويغدق عليهم من هداياه وما شاكلها. وعندما يطلبون منه «الإجازات»، يكتب لهم بها، ويشجعهم خلالها بالانكباب على طلب العلم وتحصيله. ويعود مرضاهم، بل ويصبر عليهم في اشتغالهم عليه في مرضه، فلقد مكث مدة في مرض موته، وبعض من يقرأ عليه ليلاً لم يعلم بذلك، ولم يشعره الإمام أيضاً، مراعاة لخاطره مع ما يتحمله من المشقة في ذلك، إلى أن أعْيَا؛ فتلطف له وأخبره بما يعانيه من المرض[1]!

● ● ●

وبعد هذه الصفحات الماتعة التي قضيناها مع ابن حجر الإمام الكبير، يجدر بنا أن نستعرض بإيجاز يحقق القصد، ولا يخرج عن موضوع البحث، «عقيدةَ ابن حجر» وكلامَه في هذا المجال، الذي هو أصل قبول كل عمل، وشرط الفلاح والنجاح في الدنيا والآخرة.



(١) ابن حجر مؤرخاً: ص ٩٧ ـ ٩٨.

الفَصل الحَادي عشر
عَقِيدَةُ ابْن حَجَر

الإمام الحافظ ابن حجر سلفي العقيدة[1]، ينهج منهج السلف الصالح في كليات العقيدة وجزئياتها، وقد دأب في «فتح الباري» على نصرة مذهب أهل السنة والجماعة، والرد على المخالفين. وقد تبدى ذلك واضحاً في شرحه «كتاب التوحيد من صحيح البخاري» خصوصاً، وفي فتح الباري عموماً.

ولقد أحسن الشمس محمد بن أحمد الأسيوطي إذ يقول في قصيدة امتدح فيها ابنَ حجر[2]:

هوَ آيةُ اللَّهِ الذي انطحنتْ بهِ فِرَقُ الضّلالِ وشُجَّ رأسُ المعتدي

ونجمل القول في ذلك ببعض الإشارات الدالّة المعبرة:

●● وأساس عقيدته اقتفاء ما كان عليه السلف، ورفض علم الكلام والبحث فيه، والخوض في متاهات لا طائل تحتها، وفي ذلك يقول:

«ومما حدث أيضاً تدوين القول في أصول الديانات، فتصدى لها المثبتة والنفاة، فبالغ الأول حتى شبَّه، وبالغ الثاني حتى عطَّل! واشتد إنكار السلف لذلك كأبي حنيفة وأبي يوسف والشافعي، وكلامهم في ذم أهل الكلام مشهور، وسببه أنهم تكلموا فيما سكت عنه النبي ﷺ وأصحابه. وثبت عن مالك أنه لم يكن في عهد النبي ﷺ وأبي بكر وعمر شيء من

---

(١) أخذنا هذا الفصل من خلال استقرائنا لآراء ابن حجر وتقريراته وترجيحاته في كتابه العظيم «فتح الباري».

(٢) الجواهر والدرر: ص ٤١٨.

الأهواء ــ يعني بدع الخوارج والروافض والقدرية ــ . وقد توسَّع من تأخَّر عن القرون الثلاثة الفاضلة في غالب الأمور التي أنكرها أئمة التابعين وأتباعهم، ولم يقتنعوا بذلك حتى مزجوا مسائل الديانة بكلام اليونان، وجعلوا كلام الفلاسفة أصلاً يردّون إليه ما خالفه من الآثار بالتأويل ولو كان مستكرهاً!! ثم لم يكتفوا بذلك حتى زعموا أن الذي رتَّبوه هو أشرف العلوم وأولاها بالتحصيل، وأن من لم يستعمل ما اصطلحوا عليه فهو عامي جاهل!! **فالسعيد من تمسك بما كان عليه السلف، واجتنب ما أحدثه الخلف، وإن لم يكن منه بدٌّ فليكتفِ منه بقدر الحاجة، ويجعل الأول المقصود بالأصالة، والله الموفق**»[1].

بل يرد عليهم تخليطهم وتخبيطهم، فينقل كلام ابن دقيق العيد: «نقول في الصفات المشكلة أنها حق وصدق، على المعنى الذي أراده الله، ومن تأولها؛ نظرنا: فإن كان تأويله قريباً على مقتضى لسان العرب، لم ننكر عليه، وإن كان بعيداً، توقفنا عنه، ورجعنا إلى التصديق مع التنزيه». ثم يقول ابن حجر: «وقال غيره: اتفق المحققون على أن حقيقة الله مخالفة لسائر الحقائق. وذهب بعض أهل الكلام إلى أنها من حيث إنها ذات مساوية لسائر الذوات، وإنما تمتاز عنها بالصفات التي تختص بها، كوجوب الوجود، والقدرة التامة، والعلم التام! وتُعقِّب: بأن الأشياء المتساوية في تمام الحقيقة يجب أن يصح على كل واحد منها ما يصح على الآخر، فيلزم من دعوى التساوي المحال. وبأن أصل ما ذكروه قياس الغائب على الشاهد، وهو أصل كل خبط. **والصواب الإمساك عن أمثال هذه المباحث، والتفويض إلى الله في جميعها، والاكتفاء بالإيمان بكل ما أوجب الله في كتابه أو على لسان نبيه إثباته له أو تنزيهه عنه، على طريق الإجمال، وبالله التوفيق. ولو لم يكن في ترجيح التفويض على التأويل إلَّا أن صاحب**

---

(١) الفتح: ١٣/٢٥٣؛ قال ذلك وهو يتكلم على البدعة ومُحْدَثات الأمور.

التأويل ليس جازماً بتأويله، بخلاف صاحب التفويض؛ (لَكَفى)[1]».

وقال في موضع آخر: «والعجب أن من اشترط ذلك[2] من أهل الكلام، ينكرون التقليد وهم أول داعٍ إليه، حتى استقر في الأذهان أن من أنكر قاعدة من القواعد التي أصَّلوها؛ فهو مبتدع، ولو لم يفهمها ويعرف مأخذها، وهذا هو محض التقليد. وقد آل أمرهم إلى تكفير من قلد الرسول عليه الصلاة والسلام في معرفة الله تعالى، والقول بإيمان من قلّدهم! وكفى بهذا ضلالاً»[3].

●● ويقرر أن الإيمان بالله تعالى تكفي فيه السمعيات من آيات الكتاب الحكيم والأحاديث الصحيحة، ولا يشترط في صحته نظر العقل في الأدلة والبراهين أولاً، ويسوق الأدلة على ذلك، وكيف كان الأصحاب يؤمنون بالله لمجرد دعوة النبي ﷺ إليهم وأنه رسول الله[4]، ثم يقول:

«وفي كتب النبي ﷺ إلى هرقل وكسرى وغيرهما من الملوك يدعوهم إلى التوحيد، إلى غير ذلك من الأخبار المتواترة التواتر المعنوي، الدال على أنه ﷺ لم يزد في دعائه المشركين على أن يؤمنوا بالله وحده، ويصدّقوه فيما جاء به عنه، فمن فعل ذلك قُبل منه، سواء كان إذعانه عن تقدّم نظر أم لا، ومن توقف منهم نبهه حينئذٍ على النظر، أو أقام عليه الحجة إلى أن يذعن أو يستمر على عناده»[5].

---

(١) الفتح: ١٣/ ٣٨٣، وكلمة (لكفى) ليست في الفتح، وقد أضفتها ليتم المعنى.

(٢) أي معرفة الله بالطرق التي رتبها أهل الكلام والأبحاث التي حرروها.

(٣) الفتح: ١٣/ ٣٥٤. وانظر تفصيل ذلك ص ٣٤٩ ـ ٣٥٤، وقد ردّ عليهم في غير موضع من «الفتح» عند شرحه «كتاب التوحيد».

(٤) كقصة ضمام بن ثعلبة، وعمرو بن عبسة، وقصة أسامة بن زيد في قتله الذي قال: لا إلٓه إلاَّ الله، وغير ذلك.

(٥) الفتح: ١٣/ ٣٥٣.

وفي كلام بديع على «أحدية الله تعالى»، وأنه لم يلد ولم يولد، يقول: «ولما كان الربّ سبحانه واجب الوجود لذاته قديماً، موجوداً قبل وجود الأشياء، وكان كل مولود محدثاً؛ انتفت عنه الوالدية. ولما كان لا يشبهه أحد من خلقه، ولا يجانسه حتى يكون له من جنسه صاحبة فتتوالد؛ انتفت عنه الولدية، ومن هذا قوله تعالى: ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ﴾»[1].

●● وعن أسمائه الحسنى ـ سبحانه وتعالى ـ يقول بأن الصحيح أنها توقيفية[2]، وأنه يجوز تسمية الله تعالى بما ليس في القرآن بشرطين:

فيقول ـ عند شرح قوله ﷺ: (اشفِ أنت الشافي، لا شافي إلَّا أنت) ـ: «قوله (أنت الشافي): يؤخذ منه جواز تسمية الله تعالى بما ليس في القرآن، بشرطين: أحدهما: أن لا يكون في ذلك ما يوهم نقصاً. والثاني: أن يكون له أصل في القرآن، وهذا من ذاك؛ فإن في القرآن: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾»[3].

ويضيف في موضع آخر قائلاً: «**واتفقوا على أنه لا يجوز أن يطلق عليه ـ سبحانه ـ اسم ولا صفة توهم نقصاً، ولو ورد ذلك نصاً؛ فلا يقال: ماهِد، ولا زارع، ولا فالق، ولا نحو ذلك، وإن ثبت في قوله: ﴿فَنِعْمَ الماهِدُونَ﴾، ﴿أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾، ﴿فَالِقُ الحبِّ والنَّوى﴾، ونحوها. ولا يقال له: ماكر، ولا بنّاء؛ وإن ورد: ﴿ومَكَرَ اللَّهُ﴾، ﴿والسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا﴾**. وقال أبو القاسم القشيري: الأسماء تؤخذ توقيفاً من الكتاب والسنة والإجماع، فكل اسم ورد فيهما وجب إطلاقه في وصفه، وما لم يرد لا يجوز، ولو صحّ معناه»[4].

●● وأما صفاته العظمى سبحانه وتعالى فلا يجوز وصفه إلَّا بما دلّ

---

(1) الفتح: ٨/ ٧٤٠.

(2) الفتح: ٥/ ٣٣٦.

(3) الفتح: ١٠/ ٢٠٧.

(4) الفتح: ١١/ ٢٢٣.

عليه الكتاب العزيز، والسنة الصحيحة الثابتة، أو أجمع عليه: كصفة العلم، والسمع والبصر، والكلام، والوجه والعين واليد، من صفات الذات. والاستواء، والنزول، والمجيء، وغيرها من صفات الفعل[1]. والكلام فيها إثبات بلا تمثيل، وتنزيه بلا تعطيل.

ويميل في ذلك إلى التفويض وعدم التأويل، اتباعاً للسلف في هذا.

يقول في معرض كلامه على «الاستواء»: «قال ابن عبد البر: أهل السنة مجمعون على الإقرار بهذه الصفات الواردة في الكتاب والسنة، ولم يكيفوا شيئاً منها، وأما الجهمية والمعتزلة والخوارج فقالوا: من أقرّبها فهو مشبِّه، فسماهم من أقرّ بها معطِّلة. وقال إمام الحرمين في «الرسالة النظامية»: اختلفت مسالك العلماء في هذه الظواهر، فرأى بعضهم تأويلها، والتزم ذلك في آي الكتاب وما يصح من السنن، وذهب أئمة السلف إلى الانكفاف عن التأويل، وإجراء الظواهر على مواردها، وتفويض معانيها إلى الله تعالى. والذي نرتضيه رأياً، وندين الله به عقيدة؛ اتباع سلف الأمة للدليل القاطع على أن إجماع الأمة حجة، فلو كان تأويل هذه الظواهر حتماً، لأوشك أن يكون اهتمامهم به فوق اهتمامهم بفروع الشريعة، وإذا انصرم عصر الصحابة والتابعين على الإضراب عن التأويل، كان ذلك هو الوجه المتبع. انتهى. وقد[2] تقدم النقل عن أهل العصر الثالث، وهم فقهاء الأمصار: كالثوري والأوزاعي ومالك والليث ومن عاصرهم، وكذا من أخذ عنهم من

---

(١) انظر مثلاً: الفتح: ١٣/٣٥٧، ٣٦٢، ٣٦٨، ٣٧٣، ٣٩٨ ـ ٣٩٩، ٤٧٩.

(٢) من هنا يبتدىء كلام ابن حجر، وقد ذكر قبل ذلك نقولاً كثيرة عن السلف في التفويض، ومن ذلك ما أخرجه البيهقي عن أبي داود الطيالسي قال: «كان سفيان الثوري وشعبة وحماد بن زيد وحماد بن سلمة وشريك وأبو عوانة، لا يحددون ولا يشبهون، ويروون هذه الأحاديث، ولا يقولون كيف. قال أبو داود: وهو قولنا. قال البيهقي: وعلى هذا مضى أكابرنا». الفتح: ١٣/٤٠٧. وقوله «هذه الأحاديث»: أي أحاديث الصفات.

الأئمة؛ فكيف لا يوثق بما اتفق عليه أهل القرون الثلاثة، وهم خير القرون بشهادة صاحب الشريعة»[1]؟!

●● ويقرر أن الإرادة صفة من صفات ذاته سبحانه لا صفة من صفات فعله كما تزعم المعتزلة وأنه سبحانه لا يقع في ملكه إلاَّ ما يريده، فيقول في ذلك:

«وقد اتفق أهل السنة على أنه لا يقع إلاَّ ما يريده الله تعالى، وأنه مريد لجميع الكائنات، وإن لم يكن آمراً بها. وقالت المعتزلة: لا يريد الشرّ، لأنه لو أراده طلبه، وزعموا أن الأمر نفس الإرادة، وشنعوا على أهل السنة أنه يلزمهم أن يقولوا إنّ الفحشاء مرادة لله، وينبغي أن ينزه عنها. وانفصل أهل السنة عن ذلك بأن الله تعالى قد يريد الشيء ليعاقب عليه، ولثبوت أنه خلق النار وخلق لها أهلاً، وخلق الجنة وخلق لها أهلاً، وألزموا المعتزلة بأنهم جعلوا أنه يقع في ملكه ما لا يريد.

ويقال: إن بعض أئمة السنة أُحضر للمناظرة مع بعض أئمة المعتزلة، فلما جلس المعتزلي قال: سبحان من تنزَّه عن الفحشاء، فقال السنّيُّ: سبحان من لا يقع في ملكه إلاَّ ما يشاء! فقال المعتزلي: أيشاء ربنا أن

---

(١) الفتح: ٤٠٧/١٣. ومن كل ما سبق يتضح مذهب ابن حجر في «الصفات»، وأنه جارٍ على مذهب السلف في التفويض، لكن قد مرّ خلال الأجزاء الأولى من «الفتح» أنه يؤوّل في مواضع قليلة جداً. مثلاً في (٣٠٠/٣) في شرح قوله ﷺ: (لا تُوعِي فيُوعِيَ اللّهُ عليكِ)، يقول: «يقال: أوعيت المتاع في الوعاء أوعيه، إذا جعلته فيه. ووعيت الشيء: حفظته. وإسناد الوعي إلى الله مجاز عن الإمساك». وفي (١٢٠/٧) يشرح قوله ﷺ: (ضَحِكَ اللّهُ الليلةَ ـ أو عجب ـ من فَعَالِكما)، فيقول: «ونسبة الضحك والتعجب إلى الله مجازية، والمراد بها الرضا بصنيعهما».
وهذا منه في النادر، ولعله ترك ذلك كما يتضح من صنيعه في الجزء الثالث عشر من الفتح، وبين كتابة الموضعين مدة قد تصل إلى عشر سنوات، إذا علمنا أنه مكث في شرحه ربع قرن. والله أعلم.

يعصى؟ فقال السنّي: أفيُعصى ربنا قهراً؟! فقال المعتزلي: أرأيت إن منعني الهدى وقضى عليَّ بالردى، أحسن إلي أو أساء؟ فقال السني: إن كان منعك ما هو لك فقد أساء، وإن كان منعك ما هو له فإنه يختص برحمته من يشاء! فانقطع»[1].

●● كما يقرر أن الأمور الخارقة يجب التسليم بها دون صرفها عن ظاهرها:

ففي حادثة «شق الصدر» ليلة المعراج يقول: «جميع ما ورد من شق الصدر، واستخراج القلب، وغير ذلك من الأمور الخارقة للعادة؛ مما يجب التسليم له، دون التعرض لصرفه عن حقيقته، لصلاحية القدرة، فلا يستحيل شيء من ذلك»[2].

ورد على جمهور الفلاسفة ومن تابعهم في إنكار المعجزات، كانشقاق القمر، وفتح أبواب السماء ليلة المعراج، وغير ذلك[3].

●● وأنه سبحانه وتعالى يعلم الكليات والجزئيات، ويرد على الفلاسفة ومن تابعهم في ضلالاتهم، فيقول:

«وإذا تقرر ذلك، لم يتخصص علمه في تعلّقه بمعلوم دون معلوم، لوجوب قِدَمِهِ المنافي لقبول التخصيص. فثبت أنه يعلم الكليات لأنها معلومات، والجزئيات لأنها معلومات أيضاً، ولأنه مريد لإيجاد الجزئيات، والإرادة للشيء المعيَّن إثباتاً ونفياً مشروطة بالعلم بذلك المراد الجزئي. فيعلم المرئيات للرائين ورؤيتهم لها على الوجه الخاص، وكذا المسموعات وسائر المدركات، لما عُلم ضرورة من وجوب الكمال له. وأضداد هذه الصفات نقص، والنقص ممتنع عليه سبحانه وتعالى. وهذا القدر كاف من

---

(١) الفتح: ١٣/٤٥١؛ وانظر: ص ٤٤٩ ــ ٤٥١، وكذا: ١١/٤٩٠.
(٢) الفتح: ٧/٢٠٥.
(٣) الفتح: ٧/١٨٥ ــ ١٨٦.

الأدلة العقلية. وضلّ من زعم من الفلاسفة أنه سبحانه وتعالى يعلم الجزئيات على الوجه الكلي لا الجزئي، واحتجوا بأمور فاسدة»[1].

●● ويتكلم على «حديث النزول» في ثلث الليل الآخر، وما جاء في ذلك من آراء، فردّ على المشبّهة، وكذا على من أنكر صحة الأحاديث الواردة في ذلك جملة، وهم الخوارج والمعتزلة، ثم قال: «والتسليم أسلم كما تقدم، والله أعلم»[2].

●● كما أعلن رأيه واضحاً في أن «القرآن العظيم كلام الله غير مخلوق»: ونقل كلام أهل السنة، وكلام من خالفهم في ذلك، ورد على المبتدعة القائلين بأن القرآن مخلوق، ثم قال: «والمحفوظ عن جمهور السلف ترك الخوض في ذلك والتعمق فيه، والاقتصار على القول بأن القرآن كلام الله، وأنه غير مخلوق، ثم السكوت عما وراء ذلك»[3].

وقال في موضع آخر: «والمنقول عن السلف اتفاقهم على أن القرآن كلام الله غير مخلوق، تلقاه جبريل عن الله، وبلّغه جبريل إلى محمد عليه الصلاة والسلام، وبلّغه ﷺ إلى أمته»[4].

●● وتكلم على «أفعال العباد»، وأنها مخلوقة لله، وتطرق لمذاهب أهل الكلام في القرآن، والتلاوة والمتلوّ، والقراءة والمقروء، ولخصها في خمسة مذاهب، ثم قال:

«ومن شدة اللّبس في هذه المسألة، كثُر نهيُ السلف عن الخوض

---

(١) الفتح: ١٣/٣٦٣. وقد ذكر تلك الأمور الفاسدة التي احتجوا بها، ورد عليها. وانظر كذلك: ١١/٤٩٠ مثلاً.

(٢) الفتح: ١٣/٤٦٨ و٣/٣٠.

(٣) الفتح: ١٣/٤٥٥. وانظر: ص ٤٥٤ ــ ٤٥٥، ٥٣٢ ــ ٥٣٣.

(٤) الفتح: ١٣/٤٦٣.

فيها، واكتفوا باعتقاد أن القرآن كلام الله غير مخلوق، ولم يزيدوا على ذلك شيئاً، وهو أسلم الأقوال، والله المستعان»[1].

وكثيراً ما يستشهد بأقوال البخاري ـ وهو من أئمة السلف ـ في كتابه «خلق أفعال العباد»[2].

●● وينعى على من يبحث في الغيبيات:

فيقول وهو يتكلم على معنى قوله تعالى: ﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾: «وأشد من ذلك ـ في كثرة السؤال ـ البحث عن أمور مغيّبة، وردَ الشرع بالإيمان بها مع ترك كيفيتها، ومنها ما لا يكون له شاهد في عالم الحسّ؛ كالسؤال عن وقت الساعة، وعن الروح، وعن مدة هذه الأمة، إلى أمثال ذلك مما لا يُعرف إلاَّ بالنقل الصرف، والكثير منه لم يثبت فيه شيء، فيجب الإيمان به من غير بحث»[3].

ومن ذلك ما ردّ به على السهيلي في تعليقه على حديث ابن عمر أنه كان إذا حيّى ابن جعفر بن أبي طالب قال له: «السلام عليك يا ابن ذي الجناحين»، قال ابن حجر: «وقال السهيلي: قوله جناحان: ليسا كما يسبق إلى الوهم كجناحي الطير وريشه، لأن الصورة الآدمية أشرف الصور وأكملها، فالمراد بالجناحين صفة مَلَكية، وقوة روحانية، أُعطيها جعفر. وقد عبر القرآن عن العضد بالجناح توسعاً في قوله تعالى: ﴿وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ﴾. وقال العلماء في أجنحة الملائكة: إنها صفة ملكية لا تفهم إلاَّ بالمعاينة، فقد ثبت أن لجبريل ستمائة جناح، ولا يعهد للطير ثلاثة أجنحة فضلاً عن أكثر من ذلك. وإذا لم يثبت خبر في بيان كيفيتها، فنؤمن من غير بحث عن حقيقتها. انتهى. وهذا الذي جزم به في مقام المنع، والذي نقله

---

(١) الفتح: ١٣/٤٩٣ ـ ٤٩٤.
(٢) انظر مثلاً: الفتح: ١٣/٥٠٠، ٥٠٤، ٥٠٨، ٥١٩، ٥٢٢، ٥٣٦.
(٣) الفتح: ١٣/٢٦٧.

عن العلماء ليس صريحاً في الدلالة على ما ادعاه، ولا مانع من الحمل على الظاهر إلَّا من جهة ما ذكره من المعهود، وهو من قياس الغائب على الشاهد، وهو ضعيف. وكون الصورة البشرية أشرف الصور لا يمنع من حمل الخبر على الظاهر، لأن الصورة باقية»[1].

●● وله ردود قيمة متنوعة في مجال العقيدة على طوائف مختلفة، من ذلك:

ــ رده على الغلاة ممن قال بوحدة الوجود، حيث يقول ــ في باب (ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله تعالى) ــ: **«المراد بتوحيد الله تعالى الشهادة بأنه إلّه واحد، وهذا الذي يسميه بعض غلاة الصوفية توحيد العامة. وقد ادعى طائفتان في تفسير التوحيد أمرين اخترعوهما: أحدهما تفسير المعتزلة كما تقدم[2]. ثانيهما: غلاة الصوفية، فإن أكابرهم لما تكلموا في مسألة «المحو والفناء» وكان مرادهم بذلك المبالغة في الرضا والتسليم وتفويض الأمر؛ بالغ بعضهم حتى ضاهى المرجئة في نفي نسبة الفعل إلى العبد، وجرَّ ذلك بعضهم إلى معذرة العصاة، ثم غلا بعضهم فعذر الكفار! ثم غلا بعضهم فزعم أن المراد بالتوحيد اعتقاد وحدة الوجود!! وعظم الخطب حتى ساء ظن كثير من أهل العلم بمتقدميهم، وحاشاهم من ذلك. وقد قدمت كلام شيخ الطائفة الجنيد[3]، وهو في غاية الحسن والإيجاز، وقد ردَّ عليه بعض من قال**

---

(١) الفتح: ٧/٥١٥ ــ ٥١٦.

(٢) سمّى المعتزلة أنفسهم «أهل العدل والتوحيد»، وعنوا بالتوحيد ما اعتقدوه من نفي الصفات الإلّهية، لاعتقادهم أن إثباتها يستلزم التشبيه، ومن شبّه الله بخلقه أشرك، وهم في النفي موافقون للجهمية. الفتح: ١٣/٣٤٤.

(٣) قال الجنيد ــ فيما حكاه أبو القاسم القشيري ــ: «التوحيد إفراد القديم من المحدَث». الفتح: ١٣/٣٤٤.

بالوحدة المطلقة فقال: وهل من غير؟! ولهم في ذلك كلام طويل ينبو عنه سمع كل من كان على فطرة الإسلام. والله المستعان»[1].

ومن هذا القبيل قوله في «إنباء الغمر»: «أحمد بن أبي بكر بن محمد بن الرداد، المكي ثم الزبيدي الصوفي، ثم القاضي شهاب الدين الشافعي. ولد سنة ثمان وأربعين[2]، ودخل اليمن، فاتصل بصحبته السلطان الأشرف إسماعيل بن الأفضل، فلازمه، واستقر من الندماء، ثم صار من أخصهم به. وكانت لديه فضائل كثيرة، ناظماً ناثراً ذكياً، إلاَّ أنه غلب عليه حب الدنيا، والميل إلى تصوف الفلاسفة، فكان داعية إلى هذه البدعة يعادي عليها، ويقرب من يعتقد ذلك المعتقد، ومن عرف أنه حصل نسخة «الفصوص»[3] قرَّبه وأفضل عليه. وأكثر من النظم والتصنيف في ذلك الضلال المبين، إلى أن أفسد عقائد أكثر أهل زبيد، إلاَّ من شاء الله! ونظمه وشعره ينعق بالاتحاد!! وكان المنشدون يحفظون شعره، فينشدونه في المحافل يتقربون به إليه...»[4].

ـ وكذا ردّ على من قال بأن «الروح قديمة»، وساق الأدلة النقلية القاطعة على أن الروح مخلوقة، والمخلوق ليس بقديم[5].

ـ وردّ على المنجمين الأفّاكين مدّعي علم الغيب[6].

ـ كذلك بيّن أن المؤمنين يرون ربهم سبحانه يوم القيامة، وردّ على

---

(١) الفتح: ١٣/٣٤٨. وانظر ما قبلها: ص ٣٤٤ ـ ٣٤٦.

(٢) أي: وسبعمائة.

(٣) هو «فُصُوص الحِكَم» لابن عربي. قال الذهبي في ترجمته: «ومن أردأ تواليفه كتاب «الفصوص» فإنْ كان لا كُفْرَ فيه، فما في الدنيا كفر، نسأل الله العفو والنجاة، فواغوثاه بالله»!! سير أعلام النبلاء: ٢٣/٤٨.

(٤) إنباء الغمر: ٧/٣٢٩.

(٥) الفتح: ١٣/٤٤٤.

(٦) الفتح: ١٣/٣٦٤ ـ ٣٦٥.

المعتزلة في ذلك[1]. ومما قاله: «وتواترت الأخبار النبوية بوقوع هذه الرؤية للمؤمنين في الآخرة، وبإكرامهم بها في الجنة، ولا استحالة فيها، فوجب الإيمان بها، وبالله التوفيق»[2].

ـ ويردّ على منكري القدر أثناء كلامه على حديث ابن مسعود: «حدثنا رسول الله ﷺ ـ وهو الصادق المصدوق ـ قال: «إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله مَلَكاً يؤمر بأربع كلمات، ويقال له: اكتب عمله ورزقه وشقي أو سعيد. . .». فيقول الحافظ: «وهو السيف المسلول على منكري القدر»[4].

وقال في موضع آخر: «ومذهب السلف قاطبة أن الأمور كلها بتقدير الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلومٍ﴾»[5].

ورحم الله النواجي إذ يقول في ابن حجر[6]:

وكَمْ وكَمْ قد أماتَ خصْماً عانَدَ في شَرْعِهِ وألْحَدْ

●● ويقرر بأسلوب واضح مدعّم بالأدلة مذهب أهل السنة في عصاة المؤمنين، بأنهم قد يعذّبون في النار على قدر ذنوبهم، ويخرجون منها، ولا يخلد فيها مَنْ كان في قلبه مثقال ذرة من خردل من إيمان، فيقول:

«تعاضدت الأدلة العقلية والنقلية أن من مات مسلماً، ولو كان من أهل الكبائر؛ فهو محكوم بإسلامه، غير مخلَّد في النار، ومآله إلى الجنة، ولو عذب قبل ذلك»[7].

---

(١) الفتح: ١٣/ ٤٢٤ ـ ٤٢٧.
(٢) الفتح: ٨/ ٣٠٢.
(٣) الفتح: ٦/ ٣٠٣.
(٤) تغليق التعليق: ٢/ ٦٢.
(٥) الفتح: ١١/ ٤٧٨.
(٦) الفتح: ١٣/ ٥٦١.
(٧) الفتح: ١٢/ ٢٥٩، وانظر كذلك مثلاً: ١/ ٢٢٦.

وفي موضع آخر عند شرحه حديث أبي ذر أن النبي ﷺ قال: (ما من عبد قال: لا إله إلاَّ الله، ثم مات على ذلك إلاَّ دخل الجنة) قلتُ: وإن زنى وإن سرق؟ قال: (وإن زنى وإن سرق)... » يقول الحافظ بأن «الحديث محمول على من وحّد ربه ومات على ذلك، تائباً من الذنوب التي أشير إليها في الحديث، فإنه موعود بهذا الحديث بدخول الجنة ابتداء، وهذا في حقوق الله باتفاق أهل السنة. وأما حقوق العباد فيشترط ردّها عند الأكثر، وقيل: بل هو كالأول، ويثيب الله صاحب الحق بما شاء. وأما من تلبّس بالذنوب المذكورة، ومات من غير توبة، فظاهر الحديث أيضاً أنه داخل في ذلك، لكن مذهب أهل السنة أنه في مشيئة الله تعالى، ويدل عليه حديث عبادة بن الصامت ـ الماضي في «كتاب الإيمان» ـ فإن فيه: (ومن أتى شيئاً من ذلك فلم يُعاقَب به؛ فأمره إلى الله تعالى، إن شاء عاقبه، وإن شاء عفا عنه). وهذا المفسَّر مقدَّم على المبهم. وكل منهما يردّ على المبتدعة من الخوارج والمعتزلة، الذين يدَّعون وجوب خلود من مات من مرتكبي الكبائر من غير توبة في النار، أعاذنا الله من ذلك بمنّه وكرمه»[1].

●● **وأكد ببيان ساطع أن الجنة والنار موجودتان الآن، وردّ على من قال ـ كالمعتزلة وغيرهم ـ بأنهما لا تخلقان إلاَّ يوم القيامة**[2].

وردّ على القائلين بأن النار سيأتي عليها يوم يزول فيه عذابها، ويخرج أهلها منها؛ فيقول: «وقد مال بعض المتأخرين إلى هذا القول السابع[3]، ونصره بعدة أوجه من جهة النظر، وهو مذهب رديء مردود على

---

(١) الفتح: ١٠/٢٨٣ ـ ٢٨٤.

(٢) الفتح: ٢/١٩، ٦/٣٢٠، ٣٣٣.

(٣) ذكر في خلود أهل النار سبعة أقوال، والذي ذكرناه هنا هو السابع. والذي أجمع عليه أهل السنة: «بأن خلود أهل النار فيها لا إلى غاية أمد، وإقامتهم فيها على الدوام، بلا موت، ولا حياة نافعة، ولا راحة». والأدلة في هذا كثيرة، انظر: الفتح: ١١/٤٢١ ـ ٤٢٢.

قائله. وقد أطنب السبكي الكبير في بيان وهائه، فأجاد»(1).

●● ويعظِّم جناب الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ وخاصة سيد الخلق محمداً ﷺ:

ففي شرحه لحديث أنس قال: «ولا شَمِمْتُ مِسْكَةً ولا عَبيرةً أطيبَ رائحةً من رائحةِ رسولِ الله ﷺ»؛ يقول: «فيه أنه ﷺ كان على أكمل الصفات خَلقاً وخُلُقاً، فهو كل الكمال، وجُلّ الجلال، وجُملة الجمال، عليه أفضل الصلاة والسلام»(2).

وقد ردّ على المعتزلة ومن تابعهم في تفضيل الملائكة على صالحي بني آدم، بل وعلى الأنبياء، لا بل حتى على رسول الله محمد ﷺ، وقد شنع على الزمخشري في ذلك، فقال: «**وقد أفرط الزمخشري في سوء الأدب هنا، وقال كلاماً يستلزم تنقيص المقام المحمدي، وبالغ الأئمة في الرد عليه في ذلك، وهو من زلّاته الشنيعة**»(3).

ـ وقال بنبوة الخضر عليه السلام، وأنه ليس حياً الآن(4).

●● وتكلم في «الكرامات» بكلام مسدَّد، معتدل منصف:

فمما قاله: «والمشهور عن أهل السنة إثبات الكرامات مطلقاً، لكن استثنى بعض المحققين منهم ـ كأبي القاسم القشيري ـ ما وقع به التحدي لبعض الأنبياء، فقال: ولا يصلون إلى مثل إيجاد ولد من غير أب، ونحو ذلك، وهذا أعدل المذاهب في ذلك، فإن إجابة الدعوة في الحال، وتكثير الطعام والماء، والمكاشفة بما يغيب عن العين، والإخبار بما سيأتي، ونحو ذلك؛ قد كثر جداً، حتى صار وقوع ذلك ممن ينسب إلى

---

(1) الفتح: ١١/٤٢٢.
(2) الفتح: ٤/٢١٦.
(3) الفتح: ١٣/٣٨٨، وانظر ما قبلها: ص ٣٨٦ ـ ٣٨٨.
(4) الفتح: ٦/٤٣٣ ـ ٤٣٥، ٧/٤٤٣، ٨/٤٢٢.

الصلاح كالعادة. فانحصر الخارق الآن فيما قاله القشيري، وتعيّن تقييد قول من أطلق أن كل معجزة وجدت لنبـي يجوز أن تقع كرامة لولي!.

ووراء ذلك كله أن الذي استقر عند العامة أن خرق العادة يدل على أن من وقع له ذلك من أولياء الله تعالى، وهو غلط ممن يقوله، فإن الخارق قد يظهر على يد المبطِل من ساحر وكاهن وراهب، فيحتاج من يستدل بذلك على ولاية أولياء الله تعالى إلى فارق، وأَوْلى ما ذكروه أن يُختبر حال من يقع له ذلك، فإن كان متمسكاً بالأوامر الشرعية والنواهي، كان ذلك علامة ولايته، ومَنْ لا فلا، وبالله التوفيق»[1].

●● وقرّر أنه لا عصمة لغير نبـي:

فقال عند شرحه الحديث القدسي: (وما تقرَّبَ إليّ عبدي بشيء أحب إلي مما افترضْتُه عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبَّه، فإذا أحببتُه كنتُ سمعَه الذي يسمع به، وبصَرَهُ الذي يبصر به، ويدَهُ التي يبطش بها، ورجلَهُ التي يمشي بها، وإنْ سألني لأعطينَّه، ولئن استعاذ بـي لأعيذنّه...).

يقول ابن حجر: «وقد تمسك بهذا الحديث بعض الجهلة من أهل التجلي والرياضة، فقالوا: القلب إذا كان محفوظاً مع الله، كانت خواطره معصومة من الخطأ! وتعقب ذلك أهلُ التحقيق من أهل الطريق فقالوا: لا يلتفت إلى شيء من ذلك إلاَّ إذا وافق الكتاب والسنة، والعصمة إنما هي للأنبياء، ومن عداهم فقد يخطىء، فقد كان عمر ــ رضي الله عنه ــ رأسَ المُلْهَمين، ومع ذلك فكان ربما رأى الرأي، فيخبره بعض الصحابة بخلافه، فيرجع إليه ويترك رأيه. فمن ظن أنه يكتفي بما يقع في خاطره عما جاء به الرسول ــ عليه الصلاة والسلام ــ فقد ارتكب أعظم الخطأ. وأما من

(١) الفتح: ٧/٣٨٣.

بالغ منهم فقال: حدَّثني قلبي عن ربي؛ فإنه أشد خطأً، فإنه لا يأمن أن يكون قلبه إنما حدّثه عن الشيطان، والله المستعان»[1].

●● **وينصر عقيدة الجمهور في سماع الميت لِمَا يُخاطَب به حال موته، وأن الروح تعاد إلى الجسد، فيقع السؤال عليهما معاً:**

فيشرح حديث النبي ﷺ ومخاطبته لقتلى كفار معركة بدر وهم في «القَليب»، وما جاء من أحاديث في سؤال الميت وعذاب القبر؛ فيقول: «وقد أخذ ابن جرير وجماعة من الكرامية من هذه القصة أن السؤال في القبر يقع على البدن فقط، وأن الله يخلق فيه إدراكاً بحيث يسمع ويعلم، ويلذّ ويألم. وذهب ابن حزم وابن هبيرة إلى أن السؤال يقع على الروح فقط، من غير عود إلى الجسد. وخالفهم الجمهور فقالوا: تعاد الروح إلى الجسد أو بعضه كما ثبت في الحديث، ولو كان على الروح فقط لم يكن للبدن بذلك اختصاص، ولا يمنع من ذلك كون الميت قد تتفرق أجزاؤه، لأن الله قادر أن يعيد الحياة إلى جزء من الجسد ويقع عليه السؤال، كما هو قادر على أن يجمع أجزاءه. والحامل للقائلين بأن السؤال يقع على الروح فقط أن الميت قد يُشاهد في قبره حال المسألة لا أثر فيه من إقعاد ولا غيره، ولا ضيق في قبره ولا سعة، وكذلك غير المقبور كالمصلوب. وجوابهم: أن ذلك غير ممتنع في القدرة، بل له نظير في العادة وهو النائم فإنه يجد لذة وألماً لا يدركه جليسه، بل اليقظان قد يدرك ألماً أو لذة لما يسمعه أو يفكر فيه، ولا يدرك ذلك جليسه. وإنما أتى الغلط من قياس الغائب على الشاهد، وأحوال ما بعد الموت على ما قبله. والظاهر أن الله تعالى صرف أبصار العباد وأسماعهم عن مشاهدة ذلك، وستره عنهم؛ إبقاءً عليهم لئلا يتدافنوا، وليست للجوارح الدنيوية قدرة على إدراك أمور الملكوت إلاّ من شاء الله. وقد ثبتت الأحاديث بما ذهب إليه الجمهور، كقوله: (إنه ليسمع

---

(١) الفتح: ١١/٣٤١، ٣٤٥.

خفق نعالهم)، وقوله: (تختلف أضلاعه لضمّة القبر)، وقوله: (يسمع صوته إذا ضربه بالمطراق)، وقوله: (يضرب بين أذنيه)، وقوله: (فيقعدانه)، وكل ذلك من صفات الأجساد. وذهب أبو الهذيل ومن تبعه إلى أن الميت لا يشعر بالتعذيب ولا بغيره، إلّا بين النفختين، قالوا: وحاله كحال النائم والمغشي عليه، لا يحس بالضرب ولا بغيره إلّا بعد الإفاقة. والأحاديث الثابتة في السؤال حالة تولي أصحاب الميت عنه تردّ عليهم»[1].

●● ويقرر أن الأعمال هي التي توزن يوم القيامة:

فبعد أن يسوق ما جاء في ذلك من أدلة وأقوال، يقول: «والصحيح أن الأعمال هي التي توزن، وقد أخرج أبو داود والترمذي وصححه ابن حبان عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: (ما يوضع في الميزان يوم القيامة أثقل من خلق حسن). وفي حديث جابر رفعه: (توضع الموازين يوم القيامة، فتوزن الحسنات والسيئات، فمن رجحت حسناته على سيئاته مثقال حبة دخل الجنة، ومن رجحت سيئاته على حسناته مثقال حبة دخل النار). قيل: فمن استوت حسناته وسيئاته؟ قال: (أولئك أصحاب الأعراف). أخرجه خيثمة في «فوائده». وعند ابن المبارك في «الزهد» عن ابن مسعود نحوه موقوفاً. وأخرج أبو القاسم اللالكائي في «كتاب السنة» عن حذيفة موقوفاً أن صاحب الميزان يوم القيامة جبريل عليه السلام»[2].

● ● ●

وبهذا يتضح أن الحافظ ابن حجر سلفيّ العقيدة، سلفيّ التفكير، ينصر مذهب أهل السنة والجماعة بالحجة الدامغة والبرهان الساطع، ويرد على طوائف المبتدعة ويقرر الحق الذي يدل عليه الكتاب والسنة الصحيحة.

---

(١) الفتح: ٣/٢٣٥، وانظر ما قبلها: ص ٢٣١ ـ ٢٣٤.

(٢) الفتح: ١٣/٥٣٩.

وهو وإن نزع في بداية أمره إلى التأويل في القليل النادر؛ فالأمر ما قاله في آخر أمره في «الفتح» الذي فرغه سنة (٨٤٢هـ). وما سبق منه لا يخدش في عقيدته، ولا يؤثر في منزلته، إن شاء الله تعالى.



هذا وقد آن لنا أن نتوقف وقفات طويلة، متأملة باحثة، لما سطّره يراع هذا الإمام الكبير من مصنفات؛ فمؤلفات المرء هي خير دليل على مدى عظمته وتفوقه، وهي الشاهد الحي لصدق كل ما كتب عن الإمام، أو مُدح به.

***

الفَصْلُ الثَّانِي عَشَر

مُصَنَّفَاتُهُ: قِيمَتُهَا، وَمَجَالَاتُهَا وَنَوَاحِي ٱلإِبْدَاعِ فِيهَا، وَٱلتَّعْرِيفُ بِهَا

يعتبر ابن حجر أحد أفذاذ العلماء الذين أثروا المكتبة الإسلامية بكنوز ثمينة، في مختلف مجالات العلم الشريف. والتراث العلمي الذي يخلِّفه أي عالم هو من أكبر الأدلة على مكانته العلمية، كما أن مصنفاته تعتبر من أصدق المصادر وأعلاها ثقة لتدوين سيرته، خاصة إذا كانت شخصيته العلمية واضحة التأثير في تآليفه.

●● وتتبدى عقلية ابن حجر وآراؤه واضحة المعالم في مصنفاته، سواء كان ذلك في مختصراته، وتلخيصاته، أو نُكَته، وتخريجاته، أو ذيوله واستدراكاته، أو شروحه وفوائده، أو تراجمه وتأريخه وروايته للمشاهد التي عاينها؛ لا يخلو واحد منها من استدراك وتحقيق، أو بحث وتدقيق، أو نقد وتمحيص، أو سدٍّ نقص وإتمام فائدة، حتى لكأنه مخترع ذلك التصنيف من أصله، وكتبه شاهدة بذلك، حتى قال أبو ذر ابن شيخ الإسلام البرهان الحلبي في هذا: «وبالجملة ليس له مؤلَّف إلاَّ وهو فرد في بابه»[1].

وليس ذلك بغريب منه، فهو أحد أفراد الأعيان في غزارة المادة، وسعة الاطلاع، ودقة البحث، وقوة الحافظة، وحسن الاستحضار، مع البصيرة الواعية، والفكر النقاد، والأسلوب الأخّاذ. والذي يطلع ــ مثلاً ــ

(١) الجواهر والدرر: ص ٢٥٥.

على «تهـذيب التهـذيب» أو «تقـريب التهـذيب»، أو «لسـان الميـزان»، أو «تبصيـر المنتبـه»، أو «الإصـابـة»، أو «التلخيص الحبير»، أو «الـدرايـة» أو «نخبة الفِكَر»؛ يجد مصداق ذلك.

●● **ولـذا فقد انتشـرت مؤلفاتـه في الأقـطار، وسـارت فيهـا «سيـر النهار، وحملتها الـركبان إلى الأنجـاد والأغوار، وتكـاتبت الملوك من قطر إلى قطر في شأنها، وتهادوها بسؤال علمائهم لهم في ذلك** «حتى ورد كتاب في سنـة (٨٣٣هـ) من «شـاه رخ بن تيمـور»، ملك الشـرق، يستـدعي من السلطان الأشرف برسباي هدايا من جملتها «فتح الباري»، فجهز له صاحب الترجمة[1] ثـلاث مجلدات من أوائله. ثم أعاد الـطلب في سنة (٨٣٩هـ)، ولم يتفق أن الكتاب قد كمل، فأرسـل إليه أيضـاً قطعـة أخرى. ثم في زمن الـظاهـر جقمق جُهـزت لـه نسخـة كـاملة، وكـذا وقـع لسلطان المغـرب أبـي فارس عبد العزيز الحفصي، فأرسل إليه يستدعيـه، فجهز لـه ما كمـل من الكتاب. وكان يجهـز لكتبة «الشـرح»[2] ولجماعـة مجلس الإملاء ذهبـاً يفرّق عليهم. هذا ومصنفه حي رحمه الله»[3].

وقد أحسن الشرف عيسى بن سليمان الطُّنُوبـي إذ يقول في ابن حجـر ومصنفاته:

سمَـا في تـآليف غَلَتْ في حيـاتـهِ	نعمْ وعَلَتْ فـوق السِّمَـاكِ وتَنِّينِ
تنـاهز عُشْـرَ الألفِ عَدًّا وكم سعى	لِبَـابِ عُـلاَهـا وافـدٌ من سـلاطينِ
وزادوا اشتيـاقـاً بـالسمـاع وربمـا	تعشَّق قبل العينِ سمعُك في الحينِ
فجهَّـزهـا سلطانُ مصـرَ هـديـةً	إليهمْ فـأغنتْ عن خيـولٍ ونَقْـدينِ

(١) يعني ابن حجر.

(٢) أي: فتح الباري.

(٣) البدر الطالع: ١/ ٨٩ ـ ٩٠؛ إنباء الغمر: ٨/ ١٩٤.

إلى الغربِ سارتْ ثم للنَّبْكِ سافرتْ   وفي يَمَنٍ حلَّت وصارتْ إلى الصِّينِ[1]

●● ولقد كثر ثناء الأئمة والعلماء على تصانيفه في حياته وبعد موته، من لدن أشياخه فمن بعدهم، ومن ذلك ما قاله العلاّمة الحافظ أبو حامد ابن ظَهِيرة المكي[2]، على بعض «تخاريج ابن حجر»:

«وقفتُ على هذه اللآلي، وتحققت ما اشتملت عليه من العوالي، فألفيتها جواهرَ مكنونة، ودُرَراً مَصُونة، وذخائرَ شملت مُخَرِّجَها من الله المعونة، فعوَّذتها برب الفلق من شر حاسد إذا حسد، وقلت عند نظري فيها: لا يقدر على هذا التخريج أحد!! فَيَا لَها من أحاديث صحاحٍ وحِسَان، وواهاً عليها من آثار يقف عن تخريج مثلها كل إنسان. فللّه قوله في الخطبة: «واتصلت فانقطعت»، وما أحسن قوله بعد ذلك: «وَعَلَت»، ولله العجب من قوله: «ما يهز اللبيب على سماعه عِطْفاً، ويعلم أن مائة صابرة من مروياتي تغلب ألفاً»!! ولا شك أن للكلام مُلوكاً وهذا ملوكه، وأن هذا مقام تعجز قرائح أهل هذا الزمان عن سلوكه، وتلوت حين قضيت العجب من هذه العلوم: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾!!

ولا بدع فإن مخرِّجها فاق الأقران، وسما على أبناء الزمان، تقابلَت فيه الأوصاف حُسناً، وجمع أشتات الفضائل فنال منها المحل الأسنى،

---

(١) الجواهر والدرر: ص ٤٠٩. ومعنى «السِّماك» ـ ككتاب ـ: وهما سماكان (الأعزل والرامح): نجمان نيِّران. والتنين ـ كسكِّيت ـ: بياض خفي في السماء، يكون جسده في ستة بروج وذنبه في البرج السابع، دقيق أسود فيه التواء، وهو يتنقل تنقل الكواكب الجواري. انتهى. هكذا في القاموس المحيط. ولعله جملة هائلة من النجوم تسبح في السماء، كما تتبدى لنا مجرتنا مجرة درب التبانة، والله أعلم.
و «الغرب»: يريد بلاد المغرب العربي، مشيراً إلى طلب سلطانها «فتح الباري».
و «النبك»: بلدة جميلة باردة، تبعد عن دمشق (٧٠) كيلومتراً للمتجه شمالاً إلى حلب.

(٢) هو أحد أشياخ ابن حجر، وقد سبق التعريف به: ص ١٣٨.

وتضلَّع من العلوم الشريفة والآداب، وحوى من المراتب السنيَّة ما يعلو على السحاب، زاده الله تعالى من فضله، وجعله وإياي من خير أهله، بمنّه وكرمه، آمين»[1].

ويقول محدث مكة تقي الدين محمد بن فهد: **«ألف التواليف المفيدة، المليحة الجليلة، السائرة الشاهدة له بكل فضيلة، الدالة على غزارة فوائده، والمعربة عن حسن مقاصده، جمع فيها فأوعى، وفاق أقرانه جنساً ونوعاً، التي شنّفت بسماعها الأسماع، وانعقد على كمالها لسان الإجماع، ورزق فيها الحظ السامي عن اللَّمس، وسارت بها الركبان سير الشمس»**[2].

ويقول تلميذه العلّامة المؤرخ المحدث المفسر برهان الدين البِقَاعي: «سارت مصنفاته في جميع الآفاق، وكانت فتاويه وأماليه كالشمس في الإشراق»[3].

ويقول تلميذه العلّامة القاضي قطب الدين الخيضري: «وصنف التصانيف المفيدة البالغة في الإحسان، النافعة لكل إنسان»[4].

وصدق العلّامة الأوحد أحمد بن مبارك شاه الحنفي إذ يقول في ابن حجر وتصانيفه[5]:

لئنْ حازَ حُسْنَ الخطِّ والحظِّ والنُّهى ... فما سوَّد التصنيفَ إلاَّ وَجَوَّدَا
وزهَّدَ في التأليف كل مؤلِّف ... فصارَ بتأليفِ الحديث مزهَّدا

---

(١) الجواهر والدرر: ص ٢١٥ ــ ٢١٦.
(٢) ذيول تذكرة الحفاظ: ص ٣٣٢؛ الجواهر والدرر: ص ٢٥٠.
(٣) الجواهر والدرر: ص ٢٥٩.
(٤) المرجع السابق: ص ٢٦٤.
(٥) المرجع السابق: ص ٣٤٣.

وأحيى مـواتَ العلمِ فيـنا رواؤهُ فروّى وأرْوَى حين أحيى مِن الصّدَى
لقـاضي قضـاة المسلمين مـواهبٌ تفوقُ عقولَ الخلق من عِظَم الجَدَا
فـلا مُعْسـرٌ إلا وأصبَـحَ ذَا غِنًـى ولا ذُو غِـنًـى إلَّا ومـنـهُ تـزوَّدا

وهذا قليل من كثير، وغيض من فيض، من الثناء على مصنفاته، فقـد كان أشياخه وأقرانه وصدور علمـاء عصره يقـرظون كتبـه حال فـراغه منهـا، أو من بعض أجزائها، ويشهدون له بالسبق والإبداع فيما يكتب ويصنف[1].

●● **وقد نقل السخاوي عن شيخه ابن حجـر أنه قـال: «لست راضياً عن شيء من تصـانيفي، لأني عملتهـا في ابتـداء الأمـر، ثم لم يتهيـأ من يحرِّرها معي، سوى: شرح البخاري، ومقدمته، والمشتبه[2]، والتهذيب، ولسان الميزان». بل كان يقول فيه[3]: «لو استقبلت من أمري ما استدبـرت لم أتقيد بالذهبـي، ولجعلته كتاباً مبتكراً».**

كما نقل عنه أنه أثنى على «تغليق التعليق» مع أنه من أوائـل مصنفاتـه ــ وعلى «نخبة الفكر». ثم قال ابن حجر: «وأمـا سائـر المجموعـات: فهي كثيرة العَدد، واهية العُدَد، ضعيفة القوى، ظامئة الروى»!

---

(١) انظر: الجواهر والدرر: ص ٢٠٥ ــ ٢٦٧، في الثناء على ابن حجر ومؤلفاته. وأما الكوثري فقد ذكر بـأن ابن حجر قـد استفاد من فـوائد خليـل بن محمد الأقفهسي، والحـافظ البـرهـان سبط ابن العجمي، ثم قـال: «فـازدادت كتب ابن حجـر رونقـاً وفوائد عفواً بلا تعب»!! ذيول تذكرة الحفاظ: ص ٢٧١. وليس هـذا من الإنصاف في شيء، فهل في الدنيا عالم لم يستفد من غيره ويـأخذ عن سلفـه؟! ولكن هكذا أراد الكوثري، سامحه الله، وغفر لنا وله. وما أجمل قول البديع الهمذاني:

تـريـد عـلى مكـارمـنـا دلـيـلاً متى احـتـاج النـهـار إلى دلـيـل؟!

(٢) هو «تبصير المنتبه بتحرير المشتبه».

(٣) أي: في «لسان الميزان».

ويعقب السخاوي على قول شيخه، فيقول: «وليس ذلك إلاَّ لتواضعه، وكثرة معارفه المتجددة».

ويقول الأستاذ المحدث حبيب الرحمن الأعظمي: «ولا شك أن كلامه هذا مبعثه تحرّيه التجويد والتحرير، وهو يصوِّر تواضعه الجمَّ، فمصنفاته كلها تنمُّ عن علم واسع، وتحقيق نادر، وهي مراجع أساسية في موضوعاتها»[1].

ونحن نقرر ـ دون مرية أو شك ـ أن قول ابن حجر من التواضع وهضم النفس، ونشدان الكمال لمصنفاته، خاصة لتلك التي صنفها في فورة الشباب، مع ما حصل له في عمره المديد من علم غزير عميق. ولا أدل على ذلك من شهادة أولئك الأعيان من الأشياخ والأقران، الأمناء على دين الله، الأتقياء له فيما يقولون ويشهدون، ممن أقروا لمؤلفاته بالجودة والإتقان، والدقة، والإبداع، ثم إقبال جماهير المسلمين ـ علماء وطلاب علم ـ على كتبه التي احتشدت في المكتبة الإسلامية، مما هو ملاحظ حتى عصرنا الحاضر.

فمن ذا يُنكر حُسْنَ وجودة وتفوُّق كتاب «الإصابة» و «المطالب العالية» و «تقريب التهذيب» و «الدراية» و «التلخيص الحبير» و «إنباء الغمر» و «تعجيل المنفعة» و «القول المسدَّد» و «إتحاف المهرة» و «أطراف المختارة»، وغيرها من التخاريج والفوائد، والأطراف، والتلخيصات، والمشيخات، والأجزاء الحديثية؛ مما سنتكلم عنه في هذا الفصل[2]؟!

---

(١) مقدمة المطالب العالية، صفحة (ز).

(٢) وقد نقل الكوثري ـ في هامش ذيول تذكرة الحفاظ: ص ٣٣٤ ـ كلام السخاوي عن شيخه، وبتر تعقيب السخاوي عليه، وليس هذا من الأمانة العلمية! كما تركه دون تعليق؛ مما يوهم القارىء بأن تصانيف ابن حجر لا قيمة لها، سوى التي ذكر أنه راضٍ عنها!! فلا حول ولا قوة إلاَّ بالله.

●● **ومصنفات ابن حجر من حيث مادتها**: تعالج موضوعات متعددة: في العقيدة، وعلوم القرآن، والحديث وعلومه، والفقه، والتأريخ، والتراجم، واللغة، وغير ذلك.

ومن حيث حجمها: منها الكبير الذي يقع في عدة مجلدات، والمتوسط، وبعضها صغير في جزء أو أجزاء. ومنها ما هو على شكل فوائد، أو نُكت علمية، أو إجابات مستفيضة على سؤال، ونحو ذلك.

●● **ومن حيث اكتمالها وتمامها**: فمنها ما كَمُل وبُيِّضَ، أو كمُل وشرع في تبييضه، أو كمُل لكن بقي في المسودة، وبعضها كتب منه نصفه أو أقل أو أكثر، وبعضها شرع فيه فكتب منه اليسير.

وأما من حيث إبداعها، والابتكار فيها، وما أضافته في مجالها: فمنها المبتكر، ومنها المختصرات، ومنها الكتب التي قام بتهذيبها وترتيبها، أو التخاريج والاستدراكات والتعليقات، والنكت والفوائد، ونحو ذلك. وفي كل منها تبدو شخصية ابن حجر واضحة التأثير، فليس هو بمقلِّد بل ناقد بصير، وممحِّص خبير.

●● **ومن اللطائف في مصنفاته أن مقدماتها كثيراً ما تكون مناسبة لعنوان الكتاب وموضوعه ومحتواه**:

ـ فمثلاً يقول في مقدمة «تغليق التعليق»: «الحمد لله الذي من تعلَّق بأسباب طاعته فقد أسند أمره إلى العظيم جلالُه، ومن انقطع لأبواب خدمته، متمسكاً بنفحات كرمه، قَرُبَ اتصاله، ومن انتصب لرفع يديه، جازماً بصحة رجائه، مع انكسار نفسه، صَلُح حاله...»[1].

ولاحظ الكلمات: «تعلَّق»، «أسند»، «انقطع»، «اتصاله»، وغيرها؛ كلها لها تعلُّق واضح بمضمون الكتاب من وصل التعاليق وإسناد المنقطعات.

---

(١) تغليق التعليق: ٢/٥.

ـ وفي مقدمة «لسان الميزان» يقول: «الحمد لله المحمود بكل لسان، المعروف بالجود والإحسان الذي خلق الإنسان وعلَّمه البيان، وأشهد أن لا إله إلاَّ الله شهادة أدخرها يوم العرض على الميزان...»[١]. ويبدو واضحاً تضمينه اسم الكتاب في هذه المقدمة.

ـ ويقول في مقدمة «الدراية في تخريج أحاديث الهداية». «الحمد لله على التوفيق إلى الهداية، وسلوك طريق أهل الدراية، وأشهد أن لا إلٓه إلاَّ الله وحده لا شريك له، وله على ذلك في كل شيء آية، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي له في الشرف أعلى غاية، وفي السؤدد أقصى نهاية، صلَّى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاةً وسلاماً دائمين ما استلزمت النهاية والبداية»[٢]. فقد ضمَّن عنوان الكتاب في السطر الأول.

ـ وفي مقدمة كتابه «قوة الحجاج في عموم المغفرة للحجاج»، يقول: «الحمد لله العزيز الغفار، وأشهد أن لا إلٓه إلاَّ الله وحده لا شريك له، مبدِّل السيئات حسنات، وماحي الأوزار، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله المصطفى المختار، صلَّى الله عليه وعلى آله وأصحابه الطيبين الأطهار»[٣].

ولاحظ ذكره لاسم الله سبحانه: «الغفار»، وقوله: «مبدِّل السيئات حسنات»و «ماحي الأوزار» وكلها مناسبة لعنوان الكتاب ومضمونه[٤].

●● أما وقت ابتدائه في التصنيف، ففي حدود سنة (٧٩٦هـ) على ما قاله السخاوي، وبقي يصنف إلى آخر عهده بالدنيا، فكان كما قال

---

(١) لسان الميزان: ١/ ٢.

(٢) الدراية: ص ١٠.

(٣) قوة الحجاج: ص ١٧.

(٤) وانظر مثلاً مقدمات كتبه: تهذيب التهذيب، التلخيص الحبير، المطالب العالية، طبقات المدلسين، الإصابة، الزهر النضر، وغيرها.

الشرف الطُّنُوبي[1]:

وأنتَ الَّـذي صنَّفْتَ كَهْـلاً وَيَـافِعـاً ... وأفْتَيْتَ في فَـرْضٍ علينا ومَسْنُـونِ

ومن بواكير تصانيفه «المائة العشارية» الذي ألَّفه سنـة (٧٩٦هـ)، كما ابتـدأ في نفس السنة بتصنيف كتـابه «رفـع الإصـر»؛ وعمـره إذا ذاك ثـلاث وعشرون سنة.

وبسبب هـذه البـدايـة المبكـرة في التصنيف، ومـا رُزقـه من سعـة الاطـلاع، وجودة الحفظ، ودقـة الفهم، والذكـاء المفـرط، والسـرعـة في الكتابة والتأليف ـ كما سبق ذكره ـ والدأب في التحصيـل، حتى وهو على ظهر راحلته مسافراً، مع طول العمر ومباركة الله له فيه ـ كل ذلـك أدى إلى هـذا العدد الهـائل من الكنـوز التي خلَّفها هـذا الحبر البحـر رضي الله عنـه ورحمه.

وفي ذلك يقول الشمس النواجي[2]:

يـا شيخَ الاسْـلامِ يـا إمـامـاً ... دَعَـا لـطرْق الـهُـدى وأَرْشَـدْ

يـا ذا الـتصـانـيفِ لـيسَ يُـلْقـى ... نـظيـرهـا في الـورى ويُـوجَـدْ

لـو رامَ تـعـدادَهـا حـسـودٌ ... بـكـى عـلى نـفـسـهِ وعـدَّدْ

●● أما عدد مصنفاته:

فقـد أوصلهـا السخـاوي ـ في «الجـواهـر والـدرر» ـ إلى (٢٧٠) مصنفـاً، وعـدَّ منهـا السيوطي ـ في «نـظم العقيـان» ـ (١٩٨) مصنفـاً، والبقاعي (١٤٢) كتاباً، وابن العماد (٧٣) مؤلفاً، وابن تغري بردي ما يـزيد على السبعين، وابن فهد (٢٥) مصنفاً، وحاجي خليفة في «كشف الـظنون» زهاء (١٠٠) مصنف، والبغدادي في «هدية العـارفين» و «إيضاح المكنـون»

---

(١) الجواهر والدرر: ص ٤٠٧.

(٢) الجواهر والدرر: ص ٤٤٤.

أكثر من (١٠٠) مصنف، والكتاني في «فهرس الفهارس» زهاء (١٩٥) مصنفاً، وعند بعضهم ما ليس عند الآخر أحياناً. وذكر منها محقق «تغليق التعليق» في مقدمة التحقيق (١٦٤)[١].

وأكثر من ترجم للإمام الحافظ يقول بأن مؤلفاته زادت على المائة والخمسين مصنفاً، وقد أشار لمثل هذا البرهان البِقاعي في قوله يمدح شيخه:

فمصنَّفَاتُك سهَّلت وتنزَّهتْ   من طاعنٍ يرجو قذًى أو عارِ
تربي على مائةٍ ونصفٍ أُودِعَتْ   دُرَراً تضيء الليلَ وقتَ سَرار[٢]

وهذا يرجع ـ في تقديرنا ـ إلى اعتبار المؤلفات الكبيرة والمشهورة من مصنفات الإمام، دون غيرها من الأجزاء والكتب الصغار التي لم يرَ قسم كبير منها النور، ولم تعرفه إلَّا دور المخطوطات.

وقد أحصيت ما ذكره أولئك العلماء في كتبهم حيث ترجموا لابن حجر، كما تتبعت ما ذكره الحافظ نفسه في كتبه من أسماء مصنفاته، وقد ذكر في «الفتح» ـ مثلاً ـ عدداً كبيراً من مصنفاته. وصنَّفتها حسب العلوم والفنون، ورتبتها ـ ضمن كل فن ـ على حروف المعجم؛ لتسهل على الباحث مراجعتها. كما أعطيتها أرقاماً متسلسلة يعرف من خلالها عدد تآليفه في كل فنٍّ، ومجموعها على التحديد في كل العلوم. وإذا كان للكتاب أكثر من اسم أشرت إلى ذلك. وتكلمت على كل منها بحسب أهميته وجلالته، وإن كان للأئمة فيه مدح ذكرته؛ بحيث يتحصل من ذلك فكرة مجملة عن كل كتاب. وقد بلغ عددها ـ بعد حذف المكرر ـ (٢٨٩) كتاباً[٣].

---

(١) وقد بلغ بها الدكتور شاكر محمود عبد المنعم (٢٨٢) مصنفاً، ولم أتمكن من الحصول على نسخة من هذا الكتاب.

(٢) الجواهر والدرر: ص ٣٣٠؛ والفتح: ١٣/٥٥٣. والسِّرار: سرار الشهر: آخر ليلة فيه.

(٣) أثبتُ هنا أسماء المراجع التي أخذت عنها أسماء المصنفات، حتى لا أثقل البحث =

أولاً ــ مصنفاته في العقيدة

١ ــ الآيات النيرات في معرفة الخوارق والمعجزات.
٢ ــ البحث عن أحوال البعث.
٣ ــ الغنية في مسألة الرؤية.

• • •

ثانياً ــ مصنفاته في علوم القرآن

١ ــ الإتقان في جمع أحاديث فضائل القرآن من المرفوع والموقوف. لم يكمل، ويقع في مجلد.
٢ ــ الإحكام لبيان ما وقع في القرآن من الإبهام: جمع فيه ابن حجر بين كتابي السهيلي وابن عساكر بترتيب المبهمات على الأبواب. ويقع في مجلد ضخم.
٣ ــ الإعجاب ببيان الأسباب، ويسمى أيضاً «العباب في بيان الأسباب»:

= بكثرة الحواشي: الجواهر والدرر، الإعلان بالتوبيخ، كلاهما للسخاوي. ذيل تذكرة الحفاظ، لابن فهد. ذيل تذكرة الحفاظ، طبقات الحفاظ، نظم العقيان، حسن المحاضرة، تدريب الراوي، خمستها للسيوطي. شذرات الذهب، لابن العماد. كشف الظنون، لحاجي خليفة. إيضاح المكنون، وهدية العارفين، كلاهما للبغدادي. تاريخ التراث العربي، لفؤاد سزكين. إتحاف القاري، لمحمد عصام عرار. الرسالة المستطرفة، للكتاني. الأعلام، للزركلي. معجم المؤلفين، لكحالة. مقدمة تغليق التعليق، لمحققه. ابن حجر مؤرخاً، للدكتور محمد كمال الدين. ما كتبه محمد شرف الدين الفاروقي الحيدرآبادي من تعريف بابن حجر وكتبه في «لسان الميزان» و «تهذيب التهذيب». وغير ذلك من الأجزاء والكتب التي عرف ناشروها بابن حجر في صدر كتبه تلك. وما لم أذكره هنا نبهت عليه في موضعه إن رأيت ثمة فائدة أو زيادة توثيق. وما ذكره ابن حجر في مصنفاته نبهت عليه في موضعه.

وهـو كتاب يتكلم عن أسبـاب نزول القـرآن، ويقع في مجلد ضخم، ولـم يبيض كله، بل شرع مؤلفـه في تبييضه، فكتب قـدر مجلدة. وقد سمّاه السيوطي «أسباب النزول»، وهو اسم لمضمونه.

٤ ــ تجريد التفسير من صحيح البخاري: على ترتيب السور.

٥ ــ كتاب قيِّم فيه التعرض للآيات المشتبهات في القـرآن: كقولـه تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الجَنَّةَ وَكُـلاَ مِنْهَا رَغَـداً حَيْثُ شِئْتُما وَلاَ تَقْـرَبَا هَـذِهِ الشَّجَرَةَ﴾[١] وقـولـه سبحـانـه: ﴿وَيَـا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الجَنَّةَ فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَـذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُـونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾[٢].

قال السخاوي: «وسمعت من يـذكر أن شيخنـا لخَّص ذلك من كتـاب «درة التنـزيل وغـرَّة التأويـل» الـذي كتبـه إبـراهيم بن علي بن محمـد المعــروف بـابن أبـي الفــرج الأردنتـالي، من إمــلاء أبـي عبـد الله الخطيب عليه. وزاد شيخنا عليه مواضع كمـا أخبرني بـذلك من وقف عليه، والظاهر أن بعضهم أخفاه، فلا قوة إلاَّ بالله».

٦ ــ ما وقع في القرآن من غير لغة العرب[٣].

● ● ●

---

(١) سورة البقرة: الآية ٣٥.

(٢) سورة الأعراف: الآية ١٩. والمقصود بمتشابه القـرآن: «إمرار القصـة الواحـدة في صور شتى وفواصل مختلفة؛ بأن يأتي في مـوضع مقـدماً، وفي آخـر مؤخراً، أو في موضع بزيادة وفي موضع بدونها، أو في موضع معرفاً وفي آخر منكَّراً، أو في موضع مفرداً وفي آخر جمعاً، أو في موضـع بحرف وفي آخـر بحرف آخـر، أو في موضـع مـدغماً وفي آخـر مفكـوكـاً، إلى غيـر ذلـك من الاختـلافـات»؛ مفتـاح السعـادة: ٤٨٢/٢.

(٣) انظر: «ابن حجر المفسر» من هذا الكتاب.

ثالثاً ــ مصنفاته في علوم الحديث رواية ودراية

١ ــ الأبدال[١] الصفيات من الثقفيات[٢].

٢ ــ الأبدال العليات من الخِلَعيّات[٣].

٣ ــ الأبدال العوالي.

٤ ــ إتحاف المهرة بأطراف العشرة[٤]:

وهو كتاب جليل، يقع في ثمان مجلدات، جمع فيه أطراف عشرة كتب، هي: الموطأ، ومسند الشافعي، ومسند أحمد، ومسند الدارمي، وصحيح ابن خزيمة، ومنتقى ابن الجارود، وصحيح ابن حبان، ومستدرك الحاكم، ومستخرج أبي عوانة، وشرح معاني الآثار للطحاوي، وسنن الدارقطني. وإنما زاد العدد واحداً لأن صحيح ابن خزيمة لم يوجد منه سوى قدر ربعه.

---

(١) البدل من أنواع علوِّ الإسناد بالنسبة إلى كتاب من الكتب المعتمدة المشهورة كالكتب الستة والموطأ، ونحو ذلك. انظر: مقدمة ابن الصلاح: ص ٢٥٨؛ تدريب الراوي: ٢/ ١٦٥؛ الباعث الحثيث: ص ١٥٧ــ١٥٨؛ شرح النخبة: ص ١٢٤؛ أصول الحديث: ص ٣٦٩.

(٢) الثقفيات: هي عشرة أجزاء حديثية لأبي عبد الله القاسم بن الفضل ابن أحمد الثقفي الأصبهاني الحافظ (ت ٤٨٩هـ).

(٣) الخِلَعيّات: هي عشرون جزءاً للقاضي أبي الحسن علي بن الحسن بن الحسين بن محمد الشافعي، المعروف بالخِلَعي ــ لأنه كان يبيع الخِلَع لأولاد الملوك بمصر ــ الفقيه الصالح، أعلى أهل مصر إسناداً (ت ٤٩٢هـ). جمعها له أحمد بن الحسين الشيرازي، وخرَّجها عنه وسماها «الخلعيات»؛ الرسالة المستطرفة: ص ٩١ ــ ٩٢.

(٤) كتب الأطراف: هي التي يقتصر فيها على ذكر طرف الحديث الدال على بقيته، مع الجمع لأسانيده، إما على سبيل الاستيعاب أو على جهة التقيد بكتب مخصوصة. الرسالة المستطرفة: ص ١٦٧. وقد قال العلماء: محدِّث بلا أطراف كإنسان بلا أطراف.

بيّض اليسير من أوائله في حياة المؤلف. قال السخاوي: «وألحق فيما بيض منه أطراف مسند أحمد من كتابه في ذلك، لكونه ما أدخله أولاً فيها. ثم استوفيتُ تبييضه بعد موته، ولله الحمد».

٥ ــ الإجزاء بأطراف الأجزاء: رتبه على المسانيد.

٦ ــ الأربعون التالية للمائة العشارية، أو العوالي التالية للمائة العالية[١]: وهي أربعون حديثاً عملها بعد المائة العشارية من حديث شيخه البرهان الشامي، والكل بشرط الصحة أو الحُسن.

٧ ــ أربعون حديثاً لشيخه البُلْقيني، وسمّاه «ضياء الأنام بعوالي البلقيني شيخ الإسلام».

قال ابن حجر: «وخرجت أنا له أربعين حديثاً عن أربعين شيخاً، حدث بها مراراً»[٢].

٨ ــ الأربعون العالية لمسلم على البخاري، أو عوالي مسلم[٣]:

ولم يتبع الحافظ في ترتيبه مسلماً ولا البخاري، بل رتّب الأحاديث على نوعية العلوِّ. قال في مقدمته: «فهذه أربعون حديثاً انتقيتها من «صحيح مسلم بن الحجاج» هي من العزيز الذي علا مسلمٌ البخاريَّ برجلٍ في كل إسناد منها: إما أن يروي مسلم عن رجل حديثاً، ويكون البخاري قد روى ذلك الحديث بِعَيْنِه عن ذلك الرجل بعينه بواسطة بينه وبينه. وإما أن يتفق معه في الشيخ الثالث للبخاري، وهو الثاني له، أو يتفق معه في الرابع، وهو الثالث له. وعلى نظير ذلك كله أكثر هذه الأربعين»[٤].

---

(١) الاسم الأول في نظم العقيان، والثاني في الجواهر والدرر.

(٢) انظر: إنباء الغمر: ص/٢٤٦؛ وطبقات الشافعية: ٣٩/٤؛ وشذرات الذهب: ٥٢/٧.

(٣) وقد طبع الكتاب تحت هذا الاسم بتحقيق كمال يوسف الحوت.

(٤) عوالي مسلم: ص ٦٥ ــ ٦٦. وقد أشار الحافظ له في الفتح: ٣٢٤/١٣، وقال =

٩ ــ الأربعون المتباينة[١]، وتسمى «الإمتاع بالأربعين المتباينة بشرط السماع»: وهذا الكتاب مما أملاه الحافظ «بالشيخونية» سنة (٨٠٨هـ)، ويقع في (٦٨٠) ورقة. يتضمن أربعين حديثاً عن أربعين شيخاً عن أربعين صحابياً منهم العشرة المبشرون بالجنة.

١٠ ــ الأربعون المجتازة عن شيوخ الإجازة، للمراغي[٢]: وهي أربعون حديثاً عن أربعين شيخاً، خرَّجها الحافظ لشيخه أبي بكر بن حسين بن عمر المراغي، المتوفى سنة (٨١٦هـ).

١١ ــ الأربعون المهذبة بالأحاديث الملقبة: خرَّجها في يوم واحد في رحلته الأولى لليمن، إجابة ملتمسٍ ذلك منه وهو محدث اليمن النفيس سليمان بن إبراهيم بن عمر العلوي التِّعِزِّي الحنفي.

١٢ ــ الاستدراك على الحافظ العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء»: يقع في مجلد.

١٣ ــ الاستدراك على «نكت ابن الصلاح» لشيخه العراقي: بحث فيه مع شيخه في «نكته على مقدمة ابن الصلاح». لم يتم، وهو نحو حجم الأصل لو كمُل.

= في الفتح: ٨/١٥٣، عند شرحه حديث البخاري: «حدثني أحمد بن الحسن، حدثنا أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال، حدثنا معتمر بن سليمان عن كَهْمَس، عن ابن بُرَيدة، عن أبيه قال: غزا مع رسول الله ﷺ ست عشرة غزوة». قال ابن حجر: «وهو أحد الأحاديث الأربعة التي أخرجها مسلم عن شيوخ، أخرج البخاري تلك الأحاديث بعينها عن أولئك الشيوخ بواسطة. ووقع من هذا النمط للبخاري أكثر من مائتي حديث، وقد جرَّدتها في جزء مفرد». ويفهم من كلام ابن حجر الأخير أن له جزءاً آخر غير «الأربعين» الذي ذكرناه. والله أعلم.

(١) وقد ذكره في الفتح: ٨/٣٤. والغاية من كتب «الأربعينات» أن يجمع المحدث أربعين حديثاً في موضوع معين، أو أسانيد معينة، أو بلدان معينة، أو غير ذلك.

(٢) انظر: إنباء الغمر: ٧/١٢٨؛ طبقات الشافعية: ٤/٧؛ نظم العقيان: ص ٥٠؛ شذرات الذهب: ٧/١٢٠.

١٤ ـ الاستنصار على الطاعن المعثار: رد فيه على البدر العيني الذي انتقد خطبتي ابن حجر في شرحيه للبخاري، وقد صوَّب العلماء رأي ابن حجر، وأشاروا إلى فساد انتقاد العيني[١].

ـ أطراف الأحاديث المختارة = الإنارة في أطراف الأحاديث المختارة.

١٥ ـ أطراف الصحيحين: على الأبواب والمسانيد.

١٦ ـ أطراف الفردوس للديلمي.

١٧ ـ أطراف المسند المعتلي بأطراف المسند الحنبلي[٢]:

هو أطراف مسند الإمام أحمد، أفرده الحافظ من كتابه «إتحاف المهرة». قال الحافظ: «وعملت أنا أطراف المسند كله في مجلدين، وكانت قراءتي لجميعه على الشيخ المسنِد الكبير أبي المعالي عبد الله بن عمر بن علي»[٣].

بُيِّض الكتاب بخط مؤلفه، وكَمُل قديماً، فقد كان شيخه العراقي كثير الاعتماد عليه في إملائه. وقد امتدحه الكثيرون، من ذلك قول المحدث حميد الدين حماد التركماني[٤] الحنفي، حيث يقول: «نجز الجزء الأول من كتاب «إطراف المعتلي بأطراف المسند الحنبلي»، تأليف شيخنا الإمام العلامة الحافظ الناقد فريد عصره شهاب الدين أبي الفضل أحمد ابن

---

(١) انظر ص ٣٤٥ من هذا الكتاب.

(٢) هكذا جاءت تسميته في أغلب المصادر، وفي الجواهر والدرر ص ٢١٧ «إطراف المقتلي بأطراف المسند الحنبلي»، ولعل كلمة «المقتلي» محرفة.

(٣) المعجم المفهرس، نقلاً عن تغليق التعليق: ٥/٤٤٤ هامش.

(٤) من شيوخ ابن حجر.

شيخنا الإمام العالم البليغ نور الدين. . . فلو وقف على هذا التصنيف ـ الذي لم يُسبق إليه، ولا عوّل أحد من الأئمة الحفاظ عليه ـ صاحبُ المسند الإمام أحمد؛ لحمده وشكره! أو القَطِيعيُّ؛ لقطع في تحصيله عمره. أو ابن المذهب؛ لذهب إليه وسطّره. أو أبوالقاسم بن الحصين؛ لزاغ من غيره ونظره. أو راويه حنبل؛ لعظَّم مؤلِّفه وبجَّل. أو الموفق ابن قدامة؛ لسعى إليه وقبّل أقدامه. أو الحافظ الذهبيّ؛ لرحل إليه وحرَّر ميزانه بين يديه. . . »[1].

١٨ ـ الاعتراف بأوهام الأطراف = (تحفة الظراف بأوهام الأطراف، النكت الظراف على الأطراف):

وهو كتاب تتبَّع فيه أوهام الحافظ المِزّي في كتابه «تحفة الأشراف»[2]، وقد قال ابن حجر في خطبة كتابه: «. . . أما بعد: فإن من الكتب الجليلة المصنفة في علوم الحديث كتاب «تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف» تأليف شيخ شيوخنا الحافظ أبي الحجاج يوسف بن الزكي عبد الرحمن بن يوسف المِزّي، وقد حصل الانتفاع به شرقاً وغرباً، وتنافس العلماء في تحصيله بُعْداً وقُرْباً. وكنت ممن مارسه ودارسه، فوقفت في أثناء العمل على أوهام يسيرة، فكنت أكتب في طُرَرٍ عندي تارة، وفي هوامش النسخة أخرى. . . »[3].

---

(١) الجواهر والدرر: ص ٢١٧ ـ ٢١٨.

(٢) وموضوع تحفة الأشراف كما قال مؤلفه ـ المزي ـ : هو جمع أطراف الكتب الستة التي هي عمدة أهل الإسلام، وعليها مدار عامة الأحكام، وما يجري مجراها من: مقدمة كتاب مسلم، والمراسيل لأبي داود، والعلل للترمذي ـ وهو الذي في آخر كتاب الجامع له ـ والشمائل له، وعمل يوم وليلة للنسائي.
والحافظ المِزّي: نسبة إلى «المِزّة»، كانت قديماً قرية غنّاء، تبعد عن دمشق نصف فرسخ، وأما الآن فهي جزء من مدينة دمشق، تضجّ بالعمران والحياة.

(٣) تحفة الأشراف وبهامشه النكت الظراف: ١/٣ ـ ٤.

وقد اطلع ابن حجر في هذا على «جزء» جمعه العلامة مُغَلْطاي، وآخر للمزي سماه «لَحْق الأطراف»، وكذا هوامش نسخة شيخه الحافظ العراقي، وجزء لطيف بخط ولي الدين العراقي بن الحافظ العراقي، جمع فيه بين حواشي والده وجزء مُغَلْطاي، وأضاف إليه أشياء يسيرة. ثم يقول الحافظ: «. . . فسألني الآن جماعة من الإخوان ــ خصوصاً المغاربة ــ في جمع ذلك؛ فجمعته كلّه على ترتيب الأصل ليستفاد. . .»(١).

وقد امتد تأليف هذا الكتاب على مدى خمس وثلاثين سنة، فقد كانت البداية فيه سنة (٨٠٥هـ)، وفرغ منه سنة (٨٣٩هـ)، حيث كان يعلق فيه الشيء بعد الشيء. وقد قال الحافظ في ذلك: «النكت الظراف على الأطراف، جمع الفقير أحمد بن علي بن حجر الشافعي، نقلته من حواشي نسختي من كتاب الأطراف للمزي، في أواخر شهور سنة تسع وثلاثين وثمانمائة، وكنت كتبت منه شيئاً يسيراً في سنة خمس وثمانمائة، ثم ألحقت فيه أشياء، والله المستعان»(٢).

وأما اسمه: فقد قال السخاوي في «الجواهر والدرر»: «النكت الظراف على الأطراف، علّقه من حواشيه بنسختَيْه من الأصل التي إحداهما بخطه، في أواخر سنة تسع وثلاثين وثمانمائة، وكان كتب منه يسيراً في سنة خمس وثمانمائة، وسمّاه أيضاً: الاعتراف بأوهام الأطراف»(٣).

---

(١) المرجع السابق: ١/٥ ــ ٦.

(٢) المرجع السابق: ٢/٨، ١٠ و١٣/٤٥٧.

(٣) تحفة الأشراف وبهامشه النكت الظراف: ٢/٨، من مقدمة المحقق. وأما قول محقق «تغليق التعليق»: «الاعتراف بأوهام الأطراف: والمقصود بالأطراف أطراف الصحيحين على الأبواب مع المسانيد في خمس رزم. قال السخاوي إنه في مجلد»: ١/١٩٢؛ فهو وهم وخطأ، «فالاعتراف» هو لبيان أوهام أطراف المزي، وأما «أطراف الصحيحين» فكتاب آخر كما يتضح بأدنى تأمل، وقد فرّق بينهما كل =

وكتاب «النكت الظراف» مصنف قيّم مفيد، قد أجاد الحافظ في حواشيه المبسوطة لبيان أوهام الحافظ المزي، وفي ذلك يقول محقق الكتابين:

«فلقد التزم[1] بذكر كل ما يحتاج إلى التنبيه عليه من غلط المصنف في عزو حديث إلى كتاب من كتب الأصول، أو تركه أصلاً، أو غفلته عن ذكر حديث تحت ترجمة دون ترجمة، أو نقصه في إيراد متن من متون الحديث، أو تركه لبعض التراجم أو لبعض الأحاديث، إلى غير ذلك مما هو جدير بالاستدراك. فجاء كتابه هذا متمِّماً ومسدِّداً وحارساً ومراقباً على أصل المزي، رحمهما الله رحمة واسعة»[2].

وقد طبع «النكت الظراف» بهامش «تحفة الأشراف»، فتكوّن منهما كتاب فذّ تشدّ إليه الرحال.

١٩ ــ الأفراد الحسان من مسند الدارمي عبد الله بن عبد الرحمن.

٢٠ ــ أفراد مسلم عن البخاري.

٢١ ــ الإفصاح بتكميل النكت على ابن الصلاح: وتقع في كراسة، كمّل بها «نكته على علوم الحديث» لابن الصلاح[3].

٢٢ ــ الأفنان في رواية الأقران[4].

ــ أمالي الأذكار = تخريج أحاديث الأذكار.

= من ترجم لابن حجر. وأما السيوطي فقد فرق بين «الاعتراف» و«النكت» كما جاء في نظم العقيان: ص ٤٩، وليس كذلك بل هما كتاب واحد.

(١) أي ابن حجر.

(٢) تحفة الأشراف وبهامشه النكت: ٢/ ١٨.

(٣) انظر: «النكت على علوم الحديث لابن الصلاح»: ص ٤٢٩ من هذا الكتاب.

(٤) هكذا في «نظم العقيان: ص ٤٧» وفي شذرات الذهب: ٧/ ٢٧٢: «الأفنان في رواية القرآن»، ولعل الأول هو الصواب.

٢٣ ــ الأمالي الحديثية[١]: وجملتها ألف ومائة وخمسون مجلساً، تزيد قليلاً أو تنقص قليلاً. وقد نظم الحافظ فيها أبياتاً ــ قبل موته ــ منها[٢]:

يقول راجي إلّه الخلق أحمد مَنْ ... أملَى حديث نبي الحق متّصلاَ

تدنو من الألف إن عُدّتْ مجالسُهُ ... والسدس منها بلا قيدٍ لها حصَلاَ

يتلوه تخريج أصل الفقه يتبعها ... تخريج أذكار رب قد دنا وعلا

وذكر السخاوي أن إملاءات الحافظ بلغت عشر مجلدات. وقد ذكرها ابن حجر في «الفتح»[٣].

٢٤ ــ الأمالي الحلبية: وهي من جملة ما صنفه الحافظ بحلب خلال سفرته إليها، وقد أملى فيها سبعة مجالس[٤].

ــ الأمالي المخرجة على مختصر ابن الحاجب الأصلي = تخريج أسانيد مختصر ابن الحاجب.

٢٥ ــ الإنارة في أطراف «الأحاديث المختارة»: وهو أطراف كتاب «الأحاديث الجياد المختارة مما ليس في الصحيحين أو أحدهما» للإمام الحافظ الثقة ضياء الدين المقدسي ثم الدمشقي الصالحي الحنبلي. وهو من جملة ما علقه ابن حجر في غضون رحلته إلى الشام سنة (٨٠٢هـ)، ويقع في مجلد ضخم، ولو لم يكن له عمل خلال تلك الرحلة إلاَّ هذا الكتاب لكفى دلالة على جلالته. وهو من جملة ما غرق في رحلته الثانية

---

(١) الأمالي: جمع إملاء، وهو من وظائف العلماء قديماً، خصوصاً الحفاظ من أهل الحديث. الرسالة المستطرفة: ص ١٥٩، ١٦٢. وانظر: ص٢٥٣ من هذا الكتاب.

(٢) نظم العقيان: ص ٥٠ ــ ٥١.

(٣) انظر مثلاً: الفتح: ٢/١٤٤، ٨/٣٤.

(٤) الجواهر والدرر: ص ١٢٥ ــ ١٢٦.

إلى اليمن سنة (٨٠٦هـ)[1].

ـ الإنارة في طرق غبّ الزيارة = طرق حديث غبّ الزيارة.

٢٦ ـ الانتفاع بترتيب الدارقطني على الأنواع.

٢٧ ـ انتقاض الاعتراض: أجاب عن اعتراضات العيني التي أودعها في شرحه «عمدة القاري» على «فتح الباري»، لكنه لم يكمل، وكان يكتب الاعتراضات ويبيض لها، ليجيب عنها، فاخترمته المنية قبل أن يجيب عن أكثرها.

وفي اعتراضات العيني ما هو قيّم، كما أن في كثير منها وهناً زائفاً متهافتاً، وبعضها مبني على بتر كلام ابن حجر ثم الردّ عليه، مع أن تمام العبارة ينقض الرد ويدفع في صدره[2].

وهو يقع في مجلد، وقد سمّاه أيضاً «إسقاط الاعتراض».

ـ البسط المبثوث في خبر البرغوث = طرق حديث (لا تسبوا البرغوث).

٢٨ ـ بغية الراوي بأبدال البخاري.

٢٩ ـ البيان الفصل لما رجح فيه الإرسال على الوصل.

٣٠ ـ بيان ما أخرجه البخاري عالياً عن شيخ، أخرج ذلك الحديث أحد الأئمة عن واحد عنه.

٣١ ـ تجريد زوائد مسند البزار على مسند أحمد والكتب الستة[3]:

---

(١) انظر أسماء ما غرق من كتبه في: الجواهر والدرر: ص ٩٠؛ وفي هذا الكتاب ص ٩١.

(٢) انظر «البدر العيني» لمعتوق: ص ٢٤٦ ـ ٢٤٧.

(٣) وقد جاء ذكره في غير المصادر السابقة، في تدريب الراوي: ١/١٧٣.

لخصها من كتاب «مجمع الزوائد ومنبع الفوائد» لشيخه الحافظ الهيثمي. فرغ منه في العشرين من شعبان سنة (٨٠٨هـ).

٣٢ ــ تحفة أهل التحديث عن شيوخ الحديث: في ثلاث مجلدات.

ــ تحفة الرائض في تخريج حديث «تعلموا الفرائض» = طرق حديث «تعلموا الفرائض».

ــ تحفة الظراف بأوهام الأطراف = الاعتراف بأوهام الأطراف.

٣٣ ــ تخريج أحاديث الأذكار = (أمالي الأذكار، نتائج الأفكار في تخريج أحاديث الأذكار)[١]: وهو مما أملاه الحافظ رحمه الله في تخريج أحاديث «الأذكار» للإمام النووي، ولم يكمل تخريجه، فكمّله تلميذه السخاوي.

٣٤ ــ تخريج أحاديث «شرح التنبيه» للزنكلوني: شرع فيه وكتب منه اليسير.

٣٥ ــ تخريج أحاديث مختصر ابن الحاجب[٢] الأصلي = الأمالي المخرّجة على مختصر ابن الحاجب: وهو مما أملاه الحافظ في مجالسه، يذكر فيها طرق الحديث كلها بأسانيده. قال ابن فهد: «فلما كان في صفر سنة سبع وعشرين، عاد إلى الإملاء، فأكمل في إملائه «تخريج أحاديث مختصر ابن الحاجب الأصلي» في مجلدين»[٣].

---

(١) وقد ذكره ابن حجر في رسالة رد بها على أسئلة حديثية، ألحقت بمشكاة المصابيح، ٣/ ١٧٨٠. وذكر الكتاني في «فهرس الفهارس» أنه في أربعة أسفار كبار.

(٢) هو عثمان بن عمر، جمال الدين ابن الحاجب، فقيه مالكي من كبار العلماء بالعربية. حياته (٥٧٠ ــ ٦٤٦هـ). وكتابه من الكتب المشهورة في أصول الفقه، وعنوانه «منتهى السول والأمل في علمي الأصول والجدل».

(٣) وقد ذكره الحافظ في «الفتح» بعد نقله عن مختصر ابن الحاجب، فقال: «وقد =

٣٦ ـ تخريج أحاديث مختصر الكفاية: كتب منه اليسير.

٣٧ ـ تخريج الأحاديث المنقطعات في السيرة الهشامية[1].

ـ تخريج أحاديث منتهى السول والأمل في علمي الأصول والجدل = تخريج أحاديث مختصر ابن الحاجب.

٣٨ ـ تخريج الأربعين النووية بالأسانيد العلية: بيّضها، وحدَّث بها ـ في جملة من تخاريجه ـ في أيام التشريق بمنىً.

٣٩ ـ التذكرة الحديثية: وهي في أكثر من عشر مجلدات ضخمة، قال السخاوي: «وقفت على أكثرها»[2].

٤٠ ـ ترتيب أحاديث الحلية: رتب الحافظ الهيثمي ـ شيخ ابن حجر ـ أحاديث الحلية على الأبواب، ومات عنه مسودة، فبيَّضه وأكمله ابن حجر، في مجلدين[3].

٤١ ـ ترتيب «العلل» على الأنواع.

٤٢ ـ ترتيب «غرائب شعبة» لابن منده[4].

٤٣ ـ ترتيب «فوائد تمّام»[5].

= أوردت من ذلك ما تيسر في الأمالي في تخريج أحاديث المختصر». انظر: ١٣/ ٢٩٠.

(١) كتب الإمام محمد بن إسحاق كتابه في السيرة النبوية فأخذه الإمام عبد الملك بن هشام عن زياد البكائي عن ابن إسحاق، ثم هذبه ونقحه، بحيث صار المعوّل عليه، حتى عرف بسيرة ابن هشام.

(٢) وذكر السيوطي أنها في عشرة أجزاء. نظم العقيان: ص ٤٧.

(٣) البدر الطالع: ١/ ٤٤٢ في ترجمة الهيثمي.

(٤) كتاب «غرائب شُعْبة» لأبي عبد الله محمد بن إسحاق ابن مَنْدَه، وقيل لولده أبي عمرو عبد الوهاب، وهي في أربعة أسفار. الرسالة المستطرفة: ص ١١٣.

(٥) هو تمّام بن محمد بن عبد الله بن جعفر الرازي، ثم الدمشقي، الحافظ =

٤٤ ـ ترتيب «فوائد سَمُّوْيَه»[(١)].

٤٥ ـ ترتيب «المبهمات» على الأبواب.

٤٦ ـ ترتيب «المتَّفِق والمُفْتَرِق»[(٢)] للخطيب البغدادي.

٤٧ ـ ترتيب «مسند الطيالسي».

٤٨ ـ ترتيب «مسند عَبْد بن حُمَيد».

٤٩ ـ تسديد القوس في مختصر الفردوس: في ست مجلدات. وكتاب «الفردوس» للمحدث المؤرخ أبي شجاع شيرَوَيْه بن شَهْردار الديلمي الهمداني (ت ٥٠٩هـ)، أورد فيه عشرة آلاف حديث من غير ذكر إسناد، في مجلد أو مجلدين. وأسند أحاديثه ولده أبو منصور شهردار بن شيرويه (ت ٥٥٨هـ) في أربع مجلدات[(٣)]. واختصره الحافظ ابن حجر.

٥٠ ـ التشويق إلى وصل المهم من التعليق: هو مختصر كتابه

= ابن الحافظ، توفي سنة (٤١٤هـ). وفوائده في ثلاثين جزءاً في مجلدة. الرسالة المستطرفة: ص ٩٤ ـ ٩٥؛ سير أعلام النبلاء: ١٧/٢٨٩.

(١) هو إسماعيل بن عبد الله بن مسعود العَبْدي الأصبهاني، الملقب «سَمُّوْيَه»، الحافظ المتقن الطوّاف. توفي سنة (٢٦٧هـ). وفوائده في ثمانية أجزاء. الرسالة المستطرفة: ص ٩٥؛ سير أعلام النبلاء: ١٣/١٠.

(٢) المتفِق والمفترِق: أن تتفق أسماء الرواة وأسماء آبائهم فصاعداً، وتختلف أشخاصهم؛ سواء اتفق في ذلك اثنان منهم أو أكثر، وكذلك إذا اتفق اثنان فصاعداً في الكنية والنسبة. انظر: مقدمة ابن الصلاح: ص ٣٥٨ ـ ٣٦٥؛ الباعث الحثيث: ص ٢٢٢؛ شرح نخبة الفِكَر: ص ١٤٣ ـ ١٤٤؛ الرسالة المستطرفة: ص ١١٤.
والخطيب البغدادي: هو أحمد بن علي بن ثابت، الحافظ الشهير، صاحب التصانيف الجليلة المنتشرة. توفي سنة (٤٦٣هـ). وكتابه «المتفق» يقع في مجلد كبير.

(٣) الرسالة المستطرفة: ص ٧٥ ـ ٧٦.

«تغليق التعليق»، بلا أسانيد[1]، في مجلد لطيف.

٥١ ــ التعريج على التدبيح[2].

٥٢ ــ تعريف أهل التقديس بمراتب الموصوفين بالتدليس = طبقات المدلِّسين: استمده الحافظ من «جامع التحصيل» للحافظ العلائي، وزاد عليه كثيراً، وصنفهم على خمس مراتب. وجملة ما عند العلائي من الأسماء (٦٨) نفساً، وزاد عليهم ولي الدين ابن الحافظ العراقي (١٣) نفساً، وزاد عليه برهان الدين الحلبي (٣٢) نفساً، ثم زاد عليهما الحافظ ابن حجر (٣٩) نفساً؛ فجملة ما في كتابه هذا (١٥٢) نفساً[3].

وهو في جزء لطيف، قال فيه مؤلفه: «علقت هذه النبذة في شهور سنة خمس عشرة وثمانمائة، وعلقها عني بعض الطلبة سنة ست عشرة، ثم زدت فيها بعد ذلك أسماء مختصرة»[4].

٥٣ ــ التعليق على «مستدرك الحاكم»: شرع فيه ولم يكمله.

٥٤ ــ التعليق على «موضوعات ابن الجوزي»: شرع فيه وكتب منه اليسير أيضاً. وله في هذا الكثير مما هو مبثوث في كتبه، خاصة «القول المسدَّد» و «فتح الباري».

٥٥ ــ تغليق التعليق: وهو من أوائل مصنفاته، ونظراً لجلالته وقيمته

---

(١) انظر: تدريب الراوي: ١/١١٧، مع المراجع التي في صدر هذا الفصل.

(٢) هكذا في نظم العقيان: ص ٤٧؛ وجاء في شذرات الذهب: ٧/٢٧٢؛ وكشف الظنون: ص ٤٢٠؛ وهدية العارفين: ١/١٢٩: «التعريج على التدريج»، ولعله تحريف، وما أثبتناه هو الصواب إن شاء الله. والمُدَبَّج: هو أن يروي القرينان كل منهما عن الآخر، ومثاله: أبو هريرة وعائشة، وعمر بن عبد العزيز والزهري، ومالك والأوزاعي. انظر: مقدمة ابن الصلاح: ص ٣٠٩ ــ ٣١٠؛ الباعث الحثيث: ص ١٩٢؛ شرح نخبة الفكر: ص ١٢٦ ــ ١٢٧؛ تدريب الراوي: ٢/٢٤٦.

(٣) طبقات المدلسين: ص ١٣ ــ ١٥ باختصار شديد.

(٤) المرجع السابق: ص ٥٩.

العظيمة؛ سنتوسع بعض الشيء في التعريف به.

●● اسمه وموضوعه وترتيبه:

قال الحافظ وهو يبين ما يحتاجه الباحث من شرح «الجامع الصحيح للبخاري»: «وتأملت ما يحتاج إليه طالب العلم من شرح هذا الجامع، فوجدته ينحصر في ثلاثة أقسام من غير رابع: الأول: في شرح غريب ألفاظه، وضبطها وإعرابها. والثاني: في معرفة أحاديثه، وتناسُب أبوابه. والثالث: وصلُ الأحاديث المرفوعة والآثار الموقوفة المعلَّقة فيه، وما أشبه ذلك من قوله: «تابعه فلان»، و«رواه فلان»، وغير ذلك. فبان لي أن الحاجة الآن إلى وصل المنقطع منه ماسَّة؛ أنْ كان نوعاً لم يُفرد ولم يُجمع، ومنهلاً لم يُشْرعْ فيه ولم يُكْرَعْ... فاستخرت الله في جمع هذا القسم إلى أنْ حصرته، وتتبعتُ ما انقطع منه، فكل ما وصلتُ إليه وصلتُه، وسردته على ترتيب الأصل باباً باباً، وذكرتُ من كلام الأصل ما يحتاج إليه الناظر، وكان ذاك صواباً، وغَيَّبْتُهُ عن عيون النقّاد إلى أن أطلعته في أفق الكمال شهاباً! وسميته «تغليق التعليق» لأن أسانيده كانت كالأبواب المفتَّحة فغلِّقت، ومتونه ربما كان فيها اختصار فكَمُلَت واتّسقتْ»[1].

فهو إذاً في ترتيب الكتاب قد سار على ترتيب البخاري في «صحيحه» ـ ويعبر عنه هنا «بالأصل» ـ ولم يخرج عن ذلك إلاَّ في موضع أو موضعين، حيث قدّم وأخّر عن الترتيب المتبع في «الجامع الصحيح»[2].

●● وأما أهميته:

فيبينها قول الحافظ أبي عبد الله ابن رُشَيْد ـ كما نقله عنه ابن حجر ـ حيث يقول: «وهو ـ أي التعليق ـ مفتقر إلى أن يُصَنَّف فيه كتابٌ يخصّه، تسند فيه تلك المعلقات، وتبيِّن درجتها من الصحة

---

(١) من خطبة الكتاب: ٢/٥ ـ ٦.

(٢) مقدمة المحقق: ١/٢٦٦.

أو الحُسْن، أو غير ذلك من الدرجات. وما علمتُ أحداً تعرض لتصنيف في ذلك، وإنه لمهم لا سيما لمن له عناية بكتاب البخاري»[1].

●● وأما الفائدة من تصنيفه فقد قررها الحافظ بقوله:

«فإن قيل: قد قررتَ أن ما علَّقه[2] بصيغة الجزم يفيد الصحة، إلى آخره؛ فما الفائدة ــ والحالة هذه ــ في تكلفك وصْلَه بأسانيده؟ قلت: فائدة ذلك إقامة البرهان على ما قررته، وإدحاض حجة المخالف لهذه القاعدة، فإن المخالف لها إذا رأى حديثاً علقه البخاري ولم يُوْصِلْ إسناده، حَكَم عليه بالانقطاع، لا سيما إن كان علقه عن شيوخ شيوخه، أو عن الطبقة التي فوق. فإن قال له خصمه: هذا معلق بصيغة الجزم، فطلب منه الدليل على أنه موصول عند البخاري، ما يكون جوابه؟ إن أجاب بأن القاعدة «أنه لا يجزم إلَّا بما صحّ عنده»، قال له: أنا لا ألتزم بهذه القاعدة بلا دليل، لأنها على خلاف الأصل. وإنما أحكم بما ظهر لي من أن هذا السياق حكمه الانقطاع، وأن البخاري لم يلق هذا الرجل المعلَّق عنه، وأي فرق يبقى بين هذا وبين المنقطع؟! وإن أجابه بأن الإمام فلاناً روى هذا الحديث في تصنيفه مسنداً متصلاً، كان ذلك أدعى لرجوعه، وأذعن لخضوعه، ولم يبق إلَّا التسليم، وفوق كل ذي علم عليم»[3].

●● وأبان الحافظ عن منهجه في كتابه هذا فقال:

«والتزمت في وصل هذه التعاليق أن أسوق أحاديثه المرفوعة، وآثاره الموقوفة، بإسنادي إلى من علَّق عنه المصنِّفُ لا إلى غيره، إلَّا أن يتكرر النقل من كتاب كبير ــ وهو عندي أو أكثره بإسناد واحد إلى مصنفه ــ فإني أحيل عليه غالباً، وأجمع أسانيدي في الكتب التي أحيل عليها في فصل

(١) تغليق التعليق: ٢/ ٦ ــ ٧؛ هدي الساري: ص ١٩ ــ ٢٠.
(٢) أي البخاري.
(٣) تغليق التعليق: ٢/ ١١ ــ ١٢.

أختم به هذا المجموع[1]، يتلو فصلاً آخر في سياق ترجمة المؤلف[2] ومناقبه.

فإن علَّق الحديث في موضع وأسنده في آخر؛ نبهتُ عليه، واكتفيت به، إلَّا أن يختلف لفظ المعلَّق ولفظُ الموصول؛ فأنبه حينئذٍ على من وصله بذلك اللفظ.

وإن لم يسمِّ أحداً من الرواة، بل قال: قال رسول الله ﷺ ـ مثلاً ـ كذا؛ فإنني أخرِّجه من أصحِّ طرقه، إن لم يكن عنده في موضع آخر كما سبق.

وأما التبويب: فإنه يبوِّب كثيراً بلفظ حديث أو أثر، ويسوقه في ذلك الباب مسنداً ويورد معناه، أو ما يناسبه، كقوله في «كتاب الأحكام»... فلم أتكلف لتخريج ذلك، إلَّا إذا صرَّح فيه بالرواية.

وإذا أخرجت الحديث من مصنَّف غير متداول فذلك لفائدتين: إحداهما أن يكون من مسموعي. والثانية أن يكون عالياً. ومع ذلك فأنبه على مَنْ أخرجه من أصحاب الكتب المشهورة، وعلى كيفية ما أخرجوه في الغالب»[3].

●● والعجيب أن الحافظ قد فرغ من مُسوَّدَتِه في سنة (٨٠٣هـ) وعمره إذ ذاك ثلاثون سنة:

يقول السخاوي «بُيِّض وكثرت نسخه، وهو عندي فيما كتبته بخطي، وله به فخر كبير، لكونه لم يُسبق إلى جمعه في تأليف، ولا يوجد التعرض لشيء منه إلَّا في النادر من التصنيف. كمُل تبييضه في سنة سبع وثمانمائة، وكانت مسوَّدته كَمُلت قبل ذلك في سنة ثلاث»[4].

---

(١) وقد ذكر الحافظ ذلك في الجزء الخامس: ص ٤٤٢ ـ ٤٧٢، كما سنشير لذلك بعد قليل.

(٢) يعني البخاري.

(٣) من خطبة الكتاب: ٢/١٢ ـ ١٣.

(٤) تغليق التعليق: ١/٢١٥.

●● وقد اطَّلع عليه أشياخه وأعيان عصره، فأثنوا عليه، وشهدوا بأنه لم يُسبق إلى وضع مثله:

ومن هؤلاء شيخ الإسلام البلقيني حيث كتب ما صورته: «الجزء الأول من «تغليق التعليق» جمع الشيخ الحافظ، المحدث المتقن المحقق، شهاب الدين أبي الفضل أحمد ابن الفقير إلى الله تعالى الفاضل المرحوم نور الدين علي، الشهير بابن حجر، نفع الله به وبفوائده، آمين»[1].

كما قرَّظه شيخه الحافظ العراقي، فكتب على الجزء الثاني ما مثاله: «الجزء الثاني من «تغليق التعليق» جمع الشيخ المحدث الحافظ، المتقن المفيد المُجيد، شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن علي، الشهير بابن حجر، العسقلاني الأصل، المصري الدار، نفع الله بعلومه وفوائده»[2].

وقال محدث حلب العلاّمة أبو ذر ابن شيخ الإسلام البرهان الحلبي: «. . . وتغليق التعليق لم يسبق إليه، ولم يعرِّج أحد قبله عليه»[3].

●● وقد شاع ذكر الكتاب وانتشر، واهتم به العلماء، وبادروا في الحصول عليه، ونسخه الأئمة كالعلاّمة ابن خطيب الناصرية، والمحدث حميد الدين حماد بن عبد الرحيم التركماني الحنفي[4].

---

(١) الجواهر والدرر: ص ٢٠٧.

(٢) المرجع السابق: ص ٢٠٩.

(٣) الجواهر والدرر: ص ٢٥٥. وانظر كذلك ثناء العلاّمة قاضي الشام الشهاب الحُسباني: ص ٢١٤، والعلاّمة محدث الشام الشهاب ابن حِجّي الحُسْباني: ص ٢١٤، والعلاّمة ابن خطيب الناصرية: ص ٢٣٨، والمؤرخ التقي المقريزي: ص ٢٣٩، وغيرهم.

(٤) تغليق التعليق: ١/٢١٧.

●● وقد اعتمد ابن حجر في تصنيفه لهذا الكتاب الجليل على قرابة ثلاثمائة وخمسين مصنفاً، ساق أسانيده لأربعة وستين كتاباً من الكتب الكبار في فصل خاص، حيث لم يَسُقْها في أثناء الكتاب، اكتفاءً بذكرها في ذاك الفصل[1]،وسرد المحقق أسماء (٢٧٩) كتاباً استخرجها من الكتاب[2].

●● وقد اختصر الحافظ كتابه «تغليق التعليق» هذا في كتاب سماه «التشويق إلى وصل المهم من التعليق» في مجلد لطيف. ثم اختصره في آخر سماه «التوفيق بتغليق التعليق» في مجلد لطيف اقتصر فيه على ذكر الأحاديث التي لم تقع في «البخاري» إلاَّ معلقة، ولم توصل[3] في مكان آخر من «جامعه»، وعدتها مائة وستون حديثاً[4].

هذا وقد ذكر ابن حجر خلاصة «تغليق التعليق» في فصل قيِّم من كتابه الفذ «هدي الساري»[5]، وقال في آخره: «أما بعد: فهذا مختصر جعلته كالعنوان لكتابي تغليق التعليق، الذي وصلت فيه تعاليق البخاري في صحيحه...»[6].

●● وأنبه هنا على أمر مهم يتعلق بهذا الكتاب، وهو أن محققه تعقب الحافظ ابن حجر في مواضع عديدة، أشار فيها الحافظ إلى وصل الأحاديث في كتب معينة من صحيح البخاري، ولم يقف عليها المحقق فغلَّط ابنَ حجر!!

---

(١) المرجع السابق: ٥/٤٤٢ ــ ٤٧٢.
(٢) المرجع السابق: ١/٢٣٢ ــ ٢٦٥.
(٣) وقعت في ذيول تذكرة الحفاظ وإتحاف القاري: «ثم توصل»، والصواب ما أثبتناه.
(٤) تدريب الراوي: ١/١١٧؛ ذيول تذكرة الحفاظ: ص ٣٣٢؛ إتحاف القاري: ص ٧٧؛ تغليق التعليق: ١/٢١٥.
(٥) من صفحة ٢٠ ــ ٧٢.
(٦) هدي الساري: ص ٧٢.

وأقدم بين يدي ذلك مقدمة مهمة وهي أن تسمية بعض كتب «الصحيح» ليست محل اتفاق بين رواة «الصحيح»، فبعضهم يقول «كتاب كذا» والآخر يقول «باب كذا»، فمثلاً: «كتاب التمني» ثبت عند بعض رواة «الصحيح» لا جميعهم. كما أن مِن الباحثين المعاصرين مَن أطلق على «مجموعة أبواب» اسم «كتاب»، مثلاً: «كتاب المحصر»، وهي ليست عند واحد من رواة «الصحيح»، بل عندهم «أبواب» أو «باب». وأيضاً «كتاب فضائل المدينة»، ليست هذه التسمية عند أحد من رواة «البخاري». كذلك فإن بعضهم شمل عدة كتب تحت كتاب واحد، مثل «كتاب الأذان» حيث يضم: كتاب الأذان، وأبواب الجماعة، والإمامة، وأبواب صفة الصلاة. وعلى مثل هذه التقسيمات جرى الأستاذ المحقق محمد فؤاد عبد الباقي؛ فقسم «صحيح البخاري» إلى (٩٧) كتاباً، ليوافق ما عمله المستشرقون في «المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي»؛ ليسهِّل بذلك على الباحثين الكشفَ على مواضع الحديث، جزاه الله خيراً. وعلى هذا فإذا ذكر ابن حجر ـ أو غيره من الأقدمين ـ أن البخاري روى الحديث كذا في الكتاب كذا من صحيحه، ولم يوافق تقسيم فؤاد عبد الباقي؛ فلا ينبغي تخطئة أولئك الأئمة، بل التعقب عليهم في هذا هو الخطأ بعينه.

وإنما قلت هذا لأن محقق «تغليق التعليق» قد وقع في ذلك، واعتمد في تعقباته على تسمية كتب الصحيح التي وضعها عبد الباقي، ولا أدري إن كان يعرف الكلام الذي قدمته، وإن كنت أشك في ذلك؛ وإلَّا لما خطَّأَ ابنَ حجر بمثل تلك التعقبات.

ومن الأمثلة على ذلك:

ـ ما جاء في «تغليق التعليق: ٣/٢٢٣»: «قوله[1]: ما قيل في الصوَّاغ، وقال طاوس عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال النبي ﷺ:

(١) أي قول البخاري.

(لا يُخْتَلَى خَلاَها)، فقال العباس: إلاَّ الإذْخِر فإنه لِقَيْنِهِم، فقال: (إلاَّ الإذخر). أسنده في الحج من طريق مجاهد عن طاوس». اهـ.

فتعقبه المحقق قائلاً: «لا بل في جزاء الصيد (٢٨) باب لا يحل القتال بمكة (١٠) حديث رقم (١٨٣٤). انظر الفتح: ٤/٤٦، ٤٧»[1].

قلت: ليس لأحد من رواة الصحيح لفظ «كتاب جزاء الصيد»، بل «باب»، وعليه فهو من كتاب الحج، وأما لفظ «كتاب» فمن وضع الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي. ولا تعقب على ابن حجر في هذا.

ـ وفي «الجزء ٣/٤٩٨» قال الحافظ: «قوله فيه: وقال أنس وأبو بَكْرة عن النبي ﷺ: (تحرسُ الملائكةُ المدينةَ من الدجّالِ). أما حديث أنس فأسنده المؤلف في «الحج» من حديث الأوزاعي عن إسحاق بن أبي طلحة عنه». اهـ.

لكن المحقق قال: «لا بل في كتاب فضائل المدينة (٢٩) باب لا يدخل الدجال المدينة (٩) حديث رقم (١٨٨١)، الفتح: ٤/٩٥».

قلت: لفظ «كتاب» ليس لأحد من رواة الصحيح، بل هو من وضع فؤاد عبد الباقي، وعليه فأبواب «فضائل المدينة» داخلة ــ مع ما قبلها من أبواب المحصر وجزاء الصيد ــ في «كتاب الحج»، زد على ذلك أن الحافظ قال في الفتح[2]: «أما حديث أنس فوصله المؤلف في «فضل المدينة» أواخر الحج». فتأمل!!

ـ وفي «الجزء: ٤/١٥ ــ ١٦» يقول ابن حجر: «قوله عقب حديث أبي زرعة عن أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ قال: أُتي النبي ﷺ بلحم فقال: (إن الله يجمع يوم القيامة الأولين والآخرين في صعيد واحد،

---

(١) تغليق التعليق: ٣/٢٢٣، حاشية رقم (٩).

(٢) فتح الباري: ٦/٣١٧.

فيُسْمِعُهُم الداعي، وينفِذُهُم البصر، وتدنو الشمس منهم، فذكر حديث الشفاعة، تابعه أنس عن النبي ﷺ.

أسنده المؤلف في «صفة الجنة» من «الجامع» من حديث أبي عوانة، عن قتادة، عن أنس بطوله». اهـ.

لكن المحقق قال: «لم يقع في باب صفة الجنة، ولا في كتاب بدء الخلق، وغاب عني موضعه، ووقع لي من حديث أنس في كتاب التوحيد من طريقين...»[1].

ولست أدري لِمَ يدخل المحقق هذا المعترك ويسارع في تخطئة جبل من جبال الحفظ بلا دليل، ـ سوى عدم وقوفه على مواضع الحديث!! ـ ويجزم فيقول: «لم يقع في باب صفة الجنة»، ولو قال: لم يقع لي، لأنصف من نفسه، وإلا فالحديث موجود في[2]: «٨١ ـ كتاب الرقاق ـ ٥١ ـ باب صفة الجنة والنار، حديث رقم (٦٥٦٥) من حديث أبي عوانة عن قتادة، عن أنس» كما قال الحافظ سواء.

وليس مقصود الحافظ في قوله «صفة الجنة» الباب الذي في «بدء الخلق» كما ظن المحقق. والله أعلم.

ـ وفي «الجزء: ٤/ ٤٥١ ـ ٤٥٢» يقول ابن حجر: «قوله: باب إذا قال لامرأته وهو مكره: هذه أختي، فلا شيء عليه، قال النبي ﷺ: (قال إبراهيم لسارة: هذه أختي، وذلك في ذات الله). هذا طرف من حديث أسنده المؤلف في «البيوع»، وفي «أحاديث الأنبياء»، وغيره من طريق أبي هريرة.

فقال المحقق مستدركاً على قول الحافظ «أسنده في البيوع»: «لا بل

---

(١) تغليق التعليق: ٤/ ١٦، حاشية (١).

(٢) الفتح: ١١/ ٤١٧.

في كتاب الهبة (٥١) باب إذا قال: أخدمتك هـذه الجارية على ما يتعـارف الناس فهو جائز (٣٦) حديث رقم (٢٦٣٥)، انظر الفتح: ٥/٢٤٦». انتهى كلامه[١].

ونحن نقـول: القول مـا قالـه الحافظ، فـالحديث في: ٣٤ ـ كتـاب البيـوع ـ ١٠٠ ـ باب شـراء المملوك من الحربـي وهبتـه وعتقـه، حـديث (٢٢١٧)، وانظر أطرافه[٢].

ـ وفي «الجزء: ٥/٩٣» قال الحافظ: «وأما حديث أبـي ذر فأسنـده المؤلف في «إسلام أبـي ذر» وفي مناقب قريش مطولاً».

فاستدرك المحقق على قوله «وفي منـاقب قريش»، فقـال: «لا بل في كتاب مناقب الأنصار (٦٣)»[٣].

قلت: بل هو كما قال ابن حجر، في: ٦١ ـ كتاب المناقب ـ ١١ ـ باب قصة زمزم[٤]، حديث (٣٥٢٢) بنحـو اللفظ المعلق، وأيضاً في ٦٣ ـ كتاب مناقب الأنصـار ـ ٣٣ ـ باب إسـلام أبـي ذر الغفاري رضي الله عنـه حديث (٣٨٦١).

ـ ومثال أخير أسـوقه حيث يقـول الحافظ: «قـوله: بـاب بيع الإمـام على النـاس أمـوالهم وضيـاعهم، وقـد بـاع النبـي ﷺ مُـدَبَّــراً من نعيم بن النحّام. أسند المؤلف في الباب حديث المدبَّر من طريق عطاء، عن جـابر، وليس فيه ذكر نعيم بن النحام، وقد أسنده في البيوع بذكر نعيم»[٥].

فعقب المحقق قائلاً: «بل في كتاب الاستقـراض (٤٣) باب من بـاع

---

(١) تغليق التعليق: ٤/٤٥٢، حاشية (٢).
(٢) الفتح: ٤/٤١٠.
(٣) تغليق التعليق: ٥/٩٣، حاشية (٥).
(٤) وهي في أبواب مناقب قريش كما يعلم من الفتح: ٦/٥٤٩، وانظر: ص ٥٣٢.
(٥) تغليق التعليق: ٥/٣٠٦.

مـال المفلس (١٦) حـديث رقم (٢٤٠٣)، انـظر الفتـح : ٥/٥٦». انتهى كلامه[1].

قلت : الحديث حيث أشار الحافظ في : ٣٤ ــ كتاب البيوع ــ ٥٩ ــ بـاب بيع المـزايدة، حـديث رقم (٢١٤١)، وانظر أطـرافه[2]. والله تعـالى أعلم.

وكلمة أخيرة أقولها :

ينبغي لمن يحقق كتاباً لواحد من شوامخ أئمتنا أن يلتزم آداب البحث والتحقيق، ولا يـردَّ على جبـال من العلم والحفظ إلَّا بعـد أن يبحث ويفحص، ويحقق ويدقق، ويطيل البحث ويمعن النظر والفكر، ثم إن استوعب ــ أو كاد ــ يدلي بدلوه قائلاً : «لعله كذا»، أو «لَم أجـده»، ونحو ذلك.

وقـد تبدّى لكل باحث منصف أن الأئمة الأعلام من أمثال الحافظ ابن حجر قد بلغوا شأواً شاهقاً من العلم، خاصة إذا علمنا أن الحافظ قد أمعن النظر في الصحيح وغيره من كتب السنَّة، وأصبح ينظر فيها كما ينظر أحدنا في بحث له صغير مؤلَّف من عدة صفحات. هـذا مع الاستحضار المدهش، والحفظ النادر.

ولست أدَّعي في هذا أن السهو والخطأ بعيدان عنه ؛ بل هما ملازمان لكل عالم مهما شمخ وعلا، وليست العصمة في عقيدتنا لغير الأنبياء والمرسلين. لكن الذي نرفضه توهيم كبار الحفاظ وأوعية العلم، لمجرد بحث كليل ونظر حسير!! ووالله إنني لشديد التألم من تلك التعقيبات التي ذكرها المحقق ــ سامحه الله، وجزاه خيراً على إخراجه ذلك السفر للنور ــ في هوامش الكتاب! حيث إن من يقع على تلك الهوامش والتعقبات قد

---

(١) المرجع السابق، حاشية (٤).

(٢) الفتح : ٤/٣٥٤.

تتهاوى في قلبه مكانة الإمام الحافظ ابن حجر. ولعل فيما كتبناه ما يزيل اللبس، ويعيد الحق إلى نصابه.

٥٦ ـ تقريب المنهج بترتيب المُدْرَج[1]: لخص فيه كتاب الخطيب البغدادي الموسوم «بالفصل للوصل المُدْرَج في النقل»، وزاد عليه قدره مرتين وأكثر. قال الحافظ في ذلك: «وقد صنف الخطيب في المدرج كتاباً، ولخصته، وزدت عليه قدر ما ذكر مرتين أو أكثر، ولله الحمد»[2].

فرغه في سنة (٨٠٧هـ)، ويقع في مجلد.

٥٧ ـ تقويم السناد بمدرج الإسناد.

٥٨ ـ تلخيص «التصحيف» للدارقطني.

٥٩ ـ تلخيص «الجمع بين الصحيحين»: «الجمع بين الصحيحين» للحافظ محمد بن أبي نصر فتوح الحميدي، له شروح، ولخصه الحافظ ابن حجر.

٦٠ ـ التلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير: «الشرح الكبير» للرافعي شرح به «الوجيز للغزالي»، وقد خرَّج أحاديث «الشرح الكبير» جماعة من العلماء، منهم ابن المُلَقِّن، وهو أوسعها، في سبع مجلدات، فقام ابن حجر بتلخيصه في قدر ثلث حجمه، وضمَّ إليه ما في تخاريج الآخرين من الفوائد الزوائد، وأيضاً من «نصب الراية» للزيلعي[3].

---

(١) المُدْرَج: أن تزاد لفظة في متن الحديث من كلام الراوي، فيحسبها من يسمعها مرفوعة في الحديث، فيرويها كذلك. وقد يقع الإدراج في الإسناد.

(٢) شرح نخبة الفِكَر: ص ٨٦، وقد ذكره الحافظ في الفتح كثيراً، مثلاً: ١/٥٥٣، ٥٧٣، ٢/١٠٥، و٥/١٥٦، ٢٣٩، و١٢/١٣٩. كما ذُكر في تدريب الراوي: ١/٢٧٤، مقدمة ابن الصلاح: ص ٩٨ هامش، أصول الحديث: ص ٣٧٣.

(٣) من مقدمة ابن حجر لكتابه: ص ٩، بتصرف. وانظر للمزيد: مقدمة «فهارس التلخيص الحبير»: ص ٩ ـ ١١.

والتلخيص الحبير ـ كما يقول محققه ـ: «من أشرف التآليف وأحسنها جمعاً، وترتيباً وتبويباً، جمع طرق الحديث في مكان واحد، وتكلم عليها كلام المطلع الناقد البصير المتزن جرحاً وتعديلاً، بما توجبه الصناعة الحديثية من علم واسع، وإحاطة بالموضوع، وإدراك لمواطن الضعف والقوة، ونزاهة تحتم عليه الابتعاد عن التعصب.

ومما لا ريب فيه أنه جمع من السنَّة المطهرة ما لم يُجمع في أي كتاب آخر من الكتب التي أُلِّفت في الأحكام، وقد كاد أن يصل إلى غاية من الإحاطة بأحاديث الأحكام؛ لشموله لدلائل السنَّة، ومن ثَمَّ جعلته مرجعاً وافياً للعلماء الأجلاء ـ على اختلاف مذاهبهم ـ عند الحاجة إلى طلب الدليل»[1].

وقد أثنى العلماء على هذا الكتاب، ومن ذلك قول البدر حسين بن محمد بن حسن العُلَيف المكي الشافعي[2]:

ولـه في الوجيزِ لفظٌ غزيرٌ   عمَّ بالبحرِ روضةَ التفنينِ

والكتاب في أربعة أجزاء، يضمها مجلدان في (١٠٣٨) صفحة، ويحتوي على (٢١٦١) حديثاً.

فرغ الحافظ منه تعليقاً في الحادي والعشرين من شوال سنة (٨١٢هـ)، ثم فرغ منه تتبعاً في جمادى الآخرة سنة (٨٢٠هـ)[3].

٦١ ـ تلخيص «كتاب الحجة» لأبي علي النعماني: وكتاب «الحجة» لأبي علي الحسن بن الخطير الفارسي النعماني الفقيه اللغوي

---

(١) مقدمة المحقق: ص ٥، وقد بترها صاحب «فهارس التلخيص الحبير» ولم يشر إلى صاحبها، انظر: ص ٥ ـ ٦ عنده.

(٢) الجواهر والدرر: ص ٣٧٠، وانظر: ثناء قاضي الحنابلة المحب ابن نصر الله البغدادي في عدة أبيات: ص ٢٤٠.

(٣) التلخيص الحبير: ٤/ ٢١٩.

النحوي النسابة المؤرخ، اختصره من «الإفصاح عن معاني الصحاح» للوزير ابن هبيرة، وزاد عليه. فصار تلخيص ابن حجر «تلخيص التلخيص».

٦٢ ـ تلخيص المتفِق والمفترِق للخطيب: قال الحافظ: «وقد صنف فيه[١] الخطيب كتاباً حافلاً، وقد لخصته، وزدت عليه أشياء كثيرة»[٢]. ولم يكمل.

٦٣ ـ تلخيص «الوشي المعلم في من روى عن أبيه، عن جده، عن النبي ﷺ»:

وكتاب «الوشي المعلم» للحافظ العلائي (ت ٧٦١هـ)، وهو أجمع مصنَّف صُنِّف في هذا المجال، وهو في مجلد كبير[٣]. قال ابن حجر: «وجمع الحافظ صلاح الدين العلائي ـ من المتأخرين ـ مجلداً كبيراً في معرفة من روى عن أبيه، عن جده، عن النبي ﷺ، وقسمه أقساماً، فمنه ما يعود الضمير في قوله «عن جده» على الراوي، ومنه ما يعود الضمير فيه على أبيه، وبيَّن ذلك وحقَّقه، وخرَّج في كل ترجمة حديثاً من مرويِّه. وقد لخصت كتابه المذكور، وزدت عليه تراجم كثيرة جداً، وأكثر ما وقع فيه ما تسلسلت فيه الرواية عن الآباء بأربعة عشر أباً»[٤].

ـ التمييز في تخريج أحاديث شرح الوجيز[٥] = التلخيص الحبير.

---

(١) أي في المتفق والمفترق.

(٢) شرح نخبة الفكر: ص ١٤٤. وقد ذكر المعلِّق عليها أن كتاب الخطيب هو «الموضح لأوهام الجمع والتفريق»، وهو خطأ، فهذا كتاب آخر للخطيب غير «المتفق والمفترق» المراد هنا.

(٣) الرسالة المستطرفة: ص ١٦٣ ـ ١٦٤.

(٤) شرح نخبة الفكر: ص ١٢٨ ـ ١٢٩. وقد سمّى السيوطي كتاب ابن حجر هذا «علم الوشي وبنده فيمن روى عن أبيه عن جده». نظم العقيان: ص ٤٧.

(٥) هكذا جاء في نظم العقيان: ص ٤٧، وعلى هذا فهو اسم ثانٍ للتلخيص الحبير؛ وفي شذرات الذهب: ٧/٢٧٢: «التمييز في تخريج أحاديث الوجيز، مجلدين»، =

٦٤ ـ التوفيق بتغليق التعليق: مختصر تغليق التعليق، اقتصر فيه على وصل الأحاديث التي لم تقع في «البخاري» إلاَّ معلقة، ولم توصل في موضع آخر من «الصحيح»، وهي (١٦٠) حديثاً. وهو في مجلد لطيف.

٦٥ ـ ثلاثيات البخاري[1]: وهي اثنان وعشرون حديثاً ثلاثياً، جمعها ابن حجر وغيره. وقد نبَّه الحافظ في «الفتح» على مواضعها.

٦٦ ـ ثناثيات الموطأ: وهي أعلى ما عند الإمام مالك، حيث بينه وبين النبي ﷺ راويان فقط. وقد ذكرها ابن حجر في ترجمة شيخه التاج أحمد بن محمد بن عبد الله الخراط المالكي، فقال: «لقيته بالاسكندرية فأراني ثبته بخط الوادي آشي، وأنه سمع عليه «التيسير» للداني، و «الموطأ». وقد قرأت عليه من «الموطأ» من أوله إلى قدر السدس منه، و «الثنائيات» وخرَّجتها في جزء مفرد، مرفوعة وموقوفة»[2].

٦٧ ـ الجامع الكبير من سُنن البشير النذير = المؤتمن في جمع السنن[3]: رتبه على أبواب الفقه، مستوفياً لكثير من طرق الحديث، مبيناً عقب كل حديث ما فيه من علة وقدح وغير ذلك، محذوف الأسانيد. كتب منه اليسير، قال بخطه: «إنه شرع في أوائله» فكتب منه كراسة.

ـ جزء في قصة «هاروت وماروت» = طرق حديث «هاروت وماروت».

= وعلى هذا فهو كتاب آخر، لكنني أرجِّح سقوط لفظة «شرح» من تسميته هنا، خاصة وأنه نص على أن الكتاب في مجلدين، وكذا الحال في التلخيص الحبير، وكل من ترجم لابن حجر ذكر له كتاب: «تخريج شرح الرافعي» أو «تخريج الشرح الكبير» وهما واحد.

(١) ذكر سزكين هذا الكتاب باسم «شرح ثلاثيات البخاري»؛ تاريخ التراث: ١/٢٤٩.
(٢) المجمع المؤسس: ص ٧٤، ٧٥، نقلاً عن تغليق التعليق: ١/٨٨.
(٣) وقد فرَّق السيوطي بينهما فجعلهما كتابين: نظم العقيان: ص ٤٩.

٦٨ ـ جزء الوقوف على ما في صحيح مسلم من الموقوف: وقد بيَّن الحافظ سبب تصنيفه هذا الجزء، فقال: «وكان الحامل على جمع هذه الأحاديث أنه يقع في بعض مجالس الحديث قول أبي عمرو ابن الصلاح ـ في «علوم الحديث» ـ أنه ليس في «صحيح مسلم» بعد الخطبة والمقدمة إلَّا الحديث المرفوع الصِّرف، غير ممزوج بالموقوفات. واستدرك مَنْ تأخر عن عصر ابن الصلاح عليه بأنه وقع في «مسلم» شيء من الموقوفات على بعض التابعين، وهو قول يحيى بن أبي كثير: لا يُستطاع العلم براحة الجسد. وظن بعض من شاهدناه أنه ليس في «مسلم» غير هذا الموضع، فتتبَّعتُ ذلك من «الصحيح»، ووقع لي فيه مثل أثر يحيى بن أبي كثير، كقول عروة: لا تقل كَسَفَتِ الشمس. وغير ذلك. وهذا أوان الشروع فيما قصدت إليه، أعان الله عليه»(١).

ثم سرد الأحاديث التي تتبعها، فبلغت (١٦٥) حديثاً، ثم قال: «هذا آخر ما تتبعته من صحيح مسلم من الأحاديث الموقوفات والمقطوعات. . . فمن عثر في الكتاب المذكور على شيء من هذا الجنس؛ فليلحقه في مكانه، بعد أن يتحقق وروده، ويعذر كاتبه بالإسراع»(٢).

ثم قال: «والذي يرد على ابن الصلاح صريحاً جزماً منها مواضع يسيرة هي . . . »، وعدَّ عشرة مواضع، ثم قال: «وما عدا ذلك مما ذكرنا هنا من الموقوفات إنما أُخرجت لانضمام كل منها إلى الحديث المرفوع الذي سيقت معه، لتعلقها به بوجه ما»(٣).

وقع الفراغ منه سنة (٨٠٣هـ) في ثلاثة أيام، حيث يقول الحافظ في

---

(١) من خطبة الكتاب: ص ٢٥.

(٢) جزء الوقوف: ص ١١٧. وقد أضافت المحققة جملة من الأحاديث، جرَّدتها وجعلتها ذيلاً لكتاب ابن حجر: ص ١٢٣ ـ ١٥٩.

(٣) المرجع السابق: ص ١١٧ ـ ١١٨ باختصار.

آخره: «علَّقه الفقير أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن علي بن حجر في ثلاثة أيام من أول ذي الحجة سنة ثلاث وثمانمائة، بحلب حرسها الله تعالى»[1].

٦٩ ــ جلاء القلوب في معرفة المقلوب: ويسمّى أيضاً «نزهة القلوب في معرفة المبدل والمقلوب».

٧٠ ــ جلب حلب: هي «تذكرة» علَّق فيها ما حصله من فوائد ونوادر في رحلته إلى حلب سنة (٨٣٦هـ)، وتقع في أربعة أجزاء حديثية.

٧١ ــ الجمع بين الصحيحين: جمعه على الأبواب، بالأسانيد والطرق.

٧٢ ــ جمع أحاديث ابن عباس التي سمعها من النبي ﷺ: فقد ذكر الحافظ أقوال جماعة من العلماء في عدد الأحاديث التي صرَّح ابن عباس بسماعها من النبي ﷺ، حيث قال بعضهم إنها دون العشرين من وجوه صحاح، وبعضهم قال: عشرة، وآخر: تسعة، وأغرب الغزالي ــ وقلَّده جماعة ــ فقال: لم يسمع من النبي ﷺ إلَّا أربعة أحاديث.

ثم عقب الحافظ على هؤلاء قائلاً: «قلت: وقد اعتنيت بجمعها فزاد[2] على الأربعين ما بين صحيح وحسن، خارجاً عن الضعيف، وزائداً أيضاً على ما هو في حكم السماع كحكايته حضور شيء فُعل بحضرة النبي ﷺ»[3].

٧٣ ــ خماسيات الدَّارَقُطْني[4].

---

(١) المرجع السابق: ص ١١٩.

(٢) أي العدد.

(٣) الفتح: ١١/٣٨٣.

(٤) هكذا ذكره السيوطي في نظم العقيان: ص ٥٠، وذكر الكتاني في الرسالة =

٧٤ ــ الدراية في تخريج أحاديث الهداية[١]: اختصره من كتاب «نصب الراية في تخريج أحاديث الهداية» للإمام الجليل الحافظ الزيلعي (ت ٧٦٢هـ). ومن يقف على «الدراية» يقضي العجب من براعة ابن حجر في الاختصار الذي لم يخلّ بأصل الكتاب، ولا عجب فمن عرف الحافظ وحذقه، وذكاءه الخارق، وسعة اطلاعه؛ عرف أنه ابن بجدتها، والحائز قصب السبق في هذا المضمار.

والكتاب دائرة معارف عامة شاملة لأدلة الفقهاء، وكل فقيه ــ من المذاهب الأربعة ــ يجد فيه ضالته المنشودة، وذخيرته النفيسة[٢]. ويقع في مجلد مكوَّن من جزأين، عدد صفحاتهما (٥٨٧) صفحة، ويشتمل على (١٠٨٥) حديثاً.

قال مؤلفه: «فرغت من تلخيصه في ذي القعدة سنة (٨٢٧هـ)، سبع وعشرين وثمانمائة»[٣].

٧٥ ــ الديباجة: في الحديث[٤].

= المستطرفة: ص ٩٩ أن الخماسيات أفردت من «سنن الدارقطني» ولم يشر إلى من أفردها، ولعل ابن حجر قد جرَّدها من السنن. والله أعلم.

(١) وفي شذرات الذهب: ٢٧٢/٧؛ والرسالة المستطرفة: ص ١٨٨؛ «الدراية في منتخب تخريج أحاديث الهداية»؛ وأغرب محقق «عوالي مسلم» كمال يوسف الحوت، فسمّاه «نصب الراية من تخريج أحاديث الهداية»، وقال: «كتب غلطاً عليه: كتاب الدراية في تخريج أحاديث الهداية»، انظر: ص ٢٨. وذكر ص ٢٧ كتاباً آخر سمّاه «الدراية في منتخب أحاديث الهداية للمرغيناني». اهـ. والمشهور المعروف أن «نصب الراية» للإمام الزيلعي، كما ذكر كل من ترجم للزيلعي وابن حجر. والله أعلم.

(٢) باختصار من مقدمة مصحح الكتاب السيد عبد الله هاشم اليماني، ص ٣ ــ ٧.

(٣) الدراية: ٢٩٨/٢.

(٤) ذكره الزركلي في الأعلام: ١٧٨/١.

٧٦ ــ رسالة تشتمل على سؤال عن أحاديث رميت بالوضع، والإجابة عليها: تضمنت هذه الرسالة الإجابة عن (١٨) حديثاً رميت بالوضع، اشتمل عليها كتاب «المصابيح» للإمام محيي السنّة البغوي رحمه الله، سئل عنها ابن حجر، فأجاب بهذه الرسالة، وكانت كتابتها في أواخر سنة (٨٥٠هـ)[١]. وهي تقع في ثمان عشرة صفحة، ألحقت بالجزء الثالث من «مشكاة المصابيح»[٢].

٧٧ ــ زهر «الفردوس»[٣].

٧٨ ــ الزهر المطلول في الخبر المعلول.

٧٩ ــ زوائد «الأدب المفرد» للبخاري على الكتب الستة.

٨٠ ــ زوائد «الفردوس»[٤]: في مجلد.

٨١ ــ زوائد الكتب الأربعة مما هو صحيح: شرع فيه وكتب منه اليسير.

٨٢ ــ زوائد مسند أحمد بن مَنِيع.

ــ زوائد مسند البزار على الكتب الستة ومسند أحمد = تجريد زوائد مسند البزار.

٨٣ ــ زوائد مسند الحارث ابن أبي أسامة على الستة ومسند أحمد.

٨٤ ــ زيادات بعض الموطآت على بعض.

٨٥ ــ الستون العشارية من حديث العراقي = العشاريات الستون:

---

(١) مشكاة المصابيح: ٣/١٧٩١.

(٢) ص ١٧٧٤ ــ ١٧٩١.

(٣) ذكره السيوطي في نظم العقيان: ص ٤٧؛ وابن عَراق في «تنزيه الشريعة»: ١/٥؛ ومحمد بن البشير ظافر الأزهري في «تحذير المسلمين»: ص ٣٣، وغيرهم.

(٤) يلاحظ اعتناء ابن حجر بكتاب «الفردوس»، فقد مرَّ له عليه أربعة تصانيف.

كان الحافظ العراقي خرَّج لنفسه «أربعين حديثاً عشارياً»، فخرج الحافظ ابن حجر من مرويات شيخه العراقي «الستين العشارية» كمل بها الأربعين التي كان الشيخ خرجها لنفسه[1]، وسمّاها «العشاريات الستين لتكمل مائة بالأربعين».

٨٦ ـ شرح الأربعين النووية.

٨٧ ـ شرح الترمذي: شرع فيه سنة (٨٠٨هـ) في الدروس أول ما ولي درس الحديث «بالشيخونية» لم يكمله، فقد كتب منه قدر مجلدة مسوّدة، وفتر عزمه عنه.

قال السخاوي: «ولو كمل لجاء في خمسة عشر سفراً، أو ستة أسفار كبار، حسبما قرأته بخطه في موضعين».

٨٨ ـ ٨٩ ـ شرح كبير للبخاري، وآخر ملخص منه: ذكر السيوطي[2] «فتح الباري» ومقدمته «هدي الساري»، ثم قال: «وشرح آخر أكبر منه، وآخر ملخص منه، لم يتمّا. وقد رأيت من هذا الملخص ثلاث مجلدات من أوله».

ـ شرح نخبة الفكر = نزهة النظر شرح نخبة الفكر.

٩٠ ـ شفاء الغلل في بيان العلل.

---

(١) انظر: ذيول تذكرة الحفاظ: ص ٢٣٣؛ وفهارسها: ص ٤٢٣؛ والرسالة المستطرفة: ص ١٠١؛ وفهارسها: ص ٢٦٥؛ ونظم العقيان: ص ٥٠.

(٢) في نظم العقيان: ص ٤٦، ويمكن أن يفهم هذا من قول السخاوي ـ عند كلامه على «الاستنصار على الطاعن المعثار» ـ: «... الذي ردَّ فيه على العيني ما أورده في خطبة شرحه للبخاري، على خُطْبَتَي شيخنا لِشَرْحَيْهِ على الكتاب المذكور»؛ الجواهر والدرر: ص ٢٢٤، فقوله «لشرحيه» تفيد أن له شرحين على البخاري، «الفتح» وآخر.

ـ ضياء الأنام بعوالي البلقيني شيخ الإسلام = أربعون حديثاً لشيخه البلقيني.

ـ طبقات المدلِّسين = تعريف أهل التقديس بمراتب الموصوفين بالتدليس.

٩١ ـ طرق حديث (الأئمة من قريش): وسمّاه «لذة العيش بطرق حديث الأئمة من قريش»، جزء ضخم. وقد ذكره في «الفتح» في أثناء كلامه على بيعة أبي بكر الصديق في «سقيفة بني ساعدة»، فقال: «حديث (الأئمة من قريش) سيأتي ذكر من أخرجه بهذا اللفظ في كتاب الأحكام، ولم يقع في هذه القصة إلَّا بمعناه. وقد جمعت طرقه عن نحو أربعين صحابياً؛ لما بلغني أن بعض فضلاء العصر ذكر أنه لم يُرْوَ إلَّا عن أبي بكر الصديق»[1].

٩٢ ـ طرق حديث (احتجَّ آدم وموسى)[2].

٩٣ ـ طرق حديث (الأعمال بالنيات).

٩٤ ـ طرق حديث (الإفك).

٩٥ ـ طرق حديث (أولى الناس بي)[3].

٩٦ ـ طرق حديث (تعلموا الفرائض): سمّاه «تحفة الرائض

---

(١) الفتح: ٧/٣٢، وانظر الحديث وشرحه في «كتاب الأحكام» من الفتح: ١٣/١١٣ ـ ١١٩.

(٢) انظر الحديث (٣٤٠٩)؛ وأطرافه في الفتح: ٦/٤٤١، وقد شرحه الحافظ بكلام محرر محقق بديع في: ١١/٥٠٥ ـ ٥١٢.

(٣) جاء في التصريح بفضل الصلاة على سيدنا رسول الله ﷺ أحاديث قوية، لم يخرج البخاري منها شيئاً، وذكر الحافظ جملة منها في «الفتح»: ١١/١٦٧ ـ ١٦٨، ومنها الحديث الذي أفرد طرقه،بلفظ:(إن أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم عليَّ صلاة). ونحن ننبه في الحواشي على ما يحتاج إلى بيان، لا على الأحاديث الشهيرة كحديث الإفك ونحوه.

بتخريج حديث تعلموا الفرائض»[1].

٩٧ ــ طرق «حديث جابر في البعير»: وهو الحديث الذي فيه أن النبي ﷺ اشترى من جابر بن عبد الله ــ رضي الله عنهما ــ جَمَلَه، ونقده ثمنه، ثم انصرف جابر إلى بيته، فأرسل النبي ﷺ في أثره، حتى جاء، فقال له ﷺ: (خُذْ جَمَلَكَ، ولَكَ ثَمَنُه)[2].

٩٨ ــ طرق حديث «الصادق المصدوق»: هو حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: «حدثنا رسول الله ﷺ ــ وهو الصادق المصدوق ــ قال: (إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً، ثم يكون علقة مثل ذلك. . .)[3]».

وقد ذكر الحافظ هذا الجزء في «الفتح»، فقال: «وهذا الحديث اشتهر عن الأعمش[4] بالسند المذكور هنا. . . وكنت خرَّجته في جزء من طرق نحو الأربعين نفساً عن الأعمش، فغاب عني الآن، ولو أمعنت التتبع لزادوا على ذلك»[5].

٩٩ ــ طرق حديث «صلاة التسابيح»: وقد ذكره الحافظ في الرسالة[6] التي ألحقت «بمشكاة المصابيح»، فقال: «وقد جمعت طرقه مع

---

(١) الحديث عند الترمذي وابن ماجه والدارمي والحاكم في المستدرك، والدارقطني في السنن، وغيرهم. انظر: المقاصد الحسنة ص ٢٥٨ رقم ٣٣٩؛ و كشف الخفاء: ١/٣٦٨ رقم ٩٩٧؛ الدراية للحافظ رقم (١٠٦٣)؛ أسنى المطالب: ص ١١٤ رقم ٤٩٧.

(٢) أورده البخاري في مواضع من صحيحه، وشرحه الحافظ وأشبع القول فيه في الفتح: ٥/٣١٤ ــ ٣٢٢.

(٣) أخرجه البخاري في عدة مواضع، انظر الفتح: ٦/٣٠٣.

(٤) هو سليمان بن مهران يرويه عن زيد بن وهب، عن ابن مسعود، عن النبي ﷺ.

(٥) الفتح: ١١/٤٧٨ ــ ٤٧٩.

(٦) سبق الكلام عنها برقم (٧٦).

بيان عللها، وتفصيل أحوال رواتها في جزء مفرد». ثم قال: «والحق أنه في درجة الحَسَن لكثرة طرقه»[1].

١٠٠ ــ طرق حديث «غبّ الزيارة»: وسمّاه «الإنارة بطرق حديث غبّ الزيارة»، وقد ذكره في «الفتح» في «باب: هل يزور صاحبه كل يوم أو بكرة وعشياً»[2]؟ فقال: «وكأن البخاري رمز بالترجمة إلى توهين الحديث المشهور: (زُرْ غِبّاً تَزْدَدْ حُبّاً)[3]، وقد ورد من طرق أكثرها غرائب، لا يخلو واحد منها من مقال. وقد جمع طرقه أبو نعيم وغيره، وجاء من حديث علي وأبي ذر وأبي هريرة وعبد الله بن عمرو، وأبي برزة وعبد الله بن عمر، وأنس وجابر وحبيب بن مسلمة ومعاوية بن حيدة، وقد جمعتها في جزء مفرد». ثم قال: «ولا منافاة بين هذا الحديث وحديث الباب»[4] لأن عمومه يقبل التخصيص، فيُحمل على من ليست له خصوصية ومودَّة ثابتة، فلا ينقص كثرة زيارته من منزلته. قال ابن بطال: الصديق الملاطف لا يزيده كثرة الزيارة إلَّا محبة، بخلاف غيره»[5].

١٠١ ــ طرق حديث «الغسل يوم الجمعة»: من رواية نافع عن ابن عمر خاصة، خرَّجه على سبيل امتحان الخاطر في مذاكرة جرت، فجاء عن أكثر من عشرين ومائة رجل، رووه عن نافع خاصة!!

وقد أشار الحافظ في «الفتح» إلى ذلك، فقال: «ورواية نافع عن

---

(١) مشكاة المصابيح: ٣/١٧٨٢.

(٢) الفتح: ١٠/٤٩٨، وذكر البخاري في هذه الترجمة حديث زيارة النبي ﷺ لأبي بكر كل يوم بُكْرَةً وعَشِيَّةً.

(٣) الغِبُّ: من أوراد الإبل: أن تَرِدَ الماء يوماً وتَدَعه يوماً، ثم تعود، فنقله إلى الزيارة وإن جاء بعد أيام. يقال: غبَّ الرجلُ إذا جاء زائراً بعد أيام؛ النهاية: ٣/٣٣٦.

(٤) يعني زيارته ﷺ للصدّيق كل يوم.

(٥) الفتح: ١٠/٤٩٨ ــ ٤٩٩.

ابن عمر لهذا الحديث مشهورة جداً، فقد اعتنى بتخريج طرقه أبو عوانة في «صحيحه»، فساقه من طريق سبعين نفساً رووه عن نافع.

وقد تتبعت ما فاته، وجمعت ما وقع لي من طرقه في جزء مفرد، لغرض اقتضى ذلك، فبلغت أسماء من رواه عن نافع مائة وعشرين نفساً»[1].

١٠٢ ــ طرق حديث «قبض العلم»[2].

١٠٣ ــ طرق حديث (القضاة ثلاثة)[3]: وقد ذكره الحافظ في الفتح فقال: «وهو حديث أخرجه أصحاب السنن عن بُرَيدة بألفاظ مختلفة، وقد جمعت طرقه في جزء مفرد»[4].

١٠٤ ــ طرق حديث (لا تسبوا أصحابي): وموضوع هذا الجزء كما قال مؤلفه في مقدمته: «وحاصل الأمر أن المسألة تتعلق بحديث الأعمش، عن أبي صالح في النهي عن سبِّ الصحابة، هل هو عن أبي هريرة، أو أبي سعيد أو عنهما جميعاً»؟

---

(١) الفتح: ٢/٣٥٧. والحديث بلفظ البخاري عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: (إذا جاء أحدكم الجمعة فليغتسل).

(٢) هو حديث عبد الله بن عمرٍو قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إن الله لاَ يَقْبِضُ العلمَ انتزاعاً ينتزعه من العِباد، ولكنه يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يُبْقِ عالماً اتخذ الناس رؤوساً جهّالاً، فسُئلوا، فأفتوا بغير علم، فضلّوا وأضلّوا). لفظ البخاري. وانظر شرحه في الفتح: ١/١٩٤ ــ ١٩٥، ١٣/٢٨٢ ــ ٢٨٨.

(٣) لفظه: «القضاة ثلاثة: واحد في الجنة، واثنان في النار. فأما الذي في الجنة: فرجل عرف الحق وقضى به. ورجل عرف الحق فَجَارَ في الحكم، فهو في النار، ورجل قضى للناس على جهل، فهو في النار»؛ جامع الأصول: ١٠/١٦٦ ــ ١٦٧.

(٤) انظر الفتح: ١٣/٣١٩ و١٤٧. كما ذكره السخاوي في «المقاصد الحسنة» فقال: «وأفرد شيخنا طرقه» ص ٤٨٩؛ والعجلوني فقال: «وأفرد الحافظ ابن حجر طرقه»؛ كشف الخفاء: ٢/١٢٦ رقم (١٨٧٨).

وقد تتبع الحافظ طرقه في كتب كثيرة جداً[1]، ثم قال: «والصحيح عن أبي صالح، عن أبي سعيد الخُدري، والله أعلم»[2].

ولخَّص مقاصده في الفتح، فقال: «وقد أمليت على هذا الموضع جزءاً مفرداً، لخصت مقاصده هنا بعون الله تعالى»[3].

١٠٥ ـ طرق حديث (لا تسبوا البرغوث): وسمّاه «البسط المبثوث في خبر البرغوث». قال السخاوي: «وأفرد شيخنا فيه جزءاً»[4].

١٠٦ ـ طرق حديث: (لو أن نهراً بباب أحدكم).

١٠٧ ـ طرق حديث (ماء زمزم لما شُرب له): وقد ذكر الحافظ بعض طرقه في «الفتح» ثم قال: «وقد جمعت في ذلك جزءاً»[5].

ونقل السخاوي في «المقاصد» بعض كلام شيخه ابن حجر، ثم قال: «وأفرد فيه جزءاً»[6].

١٠٨ ـ طرق حديث (مثل أمتي كالمطر): ولفظه: (مَثَلُ أمتي مَثَلُ

---

(١) انظر: «جزء في طرق حديث لا تسبوا أصحابي» ص ٣٣ ـ ٨٠، وقد ذكرنا خلاصتها في «ابن حجر المحدث» ص ٢٤٢.

(٢) المرجع السابق: ص ٨٠. وألحق به حديثاً في «قصة مريم» هل هو عن ابن عمر أو ابن عباس، ص ٨٠ ـ ٨٦.

(٣) الفتح: ٧/٣٦، وكذا ذكره في تغليق التعليق: ٤/٦٢.

(٤) المقاصد الحسنة: ص ٧١٨ رقم (١٢٩٠)؛ وكشف الخفاء: ٢/٤٧٤.

(٥) الفتح: ٣/٤٩٣.

(٦) المقاصد الحسنة: ص ٥٦٨؛ وكذا ذكره العجلوني في كشف الخفاء: ٢/٢٣٠، رقم (٢١٦٨). ومما قاله الحافظ: «مرتبة هذا الحديث أنه باجتماع هذه الطرق يصلح للاحتجاج به، وقد جرَّبه جماعة من الكبار فذكروا أنه صحَّ، بل صححه من المتقدمين ابن عيينة، ومن المتأخرين الدمياطي في جزء جمعه فيه، والمنذري، وضعَّفه النووي».

المطر، لا يُدْرى أوله خير أم آخره). ونقل العجلوني في «كشف الخفاء» أن الحافظ ابن حجر قال فيه: «حديث حَسَن له طُرُق»[1].

١٠٩ ــ طرق حديث «المجامع في رمضان»: وسمّاه «نزهة الناظر السامع في طرق حديث الصائم المجامع»[2].

وقد ذكره الحافظ في «الفتح» فقال ــ عند كلامه على سند الحديث: حدثنا أبو اليمان أخبرنا شعيب، عن الزهري قال: أخبرني حميد بن عبد الرحمن أن أبا هريرة رضي الله عنه قال... ــ: «قوله (أخبرني حميد بن عبد الرحمن) أي: ابن عوف، هكذا توارد عليه أصحاب الزهري، وقد جمعت منهم في جزء مفرد لطرق هذا الحديث أكثر من أربعين نفساً...»[3].

١١٠ ــ طرق حديث «المسح على الخفين».

١١١ ــ طرق حديث «المِغْفَر»: الذي يرويه مالك عن ابن شهاب عن أنس[4]. قال الحافظ في الفتح: «وقيل إن مالكاً تفرد به عن الزهري، وممن جزم بذلك ابن الصلاح في «علوم الحديث» له، في الكلام على الشاذ». ثم ذكر تعقب شيخه العراقي لابن الصلاح، حيث خرَّجه من أربعة طرق غير طريق مالك، وعن ابن العربي قال: «قد رويته من ثلاثة عشر

---

(١) انظر: كشف الخفاء: ٢/٢٥٨ حديث رقم (٢٢٦٦)؛ والمقاصد: ص ٥٩١ حديث رقم (٩٩٧)؛ والمشكاة: ٣/١٧٧٠ حديث رقم (٦٢٧٧)؛ وأسنى المطالب: ص ٢٧٥ حديث رقم (١٢٩٦)، وغيرها.

(٢) لفظ الحديث في البخاري: عن أبي هريرة قال: «بينما نحن جلوس عند النبي ﷺ إذ جاءه رجل فقال: يا رسول الله، هلكت! قال: (مَا لَكَ)؟ قال: وقعت على امرأتي وأنا صائم...». الفتح: ٤/١٦٣.

(٣) الفتح: ٤/١٦٣، وقد ذكر فيه خلاصة ذلك.

(٤) ولفظه: «أن رسول الله ﷺ دخل عام الفتح وعلى رأسه المِغْفَرُ...». الفتح: ٤/٥٩. والمغفر: زرد يُنسج من الدروع على قدر الرأس.

طـريقـاً غيـر طـريق مـالـك». ثم شـرع الحـافظ في الـــرد على من اتهمـوا ابن العـربـي بالمجـازفة في ذلـك، فقال: «وقـد تتبعت طرقـه، حتى وقفت على أكثر من العدد الذي ذكره ابن العربـي، ولله الحمد، فوجدتـه من رواية اثني عشر نفساً غير الأربعة التي ذكرها شيخنا...». وبعد أن ذكـرهم قال: «فتبين بذلك أن إطلاق ابن الصلاح متعقَّب، وأن قول ابن العربـي صحيح، وأن كلام من اتهمه مردود، ولكن ليس في طرقـه شيء على شرط الصحيـح إلَّا طريق مالك...»[1].

١١٢ ــ طرق حديث «من بنى مسجداً»[2].

١١٣ ــ طـرق حديث «من حَفِظَ على أمتي أربعين حـديثاً بُعِثَ يـوم القيامة فقيهاً»: ذكره السخـاوي في «المقاصـد» فقال: «قال النووي: طـرقه كلها ضعيفة، وليس بثابت. وكذا قال شيخنا: جمعت طرقه في جـزء، ليس فيها طريق تسلم من علة قادحة»[3].

١١٤ ــ طرق حديث «من صلى على جنازة فله قيراط».

١١٥ ــ طـرق حـديث «من كـذب عليَّ متعمـداً فليتبــوأ مقعـده من النار»[4].

١١٦ ــ طرق حديث «نضَّر الله امرأً».

---

(١) الفتـح: ٤/٥٩ ــ ٦٠، ولم يصرح بـأنه أفـرده في جزء، فلعـل تجريـده في «جـزء مفرد» كان بعد كتابة هذا الموضع من الفتح، أو من عوارض النسيان، والله أعلم.

(٢) لفظ البخـاري: «من بنى مسجداً يبتغي بـه وجه الله، بنى الله لـه مثله في الجنـة»، الفتح: ١/٥٤٤.

(٣) المقـاصـد الحسنـة: ص ٦٤٤ حـديث رقم (١١١٥)؛ وكشف الخفــاء: ٢/٣٢٢ حديث رقم (٢٤٦٥).

(٤) وقد ذكر الحافظ خلاصة ذلك في الفتـح: ١/٢٠٣، فبعد أن سـاق جملة ممن رواه من الصحابة، ومن اعتنى من الحفـاظ بجمع طـرقه؛ قـال: «وتحصل من مجمـوع =

١١٧ ـ طرق حديث «هاروت وماروت»: ذكره في «القول المسدَّد» فقال: «وله طرق كثيرة جمعتها في جزء مفرد، يكاد يكون الواقف عليه أن يقطع بوقوع هذه القصة، لكثرة الطرق الواردة فيها، وقوة مخارج أكثرها، والله أعلم»(١).

١١٨ ـ طرق حديث «يا عبد الرحمن لا تسأل الإمارة»(٢).

١١٩ ـ العشاريات: وسمّاه «العشرة العشارية»، وهو أعلى ما وقع لابن حجر، حيث جاء بينه وبين النبي ﷺ عشرة أنفس، وقد اختار من هذا النوع عشرة أحاديث، أفردها في الجزء المذكور، وقال في خطبته: «إن هذا العدد هو أعلى ما يقع لعامة مشايخي الذين حملتُ عنهم، وقد جمعت ذلك فقارب الألف من مسموعاتي منهم. وأما هذه الأحاديث فإنها وإن كان فيها قصور عن مرتبة الصحاح، فقد تحرَّيت فيها جهدي، وانتقيتها من مجموع ما عندي»(٣).

وقد ذكر الحافظ هذا الجزء في «الفتح» و«الإصابة»، وفيهما أحد الأحاديث العشارية الإسناد(٤).

ـ العشاريات الستون = الستون العشارية.

ـ عشاريات شيخه التنوخي = المائة العشارية.

= ذلك كله رواية مائة من الصحابة على ما فصَّلته من صحيح وحسن وضعيف وساقط...». لكنه لم يشِر في هذا الموضع إلى أنه أفرده في جزء، فلعل إفراده له كان فيما بعد.

(١) القول المسدَّد: ص ٩٠.

(٢) لفظ البخاري عن عبد الرحمن بن سَمُرة قال: قال لي رسول الله ﷺ: (يا عبد الرحمن بن سمرة لا تسأل الإمارة، فإن أُعطيتها عن مسألة وُكلتَ إليها، وإن أُعطيتها عن غير مسألة أُعِنْتَ عليها...). انظر الفتح: ١١/٥١٦ ـ ٥١٧، ١٣/١٢٤.

(٣) الباعث الحثيث: ص ١٥٧ هامش، فهرس الفهارس: ٢/٨٨١.

(٤) الفتح: ٨/٣٣ ـ ٣٤؛ الإصابة: ١/٥٣٤ ـ ٥٣٥، ترجمة زهير بن صُرَد.

ـ العشرة العشارية = العشاريات.

ـ علم الوشي وبنده فيمن روى عن أبيه، عن جده، عن النبي ﷺ = تلخيص الوشي المعلم.

ـ العوالي التالية للمائة العالية = الأربعون التالية للمائة العشارية.

ـ عوالي مسلم = الأربعون العالية لمسلم على البخاري.

١٢٠ ـ فتاوى حديثية.

١٢١ ـ فتح الباري بشرح صحيح البخاري: هو أعظم شروح البخاري على الإطلاق بلا مراء، وأجل تصانيف ابن حجر، ولو لم يكن له إلَّا هذا الكتاب لكفى دلالة على جلالته وإمامته. ويقع في ثلاثة عشر مجلداً، ونظراً لعظمة هذا الكتاب فسأرجىء الكلام عنه إلى فصل مستقل إن شاء الله.

١٢٢ ـ الفوائد المجموعة بأطراف الأجزاء المسموعة: على الأبواب مع المسانيد.

١٢٣ ـ القصارى: في الحديث[1].

١٢٤ ـ القول المُسَدَّد في الذبِّ عن مسند الإمام أحمد: تكلم فيه على الأحاديث التي زعم بعض أهل الحديث أنها موضوعة، وهي في «مسند الإمام أحمد بن حنبل». فذكر في البداية الجزء الذي خرَّجه في ذلك شيخه العراقي، ويتضمن تسعة أحاديث، وهي في التحقيق سبعة ـ كما يقول الحافظ ـ[2].

ثم شرع في الرد بالتفصيل على الأحاديث التي أوردها شيخه[3]. وبعد

(١) انظر: كشف الظنون: ص ١٣٢٧؛ وهدية العارفين: ١/ ١٣٠.

(٢) القول المسدَّد: ص ٣٢ ـ ٤٣.

(٣) المرجع السابق: ص ٤٦ ـ ٧١.

ذلك ذكر خمسة عشر حديثاً حكم ابن الجوزي عليها بالوضع ـ في كتابه «الموضوعات» ـ وهي مما رواه الإمام أحمد في المسند، وساق ردَّه على ذلك[1].

وقال في نهايته: «هذا آخر ما تتبّعته من الأحاديث التي أوردها ابن الجوزي في «الموضوعات» ولم يذكرها شيخنا... والذي أقول: إنه لا يتأتى الحكم على شيء منها بالوضع، لما بينته من الأجوبة عقب كل حديث، والله الهادي إلى الصواب، لا إلّه إلاَّ هو عليه توكلت، وإليه مآب»[2].

«فرغته في شهور سنة تسع عشرة وثمانمائة»[3].

وقد أثنى العلماء على هذا الكتاب، وبراعة الحافظ فيه، ومنهم شيخ القراء ابن الجزري، وكان قد حصل نسخة من هذا الكتاب، فكتب جزءاً على سبيل التذييل عليه، وقال في خطبته:

«فإني وقفت على القول المسدَّد والدر المنضَّد، الصادر عن الحافظ أحمد، في الذبِّ عن مسند الإمام أحمد، فإذا أنوار فرائده من علياء حضرة الشهاب تَتَلَألَى، وأبكارُ فوائده من لَدُن هذا الحَبْر تَتَغَالى وتتعَالَى. قال: ولسان الحال يقول في الحال: هكذا هكذا وإلاَّ فلا! أبقاه الله تعالى، وزاد فضائله وفواضله جمالاً وجلالاً. ولقد أتى فيه بما لا مزيد عليه إطلاقاً وتحقيقاً، واستحضاراً وتدقيقاً، أمتعنا الله بوجوده، آمين»[4].

وقال علاّمة الشام القاسمي رحمه الله: «ونقل فيه[5] جزء شيخه

---

(١) المرجع السابق: ص ٧٣ ـ ١٠١.
(٢) المرجع السابق: ص ١٠١.
(٣) المرجع السابق: ص ١٠٢.
(٤) الجواهر والدرر: ص ٢٢٩.
(٥) أي ابن حجر في «القول المسدد».

العراقي حرفاً حرفاً، وأجاب عنه حديثاً حديثاً، ثم أورد عدة أحاديث أخر من المسند حكم عليها ابن الجوزي بالوضع مما لم يذكره العراقي، ونفى وضعها بالبراهين الساطعة والحجج القاطعة»[1].

١٢٥ ـ الكافي الشاف في تخريج أحاديث الكشاف: خرج الزيلعي «أحاديث الكشاف للزمخشري»، قال ابن حجر في تخريج الزيلعي: «استوعب ما فيه من الأحاديث المرفوعة، فأكثر من تبيين طرقها وتسمية مخرِّجيها، على نمط ما في أحاديث «الهداية» لكنه فاته كثير من الأحاديث المرفوعة التي يذكرها الزمخشري بطريق الإشارة، ولم يتعرض ـ غالباً ـ لشيء من الآثار الموقوفة». وقد لخص ابن حجر كتاب الزيلعي في مجلد، واستدرك عليه في مجلد آخر.

١٢٦ ـ الكلام على حديث: «إن امرأتي لا ترد يد لامس»[2].

ـ الكلام على حديث القضاة = طرق حديث (القضاة ثلاثة).

١٢٧ ـ اللآلىء المنثورة في الأحاديث المشهورة مما ألفه الطبع وليس له أصل في الشرع:

ذكره العجلوني في خطبة كتابه «كشف الخفاء»، وأخذ عنه كثيراً[3].
وكذا محمد بن البشير الأزهري في «تحذير المسلمين»[4].

١٢٨ ـ اللباب في شرح قول الترمذي: «وفي الباب»[5].

---

(١) قواعد التحديث: ص ٢٥٢.
(٢) انظر أقوال العلماء في سنده وتفسيره في التلخيص الحبير: ٣/٢٢٥ ـ ٢٢٦.
(٣) كشف الخفاء: ١/٦، ٧، ٨.
(٤) ص ٣٧، وقال: «طالعته في المكتبة الخديوية». كما ذكره القاسمي في «الفضل المبين»: ص ٣٣، عند التعريف بالعجلوني.
(٥) وقد جاء في الفتح أمثلة كثيرة على ذلك، انظر مثلاً: ٥/٢١١، ٢٢١، ٢٤١، ٣٧٢، و٦/٢٩١، ٣٦٤، و١٠/٣٢٦ ـ ٣٢٧، و١١/١٨٤.

ـ لذة العيش بطرق حديث (الأئمة من قريش) = طرق حديث (الأئمة من قريش).

١٢٩ ـ المائة العشارية من حديث البرهان الشامي [١]: هي مائة حديث عشارية الإسناد، خرّجها سنة (٧٩٦هـ)، وعمره إذ ذاك (٢٣) سنة!

قال السخاوي: «فكان أول من قرأها على المخرَّجة له في جمع حافل الإمام العلامة الحافظ الناقد ولي الدين أبو زرعة أحمد ابن شيخه العراقي، في سنة سبع وتسعين. وكذا قرأها عليه غيره من الأعيان، ومنهم الشيخ شهاب الدين الحسيني، بعد أن كتبها بخطه. وسمعها معه صهره الشيخ شمس الدين البوصيري العالم الصالح. وقرَّظ له جماعة من أئمة العصر عليها، وشهدوا له بالتقدم» [٢].

وكان شيخه التنوخي المذكور قد تعسر في التحديث، فلما اجتمع به ابن حجر وخرّجها له ـ مع المعجم، وسيأتي ذكره ـ فرح بها، وانبسط بالتحديث [٣]. . .

وقد أثنى الأئمة على هذا التصنيف، ومنهم شيخه برهان الدين الأبناسي حيث قال: «خرّج له [٤] من مروياته وقراءاته ومناولاته ووجاداته وسماعاته، والكتابة إليه وإجازاته؛ عشاريات لم يُنسج مثلها على منوال، ولا ضَرب لها ماثل بمثال، وسمّاها «بنظم اللآلي بالمائة العوالي». ولما تصفحت هذا التأليف ونظرت فيه، ألفيتُه غُنْيَةً للمحدث الفقيه، يا له من تصنيف ما أبدعه، ومن تأليف ما أنفعه، جمع من الحديث فنونه، وأتقن ألفاظه ومتونَه. دلَّ ذلك على تضلُّع بعلوم زاخرة، وفوائد جمة متواترة،

---

(١) أحد أعيان شيوخ ابن حجر، انظر التعريف به ص ١١١ من هذا الكتاب.

(٢) الجواهر والدرر: ص ٦٩.

(٣) المرجع السابق: ص ١١٢.

(٤) أي للتنوخي.

وأعرب عن كل غريبة ونادرة؛ لو سمعها أحمد وابن معين والمديني وابن سيرين، لقضوا من ذلك العجب، وسلكوا معه الأدب، وقالوا بعد إمعان النظر: سبحان من أعطاك يا ابن حجر»[1].

وقال شيخه العراقي: «نظرت هذه الأحاديث العشاريات المائة، المخرَّجة عن الشيوخ العوالي أحسن تخريج وأضوأه، ممن أسمع الشيخ المخرَّجة له لفظاً أو عَرْضاً أو إجازة أو إنباءً من الأحاديث الصحاح والحِسَان والغرائب التي هي عن النكارة مبرَّأة، عن الأثبات وأهل الصدق والستر والصيانة المجزِئة، غير المتهمين والمجروحين والدعاة من الغلاة والمرجئة، وهي تخريج الشيخ الفقيه المحدث الفاضل، البارع المفيد المُجيد لما أنشأه، شهاب الدين أبي الفضل أحمد ابن الشيخ الأوحد مفتي المسلمين نور الدين أبي الحسن عليٍ، أنزل الله سلفه رفيع الدرجات وبوَّأه، سلك فيها سبيل المتقنين المخرِّجين ولا أخطأه. . .»[2].

وهذه شهادة عظيمة له من شيخه العراقي، وهو لم يكمل بعد الخامسة والعشرين من عمره!!

وقرأها عليه محدث اليمن النفيس العلوي سنة (٨٠٠هـ)[3].

١٣٠ ــ المجالس: وهي (١٩٣) مجلساً بخط البقاعي، قال الميمني ــ في مذكراته ــ: نسخة جليلة مهمة نادرة[4].

ــ المختار المعتمد من مسند البزار على الكتب الستة ومسند أحمد: انظر: «تجريد زوائد مسند البزار».

١٣١ ــ مختصر الترغيب والترهيب: اختصر فيه كتاب المنذري في قدر ربع الأصل، وانتقى منه ما هو أقوى إسناداً وأصحّ متناً، واقتصر على العدد القليل من الأحاديث الكثيرة العدد المتحدة المعاني، واكتفى في

---

(١) الجواهر والدرر: ص ٢٠٥.

(٢) الجواهر والدرر: ص ٢٠٩ ــ ٢١٠.

(٣) المرجع السابق: ص ٢٢١.

(٤) الأعلام للزركلي: ١/١٧٨.

الكلام على الرواة بذكر كلمة أو كلمتين؛ فجاء كتابه هذا لطيفاً منقحاً، حرياً بأن يعتمد عليه ويوثق به من غير بحث عن أسانيد حديثه وتحقيق متونه إن شاء الله، ويسهل على الطالبين حفظه ودراسته، ويخف حمله في الأسفار[1].

١٣٢ ــ مختصر فتح الباري: أعده الحافظ بعنوان «النكت على صحيح البخاري»، ويقع في (١٦١) ورقة، في مجلد[2].

١٣٣ ــ مزيد النفع بمعرفة ما رجح فيه الوقف على الرفع.

١٣٤ ــ المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية: استعرض[3] فيه أحاديث ثمانية مسانيد كاملة هي: مسانيد الحُميدي، والطيالسي، وابن أبي عمر، ومُسَدَّد، وابن مَنِيع، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، والحارث ابن أبي أسامة، وأضاف إلى هذه الثمانية من «مسند أبي يعلى» ــ بروايته المطوَّلة ــ ومسند إسحاق بن راهويه ــ من نصفه الذي وقف عليه ــ. فاستخرج من كل تلك المسانيد الأحاديثَ الزوائد فيها على ما في الكتب الستة ومسند أحمد. ثم رتب تلك الأحاديث على أبواب الأحكام الفقهية، خلافاً لترتيب المسانيد المستمد منها[4].

---

(١) من مقدمة محقق الكتاب الشيخ العلامة حبيب الرحمن الأعظمي، صفحة (هـ ــ و)، وقد جاء عدد الأحاديث عنده (٨٥٥) حديثاً. لكن محققاً آخر ــ هو محمد بن الطاهر المجدوب ــ أعاد ترقيم بعض الأحاديث، ففصل بين حديثين أو أكثر جاءت تحت رقم واحد، فبلغت الأحاديث في ترقيمه (٩٦٩) حديثاً، كما في الصفحة (ج).

(٢) تاريخ التراث لسزكين: ١/٢٣٦؛ البخاري وصحيحه: ص ٢٣٧؛ إتحاف القاري: ص ٧٢ ــ ٧٣.

(٣) انظر مقدمة المحقق: الصفحة (ط ــ ي)، وخطبة ابن حجر لكتابه: ص ٣ ــ ٤، والمسانيد الثمانية باعتبار الكاملة فقط.

(٤) المسانيد: موضوعها جعل حديث كل صحابي على حدة، صحيحاً كان أو حسناً =

وأما أهمية الكتاب فهو «أغنى ما أُلِّف من كتب السنة ثروة، وأغزرها فائدة: لاحتوائه على زوائد تلك المسانيد الثمانية تماماً، وعلى شيء كثير من زوائد مسندين آخرين. ولجمعه في مكان واحد على الترتيب الفقهي ما كان مبدداً في ثمانية أمكنة ـ بل عشرة ـ من غير مراعاة لهذا الترتيب. ولاشتماله في كثير من المواضع على بيان درجة الحديث من صحة وضعف، واتصال وانقطاع.

وقد ازدادت قيمة الكتاب العلمية في عصرنا، لأن أكثر الكتب الأصول التي انتقيت فيه زوائدها قد دخل في خبر كان»[1].

وعدة أحاديثه (٤٧٠٢) حديثاً، وهي ذخيرة قيمة نادرة، ويقع في زهاء (١٧٠٠) صفحة، ضمتها أربع مجلدات.

١٣٥ ـ المقترب في بيان المضطرب[2]: كتاب قيّم في هذا الفن، أفاد فيه وأجاد، وقد التقطه من كتاب «العلل» للدارقطني، مع زوائد.

ـ المنتخب[3] في زوائد البزار على الكتب الستة ومسند أحمد = تجريد زوائد مسند البزار.

١٣٦ ـ منتقى من «شرح البخاري» للحافظ برهان الدين الحلبي: انتقاه في السفرة الحلبية، وهو في مجلد.

= أو ضعيفاً. فيكون اسم الصحابي بمثابة «باب» يذكر تحته كل الأحاديث التي رواها. وترتيب الصحابة يكون: إما على حروف المعجم، أو على القبائل، أو على السابقة في الإسلام، أو غير ذلك.

(١) من مقدمة المحقق: صفحة (ي ـ ك).

(٢) المضطرب: هو الحديث الذي يُرْوى من قبل راوٍ واحد أو أكثر على أوجه مختلفة متساوية، لا مرجح بينها ولا يمكن الجمع. انظر: مقدمة ابن الصلاح: ص ٩٣ ـ ٩٤ والهامش، تدريب الراوي: ١/٢٦٢ ـ ٢٦٧؛ الباعث الحثيث: ص ٦٨ ـ ٦٩؛ أصول الحديث: ص ٣٤٤ ـ ٣٤٥.

(٣) هكذا سمّاه السيوطي في نظم العقيان: ص ٤٨.

ـ المؤتمن في جمع السنن = الجامع الكبير من سُنن البشير النذير.

١٣٧ ـ المُؤْتَلِف والمُخْتَلِف[1].

ـ نتائج الأفكار في تخريج أحاديث الأذكار = تخريج أحاديث الأذكار.

١٣٨ ـ نخبة الفِكَر في مصطلح أهل الأثر: تقع في كراسة، اختصر فيها «علوم الحديث» لابن الصلاح، وزاد أنواعاً لم يذكرها ابن الصلاح في مقاصد الأنواع، وقد بلغت هذه الزيادة مائة نوع من أنواع علوم الحديث.

قال الحافظ: فسألني بعض الإخوان أن ألخص له المهم من ذلك، فلخصته في أوراق لطيفة سميتها «نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر» على ترتيب ابتكرته، وسبيل انتهجته، مع ما ضممته إليه من شوارد الفرائد، وزوائد الفوائد»[2].

فرغ من تصنيفه سنة (٨١٢هـ).

وقد اعتنى العلماء به، وشرحه الكثيرون، منهم العلامة كمال الدين محمد بن محمد الشُّمُنِّي في تصنيف سماه «بهجة النظر في نخبة الفِكَر»[3]، وقال في مدح النخبة ومؤلفه: «قد رتبه ترتيباً بديعاً، وسلك في

---

(١) هو ما تتفق في الخط صورتُه، وتفترق في اللفظ صيغتُه، مثل: «سَلاَّم وسَلاَم»، «عُمَارة وعِمَارة»، «حِزَامُ، حَرَام»، «بَشِير، يُسَيْر، نُسَيْر».
انظر: مقدمة ابن الصلاح: ص ٣٤٤ ـ ٣٥٧؛ الباعث الحثيث: ص ٢١٨ ـ ٢١٩؛ شرح النخبة: ص ١٤٤. وغيرها.

(٢) شرح النخبة: ص ٦.

(٣) شرحه في سنة (٨١٧هـ) قبل أن يشرحه ابن حجر في كتابه «نزهة النظر» الآتي ذكره بعد قليل. وفي تغليق التعليق: ـ ١/١٨٦ ـ ذكر محققه أن الشمني شرح: «شرح النخبة»، وهو خطأ واضح.

تهذيبه مسلكاً منيعاً، فهو وإن صغر حجمه كُنَيْف مُلِيء علماً، غير أن ألفاظه ضاقت بمعانيه صدراً، وَعَلَتْ معانيه عن فهم المبتدئين قدراً. . . فلذلك ندبني الإمام المصنِّف لشرحه، وحلّ مُقفل لفظه وفتحه، فانتدبت له مستعيناً بالله سبحانه وتعالى على ذلك. . .»[1].

وممن شرحه ولد المصنِّف بدرُ الدين محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني، وسماه «نتيجة النظر في شرح نخبة الفكر».

كما نظمه كمال الدين الشمني ـ المذكور آنفاً ـ وسماه «الرتبة في نظم النخبة»، وأبو حامد سيدي العربي بن أبي المحاسن سيدي يوسف بن محمد الفاسي داراً ولقباً في «عقد الدرر في نظم نخبة الفكر»[2].

١٣٩ ـ نزهة السامعين في رواية الصحابة عن التابعين.

ـ نزهة الناظر السامع في طرق حديث «الصائم المجامع» = طرق حديث «الصائم المجامع».

١٤٠ ـ نزهة النظر في توضيح نخبة الفِكَر: هو شرح لكتابه السابق، حيث قال في جواب من سأله تأليف «النخبة»: «. . . فرغب إليَّ ثانياً أن أضع عليها شرحاً يحل رموزها، ويفتح كنوزها، ويوضح ما خفي على المبتدىء من ذلك؛ فأجبته إلى سؤاله رجاء الاندراج في تلك المسالك، فبالغت في شرحها في الإيضاح والتوجيه، ونبهت على خبايا زواياها، لأن صاحب البيت أدرى بما فيه، وظهر لي أن إيراده على صورة البسيط أليق، ودمجها ضمن توضيحها أفوق، فسلكت هذه الطريق القليلة المسالك»[3].

فدمج الحافظ النخبة وشرْحَها، فكان عظيم الفائدة، وتنافس الفضلاء

---

(١) الجواهر والدرر: ص ٢١٨ ـ ٢١٩.

(٢) انظر بالتفصيل: الرسالة المستطرفة: ص ٢١٦ ـ ٢١٧؛ كشف الظنون: ص ١٩٣٦ ـ ١٩٣٧.

(٣) شرح النخبة: ص ٦ ـ ٧.

في تحصيله والاعتناء به، ونسخه الكثير من الشيوخ وطلاب العلم.

وممن شَرَحَ «شَرْحَ النخبة»: الشيخ علي القاري وسمّاه «مصطلحات أهل الأثر على شرح نخبة الفكر»، ولعبد الرؤوف المناوي «اليواقيت والدرر في شرح شرح نخبة الفكر». وعليها حواشٍ للشيخ إبراهيم اللقّاني المالكي، ولقاسم بن قطلوبغا، ولعبد الله بن حسين العدوي وتسمى: «لقط الدرر»، وغير ذلك الكثير[1]، مما يدل على قيمة هذا المصنَّف، وجلالة المصنِّف في قلوب الأمة.

وقد أجاد العلامة الشهاب أحمد بن مبارك شاه الحنفي حين قال مادحاً ابن حجر[2]:

وأنتَ الذي فهَّمْتَنا شَرْحَ نُخْبَةٍ ... بتنقيحها علمُ الحديثِ تمهَّدَا

فرجتَ بها يا طيِّبَ الأصلِ شرْحَها ... بأعذب لفظٍ طاب للفهم مَوْرِدَا

فَهِمْتُ بها لما فَهِمْتُ دقائِقاً ... بها صار عيشي في المحافلِ أرْغَدَا

ــ نزهة القلوب في معرفة المبدل والمقلوب = جلاء القلوب في معرفة المقلوب.

ــ نظم اللآلي بالمائة العوالي = المائة العشارية.

ــ النكت الظراف على الأطراف = الاعتراف بأوهام الأطراف.

١٤١ ــ النكت على تنقيح الزَّرْكَشي: «التنقيح لألفاظ الجامع الصحيح» للإمام بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي، وكتاب ابن حجر «النكت» تعليقة عليه، ولم تكمل.

١٤٢ ــ النكت على شرح ألفية العراقي: لم يكمل.

١٤٣ ــ النكت على شرح صحيح مسلم للنووي في المقدمة

---

(١) انظر: الرسالة المستطرفة: ص ٢١٦ ــ ٢١٧؛ مقدمة عبد الوهاب عبد اللطيف في تحقيقه تدريب الراوي: ١/٨ ــ ٩.

(٢) الجواهر والدرر: ص ٣٤٤.

وغيرها: لم يكمل، قال السخاوي: «رأيت منه كراسة من الكلام على المقدمة[1]، وأخرى من الكلام على غيرها».

ـ النكت على صحيح البخاري = مختصر فتح الباري.

١٤٤ ـ النكت على «علوم الحديث» لابن الصلاح: فيه شرح ونكت واستدراك على «علوم الحديث» لابن الصلاح؛ جمع فيه أضعاف ما جمعه شيخه العراقي في «نكته»، لم يكمل، ويقع في مجلد ضخم مسوّدة. وقد ذكره الحافظ كثيراً في «فتح الباري».

قال في «كشف الظنون» ـ ص ١١٦٢، وهو يتكلم على «علوم الحديث لابن الصلاح» وما كتبه العلماء عليه من شروح ونكت ونحوها ـ: «... ونكت الإمام الحافظ شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني المتوفى سنة (٨٥٢هـ) اثنتين وخمسين وثمانمائة. أوله: الحمد لله الذي لا تنفد مع كثرة الإنفاق خزائنه... إلخ، قال: «وكنت قد بحثت على شيخي العراقي الفوائد التي جمعها على مصنف الشيخ ابن الصلاح، وكنت في أثناء ذلك وبعده، إذا وقعت لي النكتة الغريبة، والنادرة العجيبة، والاعتراض القوي والضعيف؛ ربما علقته على هامش الأصل، وربما أغفلته. فرأيت الجمع وضمّ ما يليق به، فجمعت ورقمت على أول كل مسألة إما (ص) وإما (ع) الأول لابن الصلاح، والثاني للعراقي». ثم كتب كراسة سمّاها بـ «الإفصاح بتكميل النكت على ابن الصلاح».

١٤٥ ـ هداية الرواة إلى تخريج أحاديث المصابيح والمشكاة: «مصابيح السنة» للإمام محيي السنة البغوي، و «مشكاة المصابيح»

---

(١) أي «مقدمة صحيح مسلم».

للخطيب التبريزي، ذيّل به على «المصابيح» وزاد عليه[1]. وقد لخص ابن حجر كتابه هذا من «لباب الصدور» للشيخ محمد المناوي (ت ٧٤٦هـ)[2].

١٤٦ ــ هدي الساري مقدمة فتح الباري:

كتاب فذّ لا نظير له، ولا غنى لباحث عنه، تكلم فيه بكلام لم يسبق إليه، وساق فيه فصولاً قيّمة فيها مباحث لا يمكن أن نظفر في غيرها بها، وهو له مفخرة، زاد «شرحه للبخاري» جلالاً وجمالاً.

وقد بين الحافظ غرضه من وضع هذه المقدمة بين يدي شرحه للبخاري في كتابه «فتح الباري»؛ فقال: «. . . وأقدم بين يدي ذلك كله مقدمة في تبيين قواعده، وتزيين فرائده، جامعة وجيزة، دون الإسهاب وفوق القصور، سهلة المأخذ، تفتح المستغلق وتذلل الصعاب، وتشرح الصدور، وينحصر القول فيها ــ إن شاء الله تعالى ــ في عشرة فصول:

الأول: في بيان السبب الباعث له[3] على تصنيف هذا الكتاب.

الثاني: في بيان موضوعه، والكشف عن مغزاه فيه، والكلام على تحقيق شروطه، وتقرير كونه من أصح الكتب المصنفة في الحديث النبوي. ويلتحق به الكلام على تراجمه البديعة المنال، المنيعة المثال، التي انفرد بتدقيقه فيها عن نظرائه، واشتهر بتحقيقه لها عن قرنائه.

الثالث: في بيان الحكمة في تقطيعه للحديث واختصاره، وفائدة إعادته للحديث وتكراره.

الرابع: في بيان السبب في إيراده الأحاديث المعلّقة والآثار الموقوفة،

---

(١) عدد الأحاديث التي زادها على المصابيح (١٥١١) حديثاً. انظر: مقدمة الناشر «للمشكاة» ج ١ صفحة (ح).

(٢) انظر: كشف الظنون: ص ١٥٤١، ٢٠٣٠؛ وهدية العارفين: ١/ ١٣٠.

(٣) أي للإمام البخاري رحمه الله.

مع أنها تباين أصل موضوع الكتاب. وألحقت فيه سياق الأحاديث المرفوعة المعلقة، والإشارة لمن وصلها على سبيل الاختصار.

الخامس: في ضبط الغريب الواقع في متونه، مرتباً له على حروف المعجم، بألخص عبارة، وأخلص إشارة، لتسهل مراجعته، ويخفّ تكراره.

السادس: في ضبط الأسماء المشكلة التي فيه، وكذا الكنى والأنساب، وهي على قسمين: الأول: المؤتَلِفَة والمختلِفَة الواقعة فيه، حيث تدخل تحت ضابط كلي، لتسهل مراجعتها ويخفّ تكرارها، وما عدا ذلك فيذكر في الأصل. والثاني: المفردات من ذلك.

السابع: في تعريف شيوخه الذين أهمل نسبهم إذا كانت يكثر اشتراكها «كمحمد»، لا من يقل اشتراكه «كمسدَّد»، وفيه الكلام على جميع ما فيه من مهمل ومبهم على سياق الكتاب مختصراً.

الثامن: في سياق الأحاديث التي انتقدها عليه حافظ عصره أبو الحسن الدَّارَقُطْنِيّ، وغيره من النقاد، والجواب عنها حديثاً حديثاً، وإيضاح أنه ليس فيها ما يخلّ بشرطه الذي حققناه.

التاسع: في سياق أسماء جميع من طُعن فيه من رجاله على ترتيب الحروف، والجواب عن ذلك الطعن بطريق الإنصاف والعدل، والاعتذار عن المصنف في التخريج لبعضهم ممن يقوى جانب القدح فيه؛ إما لكونه تجنب ما طعن فيه بسببه، وإما لكونه أخرج ما وافقه عليه مَنْ هو أقوى منه، وإما لغير ذلك من الأسباب.

العاشر: في سياق فهرست كتابه المذكور باباً باباً، وعدة ما في كل باب من الحديث، ومنه تظهر عدة أحاديثه بالمكرر، أوردته تبعاً لشيخ الإسلام أبي زكريا النووي رضي الله عنه تبركاً به!! ثم أضفت إليه مناسبة ذلك مما استفدته من شيخ الإسلام أبي حفص البُلْقَيني رضي الله عنه، ثم أردفته بسياق أسماء الصحابة الذين اشتمل عليهم كتابه، مرتِّباً لهم على حروف المعجم، وعدّ ما لكل واحد منهم عنده من الحديث؛ ومنها يظهر

تحرير ما اشتمل عليه كتابه من غير تكرير.

ثم ختمت هذه المقدمة بترجمة كاشفة عن خصائصه ومناقبه[1]، جامعة لمآثره ومناقبه، ليكون ذكره واسطة عقد نظامها وسرة مسك ختامها»[2].

وكلٍ فصل من هذه الفصول ـ كما ترى ـ جدير بأن تشدّ إليه الرحال، وتُضرب إليه أكباد الإبل! ولذا كثر اعتناء العلماء بهذا الكتاب؛ لكثرة عوائده، وغزارة فوائده.

والكتاب يقع في مجلد ضخم قرابة (٥٠٠) صفحة كبيرة، فرغه مؤلفه سنة (٨١٣هـ).

والعجيب أن الفقيه الأديب حمدون بن عبد الرحمن الفاسي المالكي المعروف بابن الحاجّ ـ (ت ١٢٣٢هـ) ـ قد نظم «هدي الساري» ثم شرحه في كتابه «نفحة المسك الدراري لقارىء صحيح البخاري»[3].

١٤٧ ـ الواف بآثار الكشاف.

ـ الوقوف على ما في صحيح مسلم من الموقوف = جزء الوقوف.

١٤٨ ـ وهم ابن الجزري في أربعينه: خرج شيخ القراء ابن الجزري لنفسه أربعين حديثاً عشارية، قال فيها ابن حجر: «التقطها من أربعين شيخنا العراقي، وغيَّر فيها أشياء، ووهم فيها كثيراً، وقد بينتُ وهمه في كراسة»[4].

●● أما مصنفاته في علم الرجال والجرح والتعديل، فهي:

ـ أثبات الرجال مما ليس في تهذيب الكمال = ثقات الرجال.

١٤٩ ـ أسماء رجال الكتب = بيان أحوال الرجال الرواة[5]: ذكر فيه

---

(١) أي ترجمة للإمام الجليل البخاري.
(٢) هدي الساري: ص ٣ ـ ٤.
(٣) إتحاف القاري: ص ١٢١.
(٤) فهرس الفهارس: ١/٣٠٥.
(٥) هذه التسمية في نظم العقيان: ص٤٦.

أسماء رجال الكتب التي عمل أطرافها في كتابه «إتحاف المهرة»، لمن لم يذكر في «تهذيب الكمال». شرع فيه، وكتب منه جملة ثم فتر عنه، ولو كمل لجاء في خمس مجلدات.

١٥٠ ـ الإعلام بمن ذكر في البخاري من الأعلام: ذكر فيه أحوال الرجال المذكورين في «البخاري»، وتضمن زيادة على ما في «تهذيب الكمال» للمِزِّي.

ـ ألقاب الرواة = نزهة الألباب في الألقاب.

١٥١ ـ الأوهام التي وقعت للحسيني وأبي زرعة: صنّف الحافظ الحسيني كتابيه: «التذكرة برجال العشرة» و«الإكمال عن من في مسند أحمد من الرجال ممن ليس في تهذيب الكمال». وصنف أبو زرعة ابن الحافظ العراقي كتاباً سماه «ذيل الكاشف» تتبع فيه الأسماء التي في «تهذيب الكمال» ممن أهمله في «الكاشف»، وضمّ إليه من ذكره الحسيني من رجال أحمد، وبعض من استدركه الهيثمي. وعلى هذين الإمامين كان تعقب الحافظ في كتابه هذا الذي يقول عنه: «وقد كنت أفردت الأوهام التي وقعت للحسيني وتبعه عليه ابن شيخنا، في «جزء مفرد» كتب عني بعضه العلامة شيخ الإقراء شمس الدين ابن الجزري ـ لما قدم القاهرة سنة سبع وعشرين وثمانمائة ـ وأعجله السفر عن تكملته. وبلغني أنه ضمّه إلى شيء مما يتعلق بالمسند الأحمدي»[1].

١٥٢ ـ الإيثار بمعرفة رواة «الآثار» لمحمد بن الحسن[2]: وقد ذكره الحافظ في مقدمة كتابه «تعجيل المنفعة» حيث قال: «. . . ثم أتتبع ما في

---

(١) تعجيل المنفعة: ص ٩.

(٢) وفي نظم العقيان: ص ٤٨: «الآثار برجال الآثار لمحمد بن الحسن»، وفي أوله تحريف. ومحمد بن الحسن: هو الإمام الفقيه محمد بن الحسن الشيباني، صاحب الإمام الكبير أبي حنيفة، وناشر علمه، رحمهما الله تعالى.

«كتاب الآثار» لمحمد بن الحسن، فإني أفردته بالتصنيف لسؤال سائل من حذاق أهل العلم الحنفية، سألني في إفراده، فأجبته»[1].

١٥٣ ـ تبصير المنتبه بتحرير المشتبه:

ألف الحافظ الذهبي كتابه «المشتبه في الرجال: أسمائهم وأنسابهم»، وهو كتاب في معرفة ما يشتبه ويتصحّف من الأسماء والأنساب والكنى والألقاب، مما اتفق وضعاً واختلف نطقاً، لكنه أجحف في الاختصار، واكتفى بضبط القلم؛ فصار بذلك كتابه مبايناً لموضوعه، لعدم الأمن من التصحيف فيه، وفاته من أصوله أشياء. فأخذه الحافظ ابن حجر، وضبطه بالحروف على الطريقة المرضية، وزاد ما يُتعجَّب من كثرته مع شدة تحريره واختصاره[2].

وقد وجد الحافظ فيه ـ كما صرح في خطبة كتابه ـ إعوازاً من ثلاثة أوجه:

«أحدها ـ وهو أهمها ـ: تحقيق ضبطه، لأنه أحال في ذلك على ضبط القلم، فما شفى من أَلَم.

ثانيها: إجحافه في الاختصار، بحيث إنه يعمد إلى الاسمين المشتبهين إذا كثُرا فيقول في كل منهما: فلان وفلان وفلان وغيرهم، وهذا لا يروي الغُلَّة ولا يَشْفي العِلَّة، بل يبقي اللبس على المستفيد كما هو، وكان ينبغي أن يستوعب أقلّهما.

وثالثها ـ وفيه ما لا يرد عليه إلاّ أن ذلك من تتمة الفائدة ـ: ما فاته من التراجم المستقلّة التي لم يتضمنها كتابه مع كونها في أصل ابن ماكولا

---

(١) تعجيل المنفعة: ص ٩.

(٢) الرسالة المستطرفة: ص ١١٩.

وذيل ابن نقطة[1] اللذين لخصهما، وزاد من ذيل أبي العلاء الفرضي وغيره ما استدرك عليهما.

فاستخرت الله تعالى في اختصار ما أسهب فيه، وبَسْط ما أجحف في اختصاره، بحيث يكون ما أقتصرُ عليه من ذلك أزيد من حجمه قليلاً»[2].

ثم قال الحافظ: «واعتمدت على نسخة المصنف التي بخطه، وعلى الأصول التي نقل هو منها، وعلى غيرها مما غلب على ظني أنه لم يراجعه حالة تصنيفه، كالأنساب للرُّشاطي ولابن السمعاني...»[3].

وقد ذكر الحافظ الكتب التي طالعها على كتابه هذا، وهي: «الإكمال» لابن ماكولا، في أربع مجلدات... «الذيل على الإكمال» لابن نقطة، في مجلدين. «الذيل على ابن نقطة» لمنصور بن سليم، في مجلد... «الذيل على ابن نقطة» أيضاً لأبي حامد الصابوني في مجلد لطيف. «الذيل على ابن نقطة ومن بعده» للعلامة مُغَلْطَاي، في مجلدين. «المشتبه» للزمخشري، في مجلد. «التصحيف» للعسكري، في مجلد. «المؤتلف والمختلف» للآمدي، في مجلد. «ما لا يؤمن فيه التصحيف من رجال الأندلس» لابن الدباغ، مجلد لطيف. «الأنساب» للرُّشاطي، في ست مجلدات. «الأنساب» لابن السمعاني، في أربع مجلدات. «مختصر الأنساب» لابن الأثير، في ثلاث مجلدات. وكذلك مواد الأصول التي للذهبي، وأيضاً ذيل تقي الدين ابن رافع ـ تلميذ الذهبي ـ على «المشتبه» في جزء قدره عشرة أوراق[4].

---

(١) كتاب ابن ماكولا هو «الإكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف من الأسماء والكنى والأنساب»، وذيل ابن نقطة اسمه «ذيل مشتبه الأسماء والنسب».

(٢) تبصير المنتبه: ١/١ ـ ٢.

(٣) المرجع السابق: ١/٢.

(٤) المرجع السابق: ٤/١٥١١ ـ ١٥١٢.

فهذه زيادة على (٢٧) مجلداً طالعها الإمام الحافظ لكتابة هـذا السفر الجليل.

وبين ابن حجر سبب استدراكه لكثير ممن ليس لهم رواية حديثية فقال: «ولا يستوحش الواقف عليه من استيعابي لكثير من أسماء الشعراء والفرسان في الجاهلية، وما أشبه ذلك ممن ليست لهم رواية؛ فإن غالب من ذكرتُ يأتي ذكرُه في كتب المغازي والسِّيَر والمبتدأ والأنساب والتواريخ والأخبار. ولا يستغني طالب الحديث عن ضبط ما يرد في ذلك من الأسماء، ولو لم يكن لهم رواية، والله تعالى الموفق»[1].

وقد فرغ الحافظ من مصنفه هذا في سابع عشر جمادى الأولى سنة (٨١٦هـ)[2]. والكتاب طبع محققاً في أربع مجلدات تضم (١٥١٥) صفحة.

وقد أثنى العلماء على هذا الكتاب، فوصفه السيوطي بأنه «أجلّ كتب هذا الفن وأتمّها»[3]. وقال العلامة المحدث أحمد شاكر: «اعتمد فيه على الضبط بالكتابة، وزاد زيادات كثيرة على الذهبي وغيره، وهو أوفى كتاب في هذا الباب»[4].

١٥٤ ــ تحرير الميزان: اعتنى الحافظ ابن حجر بكتاب «ميزان الاعتدال» للذهبي، فكتب عليه أربعة كتب: هذا، وتقويم اللسان، ولسان الميزان، وذيل الميزان

وتحرير الميزان: كتاب يشتمل على إصلاح ما وقع له من وهم، وما فاته من ترجمة «تقويم اللسان» فيه مَنْ ذكره مصنف «الميزان» ولم يذكر مستنده في ضعفه. فرغ من مسوّدته سنة (٨٤٧هـ).

---

(١) المرجع السابق: ٤/١٥١٣.
(٢) المرجع السابق: ٤/١٥١٤ ــ ١٥١٥.
(٣) تدريب الراوي: ٢/٢٩٨.
(٤) الباعث الحثيث: ص ٢٢٢ هامش.

١٥٥ ـ تعجيل المنفعة بزوائد رجال الأئمة الأربعة:

وقف الحافظ ابن حجر على مصنَّفٍ للحافظ محمد بن علي بن حمزة الحسيني سمَّاه «التذكرة برجال العشرة» ضمَّ إلى مَنْ في «تهذيب الكمال للمزي» مَنْ في الكتب الأربعة: «الموطأ» و«مسند الشافعي» و«مسند أحمد» و«المسند الذي خرَّجه الحسين بن محمد بن خسرو» من حديث الإمام أبي حنيفة. وعثر ابن حجر في أثناء كلام الحسيني على أوهام صعبة فتعقبها. ثم وقف على تصنيف آخر للحسيني المذكور أفرد فيه رجال أحمد سمَّاه «الإكمال عن من في مسند أحمد من الرجال ممن ليس في تهذيب الكمال»، فتتبع ما فيه من فائدة زائدة على «التذكرة». كذلك وقف على «جزء لطيف» لشيخه الهيثمي، استدرك فيه ما فات الحسيني من رجال أحمد، وفيه أوهام. ثم وقف على تصنيف لأبي زرعة ابن شيخه العراقي سمَّاه «ذيل الكاشف» تتبع الأسماء التي في «تهذيب الكمال» مما أهمله في «الكاشف»، وضمَّ إليه مَنْ ذكره الحسيني من رجال أحمد، وبعضَ من استدركه الهيثمي؛ وصيَّر ذلك كتاباً واحداً، واختصر التراجم فيه، قلّد فيه الحسيني والهيثمي في أوهامهما، وأضاف ـ من قِبَله ـ أوهاماً أخرى[1].

قال الحافظ بعد ذلك: «وقد تعقبت جميع ذلك مبيناً محرراً، مع أني لا أدعي العصمة من الخطأ والسهو، بل أوضحت ما ظهر لي، فليوضح من يقف على كلامي ما ظهر له، فما القصد إلاَّ بيان الصواب طلباً للثواب»[2].

ثم تعقب الحافظ ابنُ حجر قولَ الحسيني في «خطبة التذكرة» بخمسة مسائل قيمة[3]، وقال بعد ذلك مبيناً غرضه من كتابه ومنهجه فيه:

«فلما رأيت كتاب الحسيني[4] أحببت أن ألتقط منه ما زاد[5]، لينتفع به من أراد معرفة حال ذلك الشخص؛ فلذلك اقتصرت على رجال

(١) باختصار من «خطبة تعجيل المنفعة»: ص ٢ ـ ٤.
(٢) تعجيل المنفعة: ص ٤.
(٣) المرجع السابق: ص ٤ ـ ٦.
(٤) أي: التذكرة برجال العشرة.
(٥) أي عن الكتب الستة.

الأربعة[1]، وسمَّيته: «تعجيل المنفعة بزوائد رجال الأئمة الأربعة».

وعزمي أني أتتبع ما في كتاب «الغرائب عن مالك» الذي جمعه الدارقطني، فإن فيه من الأحاديث مما ليس في «الموطأ» شيئاً كثيراً، ومن الرواة كذلك. ثم أتتبع ما في «معرفة السنن والآثار» للبيهقي، من الرجال الذين وقع ذكرهم في روايات الشافعي مما ليس في «المسند»[2]. ثم أتتبع ما في «كتاب الزهد» لأحمد، فألتقط منه ما فيه من الرجال مما ليس في «المسند»[3]، فإنه كتاب كبير، يكون في قدر ثلث المسند مع كبر المسند، وفيه من الأحاديث والآثار مما ليس في المسند شيء كثير. ثم أتتبع ما في «كتاب الآثار» لمحمد بن الحسن، فإني أفردته بالتصنيف لسؤال سائل من حذاق أهل العلم الحنفية، سألني في إفراده فأجبته، وتتبعته، واستوعبت الأسماء التي فيه.

فمن كان في «التهذيب» اقتصرت على اسمه فقط، وقلت: هو في التهذيب، ومن زاد عليه ذكرت ما وقفت عليه من حاله، ملخَّصاً.

وبانضمام هذه المذكورات يصير «تعجيل المنفعة» إذا انضم إلى رجال «التهذيب» حاوياً ـ إن شاء الله تعالى ـ لغالب رواة الحديث في القرون الفاضلة، إلى رأس الثلاثمائة»[4].

وبهذا تتضح أهمية الكتاب وجلالته في بابه، وهو مطبوع في مجلد ضخم في (٥٦٨) صفحة، وفيه (١٧٣٢) ترجمة.

فرغ مصنفه من تعليقه في يوم عاشوراء من المحرم سنة (٨٣٥هـ)، ثم وقف على «الإكمال» للحسيني، فألحق في كتابه «تعجيل المنفعة» ما وجد في «الإكمال» من مدح وقدح في الرجال، وفرغ من تجريده بمدينة حلب في رمضان سنة (٨٣٦هـ)[5].

---

(١) هم أئمة المذاهب رضي الله عنهم.
(٢) يعني مسند الشافعي.
(٣) أي مسند الإمام أحمد.
(٤) تعجيل المنفعة: ص ٨ ـ ٩.
(٥) المرجع السابق: ص ٥٦٨.

ثم حرَّره حالة قرأه عليه الحافظ السخاوي، ووصل إلى ترجمة «هاني الأعور»[1]، وأعجله الموت عن تحرير باقيه، فنُقل من المسوَّدة بعد وفاته، كما قال السخاوي[2].

١٥٦ ــ التعريف الأوحد بأوهام من جمع رجال المسند.

١٥٧ ــ تقريب التهذيب:

اختصره من كتابه «تهذيب التهذيب» وذكر فيه رجال مؤلفات أصحاب الكتب الستة، فأصبح فيه زيادات على رجال الكتب الستة:

(١) رجال: الأدب المفرد.
(٢) خلق أفعال العباد.
(٣) جزء القراءة خلف الإمام.
(٤) جزء رفع اليدين؛ أربعتها للبخاري.
(٥) رجال: مقدمة صحيح مسلم.
(٦) رجال: المراسيل.
(٧) فضائل الأنصار.
(٨) كتاب الناسخ والمنسوخ.
(٩) كتاب القدر.
(١٠) كتاب التفرد.
(١١) كتاب المسائل.
(١٢) مسند مالك؛ سبعتها لأبي داود.
(١٣) كتاب الشمائل للترمذي.
(١٤) مسند علي.
(١٥) مسند مالك.

---

(١) أي إلى ص ٤٢٩، ترجمة رقم (١١٣٠).
(٢) تعجيل المنفعة: ص ٥٦٨، والهامش.

(١٦) عمل اليوم والليلة.

(١٧) خصائص علي؛ أربعتها للنسائي.

(١٨) كتاب التفسير لابن ماجه.

وفيه زيادة فصل في «بيان المبهمات من النسوة» على ترتيب من روى عنهن، رجالاً ونساءً.

وفي «التقريب» من المزايا ما لم يكن في غيره من سائر الكتب التي جمعت الرجال:

(١) تلخيص الكلام على الراوي، بما يعرِّفه ويميزه، مع بيان ما له وما عليه من جرح أو تعديل، بعبارة قصيرة، جامعة محررة.

(٢) ضبط ما يقع من الأسماء والألقاب والكنى والأنساب، بالحرف غالباً.

(٣) انفرد بذكر طبقة الراوي.

(٤) صدَّره بمقدمة ذكر فيها ألفاظ مراتب الجرح والتعديل[١].

وقد أشار الحافظ إلى ذلك في خطبة كتابه، وذكر اثنتي عشرة مرتبة للجرح والتعديل، وحصر طبقات التراجم في اثنتي عشرة طبقة[٢].

والكتاب يقع في مجلدين كبيرين في (١١٨٤) صفحة، وقد فرغ مصنفه من «الأسماء» في ثامن شهر ربيع الأول سنة (٨٢٦هـ)[٣]. ثم ألحق به الكنى والأنساب والألقاب وما أشبهها، والنساء والمبهمات من النسوة.

وهو كتاب عظيم جليل، لا يستغني عنه باحث، ولقد وصفه السخاوي بأنه «عجيب الوضع».

١٥٨ ــ تقويم اللسان: اختصر فيه «لسان الميزان».

---

(١) مقدمة محقق «التقريب» صفحة (ح) مع بعض التصرف.

(٢) انظر خطبة الكتاب: ١/٣ ــ ٦.

(٣) تقريب التهذيب: ٢/٣٨٧.

١٥٩ ـ تهذيب التهذيب:

هو تهذيب تهذيب الكمال في أسماء الرجال. وكتاب «الكمال في أسماء الرجال» للحافظ عبد الغني بن عبد الواحد المقدسي ـ (ت ٦٠٠هـ) ـ في رجال الكتب الستة، ويعتبر أصلاً لمن جاء بعده من الكتب في هذا الباب، ويقع في أربع مجلدات.

فجاء الحافظ المِزِّيّ ـ (ت ٧٤٢هـ) ـ فهذَّبه في كتابه «تهذيب الكمال في أسماء الرجال»، في اثني عشر مجلداً[١]، وهو المُجْمَع ـ كما قال التاج السبكي ـ على أنه لم يصنف مثله[٢].

وقد كثرت مختصرات «تهذيب الكمال»، ومنها:

«الكاشف» للذهبي: وتراجم الكاشف ـ كما يقول ابن حجر ـ: «إنما هي كالعنوان، تتشوَّق النفوس إلى الاطلاع على ما وراءه»[٣].

و «تذهيب تهذيب الكمال» أيضاً للذهبي: وهو كما يقول ابن حجر: «أطال فيه العبارة، ولم يَعْدُ ما في التهذيب غالباً، وإن زاد ففي بعض الأحايين وفيات بالظن والتخمين، أو مناقب لبعض المترجمين، مع إهمال كثير من التوثيق والتجريح، اللذين عليهما مدار التضعيف والتصحيح»[٤].

وأحسن مختصرات «تهذيب الكمال» وأصحها وأكملها وأكثرها فوائد كتاب «تهذيب التهذيب» للحافظ ابن حجر.

وقد بيَّن الحافظ ما في «تهذيب الكمال» من إعواز، وما يتطلبه من

---

(١) فهو ثلاثة أضعاف «الكمال»، لا كما يُظَنّ أنه أصغر حجماً منه.

(٢) الرسالة المستطرفة: ص ٢٠٨.

(٣) و (٤) خطبة تهذيب التهذيب: ١/٣. ولتهذيب الكمال مختصرات أخرى: لأبي بكر بن أبي المجد الحنبلي (ت ٨٠٤هـ)، وشمس الدين محمد بن علي الدمشقي (ت ٧٦٥هـ) وأضاف إليه ما في الموطأ، والقاضي تقي الدين أحمد بن شهبة (ت ٨٥١هـ)، وغيرهم. انظر: مقدمة محقق: «تقريب التهذيب» صفحة (و).

تهـذيب واختصار، ممـا كان بـاعثاً لـه على تهذيبـه، وبين طريقتـه في ذلك فقال:

«هـذا وفي التهذيب عـدد من الأسماء لم يعـرّف الشيـخ[1] بشيء من أحوالهم، بل لا يزيد على قوله: روى عن فـلان، روى عنه فـلان، أخرج لـه فلان، وهـذا لا يروي الغُلَّة ولا يشفي العِلَّة. فـاستخـرت الله تعـالى في اختصار التهذيب على طريقة أرجو الله أن تكون مستقيمة: وهو أنني أقتصـر على ما يفيد الجرحِ والتعديل خـاصة، وأحذف منه ما أطـال به الكتـاب من الأحاديث التي يخرِّجها من مرويـاته العـالية من المـوافقات والأبـدال وغير ذلك من أنواع العلوّ، فإن ذلك بالمعاجم والمشيخـات أشبه منـه بموضـوع الكتاب، وإن كان لا يلحق المؤلف من ذلك عاب[2]، حاشا وكلاّ، بل هـو ـ والله ـ العـديم النظيـر، المطلع النحـرير، لكن العمـر يسيـر، والـزمـان قصير، فحذفت هذا جملة، وهو نحو ثلث الكتاب»[3].

ثم بيَّن الحـافظ أن المِزِّي قصـد استيعاب شيـوخ صـاحب التـرجمـة واستيعـاب الرواة عنـه، ورتب ذلك على حـروف المعجم، وأن هـذا شيء لا سبيـل إلى استيعابـه، خاصـة في أمثـال الثـوري والـطيـالسي والبخـاري وأبـي زرعـة الرازي وغيـرهم، ممن زاد عـدد شيـوخ كـل واحـد منهم على الألف، فكانت طريقة ابن حجر ما بيَّنه بقوله: «فأقتصر من شيـوخ الرجـل، ومن الرواة عنه ـ إذا كـان مكثراً ـ على الأشهـر والأحفظ والمعروف. فـإن كانت الترجمة قصيرة، لم أحذف منها شيئاً في الغالب. وإن كانت متوسـطة اقتصرت على ذكر الشيوخ والرواة الذين عليهم رقم في الغالب. وإن كـانت طـويلة اقتصـرت على من عليـه رقم الشيخين مـع ذكـر جمـاعــة غيـرهم.

---

(١) أي الحافظ المزي.

(٢) العاب والعيب: العار.

(٣) خطبة «تهذيب التهذيب»: ١/٣ ـ ٤.

ولا أعدل عن ذلك إلاَّ لمصلحة، مثل أن يكون الرجل قد عرف من حاله أنه لا يروي إلاَّ عن ثقة، فإنني أذكر جميع شيوخه أو أكثرهم، كشعبة ومالك وغيرهما»[١].

وفي الترجمة الواحدة يذكر الحافظ أكبر شيوخ الرجل وأسندهم وأحفظهم، إن تيسر معرفة ذلك، إلاَّ أن يكون للرجل ابن أو قريب؛ فيقدمه في الذكر غالباً، ويحرص على أن يختم الرواة عنه بمن وصف بأنه آخر من روى عن صاحب الترجمة. كل هذا خلافاً للمزي الذي رتَّب شيوخ الرجل والرواة عنه على الحروف، فلزم منه تقديم الصغير على الكبير.

ولم يحذف من رجال «تهذيب الكمال» أحداً، بل ربما زاد فيهم مَنْ هو على شرطه، وهذه الترجمة الزائدة ميَّزها بأن كتب اسم صاحبها واسم أبيه بالأحمر[٢]. وأما زياداته في أثناء التراجم فيقول في أولها «قلت»، فجميع ما بعد «قلت» من زيادة ابن حجر إلى آخر الترجمة[٣].

كذلك ألحق في كتابه هذا ما التقطه من «تذهيب التهذيب» للذهبي من زيادات، وما ذكره صاحب «الكمال» وحذفه المزي، وزاد تراجم كثيرة التقطها من الكتب الستة مما ترجم المزي لنظيرهم؛ تكملة للفائدة. وانتفع بكتاب «إكمال تهذيب الكمال في أسماء الرجال» للإمام العلامة مُغَلْطاي، مع عدم تقليده له في شيء مما ينقله، وإنما استعان به، وكشف الأصول التي عزا النقل إليها، فما وافق أثبته، وما باين أهمله[٤].

فجمع بذلك مقصود «تهذيب الكمال» للمزي، وضمَّ إليه مقصود

---

(١) تهذيب التهذيب: ١/ ٤ ـ ٥.

(٢) وفي «تهذيب التهذيب» المطبوع، تولى الناشر تمييز ما زاده ابن حجر من تراجم بكلمة «تمييز» عند بداية كل ترجمة منها.

(٣) خطبة الكتاب: ١/٥.

(٤) المرجع السابق: ١/٧.

إكمـالهللعلامة مُغَلْطاي، وزاد عليهما في كثيـر من التـراجم مـا يتعجب من كثرته لديهما، ويستغرب خفاؤه عليهما. وجاء الكتاب في نحو «ثلث حجم الأصل»[1].

وقد رضي المؤلف عن كتابـه هذا، وقـال في نهايـة خطبتـه: «فلو لم يكن في هذا المختصر إلاَّ الجمع بين هذين الكتـابين الكبيرين[2] في حجم لطيف؛ لكان معنى مقصوداً، هـذا مع الزيادات التي لم تقع لهمـا، والعلم مواهب، والله الموفق»[3].

فـرغ منه في يـوم الأربعاء تـاسع جمـادى الآخرة سنـة (٨٠٨هـ)[4]، ويقع بخط المؤلف ــ على ما قـاله السخـاوي ــ بثلاث مجلدات كسـلاسل الذهب، وبخط غيره بست مجلدات.

وقد طبع في اثني عشر مجلداً، فيها (٥١٢٨) صفحة.

وقيمة الكتاب أشهر من أن تذكـر، وأوضح من أن تشهـر، فقد أقبـل عليـه طلاب الحـديث وحملته، وورد منـاهله العذبـة الزاخـرة رجال العلم وأئمته. وهو أحـد أشهر كتب الجـرح والتعديـل، ومن مفاخـر هذا الإمـام الجليل.

١٦٠ ــ توضيح «المشتبه» للأزدي، في الأنساب[5].

١٦١ ــ ثقـات الـرجـال ممن لم يُـذكـر في تهـذيب الكمـال[6]: لم يكمل، كتب منه نحو ثلاث مجلدات من خمسة، وقال مرة: إنه من عشرة.

---

(١) خطبة تقريب التهذيب: ١/٣.

(٢) يعني كتابَـي المزي ومغلطاي.

(٣) تهذيب التهذيب: ١/٧.

(٤) تهذيب التهذيب: ١٢/٥٢٠.

(٥) هدية العارفين: ١/١٢٩، وسمّاه في كشف الظنون: ص ١٦٩١: «مشتبه النسبة».

(٦) جـاءت تسميته في نـظم العقيان: ص ٤٦: «أثبـات الرجـال ممـا ليس في تهـذيب =

١٦٢ ـ ذيل الميزان: يشتمل على نحو من ألفي ترجمة، زيادة على الأصل، بيض أوائله.

١٦٣ ـ رجال السنن الأربعة.

١٦٤ ـ فوائد الاحتفال في بيان أحوال الرجال المذكورين في صحيح البخاري زيادة على ما في تهذيب الكمال[1]: ويقع في مجلد ضخم.

١٦٥ ـ لسان الميزان:

«ميزان الاعتدال» للحافظ الذهبي من أجمع ما أُلِّف في أسماء المجروحين، وقد ذيَّل عليه الحافظ العراقي، ثم جاء الحافظ ابن حجر فالتقط من «الميزان» من ليس في «تهذيب الكمال» وضمَّ إليه ما فاته في الرواة وتراجم مستقلة، مع انتقاد وتحقيق.

يقول الحافظ في ذلك: «وقد كنت أردت نسخه[2] على وجهه، فطال عليّ، فرأيت أن أحذف منه أسماء من أخرج له الأئمة الستة في كتبهم أو بعضهم، فلما ظهر لي ذلك استخرت الله تعالى، وكتبت منه ما ليس في تهذيب الكمال...»[3]. فرجال التهذيب تراجمهم مستوفاة في التهذيب، وقد جرَّد الحافظ أسماءهم وسردها في فصل مستقل، وبيَّن فائدة هذا التجريد[4].

وقد زاد الحافظ تراجم مستقلة كثيرة، وميَّز ذلك بكتابة حرف (ز)

= الكمال». ولفظة: «أثبات» وضعها المحقق بدل لفظة الأصل «ثبات»، وهذه الأخيرة هي الصواب، لكنها تحرفت عن «ثقات»، والله أعلم.

(١) انظر رقم (١٥٠) ص ٤٣٣، فلعل هو نفسه.

(٢) أي نسخ: «ميزان الاعتدال».

(٣) خطبة لسان الميزان: ١/ ٤.

(٤) لسان الميزان: ٧/ ١٦٧ ـ ٥٣٥.

قبالة الترجمة، وما زاده شيخه العراقي فقبالته حرف (ذ). وأما زيادة ابن حجر في أثناء الترجمة، فإنه يختم كلام الذهبي بكلمة (انتهى)، وكل ما بعدها فللحافظ ابن حجر.

وللحافظ فيه تعقبات قيمة، واستدراكات جليلة، وإيضاحات هامة، مع التمحيص والتحرير، وغير ذلك مما سبق وذكرناه[1].

فرغ منه في شهر جمادى الأولى سنة (٨٥٢هـ) بالقاهرة، سوى ما ألحقه بعد ذلك، وسوى الفصل الذي جرَّده، وهم الذين ذكرهم الذهبي في «ميزانه»، وحذفهم الحافظ في «لسانه»[2].

وهو مطبوع في سبع مجلدات، تقع في (٣٢٥٩) صفحة.

وقد وصف الأديب العالم إبراهيم بن سيد عباس الحيدرابادي «لسان الميزان» بقوله: «وقد صُنِّف في هذا الفن[3] كتب كثيرة، ولكن ما جاء الزمان بمثل «لسان الميزان»، الذي ينبىء عن معرفة الرجال بصحة الإتقان، كما لا يخفى على ذوي العرفان بهذا الفن أولي البصائر والإتقان، فإنه كتاب يجلّ عن أن يصفه الواصفون، أو أن يمدح صاحبه ـ لغزارة اطلاعه على هذا الفن ـ المادحون، وكلاهما غني عن أن يقرِّظه المقرِّظون، أو أن يطري في شأن أحدهما المطْرون»[4].

وقال الأديب شمس الدين النواجي[5]:

وعُنِيتَ بالذهبيّ في «ميزانه» ... بالنَّقد فيما بَهْرَجُوهُ وزَيَّفُوا
حركتَ فيه له «لساناً» مُرْهَفاً ... كالسيف يرهبُهُ الحُسامُ المرهَفُ

---

(١) انظر ص ٢٣٣ ـ ٢٤٠: من هذا الكتاب.
(٢) لسان الميزان: ١٦٧/٧.
(٣) أي الجرح والتعديل.
(٤) لسان الميزان: ٩/٧، آخر المجلد.
(٥) الجواهر والدرر: ٤٣٩.

لا غَرْو أن يقضي بقطعِ نزاعهمْ فاللّفظ عَضْبٌ واليَرَاعُ مثقَّفُ

وقد اختصر «اللسان» في مجلد كبير عبدُ الرحمن بن إدريس بن محمد الحسيني الفاسي (ت ١٢٣٤هـ)[1]، وانتقى العلامة محمد عبد الرؤوف بن علي المُناوي (ت ١٠٣١هـ) من «اللسان» كتاباً بيَّن فيه الموضوع والمنكر والمتروك، رتبه كالجامع الصغير[2].

١٦٦ ـ المهمل من شيوخ البخاري.

١٦٧ ـ نزهة الألباب في الألقاب: مؤلف بديع يبحث في ألقاب المحدثين[3]، وقد ألَّف في ذلك جماعة، وكتاب الحافظ هذا أحسنها وأخصرها وأجمعها، جمع فيه خلاصة من سبقه، وزاد فيه. والكتاب مطبوع.

وقد زاد عليه تلميذه السخاوي زوائد كثيرة، ضمَّها إليه في تصنيف مستقل.

وفي المعاجم والمشيخات[4]:

ـ تجريد أسانيد الكتب المشهورة والأجزاء المنثورة = المعجم المفهرس.

١٦٨ ـ تلخيص ثبت البرهان الحلبي: لخصه في رحلته إلى حلب سنة (٨٣٦هـ).

١٦٩ ـ جزء من المشيخة الفخرية: التقط الحافظ هذا الجزء وفيه أزيد من ثمانين حديثاً من العوالي، فيها ستة أحاديث موافقات وباقيها

---

(١) الرسالة المستطرفة: ١٤٦. (٢) تحذير المسلمين: ص ٤١.

(٣) وهو فنّ هام من علوم الحديث، ومن لا يعرف الألقاب قد يظنها أسامِيَ، فيجعل مَنْ ذُكر باسمه في موضع، وبلقبه في آخر، شخصين!

(٤) المعجم في اصطلاح المحدثين: ما تذكر فيه الأحاديث على ترتيب الصحابة أو الشيوخ أو البلدان أو غير ذلك. والغالب أن يكونوا مرتبين على حروف الهجاء. انظر: الرسالة المستطرفة: ص ١٣٥؛ تدريب الراوي: ٤١/١ هامش؛ الفضل المبين: ص ١٠٦. والمشيخات: هي التي تشتمل على ذكر الشيوخ الذين لقيهم المؤلف وأخذ عنهم، أو أجازوه وإن لم يلقهم. انظر: الرسالة المستطرفة: ص ١٤٠؛ تدريب الراوي: ١١٤/١ هامش؛ الفضل المبين: ١٠٦..

أبدال. وقرأه على الإمام العلامة الفيروزابادي في ربيع الأول سنة (٨٠٠هـ) بزبيد.

١٧٠ ـ فهرس ابن البُلْقِيني :

ابن البلقيني هو عبد الرحمن بن عمر البلقيني، استجاز له الحافظ أبو العباس بن حجي من جماعة كابن أميلة وابن كثير والصلاح ابن أبي عمر، أخرج له عنهم ابن حجر «فهرساً بالكتب المشهورة»، فكان يحدث بها[١].

١٧١ ـ فهرسة مستعجل وعلالة متحمل[٢].

ـ فهرست المرويات = المعجم المفهرس.

١٧٢ ـ المجمع المؤسس للمعجم المفهرس:

اعتنى فيه بجمع أسامي شيوخه، وتدوين أخبارهم، وقد أشار الحافظ في مقدمة «معجمه» إلى محتواه والغاية منه، وأبان عن منهجه في تنظيمه وتبويبه؛ فقال:

« . . . أما بعد: فإن كثيراً من سلف المحدثين اعتنوا بجمع أسامي شيوخهم وتدوين أخبارهم، فتغايرت مقاصدهم في الترتيب، فرأيت أن أحذو حذوهم، وأسير تلوهم؛ لأتذكر عهدهم، وأجدد لهم الرحمة بعدهم، فجمعت أسامي شيوخي على المعجم مرتِّباً، وقسمتهم على قسمين مهذِّباً:

فالأول: من حملت عنه على طريق الرواية.

والثاني: من أخذت عنه شيئاً في المذاكرة من الأقران ونحوهم.

وقد قسمتهم من حيث العوالي إلى خمس مراتب». وهذه المراتب هي:

الأولى: من حدثه عن مثل أبي الحسن الواني والقاسم ابن عساكر وأبي العباس ابن الشحنة، ونحوهم. وعلامتهم (ط)، إشارة إلى أنهم الطبقة الأولى.

الثانية: من حدثه عن أصحاب «السِّلَفِيّ» وأصحاب «شهدة»

---

(١) ذيول تذكرة الحفاظ ٢٨٢ ـ ٢٨٣، فهرس الفهارس ٢/ ٧٣١ ـ ٧٣٢.

(٢) فهرس الفهارس ٢/ ٩٣٠.

بالسماع، وبإجازة واحدة خاصة، وعلامتهم (طب).

الثالثة: من حدثه عن أصحاب ابن عبد الدايم، والنجيب، وابن علاق، ونحوهم. وعلامتهم (طس)، إشارة إلى أنهم الطبقة الوسطى.

الرابعة: من حدثه عن أصحاب الفخر ابن البخاري، وابن القواس، والأبرقوهي، ونحوهم، ممن كان يمكنه الأخذ عنهم ولو بالإجازة، وقد حصلت له عن أكثرهم، لكن بطريق العموم. وعلامتهم (طص)، إشارة إلى أنهم الطبقة الصغرى.

الخامسة: من أشار إليه ممن أخذ عنه في المذاكرة شيئاً ما لغرض، أو نوعاً من العلم، أو إنشاداً أو فائدة، أو من ليس عنده عنه إلا الإجازة، أو الشيء اليسير بالسماع من أهل الطبقة الخامسة؛ من غير استيعاب لهم. وهم جلّ أهل القسم الثاني الذي أفرده في هذا الكتاب، وترك العلامة لهم. ولم يدخل في القسم الأول أحداً ممن أجاز عامّاً.

وأشار إلى أنه ذكر في ترجمة كل منهم جميع مسموعه عليه، وإن لم يستوعبه في بعضهم. وهذا يشير إلى أنه قد جمع في «معجمه» تراجم من أخذ عنهم سواء كانوا من أشياخه أو رفاقه وأقرانهم ونحوهم، مسنداً مسموعه عنهم إليهم.

وإن زاد فصلاً في «معرفة الشيوخ الذين أجازوا عموماً، وفي إجازاتهم بعض خصوص، كقيد البلد ونحوها؛ لتستفاد ترجماتهم»، مشيراً إلى أنه ليس من أصل موضوع الكتاب، وإنما هو زائد عليه، لعدم اعتداده بالرواية والإجازة العامة.

ومع ترتيبه على حروف الهجاء فإنه يسوق أولاً تراجم الرجال، وبعد أن يفرغ منهم في ذاك الحرف يتبعهم بتراجم النساء. كما أنه قدَّم في حرف الميم من اسمه واسم أبيه وجده (محمد) تبركاً، وفي ذلك يقول:

«ذكر من اسمه محمد، وكذا أبوه وجده؛ تبركاً بالاسم الشريف»[1].

وقد ابتدأ الحافظ تأليف معجمه «بعدن» سنة (٨٠٦هـ)، وفرغ منه سنة (٨٢٩هـ)[2]، لكنه كان يعود إليه منقِّحاً ومعدِّلاً، ومضيفاً، في أحايين كثيرة، حيث أرخ فيه وفيات البعض بسنوات متأخرة عن (٨٢٩هـ)، فمثلاً: أرخ وفاة الكلوتاتي بسنة (٨٣٥هـ)، وسبط ابن العجمي وغيره بسنة (٨٤١هـ)، وابن خطيب الناصرية بسنة (٨٤٣هـ)، وغير ذلك.

والكتاب يقع في مجلدين.

١٧٣ ــ المشيخة الباسمة للقبابي وفاطمة: خرَّج فيها أسماء شيوخ زين الدين عبد الرحمن بن عمر القبابي[3] ثم المقدسي الحنبلي، بالسماع والإجازة، وتراجمهم، وما سمع منهم من المرويات. وأضاف إلى ذلك بيان مرويات الشيوخ الذين أجازوا للمسندة المعمَّرة فاطمة[4] بنت صلاح الدين خليل بن أحمد بن محمد بن أبي الفتح الكناني المقدسي العسقلاني؛ لأنها شاركت القبابي المذكور في الكثير منهم.

---

(١) باختصار من: ابن حجر مؤرخاً: ص ٢٩٩ ــ ٣٠٢؛ تغليق التعليق: ١/٢٠٧ ــ ٢٠٨؛ مقدمة محقق «تقريب التهذيب» صفحة (م).

(٢) ونبهت إحدى النسخ المأخوذة عن «معجمه» إلى أنه «كمل في شعبان سنة ٨٣٢هـ».

(٣) هو زين الدين عبد الرحمن بن نجم الدين عمر القبابي ــ بكسر القاف وموحدتين، نسبة لقباب حماة. كما في الضوء اللامع ــ ثم المقدسي الحنبلي. حياته (٧٤٩ ــ ٨٣٨هـ). سمع من التقي السبكي والعلائي وابن جماعة، وخلائق تجمعهم المشيخة التي جمعها ابن حجر. وأخذ عنه خلائق منهم الحافظ. شذرات الذهب: ٧/٢٢٧ ــ ٢٢٨.

(٤) هي فاطمة بنت خليل بن أحمد بن محمد بن أبي الفتح، الشيخة المسنِدة المعمَّرة الحنبلية الأصيلة. شاركت القبابي في أكثر مروياته، وهي التي جمعها الحافظ في المشيخة المذكورة. توفيت (٨٣٣هـ). شذرات الذهب: ٧/٢٠٤.

ورتب الأسماء على حروف المعجم، ثم ذيَّل ذلك بفصل في الإشارة إلى المرويات التي تستفاد من التراجم التي أوردها. فرغ منها سنة (٨٣٧هـ)، وتقع في (٣٠) ورقة. وجملة ما في هذه المشيخة (١٦٦) شيخاً.

١٧٤ ــ مشيخة البرهان الحلبي: البرهان الحلبي هو برهان الدين أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن خليل، الشيخ الإمام الحافظ، شيخ الحديث بالبلاد الحلبية بلا مدافع. رحل وطوَّف وأخذ عن الأعيان. مشايخه في الحديث نحو المائتين، ومن روى عنه شيئاً من الشعر دون الحديث بضع وثلاثون، وفي العلوم غير الحديث نحو الثلاثين. وقد جمع الكلَّ الحافظ ابن حجر في هذه المشيخة، في مجلد[1].

ولد سنة (٧٥٣هـ) وتوفي سنة (٨٤١هـ) رحمه الله.

وابن حجر من كبار من أخذ عن البرهان، وقد امتحنه الحافظ مرة، فأدخل عليه شيخاً في حديث مسلسل؛ رامَ بذلك اختباره، فتنبه البرهان لذلك، وقال لبعض خواصه: «إن هذا الرجل ــ يعني ابن حجر ــ لم يلقني إلَّا وقد صرت نصف رجل»[2]!!

١٧٥ ــ مشيخة ابن الكويك الذين أجازوا له: ابن الكُوَيْك هو محمد بن محمد بن عبد اللطيف بن أحمد بن محمود المعروف «بابن الكويك» الربعي التكريتي ثم الاسكندري، نزيل القاهرة، الشافعي، المسند المحدث. ولد سنة (٧٣٧هـ)، أجاز له المزي والبِرْزالي والذهبي وبنت الكمال في آخرِين، وهو آخر من حدث عنهم بالإجازة في الدنيا.

تفرَّد بآخر عمره بالرواية عن أكثر مشايخه، فتكاثر عليه الطلبة

(١) البدر الطالع: ١/ ٢٨ ترجمة البرهان الحلبي، الإعلان بالتوبيخ: ص ١١٩. وكذا جمع «مشيخته» النجم ابن فهد في مجلد ضخم.

(٢) البدر الطالع: ١/ ٣٠.

ولازموه. ولازمه ابن حجر، وقرأ عليه كثيراً من المرويات بالإجازة والسماع، وخرج له «مشيخة» بالإجازة وعوالي السماع. توفي سنة (٨٢١هـ) وقد أناف على الثمانين[١].

١٧٦ ــ مشيخة ابن أبي المجد الذين تفرد بهم: في جزء ضخم.

وابن أبي المجد هو: علي بن محمد بن محمد بن أبي المجد الدمشقي، ولد سنة (٧٠٧هـ). قال ابن حجر: «سمع من ابن تيمية، والقاسم بن عساكر، وإسحاق الآمدي، وعلي بن مظفر الوداعي، ووزيرة، والحجّار، ومحمد بن مشرف، في آخرين تفرد بالسماع منهم، وخرجت له عنهم مشيخة». توفي سنة (٨٠٠هـ)[٢].

١٧٧ ــ المعجم الكبير للشامي:

الشامي هو إبراهيم بن أحمد بن عبد الواحد التنوخي، الشامي، برهان الدين، أحد كبار شيوخ ابن حجر[٣].

خرَّج الحافظ لشيخه التنوخي هذا «معجم شيوخه»[٤]، ففرح به، وصار يتذكر مشايخه وعهده القديم؛ فانبسط في التحديث بعد أن كان متعسراً فيه.

والمعجم يقع في أربعة وعشرين جزءاً حديثية، في مجلد ضخم، عن أكثر من (٥٠٠) شيخ بالسماع والإجازة.

١٧٨ــ المعجم للحرة مريم:

---

(١) انظر: شذرات الذهب: ٧/١٥٢ ــ ١٥٣؛ نظم العقيان: ص ٥٠؛ تغليق التعليق: ١/١٩٨.

(٢) إنباء الغمر: ٣/٤٠٧ــ٤٠٨؛ شذرات الذهب: ٦/٣٦٥ــ ٣٦٦؛ نظم العقيان: ص ٥٠.

(٣) انظر ترجمته: ص ١١١ من هذا الكتاب.

(٤) وقد خرّج له غير المعجم: «المائة العشارية» و «الأربعين العشارية» كما سبق ذكره.

هي مريم بنت أحمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم الأَذْرَعي[1]. قال ابن حجر: «سمعتْ الكثير من علي بن عمر الواني، وأبي أيوب الدبوسي، والحافظ قطب الدين الحلبي، وناصر الدين ابن سمعون، وغيرهم. وأجاز لها التقي بن الصائغ، وغيره من المسنِدين بمصر والحجاز، وغيره من الأئمة بدمشق. خرَّجتُ لها معجماً في مجلدة، وقرأت عليها الكثير من مسموعاتها، وأشياء كثيرة بالإجازة»[2].

وفاتها سنة (٨٠٥هـ)، وعاشت (٨٤) سنة. والمعجم المذكور مؤلف من ثلاثة عشر جزءاً في (٨٠٠) ورقة.

١٧٧ ـ المعجم المفهرس = المقاصد العليات في فهرست المرويات (وهو أيضاً نفس: تجريد أسانيد الكتب المشهور والأجزاء المنثورة):

هو فهرس لمرويات الحافظ، ذكر فيه أسانيده في الكتب والأجزاء والمسانيد، كما ذكر شيوخه في أثناء ذلك. وسمّاه: «المقاصد العليات في فهرست المرويات»، يعني بالقراءة أو السماع أو الإجازة أو المشافهه، أو الكتابة. قال السخاوي: «ووجدت بخطه أيضاً تسميته «بالمقاصد العلية في فهرست الكتب والأجزاء المروية».

انتفع الناس به، وهو مرتب على ستة أبواب:

الأول: في الكتب المبوبة.

الثاني: في المسانيد.

الثالث: في فنون علم الحديث.

الرابع: في المشيخات والمعاجم.

---

(١) نسبة إلى «أذرعات»، وتسمّى اليوم «درعا»؛ إحدى مدن سورية الجنوبية، محاذية للأردن. ومريم المذكورة أصلها من «أذرعات»، ومولدها ووفاتها بالقاهرة.

(٢) إنباء الغمر: ١٢٦/٥ ـ ١٢٧؛ شذرات الذهب: ٥٤/٧.

الخامس: في الأجزاء المنثورة مرتب على حروف المعجم بأشهر أسمائها.

السادس: في الكتب التي لا أسانيد فيها غالباً، من كتب التفسير والقراءات والفقه وعلوم الحديث والتواريخ والأدبيات.

قال الحافظ في خطبته: «الحمد لله الذي نزل أحسن الحديث، والصلاة والسلام على سيدنا محمد المصطفى على كل قديم وحديث، وعلى آله وصحبه الذين ساروا في نصرة دينه السير الحثيث. أما بعد:

فقد تكرر سؤال بعض الإخوان في تجريد أسانيدي للكتب المشهورة والأجزاء المنثورة؛ فجمعت ذلك من مواضع متفرقة، وبوَّبته أبواباً، فبدأت من الكتب المبوَّبة، بالمطولات منها ثم بالمختصرات، وبالجوامع منها ثم بالمفرقات. ثم تلوت بالمسانيد كذلك، ثم بفوائد الشيوخ، ورتبتها على حروف المعجم، ثم بالمعاجم والمشيخات، ثم بالأربعينات، ثم بالتواريخ وما في معناها... إلخ. وآخره: فضائل الاسكندرية لأبي علي بن الصباغ أخبرنا أبو العباس أحمد بن الحسن...»[1].

وهو كتاب عظيم النفع، جليل القدر، يقع في مجلد ضخم، مخطوط تحت عنوان «المعجم المفهرس».

• • •

رابعاً ـ مصنفاته في التاريخ والتراجم والسِّيَر

ـ أرجوزة في نظم وفيات الأعيان = نظم وفيات الأعيان للذهبي.

١ ـ الإصابة في تمييز الصحابة:

ألَّف كثير من العلماء والأئمة في «معرفة الصحابة» وبيان أخبارهم

---

(١) تغليق التعليق: ١/٢١١ ـ ٢١٢. وقد أورد السخاوي طائفة يسيرة من عيون مرويات شيخه في «الجواهر: ص ١٧٨ ـ ٢٠٣».

وأحوالهم، ومن أشهر تلك المؤلفات: «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر، و«أسد الغابة في معرفة الصحابة» لابن الأثير الجزري[1]، واختصره الذهبي في «تجريد أسماء الصحابة» مع زيادات، وعلَّم لمن ذُكر غلطاً ولمن لا تصح صحبته، لكنه لم يستوعب ولا قارب، كما قال ابن حجر[2].

ثم جاء ابن حجر فألَّف كتابه «الإصابة» وهو أكثر تلك التآليف جمعاً وتحريراً، وإن كانت التراجم فيه مختصرة، جمع في كتابه ما كتبه السابقون، وأمعن البحث والتنقيب في مراجع الصحابة الأولى من كتب السنَّة وتاريخ الرواة والمغازي والسير؛ فاستخرج منها أسماء صحابة كثيرين لم يطلع عليها سابقوه ممن ألفوا في هذا المجال.

وقد رتب كتابه على حروف المعجم، وقسم كل حرف أربعة أقسام، فقال: «فالقسم الأول: فيمن وردت صحبته بطريق الرواية عنه أو عن غيره، سواء كانت الطريق صحيحة أو حسنة أو ضعيفة، أو وقع ذكره بما يدل على الصحبة بأي طريق كان.

القسم الثاني: فيمن ذكر في الصحابة من الأطفال الذين ولدوا في عهد النبي ﷺ لبعض الصحابة من النساء والرجال، ممن مات ﷺ وهو في دون سنِّ التمييز؛ إذ ذكر أولئك في الصحابة إنما هو على سبيل الإلحاق، لغلبة الظن على أنه ﷺ رآهم، لتوافر دواعي أصحابه على إحضارهم أولادهم عنده عند ولادتهم ليحنكهم ويسميهم ويبرِّك عليهم. لكن أحاديث

---

(١) جمع فيه كثيراً من التصانيف المتقدمة، إلَّا أنه تبع مَنْ قبله فخلط من ليس صحابياً بهم، وأغفل كثيراً من التنبيه على كثير من الأوهام الواقعة في كتبهم. وعدد الصحابة فيه (٧٥٥٤) صحابياً. انظر: الإصابة: ١/ ٤ ــ ٥.

(٢) الإصابة: ١/ ٤.

هؤلاء عنه من قبيل «المراسيل» عند المحققين من أهل العلم بالحديث. ولذلك أفردتهم عن أهل القسم الأول.

القسم الثالث: فيمن ذُكر في الكتب المذكورة[1] من المخضرمين الذين أدركوا الجاهلية والإسلام، ولم يرد في خبر قط أنهم اجتمعوا بالنبي ﷺ ولا رأوه، سواء أسلموا في حياته أم لا، وهؤلاء ليسوا أصحابه باتفاق من أهل العلم بالحديث، وإن كان بعضهم قد ذكر بعضهم في كتب معرفة الصحابة، فقد أفصحوا بأنهم لم يذكروهم إلاَّ بمقاربتهم لتلك الطبقة، لا أنهم من أهلها.

القسم الرابع: فيمن ذكر في الكتب المذكورة على سبيل الوهم والغلط، وبيان ذلك البيان الظاهر، الذي يعوَّل عليه على طرائق أهل الحديث، ولم أذكر فيه إلاَّ ما كان الوهم فيه بيِّناً، وأما مع احتمال عدم الوهم فلا، إلاَّ إن كان ذلك الاحتمال يغلب على الظن بطلانه.

وهذا القسم الرابع لا أعلم من سبقني إليه ولا مَنْ حام طائر فكره عليه، وهو الضالَّة المطلوبة في هذا الباب الزاهر، وزبدة ما يمخضه من هذا الفن اللبيبُ الماهر»[2].

وقد صدَّر كتابه بثلاثة فصول هامة نفيسة: الأول: في تعريف الصحابي. الثاني: في الطريق إلى معرفة كون الشخص صحابياً. الثالث: في بيان حال الصحابة من العدالة[3].

وقد زاد الحافظ على ما في «تجريد أسماء الصحابة» للذهبي، وأصله «أسد الغابة»، وعلى ما في أصله فقط؛ أسماء كثيرة من الصحابة، وميَّز ذلك بحرف (ز) مثبت في آخر الترجمة.

---

(١) أي الكتب التي جمعت أسماء الصحابة، وقد ذكرها الحافظ في مقدمة كتابه: ١/٣ ـ ٤.

(٢) الإصابة: ١/٦ ـ ٩ مع بعض الاختصار. (٣) الإصابة: ١/ ١٠ ـ ٢٣.

وقد مكث الحافظ في تأليف كتابه هذا نحو الأربعين سنة، وكانت الكتابة فيه بالتراخي، وكتبه في المسوّدات ثلاث مرار، وقد قال في «آخر الأسماء» مبيناً ذلك: «انتهت كتابتي مع ما في الهوامش في ثالث ذي الحجة عام سبعة وأربعين، وكان الابتداء في جمعة في سنة تسع وثمانمائة، فقارب الأربعين، لكن كانت الكتابة فيه بالتراخي، وكتبته في المسوّدات ثلاث مرات من أجل الترتيب الذي اخترعته، وهذه المرة الثالثة، وقد خرجت النسخة مسوّدة أيضاً لكثرة الإلحاق، ولم يحصل اليأس من إلحاق أسماء أخر، والله المستعان»[1].

وقد مات الحافظ قبل عمل «المبهمات»[2].

والكتاب مطبوع ويقع في أربع مجلدات ضخمة[3] ـ وبذيله الاستيعاب لابن عبد البر ـ عدد صفحاتها (٢٢٣٤) صفحة.

وأما عدد التراجم في «الإصابة»: فقد بلغت الأسماء (٩٤٧٧)، والكنى (١٢٦٨)، والنساء (١٥٥٢)، ومجموعها (١٢٢٩٧) نفساً[4]، بما في ذلك المكرر، للاختلاف في اسم الصحابي، أو شهرته بكنية أو لقب أو نحو ذلك. ولذا فهو يحتاج إلى تحرير عدد الصحابة فيه على الحقيقة بدقة.

---

(١) الإصابة: ٣/٦٤٤. آخر حرف الياء، بعد ترجمة «يونس الأنصاري».

(٢) وقد ذكر السخاوي أن «الإصابة» لم يكمل، في حين يذكر البقاعي أنه كمل، وكلاهما من تلاميذ ابن حجر وملازميه. انظر: الإعلان بالتوبيخ: ص ٩٣، ١٧٥ ملحق. والذي نراه أن السخاوي أراد بقوله «لم يكمل»، أنه لم يعمل «المبهمات» في حين أن البقاعي أراد أنه كمل بحيث لم يعتبر «المبهمات» من أصل الكتاب. والله تعالى أعلم.

(٣) وفي طبعة أخرى محققة جاء في ثمان مجلدات، مستقلاً ليس بذيله كتاب آخر.

(٤) وعند محقق «تغليق التعليق»: ١/٢٠١: «وقد جمع مؤلفه فيه تاريخ حوالي ألف وخمسمائة صحابي»! وهو خطأ كبير.

٢ ـ الإعلام بمن سمِّي محمداً قبل الإسلام: رد الحافظ على ابن خالويه في كتاب «ليس»، وبعده السهيلي في «الروض الأُنُف» حيث قال: «لا يعرف في العرب من تسمى محمداً قبل النبي ﷺ إلاَّ ثلاثة..» وذكرهم. فردَّ الحافظ بقوله: «وهو حصر مردود، وقد جمعت أسماء من تسمى بذلك في «جزء مفرد»، فبلغوا نحو العشرين، لكن مع تكرر في بعضهم، ووهم في بعض، فيتلخص منهم خمسة عشر نفساً»[١].

٣ ـ الإعلام بمن ولي مصر في الإسلام.

٤ ـ إنباء الغمر بأنباء العمر[٢]:

يعتبر من أهم مؤلفات ابن حجر التأريخية؛ لكونه الكتاب الوحيد له الذي اشتمل على الحوادث والتراجم. وقد بناه على الحوليات، فيذكر ما جرى في كل سنة من حوادث، ثم يلحق بها الوفيات في تلك السنة، مترجماً للأعيان منهم. وقد ابتدأ به من سنة (٧٧٣هـ)، وانتهى بسنة (٨٥٠هـ). وهو ـ كما ذكر الحافظ في خطبته للكتاب[٣] ـ يحسن أن يكون من حيث الحوادث ذيلاً على ذيل تاريخ الحافظ ابن كثير الذي انتهى في «ذيل تاريخه» إلى هذه السنة ـ ٧٧٣هـ ـ، ومن حيث الوفيات أن يكون ذيلاً على الوفيات التي جمعها الحافظ تقي الدين ابن رافع.

ويبدو أن الحافظ لم يشرع في تدوين حولياته حال وقوع حوادثها أو حدوث وفياتها، إنما كان يحدث ـ غالباً ـ بعد أمد طويل على وقوعها. وكان دائب الرجوع إلى حولياته، منقِّحاً ومهذِّباً ومعدِّلاً بالإضافة أو الحذف، وترك كتابه في المسوَّدة. وكان ينتوي إخراج كتابه في جزأين:

---

(١) فتح الباري: ٦/٥٥٦ ـ ٥٥٧، وقد ذكر خلاصة ذلك؛ فانظره ثَمَّ.

(٢) وقد جاء في بعض المصادر «بأبناء العمر» هكذا «بأبناء» جمع ابن، ونحن نرجح «بأنباء» جمع نبأ؛ لأن الكتاب وضع للتأريخ والتراجم، وليس للتراجم فقط.

(٣) إنباء الغمر: ١/٤.

الأول ينتهي بنهاية القرن الثامن، ويفتتح الثاني بسنة (٨٠١هـ)، باعتبار بداية قرن هجري جديد.

أما وقت ابتدائه في تأليف كتابه هذا فلا يعرف على وجه التحديد، وإن كان أقدم تاريخ ورد في المتن مؤرخاً لمادته يرجع إلى «شعبان سنة ٨٣٦هـ». وأما الفراغ منه فبعد سنة (٨٥٠هـ)، أو في نهايتها[1].

والحوليات ليست متناسقة من حيث عدد الصفحات، فقد تطول حوليَّة وتقصر أخرى، وتكون ثالثة وسطاً بينهما، وكذا التراجم قد تطول وقد تقصر. وهذا طبيعي لأنه يخضع لتوفر المصادر، والمعلومات المدوَّنة في الحولية، وأهميتها حسب نظر المؤلف وجدارتها بالتسجيل. ومثل ذلك يقال بشأن التراجم، فقد يكون العَلَم المترجَم ذا مكانة عالية، وتتوافر عنه المعلومات، في حين تشحُّ في جانب عَلَم آخر.

وقد رتب الحافظ كتابه على مقدمة تتبعها معلومات نظمت على الحوليات المتتابعة الإفراد، ابتداءً بحولية (٧٧٣هـ) ـ وهي سنة مولده ـ وانتهاء بحولية (٨٥٠هـ) ـ قبل وفاته بعامين ـ مراعياً فيها أن تذكر الحوادث وتراجم الوفيات كل منفصلة عن الأخرى، فيفصل بين الحوادث والتراجم في الحولية الواحدة بعنوانات مثل: «ذكر من مات في سنة...»، «ذكر من مات سنة... من الأعيان»، ونحو ذلك.

ويلحق بهذا البناء الداخلي للحوليات تنظيم التراجم والوفيات في الحولية الواحدة على حروف المعجم، واستيعابه لرواة الحديث خصوصاً.

وقد تنوعت مصادره في كتابه، فشملت: المشاهدة والمشاركة،

---

(١) وقد ذكر في شذرات الذهب: ٧/٢٦٧، في أحداث سنة (٨٥٠هـ) قائلاً: «فيها تم تاريخ ابن حجر إنباء الغمر». وهذا الكلام ليس دقيقاً؛ إذ إن ابن حجر لم ينصّ على أنه سيتوقف به عند سنة (٨٥٠هـ)، فالكتاب مبني على الحوليات، والمؤلف يستمر في الكتابة ما دام في العمر بقية.

المشافهة، المساءلة والمكاتبة، والإجازات، والسماعات، الوثائق والخطوط، مجامع الشيوخ والطلبة، المؤلفات السابقة.

وقد اعتنى الحافظ بذكر مصادره، سواء في صدر كتابه أو بالإشارة إليها من خلال حولياته، ويشير إلى موضع النقل، وبدايته ونهايته. كما أنه عامل تلك النقول بالنقد والتمحيص، وكانت له نظرة شمولية للمصادر التي ينقل عنها، سواء فيما أورده بشأنها في صدر كتابه، أو في الترجمة لمصدره إذا ما صادفت وفاته الفترة الزمانية لحوليات كتابه، أو في عبارات ناعتة للمصدر تأتي ـ غالباً ـ لصيقة المنقول عنه.

كما أنه لم يخلِ تراجمه ـ غالباً ـ من إصدار حكم على ذويها، بياناً لحالاتهم جرحاً وتعديلاً: فيتكلم على هيئة المترجم له، وأخلاقه وسجاياه، ومتانة دينه، ومذهبه، وقدراته العقلية ومواهبه، ومكانته العلمية.

كذلك أصدر العديد من التقاويم والأحكام على الكثيرين من الملوك والسلاطين والأمراء وأرباب المناصب في ظل الإدارة المملوكية، من حيث الشجاعة والحزم، والخبرة بالأمور، وعلو الهمة، والرجوع إلى الحق والدين، وعدم الجور، أو التكالب على جمع المال، ونحو ذلك.

وقد كان الحافظ في ذلك من المؤرخين المنصفين في النقد، يظهر ذلك من حرصه على نقل آراء الموافقين والمخالفين في المترجم له؛ نشداناً لاكتمال صورته لدى مطالع تاريخه. وهو طابع عام يشيع في كتاباته التاريخية، خاصة «الإنباء»، كما يظهر ذلك في حرصه على مناقشة مصادره فيما أوردته من تقاويم وأحكام مناقشة منهجية؛ نشداناً للحق والصواب[1].

---

(١) انظر بالتفصيل لدراسة «الإنباء»: ابن حجر مؤرخاً: ص ١١٣ ـ ٢٧٠. وقد عكس الكوثري ذلك، فاتّهم ابنَ حجر بأنه نشأ على معاناة الشعر والاسترسال في المديح والهجاء «وورث من ذلك ـ منذ عهد شبابه ـ التبكيت وتطلُّب مواضع العلل من تراجم الرجال والحطّ من مقاديرهم إذا أراد، وإن كانوا من أصحابه وشيوخه وممن =

والكتاب مطبوع في (٩) أجزاء تضمها خمس مجلدات، تشتمل على (٣٢٨٣) صفحة.

٥ ـ الأنوار بخصائص المختار ﷺ.

٦ ـ الإيناس بمناقب العباس: يقع في مجلد، في المسوَّدة.

ـ تاريخ المائة التاسعة = ذيل الدرر الكامنة.

٧ ـ تجريد «تذكرة الحفاظ» للذهبي: رتب الذهبي كتابه «تذكرة الحفاظ» على الطبقات، فجعله في إحدى وعشرين طبقة، ابتدأ فيه بالصحابة وانتهى به إلى زمانه، ولم يقصد الذهبي استيعاب جميع الحفاظ في كتابه هذا[1].

وقد جرَّد الحافظ منه مَنْ ليس في «تهذيب الكمال»، قال السخاوي: «وقد أُفرد الحفاظُ بالتأليف، وأجمع كتاب وقفتُ عليه في ذلك ـ مع إعواز كثير ـ كتاب الحافظ أبي عبد الله الذهبي، رتبه على الطبقات، وأفرد صاحب الترجمة[2] منه من ليس في «تهذيب الكمال» في مجلد رأيته، واستدرك بعضاً مما فاته»[3].

= تقدمهم لا سيَّما البارعين منهم»؛ ذيول تذكرة الحفاظ: ص ٣٢٧ ـ هامش. وهذا حكم جائر على الحافظ، يردُّه واقع حاله وسيرته وكتاباته، وإنما ورث النقد من تضلُّعه في علم الحديث والجرح والتعديل، الذي أصبح فيه عمدة من جاء بعده.

(١) «الذهبي» لبشار عواد: ص ١٦٢.

(٢) يعني شيخه ابن حجر.

(٣) الجواهر والدرر: ص ٣٦؛ الإعلان بالتوبيخ: ص ١٠٢؛ «الذهبي» لبشار عواد: ص ١٦٤، وقد ذكر كثير ممن ترجم لابن حجر أن له كتاب «طبقات الحفاظ» في مجلدين، وأغلب الظن أنه هذا ـ أي تجريد التذكرة ـ أو «ترتيب التذكرة» الآتي، والله أعلم. انظر: شذرات الذهب: ٧/٢٧٢؛ نظم العقيان: ص ٤٦؛ كشف الظنون: ص ١٠٩٧.

٨ ــ تجريد «الوافي» للصَّفَدي[١]: جرَّده الحافظ في ابتداء أمره، ثم إنه مات وهو يجرِّده مرة أخرى. وذكر في خطبته أنه لم يكتب من ترجمة الشخص إلَّا اسمه ونسبه وشهرته، ومولده إن ظفر به، ووفاته.

قال السخاوي: «بحيث لا تزيد الترجمة على سطر غالباً، ولا يكتب فيه من التهذيب». ثم قال: «وقد رأيت هذا الكتاب في مجلد ضخم بخط صاحبنا ابن فهد الهاشمي، وأخبرني أنه كتبه من نسخة يمنية في مجلدين غاية في السقم».

وتوجد من الكتاب نسخة بخط ابن فهد المكي، وتقع في (٢٦٩) ورقة.

٩ ــ ترتيب «تذكرة الحفاظ» للذهبي: رتَّبه على حروف المعجم، فقد قال السخاوي ــ بعد أن ذكر تجريد التذكرة لشيخه ــ: «بل قرأت بخطه أنه رتب الكتاب على حروف المعجم. بيَّض منه نصفه الأول»[٢].

١٠ ــ ترجمة ابن تيمية.

١١ ــ ترجمة النووي.

١٢ ــ تعريف الفئة بمن عاش من هذه الأمة مائة.

١٣ ــ تلخيص مغازي الواقدي.

١٤ ــ توالي التأسيس بمعالي ابن إدريس:

هو ترجمة قيمة للإمام الشافعي[٣]، وقد قال الحافظ في خطبة الكتاب: «أما بعد: فقد قصدتُ في هذا التأليف إيراد شيء من مناقب

---

(١) هو خليل بن أَيْبَك الصفدي (٦٩٦ ــ ٧٦٤هـ)، وكتابه «الوافي بالوفيات» في نحو (٣٠) مجلداً، في التراجم.

(٢) الجواهر والدرر: ص ٣٦.

(٣) ذكره محقق «تغليق التعليق»: ــ ١/١٩٥ ــ ضمن مصنفات ابن حجر في «علوم الحديث» وهو خطأ.

الإمام المُطَّلبي، ناصر الحديث النبوي، أبي عبد الله محمد بن إدريس الشافعي رضي الله عنه»[1]. ثم ذكر من صنف في مناقب هذا الإمام[2].

وقد رتب الكتاب على بابين: الباب الأول: في إيراد الأحاديث عن الإمام الشافعي، التي اختصت بتلقيبها «سلسلة الذهب». وأورد فيه الحافظ ما رواه هو عن كبار أصحاب الشافعي[3]. والباب الثاني[4]: في ترجمة الإمام الشافعي، وفيه عشرة فصول[5].

وقد فرغ منه كما قال هو: «يوم الجمعة ثاني شعبان أو ثالثه سنة (٨٣٥هـ) خمس وثلاثين وثمانمائة للهجرة النبوية»[6].

١٥ ــ الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة:

كتاب تراجم لأعلام قرن هجري كامل، ابتداءً من سنة (٧٠١هـ) حتى (٨٠٠هـ). **أرّخ فيه للقرن الثامن الهجري من خلال التراجم، جرياً على عادته في الشمول النوعي، حيث لم يقصر تراجمه على نوع واحد من الأعلام، سواء في الجنس أو الأصل، أو في المذهب أو في المنصب، أو في الوظيفة أو في الحرفة، أو في العلم والمعرفة؛ إنما ترجم فيه لكل الفئات ــ تقريباً ــ من سلاطين وملوك، وخلفاء وأمراء، وعلماء وفقهاء، ونواب سلطنة وولاة أقاليم، وكتّاب وقضاة، ونواب حكم، ومباشرين،**

---

(١) توالي التأسيس: ص ٢٥.

(٢) المرجع السابق: ص ٢٦ ــ ٢٧.

(٣) استغرق هذا الباب من صفحة ١٩١ ــ ٢٦٣ من الكتاب.

(٤) وقد عكس المحقق ــ كما ذكر في ص ٢٤ ــ ترتيب البابين، فوضع الثاني أولاً، وأخّر الأول؛ وعلّل ذلك بأن الشباب قد يسأم من قراءة الأسانيد في صدر الكتاب، فيعزف عن إكماله، وينصرف عن قراءة الباب الثاني ــ وهو مناقب الإمام ــ وهو اجتهاد لا يوافق عليه، فليس من حق المحقق أن يغير منهج المؤلف.

(٥) توالي التأسيس: ص ٣٣ ــ ١٨٧.

(٦) المرجع السابق: ص ٢٦٤ و ٢٦٥.

ومدرسين، ووعّاظ وخطباء، وشعراء، مع الاعتناء برواة الحديث خاصة، وقد برر ذلك بقوله: «وعنيت برواة الحديث النبوي، فذكرت من اطلعت على حاله، وأشرت إلى بعض مروياته، إذ الكثير منهم شيوخ شيوخي، وبعضهم أدركته، وبعضهم لم أدركه ولم ألقه، وبعضهم لقيته ولم أسمع منه، وبعضهم سمعت منه»[1].

وقد راعى في تراجمه الشمول المكاني، فترجم للمصريين وغيرهم، فأتت تراجمه في نحو (٤٥٠٠) ترجمة، سوى ما زاده تلامذته من استدراكات أتت في هوامش الكتاب أو اختلطت بأصله، لتبلغ حوالي (٩٠٠) ترجمة[2]. وقد اعتمد فيه على كتب من سبقه كالصفدي والذهبي.

فرغ الحافظ من تأليفه في مجلدة سنة (٨٣٠هـ)، ثم رجع إليه مضيفاً وملحِقاً إلى سنة (٨٣٧هـ)، ومع ذلك فإنه لم يكمل الغرض من الإلحاق لبقايا من الترجمات في الزوايا التي لم يستوعبها.

ويبدو ــ كما يقول السخاوي ــ أنه كان ينتوي تخريجه في أربع مجلدات، لكن لم يتيسَّر له ذلك، حيث بيَّض في مجلدتين فقط.

هذا والكتاب مطبوع متداول في أربع مجلدات.

١٦ ــ ذيل الدرر الكامنة = تاريخ المائة التاسعة:

بيَّن الحافظ موضوع كتابه هذا ومنهجه فيه، فقال في مقدمته: «أما بعد: فإني كنت علَّقت تاريخاً خاصاً بأعيان المائة الثامنة ــ التي ولدت في أثنائها ــ فلما شارف أن يكمل رأيت المائة التاسعة التي تليها قد دخل منها أكثر من الثلث، فأردت أن أضع على ذلك الأول ذيلاً يشتمل على الأعيان المختصة بالثاني، فالتمس مني بعض الأحبة الأعزة أن أجعل هذا الثاني

---

(١) الدرر الكامنة: ١/ ٤.

(٢) انظر بالتفصيل الدراسة القيِّمة «للدرر الكامنة» للدكتور محمد كمال الدين في كتابه «ابن حجر مؤرخاً»: ص ٢٧٣ ــ ٢٨٠.

على السنين، ليتحقق عليه استيعاب المائة التاسعة؛ فأجبت سؤاله، وأوردتهم بهذا التعليق سيَّما من اطلعت على خبره. ولم أتبسط لتراجم الشاميين اكتفاء بما كتبه لي مؤرخها[1] حفظه الله تعالى، آمين».

ومن هذا يتضح أن الحيز الزماني للكتاب هو الثلث الأول من القرن التاسع الهجري، ولقد احتوى الكتاب على مقدمة واثنتين وثلاثين حولية، ابتداءً بحولية سنة (٨٠١هـ) وانتهاءً بحولية (٨٣٢هـ). وجاءت الوفيات فيه منظمة على حسب السنوات المتعاقبة، ليتحقق على مطالع الكتاب استيعابه، وإن كان ابن حجر لم يستوعب الوفيات في كل حولية.

والملاحظ على الكتاب أن تنظيم الوفيات فيه جاء وفق التسلسل الهجائي في الحوليات المتقدمة فقط من الكتاب، ولم يكن كذلك في باقي الحوليات، حيث أخلَّ بهذا الترتيب التنظيمي. كما أنه لا يتحقق للكتاب شمول زماني، حيث إن عدد الترجمات الواردة فيه قليلة، وعددها (٦٠٤) ترجمات، كذلك لا يتحقق فيه التوازن بين حولياته. يظهر ذلك من خلال نظرة في سنوات (٨٠١ ـ ٨٠٥هـ) حيث كانت عدد الوفيات فيها على التوالي (٣٩، ٤٤، ٥٣، ٢٢، ٢٥)، ووصلت في سنة (٨٣٠هـ) إلى (٨) تراجم، وفي (٨٣١هـ) إلى (١١) ترجمة، وفي (٨٣٢هـ) إلى (٧) تراجم فقط.

وبالجملة فهذا الكتاب يضيف بُعْداً جديداً في كتب ابن حجر التأريخية، ويتكامل مع غيره من الكتب مثل «إنباء الغمر» و «الدرر الكامنة» و «رفع الإصر»، وغيرها[2].

والكتاب يقع في (٢٢٢) صفحة بخط مؤلِّفه.

---

(١) أغلب الظن أنه يشير إلى مؤرخ الشام في عصره ابن قاضي شهبة.

(٢) انظر بالتفصيل: ابن حجر مؤرخاً: ص ٢٨١ ـ ٢٩١.

١٧ ــ ذيل على «تذكرة الحفاظ» للذهبي: ذيًّل على التذكرة عدد من العلماء ومنهم الحافظ ابن حجر، قال السخاوي ــ بعد أن ذكرهم ــ: «وذيَّل عليه شيخنا بكراسة فيها ثمانية وعشرون نفساً»[(١)].

١٨ ــ ذيل على ذيل الحسيني: ألف الحافظ الذهبي كتابه «العبر في خبر من عبر»، وذيّل عليه أيضاً في كتابه الآخر «ذيل العبر في خبر من عبر». وقد ذيّل الحافظ شمس الدين الحسيني على «ذيل العبر للذهبي»، كما ذيّل عليه آخرون. وذيّل ابن حجر على «ذيل الحسيني» هذا، وابتدأ به من سنة (٧٦٣هـ) فكتب هذه السنة وبعض التي تليها[(٢)].

ولعل الحافظ رأى أن الأفضل كتابة تأريخ مستقل، فاتجه لذلك وكتب مصنَّفه «إنباء الغمر» الذي ابتدأ فيه من سنة (٧٧٣هـ).

١٩ ــ ذيل على شرح ابن ناصر الدين المسمى «بالتبيان»:

نظم حافظ الشام الشمس ابن ناصر الدين (ت ٨٤٢هـ) «تذكرة الحفاظ» للذهبي بمنظومة سماها «بديعة البيان في وفيات الأعيان»، وشرحها في مجلد سمّاه «التبيان لبديعة البيان». فذيّل ابن حجر عليه، وذكر من أغفلهم صاحب «التبيان»، وسرد طبقاتهم، مع الإشارة إلى تراجمهم.

٢٠ ــ الرحمة الغيثية بالترجمة الليثية، ويسمى أيضاً «مرحمة الغيث بترجمة الليث»:

ترجمة متكاملة للإمام الكبير الحجة الليث بن سعد المتوفي (١٧٥هـ)، أفردها الحافظ في جزء لطيف إجابة لسؤال بعض الإخوان في ذلك، وقال ابن حجر في خطبته: «أما بعد: فإن جماعة من الإخوان

---

(١) الإعلان بالتوبيخ: ص ١٠٢؛ الجواهر والدرر: ص ٣٧ وذكر فيه أنه وقف على هذه الكراسة، ومن أولئك الذين زادهم شيخُه الفيروزابادي، كما في الجواهر والدرر: ص ٨٠.

(٢) «الذهبي» لبشار عواد معروف: ص ١٧٨ ــ ١٨٠؛ وأيضاً: ص ١٧٢.

التمسوا إفراد مختصر من أخبار فقيه الديار المصرية أبي الحارث الليث بن سعد . . . فأجبت طلبتهم، وصوَّبت رغبتهم، وجمعت في هذه الأوراق ما تيسّر من ذلك؛ لما فيه من نشر السنة، ورتبتها على ثمانية أبواب على عدد أبواب الجنة»[1].

فذكر نسبه ونسبته ومولده وبلده، ثم طلبه للعلم ورحلته وأسماء بعض شيوخه، ثم مهارته في شبابه وتحرّيه أسباب المروءة ومكارم الأخلاق، تلا ذلك الكلام في ثناء الأئمة عليه وبيان سعة حفظه، وبيان عظيم قدره عند الخلفاء وغيرهم، ومعرفة بعض الآخذين للحديث والفقه عنه، ثم بيان وقت وفاته وعمره، وختم بالباب الثامن في سياق عوالي حديثه، وانتقى منها أربعين حديثاً، مع الكلام على رجالها وبيان من أخرجها من الأئمة.

فرغ الحافظ من تأليف هذه الترجمة في الثالث عشر من شعبان سنة (٨٣٤هـ)، وقد علقها في يومين فقط[2]!! وهي مطبوعة وتقع في حوالي (٩٠) صفحة مع هوامش التحقيق.

٢١ ــ رفع الإصر عن قضاة مصر:

ترجم فيه لقضاة مصر منذ الفتح الإسلامي لها إلى آخر المائة الثامنة، وجعلهم طبقات على السنين، وذكر في ترجمة كل واحد اسمه ولقبه ونسبته ومولده ومذهبه ونوباته في القضاء، وقد بيّن ذلك في مقدمة كتابه هذا فقال:

«أما بعد: فقد وقفت على رجز في ذكر من ولي القضاء بالديار المصرية، من نظم الأديب المشهور شمس الدين محمد بن دنيال الكمال، نظمه لقاضي القضاة بدر الدين أبي عبد الله محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة. سُئلت أن أترجم لمن تضمنه الرجز، فأجبت إلى

(١) الرحمة الغيثية: ص ٦١.

(٢) المرجع السابق: ص ١٥١.

ذلك، وجعلتهم طبقات على السنين، منذ فتحت مصر إلى آخر المائة الثامنة، وذكرت في ترجمة كل واحد منهم ما وقفت عليه من اسمه ولقبه ومنتهى غاية نسبه إن احتيج إلى ذلك، وذكر مولده ومذهبه وحليته، والوقت الذي ولي فيه والذي صُرف فيه، والوقت الذي مات فيه، بحسب ما اتصل إلى علمي من ذلك»[١].

والكتاب يضيف بُعداً تاريخياً جديداً في أزمنة متقدمة لكتابات ابن حجر التأريخية، وهو لم يستوعب «قضاة مصر» لأنه التزم بالترجمة لمن أورده «ابن دنيال» في رجزه. كما أنه لم يستوعب في كثير من التراجم عدد نوبات القضاء والاستقرار فيه.

وعلى عادته لم يخلِ تراجم «رفع الإصر» من النقد التأريخي أو الأدبي[٢]. والكتاب يقع في مجلد ضخم، وقد طبع قديماً.

٢٢ ــ الزهر النضر في نبأ الخضر: تحدث فيه عن الخضر عليه السلام، فذكر نسبه، وما جاء في كونه نبياً، وما ورد في تعميره حتى زمن النبي ﷺ، وأخباره قبل البعثة وبعدها، وأقوال من ذهب إلى أنه مات. والحافظ يميل إلى أنه نبي، وأنه قد مات. والكتاب قيم، وهو مطبوع.

٢٣ ــ زوائد «طبقات الشافعية الوسطى» للتاج السُّبْكِي[٣]: قال السخاوي: «وألحق شيخنا بهوامش نسخته من «الوسطى» لابن السبكي زوائد، أفردتها في مجلد».

٢٤ ــ السيرة النبوية[٤].

---

(١) رفع الإصر: ١/١ نقلاً عن ابن حجر مؤرخاً: ص ٢٩٢ ــ ٢٩٣.

(٢) انظر بالتفصيل: ابن حجر مؤرخاً، ص ٢٩٤ ــ ٢٩٨.

(٣) هو عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي، تاج الدين، قاضي القضاة، المؤرخ الفقيه المحدث النظار، توفي شهيداً بالطاعون، حياته (٧٢٧ ــ ٧٧١هـ). من مؤلفاته: طبقات الشافعية الكبرى والوسطى والصغرى.

(٤) انظر: الرسالة المستطرفة: ص ١٩٩.

٢٥ ــ شرح نظم السيرة للعراقي: نظم الحافظ العراقي «السيرة النبوية» في ألف بيت، وشرع ابن حجر في شرحها، فكتب من ذلك اليسير. قال السخاوي ــ وهو يتكلم عن نظم السيرة للعراقي ــ: «وكذا شرح شيخنا بعض أبيات من أوله، وتممت عليه، وأرجو تحريره وإبرازه»[١].

ــ طبقات الحفاظ = تجريد تذكرة الحفاظ.

ــ عشاريات الصحابة = الإصابة[٢].

٢٦ ــ القصد الأحمد فيمن كنيته أبو الفضل واسمه أحمد: كان الحافظ يكنى «بأبي الفضل»، كناه بذلك والده، وقد أحب ابن حجر هذه الكنية، وجمع ــ لذلك ــ هذا الكتاب.

٢٧ ــ مختصر البداية والنهاية لابن كثير:

«البداية والنهاية» للحافظ ابن كثير كتاب قيّم شهير، اختصره الحافظ ابن حجر، ولعله قصد بذلك أن يصل هذا المختصر بكتابه «إنباء الغمر»؛ فيتكاملا في الشمول الزماني، حيث إن «الإنباء» ابتدأ من حيث انتهى ابن كثير في «ذيل تاريخه».

٢٨ ــ مختصر المولد النبوي للعراقي: ألف الحافظ العراقي كتابه في المولد النبوي وسمّاه «المورد الهنيّ في المولد السنيّ». واختصره تلميذه ابن حجر.

ــ مرحمة الغيث بترجمة الليث = الرحمة الغيثية بالترجمة الليثية.

٢٩ ــ المُعَمَّرين في الإسلام: ذكره السخاوي عند كلامه على من ألّف في المعمَّرين، فقال... أو على المعمَّرين في الجاهلية وصدر الإسلام، وهم غير واحد من الإخباريين. أو في الإسلام كالذهبي في

---

(١) الإعلام بالتوبيخ: ص ٩٠؛ نظم العقيان: ص ٤٩.

(٢) قال السخاوي ــ في معرض الحديث عن مجلس إملاء شيخه ــ: «... ثم أملى بعدها عشاريات الصحابة المسمى بالإصابة»، وانظر: ص ٢٥٥ من هذا الكتاب.

كراسة، وشيخنا»[1].

٣٠ ــ منتخب تاريخ قزوين: كتاب «التدوين في تاريخ قزوين» للإمام أبي القاسم الرافعي القزويني[2]، انتقى منه ابن حجر عدة كراريس في السفرة الحلبية سنة (٨٣٦هـ)[3].

٣١ ــ منتخب رحلة ابن رُشَيد: ابن رشيد محمد بن عمر السبتي إمام بالعربية، تام العناية بصناعة الحديث، عارف بالقراءات والتفسير والتاريخ، (ت ٧٢١هـ). كان رحّالة، سمع من خلائق ضمَّنهم رحلته المشرقية التي سمّاها: «ملء العيبة فيما جمع بطول الغيبة». قال ابن حجر: «صنف كتاب (الرحلة المشرقية) في ست مجلدات، فيه من الفوائد شيء كثير، وقفت عليه وانتخبت منه»[4].

٣٢ ــ منتقى من تاريخ ابن خلدون.

٣٣ ــ منتقى من تاريخ ابن عساكر.

٣٤ ــ نظم وفيات الأعيان للذهبي: ألّف الحافظ الذهبي كتابه «الإشارة إلى وفيات الأعيان والمنتقى من تاريخ الإسلام»، تناول فيه وفيات المشهورين من السنة الأولى للهجرة حتى (٧٠٠هـ)، واعتمد فيه على كتابه «تاريخ الإسلام»[5]. فقام الحافظ ابن حجر فنظم هذا الكتاب بأرجوزة وصل فيها إلى سنة إحدى ومائتين. ولم يكمل[6].

• • •

---

(١) الإعلان بالتوبيخ: ص١١٩. وحيث يقول السخاوي «شيخنا» فهو الإمام ابن حجر.

(٢) هو الإمام المجتهد كبير فقهاء الشافعية، وحيد عصره وفريد وقته، صاحب «شرح الوجيز» الذي لم يصنَّف في المذهب الشافعي مثله. توفي سنة (٦٢٣هـ).

(٣) انظر: الإعلان بالتوبيخ: ص ١٢٨؛ الجواهر والدرر: ص ٤٨، ١٢٩.

(٤) الدرر الكافية ٤/١١١، ذيول التذكرة ٣٥٦، الأعلام ٦/٣١٤.

(٥) «الذهبي» لبشار عواد معروف: ص ١٥٦ ــ ١٥٧.

(٦) وقد ذكره السيوطي في «نظم العقيان: ص ٤٩» ضمن الكتب التي لم يكملها ابن حجر باسم «نظم وفيات المحدثين».

خامساً ـ مصنفاته في الفقه

١ ـ الأصلح في إمامة غير الأفصح.

٢ ـ بلوغ المرام من أدلة الأحكام:

صنفه لأجل ولده بدر الدين أبي المعالي محمد، وقد قال الحافظ في خطبته مبيناً موضوع مصنَّفه هذا والغاية من وضعه: «... أما بعد: فهذا مختصر يشتمل على أصول الأدلة الحديثية للأحكام الشرعية، حررته تحريراً بالغاً، ليصير من يحفظه بين أقرانه نابغاً، ويستعين به الطالب المبتدي، ولا يستغني عنه الراغب المنتهي. وقد بينت عقب كل حديث من أخرجه من الأئمة، لإرادة نصح الأمة»[1].

وهو كتاب قيّم مبارك، انتفع الناس به شرقاً وغرباً، وأقبل عليه أهل العلم، وتناوله الكثيرون منهم بالشرح والتوضيح، وهو مرتب على الأبواب.

والكتاب يمتاز بعدة مزايا نجملها فيما يلي:

(١) الكلام على درجة الحديث من حيث الصحة والحسن والضعف.

(٢) إيثار أصح الأحاديث في كل باب من أبواب الكتاب، وترك الروايات التي تكلم فيها الأئمة.

(٣) اختصار الأحاديث الطويلة اختصاراً جميلاً لا يتطرق إليه تغيير العبارة.

(٤) الإيجاز في بيان ألفاظ الجرح والتعديل، وإتيانه بالمعنى البليغ في اللفظ اليسير.

(٥) تكثيره لذكر بعض المخرّجين للحديث زيادة على أصحاب الأمهات الست، مع ذكر تعديل تلك الزيادة أو جرحها.

---

(١) بلوغ المرام: ص ٩ ـ ١٠.

(٦) تتبع طرق ذلك الحديث جلّها أو كلّها، مع بيان الصحة أو العلة التي في طرقه.

(٧) إيراده لأدلة المذاهب من غير عصبية لأحد من أصحابها في تصحيح الحديث وتحسينه.

(٨) ذيّل كتابه هذا بكتاب «الجامع للآداب»، وذلك مما اختص به هذا الكتاب.

وقد اعتنى بشرحه كثير من العلماء، ومن تلك الشروح:

(١) «البدر التمام» لشرف الدين حسين بن محمد المغربي.

(٢) «سبل السلام» للعلامة محمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني، لخص فيه «البدر التمام»، وزاد عليه ما ينبغي بذكره الاهتمام.

(٣) «مسك الختام» بالفارسية، للنواب صديق حسن خان.

(٤) «فتح العلام» لأبي الخير نور الحسن خان ابن النواب، لخص فيه سبل السلام، وزاد فيه بعض الزيادة[١]. وغيرها من الشروح.

وبلوغ المرام مطبوع في مجلد يقع في حوالي (٣٤٠) صفحة، وفرغ مؤلفه من سنة (٨٢٨هـ)[٢].

٣ ــ تبيين العجب بما ورد في فضل رجب:

بيّن الحافظ في خطبة كتابه موضوعه والباعث له على تصنيفه، فقال:

«... أما بعد: فقد تكرر سؤال جماعة من الإخوان في جمع ما ورد في فضائل شهر رجب الفرد، وصيامه، والصلاة فيه، وبيان صحيح ذلك من سقيمه؛ فسطّرت في هذه الأوراق ما وصلت إليه بحسب العجلة»[٣].

---

(١) انظر: «حاشية الدهلوي على بلوغ المرام»: ص ٩ ــ ١٠.

(٢) بلوغ المرام: ص ٣٥٠.

(٣) تبيين العجب: ص ٩.

وقد صرح في صدر كتابه أنه «لم يرد في فضل شهر رجب، ولا في صيامه، ولا في صيام شيء منه معين، ولا في قيام ليلة مخصوصة فيه، حديث صحيح يصلح للحجة»[1].

وأورد حديثاً فيه إشعار بفضل صيام رجب حيث قُرن برمضان، دون تصريح، وآخَرَيْن فيهما الحث على الصيام في الأشهر الحُرُم دون تخصيص رجب، وكل منهما ضعيف[2].

ثم ساق الأحاديث الواردة في فضل رجب، أو فضل صيامه، أو صيام شيء منه، صريحة، وفيها ثلاثة أحاديث ضعيفة، وثلاثة وعشرون حديثاً باطلاً وموضوعاً[3].

وقد بيّن الحافظ عوار تلك الأحاديث، ونقدها نقداً بارعاً، واشتد في النقد على الوضاعين. ثم بين هدي الرسول ﷺ في الصيام في رجب وغيره[4]، فذكر تسعة أحاديث مع نقد أسانيدها، وبيان المحظور من المسنون في الصيام، والأوقات التي كان رسول الله ﷺ يخصّها بالصوم، أو ينهى عن تخصيصها بصيام.

والكتاب قيّم جداً ونافع، ويجدر بكل مسلم قراءته، وهو يقع في حوالي (٤٠) صفحة.

٤ ـ تحفة المستريض بمسألة المحيض:

وهو في طرق أحاديث النهي عن إتيان النساء في أدبارهن، وعللها،

---

(١) المرجع السابق: ص ١١.

(٢) المرجع السابق: ص ١٢ ـ ١٤.

(٣) المرجع السابق: ص ١٥ ـ ٤٦. ومن أشهر تلك الأحاديث الباطلة، حديث: «رجب شهر الله، وشعبان شهري، ورمضان شهر أمتي».

(٤) تبيين العجب: ص ٤٧ ـ ٥٢.

والتنبيه على الصحيح منها والسقيم، وذكر ما عارضها، وبيان عللها أيضاً. وسياق ما وقف عليه من كلام الصحابة، والتابعين، والأئمة المخالفين، رضي الله عنهم؛ في حكم ذلك إباحة ومنعاً، ووفاقاً وخلافاً.

٥ ـ التعليق النافع في النكت على «جمع الجوامع» لابن السبكي = النكت على جمع الجوامع[١]:

«جمع الجوامع» لتاج الدين السبكي في أصول الفقه، علَّق عليه وشرحه غير واحد، منهم تعليق الحافظ ابن حجر، ولم يكمل.

٦ ـ التمتع على مذهب الحنفية: عمله لسبطه حين حج.

٧ ـ التنبيه لصفة المتمتع.

٨ ـ وآخر للمرأة، في التمتع[٢].

ـ تصحيح الروضة = شرح الروضة.

٩ ـ جزء في «الحج».

١٠ ـ الجواب الجليل عن زيارة الخليل: وسماه في «كشف الظنون»[٣]: «الجواب الجليل عن حكم بلد الخليل».

ـ حواشي الروضة = شرح الروضة.

١١ ـ خبر الثبت بصيام السبت.

١٢ ـ الخصال المكفِّرة للذنوب المقدَّمة والمؤخَّرة:

قال في «كشف الظنون»: «رتب على أربعة أبواب، مشتملة على الأحاديث الواردة فيه والآثار»[٤].

---

(١) هكذا سمّاه السيوطي في «نظم العقيان»: ص ٤٩، وذكره مع الكتب التي لم تكمل.

(٢) عمل الحافظ أربعة كتب ـ أو أجزاء ـ في «التمتع»، هذه الثلاثة، وسيأتي الرابع باسم «الممتع بحكم المتمتع».

(٣) كشف الظنون: ص ٦٠٨.

(٤) كشف الظنون: ص ٧٠٥.

وقد بيّن الحافظ فيه جواز غفران ما تقدم من الذنوب وما تأخر كذلك، وقال في ذلك: «وقد جمعت جزءاً في الأحاديث الواردة في بيان الأعمال الموعود لعاملها بغفران ما تقدم وما تأخر، سمّيته «الخصال المكفرة للذنوب المقدمة والمؤخرة»، وفيها عدة أحاديث بأسانيد جياد»[١].

١٣ ــ رسالة في تعدد الجمعة ببلدة واحدة.

١٤ ــ شرح «الإرشاد» في فروع الفقه الشافعي: قال في «كشف الظنون» وهو يتكلم عمن شرح «الإرشاد»: «... وكذا شرحه الحافظ شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني المتوفى سنة (٨٥٢هـ) بشرحين عظيمين»[٢].

١٥ ــ شرح «الروضة» = تصحيح الروضة، حواشي الروضة:

كتاب «روضة الطالبين» للإمام النووي ــ رحمه الله ــ من الكتب الكبيرة المعتمدة في المذهب الشافعي، ولقد عني العلماء فيها اختصاراً وتجريداً وشرحاً ونقداً ودفاعاً[٣]، وممن شرحها الحافظ ابن حجر، فكتب منه ثلاث مجلدات، ولم يكمل. تتبع ما يحتاج الشرح إليه من نسبة الأقوال والوجوه لأصحابها، وبيان مآخذها، وتخريج أدلتها، والحجة للراجح منها، وتتبّع ما فات المصنف من الفروع الفقهية، وألقى ذلك في الدروس.

١٦ ــ شرح مناسك «المنهاج» للنووي:

كتاب «المنهاج» للنووي اختصره من كتاب «المحرر» للرافعي،

---

(١) فتح الباري: ١٢/٣١٠ ــ ٣١١، وذكره في الفتح: ٤/١١٥ ــ ١١٦ وساق ــ هنا ــ محصّله. كذلك ذكره في «القول المسدَّد»: ص ٦٣، ٦٥.

(٢) كشف الظنون: ص ٦٩.

(٣) انظر: كشف الظنون: ص ٩٢٩ ــ ٩٣٠. و«الروضة» مختصرة من «الشرح الكبير» للرافعي.

و «المنهاج» كثير التداول بين العلماء والطلبة، وقد كثر الشارحون له، ومنهم ابن حجر، حيث شرحه في مجلد.

١٧ ــ عجب الدهر في فتاوى شهر:

ضبط فيه المهم من الفتاوى التي وردت عليه في شهر واحد، ويقع في مجلد، يشتمل على ثلاثمائة مسألة أجاب عنها، وقد تجرّد لكتابتها ليستدل بذلك على كثرة ما يرد عليه منها، مع كثرة أشغاله، ولتقع المعذرة عما قد يقع فيها من خلل، لذهول نشأ عن شغل البال، وليردّ بذلك على من شنّع عليه في هذا[١].

١٨ ــ قوة الحِجَاج في عموم المغفرة للحُجَّاج:

صنفه إجابة لسؤال سائل عن درجة حديث العباس بن مرداس السلمي في مغفرة الله عز وجل ذنوب الحاج ذي التبعات. فجمع طرقه الكثيرة جداً عن عدد من الصحابة: فذكره عن العباس بن مرداس، وعبادة بن الصامت، وأنس، وعبد الله بن عمر، وأبي هريرة، وزيد، مع نقد الأسانيد، وبيان عللها. وردّ على ابن الجوزي حيث أورد الحديث في «الموضوعات» له. ثم ذكر خلاصة ذلك كله فقال: «وحديث عباس بن مرداس يدخل في حدّ الحسن على رأي الترمذي، ولا سيما بالنظر إلى مجموع هذه الطرق. والله الموفق»[٢].

ثم أورد بعض ما جاء في معنى الحديث في أحاديث أخرى عند مسلم والنسائي وابن ماجه وأحمد وابن حبان والحاكم والطبراني وابن خزيمة والبزار وأبي يعلى والبيهقي والموطأ. وختم كتابه بفصل ضبط فيه الأسماء والألفاظ الواقعة في كل تلك الطرق على الترتيب.

---

(١) انظر بالتفصيل: ص ٢٦٢ ــ ٢٦٥ من هذا الكتاب.

(٢) قوة الحجاج: ص ٣٩.

والكتاب يقع في (٣٠) صفحة، وقد علَّقه مصنِّفه في يوم الأحد تاسع عشر ربيع الآخر سنة (٨٤٢هـ)[١].

١٩ ــ كشف الستر بركعتين بعد الوتر[٢].

٢٠ ــ ٢١ ــ مختصر «الروض» وشرحه:

قال حاجي خليفة: «الروض: مختصر «الروضة» في الفروع للنووي، وهو لشرف الدين إسماعيل بن أبي بكر المعروف بابن المقري اليمني الشافعي، المتوفى سنة (٨٣٧هـ). وقد اختصره الحافظ شهاب الدين أحمد بن علي المعروف بابن حجر العسقلاني المتوفى سنة (٨٥٢هـ). ثم شرحه شرحاً جمع فيه فوائد لا تحصى حتى عار (أعار منه بعض الحساد، ورماه في الماء!! فاستأنفه ثانياً وكمّله»[٣].

٢٢ ــ المسألة السريجية: لم يكمل. و«المسألة السريجية»: مشهورة في الطلاق بين الشافعية، فألفوا فيها مؤلفات منها رسالتان للغزالي[٤].

٢٣ ــ المقرَّر في شرح «المحرَّر»: «المحرَّر» في فقه الشافعية للإمام الكبير الرافعي رحمه الله، شرحه ابن حجر، ولم يكمل.

٢٤ ــ الممتع بحكم المتمتع: وهو منسك في جزء لطيف[٥].

٢٥ ــ مناسك الحج: ويقع في مجلد.

٢٦ ــ المنحة فيما علق الشافعي القول به على الصحة:

---

(١) المرجع السابق: ص ٥٣.

(٢) وفي هدية العارفين: ١/ ١٣٠: «كشف الستر عن حكم الصلاة بعد الوتر».

(٣) كشف الظنون: ص ٩١٩.

(٤) كشف الظنون: ١٦٦٢.

(٥) وسمّاه في كشف الظنون: ص ــ ١٨٢٢ ــ «الممتع في منسك المتمتع»، وقال: إنه في مجلد.

علّق الإمام الشافعي القول ببعض المسائل الفقهية على صحة الحديث، وهذا من كمال فقهه، وتمام ورعه، وشدة اتباعه رضي الله عنه.

وقد تصدى الحافظ ابن حجر فجمع تلك المواضع التي علق الشافعي القول بها، مع الكلام على الأحاديث الواردة فيها. وقد ذكر ابن حجر كتابه هذا في أكثر من موضع من «الفتح»، من ذلك ما ذكره عن حكم «الاشتراط في الحج والعمرة»، وأن المشهور عند الشافعية هو الجواز، ثم قال: «والحقّ أن الشافعي نصّ عليه في القديم، وعلّق القول بصحته في الجديد، فصار الصحيح عنه القول به، وبذلك جزم الترمذي عنه. وهو أحد المواضع التي علق القول بها على صحة الحديث، وقد جمعتها في «كتاب مفرد»، مع الكلام على تلك الأحاديث»[1].

ـ النكت على «جمع الجوامع» = التعليق النافع في النكت على «جمع الجوامع».

٢٧ ـ النكت على «شرح العمدة» لابن الملقن:

كتاب «عمدة الأحكام» للإمام الحافظ عبد الغني بن عبد الواحد المقدسي كتاب عزّ نظيره، شَرَحَه غير واحد، منهم ابن المُلَقِّن، وقد عمل الحافظ على شرح ابن الملقن نكتاً، ولم يكمل.

٢٨ ـ النكت على «شرح المهذب»: «المهذب» للإمام أبي إسحاق الشيرازي، شرحه النووي بكتابه الفذ «المجموع شرح المهذب»، وعمل ابن حجر على «المجموع» نكتاً، ولم يكمل أيضاً.

٢٩ ـ النكت على «نكت العمدة» للزركشي: عمل الزركشي نكتاً على «عمدة الأحكام»، وعمل ابن حجر نكتاً على «النكت».

---

(١) الفتح: ٤/٩، وذكره كذلك في الفتح: ٥/٩٠ عند ذكر آراء العلماء فيمن مرّ ببستان أو زرع أو ماشية، هل يجوز أن يأخذ منه شيئاً، وسمّاه فقال: «وقد بينت ذلك في كتابي: المنحة فيما علق الشافعي القول به على الصحة».

سادساً ـ مصنفاته في الرقائق والآداب ونحوها

١ ـ بذل الماعون بفضل الطاعون:

جمع فيه أشياء كثيرة من الأحاديث والأحكام والآداب المتعلقة بذلك، وشرح غريبها، ورتبه على خمسة أبواب، وفرغ منه في جمادى الآخرة سنة (٨٣٣هـ). اختصره السيوطي بكتابه «ما رواه الواعون في أخبار الطاعون» حذف فيه الأسانيد وما وقع استطراداً. ولخصه أيضاً شرف الدين يحيى بن محمد المُنَاوي. ويقع كتاب ابن حجر في مجلد لطيف.

ـ جزء في عمل اليوم والليلة = «ذكر الباقيات الصالحات».

ـ الخصال الموجبة للظلال = معرفة الخصال الموصلة إلى الظلال.

٢ ـ الخصال الواردة بحسن الاتصال[١].

٣ ـ الدرر في نفقة قليلة[٢].

٤ ـ ذكر الباقيات الصالحات = جزء في عمل اليوم والليلة: هو جزء فيه عشرون حديثاً صحيحاً أو حسناً فيما يقوله المكلَّف في يوم وليلة.

٥ ـ ردع المجرم في الذبِّ عن عرض المسلم:

جمع فيه أربعين حديثاً في تعظيم حرمة المسلم والزجر عن سبِّه وتعمُّد ظلمه، وقال في خطبته: «أما بعد: حمداً لله الذي عظم قدر مَنْ آمن به وأسلم، والصلاة والسلام على نبيه الذي شرع لأمته سنن الدين، وبيَّن لهم سنن المهتدين، وعلَّم، صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين كانوا يتلقون أمره بالقبول، وسلَّم.

فهذه أربعون حديثاً منتقاة من كتب الصحاح والسنن في تعظيم

---

(١) هدية العارفين: ١/ ١٢٩.

(٢) كشف الظنون: ص ٧٥١؛ هدية العارفين: ١/ ١٢٩.

المسلم، والزجر عن سبِّه، وسوء الظن به، وتعمُّد ظلمه في سلمه وحربه، كتبتها عظة لمن بسط لسانه ويده في المسلمين، مع قلة علمه واعوجاجه، وتعرَّض لسخط ربه، واغترَّ بحلمه واستدراجه، انتهاكاً لأعراضهم، واستنكاراً مما يصير إليه من جواهرهم وأعراضهم، عسى الله أن يرزقه التوبة والإنابة، فيقتدي بالسلف الصالح من الصحابة، وأتباع الصحابة، والله يضلُّ من يشاء، ويهدي من يشاء».

وقد عمله حين كان السفطي قاضياً، وقد أزعج ابنَ حجر، واتهمه زوراً، فعمل الحافظ هذا الكتاب، وانتهى منه في يوم الخميس عاشر رجب سنة (٨٥١هـ).

٦ ــ الشمس المنيرة في معرفة الكبيرة وتمييزها من الصغيرة:

وقد أشار الحافظ إلى كتابه هذا عند شرح حديث البخاري في «السبع الموبقات»، حيث ذكر ما جاء في كتب السنَّة من التصريح بأنه من الكبائر، ثم قال: «... فهذا جميع ما وقفت عليه مما ورد التصريح بأنه من الكبائر أو من أكبر الكبائر، صحيحاً وضعيفاً، مرفوعاً وموقوفاً، وقد تتبعته غاية التتبع، وفي بعضه ما ورد خاصاً ويدخل في عموم غيره، كالتسبب في لعن الوالدين وهو داخل في العقوق...»[1]. ثم عدد تلك الخصال، وبيَّن فساد قول من قال بأن الكبيرة ما وجب فيها الحد، وذكر الآراء في «ضابط الكبيرة» وأماراتها[2]، ثم قال: «ومن أحسن التعاريف قول القرطبي في «المفهم»: كل ذنب أطلق عليه بنص كتاب أو سنَّة أو إجماع أنه كبيرة، أو عظيم، أو أُخبر فيه بشدة العقاب، أو عُلِّق عليه الحد، أو شُدِّد النكير عليه؛ فهو كبيرة».

ثم أشار الحافظ إلى كتابه في «الكبائر» وموضوعه، ومنهجه فيه،

---

(١) فتح الباري: ١٢/١٨٣.

(٢) المرجع السابق: ١٢/١٨٣ ــ ١٨٤.

فقال: «وعلى هذا فينبغي تتبع ما ورد فيه الوعيد أو اللعن أو الفسق، من القرآن أو الأحاديث الصحيحة والحسنة، ويُضم إلى ما ورد فيه التنصيص في القرآن والأحاديث الصحاح والحسان، على أنه كبيرة، فمهما بلغ مجموع ذلك عُرف منه تحرير عدِّها، وقد شرعت في جمع ذلك، وأسأل الله الإعانة على تحريره بمنِّه وكرمه»[1].

٧ ــ المجموع العام في آداب الشراب والطعام ودخول الحمام.

٨ ــ معرفة الخصال الموصلة إلى الظلال = الخصال الموجبة للظلال:

ذكر فيه الخصال التي توصل صاحبها إلى أن يكون ممن يظلّهم الله في ظلّه يوم لا ظلّ إلاَّ ظلّه، وما جاء في ذلك من أحاديث بأسانيد جياد وضعاف. وذكر خلاصة ذلك في «الفتح» وقال: «وقد أوردت الجميع في «الأمالي»، وقد أفردته في جزء سمَّيته: «معرفة الخصال الموصلة إلى الظلال»[2].

ــ منبهات على الاستعداد ليوم الميعاد[3].

● ● ●

---

(١) المرجع السابق: ١٢/ ١٨٤.

(٢) المرجع السابق: ٢/ ١٤٣ ــ ١٤٤، شرح حديث (سبعة يظلهم الله في ظله).

(٣) هذا الكتاب ليس للحافظ ابن حجر، وإنما ذكرته للتنبيه على خطأ وقع، حيث طبع الكتاب تحت اسم «الاستعداد ليوم المعاد»، ونشرته دار القلم ببيروت، ونسبته لابن حجر، وهذا خطأ فاحش، فالكتاب للإمام الحافظ أحمد بن حجي بن موسى، الشهير «بابن حِجِّي ــ ت ٨١٦هـ»، فقد تصحّف عليهم «ابن حجي» إلى «ابن حجر»؛ فنُسب ــ خطأ ــ للأخير. وهذا الكتاب توجد منه مخطوطة في «الظاهرية» باسم «المنبهات على الاستعداد ليوم المعاد». انظر الرد الوافر ١٣٤ ــ ١٣٥ مع الهوامش، كشف الظنون ١٨٤٨.

سابعاً ـ مصنفاته في علوم اللغة

١ ـ تحرير «مقدمة في العروض»: شرح فيه الأبيات العروضية على «المقدمة»، وسمّاه السيوطي: «مختصر العروض»[1].

٢ ـ التذكرة الأدبية[2]، وسمّاها «مسامر الساهر ومساهر السامر»: وهي بخطه، وتقع في أربعين مجلداً لطافاً، وقد أهداها لصاحب اليمن الملك الأشرف إسماعيل بن عباس، وورد مكة منها نحو العشرين مجلداً.

قال السخاوي: «ورأيت أكثره في المقدمة الثانية، وطالعته، ويكاد يوجد في نظمه ماليس في شيء من دواوينه، وسلك فيها طريقة أهل الأدب في حكاية الغيث والسيل، وكان ذلك قبل توغُّله في متون الحديث النبوي، وإعراضه عن هذا الفن، فإن تواريخ المجلدات التي وقعت عليها بعضها في سنة أربع وتسعين[3]، وبعضها في سنة خمس وتسعين، وفي سنة ست وتسعين، وهو لم يكثر من الحديث ـ كما سلف ـ إلاّ في سنة ست وتسعين، مع اعتقادي أنه كان متنزهاً عما كان يحكيه بخطه، ولكنه سلك مسلك أهل الأدب، رحمه الله وإيانا. وقد نجد المكرر لكونها غير مرتبة».

٣ ـ تقريب الغريب الواقع في الصحيح: وهو في غريب «صحيح البخاري»، اختصره عن القرطبي مع الزيادة عليه.

---

(١) نظم العقيان: ص ٥٠.

(٢) وهي غير «التذكرة الحديثية» التي سبق ذكرها.

(٣) أي وسبعمائة، وعمر ابن حجر آنذاك إحدى وعشرون سنة!

٤ ــ ديوان شعره الكبير: بيَّضه الشريف السيوطي، ثم كتبه من خطه العلّامة الشهاب الحجازي.

٥ ــ السبعة السيارة النيِّرات: منتخب من ديوانه الكبير، قال في «كشف الظنون»: «ديوان ابن حجر، صغير وكبير. وقد انتخب من الكبير قطعة، ورتبها على سبعة أبواب، وسمّاها: السبعة السيارة النيرات»[١]. وقال في موضع آخر: «السبعة السيارة النيرات: انتخبه من ديوانه الكبير»[٢].

فرغ من تحريره في أوائل جمادى الآخرة سنة (٨١١هـ). قال السخاوي: وقد قرأته عليه، وكذا غير واحد من جماعته.

٦ ــ السهل المنيع في شواهد البديع.

٧ ــ ضوء الشهاب: ديوان شعر صغير مختصر من ديوانه الكبير. قال السخاوي: «وكان تركه الشعر سنة ست عشرة، بل غالب ما ذكر هنا مما نظم قبل القرن التاسع».

٨ ــ غراس الأساس: جمع فيه المجازات الواردة في «أساس البلاغة» للزمخشري، وزاد عليها.

قال الحافظ في خطبة كتابه: «فرأيت أن المهم منه[٣] ما تميز عن الكتب المصنفة في اللغة من تبيين الحقيقة من المجاز، والتمكن من اجتناب الإسهاب وارتكاب الإيجاز».

ثم يقول: «فرأيت الاقتصار منه على ما جزم بأنه وضع على سبيل المجاز، مكتفياً بالكتب المصنفة في اللغة، فإنها أوعب لها من هذا

---

(١) كشف الظنون: ص ٧٦٥.
(٢) المرجع السابق: ص ٩٧٧.
(٣) أي من «أساس البلاغة».

الأساس. فمن لم يجد في هذا المختصر شيئاً فليجزم بأنه وضع على سبيل الحقيقة، معتمداً على هذا الإمام البليغ»[1].

وقد جمع الحافظ في «غراس الأساس» المجازات اللغوية، مستقصياً إياها، متحرياً الدقة فيها، وقد خالف على الزمخشري في «الأساس» فأسقط بعض ما اعتبره الزمخشري من المجاز، كما أورد أشياء لم يعدَّها الزمخشري من المجاز، مما يشير إلى أن الزمخشري لم يستقصِ تتبع المجازات اللغوية بالنص عليها في «أساسه»[2]، ويبرهن على تفوق واقتدار الحافظ ابن حجر، إذ أن من يتعقب ويستدرك على مثل الزمخشري؛ لا شك أنه في قمة القمم من اللغة والبلاغة.

٩ ـ قذى العين من نظم غُراب البَيْن:

ألف البدر العيني منظومة في «سيرة الملك المؤيد شيخ المحمودي»، فتعقبه الحافظ فيها، وجرَّد منها الأبيات الركيكة بلا وزن؛ فبلغت نحواً من أربعمائة بيت، ضمَّنها كتابه «قذى العين» هذا.

ـ مسامر الساهر ومساهر السامر = التذكرة الأدبية.

ـ مختصر أساس البلاغة = غراس الأساس.

١٠ ـ المستدرك على البشتكي في جمع ديوان ابن نباته:

البدر البشتكي أديب شاعر، أخذ الأدب عن ابن نباته، وقد جمع ديوان شيخه، وفاته كثير منه، فاستدرك عليه ابن حجر مما فاته من شعر ابن نباته نحو مجلد[3].

• • •

---

(١) نقلاً عن مقدمة الأستاذ أمين الخولي لأساس البلاغة، صفحة (و).

(٢) المرجع السابق: الصفحة (و، ز)، وقد أورد شاهداً على ذلك بالمقابلة بين ما في «غراس الأساس» و«أساس البلاغة».

(٣) البدر الطالع: ٢/٩٣، ترجمة البدر البشتكي.

ثامناً ــ مصنفات متنوعة

١ ــ اتباع الأثر في رحلة ابن حجر[1].

٢ ــ الأجوبة الآنية عن الأسئلة العينية: وهي إجابات على أسئلة سأله إياها البدر العيني. ويوضح ذلك ما قاله السخاوي عن العيني: «ورأيته يسأل شيخنا في مرض موته ــ وقد جاء ليعوده ــ عن مسموعات الزين العراقي، فقال له: ليست مجموعة في كتاب، لكنني أوردت في ترجمته من معجمي ما أخذته عنه، وذلك شيء كثير، فانظروه فإذا حصلتموه نأخذ في النظر في الباقي»[2].

٣ ــ الأجوبة الجلية عن الأسئلة الحلبية: هي إجابات عن أسئلة سأله عنها أبو ذر ابن البرهان الحلبي.

٤ ــ الأجوبة المشرقة عن الأسئلة المفرقة.

٥ ــ الأسئلة الفائقة بالأجوبة اللائقة: فيه أجوبة على خمسة أسئلة، وجهها إليه من دمشق تلميذه عبد الرحمن بن سليمان الصنابحي. السؤال الأول: عن حديث الجساسة، والثاني: عن ثلاثة أحاديث من سنن أبي داود، والثالث: عن ترجمة الكسائي، والرابع: عن ترجمة التوربشتي (شارح مصابيح السنة)، والخامس: عن تعريف الحديث الحسن. والكتاب مطبوع.

٦ ــ إقامة الدلائل على معرفة الأوائل: كتبه الحافظ بخطه، وقد قال السخاوي في ذلك: «رأيت بخطه نسخة منه شبه المبيضة، أعادها في حياته للسراج عمر بن الشيخ خلف الطوخي الصالح المشهور، فطالعها وأعادها له، ثم لم أرَها بعد. وقد رأيت بخط التقي يحيى ابن شارح «البخاري» الكرماني ــ رحمهما الله ــ جزءاً، قال إنه لخصه من «الأوائل» للشيخ العالم

---

(١) إيضاح المكنون: ١/١٣، وفهرس الفهارس ١/٢٨١ ــ ٢٨٢.

(٢) التبر المسبوك: ص ٣٧٧.

شهاب الدين ابن حجر، الذي لخصه من مؤلِّف العلاّمة بدر الدين محمد بن عبد الله الشِّبْلي، المسمى «محاسن الوسائل إلى معرفة الأوائل»، ورتبه على أبواب الفقه، وبيَّن حال الأسانيد. قال التقي: وقد أضفت إلى ذلك فوائد فرقتها في محالها».

وقد امتدح تقي الدين يحيى المذكور ابنَ حجر وكتابَه «الأوائل»، فقال[1]:

يا كاملاً جمعِ الفواضلَ والفضائل	ومسدَّداً فاقَ الأواخرَ والأوائلْ
بأوائلٍ رتَّبْتَها وسردْتَها	مشحونةً طرّاً بأنواعِ الدلائلْ
أبديتَ علماً للأنام مُنَوَّعاً	قَسَماً لقد فُقْتَ الأوائلَ «بالأوائلْ»

وقد ذكر الحافظ كتابه هذا في «الفتح»، فعند شرحه لحديث البخاري عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: (. . . وأولُ مَنْ يُكسى يوم القيامة إبراهيمُ. . .)، يقول: «وقد ثبت لإبراهيم عليه السلام أوليات أخرى كثيرة: منها أول من ضافَ الضيف، وقصّ الشارب، واختتن، ورأى الشيب، وغير ذلك. وقد أتيت على ذلك بأدلة في كتابي «إقامة الدلائل على معرفة الأوائل»[2].

وذكره عند شرح «حديث زيد بن عمرو بن نُفيل» وأنه كان يحيي الموؤودة، وكلامه على أصل عادة وأد البنات، فقال: «وقد شرحت ذلك مطولاً في كتابي في «الأوائل» »[3].

وكان فراغه من كتابه هذا في شهور سنة (٨١٨هـ).

٧ ـ الإلهام الصادر عن الإنعام الوافر.

٨ ـ الجواب الجليل الوقعة فيما يرد على الحسيني وأبي زرعة: لعله الجزء الذي تتبع فيه أوهام الحافظ الحسيني والإمام أبي زرعة ابن الحافظ العراقي، والذي سبق التعريف به[4].

(١) الجواهر والدرر: ص ٢٢٨.
(٢) فتح الباري: ٦/٣٩٠.
(٣) المرجع السابق: ٧/١٤٥.
(٤) انظر: ص ٤٣٣ رقم (١٥١).

٩ ــ الجواب الشافي عن السؤال الخافي.

١٠ ــ الدرر المضيَّة من فوائد الإسكندرية: جزء جمع فيه مسموعه وما وقع له من نظم ومراسلات في رحلته إلى الإسكندرية. قال السخاوي: «وقد رأيت جزءاً سمّاه «الدرر المضيَّة من فوائد إسكندرية»، ذكر فيه مسموعه هناك، وما وقع له من النظم والمراسلات، وغير ذلك». ثم قال: «وكذا رأيت أوراقاً من جزء للسَّفرة التي بعدها، يا لها من رؤية باقية. والظاهر أن كل سفراته سلك فيها هذه الطريقة»[١].

١١ ــ ديوان الخطب الأزهرية: شرع في إنشائها في شهر ربيع الأول سنة (٨١٩هـ) بحسب الوقائع، فكمَّل إلى شوال منه عشرين خطبة.

١٢ ــ ديوان الخطب القلعية: المسمى «بالمنتخب»، كتب منه نسخاً، وقرأه عليه تلميذه السخاوي.

١٣ ــ الرسالة العزية في الحساب: مختصرة، حررها ورتبها على فصول[٢].

١٤ ــ فهرست الكتب المحمودية: عمل الحافظ لخزانة كتب «المدرسة المحمودية» فهرستاً رتب فيه أسماء التصانيف على حروف المعجم، كما عمل فهرستاً آخر لتلك التصانيف على الفنون.

١٥ ــ الفوائد الجمة فيمن يجدِّد الدين لهذه الأمة:

ذكره في «كشف الظنون» فقال: «الفوائد الجمة فيمن يجدد الدين لهذه الأمة، لابن حجر العسقلاني، ذكره في فهرست مؤلفاته. قال

(١) الجواهر والدرر: ص ٨٥.

(٢) كشف الظنون: ص ٨٧٧.

السيوطي: لم أقف عليه مع شدة طلبي له، لأنه وعد في «مناقب الشافعي»[1] أن يبين من يصلح أن يتصف بذلك في رأس المائة الثالثة وما بعدها»[2].

١٦ ــ قوة الحيل في الكلام على الخيل.

١٧ ــ مختصر «تلبيس إبليس» لابن الجوزي: ويقع في مجلد، فرغه سنة (٧٩٥هـ).

١٨ ــ منتقى زوائد الألغاز للغَزِّي.

١٩ ــ النبأ الأنبه في بناء الكعبة.

٢٠ ــ نزهة النواظر المجموعة في النوادر المسموعة.

* * *

فهذه (٢٨٩) مائتان وتسعة وثمانون مصنفاً للحافظ ابن حجر، منها المطبوع والمخطوط والمفقود[3]، وقد حاولت أن أجمع بين الأشباه، وأؤلِّف بين النظائر، وأنبه على الأسماء المختلفة للكتاب الواحد؛ دفعاً للتكرار، وأرجو أن أكون وفِّقت في ذلك، وحسبي أني بذلت جهدي، والذهول والخطأ من لوازم الإنسان ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾.

وتبلغ هذه المصنفات نحواً من (٢٧٥) مائتين وخمساً وسبعين مجلداً، وزيادة على (٢٠٠) مائتي جزء. ولو أن هذه التصانيف طبعت جميعها لزاد عدد المجلدات على ذلك كثيراً، إذ إن المجلد المخطوط

---

(١) يريد: «توالي التأسيس»، انظر ص ٤٩ منه.

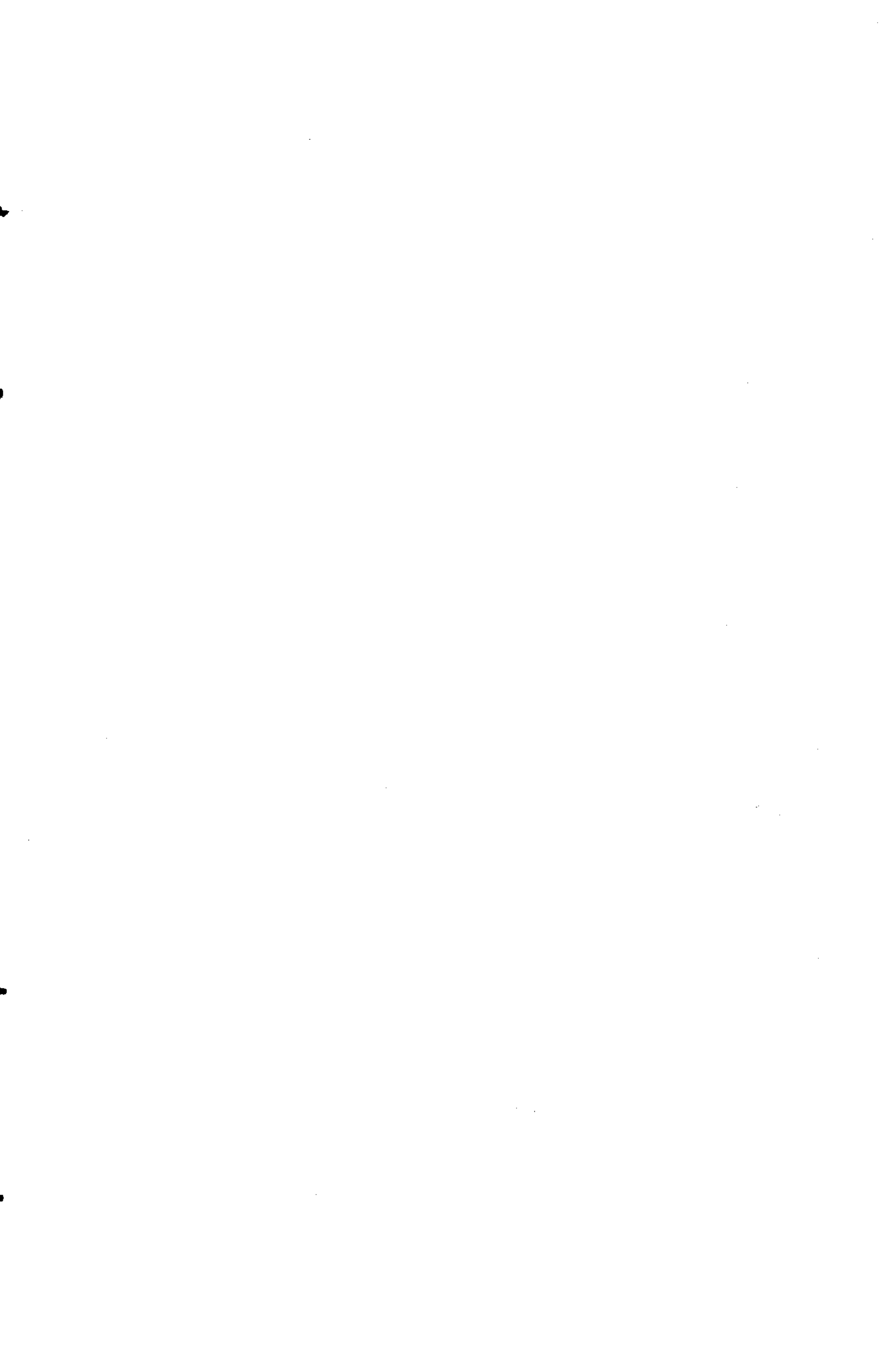
(٢) كشف الظنون: ص ١٢٩٦.

(٣) ولم أتعرض ــ غالباً ــ لتفصيل ذلك، لأنه خارج عن هدف بحثنا، فالمراد هو التعريف بتلك المصنفات وذكر أسمائها وموضوعاتها ومنهجها؛ للوقوف على جلالة وبراعة مؤلِّفها رحمه الله رحمة واسعة.

يخـرج في أكثـر من مجلدين مـطبـوعين. فهم يـذكـرون مثــلاً أن «تبصيـر المنتبــه»، يقـع في مجلد، وقــد طبـع في أربــع مجلدات، ومثله «الـدرر الكامنة». و «تهذيب التهذيب» ذكـر السخاوي أنـه يقع في ثـلاث مجلدات بخط مؤلفه، وبخط غيره في ست، بينما طبع الكتاب في اثني عشر مجلداً. وكذا ذكر السخـاوي أن «إنباء الغمـر» في مجلدين، وهو مـطبوع في خمس مجلدات.

ومثل هذا العـدد الضخم من المصنفات والمجلدات يـدعو الإنسـان للتأمل والإعجاب، والتقدير والاحترام. ولا شـك أن الله سبحانـه قد بـارك لأولئـك في أعمارهم وأوقـاتهم وعقـولهم وجـوارحهم التي سخَّـروهـا في سبيله، فجـادت بمثل ذلـك التراث الهـائل والتـآليف الكثيـرة، التي يضيق وقت كثيرين في هذا العصـر عن قراءتهـا فضلاً عن تصنيف مثلهـا في علوم شتى.





الفَصْل الثالث عَشر
فَتْحُ ٱلبَارِيْ

خصائصه ومزاياه، ومنهج الحافظ فيه، وقيمته العلمية، وآراء العلماء فيه

لقد اعتنى الحافظ ابن حجر بصحيح الإمام البخاري ما لم يعتنِ بغيره من الكتب، وما لم يعتنِ به عالم آخر بصحيح البخاري أو بغيره من كتب الإسلام؛ فقد صنَّف الحافظ كتباً كثيرة جداً تتعلق بصحيح البخاري خاصة، أو به مع غيره.

فالكتب التي ألَّفها وتخصّ «الصحيح» هي: هدي الساري، تغليق التعليق، التشويق، التوفيق، تجريد التفسير من صحيح البخاري، بيان ما أخرجه البخاري عالياً، ثلاثيات البخاري، المهمل من شيوخ البخاري، فوائد الاحتفال في بيان أحوال الرجال المذكورين في صحيح البخاري زيادة على ما في تهذيب الكمال، بغية الراوي بأبدال البخاري، النكت على تنقيح الزركشي، انتقاض الاعتراض، الاستنصار على الطاعن المعثار، شرح كبير للبخاري، وآخر ملخص منه، الإعلام بمن ذكر في البخاري من الأعلام، فتح الباري.

ومن الكتب التي صنفها وتتعلق «بالصحيح» مع غيره: أطراف الصحيحين، الجمع بين الصحيحين، تلخيص الجمع بين الصحيحين، النكت الظراف، تهذيب التهذيب، تقريب التهذيب.

وبهذا فإن الحافظ ابن حجر قد أحاط «بالصحيح» رواية ودراية، وأصبح عارفاً بكل دقائقه، حتى أصبح ــ بحق ــ قيِّمَ صحيح البخاري،

وفكَّاك طلسماته، وحلَّال غوامضه، وكشَّاف خفاياه، ومظهر فوائده وكنوزه وخباياه.

ولـذا فـإن الحـافظ يعتبر أبـرز من كشف عن حقـائق «صحيح البخـاري»، وأفنى حياتـه، وكرَّس جهوده لخدمـة هـذا الكتـاب الجليـل؛ فصبَّ صيِّب علمه الغزير ـ بمختلف مجالاته وفنونه وتفرعاته ـ في شـرحه العظيم «فتح الباري»، الذي مكث فيه ربع قرن من الزمان.

وكان شروعه في تصنيف «الفتح» سنة (٨١٧هـ) على طريق الإملاء، ثم صار يكتب بخطه شيئاً فشيئاً، فيكتب الكراسة، ثم يكتب جماعة من الأئمة المعتبرين، ويعارض بالأصل مع المباحثة في يوم من الأسبوع، وذلك بقراءة العلامة ابن خضر. فصار السِّفْر لا يكمل منه شيء إلَّا وقد قوبل وحرِّر، إلى أن انتهى في أول يوم من رجب سنة (٨٤٢هـ)، سوى ما ألحقه فيه بعد ذلك، فلم ينته إلَّا قبيل وفاته[1].

●● والحافظ في «الفتح» مع «الصحيح»: قد أحاط بأحاديثه وأطرافها واختلاف ألفاظها، وكيف يكمل اللفظُ اللفظَ الآخر، ويجيب عن إشكالات واردة على «الصحيح» في أسانيده ورجاله، ويبين منهج البخاري في «صحيحه» من حيث سوق الأسانيد، وآراءه الفقهية واللغوية، ويتكلم على المعلقات، وما وصله البخاري في نفس «الصحيح» مما لم يوصله فيه، ويتصدى لوصل تلك المعلقات. ويتكلم عن اختلاف نسخ الصحيح، واختلاف رواته في بعض الألفاظ، والتصحيفات، ومبهمات الإسناد، والدفاع عن رجاله. ويتكلم على المتابعات في الحديث من وصلها، وما كانت صورته معلقاً أثناء الحديث وهو موصول، وما قد يقع من وهم لرجال «الصحيح»،ويبين منهج البخاري في سَوْق أقوال الصحابة والتابعين، وتفسير غريب القرآن، ويبين ما كان من مرسلات الصحابة، وينص على ثلاثيات

---

(١) انظر: كشف الظنون: ص ٥٤٨؛ البدر الطالع: ١/ ٨٩؛ والفتح: ١٣/ ٥٤٦.

البخاري. ويجيب عن سبب تكرار الحديث، ودقة نظر البخاري في هذا، ومناسبات تراجمه، مع الرد على المتعقبين ممن خفيت عليهم المناسبة، ويتكلم على ترتيبها وبراعة البخاري في ذلك، وترتيب أحاديث الباب الواحد. هذا فيما يتعلق «بالصحيح» ومتنه ورجاله.

أما من حيث الشرح ومنهجه وطريقته وأسلوبه:

فهو يشرح الحديث بأسلوب بديع، ويردّ أوهام شرَّاح «البخاري»، أو ما له تعلّق به كأصحاب الأطراف، والجمع بين الصحيحين، ورجال الصحيح، ونحو ذلك.

ويبين خفايا علم الرجال، ورواياتهم في الصحيح، ويضبط الأسماء المشكلة بالحروف، ويبين درجاتهم من حيث الجرح والتعديل، ووفياتهم، ونحوها. ويتكلم على تفسير التراجم بكلام دقيق عميق، واستيعاب وتحقيق، واستنباط للأحكام منها، وإذا كانت لفظ حديث بيَّنه. ويوفِّق بين روايات الصحيح التي تبدو متعارضة، أو ما يبدو متعارضاً بين حديث البخاري وغيره من كتب السنة.

ويبحث في الخلافيات الفقهية، ويستدل للرأي الراجح، ويبين المرجوح دونما تمحُّل ولا تعصب. وله استنباطات فقهية بارعة، وبحوث قيمة نادرة، مع التفريع على المسألة الفقهية إن لزم الأمر. ويطرح أسئلة واردة على النص ويجيب عنها بالحجة والبرهان. ويشرح ويتمسك بنصِّ الحديث، ويرفض ما لم يقم عليه الدليل، كما يأبى ردّ الأحاديث الصحيحة، ويستشهد لرأيه بالأحاديث الأخرى، وقد نصَّ على أن الحديث أَوْلى ما يُشرح بالحديث. وأظهر خلال ذلك براعة المحدِّث، ولم يكن ذلك للتكثر وحشد الروايات كما زعم البعض!

ومن براعته إكمال ألفاظ حديث «الصحيح» مما في الكتب الأخرى، ويشرح الحديث بالمكان اللائق به، ويشير في كل باب إلى وجه إيراد

الحديث فيه، ويشرح ما له تعلُّق بذلك الباب، ويُحيل إذا سبق شرحه، أو سيأتي. وله تعقبات حديثية فذة، ويتكلم على نكت الحديث وفوائده الكثيرة، التي تنمُّ عن ذهن وقَّاد، وفتح رباني. كما يتكلم على مبهمات الحديث في المتن والإسناد وعلى إشكالات واردة على الحديث، ولا يخلي كتابه من كلام في «علوم الحديث»، والمصطلحات لغة وشرعاً وعلى أصول الفقه.

وهو خلال ذلك يحكم على الحديث صحةً وضعفاً، مع أنه نبَّه في «مقدمته» أن ما سكت عنه فلا ينزل عن مرتبة الحسن.

ويتكلم على اللغويات بأسلوب سهل واضح، وإذا كثر الخلاف في اللفظة الواحدة استوعب الآراء، وردَّ المرجوح، ونصر الراجح، واختاره وأيده بالدليل الساطع. واستشهد خلال شرحه بالشعر المناسب، ونقل عن أئمة الشعر وفحوله.

وأطاب القول في تفسير الآيات الكريمات، وأسباب النزول، وإعجاز القرآن، ووجوه القراءات؛ بكلام بليغ مختصر، شامل شاف، جمعه من الأمهات، ونقله عن أئمة اللغة والتفسير والقراءات، وردف ذلك بما في بحره الخضمّ من روايات وآثار؛ فأعطى التفسير بعداً آخر، لدعم الرأي بالحديث والأثر ورأي الصحابة. وله فوائد قيمة في التفسير والقراءات، وبحوث ووقفات في علوم القرآن، وكيف نزل من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا، ثم نزوله منجماً، ومتى ابتدأ النزول، ولماذا نزل على مدى ثلاث وعشرين سنة وكيفية جمعه، ونزوله على سبعة أحرف، وله في هذا باع طويل، واطلاع عجيب، فمن جملة ما قرأه في القراءات كتاب في ثلاثين مجلداً.

ويتكلم على الأماكن بأسلوب دقيق، ويردّ على أخطاء وأوهام من كتب في هذا المجال.

ويبين من له صحبة من الرواة ممن ليس كذلك، أو في صحبته شك.

وله خلال الشرح تنبيهات وتكميلات فذة بارعة: هي بمثابة تكميل لمعنى الحديث، أو التنبيه على ما وقع من رواته من اختصار ونحوه، أو رفع حديث ووقفه، أو بيان لحكمة ترتيب أحاديث الباب، أو ما وقع في لفظ الحديث من زيادة في الكتب الأخرى، أو تغيير لفظ الحديث في كتب الفقه، أو توهيم أصحاب الأطراف، أو التنبيه على غرائب الصحيح، أو طريقة البخاري في سوق حديثه عالياً أو نازلاً، أو تداخل التراجم، أو وجود لفظ «باب» عند راوٍ أو عدمه، أو الإجابة عن إشكالات واردة على الصحيح، أو التنبيه على اختلاف الرواة في كون الحديث من مسند صحابي معيَّن، أو آخر غيره، أو تنبيهات لغوية، وغير ذلك.

كذلك له بحوث تاريخية، وتحقيقات في الأنساب، والسيرة، مع فوائد فريدة، ونكت قيمة، وحِكَم التقطها وضمَّنها كتابه الفذ.

كما ينقل خلاصات في علم الطب عن أئمة هذا الفن، ومن تكلم فيه، ويسوقه بعبارة جامعة مفيدة. وزيَّن كتابه بباقة من الزهديات والرقائق، والترغيب والترهيب، بأسلوب العالم الناقد، والمحدث العبقري.

ويتكلم على الفِرَق الضالة والمبتدعة والمنحرفة، ويسوق آراء أئمة هذا الشأن، وينتصر لعقيدة أهل السنة والجماعة.

وقد كثرت موارده، وتنوعت حتى شملت كل لون من ألوان المعرفة، وازدحم كتابه بأسماء العلماء الذين نقل عنهم، على اختلاف طبقاتهم والعلوم التي مهروا فيها، وكذلك بالكتب الكثيرة جداً، التي بعضها طبع، وبعضها الآخر أصبح في خبر كان.

كل ذلك يشعر بأن هذا الإمام نادرة من النوادر، وكتابه فتح من الله ليس له في بابه نظير، فإنه مع كثرة فصوله وقلَّة فضوله؛ مختار الكلمات والعبارات، واضح السِّمات، نيِّر النسمات، وقد قُدِّرت ألفاظه قَدر معانيه،

وقـرِّرت قواعـده، وشيِّدت مبـانيـه، وغـالب مـا جـاء فيـه أفـرغ في قـالب الانسجام، وأتى به العقـل والخاطـر بلا تكلف، وجـاء لفظه تـابعاً لمعنـاه، منقـاداً له غيـر مستكره ولا منـافر، والله يمنّ على من يشـاء بما شـاء، لاإلّه إلَّا هو[1].

ولقد صدق النواجي إذ يقول[2] في ابن حجر:

لك منـطقٌ جــزلٌ رصينُ اللفظِ لا   مـتـكـلِّف لَـسَـنـاً ولا مُـتَـعَـسِّـفُ
مُـرْدٍ لسَفْسَافِ الكـلامِ إذا انتضى   حــدّاً لـنِحْـلَةِ حـائِــدٍ يَتَـفَلْسَـفُ

●● هـذا مجمل لخصـائص ومزايـا «فتح البـاري»، ومنهج الحـافظ فيـه، وأسلوبه وطـريقته في شـرحه ومعـالجته لأحـاديث «الصحيح». ويبقى الأمر بحاجة إلى بعض التفصيل وضـرب الأمثال، للبـرهان على مـا قدَّمنـا، فنقول:

١ ــ مـا يتعلق بالصحيـح وأسانيـده، ورجالـه وتراجمـه، ومعلَّقاتـه ومتابعاته، وما يقع من تصحيف لبعض رواته، ووهم رجاله، ونحو ذلك:

●● **دفاعه عن أسانيد البخاري**: من ذلك:

ــ «حـدثنا مسـدَّد قال: حـدثنا إسمـاعيل بن إبـراهيم قال: أخبـرنـا ابن جريج قال: أخبرني عطاء أنه سمـع أبا هـريرة رضي الله عنـه يقول: في كل صلاة يقرأ، فما أسْمَعَنا رسول الله ﷺ أسمعْناكم، وما أخفى عنـا أخفينا عنكم، وإن لم تزد على أمّ القرآن أجزأتْ، وإن زدتَ فهو خير».

يقـول الحـافظ: «قـولـه (إسمـاعيـل بن إبــراهيم): هـو المعــروف بابن عُلَيَّة، وقـد تكلم يحيـى بن مَعين في حديثـه عن ابن جريـج خـاصـة،

---

(١) اقتبست هذه العبارات بتصرف من كلام ابن حجـر على «حديث أم زرع»؛ الفتـح: ٩/٢٧٧.

(٢) الجواهر والدرر: ص ٤٣٩.

لكن تابعه عليه عبد الرزاق ومحمد بن بكر ويحيى بن أبي الحجاج عند أبي عوانة، وغُنْدَر عند أحمد، وخالد بن الحارث عند النسائي، وابن وهب عند ابن خزيمة؛ ستتهم عن ابن جريج، منهم من ذكر الكلام الأخير، ومنهم من لم يذكره. وتابع ابن جريج حبيبٌ المعلم عند مسلم وأبي داود، وحبيب بن الشهيد عند مسلم وأحمد، ورَقَبة[1] بن مَصْقَلة عند النسائي، وقيس بن سعد وعمارة بن ميمون عند أبي داود، وحسين المعلم عند أبي نعيم في المستخرج؛ ستتهم عن عطاء، منهم من طوَّله، ومنهم من اختصره»[2].

ـ وفي حديث آخر: «... عن الحسن عن أبي بَكْرة أنه انتهى إلى النبي ﷺ وهو راكع، فركع قبل أن يصل إلى الصف، فذكر ذلك للنبي ﷺ، فقال: (زادك الله حرصاً، ولا تَعُدْ)».

قال الحافظ: «قوله (عن الحسن): هو البصري، قوله (عن أبي بكرة): هو الثقفي. وقد أعلَّه بعضهم بأن الحسن عَنْعَنَهُ، وقيل: إنه لم يسمع من أبي بكرة، وإنما يروي عن الأحنف عنه. ورُدَّ هذا الإعلال برواية سعيد بن أبي عروبة عن الأعلم قال: «حدثني الحسن أن أبا بكرة حدَّثه» أخرجه أبو داود والنسائي»[3].

ـ وفي موضع آخر: «حدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا معاوية بن عمرو، حدثنا أبو إسحاق هو الفزاري عن عبد الله بن عبد الرحمن الأنصاري قال: سمعت أنساً رضي الله عنه يقول: دخل رسول الله ﷺ على ابنة مِلْحان، فاتكأ عندها، ثم ضحك...».

يقول ابن حجر: «وقع في هذا الإسناد «حدثنا أبو إسحاق هو

---

(١) في الفتح: «رقية»، وهو تصحيف.
(٢) الفتح: ٢/٢٥١، ٢٥٢.
(٣) الفتح: ٢/٢٦٧، ٢٦٨.

الفـزاري، عن عبد الله بن عبـد الرحمن الأنصـاري» هكـذا هـو في جميـع الروايات ليس بينهما أحد، وزعم أبو مسعود في «الأطراف» أنه سقط بينهمـا «زائدة بن قدامـة»، وأقرَّه المِـزِّي على ذلك، وقـوَّاه بأن المسيب بن واضـح رواه عـن أبـي إسحـاق الفزاري، عن زائـدة، عن أبـي طوالـة، وقـد قـال أبو علي الجياني: «تأملته في السيـر لأبـي إسحاق الفـزاري» فلم أجد فيهـا زائدة، ثم ساقه من طريق عبـد الملك بن حبيب عنه، عن أبـي طـوالة ليس بينهمـا زائـدة، وروايـة المسيب بن واضـح خـطأ، وهـو ضعيف لا يقضى بزيادته على خطأ ما وقع في الصحيح، ولا سيما وقـد أخرجـه الإمام أحمـد في «مسنـده» عن معاويـة بن عمرو شيـخ شيخ البخـاري فيـه كمـا أخـرجـه البخاري سواء ليس فيه زائدة. وسبب الـوهم من أبـي مسعود أن معـاوية بن عمـرو رواه أيضاً عن زائـدة، عن أبـي طوالـة، فـظن أبـو مسعـود أنـه عنـد معاوية بن عمرو، عن أبـي إسحاق، عن زائدة، وليس كذلك بل هـو عنده، عن أبـي إسحاق وزائدة معاً، جمعهما تارة وفرَّقهما أخرى، أخرجه أحمد عنه عـاطفـاً لـروايتـه عن أبـي إسحـاق على روايته عن زائـدة، وأخـرجـه الإسماعيلي من طريق أبـي خيثمة، عن معاويـة بن عمرو، عن زائـدة وحده به، وكذا أخرجه أبو عوانة في «صحيحه»، عن جعفر الصائـغ عن معاويـة. فوضحت صحة ما وقع في الصحيح، ولله الحمد»[1].

●● ويدافع عن صحـة أحاديثـه، ويشتد في الإنكـار على من يطعن بها:

ـ من ذلـك حـديث ابن عمـر في الصـلاة على عبـد الله بن أُبـيّ، وقـوله ﷺ: (إنمـا خيَّرني الله ـ أو أخبـرني الله ـ فقـال: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾، فقال: سأزيدُه على سبعين. قـال: فصلى عليه رسـولُ الله ﷺ وصلّينا معـه، ثم أنـزلَ اللَّهُ

(١) الفتح: ٦/٧٧.

عليه: ﴿ولا تصلِّ عَلَى أحدٍ منهمْ ماتَ أَبَداً ولا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إنَّهم كفَرُوا باللَّهِ ورسولِهِ وماتُوا وهمْ فاسقون﴾».

يقول الحافظ: «واستشكل فهم التخيير من الآية، حتى أقدم جماعة من الأكابر على الطعن في صحة هذا الحديث مع كثرة طرقه واتفاق الشيخين وسائر الذين خرجوا الصحيح على تصحيحه، وذلك ينادي على منكري صحته بعدم معرفة الحديث وقلة الاطلاع على طرقه...»(١).

●● وينافح عن رجال البخاري ويبين دقته في الرواية عنهم:

ففي قصة فاطمة بنت قيس جاء في آخر أحاديث الباب: «وزاد ابن أبي الزناد، عن هشام، عن أبيه: عابت عائشة أشد العيب وقالت: إن فاطمة كانت في مكان وحش، فخيف على ناحيتها، فلذلك أرخص لها النبي ﷺ».

قال الحافظ: «طعن أبو محمد ابن حزم في رواية ابن أبي الزناد المعلَّقة فقال: عبد الرحمن بن أبي الزناد ضعيف جداً. وحكم على روايته هذه بالبطلان، وتعقب بأنه مختلف فيه، ومن طعن فيه لم يذكر ما يدل على تركه، فضلاً عن بطلان روايته. وقد جزم يحيى بن مَعين بأنه من أثبت الناس في هشام بن عروة، وهذا من روايته عن هشام؛ فللَّه درّ البخاري ما أكثر استحضاره، وأحسن تصرفه في الحديث والفقه(٢)».

ـ وفي موضع آخر: «حدثنا أبو نعيم قال: حدثنا سفيان، عن سعد بن إبراهيم، عن عبد الرحمن ـ هو ابن هرمز ـ عن أبي هريرة

---

(١) الفتح: ٨/٣٣٨. وانظر رد الحافظ مفصلاً ص ٣٣٨ ـ ٣٣٩. وفي دفاع الحافظ عن أحاديث الصحيح، انظر أمثلة أخرى في: ١/٤١٣، ٨/٤٤٤، ١٢/١٧٧، ١٣/١٢. هذا وقد أفرد الحافظ في «هدي الساري» فصلاً مستقلاً للرد على انتقادات الدارقطني لبعض أحاديث الصحيح، وأعاد هذا الرد في «الفتح» أحياناً، لبُعد العهد به.

(٢) الفتح: ٩/٤٧٧، ٤٨٠.

رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ يقرأ في الجمعة في صلاة الفجر ألم تنزيلُ السجدة، وهل أتى على الإنسان».

قال ابن حجر: «وقد أشار أبو الوليد الباجي في «رجال البخاري» إلى الطعن في سعد بن إبراهيم لروايته لهذا الحديث، وأن مالكاً امتنع من الرواية عنه لأجله، وأن الناس تركوا العمل به لا سيما أهل المدينة. اهـ. وليس كما قال فإن سعداً لم ينفرد به مطلقاً، فقد أخرجه مسلم من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس مثله، وكذا ابن ماجه والطبراني من حديث ابن مسعود، وابن ماجه من حديث سعد بن أبي وقاص، والطبراني في «الأوسط» من حديث علي. وأما دعواه أن الناس تركوا العمل به؛ فباطلة لأن أكثر أهل العلم من الصحابة والتابعين قد قالوا به، كما نقله ابن المنذر وغيره، حتى إنه ثابت عن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف والد سعد ــ وهو من كبار التابعين من أهل المدينة ــ أنه أمَّ الناس بالمدينة بهما في الفجر يوم الجمعة، أخرجه ابن أبي شيبة بإسناد صحيح. وكلام ابن العربي يشعر بأن ترك ذلك أمر طرأ على أهل المدينة، لأنه قال: وهو أمر لم يُعلم بالمدينة فالله أعلم بمن قطعه كما قطع غيره. اهـ. وأما امتناع مالك من الرواية عن سعد، فليس لأجل هذا الحديث، بل لكونه طعن في نسب مالك، كذا حكاه ابن البرقي عن يحيى بن معين. وحكى ابن أبي حاتم عن علي بن المديني قال: كان سعد بن إبراهيم لا يحدث بالمدينة، فلذلك لم يكتب عنه أهلها. وقال الساجي: أجمع أهل العلم على صدقه، وقد روى مالك عن عبد الله بن إدريس عن شعبة عنه، فصحَّ أنه حجة باتفاقهم. قال: ومالك إنما لم يروِ عنه لمعنى معروف، فأما أن يكون تكلم فيه، فلا أحفظ ذلك. اهـ»[1].

●● ويتكلم على منهج البخاري وعادته في سوق الأسانيد،

---

(١) الفتح: ٢/٣٧٧، ٣٧٨.

وآرائه الحديثية والفقهية، وتفسير ألفاظ القرآن، وإطلاقه لأسماء شيوخه، وأنه جمع في «صحيحه» بين الرواية والدراية:

ـ فمن ذلك كلامه على حديث البخاري: «وقال لنا سليمان بن حرب، حدثنا حماد، عن أيوب، عن نافع قال: ما ردَّ ابن عمر على أحد وصيَّته».

يقول الحافظ: «قوله (وقال لنا سليمان بن حرب... إلخ): هو موصول، وسليمان من شيوخ البخاري، وجرت عادة البخاري الإتيان بهذه الصيغة في الموقوفات غالباً، وفي المتابعات نادراً، ولم يصب من قال: إنه لا يأتي بها إلاَّ في المذاكرة، وأبعد من قال: إن ذلك للإجازة»[1].

وأكَّد ذلك في مواضع كثيرة، منها كلامه على حديث البخاري: «وقال لي علي بن عبد الله حدثنا يحيى بن آدم، حدثنا ابن أبي زائدة...»، حيث يقول ابن حجر: «قوله (وقال لي علي بن عبد الله): أي ابن المديني، كذا لأبي ذر والأكثر، وفي رواية النسفي: «وقال علي»، بحذف المحاورة، وكذا جزم به أبو نعيم، لكن أخرجه المصنف في التاريخ[2]، فقال: «حدثنا علي بن المديني»، وهذا مما يقوي ما قررتُه غير مرة من أنه يعبر بقوله «وقال لي» في الأحاديث التي سمعها، لكن حيث يكون في إسنادها عنده نظر، أو حيث تكون موقوفة، وأما من زعم أنه يعبر بها فيما أخذه في المذاكرة أو بالمناولة؛ فليس عليه دليل»[3].

ـ وإذا أورد البخاري الحديث عن غير واحد من الرواة، فيقول الحافظ في ذلك: «وقد ظهر بالاستقراء من صنيع البخاري أنه إذا أورد الحديث عن غير واحد؛ فإن اللفظ يكون للأخير، والله أعلم»[4].

---

(١) الفتح: ٥/٣٩٤.

(٢) يعني البخاري في «تاريخه».

(٣) الفتح: ٥/٤١٠؛ وانظر كذلك: ٥/٣.

(٤) الفتح: ١/٤٣٦.

ـ ويبين آراء البخاري الحديثية: ففي حديث أم عطية قالت: «كنا لا نعدُّ الكُدرة والصفرة شيئاً»، يقول ابن حجر: «قوله (كنا لا نعد): أي في زمن النبي ﷺ، مع علمه بذلك، وبهذا يعطي الحديث حكم الرفع، وهو مصير من البخاري إلى أن مثل هذه الصيغة، تعدّ في المرفوع، ولو لم يصرِّح الصحابي بذكر زمن النبي ﷺ، وبهذا جزم الحاكم وغيره خلافاً للخطيب»[(١)].

وأكَّد الحافظ ذلك في غير موضع من الفتح، ومنه قوله: «وإخراج المصنف لهذا الحديث مشعر بأنه كان يرى أن قول الصحابي «كنا نفعل كذا» مسند ولو لم يصرّح بإضافته إلى زمن النبي ﷺ . . .»[(٢)].

وفي موضع آخر يقول: «وهو مصير من البخاري إلى أن الصحابي إذا قال: سنة محمد، أو فطرته؛ كان حديثاً مرفوعاً. وقد خالف فيه قوم، والراجح الأول»[(٣)].

ـ ويبين آراء البخاري الفقهية: من ذلك قول البخاري: «باب وجوب صلاة الجماعة. وقال الحسن: إن منعته أمه عن العِشاء في الجماعة شفقةً، لم يطعها».

يقول الحافظ: «قوله (باب وجوب صلاة الجماعة): هكذا بتّ الحكم في هذه المسألة، وكأن ذلك لقوة دليلها عنده، لكن أطلق الوجوب وهو أعم من كونه وجوب عين أو كفاية، إلا أن الأثر الذي ذكره عن الحسن يشعر بكونه يريد أنه وجوب عين؛ لما عُرف من عادته أنه يستعمل الآثار في التراجم لتوضيحها وتكميلها، وتعيين أحد الاحتمالات في حديث الباب»[(٤)].

---

(١) الفتح: ١/٤٢٦.
(٢) الفتح: ٢/٢٧ ـ ٢٨؛ وانظر الحديث ص ٢٦.
(٣) الفتح: ٢/٢٧٥؛ وانظر كذلك: ص ٣٢٥.
(٤) الفتح: ٢/١٢٥.

وفي موضع آخر: «باب هل على مَنْ لم يشهد الجمعة غُسلٌ من النساء والصبيان وغيرهم؟ وقال ابن عمر: إنما الغسل على من تجب عليه الجمعة».

ويعقب الحافظ قائلاً: «وقد تقرر أن الآثار التي يوردها البخاري في التراجم تدل على اختيار ما تضمنته عنده، فهذا مصير منه إلى أن الغسل للجمعة لا يشرع إلاَّ لمن وجبت عليه»[1].

ـ ويتكلم على عادته في تفسير ألفاظ القرآن، إذا وقع في الحديث لفظ يوافق اللفظ القرآني: ففي إحدى تراجم البخاري: «باب أهل الدار يبيتون، فيصاب الولدان والذراري، ﴿بَيَاتاً﴾: ليلاً، ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُ﴾: ليلاً، (بَيَّتَ): ليلاً» يقول ابن حجر: «قوله ﴿بياتاً﴾ ليلاً، وهذه عادة المصنف إذا وقع في الخبر لفظة توافق ما وقع في القرآن، أورد تفسير اللفظ الواقع في القرآن، جمعاً بين المصلحتين، وتبركاً بالأمرين»[2].

ـ وفي إطلاقه لأسماء شيوخه، يبين الحافظ عند حديث البخاري: «حدثنا محمد، أخبرنا وكيع، عن شعبة، عن محارب بن دثار، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ لما قدم المدينة نحر جَزُوراً أو بقرة...»، فيقول:

«وقوله في أول السند (حدثنا محمد): هو ابن سلام وقد حدث به عن وكيع، وممن يسمى محمداً من شيوخ البخاري محمد بن المثنى ومحمد بن العلاء، وغيرهما، ولكن تقرر أن البخاري حيث يطلق «محمد» لا يريد إلاَّ الذهلي أو ابن سلام، ويعرف تعيين أحدهما من معرفة من يروي عنه، والله أعلم»[3].

---

(١) الفتح: ٢/٣٨١، ٣٨٢ ـ ٣٨٣. وانظر كذلك مثلاً: ٥/٢٦٤، ٣٧٧، ٩/٤٢٠.
(٢) الفتح: ٦/١٤٦.
(٣) الفتح: ٦/١٩٤ ـ ١٩٥.

- ويقرر الحافظ أن الإمام البخاري قد جمع في صحيحه بين الرواية والدراية، فيقول عن الصحيح:

«وهذا الكتاب وإن كان أصل موضوعه إيراد الأحاديث الصحيحة، فإن أكثر العلماء فهموا من إيراده أقوال الصحابة والتابعين وفقهاء الأمصار؛ أن مقصوده أن يكون كتابه جامعاً للرواية والدراية، ومن جملة الدراية شرح غريب الحديث. وجرت عادته أن الحديث إذا وردت فيه لفظة غريبة وقعت أو أصلها أو نظيره في القرآن، أن يشرح اللفظة القرآنية، فيفيد تفسير القرآن وتفسير الحديث معاً»[1].

وفي موضع آخر ينقل كلام الكرماني في اعتراضه على البخاري لإيراده بعض المباحث الفقهية، حيث يقول: «وأمثال هذه المباحث غير مناسبة لوضع هذا الكتاب، إذ هو خارج عن فنّه». فيردّ الحافظ عليه قائلاً:

«وهو عجب منه، لأن كتاب البخاري ـ كما تقدم تقريره ـ لم يقصد به إيراد الأحاديث نقلاً صرفاً بل ظاهر وضعه أنه يجعل كتاباً جامعاً للأحكام وغيرها، وفقهه في تراجمه. فلذلك يورد فيه كثيراً الاختلاف العالي، ويرجّح أحياناً، ويسكت أحياناً توقفاً عن الجزم بالحكم، ويورد كثيراً من التفاسير، ويشير فيه إلى كثير من العلل وترجيح بعض الطرق على بعض، فإذا أورد فيه شيئاً من المباحث لم تستغرب. وأما رمزه إلى أن طريقة البحث ليست من فنّه؛ فتلك شكاة ظاهر عنك عارها، فللبخاري أسوة بالأئمة الذين سلك طريقهم، كالشافعي وأبي ثور والحميدي وأحمد وإسحاق، فهذه طريقتهم في البحث، وهي محصلة للمقصود، وإن لم يعرجوا على اصطلاح المتأخرين»[2].

●● ويبين مبهمات إسناده، أو ما قد يختلط بغيره من الرواة:

ففي حديث البخاري: «حدثنا حبان بن موسى، أخبرنا عبد الله، عن

---

(1) الفتح: ٦/٣٦٦.

(2) الفتح: ١٢/٣٢٥.

خالد بن سعيد، عن أبيه، عن أم خالد بنت خالد بن سعيد قالت. . . »[1]، يقول ابن حجر:

«خالد بن سعيد المذكور في السند شيخ عبد الله وهو ابن المبارك، هو خالد بن سعيد بن عمرو بن سعيد بن العاص، أخو إسحاق بن سعيد، وليس له في البخاري سوى هذا الحديث الواحد، وقد كرره عنه كما نبهت عليه. وفي طبقته خالد بن سعيد بن أبي مريم المدني، لكن لم يخرج له البخاري، ولا لابن المبارك عنه رواية»[2].

ــ وفي موضع آخر: «حدثني محمد بن سلام أخبرنا الفَزاريُّ عن حُمَيد، عن أنس رضي الله عنه قال: «كَسَرَتِ الرُّبَيِّعُ ــ وهي عمة أنس بن مالك ــ ثنيَّةَ جارية من الأنصار. . . ». قال الحافظ: «الفزاري المذكور في هذا الإسناد هو مروان بن معاوية، ووهم من زعم أنه أبو إسحاق»[3].

ــ وعقب حديث ابن عمر: «من فعل هذا؟ إن النبي ﷺ لعن من فعل هذا»، قال البخاري: «تابعه سليمان عن شعبة، حدثنا المِنهال عن سعيد، عن ابن عمر: «لعنَ النبيُّ ﷺ من مثَّل بالحيوان»[4].

يقول ابن حجر: «قوله (تابعه سليمان): هو ابن حرب، ووهم مُغَلْطاي وتبعه شيخنا ابن المُلَقِّن وغيره فجزموا بأن سليمان هذا هو أبو داود الطيالسي، واستند إلى أن أبا نعيم أخرجه في «مستخرجه» من طريق أبي خليفة عن الطيالسي. قلت[5]: وهو غلط ظاهر، فإن الطيالسي الذي يروي عنه أبو خليفة هو أبو الوليد، واسمه هشام بن عبد الملك، ولم يدرك

---

(١) الفتح: ٦/١٨٣.
(٢) الفتح: ٦/١٨٤ ــ ١٨٥.
(٣) الفتح: ٨/٢٧٤ ــ ٢٧٥.
(٤) الفتح: ٩/٦٤٣.
(٥) القائل هو ابن حجر.

أبو خليفة أبا داود الطيالسي، فإن مولده بعد وفاته بسنتين، مات أبو داود سنة أربع ومائتين على الصحيح، وولد أبو خليفة سنة ست ومائتين. والمنهال المذكور في السند هو ابن عمرو»[1].

●● ويتكلم على رجال إسناده بعبارة وجيزة، جامعة دقيقة، ومن ذلك:

ـ حديث: «وقال بكر بن سوادة حدثنا زياد بن نافع عن أبي موسى أن جابراً حدثهم: صلّى النبي ﷺ بهم يوم محارب وثعلبة»[2].

يقول الحافظ: «أما بكر بن سوادة: فهو الجذامي المصري، يكنى أبا ثمامة، وكان أحد الفقهاء بمصر، وأرسله عمر بن عبد العزيز إلى أهل إفريقية ليفقههم، فمات بها سنة ثمان وعشرين ومائة، وثّقه ابن معين والنسائي. وليس له في البخاري سوى هذا الموضع المعلّق، وقد وصله سعيد بن منصور والطبري من طريقه بهذا الإسناد. وأما زياد بن نافع فهو التجيبي المصري، تابعي صغير، وليس له أيضاً في البخاري سوى هذا الموضع. وأما أبو موسى: فيقال إنه علي بن رباح، وهو تابعي معروف أخرج له مسلم. ويقال: هو الغافقي، واسمه مالك بن عبادة، وهو صحابي معروف أيضاً. ويقال إنه مصري لا يعرف اسمه. وليس له في البخاري أيضاً إلّا هذا الموضع»[3].

ـ وحديث البخاري: «حدثنا إسماعيل قال: حدثني سليمان عن يحيى بن سعيد، عن القاسم أن ابن خباب أخبره أنه سمع أبا سعيد يحدث أنه كان غائباً فقدم، فقدِّم إليه لحم، قالوا: هذا من لحم ضحايانا...».

---

(١) الفتح: ٩/٦٤٤. وانظر أمثلة أخرى في الفتح: ٤/١٩٠ ـ ١٩١، ٣١٧، ٤٣٨، ٤٦٣؛ ٥/٤٥، ١٤٧، ٢٢٩، ٣٠٨، ٣٧٠؛ ٧/١٦٧، ١٧٩؛ ٨/٢٦؛ ١١/٤٠١، ٤٢٣؛ ١٣/٣٦٠. وغيرها كثير.

(٢) الفتح: ٧/٤١٧، والمراد صلاة الخوف.

(٣) الفتح: ٧/٤٢٠.

يقـول الحـافظ: «قـولـه (حـدثنـا إسمـاعيـل): هـو ابن أبـي أويس، وسليمـان هـو ابن بـلال، ويحيـى بن سعيـد هـو الأنصـاري، والقـاسم هـو ابن محمد بن أبـي بكر الصديق، وابن خَبَّاب ـ بمعجمة وموحـدتين الأولى ثقيلة ـ اسمـه عبد الله. والإسنـاد كله مدنيـون، وفيه ثـلاثة من التـابعين في نسق، يحيـى والقـاسم وشيخـه، وفيـه صحـابيـان: أبـو سعيـد وقتـادة بن النعمان»[1].

●● وينبـه على أخطاء أو تصحيفـات أو تحـريف أو سقط في نسـخ وروايات الصحيح، أو اختلاف ألفاظ الروايات:

ـ من ذلـك ما جـاء في «باب من سـاق البُدْنَ معـه»، فذكـر حـديث ابن عمر في صفة حجة النبـي ﷺ وآخره: «ثم حلَّ من كل شيء حَـرُمَ منه. وفعلَ مثلَ مـا فعلَ رسـولُ الله ﷺ مَنْ أهدى وسـاق الهَدْي مِنَ النـاس». ثم جـاء بعـده حـديث: «وعن عـروة أن عـائشـة رضي الله عنهـا أخبـرتـه عن النبـي ﷺ في تمتّعه بالعمرة إلى الحج...»[2].

يقـول ابن حجـر: «تنبيـه: وقـع بين قـولـه: «وفعــل مثـل مــا فعـل رسول الله ﷺ» وبين قولـه: «من أهدى وسـاق الهَدْي من النـاس» في رواية أبـي الوقت لفظ «باب»، وقال: «فيه عن عروة، عن عائشة... إلخ»؛ وهـو خطأً شنيع، فإن قوله «من أهدى» فاعل قوله «وفعـل»، فالفصـل بينهما بلفظ «باب» خطأ، ويصير فاعل «فعل» محذوفاً. وأغـرب الكرمـاني فشرحـه على أن فاعل «فعل» هو ابن عمر راوي الخبر»[3]!!

---

(1) الفتـح: ١٠/٢٣ ـ ٢٤، ٢٥. وانـظر للمـزيـد مثـلاً: ٥/٣٦٠، ٣٦١، ٣٦٣؛ ٦/١٨، ٥٠، ١٣٦، ٥٤١؛ ٧/٤٢٦ ـ ٤٢٧؛ ٨/١٩٥، ٣٠٣؛ ٩/٩٢؛ ١٠/١٣٧؛ ١١/٥٢٨؛ ١٣/٣٨٠.

(2) الفتح: ٣/٥٣٩.

(3) الفتح: ٣/٥٤١.

- وفي قوله ﷺ: (إن الله حبس عن مكة الفيل، وسلَّط عليها رسوله والمؤمنين)، يقول الحافظ: «قوله (القتل): بالقاف والمثناة للأكثر، وللكشميهني: بالفاء والتحتانية[1]، والثاني هو الصواب»[2].

- وفي حديث آخر: عن أبي مسعود، رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته...)[3]، يقول الحافظ: «قوله (عن أبي مسعود): كذا في الأصول بأداة الكنية، وهو أبو مسعود البدري، ووقع في بعض النسخ «عن ابن مسعود» بالموحدة والنون؛ وهو تصحيف»[4].

- وفي «باب مَنْ تَصدَّقَ إلى وكيلِه ثم ردَّ الوكيلُ إليهِ» يقول ابن حجر: «هذه الترجمة وحديثها سقط من أكثر الأصول، ولم يشرحه ابن بطال، وثبت في رواية أبي ذر عن الكشميهني خاصة، لكن في روايته «على وكيله». وثبتت الترجمة وبعض الحديث في رواية الحموي»[5].

- وفي «باب التعوذ من عذاب القبر»، وذكر البخاري فيه ثلاثة أحاديث، يقول الحافظ: «قوله (باب التعوذ من البخل)[6]: كذا وقعت هذه الترجمة هنا للمستملي وحده، وهي غلط من وجهين: أحدهما: أن الحديث الأول في الباب وإن كان فيه ذكر البخل لكن قد ترجم لهذه الترجمة بعينها بعد أربعة أبواب، وذكر فيه الحديث المذكور بعينه. ثانيهما:

---

(١) أي «الفيل».
(٢) الفتح: ٥/٨٧.
(٣) الفتح: ٦/٢٩٧.
(٤) الفتح: ٦/٣٠٠.
(٥) الفتح: ٥/٣٨٧.
(٦) هذه الترجمة جاءت في الشرح، وحذفت من متن «الصحيح»، لأن وقوعها هنا خطأ كما نبه ابن حجر.

أن الحديث الثاني مختص بعذاب القبر، لا ذكر للبخل فيه أصلاً، فهو بقية من الباب الذي قبله، وهو اللائق به»[١].

●● **ويتكلم على مناسبات تراجم البخاري، وعاداته في سوقها واختيار ألفاظها وأحاديثها، ويردُّ على المتعقبين له فيها:**

ـ ففي «باب الجهاد من الإيمان» يقول الحافظ: «قوله (باب الجهاد من الإيمان): أورد هذا الباب بين قيام ليلة القدر وبين قيام رمضان وصيامه، فأما مناسبة إيراده معها في الجملة فواضح لاشتراكها في كونها من خصال الإيمان. وأما إيراده بين هذين البابين مع أن تعلُّق أحدهما بالآخر ظاهر؛ فلنكتة لم أرَ من تعرض لها، بل قال الكرماني: صنيعه[٢] دال على أن النظر مقطوع عن غير هذه المناسبة، يعني اشتراكها في كونها من خصال الإيمان. وأقول: بل قيام ليلة القدر وإن كان ظاهر المناسبة لقيام رمضان، لكن للحديث الذي أورده في «باب الجهاد» مناسبة بالتماس ليلة القدر حسنة جداً؛ لأنَ التماس ليلة القدر يستدعي محافظة زائدة ومجاهدة تامة، ومع ذلك فقد يوافقها أو لا، وكذلك المجاهد يلتمس الشهادة، ويقصد إعلاء كلمة الله، وقد يحصل له ذلك أو لا، فتناسبا في أن في كل منهما مجاهدة، وفي أن كلاً منهما قد يحصل المقصود الأصلي لصاحبه أو لا. فالقائم لالتماس ليلة القدر مأجور، فإن وافقها كان أعظم أجراً، والمجاهد لالتماس الشهادة مأجور، فإن وافقها كان أعظم أجراً»[٣].

ـ وفي «باب صيام البيض: ثلاث عشرة، وأربع عشرة، وخمس

---

(١) الفتح: ١١/١٧٤. والأمثلة على هذا كثيرة، فمثلاً: ٣/٤٣٨، ٤٨٤؛ ٤/١٥١، ١٥٩، ٢٦٩، ٣٠٠، ٣٤٨، ٤٣٢؛ ٥/٤٠، ٧٨، ١١٠، ١٢٠، ١٢٩، ١٥٠، ١٩٧، ٢٤٨، ٢٥١، ٢٧٣، ٢٩٨، ٣٥١؛ ٦/٢١١؛ ٨/٩٧، ٣٧٩، ٥٤٠؛ ٩/٥٥؛ ١٢/١٠٩.

(٢) أي صنيع البخاري في هذه الترجمة.

(٣) الفتح: ١/٩٢.

عشرة» حيث أورد البخاري حديث أبي هريرة: «أوصاني خليلي ﷺ بثلاث: صيام ثلاثة أيام من كل شهر، وركعتي الضحى، وأن أوتر قبل أن أنام».

يقول ابن حجر: «قال الإسماعيلي وابن بطال وغيرهما: ليس في الحديث الذي أورده البخاري في هذا الباب ما يطابق الترجمة، لأن الحديث مطلق في ثلاثة أيام من كل شهر، والبيض مقيدة بما ذكر. وأجيب: بأن البخاري جرى على عادته في الإيماء إلى ما ورد في بعض طرق الحديث، وهو ما رواه أحمد والنسائي وصححه ابن حبان من طريق موسى بن طلحة، عن أبي هريرة قال: «جاء أعرابي إلى النبي ﷺ بأرنب قد شواها، فأمرهم أن يأكلوا، وأمسك الأعرابي، فقال: (ما منعك أن تأكل؟) فقال: إني أصوم ثلاثة أيام من كل شهر. قال: (إن كنت صائماً فَصُمِ الغرّ) أي البيض»[1].

ـ وفي كتاب المساقاة «باب من رأى أن صاحب الحوض والقِربة أحق بمائه» أورد البخاري عدة أحاديث، ومنها حديث هاجر مع «جُرْهُم» حيث قالوا لها: «أتأذنين أن ننزل عندك؟ قالت: نعم، ولا حقَّ لكم في الماء، قالوا: نعم».

يقول الحافظ: «أورده مختصراً جداً، وسيأتي مطولاً في «أحاديث الأنبياء»، ومناسبته للترجمة من جهة قولها للذين نزلوا عليها: ولا حقَّ لكم في الماء، قالوا: نعم»[2].

●● ويفسر التراجم بكلام دقيق، واستيعاب وتحقيق، وإذا كانت الترجمة لفظ حديث أو معناه، بيَّنه، ويجيب عن الإشكالات الواردة، ويرد على العلماء في هذا، فمن ذلك:

---

(١) الفتح: ٤/٢٢٦.

(٢) الفتح: ٥/٤٣. والكلام في هذا المجال طويل وكثير ومبثوث. في الفتح.

ـ «باب وقف الدوابِّ والكُراعِ والعُروض والصامتِ»: يقول ابن حجر: «هذه الترجمة معقودة لبيان وقف المنقولات، والكُراع ـ بضم الكاف وتخفيف الراء ـ: اسم لجميع الخيل، فهو بعد الدواب من عطف الخاص على العام. والعُروض ـ بضم المهملة ـ: جمع عرْض ـ بالسكون ـ وهو جميع ما عدا النقد من المال. والصامت ـ بالمهملة ـ بلفظ ضد الناطق، والمراد من النقد الذهب والفضة. ووجه أخذ ذلك من حديث الباب المشتمل على قصة فرس عمر أنها دالة على صحة وقف المنقولات، فيلحق به ما في معناه من المنقولات إذا وجد الشرط وهو تحبيس العين، فلا تباع ولا توهب، بل ينتفع بها، والانتفاع في كل شيء بحسبه»[1].

ـ «باب حديثِ الإسراء، وقولِ الله تعالى: ﴿سُبْحانَ الَّذي أسْرَى بعبْدِهِ لَيْلاً منَ المَسْجِدِ الحَرَامِ إلى المَسْجِدِ الأَقْصَى﴾ ».

يقول ابن حجر: «قال ابن دحية: جنح البخاري إلى أن ليلة الإسراء كانت غير ليلة المعراج، لأنه أفرد لكل منهما ترجمة. قلت: ولا دلالة في ذلك على التغاير عنده، بل كلامه في أول الصلاة ظاهر في اتحادهما، وذلك أنه ترجم «باب كيف فرضت الصلاة ليلة الإسراء»، والصلاة إنما فرضت في المعراج، فدلَّ على اتحادهما عنده، وإنما أفرد كلاً منهما بترجمة لأن كلاً منهما يشتمل على قصة مفردة، وإن كانا وقعا معاً»[2].

ـ وفي «باب الشرب قائماً» يقول الحافظ: «قال ابن بطال: أشار بهذه الترجمة إلى أنه لم يصحّ عنده الأحاديث الواردة في كراهة الشرب قائماً. كذا قال، وليس بجيد، بل الذي يشبه صنيعه أنه إذا تعارضت عنده الأحاديث لا يثبت الحكم»[3].

---

(١) الفتح: ٥/٤٠٥.
(٢) الفتح: ٧/١٩٦.
(٣) الفتح: ١٠/٨١.

ـ ومن أمثلة كون الترجمة لفظ حديث قولُ البخاري: «باب لا وصية لوارث»، فيقول الإمام الحافظ: «هذه الترجمة لفظ حديث مرفوع كأنه لم يثبت على شرط البخاري، فترجم به كعادته، واستغنى بما يعطي حكمه. وقد أخرجه أبو داود والترمذي وغيرهما من حديث أبي أمامة «سمعت رسول الله ﷺ يقول في خطبته في حجة الوداع: إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه، فلا وصية لوارث». وفي إسناده إسماعيل بن عياش، وقد قوَّى حديثَه عن الشاميين جماعةٌ من الأئمة منهم أحمد والبخاري، وهذا من روايته عن شرحبيل بن مسلم وهو شامي ثقة، وصرح في روايته بالتحديث عند الترمذي، وقال الترمذي حديث حسن»[(١)].

ـ أو جاء في معنى الترجمة حديث أو أكثر، ففي «باب تمني الشهادة»، يقول الحافظ: «وفي الباب أحاديث صريحة في ذلك، منها: عن أنس مرفوعاً: (من طلب الشهادة صادقاً أعطيها ولو لم يصبها) أي أعطي ثوابها ولو لم يقتل. أخرجه مسلم. وأصرح منه في المراد ما أخرجه الحاكم بلفظ: (من سأل القتل في سبيل الله صادقاً ثم مات أعطاه الله أجر شهيد). وللنسائي من حديث معاذ مثله. وللحاكم من حديث سهل بن حنيف مرفوعاً: (من سأل الله الشهادة بصدق؛ بلَّغه الله منازل الشهداء، وإن مات على فراشه) »[(٢)].

●● كما ينبه على براعة البخاري في ترتيب أحاديث الباب الواحد، وترتيب الأبواب كذلك:

ـ ففي «باب الإبراد بالظهر في شدَّة الحر» ذكر البخاري عدة أحاديث، يقول الحافظ في ترتيبها: «رتب المصنف أحاديث هذا الباب ترتيباً حسناً، فبدأ بالحديث المطلق، وثنَّى بالحديث الذي فيه الإرشاد إلى

(١) الفتح: ٥/٣٧٢.
(٢) الفتح: ٦/١٦. والأمثلة في هذا كثيرة جداً.

غاية الوقت الذي ينتهي إليها الإبراد، وهو ظهور فَيْء التلول، وثلَّث بالحديث الذي فيه بيان العلة في كون ذلك المطلق محمولاً على المقيد، وربَّع بالحديث المفصح بالتقييد»[1].

ــ وفي موضع آخر يقول الحافظ: «وذكر البخاري في الباب أحاديث تدل على نفي صوم يوم الشكِّ، رتبها ترتيباً حسناً: فصدَّرها بحديث عمار المصرِّح بعصيان من صامه، ثم بحديث ابن عمر من وجهين أحدهما بلفظ: (فإن غُمَّ عليكم فاقدروا له)، والآخر بلفظ: (فأكملوا العدة ثلاثين)، وقصد بذلك بيان المراد من قوله: (فاقدروا له). ثم استظهر بحديث ابن عمر أيضاً: (الشهر هكذا وهكذا، وحبس الإبهام في الثالثة)، ثم ذكر شاهداً من حديث أبي هريرة لحديث ابن عمر، مصرحاً بأن عدة الثلاثين المأمور بها تكون من شعبان، ثم ذكر شاهداً لحديث ابن عمر في كون الشهر تسعاً وعشرين من حديث أم سلمة مصرحاً فيه بأن الشهر تسع وعشرون، ومن حديث أنس كذلك»[2].

ــ وفي كلام الحافظ على ترتيب البخاري أبواب صحيحه أذكر هذا المثال:

يقول ابن حجر: «وقد تأملت كتاب الصلاة منه، فوجدته مشتملاً على أنواع تزيد على العشرين، فرأيت أن أذكر مناسبتها في ترتيبها قبل الشروع في شرحها؛ فأقول: بدأ أولاً بالشروط السابقة على الدخول في الصلاة وهي الطهارة، وستر العورة، واستقبال القبلة، ودخول الوقت، ولما كانت الطهارة تشتمل على أنواع أفردها بكتاب. واستفتح كتاب الصلاة بذكر فرضيتها، لتعين وقته دون غيره من أركان الإسلام، وكان ستر العورة

---

(١) الفتح: ٢/ ٢٠.

(٢) الفتح: ٤/ ١٢٠. وانظر مثلاً: ١/ ٢٠٢، ٢١٠؛ ٣/ ٢٤٦؛ ٤/ ٨٦، ٣٩٧، وغيرها.

لا يختص بالصلاة فبدأ به لعمومه، ثم ثنى بالاستقبال للزومه في الفريضة والنافلة إلاَّ ما استثني كشدة الخوف ونافلة السفر، وكان الاستقبال يستدعي مكاناً فذكر المساجد، ومن توابع الاستقبال سترة المصلي؛ فذكرها، ثم ذكر الشرط الباقي وهو دخول الوقت وهو خاص بالفريضة. وكان الوقت يشرع الإعلام به فذكر الأذان، وفيه إشارة إلى أنه حق الوقت، وكان الأذان إعلاماً بالاجتماع إلى الصلاة؛ فذكر الجماعة، وكان أقلها إماماً ومأموماً؛ فذكر الإمامة. ولما انقضت الشروط وتوابعها؛ ذكر صفة الصلاة، ولما كانت الفرائض في الجماعة قد تختص بهيئة مخصوصة ذكر الجمعة والخوف، وقدَّم الجمعة لأكثريتها. ثم تلا ذلك بما يُشرع فيه الجماعة من النوافل، فذكر العيدين والوتر والاستسقاء والكسوف وأخَّره لاختصاصه بهيئة مخصوصة وهي زيادة الركوع، ثم تلاه بما فيه زيادة سجود، فذكر سجود التلاوة لأنه قد يقع في الصلاة، وكان إذا وقع اشتملت الصلاة على زيادة مخصوصة، فتلاه بما يقع فيه نقص من عددها وهو قصر الصلاة. ولما انقطع ما يشرع فيه الجماعة، ذكر ما لا يستحب فيه وهو سائر التطوعات. ثم للصلاة بعد الشروع فيها شروط ثلاثة وهي: ترك الكلام، وترك الأفعال الزائدة، وترك المفطر؛ فترجم لذلك. ثم بطلانها يختص بما وقع على وجه العمد، فاقتضى ذلك ذكر أحكام السهو. ثم جميع ما تقدم متعلق بالصلاة ذات الركوع والسجود، فعقَّب ذلك بصلاة لا ركوع فيها ولا سجود، وهي الجنازة. هذا آخر ما ظهر من مناسبة ترتيب كتاب الصلاة من هذا الجامع الصحيح، ولم يتعرض أحد من الشراح لذلك، فللّه الحمد على ما ألهم وعلَّم»(١).

●● ويبين دقة نظر البخاري في تكرار الحديث، وفائدة إعادته، وجواز تقطيعه:

ويقول في ذلك: «وننبه هنا على فائدتين: إحداهما أن البخاري

---

(١) الفتح: ٤٥٨/١. وانظر أمثلة أخرى في: ١٥٣/٦، ٣٠٦، وغيرها.

يذهب إلى جواز تقطيع الحديث، إذا كان ما يفصله منه لا يتعلق بما قبله ولا بما بعده تعلقاً يفضي إلى فساد المعنى، فصنيعه كذلك يوهم من لا يحفظ الحديث أن المختصر غير التام، لا سيما إذا كان ابتداء المختصر من أثناء التام...». ثم قال: «الفائدة الثانية: تقرر أن البخاري لا يعيد الحديث إلَّا لفائدة، لكن تارة تكون في المتن، وتارة في الإسناد، وتارة فيهما. وحيث تكون في المتن خاصة لا يعيده بصورته بل يتصرف فيه، فإن كثرت طرقه أورد لكل باب طريقاً، وإن قلَّت اختصر المتن أو الإسناد...». إلى أن قال: «فلا يوجد في كتابه حديث على صورة واحدة في موضعين فصاعداً إلَّا نادراً، والله الموفق»[1].

ـ فمثلاً في الباب (١١) من كتاب الإيمان عن أبي إدريس الخولاني «أن عبادة بن الصامت رضي الله عنه ـ وكان شهد بدراً، وهو أحد النقباء ليلة العقبة ـ أن رسول الله ﷺ قال ـ وحوله عصابة من أصحابه ـ: (بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ...)».

فقد ذكر البخاري هذا الحديث في أحد عشر موضعاً أخرى، نبه ابن حجر على بعضها فقال: «وقد أخرج المصنف حديث هذا الباب في مواضع أخرى: في باب من شهد بدراً، لقوله فيه: «كان شهد بدراً»، وفي باب وفود الأنصار، لقوله فيه: «هو أحد النقباء». وأورده هنا لتعلُّقه بما قبله كما بيناه، ثم إن في متنه ما يتعلق بمباحث الإيمان من وجهين آخرين: أحدهما: أن اجتناب المناهي من الإيمان، كامتثال الأوامر. وثانيهما: أنه تضمن الرد على من يقول: إن مرتكب الكبيرة كافر أو مخلَّد في النار»[2].

ـ ومن تنبيهاته على ما يكرره البخاري على صورة واحدة، ما جاء في «باب من جاهد نفسه في طاعة الله»: «حدثنا هدبة بن خالد، حدثنا

---

(١) الفتح: ١/٨٤، وانظر: ٣/٥١٥.
(٢) الفتح: ١/٦٤.

همـام، حدثنـا قتادة، حـدثنا أنس بن مـالك، عن معـاذ بن جبـل رضي الله عنه. . .». يقول الحافظ: «تنبيه: هذا من الأحاديث التي أخرجها البخاري في ثلاثة مـواضع عن شيـخ واحد بسند واحد، وهي قليلة في كتـابه جـداً، ولكنه أضاف إليه في «الاستئذان» موسى بن إسماعيـل. وقد تتبـع بعض من لقينـاه ما أخـرجـه في مـوضعين بسنـد (واحـد)[1] فبلغ عـدتهـا زيـادة على العشرين، وفي بعضها يتصرف في المتن بالاختصار فيه»[2].

●● ويبين ما كان من ثلاثيات البخاري أو ما في حكمها:

ـ ففي حـديث البخاري: «حـدثنـا المكي قـال: حـدثنـا يـزيـد بن أبـي عُبيد، عن سلمة قال: «كان جدار المسجد عند المنبر، ما كادتِ الشاةُ تجوزها».

يقـول الحافظ: «قـوله (عن سلمـة): يعني ابن الأكوع، وهـذا ثـاني ثلاثيات البخاري»[3].

ـ وفي موضع آخر من الصحيح: «حـدثنا خـلاد بن يحيـى، حدثنـا عيسى بن طهمان قال: «سمعت أنس بن مالك رضي الله عنـه يقول: نـزلت آيـة الحجـاب في زينب بنـت جحش، وأطـعم عـليهـا يـومئـذٍ خـبـزاً ولحماً. . .»[4].

قـال الحـافظ: «وهـو آخـر مـا وقـع في الصحيـح من ثـلاثيـات البخاري»[5].

ـ وفي مـوضع ثـالث: حـدثنـا مكي بن إبـراهيم عن الجُعيـد، عن

---

(١) هذه اللفظة ليست في «الفتح».
(٢) الفتح: ١١/٣٣٧، ٣٤٠. وانظر مثلاً: ٣/٥١٥، ٦/١٢٢؛ ١٣/٥١٧.
(٣) الفتح: ١/٥٧٤.
(٤) الفتح: ١٣/٤٠٤.
(٥) الفتح: ١٣/٤١٢.

يزيد بن خُصَيْفة، عن السائب بن يـزيد قـال: كنا نؤتى بـالشارب على عهـد رسول الله ﷺ، وإمرة أبـي بكر، فصدراً من خلافة عمر، فنقوم إليـه بأيـدينا ونعـالنا وأرديتنـا، حتى إذا كان آخـرُ إمرة عمـر فَجَلَدَ أربعين، حتى إذا عَتَوْا وفسقوا جَلَدَ ثمانين»[1].

قـال الحافظ: «وهـذا السند للبخـاري في غايـة العلوِّ، لأن بينه وبين التـابعي فيـه واحـداً؛ فكان في حكم الثـلاثيات، وإن كـان التابعي رواه عن تابعي آخر، وله عنده نظائر»[2].

●● ويجمع بين ألفاظ أحاديث الصحيح المتعارضة:

ـ فمن ذلك ما جاء عند قوله ﷺ: (إن مكة حرَّمهـا الله ولم يُحَرِّمْهـا النـاسُ، فلا يحـلُّ لامـرىءٍ يؤمن بـالله واليـوم الآخـر أن يَسفِـكَ بهـا دمـاً، ولا يَعْضُدَ بها شجرةً. . .).

يقـول الحافظ: «قـولـه: (إن الله حـرم مكـة): أي حكم بتحـريمهـا وقضاه، وظاهـره أن حكـم الله تعالى في مكـة أن لا يقاتـل أهلها، ويؤمن من استجـار بها ولا يتعـرض له، وهـو أحد أقـوال المفسرين في قـولـه تعـالى: ﴿ومن دخله كان آمناً﴾، وقوله: ﴿أوَلَـم يروا أنّا جعلنا حرماً آمناً﴾. وسيأتي بعـد بـاب في حـديث ابن عبـاس بلفظ: (هــذا بلد حـرَّمــه الله يـوم خلق السمـاوات والأرض) ولا معارضـة بين هـذا وبين قـولـه الآتي في «الجهـاد» وغيـره من حديث أنس: (إن إبـراهيم حَـرَّم مكـة)، لأن المعنى أن إبـراهيم حرم مكة بأمر الله تعـالى لا باجتهـاده، أو أن الله قضى يوم خلق السمـاوات والأرض أن إبـراهيم سيحـرِّم مكــة، أو المعنى أن إبـراهيم أول من أظهــر تحريمها بين الناس، وكانت قبل ذلك عند الله حراماً. . .»[3].

---

(١) الفتح: ٦٦/١٢.

(٢) الفتح: ٦٨/١٢. وانظر للمـزيد مثلاً: ٥٧٧/١؛ ١٤٨/٥؛ ١١٩/٦؛ ٦٢٣/٩؛ ٢٥٦/١١؛ ٢٩٤/١٣.

(٣) الفتح: ٤١/٤، ٤٣.

●● ويفك طلسمات الصحيح مما يصعب إلاَّ على الأفذاذ الذين فتح الله عليهم، ووهبهم بصيرة نافذة:

- ففي حديث البخاري: «حدثنا أبو نعيم، حدثنا سفيان، عن سعد، ح، قال يعقوب بن إبراهيم: حدثنا أبي عن أبيه قال: حدثنا عبد الرحمن بن هُرْمُزَ الأعرجُ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (قريشٌ والأنصارُ وجُهَيْنَةُ وأسْلَمُ وأشْجَعُ وغِفارُ مواليَّ، ليس لهم مولىً دونَ اللّهِ ورسولِه) »[1].

يقول ابن حجر: «قوله: (حدثنا أبو نعيم، حدثنا سفيان) هو الثوري (عن سعد بن إبراهيم) أي ابن عبد الرحمن بن عوف (ح، قال يعقوب بن إبراهيم) أي ابن سعد بن إبراهيم، (حدثنا أبي عن أبيه): أما طريق أبي نعيم فسيأتي بهذا المتن بعد ثلاثة أبواب مع شرح الحديث. وأما طريق يعقوب بن إبراهيم، فقال أبو مسعود: حمل البخاري متن حديث يعقوب على متن حديث الثوري، ويعقوب إنما قال عن أبيه، عن صالح بن كيسان، عن الأعرج كما أخرجه مسلم ولفظه: (غفار وأسلم ومزينة ومن كان من جهينة خير عند الله من أسد وغطفان وطيىء). انتهى. فحاصله أن رواية يعقوب مخالفة لرواية الثوري في المتن والإسناد، لأن الثوري يرويه عن سعد بن إبراهيم، عن الأعرج، ويعقوب يرويه، عن أبيه، عن صالح، عن الأعرج. قلت: ولم يصب أبو مسعود فيما جزم به، فإنهما حديثان متغايران متناً وإسناداً، روى كلاً منهما إبراهيم بن سعد: أحدهما الذي أخرجه مسلم وهو عنده عن صالح، عن الأعرج، والآخر الذي علَّقه البخاري وهو عنده عن أبيه، عن الأعرج، ولو كان كما قال أبو مسعود، لاقتضى أن البخاري أخطأ في قوله: «حدثنا أبي عن أبيه، حدثني الأعرج»، وكان الصواب أن يقول: حدثنا أبي عن صالح، عن الأعرج. ونسبة البخاري إلى الوهم في ذلك لا تقبل إلاَّ ببيان واضح قاطع، ومن أين

---

(١) الفتح: ٥٣٣/٦.

يوجد وقد ضاق مخرجه على الإسماعيلي فأخرجه من طريق البخاري نفسه معلقاً، ولم يتعقبه؟! ولا يلزم من عدم وجود هذا المتن بهذا الإسناد بعد التتبع عدمه في نفس الأمر. والله أعلم»[1].

ـ وفي موضع آخر: «حدثنا أحمد، حدثنا ابن وهب عن عمرٍو، عن ابن أبي هلال قال: وأخبرني نافع أن ابن عمر أخبره أنه وقف على جعفر يومئذٍ وهو قتيل، فعدَدْتُ به خمسين بين طعنة وضربة، وليس منها شيء في دُبرِهِ، يعني في ظهره».

يقول الحافظ: «قوله: (قال: وأخبرني نافع): هو معطوف على شيء محذوف، ويؤيد ذلك قوله (أنه وقف على جعفر يومئذٍ)، ولم يتقدم لغزوة مؤتة إشارة، ولم أرَ من نبه على ذلك من الشراح، وقد تتبعت ذلك حتى فتح الله بمعرفة المراد؛ فوجدت في أول «باب جامع الشهادتين» من السنن لسعيد بن منصور قال: «حدثنا عبد الله بن وهب أخبرني عمر بن الحارث، عن سعيد بن أبي هلال أنه بلغه أن ابن رواحة ـ فذكر شعراً له ـ، قال: فلما التقوا أخذ الراية زيد بن حارثة، فقاتل حتى قُتل، ثم أخذها جعفر فقاتل حتى قُتل، ثم أخذها ابن رواحة، فحاد حيدة، فقال:

أقسمت يا نفس لتنزلنَّه
كارهة أو لتطاوعنَّه
مالي أراكِ تكرهين الجنَّة

ثم نزل فقاتل حتى قُتل، فأخذ خالد بن الوليد الراية، ورجع بالمسلمين على حمية، ورمى واقد بن عبد الله التيمي المشركين حتى ردّهم الله. قال ابن أبي هلال: «وأخبرني نافع ـ فذكر ما أخرجه البخاري وزاد في آخره ـ قال سعيد بن أبي هلال: وبلغني أنهم دفنوا يومئذٍ زيداً

(١) ٦/٥٣٥ ـ ٥٣٦.

وجعفراً وابن رواحة في حفرة واحدة»[1].

ـ وفي موضع ثالث: «حدثنا أبو النعمان، حدثنا حماد بن زيد، حدثنا ثابت، عن أنس رضي الله عنه: «أَنَّ الخمرَ التي أُهْرِيقتِ الفَضِيخُ». وزادني محمد البيكنديُّ عن أبي النعمان، قال: «كنت ساقيَ القوم في منزل أبي طلحة، فنزل تحريمُ الخمر، فأمر منادياً فنادى. . .».

يقول الحافظ: «قوله (وزادني محمد البيكندي عن أبي النعمان): كذا ثبت لأبي ذر، وسقط لغيره «البيكندي»، ومراده أن البيكندي سمعه من شيخهما أبي النعمان بالإسناد المذكور، فزاده فيه زيادة، والحاصل أن البخاري سمع الحديث من أبي النعمان مختصراً، ومن محمد بن سلام البيكندي عن أبي النعمان مطوّلاً. وتصرف الزركشي فيه غافلاً عن زيادة أبي ذر، فقال: القائل «وزادني» هو الفربري، ومحمد هو البخاري. وليس كما ظن رحمه الله، وإنما هو كما قدمته»[2].

●● ويختم كل كتاب من «كتب الصحيح» بخاتمة يذكر فيها عدد أحاديث ذلك الكتاب المرفوعة وما في حكمها، ويبين الموصول منها والمعلق، وعدد المكرر والخالص بلا تكرار وما وافقه مسلم على تخريجه مما لم يوافقه، وعدد ما فيه من الآثار عن الصحابة فمن بعدهم مع أنه ينبه على ذلك خلال الشرح:

فمثلاً في نهاية «كتاب التفسير» يقول: «خاتمة: اشتمل كتاب التفسير

(١) الفتح: ٧/٥١٠ ـ ٥١١.

(٢) الفتح: ٨/٢٧٨ ـ ٢٧٩. وانظر للمزيد في هذا الباب مثلاً: ١/٢١٦، ٣/٥، ١٥٣، ٢٢٠، ٢٢١، ٤٧٦، ٥٠٨، ٥٨٧، ٤/٣٦، ٣٢٢، ٥/١٢٠، ١٤٩، ١٥٤، ١٦٢، ٧/٤٢٤ ـ ٤٢٥، ٤٣٨، ٥١١، ٨/٦٨٧، ١٠/٥٢ ـ ٥٣، ٥١٥. ١١/٢٥٦ ـ ٢٥٧، ٥٧٥، ١٢/١١٥ ـ ١١٦، ٤٠١، ٤٠٧. وغير ذلك كثير.

على خمسمائة حديث وثمانية وأربعين حديثاً من الأحاديث المرفوعة وما في حكمها، الموصول من ذلك أربعمائة حديث وخمسة وستون حديثاً، والبقية معلقة وما في معناه، المكرر من ذلك فيه وفيما مضى أربعمائة وثمانية وأربعون حديثاً، والخالص منها مائة حديث وحديث، وافقه مسلم على تخريج بعضها، ولم يخرج أكثرها لكونها ليست ظاهرة في الرفع، والكثير منها من تفاسير ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، وهي ستة وستون حديثاً»، فذكرها حديثاً حديثاً. ثم قال: «وفيه من الآثار عن الصحابة فمن بعدهم خمسمائة وثمانون أثراً، تقدم بعضها في «بدء الخَلْق» وغيره، وهي قليلة، وقد بينت كل واحد منها في موضعها. ولله الحمد»[1].

●● هذا بالإضافة إلى وصل المعلقات والمتابعات، وتبيين ما وصله في موضع آخر من «صحيحه» مما لم يوصله منها فيه[2]، أو ما صورته معلقاً أثناء الحديث أو حديث مستقل وهو موصول، أو ما صورته مرسلاً وهو موصول، ويبين ما كان من مرسلات الصحابة، ويرد على من تعقب البخاري في التفسير واللغويات، وينبه على ما قد يقع من وهم لرجال الصحيح، وغير ذلك من الأمور البديعة، والبحوث القيمة، وتكفي هذه الخلاصة التي ذكرناها حتى لا نخرج عن أصل الموضوع.

● ● ●

٢ ــ الردّ على أوهام شرّاح «الصحيح» ومن في معناهم:

من الخصائص الكبرى والميزات البارزة «للفتح» أن الحافظ نبّه كثيراً على أوهام شراح الصحيح، وأصحاب الأطراف والمستخرجات والجمع بين الصحيحين، ومن ألّف في رجال البخاري أو رجال الشيخين، أو تراجم

---

(١) الفتح: ٨/٧٤٣ ــ ٧٤٤.

(٢) وهو أمر طويل الذيل، وقد أفرد له الحافظ كتابه الفذ «تغليق التعليق»، ولسنا بحاجة لذكر أمثلة لهذا الأمر.

البخاري، والمتتبعين لأحاديث الصحيح، وكذلك المحدثين والفقهاء، والأصوليين والمؤرخين، وغيرهم، مما له تعلق بالصحيح وشرح أحاديثه. والأمثلة على ذلك أكثر من أن تذكر، وأشهر من أن تشهر، فمن ذلك:

●● **ردوده على الكرماني «شارح البخاري»**: وهو أكثر شراح الصحيح الذين ردّ عليهم ابن حجر، فمثلاً:

ـ حديث البخاري: «حدثنا سليمان بن حرب، قال: حدثنا شعبة عن أيوب، قال: سمعت عطاء، قال: سمعت ابن عباس قال: أشهد على النبي ﷺ ـ أو قال عطاء: أشهد على ابن عباس أن رسول الله ﷺ ـ خرج ومعه بلال...». «وقال إسماعيل، عن أيوب، عن عطاء: قال ابن عباس: أشهد على النبي ﷺ».

قال الحافظ: قوله (وقال إسماعيل): هو المعروف بابن عُلَيَّة، وأراد بهذا التعليق أنه جزم عن أيوب بأن لفظ «أشهد» من كلام ابن عباس فقط، وكذا جزم به أبو داود الطيالسي في مسنده، وكذا قال وهيب عن أيوب، ذكره الإسماعيلي. وأغرب الكرماني فقال: يحتمل أن يكون قوله: (وقال إسماعيل) عطفاً على «حدثنا شعبة»، فيكون المراد به: حدثنا سليمان بن حرب عن إسماعيل، فلا يكون تعليقاً. انتهى. وهو مردود[1] بأن سليمان بن حرب لا رواية له عن إسماعيل أصلاً، لا لهذا الحديث ولا لغيره، وقد أخرجه المصنف في «كتاب الزكاة» موصولاً عن مؤمل بن هشام عن إسماعيل، كما سيأتي. وقد قلنا غير مرة: إن الاحتمالات العقلية لا مدخل لها في الأمور النقلية، ولو استرسل فيها مسترسل لقال: يحتمل أن يكون إسماعيل ـ هنا ـ آخر غير ابن علية، وأن أيوب آخر غير السختياني، وهكذا في أكثر الرواة؛ فيخرج بذلك إلى ما ليس بمرضي»[2].

---

(١) هذا تعقيب ابن حجر على الكرماني.

(٢) الفتح: ١/١٩٢ ـ ١٩٣.

ـ وفي موضع آخر: «عن عبّاد بن تميم، عن عبد الله بن زيد رضي الله عنه قال: لما كان زمن الحَرَّة[1] أتاه آت فقال له: إن ابن حنظلة يبايع الناس على الموت، فقال: لا أبايع على هذا أحداً بعد رسول الله ﷺ».

قال الحافظ: «قوله (إنّ ابن حنظلة): أي عبد الله بن حنظلة بن أبي عامر الذي يعرف أبوه بغسيل الملائكة... وأتى الكرماني بأعجوبة فقال: ابن حنظلة هو الذي كان يأخذ البيعة ليزيد بن معاوية، والمراد به نفس يزيد لأن جده أبا سفيان كان يكنى أيضاً أبا حنظلة، فيكون التقدير: أن ابن أبي حنظلة، ثم حذف لفظ «أبي» تخفيفاً، أو يكون نسب إلى عمه حنظلة بن أبي سفيان استخفافاً واستهجاناً واستبشاعاً بهذه الكلمة المرة. انتهى. ولقد أطال رحمه الله في غير طائل، وأتى بغير صواب، ولو راجع موضعاً آخر من «البخاري» لهذا الحديث بعينه لرأى فيه ما نصّه: «لما كان يوم الحرة والناس يبايعون لعبد الله بن حنظلة، فقال عبد الله بن زيد: علامَ يبايع ابنُ حنظلة الناسَ»[2]، الحديث، وهذا الموضع في أثناء غزوة الحديبية من «كتاب المغازي»، فهذا يردّ احتماله الثاني. وأما احتماله الأول: فيردّه اتفاق أهل النقل على أن الأمير الذي كان من قِبل يزيد بن معاوية اسمه مسلم بن عقبة لا عبد الله بن حنظلة، وأن ابن حنظلة كان الأمير على الأنصار، وأن عبد الله بن مطيع كان الأمير على من سواهم، وأنهما قتلا جميعاً في تلك الوقعة، والله المستعان»[3].

●● **وعلى ابن بطال**: فعند شرح حديث أنس في نبع الماء من بين أصابعه ﷺ يقول الحافظ: «وحديث نبع الماء جاء من رواية أنس عند

---

(١) أي الوقعة التي كانت بالمدينة في زمن يزيد بن معاوية سنة (٦٣هـ).
(٢) الفتح: ٤٤٨/٧.
(٣) الفتح: ١١٧/٦، ١١٨.

الشيخين وأحمد وغيرهم من خمسة طرق، وعن جابر بن عبد الله من أربعة طرق، وعن ابن مسعود عند البخاري والترمذي، وعن ابن عباس عند أحمد والطبراني من طريقين، وعن ابن أبي ليلى والد عبد الرحمن عند الطبراني». ثم قال: «وأما تكثير الماء بأن يلمسه بيده، أو يتفل فيه، أو يأمر بوضع شيء فيه كسهم من كنانته؛ فجاء في حديث عمران بن حصين في الصحيحين، وعن البراء بن عازب عند البخاري وأحمد من طريقين، وعن أبي قتادة عند مسلم، وعن أنس عند البيهقي في «الدلائل»، وعن زياد بن الحارث الصدائي عنده، وعن حبان بن بُحّ . . . وأما من رواها من أهل القرن الثاني فهم أكثر عدداً، وإن كان شطر طرقه أفراداً.

وفي الجملة: يستفاد منها الرد على ابن بطال حيث قال: هذا الحديث شهده جماعة كثيرة من الصحابة، إلَّا أنه لم يروَ إلَّا من طريق أنس، وذلك لطول عمره وتطلّب العلو في السند. انتهى. وهو ينادي عليه بقلّة الاطلاع والاستحضار لأحاديث الكتاب الذي شرحه، وبالله التوفيق»[1].

●● **وعلى ابن التين**: ومن ذلك ما جاء في «باب قصة إسحاق بن إبراهيم عليهما السلام. فيه ابن عمر وأبو هريرة عن النبي ﷺ».

يقول ابن حجر: «قوله (فيه ابن عمر وأبو هريرة): كأنه يشير بحديث ابن عمر إلى ما سيأتي في قصة يوسف، وبحديث أبي هريرة إلى الحديث المذكور في الباب الذي يليه. وأغرب ابن التين فقال: لم يقف البخاري على سنده فأرسله! وهو كلام من لم يفهم مقاصد البخاري؛ لأنه يستلزم أن يكون البخاري أثبت في كتابه حديثاً لا يعرف له سنداً، ومع ذلك ذكره مرسلاً، ولم تجر للبخاري بذلك عادة حتى يحمل هذا الموضع عليها. ونحوه قول الكرماني: قوله: فيه[2] حديث من رواية ابن عمر في قصة

---

(١) الفتح: ٦/٥٨٥.

(٢) أي في الباب نفسه.

إسحاق بن إبراهيم عليهما السلام، فأشار البخاري إليه إجمالاً، ولم يذكره بعينه لأنه لم يكن على شرطه. اهـ. وليس الأمر كذلك لما بينته، والله المستعان»[1].

وفي موضع آخر يقول الحافظ: «وأغرب ابن التين فجزم أن إلياس ليس بنبيّ، وبناه على قول من زعم أنه ــ أيضاً ــ حيّ، وهو ضعيف؛ أعني كونه حياً. وأما كونه ليس بنبيّ؛ فنفي باطل، ففي القرآن العظيم: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾، فكيف يكون أحد من بني آدم مرسلاً وليس بنبيّ»[2]؟!

●● **وعلى الداودي**: ــ ففي حديث الحديبية: «... إذ جاء بُدَيلُ بن وَرْقاء الخُزاعي في نفر من قومه من خُزاعة ــ وكانوا عَيْبَةَ نُصْحِ رسولِ الله ﷺ من أهل تِهامة ــ فقال: إني تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي نزلوا أعداد مياه الحديبية...»[3].

يقول الحافظ: «قوله (نزلوا أعداد مياه الحديبية): الأعداد ــ بالفتح ــ جمع عِدّ ــ بالكسر والتشديد ــ هو الماء الذي لا انقطاع له. وغفل الداودي فقال: هو موضع بمكة. وقول بديل هذا يشعر بأنه كان بالحديبية مياه كثيرة، وأن قريشاً سبقوا إلى النزول عليها»[4].

ــ وفي قوله ﷺ: (لا تخيِّروني على موسى، فإن الناس يَصْعَقُون فأكون أول من يُفيقُ فإذا موسى باطِشٌ بجانب العرش، فلا أدري أكان فيمن صَعِقَ فأفاق قبلي، أو كان ممن اسْتَثْنَى اللَّهُ)[5].

---

(١) الفتح: ٦/٤١٤.
(٢) الفتح: ٧/٤٤٣ ــ ٤٤٤.
(٣) الفتح: ٥/٣٢٩.
(٤) الفتح: ٥/٣٣٨.
(٥) الفتح: ٦/٤٤١.

يقول الإمام الحافظ: «والمراد بقوله (ممن استثنى الله): قوله: ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾. وأغرب الداودي الشارح فقال: معنى قوله (استثنى الله): أي جعله ثانياً. كذا قال، وهو غلط شنيع. وقد وقع في مرسل الحسن في «كتاب البعث» لابن أبي الدنيا في هذا الحديث: (فلا أدري أكان ممن استثنى الله أن لا تصيبه النفخة، أو بُعث قبلي)»[1].

●● وعلى المهلب[2]: ـ ومن الأمثلة ما جاء في شرح حديث الشفاعة: «حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا حماد بن زيد، حدثنا مَعْبَد بن هلال العَنزيُّ . . . » وفيه قوله ﷺ: (فأقول: يا رب أمتي أمتي . . .)[3].

يقول الحافظ: «وادّعى المهلب أن قوله: (فأقول: يا رب أمتي) مما زاد سليمان بن حرب على سائر الرواة. كذا قال، وهو اجتراء على القول بالظن الذي لا يستند إلى دليل، فإن سليمان بن حرب لم ينفرد بهذه الزيادة، بل رواها معه سعيد بن منصور عند مسلم، وكذا أبو الربيع الزهراني عند مسلم والإسماعيلي، ولم يَسُقْ مسلم لفظه، ويحيى بن حبيب بن عربي عند النسائي في التفسير، ومحمد بن عبيد بن حِسَاب ومحمد بن سليمان لُوَيْن كلاهما عند الإسماعيلي؛ كلهم عن حماد بن زيد شيخ سليمان بن حرب فيه بهذه الزيادة. وكذا وقعت هذه الزيادة في هذا الموضع من حديث الشفاعة في رواية أبي هريرة الماضية في «كتاب الرقاق»، وبالله التوفيق»[4].

---

(١) الفتح: ٦/٤٤٥.

(٢) هو المهلب بن أبي صفرة، كان أحد الأئمة الفصحاء، الموصوفين بالذكاء، مالكي المذهب، وممن شرح صحيح البخاري، (ت ٤٣٥هـ). وهو غير المهلب بن أبي صفرة القائد البطل المشهور، المتوفى سنة (٨٣هـ).

(٣) الفتح: ١٣/٤٧٣ ـ ٤٧٤.

(٤) الفتح: ١٣/٤٧٦. ونكتفي بهذا، فهؤلاء من مشاهير شراح الصحيح، وقد أكثر الحافظ النقل عنهم، والرد على أوهامهم.

●● **ومن ردوده المختلفة، وتعقباته المتنوعة للأئمة وتبيين أخطائهم، والتنبيه على أوهامهم:**

ـ **ردوده على أصحاب «الأطراف» كأبي مسعود وخلف والمزي:**

ففي حديث كعب بن عُجْرة[1] في صفة الصلاة على النبي ﷺ، يقول ابن حجر:

«ووهم المِزّي في «الأطراف» فعزا رواية كعب بن عجرة هذه إلى «الصلاة»، فقال: روى البخاري في «الصلاة» عن قيس بن حفص وموسى بن إسماعيل كلاهما عن عبد الواحد بن زياد، إلى آخر كلامه. واغترّ بذلك شيخنا ابن المُلَقِّن فإنه لما وصل إلى شرح هذا الحديث هنا أحال بشرحه على «الصلاة»، وقال: تقدم في «الصلاة»، وكأنه تبع شيخه مُغَلْطاي في ذلك، فإنه كذلك صنع، ولم يتقدم هذا الحديث عند البخاري في «كتاب الصلاة» أصلاً، والله الهادي إلى الصواب»[2].

وفي «كتاب العتق» عند حديث البخاري: «حدثنا الحميدي، حدثنا سفيان، حدثنا مِسْعَر عن قتادة، عن زرارة بن أوفى، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: (إن الله تجاوز لي عن أمتي ما وَسْوَسَتْ به صدورُها ما لم تَعْمَلْ أو تَكَلَّمْ)».

قال الحافظ: «تنبيه: ذكر خلف في «الأطراف» أن البخاري أخرج هذا الحديث في «العتق» عن محمد بن عرعرة، عن شعبة، عن قتادة. ولم نره فيه، ولم يذكره أبو مسعود ولا الطَّرْقي[3]، ولا ابن عساكر، ولا استخرجه الإسماعيلي ولا أبو نعيم»[4].

---

(١) الفتح: ٤٠٨/٦.

(٢) الفتح: ٤١٠/٦.

(٣) هو أبو العباس أحمد بن ثابت الطَّرْقي، نسبة إلى «طَرْق» من قرى أصبهان، توفي (٥٢١هـ)، من تصانيفه «أطراف الكتب الخمسة». وفي الفتح: «الطوقي»، وهو تحريف.

(٤) الفتح: ١٦٠/٥، ١٦١.

ـ **ومن ردوده على ابن المنيِّر**: ما جاء في قصة وفاة أبي طالب وقوله ﷺ: (لأستغفرن لك ما لم أُنْهَ عنك)[1]. يقول ابن حجر: «قال الزين ابن المنير: ليس المراد طلب المغفرة العامة والمسامحة بذنب الشرك، وإنما المراد تخفيف العذاب عنه كما جاء مبيناً في حديث آخر. قلت: وهي غفلة شديدة منه، فإن الشفاعة لأبي طالب في تخفيف العذاب لم تردَّ، وطلبها لم يُنْهَ عنه، وإنما وقع النهي عن طلب المغفرة العامة، وإنما ساغ ذلك للنبي ﷺ اقتداءً بإبراهيم في ذلك، ثم ورد نسخ ذلك»[2].

ـ **وعلى ابن عبد البر**: ففي حديث الضَّبّ «عن خالد بن الوليد أنه دخل مع رسول الله ﷺ بيت ميمونة، فأُتِيَ بضبّ محنوذ، فأهوى إليه رسول الله ﷺ بيده، فقال بعض النسوة: أخبروا رسول الله ﷺ بما يريد أن يأكل، فقالوا: هو ضبٌّ يا رسول الله، فرفع يده. فقلت: أحرامٌ هو يا رسول الله؟ فقال: (لا، ولكنْ لم يكن بأرض قومي، فأجدُني أعافُه). قال خالد: فاجترَرْتُه فأكلتُه، ورسول الله ﷺ يَنظر»[3].

يقول ابن حجر: «وذهل ابن عبد البر هنا ذهولاً فاحشاً، فقال: كان دخول خالد بن الوليد بيت النبي ﷺ في هذه القصة قبل نزول الحجاب. وغفل عما ذكره هو أن إسلام خالد كان بين عمرة القضيَّة والفتح، وكان الحجاب قبل ذلك اتفاقاً. وقد وقع في حديث الباب: «قال خالد: أحرام هو يا رسول الله»؟ فلو كانت القصة قبل الحجاب لكانت قبل إسلام خالد، ولو كانت قبل إسلامه لم يسأل عن حلال ولا حرام، ولا خاطب بقوله: يا رسول الله»[4].

---

(١) الفتح: ٥/٥٠٦.
(٢) الفتح: ٥/٥٠٧ ـ ٥٠٨.
(٣) الفتح: ٩/٦٦٣.
(٤) الفتح: ٩/٦٦٧.

- **وعلى الحاكم**: ففي حديث أنس: «كان أبو طلحة لا يصوم على عهد النبي ﷺ من أجل الغزو، فلما قُبض النبي ﷺ لم أره مفطراً إلاَّ يوم فطر أو أضحى».

قال الحافظ: «تنبيه: وقع عند الحاكم في «المستدرك» من رواية حماد بن سلمة عن ثابت، عن أنس أن أبا طلحة أقام بعد رسول الله ﷺ أربعين سنة لا يفطر، إلاَّ يوم فطر أو أضحى». وعلى الحاكم فيه مأخذان: أحدهما: أن أصله في «البخاري» فلا يُستدرك. ثانيهما: أن الزيادة في مقدار حياته بعد النبي ﷺ غلط، فإنه لم يقم بعده سوى ثلاث أو أربع وعشرين سنة، فلعلها كانت أربعاً وعشرين فتغيرت»[1].

- **وعلى الحميدي**: ففي «باب نفقة القَيِّم للوَقْف»: «حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا حماد عن أيوب، عن نافع، عن ابن عمر رضي الله عنهما أن عمر اشترط في وَقفهِ أن يأكل مَنْ وَلِيَهُ ويُؤكِلَ صديقَهُ غير متموِّلٍ مالاً».

يقول ابن حجر: «وقال الحميدي: لم أقف على طريق قتيبة في صحيح البخاري. وهو ذهول شديد منه؛ فإنه ثابت في جميع النسخ»[2].

- **وعلى الأصيلي**: ومن ذلك ما جاء في «باب الدعاء على المشركين بالهزيمة والزَّلْزَلة»: «حدثنا إبراهيم بن موسى أخبرنا عيسى، حدثنا هشام عن محمد عن عَبِيدَة، عن علي رضي الله عنه قال: لما كان يوم الأحزاب قال رسول الله ﷺ: (ملأ الله بيوتهم وقبورهم ناراً، شغلونا عن صلاة الوسطى حين غابت الشمس)»[3].

قال الحافظ: «قوله (عن هشام): هو الدستوائي، وزعم الأصيلي أنه ابن حسان، ورامَ بذلك تضعيف الحديث، فأخطأ من وجهين. وتجاسر الكرماني فقال: المناسب أنه هشام بن عروة»[4].

---

(١) الفتح: ٦/٤٢.
(٢) الفتح: ٥/٤٠٦.
(٣) الفتح: ٦/١٠٥.
(٤) الفتح: ٦/١٠٦.

ـ وعلى مُغَلْطاي وابن المُلَقِّن: ففي «باب سنة الجلوس في التشهد»: «وكانت أم الدرداء تجلس في صلاتها جِلْسَة الرجل، وكانت فقيهة». قال الحافظ: «وأثر أم الدرداء المذكور وصله المصنف في «التاريخ الصغير» من طريق مكحول باللفظ المذكور، وأخرجه ابن أبي شيبة من هذا الوجه، لكن لم يقع عنده قول مكحول في آخره: «وكانت فقيهة»؛ فجزم بعض الشراح أن ذلك من كلام البخاري لا من كلام مكحول، فقال مغلطاي: القائل «وكانت فقيهة» هو البخاري فيما أرى. وتبعه شيخنا ابن الملقن فقال: الظاهر أنه قول البخاري. اهـ. وليس كما قالا فقد رويناه تاماً في «مسند الفريابي» أيضاً بسنده إلى مكحول»[1].

ـ وعلى النووي: ففي حديث عثمان بن عفان أنه توضأ ثلاثاً ثلاثاً ثم قال: قال رسول الله ﷺ: (من توضأ نحو وُضوئي هذا، ثم صلى ركعتين لا يحدِّث فيهما نفسه، غُفر له ما تقدم من ذنبه)[2].

يقول الحافظ: «قوله (نحو وضوئي هذا): قال النووي: إنما لم يقل «مثل» لأن حقيقة مماثلته لا يقدر عليها غيره. قلت: لكن ثبت التعبير بها في رواية المصنف في «الرقاق» من طريق معاذ بن عبد الرحمن عن حُمران عن عثمان، ولفظه: (من توضأ مثل هذا الوضوء)، وله في «الصيام» من رواية معمر: (من توضأ وضوئي هذا)، ولمسلم من طريق زيد بن أسلم عن حمران: (توضأ مثل وضوئي هذا)؛ وعلى هذا فالتعبير «بنحو» من تصرف الرواة، لأنها تطلق على المثلية مجازاً، ولأن «مثل» وإن كانت تقتضي المساواة ظاهراً، لكنها تطلق على الغالب، فبهذا تلتئم الروايتان، ويكون المتروك بحيث لا يخلّ بالمقصود. والله تعالى أعلم»[3].

• • •

(١) الفتح: ٢/ ٣٠٥ ـ ٣٠٦.
(٢) الفتح: ١/ ٢٥٩.
(٣) الفتح: ١/ ٢٦٠. والمجال في هذا واسع رحيب، نكتفي منه بما ذكرناه.

٣ ــ كشف خفايا علم الرجال:

لقد بلغ ابن حجر في علم الرجال ــ بمختلف فنونه ــ درجة تجعله في مصافّ أعيان الأعيان في هذا العلم الجليل الدقيق، وقد أبان في «الفتح» عن هذه العبقرية كلما لزم الأمر، ومن ذلك:

ــ ما جاء في شرحه حديث البخاري: «أخبرنا محمد ــ هو ابن سلام ــ حدثنا المحاربي، قال: حدثنا صالح بن حَيّان قال: قال عامر الشعبي: حدثني أبو بردة عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: (ثلاثة لهم أجران...)»، حيث يقول الحافظ:

«قوله (حدثنا صالح بن حيان): هو صالح بن صالح بن مسلم بن حيان، نسب إلى جد أبيه ــ وهو بفتح المهملة وتشديد الياء التحتانية، ولقبه حي وهو أشهر به من اسمه... ــ وهو ثقة مشهور. وفي طبقته راوٍ آخر كوفي أيضاً يقال له: صالح بن حيان القرشي، لكنه ضعيف، وقد وهم من زعم أن البخاري أخرج له، فإنه إنما أخرج لصالح بن حي، وهذا الحديث معروف بروايته عن الشعبي، دون القرشي»[1].

ــ وفي حديث آخر: «... عن زياد بن جبير قال: رأيت ابن عمر رضي الله عنهما أتى على رجل قد أناخ بَدَنَتَهُ ينحرُها، قال: ابعثها قياماً مقيدة، سنةَ محمدٍ ﷺ».

قال ابن حجر: «قوله (زياد بن جبير): بجيم وموحدة مصغر، بصري تابعي ثقة، ليس له في الصحيحين سوى هذا الحديث وحديث آخر أخرجه المصنف في «النذر» بهذا الإسناد، وأخرجه في «الصوم» بإسناد آخر إلى يونس بن عبيد. وقد سبق في «أوائل الحج» حديث غير هذا من طريق زيد بن جبير عن ابن عمر، وهو غير زياد بن جبير هذا، وليس أخاً له أيضاً؛

(١) الفتح: ١/ ١٩٠.

لأن زيداً طائي كوفي، وزياداً ثقفي بصري، لكنهما اشتركا في الثقة وفي الرواية عن ابن عمر»[١].

• • •

٤ ـ ويبين خفايا المُدْرَج ويردّ على من ادّعى الإدراج بالاحتمال، ومن ذلك:

ـ ما جاء في حديث الصعب بن جَثَّامة قال: «مرّ بي النبي ﷺ بالأبواء ـ أو بوَدَّانَ ـ فسُئِل عن أهل الدار يُبَيَّتُون من المشركين، فيُصاب من نسائهم وذراريهم، قال: (هم منهم). وسمعته يقول: (لا حِمَى إلاَّ للَّه ولرسوله ﷺ)».

يقول الحافظ: «وقد أخرج ابن حبان في حديث الصعب زيادة في آخره: «ثم نهى عنهم يوم حنين»، وهي مدرجة في حديث الصعب، وذلك بيِّن في سنن أبي داود فإنه قال في آخره: «قال سفيان: قال الزهري: ثم نهى رسول الله ﷺ بعد ذلك عن قتل النساء والصبيان»[٢].

ـ وفي حديث الهجرة: «... فقال النبي ﷺ للمسلمين: (إني أُريتُ دارَ هِجرتكم ذاتَ نخلٍ بين لابتين)، وهما الحرتان... واستأجر رسول الله ﷺ وأبو بكر رجلاً من بني الدِّيل، وهو من بني عبد بن عديّ هادياً خِرِّيتاً ـ والخِرِّيتُ: الماهرُ بالهداية ـ قد غمسَ حِلْفاً في آل العاص بن وائل السهميّ...»[٣].

قال ابن حجر: «قوله (بين لابتين وهما الحرّتان): هذا مدرج في الخبر، وهو من تفسير الزهري. والحَرَّة: أرض حجارتها سود»[٤]. «قوله (والخِرِّيت: الماهر بالهداية): هو مدرج في الخبر من كلام الزهري، بيَّنه ابن سعد»[٥].

---

(١) الفتح: ٥٥٣/٣.
(٢) الفتح: ١٤٦/٦، ١٤٧.
(٣) الفتح: ٢٣١/٧ ـ ٢٣٢.
(٤) الفتح: ٢٣٤/٧.
(٥) الفتح: ٢٣٨/٧.

ـ وفي حديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت لعروة: «ابنَ أختي، إن كنا لننظر إلى الهلال ثم الهلال، ثلاثة أَهِلَّةٍ في شهرين، وما أُوقِدَتْ في أبيات رسول الله ﷺ نار. فقلت: يا خالةُ ما كان يُعيشُكم؟ قالت: الأسودان، التمر والماء...»[1].

يقول ابن حجر: «قوله (الأسودان التمر والماء): هو على التغليب، وإلَّا فالماء لا لون له؛ ولذلك قالوا: الأبيضان، اللبن والماء، وإنما أطلقت على التمر أسود لأنه غالب تمر المدينة. وزعم صاحب «المحكم» وارتضاه بعض الشراح المتأخرين أن تفسير الأسودين بالتمر والماء مدرج، وإنما أرادت الحرة والليل، واستدل بأن وجود التمر والماء يقتضي وصفهم بالسعة، وسياقها يقتضي وصفهم بالضيق، وكأنها بالغت في وصف حالهم بالشدة حتى إنه لم يكن عندهم إلَّا الليل والحرة. اهـ. وما ادعاه ليس بطائل، والإدراج لا يثبت بالتوهم، وقد أشار إلى أن مستنده في ذلك أن بعضهم دعا قوماً وقال لهم: ما عندي إلَّا الأسودان، فرضوا بذلك. فقال: ما أردت إلَّا الحرة والليل. وهذا حجة عليه لأن القوم فهموا التمر والماء وهو الأصل، وأراد هو المزح معهم فألغزهم بذلك. وقد تظاهرت الأخبار بالتفسير المذكور، ولا شك أن أمر العيش نسبي، ومن لا يجد إلَّا التمر أضيق حالاً ممن يجد الخبز مثلاً، ومن لم يجد إلَّا الخبز أضيق حالاً ممن يجد اللحم مثلاً، وهذا أمر لا يدفعه الحس، وهو الذي أرادت عائشة. وسيأتي في «الرقاق» من طريق هشام بن[2] عروة، عن أبيه، عنها بلفظ: «وما هو إلَّا التمر والماء» وهو أصرح في المقصود لا يقبل الحمل على الإدراج»[3].

• • •

---

(١) الفتح: ٥/١٩٧.

(٢) تصحفت في «الفتح» إلى «عن»؛ فيصبح الحديث من رواية هشام، عن عروة، عن الزبير، عن عائشة؛ وإنما هو من رواية هشام بن عروة، عن أبيه عروة، عن عائشة. وانظر الفتح: ١١/٢٨٢، حديث رقم (٦٤٥٨).

(٣) الفتح: ٥/١٩٩.

٥ ـ ويبيّن مبهمات الحديث، وينبه على أوهام الآخرين في ذلك:

ـ ففي حديث سلمة بن الأكوع رضي الله عنه «أن النبي ﷺ بعث رجلاً ينادي في الناس يومَ عاشوراء أن مَنْ أَكَلَ فَلْيُتِمَّ أو فليَصُمْ، ومَنْ لم يأكلْ فلا يأكُلْ»(١).

يقول الحافظ: «قوله (أن النبي ﷺ بعث رجلاً ينادي في الناس): في رواية يحيى: «قال لرجل مِن أسلم: أذِّن في قومك» واسم هذا الرجل هند بن أسماء بن حارثة الأسلمي، وله ولأبيه ولعمه هند بن حارثة صحبة. أخرج حديثه أحمد وابن أبي خيثمة من طريق ابن إسحاق «حدثني عبد الله بن أبي بكر، عن حبيب بن هند بن أسماء الأسلمي، عن أبيه قال: بعثني النبي ﷺ إلى قومي من أسلم فقال: (مُرْ قومك أن يصوموا هذا اليوم يوم عاشوراء، فمن وجدته منهم قد أكل في أول يومه فليصم آخره)(٢)».

ـ وفي حديث البخاري «عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: وَقَصَتْ برجل مُحرم ناقتُهُ، فأُتِيَ به رسول الله ﷺ فقال: (اغسِلوه، وكفِّنوه، ولا تغطُّوا رأسَه، ولا تقرِّبوه طِيباً، فإنه يُبْعَثُ يُهِلُّ)(٣)».

يقول ابن حجر: «تنبيه: لم أقف في شيء من طرق هذا الحديث على تسمية المحرم المذكور، وقد وهم بعض المتأخرين فزعم أن اسمه «واقد بن عبد الله»، وعزاه لابن قتيبة في ترجمة عمر من «كتاب المغازي»، وسبب الوهم أن ابن قتيبة لما ذكر ترجمة عمر ذكر أولاده ومنهم عبد الله بن عمر، ثم ذكر أولاد عبد الله بن عمر فذكر فيهم واقد بن عبد الله، فقال: وقع عن بعيره وهو محرم، فهلك. فظن هذا المتأخر أن لواقد بن عبد الله بن عمر صحبة، وأنه صاحب القصة التي وقعت في زمن النبي ﷺ، وليس كما ظن

---

(١) الفتح: ٤/١٤٠.

(٢) الفتح: ٤/١٤١ ـ ١٤٢.

(٣) الفتح: ٤/٥٢؛ والوقص: كسر العنق.

فإن واقداً المذكور لا صحبة له، فإن أمه صفية بنت أبي عبيد إنما تزوجها أبوه في خلافة أبيه عمر، واختلف في صحبتها، وذكرها العجلي وغيره في التابعين. ووجدت في الصحابة واقد بن عبد الله آخر، لكن لم أر في شيء من الأخبار أنه وقع عن بعيره فهلك، بل ذكر غير واحد منهم ابن سعد أنه مات في خلافة عمر؛ فبطل تفسير المبهم بأنه واقد بن عبد الله من كل وجه»[1].

• • •

٦ ـ ويضبط الأسماء بالحروف، خاصة ما يشكل منها، وينبه على أوهام العلماء في هذا:

ـ ومن ذلك: «قوله (عن الزبير بن خِرِّيتٍ): بكسر الخاء المعجمة وتشديد الراء المكسورة بعدها تحتانية ساكنة ثم مثناة، بصري ما له في البخاري سوى هذا الحديث وحديثين في «التفسير» وآخر في «الدعوات»[2]».

وفي حديث آخر للبخاري: «حدثني يحيى بن يوسف أخبرنا أبو بكر ـ هو ابن عَيّاش ـ عن أبي حَصِينٍ، عن أبي صالح، عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رجلاً قال للنبي ﷺ: أوصني، قال: (لا تغضب). فردَّد مراراً، قال: (لا تغضب)».

قال الحافظ: «قوله (حدثني يحيى بن يوسف): هو الزِّمِّي ـ بكسر الزاي وتشديد الميم ـ لم أرَ له في البخاري رواية إلَّا عن أبي بكر بن عياش. وأبو حَصين: بفتح أوله»[3].

ـ وفي حديث ابن عباس: «خرج رجل من بني سهم مع تميم

---

(١) الفتح: ٤/٥٥. والأمثلة على ذلك كثيرة جداً.

(٢) الفتح: ٥/١١٩؛ ٨/٣١٢.

(٣) الفتح: ١٠/٥١٩.

الداري وعديّ بن بَدَّاء، فمات السَّهميُّ بأرض ليس بها مسلم. . .»[1].

قال الحافظ: «قوله (خرج رجل من بني سهم): هو بُزيل ـ بموحدة وزاي مصغر ـ وكذا ضبطه ابن ماكولا، ووقع في رواية الكلبي، عن أبي صالح، عن تميم نفسه عند الترمذي والطبري: «بديل» بدال بدل الزاي، ورأيته في نسخة صحيحة من تفسير الطبري «بريل» براء بغير نقطة، ولابن منده من طريق السدي، عن الكلبي «بديل بن أبي مارية» ومثله في رواية عكرمة وغيره عند الطبري مرسلاً لكنه لم يسمّه، ووهم من قال فيه «بديل بن ورقاء» فإنه خزاعي وهذا سهمي، وكذلك وهم من ضبطه «بذيل» بالذال المعجمة. ووقع في رواية ابن جريج أنه كان مسلماً، وكذا أخرجه بسنده في تفسيره»[2].

• • •

٧ ـ ويبين من له صحبة ممن في صحبته شك:

ـ فمن ذلك: «حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا شعبة، عن مسلمة بن كُهَيلٍ قال: سمعت سُوَيد بن غَفَلَةَ قال: كنت مع سلمان بن ربيعة وزيد بن صُوحان في غزاة، فوجدتُ سوطاً، فقالا لي: ألقِه، قلتُ: لا، ولكنني إن وجدتُ صاحبه، وإلاَّ استمتعتُ به. . .»[3].

يقول الحافظ: «قوله (سويد بن غفلة): بفتح المعجمة والفاء، أبو أمية الجعفي، تابعي كبير مخضرم، أدرك النبي ﷺ وكان زمنه رجلاً، وأعطى الصدقة في زمنه، ولم يره على الصحيح، وقيل: إنه صلى خلفه، ولم يثبت، وإنما قدم المدينة حين نفضوا أيديهم من دفنه ﷺ، ثم شهد الفتوح، ونزل الكوفة ومات بها سنة ثمانين أو بعدها، وله مائة وثلاثون سنة

---

(١) الفتح: ٥/٤٠٩ ـ ٤١٠.
(٢) الفتح: ٥/٤١١.
(٣) الفتح: ٥/٩١.

أو أكثر، لأنه كان يقول: أنا لدة رسول الله ﷺ، وأنا أصغر منه بسنتين، وليس له في البخاري سوى هذا الحديث وآخر عن علي في ذكر الخوارج. قوله (مع سلمان بن ربيعة): هو الباهلي، يقال: له صحبة، ويقال له سلمان الخيل، لخبرته بها، وكان أميراً على بعض المغازي في فتوح العراق في عهد عمر وعثمان، وكان أول من ولي قضاء الكوفة، واستشهد في خلافته في فتوح العراق، وليس له في البخاري سوى هذا الموضع. قوله (وزيد بن صوحان): بضم المهملة وسكون الواو بعدها مهملة أيضاً، العبدي، تابعي كبير مخضرم أيضاً، وزعم ابن الكلبي أن له صحبة»[١].

ـ وفي موضع آخر: «حدثنا إسماعيل قال: حدثني مالك، عن عبد الرحمن بن القاسم، عن أبيه، عن عبد الرحمن ومُجَمِّع ابني يزيد بن جارِيَةَ، عن خنساءَ بنت خِدَامٍ الأنصارية أن أباها زوَّجها وهي ثَيِّبٌ، فكرهتْ ذلك، فأتتْ رسولَ الله ﷺ فردَّ نكاحَها».

قال ابن حجر: «قوله (ابني يزيد بن جارية): بالجيم، أي ابن عامر بن العطاف الأنصاري الأوسي، من بني عمرو بن عوف، وهو ابن أخي مجمِّع بن جارية الصحابي الذي جمع القرآن في عهد النبي ﷺ وأخرج له أصحاب السنن، وقد وهم من زعم أنهما واحد، ومنه قيل إن لمجمِّع بن يزيد صحبة، وليس كذلك، وإنما الصحبة لعمه مجمع بن جارية»[٢].

• • •

٨ ـ ويتكلم على علوم الحديث:

ـ فمثلاً في حديث السبعة الذين يظلّهم الله في ظلّه: «. . . ورجل تصدق، أخفى حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه . . .»[٣].

---

(١) الفتح: ٥/٩٢. وانظر في «سويد بن غفلة» أيضاً: ٩/١٠٠.
(٢) الفتح: ٩/١٩٤.
(٣) الفتح: ٢/١٤٣.

يقول الحافظ: «قوله (حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه): هكـذا وقع في معظم الروايات في هذا الحديث في البخاري وغيره، ووقع في «صحيح مسلم» مقلوباً: «حتى لا تعلم يمينه ما تنفق شماله»، وهو نـوع من أنـواع علوم الحـديث أغفله ابن الصلاح وإن كـان أفرد نـوع المقلوب لكنه قصـره على ما يقع في الإسناد، ونبَّه عليه شيخنا[1] في «محاسن الاصطلاح» ومثَّل له بحديث (إن ابن أم مكتوم يؤذِّن بليـل)، وقد قـدَّمنا الكـلام عليه في «كتـاب الأذان». وقـال شيخنا: ينبغي أن يسمى هـذا النـوع: المعكـوس. انتهى. والأولى تسميتـه مقلوباً؛ فيكـون المقلوب تارة في الإسنـاد وتارة في المتن، كما قالوه في المُدْرَج سواء»[2].

- وفي حـديث البخاري «حـدثنـا عبـد الله بن عبـد الـوهـاب قـال: سمعت مالكاً وسأله عُبيـد الله بن الربيـع: أحدَّثَـكَ داود، عن أبـي سفيان، عن أبـي هـريـرة رضي الله عنـه: أن النبـي ﷺ رخَّص في بيـع العـرايـا في خمسة أَوْسُق أو دون خمسة أوسُق؟ قال: نعم»[3].

قال ابن حجر: «قوله (قال: نعم): القائل هو مالك، وكذلك أخـرجه مسلم، عن يحيـى بن يحيـى قال: «قلت لمالـك: أحدَّثـك داود» فذكـره، وقال في آخره: «نعم». وهذا التحمل يسمى «عَرْض السماع»، وكان مالـك يختاره على التحديث من لفظه. واختلف أهل الحديث هل يشتـرط أن يقول الشيخ «نعم» أم «لا»، والصحيح أن سكوته ينزل منزلة إقراره إذا كـان عارفـاً ولم يمنعه مانع، وإذا قال نعم فهو أولى بلا نزاع»[4].

- وفي حـديث آخر: «حـدثنا علي، حـدثنا سفيـان قال: الـزهـري

---

(١) يعني البُلْقِيْني.
(٢) الفتح: ٢/ ١٤٦.
(٣) الفتح: ٤/ ٣٨٧.
(٤) الفتح: ٤/ ٣٨٩.

حدثنا عن سعيد بن المسيّب، عن أبي هريرة روايةً: الفطرة خمس، أو خمس من الفطرة: الختان، والاستحداد، ونتف الإبط، وتقليم الأظفار، وقص الشارب»[1].

يقول الحافظ: «قوله (عن أبي هريرة رواية): هي كناية عن قول الراوي: قال رسول الله ﷺ، أو نحوها. وقد وقع في رواية مسدَّد «يبلغ به النبي ﷺ»، وفي رواية أبي بكر بن أبي شيبة «قال رسول الله ﷺ». وبيّن أحمد في روايته أن سفيان كان تارة يكني وتارة يصرِّح، وقد تقرر في علوم الحديث أن قول الراوي: «رواية» أو «يرويه» أو «يبلغ به» ونحو ذلك، محمول على الرفع»[2].

• • •

٩ ـ ويتكلم على المصطلحات لغة وشرعاً:

ـ من ذلك ما جاء في «باب النَّجْشِ، ومن قال: لا يجوز ذلك البيع» يقول الحافظ: «قوله (باب النجش): بفتح النون وسكون الجيم بعدها معجمة، وهو في اللغة: تنفير الصيد واستثارته من مكانه ليصاد، يقال: نجشت الصيد أنجشه ـ بالضم ـ نجشاً. وفي الشرع: الزيادة في ثمن السلعة ممن لا يريد شراءها ليقع غيره فيها؛ سمِّي بذلك لأن الناجش يثير الرغبة في السلعة ويقع ذلك بمواطأة البائع فيشتركان في الإثم، ويقع ذلك بغير علم البائع فيختص بذلك الناجش، وقد يختص به البائع كمن يخبر بأنه اشترى سلعة بأكثر مما اشتراها به ليغر غيره بذلك»[3].

ـ وفي أول «كتاب الشُّفْعة» يقول رحمه الله: «والشفعة: بضم المعجمة وسكون الفاء وغلط من حرَّكها، وهي مأخوذة لغة من الشفع وهو

---

(١) الفتح: ١٠/٣٣٤.
(٢) الفتح: ١٠/٣٣٦.
(٣) الفتح: ٤/٣٥٥.

الـزوج، وقيل من الـزيادة، وقيـل من الإعانـة. وفي الشرع: انتقـال حصـة شريك إلى شريك، كانت انتقلت إلى أجنبـي بمثل العوض المسمى»[1].

ــ وفي «باب الخُلْع وكيف الطلاق به» يقول ابن حجر: «قولـه (باب الخلع): بضم المعجمة وسكون اللام، وهو في اللغـة: فراق الـزوجة على مال، مأخوذ من خلـع الثوب، لأن المرأة لباس الـرجل معنى، وضُم مصدره تفرقة بين الحسي والمعنوي... وضابطه شرعاً: فراق الـرجل زوجتـه ببذل قـابل للعـوض يحصل لجهـة الزوج. وهـو مكـروه إلاّ في حـال مخـافـة أن لا يقيما ــ أو واحد منهما ــ ما أمر به...»[2].

● ● ●

١٠ ــ التوفيق بين الأحاديث المتعارضة، أو التي تبدو كذلـك، وإن لم يمكن الجمع رجّح ما في الصحيح:

ــ ففي حـديث عـائشـة في ضيـاع عِقْـدِهـا ونـزول آيـة التيمم: «... قالت: فبعثنا البعير الذي كنت عليه، فأصبنا العِقْد تحته»[3].

يقول الحافظ رحمه الله: «قوله (فبعثنا): أي أثرنا. (البعير الذي كنت عليه): أي حالة السفر. قوله: (فـأصبنا العقـد تحته): ظـاهر في أن الـذين تـوجهوا في طلبـه أولاً لم يجدوه. وفي روايـة عروة في البـاب الـذي يليـه: «فبعث رسـول الله ﷺ رجلاً فـوجـدهـا» أي القـلادة. وللمصنف في فضـل عائشة من هذا الوجه وكذا لمسـلم: «فبعث نـاساً من أصحـابه في طلبهـا». ولأبـي داود «فبعث أسيـد بن حضير ونـاساً معـه». وطريق الجمـع بين هـذه الـروايـات أن أسيـداً كـان رأس من بعث لـذلـك، فلذلـك سمِّي في بعض الـروايات دون غيـره، وكذا أسنـد الفعل إلى واحـد مبهـم وهـو المـراد به،

---

(١) الفتح: ٤/٤٣٦.

(٢) الفتح: ٩/٣٩٥ ــ ٣٩٦.

(٣) الفتح: ١/٤٣١.

وكأنهم لم يجدوا العقد أولاً، فلما رجعوا ونزلت آية التيمم وأرادوا الرحيل وأثاروا البعير؛ وجده أسيد بن حضير، فعلى هذا فقوله في رواية عروة الآتية «فوجدها» أي بعد جميع ما تقدم من التفتيش وغيره»[1].

ـ وفي حديث البخاري، عن ابن مسعود رضي الله عنه: قال النبي ﷺ: (أول ما يقضى بين الناس في الدماء)[2]. يقول الحافظ: «والمعنى: أول القضايا القضاء في الدماء، ويحتمل أن يكون التقدير: أول ما يقضي فيه الأمرُ الكائن في الدماء. ولا يعارض هذا حديث أبي هريرة رفعه: (إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة صلاته) الحديث، أخرجه أصحاب السنن؛ لأن الأول محمول على ما يتعلق بمعاملات الخلق، والثاني فيما يتعلق بعبادة الخالق. وقد جمع النسائي في روايته في حديث ابن مسعود بين الخبرين ولفظه: (أول ما يحاسب العبد عليه صلاته، وأول ما يقضى بين الناس في الدماء)[3]».

ـ وفي حديث الإفك وقصة صفوان بن المعطل السلمي مع السيدة عائشة إذ تقول: «حتى أناخ راحلته فوطىء على يديها، فركبتها، فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش...»[4].

يقول الحافظ: «قوله (فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش): هكذا وقع في جميع الروايات، إلاَّ في مرسل مقاتل بن حيان فإن فيه أنه ركب معها مردفاً لها، والذي في «الصحيح» هو الصحيح»[5].

● ● ●

---

(١) الفتح: ١/ ٤٣٥.
(٢) الفتح: ١١/ ٣٩٥.
(٣) الفتح: ١١/ ٣٩٦.
(٤) الفتح: ٨/ ٤٥٢.
(٥) الفتح: ٨/ ٤٦٣.

١١ ـ ويحكم على الأحاديث التي يستشهد بها في شرحه صحة وضعفاً، ويبين عللها وأقوال الأئمة فيها، وغالباً ما يذكر ذلك بعبارة وجيزة كافية مفيدة:

ـ من ذلك قوله: « روى ابن المنذر وابن الجارود بإسناد صحيح، عن أنس مرفوعاً: (جُعلت لي كل أرض طيبة مسجداً وطهوراً) ». «وفي حديث علي: (وجُعل التراب لي طهوراً). أخرجه أحمد والبيهقي بإسناد حسن»[(١)].

ـ ومنه قوله: «عن جابر أن النبي ﷺ قال لبلال: (اجعل بين أذانك وإقامتك قدر ما يفرغ الآكل من أكله، والشارب من شربه، والمعتصر إذا دخل لقضاء حاجته). أخرجه الترمذي والحاكم، لكن إسناده ضعيف. وله شاهد من حديث أبي هريرة ومن حديث سلمان أخرجهما أبو الشيخ، ومن حديث أبيّ بن كعب، أخرجه عبد الله بن أحمد في «زيادات المسند»، وكلها واهية»[(٢)].

ـ وفي أول «كتاب الوصايا» يقول: «ومن أكاذيب الرافضة ما رواه كثير بن يحيى ـ وهو من كبارهم ـ، عن أبي عوانة، عن الأجلح، عن زيد بن علي بن الحسين قال: «لما كان اليوم الذي توفي فيه رسول الله ﷺ ـ فذكر قصة طويلة فيها ـ فدخل عليٌّ فقامت عائشة، فأكبّ عليه، فأخبره بألف باب مما يكون قبل يوم القيامة، يفتح كل باب منها ألف باب». وهذا مرسل أو معضل. وله طريق أخرى موصولة عند ابن عدي في «كتاب الضعفاء» من حديث عبد الله بن عمر، بسند واهٍ»[(٣)].

ـ وفي «باب هل يُصلَّى على غير النبي ﷺ . . .». يقول ابن حجر:

---

(١) الفتح: ١/٤٣٨. ومعنى «طيبة»: طاهرة.
(٢) الفتح: ٢/١٠٦.
(٣) الفتح: ٥/٣٦٣.

«قوله (باب هل يصلى على غير النبي ﷺ ؟): أي استقلالاً أو تبعاً، ويدخل في الغير الأنبياء والملائكة والمؤمنون. فأما مسألة الأنبياء فوَرد فيها أحاديث: أحدها حديث علي في الدعاء بحفظ القرآن، ففيه: (وَصلِّ عليَّ وعلى سائر النبيِّين)، أخرجه الترمذي والحاكم. وحديث بريدة رفعه: (لا تتركن في التشهد الصلاة عليَّ وعلى أنبياء الله) الحديث، أخرجه البيهقي بسند واهٍ. وحديث أبي هريرة رفعه: (صلوا على أنبياء الله) الحديث، أخرجه إسماعيل القاضي بسند ضعيف. وحديث ابن عباس رفعه: (إذا صليتم عليَّ فصلُّوا على أنبياء الله، فإن الله بعثهم كما بعثني)، أخرجه الطبراني، ورويناه في «فوائد العيسوي» وسنده ضعيف أيضاً. وقد ثبت عن ابن عباس اختصاص ذلك بالنبي ﷺ، أخرجه ابن أبي شيبة من طريق عثمان بن حكيم، عن عكرمة، عنه قال: «ما أعلم الصلاة تنبغي على أحد من أحد إلاَّ على النبي ﷺ». وهذا سند صحيح»[1].

• • •

١٢ ـ وله خلال شرحه تعقبات حديثية فذَّة، بدليل ناصع، وبرهان قاطع:

ـ ففي حديث البخاري: «حدثنا المكي بن إبراهيم، حدثنا ابن جريج، عن عطاء بن أبي رباح وغيره ـ يزيدُ بعضُهم على بعضٍ، ولم يبلِّغْهُ كلَّه رجلٌ واحدٌ منهم ـ، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: كنتُ مع النبي ﷺ في سَفَرٍ...»[2].

يقول ابن حجر: «قوله عن عطاء بن أبي رباح وغيره يزيد بعضهم على بعض ولم يبلِّغه كلَّه رجل منهم»: كذا للأكثر وكذا وقع عند الإسماعيلي، أي ليس جميع الحديث عند واحد منهم بعينه، وإنما عند

---

(١) الفتح: ١١/١٦٩ ـ ١٧٠.

(٢) الفتح: ٤/٤٨٥.

بعضهم منه ما ليس عند الآخر، ووقع لبعضهم «لم يبلغه كلهم، رجل واحد منهم» وعليه شرح ابن التين وزعم أن معناه أن بين بعضهم وبين جابر واسطة. وعند أبي نعيم في «المستخرج»: «لم يبلغه كله إلاّ رجل واحد عن جابر»، ومثله للحميدي في «جمعه»، وبخط الدمياطي في نسخته من البخاري «لم يبلغه» بالتشديد. وقال الكرماني: قوله «يزيد بعضهم»: الضمير فيه يرجع إلى الغير، وفي «لم يبلغه» إلى الحديث أو الرسول، و «رجل» بدل من كل. قلت: الضمير للحديث جزماً لا للرسول، لأن السند متصل. ثم قال الكرماني: وفي أكثر الروايات لفظة «وغيره» بالجر، وأما رفعه فعلى الابتداء و «يزيد» خبره، ويحتمل أن يكون «رجل» فاعل فعل مقدر ليبلغه. وعلى التقادير لا يخفى ما في هذا التركيب من التعجرف. قلت: إنما جاء التعجرف من عدم فهم المراد، وإلاَّ فمعنى الكلام أن ابن جريج روى هذا الحديث عن عطاء، وعن غير عطاء كلهم عن جابر، لكنه عنده عنهم بالتوزيع: روى عن كل واحد قطعة من الحديث. وقوله «لم يبلغه كله رجل»: أي لم يَسُقْهُ بتمامه، فهو بيان منه لصورة تحمّله، وهو كقول الزهري في حديث الإفك: «وكل حدثني طائفة من حديثها لكنه زاد عليه» نفى أن يكون كل واحد منهم ساقه بتمامه؛ فأي تعجرف في هذا؟ والعجب من شارح ترك الرواية المشهورة التي لا قلق في تركيبها وتشاغل بتجويز شيء لم يثبت في الرواية، ثم يطلق على الجميع التعجرف، أفهذا شارح أو جارح؟!»[1].

ـ وفي موضع آخر جاء في حديث البخاري: «... قال الحسنُ: ولقد سمعت أبا بكرة قال: بينا النبي ﷺ يخطب جاء الحسنُ، فقال النبي ﷺ: ابني هذا سيِّد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين»[2].

---

(١) الفتح: ٤/٤٨٥ ـ ٤٨٦.
(٢) الفتح: ١٣/٦١.

يقول الحافظ: «قوله (قال الحسن) هو البصري، وهو موصول بالسند المتقدم. ووقع في «رجال البخاري» لأبي الوليد الباجي في ترجمة الحسن بن علي بن أبي طالب ما نصُّه: «أخرج البخاري قول الحسن سمعت أبا بكرة»، فتأوله الدارقطني وغيره على أنه الحسن بن علي لأن الحسن البصري عندهم لم يسمع من أبي بكرة، وحمله ابن المديني والبخاري على أنه الحسن البصري. قال الباجي: وعندي أن الحسن الذي قال: «سمعت هذا من أبي بكرة» إنما هو الحسن بن علي. انتهى. وهو عجيب منه، فإن البخاري قد أخرج متن هذا الحديث في «علامات النبوة» مجرداً عن القصة من طريق حسين بن علي الجعفي، عن أبي موسى ــ وهو إسرائيل بن موسى ــ، عن الحسن، عن أبي بكرة، وأخرجه البيهقي في «الدلائل» من رواية مبارك بن فضالة ومن رواية علي بن زيد كلاهما عن الحسن، عن أبي بكرة، وزاد في آخره «قال الحسن: فلما ولِّي ما أهريق في سببه محجمة دم» فالحسن القائل هو البصري، والذي ولِّي هو الحسن بن علي، وليس للحسن بن علي في هذا رواية، وهؤلاء الثلاثة ــ إسرائيل بن موسى ومبارك بن فضالة وعلي بن زيد ــ لم يدرك واحد منهم الحسن بن علي، وقد صرَّح إسرائيل بقوله «سمعت الحسن»، وذلك فيما أخرجه الإسماعيلي، عن الحسن بن سفيان، عن الصلت بن مسعود، عن سفيان بن عيينة، عن أبي موسى ــ وهو إسرائيل ــ «سمعت الحسن، سمعت أبا بكرة»، وهؤلاء كلهم من رجال الصحيح، والصلت من شيوخ مسلم. وقد استشعر ابن التين خطأ الباجي فقال...»[1].

● ● ●

(١) الفتح: ١٣/٦٥ ــ ٦٦. وانظر أمثلة أخرى في: ٣/٣١٠، ٣٦٩ ــ ٣٧٠، ٤/١٣، ٣٨، ١١٥ ــ ١١٦، ٣٦٣، ٥/١١، ٤٠٠، ٦/٦٠ ــ ٦١، ٧/٤٣٧ ــ ٤٣٨، ٤٧٤. وغيرها كثير.

١٣ ـ أما منهجه في الشرح فإنه يشرح الحديث بالحديث، ويتمسك بنص الحديث ولا يعدل عنه، ويرفض ما لم يقم عليه دليل، أو قام ضده:

ـ وقد نصَّ على أن أَوْلى ما يشرح الحديث بالحديث، ومن ذلك قوله: «. . . وأن المتعين على من يتكلم على الأحاديث أن يجمع طرقها، ثم يجمع ألفاظ المتون إن صحَّت الطرق، ويشرحها على أنه حديث واحد؛ فإن الحديث أَوْلى ما فُسِّر بالحديث»[١].

ـ فعند شرح قوله ﷺ: (ما من الناس من مسلم يُتَوفَّى له ثلاثٌ لم يبلُغوا الحِنْثَ إلاَّ أدخله اللَّهُ الجنةَ بفضل رحمتِهِ إياهم)[٢].

يقول الحافظ: «قوله (ما من الناس من مسلم): قيده به ليخرج الكافر، و«من» الأولى بيانية والثانية زائدة، وسقطت «من» في رواية ابن علية عن عبد العزيز كما سيأتي في أواخر الجنائز، و«مسلم» اسم ما والاستثناء وما معه الخبر. والحديث ظاهر في اختصاص ذلك بالمسلم، لكن هل يحصل ذلك لمن مات له أولاد في الكفر ثم أسلم؟ فيه نظر، ويدل على عدم ذلك حديث أبي ثعلبة الأشجعي قال: «قلت يا رسول الله، مات لي ولدان، قال: (من مات له ولدان في الإسلام أدخله الله الجنة) أخرجه أحمد والطبراني. وعن عمرو بن عبسة مرفوعاً: (من مات له ثلاثة أولاد في الإسلام فماتوا قبل أن يبلغوا أدخله الله الجنة) أخرجه أحمد أيضاً. وأخرج أيضاً عن رجاء الأسلمية قالت: «جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، ادعُ الله لي في ابن لي بالبركة فإنه قد توفي لي ثلاثة، فقال: أمنذ أسلمت؟ قالت: نعم» فذكر الحديث»[٣].

ثم يقول: «قوله (إلاَّ أدخله الله الجنة): في حديث عتبة بن عبد الله السلمي عند ابن ماجه ـ بإسناد حسن ـ نحو حديث الباب لكن فيه: (إلاَّ تلقوه من أبواب الجنة الثمانية من أيها شاء دخل). وهذا زائد على مطلق

---

(١) الفتح: ٦/ ٤٧٥. وانظر كذلك: ١١/ ٣١٧.

(٢) الفتح: ٣/ ١١٨.

(٣) الفتح: ٣/ ١٢٠.

دخـول الجنة، ويشهـد له مـا رواه النسائي ـ بـإسناد صحيـح ـ من حديث معاوية بن قرة عن أبيه مرفوعاً في أثناء حديث: (ما يسرك أن لا تأتي بـاباً من أبواب الجنة إلاّ وجدته عنده يسعى يفتح لك»[1].

ـ وفي حديث مرضه ﷺ قال: (هَرِيقوا عليَّ من سبع قِرَبٍ لم تُحْلَلْ أَوْكِيَتُهُنَّ). يقـول ابن حجـر رحمـه الله: «قـولـه (من سبـع قِـرَب): قيـل: الحكمة في هذا العدد أن له خاصية في دفع ضرر السمّ والسحـر، وقد ذكـر في أوائـل الباب: (هـذا أوان انقـطاع أبهـري من ذلك السم). وتمسّـك بـه بعض من أنكر نجاسة سؤر الكلب وزعم أن الأمر بالغسل منـه سبعاً إنمـا هو لدفع السمية التي في ريقه! وقد ثبت حديث: (من تصبـح بسبع تمـرات من عجوة لم يضرّه ذلك اليوم سم ولا سحر). وللنسائي في قـراءة الفاتحـة على المصـاب سبع مـرات، وسنده صحيـح. وفي صحيح مسلم القـول لمن بـه وجـع (أعوذ بعـزة الله وقدرتـه من شرّ مـا أجد وأحـاذر، سبع مـرات). وفي النسـائي: (من قال عنـد مريض لم يحضـر أجله: أسـأل الله العـظيم، رب العرش العظيم، أن يشفيك، سبع مرات)[2].

ـ وفي فضل نبي الله يونس عليه السلام ذكر البخاري عدة أحاديث، منها: «عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبـي ﷺ قال: (ما ينبغي لعبد أن يقول: إني خير من يونس بن متى)، ونسبه إلى أبيه»[3].

يقول الحافظ: «وأما قوله في الرواية الأولى[4] (ونسبه إلى أبيه): ففيه إشـارة إلى الرد على من زعم أن «متى» اسم أمـه، وهو محكي عن وهب بن منبه في «المبتدأ»، وذكره الطبـري، وتبعه ابن الأثيـر في «الكامـل»، والذي في الصحيح أصح»[5].

---

(١) الفتح: ١٢١/٣.
(٢) الفتح: ١٤١/٨.
(٣) الفتح: ٤٥٠/٦.
(٤) وهي التي ذكرناها هنا.
(٥) الفتح: ٤٥١/٦ ـ ٤٥٢.

ــ وفي أول كتاب الصوم «باب وجوب رمضان» يقول رحمه الله: «وذكر بعض الصوفية أن آدم عليه السلام لما أكل من الشجرة ثم تاب تأخر قبول توبته مما بقي في جسده من تلك الأكلة ثلاثين يوماً، فلما صفا جسده منها تيب عليه، ففرض على ذريته صيام ثلاثين يوماً. وهذا يحتاج إلى ثبوت السند فيه إلى من يُقبل قوله في ذلك، وهيهات وجدان ذلك»(١)!!

ــ وفي أول كتاب التفسير «باب ما جاء في فاتحة الكتاب، وسمِّيت أم الكتاب أنه يُبدأ بكتابتها في المصاحف، ويُبدأ بقراءتها في الصلاة»(٢).

يقول الحافظ: «ونقل السهيلي عن الحسن وابن سيرين ووافقهما بقي بن مخلد كراهية تسمية الفاتحة أم الكتاب، وتعقبه السهيلي. قلت: وسيأتي في حديث الباب تسميتها بذلك، ويأتي في تفسير الحِجر حديث أبي هريرة مرفوعاً: (أم القرآن هي السبع المثاني). ولا فرق بين تسميتها بأم القرآن وأم الكتاب، ولعل الذي كره ذلك وقف عند لفظ الأم، وإذا ثبت النص طاح ما دونه»(٣).

• • •

١٤ ــ ومن براعته أنه يكمل معاني ألفاظ «الصحيح» مما في كتب السنَّة الأخرى، ويضيف ماله علاقة وطيدة بالنص:

ــ من ذلك ما جاء في شرح حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: (لا يصومُ أحدكم يوم الجمعة إلَّا يوماً قبله أو بعده)(٤).

يقول الحافظ: قوله (إلَّا يوماً قبله أو بعده): تقديره إلَّا أن يصوم يوماً

(١) الفتح: ٤/١٠٢ ــ ١٠٣.
(٢) الفتح: ٨/١٥٥.
(٣) الفتح: ٨/١٥٦.
(٤) الفتح: ٤/٢٣٢.

قبله، لأن يوماً لا يصح استثناؤه من يوم الجمعة. وقال الكرماني: يجوز أن يكون منصوباً بنزع الخافض، تقديره: إلَّا بيوم قبله، وتكون الباء للمصاحبة. وفي رواية الإسماعيلي من طريق محمد بن إشكاب عن عمر بن حفص ــ شيخ البخاري فيه ــ: (إلَّا أن تصوموا قبله أو بعده). ولمسلم من طريق أبي معاوية عن الأعمش: (لا يصم أحدكم يوم الجمعة إلَّا أن يصوم يوماً قبله أو يصوم بعده). وللنسائي من هذا الوجه: (إلَّا أن يصوم قبله يوماً أو يصوم بعده يوماً). ولمسلم من طريق هشام عن ابن سيرين، عن أبي هريرة: (لا تخصوا ليلة الجمعة بقيام من بين الليالي، ولا تخصوا يوم الجمعة بصيام من بين الأيام، إلَّا أن يكون في صوم يصومه أحدكم). ورواه أحمد من طريق عوف عن ابن سيرين بلفظ: «نهى أن يفرد يوم الجمعة بصوم». وله من طريق أبي الأوبر زياد الحارثي: «أن رجلاً قال لأبي هريرة: أنت الذي تنهى الناس عن صوم يوم الجمعة؟ قال: ها ورب الكعبة ثلاثاً، لقد سمعت محمداً ﷺ يقول: (لا يصوم أحدكم يوم الجمعة وحده إلَّا في أيام معه)». وله من طريق ليلى امرأة بشير بن الخصاصية أنه سأل النبي ﷺ فقال: (لا تصم يوم الجمعة إلَّا في أيام هو أحدها). وهذه الأحاديث تقيد النهي المطلق في حديث جابر، وتؤيد الزيادة التي تقدمت من تقييد الإطلاق بالإفراد، ويؤخذ من الاستثناء جوازه لمن صام قبله أو بعده، أو اتفق وقوعه في أيام له عادة بصومها، كمن يصوم أيام البيض، أو من له عادة بصوم يوم معين كيوم عرفة فوافق يوم الجمعة»[1].

• • •

١٥ ــ ويشرح الحديث بالمكان الذي هو أليق به، ويشير في كل باب ورد فيه إلى وجه إيراده، وتفسير ماله تعلق بذلك الباب، ويحيل إذا سبق شرحه أو سيأتي؛ مما يجنبه التكرار، وهذا من فرائد هذا الكتاب على طوله وضخامته:

---

(١) الفتح: ٤/٢٣٣ ــ ٢٣٤.

ـ فمثلاً: في «باب بيع الولاء وهبته» يقول الحافظ: «قوله (باب بيع الـولاء وهبته): أي حكمـه. والولاء بـالفتح والمد: حق ميـراث المعتِق من المعتَق، بالفتح. أورد فيـه حديث ابن عمـر المشهور، وسيـأتي شرحـه في «كتـاب الفرائض» إن شـاء الله تعالى مـع توجيـه عدم صحـة بيعه من دلالـة النهي المذكور. وحديث عائشة في قصة بـريرة وسيـأتي بعد عشـرة أبواب. ووجه دخولـه في الترجمـة من قولـه في أصل الحـديث: «فإنمـا الولاء لمن أعتق». وهو وإن كان هنـا لم يسقه بهـذا اللفظ، فكأنـه أشار إليـه كعادتـه، ووجه الدلالة منه حصره في المعتق فلا يكون لغيره معه منه شيء»[1].

ـ وفي البـاب الأول من تفسير سـورة «إقرأ» ذكـر البخـاري حـديثين أحدهما حديث عائشة في بدء الوحي، وفيه يقول الحافظ: «وقد تقدم شرح هذا الحديث مستوفى في أوائل هذا الكتاب، وسأذكر هنـا ما لم يتقـدم ذكره مما اشتمل عليه من سياق هذه الطريق وغيرها من الفوائد»[2].

ـ ومن ذلـك مثلاً قـول الحافظ: قـولـه: (بـاب ولم يلبسـوا إيمـانهم بظلم): ذكر فيـه حديث سليمـان وهو الأعمش، عن إبـراهيم وهو النخعي، عن علقمـة وهو ابن قيس، عن عبـد الله وهو ابن مسعـود قـال: لمـا «نـزلت ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا إيمانَهُمْ بظُلم ٍ﴾ قال أصحابه» أي: أصحـاب النبـي ﷺ. وقد تقدم شرحه مستوفى في كتاب الإيمان بما أغنى عن إعادته»[3].

●● أمـا مزايـا طـريقتـه في الشـرح وأسلوبـه في معـالجـة أحـاديث «الصحيح» ومواضيعه: فإنه يسير في شرحه على نسق واحـد في أول الجزء وآخره، ومن أول شرحه حتى نهايته، مع سعة الاطلاع على الآراء ومنـاهج من سبقه وكتبهم ودعم ذلك ببراعة المحدث في الاطلاع على الـروايات؛

---

(١) الفتح: ١٦٧/٥.

(٢) الفتح: ٧١٦/٨، واستمر في شرحه حتى ص ٧٢١.

(٣) الفتح: ٢٩٤/٨.

مما نتج عنه سعة عطائه في شرحه. ويجيب عن إشكالات واردة على الحديث، ويطرح أسئلة واردة على النص ويجيب عنها، ويتكلم على الخلافيات الفقهية والاستدلال لها بالحديث، وعلى نكت الحديث، وإعرابه. وله وقفات قيمة في علوم القرآن والتفسير وأسباب النزول والقراءات، ويتكلم على اللغويات بأسلوب سهل واضح، وإذا كان في المعنى خلاف استوعب الآراء، كما يتكلم على الأماكن بأسلوب دقيق وتحقيق بارع، مع باقات من الزهديات والرقائق، ووقفات قيِّمة في العقائد، والكلام على الطوائف المبتدعة والكافرة. هذا بالإضافة إلى استنباط الفوائد الكثيرة من الحديث النبوي، وتنبيهات وتكميلات ازدانت بها صفحات هذا «الفتح».

• • •

١٦ ـ سعة اطلاعه على الآراء في شرح المعاني الحديثية وترجيحاته واختياراته:

ـ من ذلك قوله في «باب تحري ليلة القدر في الوتر من العشر الأواخر»: «وقد اختلف العلماء في ليلة القدر اختلافاً كثيراً، وتحصَّل لنا من مذاهبهم في ذلك أكثر من أربعين قولاً، كما وقع لنا نظير ذلك في ساعة الجمعة، وقد اشتركتا في إخفاء كل منهما؛ ليقع الجد في طلبهما: القول الأول...». ثم ذكر الحافظ ستة وأربعين قولاً، ثم قال: «هذا آخر ما وقفت عليه من الأقوال، وبعضها يمكن ردُّه إلى بعض، وإن كان ظاهرها التغاير. وأرجحها كلها أنها في وتر من العشر الأخير، وأنها تنتقل كما يفهم من أحاديث هذا الباب، وأرجاها أوتار العشر، وأرجى أوتار العشر عند الشافعية ليلة إحدى وعشرين أو ثلاث وعشرين على ما في حديث أبي سعيد وعبد الله بن أنيس، وأرجاها عند الجمهور ليلة سبع وعشرين، وقد تقدمت أدلة ذلك»[1].

---

(١) الفتح: ٤/٢٦٢ ـ ٢٦٦.

ـ ومنه في «باب حديث الإسراء» حيث يقول الحافظ رحمه الله:
«وقد اختلف السلف بحسب اختلاف الأخبار الواردة: فمنهم من ذهب إلى أن الإسراء والمعراج وقعا في ليلة واحدة في اليقظة بجسد النبي ﷺ وروحه بعد المبعث، وإلى هذا ذهب الجمهور من علماء المحدثين والفقهاء والمتكلمين وتواردت عليه ظواهر الأخبار الصحيحة، ولا ينبغي العدول عن ذلك، إذ ليس في العقل ما يحيله حتى يحتاج إلى تأويل، نعم جاء في بعض الأخبار ما يخالف بعض ذلك، فجنح لأجل ذلك بعض أهل العلم منهم إلى أن ذلك كله وقع مرتين: مرة في المنام توطئة وتمهيداً، ومرة ثانية في اليقظة كما وقع نظير ذلك في ابتداء مجيء الملَك بالوحي»[1].

ـ وفي باب ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ﴾ يقول: «وقد اختلف السلف في المراد بالصلاة الوسطى، وجمع الدمياطي في ذلك جزءاً مشهوراً سماه «كشف الغطا عن الصلاة الوسطى» فبلغ تسعة عشر قولاً...». ثم يقول ابن حجر: «... لكن كونها العصر هو المعتمد، وبه قال ابن مسعود وأبو هريرة وهو الصحيح من مذهب أبي حنيفة وقول أحمد والذي صار إليه معظم الشافعية لصحة الحديث فيه. قال الترمذي: هو قول أكثر علماء الصحابة. وقال الماوردي: هو قول جمهور التابعين. وقال ابن عبد البر: هو قول أكثر أهل الأثر»[2].

● ● ●

١٧ ـ وقد تجلى ذلك ببراعته في سعة الاطلاع على الروايات، وسوقه لها؛ وذلك لتفسير المبهم والكشف عن الغامض، وإزالة إشكال وارد على نص البخاري، أو لبيان حال الأحاديث المخالفة الواردة في الموضوع، أو لاستكمال جوانب بحث معين، أو لبيان الأدلة في حكم

---

(١) الفتح: ١٩٧/٧. وقد استوعب الآراء من ص ١٩٧ ـ ١٩٨.

(٢) الفتح: ١٩٦/٨. وانظر بالتفصيل: ص ١٩٥ ـ ١٩٨.

فقهي، أو لبيان الاختلاف في الألفاظ للتوفيق بينها، وغير ذلك[1]:

ـ والأمثلة على هذا كثيرة سبق منها شيء كثير ـ وسيأتي المزيد ـ وأذكر هنا ما جاء في شرحه قول النبي ﷺ: (إن العبد إذا وُضع في قبره وتولى عنه أصحابه ـ وإنه ليسمعُ قرعَ نعالهم ـ أتاه مَلَكان فيقعِدانه فيقولان: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ لمحمد ﷺ. فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله. فيُقال له: انظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعداً من الجنة، فيراهما جميعاً). قال قتادة: وذُكر لنا أنه يُفسح له في قبره»[2].

يقول ابن حجر: «قوله (إن العبد إذا وضع في قبره): كذا وقع عنده مختصراً، وأوله عند أبي داود من طريق عبد الوهاب بن عطاء، عن سعيد بهذا السند «أن نبي الله ﷺ دخل نخلاً لبني النجار، فسمع صوتاً ففزع فقال: من أصحاب هذه القبور؟ قالوا: يا رسول الله، ناس ماتوا في الجاهلية. فقال: تعوَّذوا بالله من عذاب القبر ومن فتنة الدجّال. قالوا: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: إن العبد» فذكر الحديث. فأفاد بيان سبب الحديث. قوله: (وإنه ليسمع قرع نعالهم): زاد مسلم «إذا انصرفوا»، وفي رواية له: «يأتيه ملكان»، زاد ابن حبان والترمذي من طريق سعيد المقبري عن أبي هريرة: «أسودان أزرقان يقال لأحدهما المُنْكَر وللآخر النكِير»، وفي رواية ابن حبان «يقال لهما: منكر ونكير»، زاد الطبراني في «الأوسط» من طريق أخرى عن أبي هريرة «أعينهما مثل قدور النحاس، وأنيابهما مثل صياصي البقر، وأصواتهما مثل الرعد» ونحوه لعبد الرزاق من مرسل عمرو بن دينار وزاد: «يحفران بأنيابهما، ويطآن في أشعارهما، معهما مِرْزَبَة لو اجتمع عليها أهل منى لم يقلوها». وأورد ابن الجوزي في

---

(١) وليس كما زعم الكوثري بأن الحافظ «يسعى في حشد طرق الحديث وألفاظه المختلفة من كتب الأطراف والمستخرجات»؛ ذيول التذكرة: ص ٣٣٤. هكذا دون ذكر مقصد الحافظ من ذلك.

(٢) الفتح: ٣/٢٣٢.

«الموضوعات» حديثاً فيه «إن فيهم رومان وهو كبيرهم». وذكر بعض الفقهاء أن اسم اللذين يسألان المذنب منكر ونكير، وأن اسم اللذين يسألان المطيع مبشر وبشير. قوله: (فيقعدانه): زاد في حديث البراء: «فتعاد روحه في جسده» كما تقدم في أول أحاديث الباب. وزاد ابن حبان من طريق أبي سلمة عن أبي هريرة: «فإذا كان مؤمناً كانت الصلاة عند رأسه، والزكاة عن يمينه، والصوم عن شماله، وفعل المعروف من قبل رجليه، فيقال له: اجلس، فيجلس، وقد مثلت له الشمس عند الغروب»، زاد ابن ماجه من حديث جابر «فيجلس ويمسح عينيه ويقول: دعوني أصلي». قوله: (فيقولان: ما كنت تقول في هذا الرجل محمد) زاد أبو داود في أوله: «ما كنت تعبد؟ فإن هداه الله قال: كنت أعبد الله. فيقال له: ما كنت تقول في هذا الرجل». ولأحمد من حديث عائشة: «ما هذا الرجل الذي كان فيكم». وله من حديث أبي سعيد: «فإن كان مؤمناً قال: أشهد أن لا إله إلَّا الله وأن محمداً عبده ورسوله: فيقال له: صدقت». زاد أبو داود: «فلا يسأل عن شيء غيرهما». وفي حديث أسماء بنت أبي بكر المتقدم في «العلم» و «الطهارة» وغيرهما: «فأما المؤمن أو الموقن فيقول: محمد رسول الله، جاءنا بالبينات والهدى، فأجبنا وآمنا واتبعنا. فيقال له: نم صالحاً». وفي حديث أبي سعيد عند سعيد بن منصور: «فيقال له: نم نومة العروس، فيكون في أحلى نومة نامها أحد حتى يبعث». وللترمذي في حديث أبي هريرة: «ويقال له: نم، فينام نومة العروس الذي لا يوقظه إلَّا أحب أهله إليه حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك». ولابن حبان وابن ماجه من حديث أبي هريرة وأحمد من حديث عائشة: «ويقال له: على اليقين كنت وعليه مت وعليه تبعث إن شاء الله». قوله: (فيقال له: انظر إلى مقعدك من النار): في رواية أبي داود «فيقال له: هذا بيتك كان في النار، ولكن الله عز وجل عصمك ورحمك فأبدلك الله به بيتاً في الجنة. فيقول: دعوني حتى أذهب فأبشر أهلي، فيقال له: اسكت». وفي حديث أبي سعيد عند

أحمد «كان هذا منزلك لو كفرت بربك». ولابن ماجه من حديث أبي هريرة بإسناد صحيح: «فيقال له: هل رأيت الله؟ فيقول: ما ينبغي لأحد أن يرى الله، فتفرج له فرجه قِبَلَ النار فينظر إليها يحطم بعضها بعضاً فيقال له: انظر إلى ما وقاك الله». وسيأتي في «أواخر الرقاق» من وجه آخر عن أبي هريرة: لا يدخل أحد الجنة إلاَّ رأى مقعده من النار لو أساء ليزداد شكراً» وذكر عكسه، قوله: (قال قتادة: وذكر لنا أنه يفسح له في قبره): زاد مسلم من طريق شيبان عن قتادة «سبعون ذراعاً، ويملأ خضراً إلى يوم يبعثون» ولم أقف على هذه الزيادة موصولة من طريق قتادة. وفي حديث أبي سعيد من وجه آخر عند أحمد «ويفسح له في قبره»، وللترمذي وابن حبان من حديث أبي هريرة «فَيُفْسَحُ له في قبره سبعون[1] ذراعاً»، زاد ابن حبان «في سبعين ذراعاً». وله من وجه آخر عن أبي هريرة «ويرحب له في قبره سبعون ذراعاً، وينور له كالقمر ليلة البدر» وفي حديث البراء الطويل «فينادي منادٍ من السماء: أن صدق عبدي فأفرشوه من الجنة، وافتحوا له باباً في الجنة، وألبسوه من الجنة. قال: فيأتيه من روحها وطيبها، ويفسح له فيها مدّ بصره»، زاد ابن حبان من وجه آخر عن أبي هريرة «فيزداد غبطة وسروراً، فيعاد الجلد إلى ما بدأ منه، وتجعل روحه في نسم طائر يعلق في شجر الجنة»[2].

• • •

١٨ ـ ونتج عن ذلك كله سعة عطائه في الشرح، والوصول إلى المقصود بألخص عبارة، وألطف إشارة:

ـ فمثلاً جاء في شرح قوله ﷺ: (اللهم مُنزِلَ الكتابِ، ومُجرِيَ

---

(١) في «الفتح»: «سبعين»، والصواب ما أثبتناه، وانظر سنن الترمذي: ٣/٣٨٣، حديث رقم (١٠٧١).

(٢) الفتح: ٣/٢٣٧ ـ ٢٣٨.

السحابِ، وهازمَ الأحزاب، اهزِمْهم وانصُرنا عليهم)[1]، قول الحافظ: «أشار بهذا الدعاء إلى وجوه النصر عليهم: فبالكتاب إلى قوله تعالى: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾، وبمجري السحاب إلى القدرة الظاهرة في تسخير السحاب حيث يحرك الريح بمشيئة الله تعالى، وحيث يستمر في مكانه مع هبوب الريح، وحيث تمطر تارة وأخرى لا تمطر؛ فأشار بحركته إلى إعانة المجاهدين في حركتهم في القتال، وبوقوفه إلى إمساك أيدي الكفار عنهم، وبإنزال المطر إلى غنيمة ما معهم حيث يتفق قتلهم، وبعدمه إلى هزيمتهم حيث لا يحصل الظفر بشيء منهم، وكلها أحوال صالحة للمسلمين. وأشار بهازم الأحزاب إلى التوسل بالنعمة السابقة، وإلى تجريد التوكل، واعتقاد أن الله هو المنفرد بالفعل. وفيه التنبيه على عظم هذه النعم الثلاث؛ فإن بإنزال الكتاب حصلت النعمة الأخروية وهي الإسلام، وبإجراء السحاب حصلت النعمة الدنيوية وهي الرزق، وبهزيمة الأحزاب حصل حفظ النعمتين، وكأنه قال: اللهم كما أنعمت بعظيم النعمتين الأخروية والدنيوية وحفظتهما فأبقهما»[2].

ـ وفي حديث عبد الله بن عمرو بن العاص: «أن هذه الآية التي في القرآن: ﴿يَآ أَيُّها النَّبِـيُّ إِنّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾ قال في التوراة: يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحِرْزاً للأمّيين، أنت عبدي ورسولي، سَمَّيْتُكَ المتوكلَ، ليس بفَظٍّ ولا غليظٍ ولا سخَّابٍ بالأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح، ولن يقبضَه الله حتى يقيمَ به المِلَّة العَوْجاءَ بأن يقولوا: لا إله إلاّ الله، فيفتحَ بها أعْيناً عُمْياً، وآذاناً صمّاً، وقلوباً غلْفاً»[3].

---

(١) الفتح: ٦/١٥٦.
(٢) الفتح: ٦/١٥٧.
(٣) الفتح: ٨/٥٨٥.

يقول الحافظ: قوله: (أن هذه الآية التي في القرآن ﴿يا أيها النبي إنّا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً﴾ قال في التوراة: يا أيها النبي إنّا أرسلناك شاهداً ومبشراً): أي شاهداً على الأمة، ومبشراً للمطيعين بالجنة وللعصاة بالنار، أو شاهداً للرسل قبله بالإبلاغ. قوله: (وحِرْزاً): بكسر المهملة وسكون الراء بعدها زاي، أي: حصناً. والأميين: هم العرب، وقد تقدم شرح ذلك في «البيوع». قوله: (سميتك المتوكل): أي على الله لقناعته باليسير، والصبر على ما كان يكره. قوله: (ليس): كذا وقع بصيغة الغيبة على طريق الالتفات، ولو جرى على النسق الأول لقال: لست. قوله: (بفظ ولا غليظ): هو موافق لقوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ القَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾، ولا يعارض قوله تعالى: ﴿وَاغْلُظْ عَلَيْهِم﴾ لأن النفي محمول على طبعه الذي جُبل عليه والأمر محمول على المعالجة، أو النفي بالنسبة للمؤمنين والأمر بالنسبة للكفار والمنافقين كما هو مصرح به في نفس الآية. قوله: (ولا سَخَّاب) كذا فيه بالسين المهملة وهي لغة أثبتها الفراء وغيره، وبالصاد أشهر، وقد تقدم ذلك أيضاً. قوله: (ولا يدفع السيئة بالسيئة): هو مثل قوله تعالى: ﴿ادْفَعْ بالَّتي هِيَ أَحْسَن﴾، زاد في رواية كعب «مولده بمكة ومهاجره طيبة وملكه بالشام». قوله: (ولن يقبضه): أي يميته. قوله: (حتى يقيم به) أي حتى ينفي الشرك ويثبت التوحيد، والملة العوجاء: ملة الكفر. قوله: (فيفتح بها): أي بكلمة التوحيد. (أعيناً عمياً): أي عن الحق، وليس هو على حقيقته. ووقع في رواية القابسي «أعين عمي» بالإضافة، وكذا الكلام في الآذان والقلوب. وفي مرسل جبير بن نفير بإسناد صحيح عند الدارمي: «ليس بوهن ولا كسل، ليختن قلوباً غلفاً، ويفتح أعيناً عمياً، ويسمع آذاناً صماً، ويقيم ألسنة عوجاء، حتى يقال: لا إلّه إلاّ الله وحده»[١].

• • •

(١) الفتح: ٨/٥٨٦.

١٩ ــ ويجيب عن إشكالات واردة على الحديث، ويطرح أسئلة واردة على النص ويجيب عنها بالدليل الواضح :

ــ ففي حديث «المعراج» ورؤيته ﷺ الأنبياء، يقول ابن حجر: «وقد استشكل رؤية الأنبياء في السماوات مع أن أجسادهم مستقرة في قبورهم بالأرض، وأجيب بأن أرواحهم تشكلت بصور أجسادهم، أو أحضرت أجسادهم لملاقاة النبي ﷺ تلك الليلة تشريفاً له وتكريماً، ويؤيده حديث عبد الرحمن بن هاشم، عن أنس ففيه: «وبعث له آدم فمن دونه من الأنبياء». فافهم»[1].

ــ ومن ذلك قوله: «تنبيه: أشكل قوله في آية المحاربين: ﴿ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ في الدُّنيا ولَهُمْ في الآخِرَةِ عذابٌ عظيمٌ﴾ مع حديث عبادة الدال على أن من أقيم عليه الحدّ في الدنيا كان له كفارة، فإن ظاهر الآية أن المحارب يُجمع له الأمران، والجواب: أن حديث عبادة مخصوص بالمسلمين، بدليل أن فيه ذكر الشرك مع ما انضم إليه من المعاصي، فلما حصل الإجماع على أن الكافر إذا قتل على شركه فمات مشركاً أن ذلك القتل لا يكون كفارة له؛ قام إجماع أهل السنّة على أن من أقيم عليه الحد من أهل المعاصي كان ذلك كفارة لإثم معصيته، والذي يضبط ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذَلِكَ لمنْ يَشاءُ﴾ والله أعلم.»[2].

ــ ومن أمثلة طرح الحافظ أسئلة على النص وهو يشرحه، قوله في أول «كتاب الأذان»: ومما كثر السؤال عنه: هل باشر النبي ﷺ الأذان بنفسه؟ وقد وقع عند السهيلي «أن النبي ﷺ أذّن في سفر وصلّى بأصحابه وهم على رواحلهم، السماء من فوقهم والبلة من أسفلهم». أخرجه

---

(١) الفتح: ٧/٢١٠.

(٢) الفتح: ١٢/١١٢.

الترمذي من طريق تدور على عمر بن الرماح يرفعه إلى أبي هريرة. اهـ. وليس هو من حديث أبي هريرة وإنما هو من حديث يعلى بن مرة. وكذا جزم النووي بأن النبي ﷺ أذَّن مرة في السفر، وعزاه للترمذي وقوّاه، ولكن وجدناه في مسند أحمد من الوجه الذي أخرجه الترمذي، ولفظه: «فأمر بلالاً فأذَّن»؛ فعرف أن في رواية الترمذي اختصاراً، وأن معنى قوله «أذن» أمر بلالاً به، كما يقال: أعطى الخليفة العالم الفلاني ألفاً، وإنما باشر العطاء غيره، ونسب للخليفة لكونه آمراً به»[1].

٢٠ ــ ويتكلم على الخلافيات الفقهية، والاستدلال لها بالحديث دونما عصبية إلاَّ للحق، وله في ذلك اختيارات وترجيحات واستنباطات قيِّمة:

ــ من ذلك ما ذكره في شرح الآثار الواردة في «باب الجريدة على القبر» حيث يقول الحافظ رحمه الله: «قوله: (وقال نافع: كان ابن عمر يجلس على القبور): ووصله الطحاوي من طريق بكير بن عبد الله بن الأشج أن نافعاً حدثه بذلك، ولا يعارض هذا ما أخرجه ابن أبي شيبة بإسناد صحيح عنه قال: «لأن أطأ على رضف أحب إليَّ من أن أطأ على قبر». وهذه من المسائل المختلف فيها: وورد فيها من صحيح الحديث ما أخرجه مسلم عن أبي مرثد الغنوي مرفوعاً: (لا تجلسوا على القبور ولا تصلوا إليها). قال النووي: المراد بالجلوس القعود عند الجمهور، وقال مالك: المراد بالقعود الحدث، وهو تأويل ضعيف أو باطل. انتهى. وهو يوهم انفراد مالك بذلك، وكذا أوهمه كلام ابن الجوزي حيث قال: جمهور الفقهاء على الكراهة خلافاً لمالك. وصرح النووي في «شرح المهذب» بأن مذهب أبي حنيفة كالجمهور، وليس كذلك، بل مذهب أبي حنيفة وأصحابه كقول مالك كما نقله عنهم الطحاوي واحتج له بأثر ابن عمر

(١) الفتح: ٢/ ٧٩.

المذكور، وأخرج عن عليٍّ نحوه، وعن زيد بن ثابت مرفوعاً «إنما نهى النبي ﷺ عن الجلوس على القبور لحدث غائط أو بول» ورجال إسناده ثقات. ويؤيد قول الجمهور ما أخرجه أحمد من حديث عمرو بن حزم الأنصاري مرفوعاً: (لا تقعدوا على القبور). وفي رواية له عنه «رآني رسول الله ﷺ وأنا متكىء على قبر فقال: لا تؤذِ صاحب القبر». إسناده صحيح، وهو دال على أن المراد بالجلوس القعود على حقيقته. وردَّ ابن حزم التأويل المتقدم بأن لفظ حديث أبي هريرة عند مسلم: (لأن يجلس أحدكم على جمرة فتحرق ثيابه فتخلص إلى جلده)، قال: وما عهدنا أحداً يقعد على ثيابه للغائط؛ فدلَّ على أن المراد القعود على حقيقته. وقال ابن بطال: التأويل المذكور بعيد، لأن الحدث على القبر أقبح من أن يكره، وإنما يكره الجلوس المتعارف»[1].

ــ ومن استنباطاته الفقهية ما جاء في «باب التزويج على القرآن وبغير صَداق» حيث ذكر البخاري حديث سهل بن سعد الساعدي يقول: «إني لفي القوم عندَ رسول الله ﷺ إذ قامت امرأة فقالت: يا رسول الله إنها قد وَهَبَتْ نفسها لك، فَرَ فيها رأيك، فلم يُجبْها شيئاً. ثم قامت فقالت: يا رسول الله، إنها قد وهبت نفسها لك، فَرَ فيها رأيك. فلم يجبها شيئاً. ثم قامت الثالثة فقالت: إنها قد وهبت نفسها لك، فَرَ فيها رأيك. فقام رجل فقال: يا رسول الله، أنكِحْنيها. قال: (هل عندك من شيء؟) قال: لا، قال: (اذهبْ فاطلُب ولو خاتماً من حديد). فذهب وطلب، ثم جاء فقال: ما وجدت شيئاً، ولا خاتماً من حديد، قال: (هل معك من القرآن شيء؟) قال: معي سورة كذا وسورة كذا. قال: (اذهب فقد أنكحتُكها بما معك من القرآن) »[2].

---

(١) الفتح: ٣/٢٢٤ ــ ٢٢٥.

(٢) الفتح: ٩/٢٠٥.

فشرح الحافظ الحديث، وذكر فوائده وما يستنبط منه فقال: «وفيه أيضاً أن لا حدّ لأقلّ المهر. وفيه أن الهبة لا تتم إلَّا بالقبول. وفيه أن النكاح لا بد فيه من الصداق؛ لقوله: (هل عندك من شيء)؟ وفيه أن الأَوْلى أن يذكر الصداق في العقد لأنه أقطع للنزاع، وأنفع للمرأة، فلو عقد بغير ذكر صداق صحّ، ووجب لها مهر المثل بالدخول على الصحيح. وفيه جواز الحلف بغير استحلاف للتأكيد، لكنه يكره لغير ضرورة. وفيه استحباب تعجيل تسليم المهر. وفيه دليل للجمهور لجواز النكاح بالخاتم الحديد وما هو نظير قيمته. وفيه جواز كون الإجارة صداقاً ولو كانت المصدوقة المستأجرة، فتقوم المنفعة من الإجارة مقام الصداق. وفيه أن سكوت من عُقد عليها وهي ساكتة لازم إذا لم يمنع من كلامها خوف أو حياء أو غيرهما. وفيه جواز نكاح المرأة دون أن تُسأل هل لها ولي خاص أو لا، ودون أن تسأل هل هي في عصمة رجل أو في عدته. وفيه أنه لا يشترط في صحة العقد تقدم الخطبة»[1].

• • •

٢١ ـ ويتكلم على نكت الحديث النبوي، وحِكَمه، وإعرابه:

ـ من ذلك ما جاء في شرح قوله ﷺ ـ للمجامع في رمضان ـ: (هل تجدُ رقبةً تُعتِقُها)؟ قال: لا. قال: (فهل تستطيعُ أن تصومَ شهرين متتابعين)؟ قال: لا، قال: (فهل تجدُ إطعامَ ستين مسكيناً)؟ قال: لا...»[2].

يقول الحافظ: «وذكر في حكمة هذه الخصال من المناسبة أن من انتهك حرمة الصوم بالجماع فقد أهلك نفسه بالمعصية؛ فناسب أن يعتق

---

(١) الفتح: ٩/٢٠٩ ـ ٢١٦، باختصار شديد. وانظر للمزيد «فصل ابن حجر الفقيه» من هذا الكتاب.

(٢) الفتح: ٤/١٦٣.

رقبة فيفدي نفسه، وقد صحّ أن من أعتق رقبة أعتق الله بكل عضو منها عضواً منه من النار. وأما الصيام فمناسبته ظاهرة لأنه كالمقاصّة بجنس الجناية. وأما كونه شهرين فلأنه لما أُمر بمصابرة النفس في حفظ كل يوم من شهر رمضان على الولاء فلما أفسد منه يوماً كان كمن أفسد الشهر كله، من حيث إنه عبادة واحدة بالنوع؛ فكلِّف بشهرين مضاعفة على سبيل المقابلة لنقيض قصده. وأما الإطعام فمناسبته ظاهرة لأنه مقابلة كل يوم بإطعام مسكين. ثم إن هذه الخصال جامعة لاشتمالها على حق الله وهو الصوم، وحق الأحرار بالإطعام، وحق الأرقاء بالإعتاق، وحق الجاني بثواب الامتثال»[1].

ـ ومن ذلك قوله في حكمة وقوع الكسوف: «ومن حكمة وقوع الكسوف تبيين أنموذج ما سيقع في القيامة، وصورة عقاب من لم يذنب، والتنبيه على سلوك طريق الخوف مع الرجاء، لوقوع الكسوف بالكوكب ثم كشف ذلك عنه، ليكون المؤمن من ربه على خوف ورجاء. وفي الكسوف إشارة إلى تقبيح رأي من يعبد الشمس أو القمر»[2].

ـ ومن أمثلة إعرابه الحديث، ما جاء في حديث الإسراء والمعراج: «ثم أَتَى بطَستٍ من ذهب فيه تَوْرٌ من ذهب محشوّاً إيماناً وحكمة»[3].

يقول ابن حجر: «قوله (ثم أتى بطست محشواً): كذا وقع بالنصب، وأعرب بأنه حال من الضمير الجار والمجرور والتقدير: بطست كائن من ذهب، فنقل الضمير من اسم الفاعل إلى الجار والمجرور. وتقدم في «كتاب الصلاة» بلفظ: «محشو» بالجر على الصفة، لا إشكال فيه. وأما قوله: «إيماناً» فمنصوب على التمييز، وقوله «وحكمة» معطوف عليه»[4].

---

(١) الفتح: ٤/١٦٦.
(٢) الفتح: ٢/٥٣٢.
(٣) الفتح: ١٣/٤٧٨.
(٤) الفتح: ١٣/٤٨١.

ـ وفي قولـه ﷺ: (كلمتـان حبيبتان إلى الـرحمن، خفيفتـان على اللسان، ثقيلتان في الميزان: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم)[1].

يقـول الحافظ: «... وقـوله «كلمتـان» هو الخبـر، و«حبيبتان» ومـا بعـدها صفـة، والمبتدأ «سبحـان الله» إلى آخره، والنكتـة في تقديم الخبـر تشـويق السامـع إلى المبتـدأ، وكلمـا طـال الكـلام في وصف الخبـر حَسُنَ تقديمه، لأن كثرة الأوصاف الجميلة تزيد السامع شوقاً»[2].

● ● ●

٢٢ ـ ولـه وقفات قيمـة في علوم القرآن والتفسيـر وأسباب النـزول والقراءات:

ـ ففي كيفيـة نزول القـرآن، وحكمة نـزولـه مفـرقـاً منجّمـاً يقـول: «... فكان نزوله على أنحاء شتى: تارة يتتابع، وتارة يتـراخى. وفي إنزالـه مفرقاً وجوه من الحكمة: منها تسهيل حفظه، لأنه لو نزل جملة واحـدة على أمة أمية لا يقرأ غالبهم ولا يكتب؛ لشقّ عليهم حفظه. وأشار سبحانه وتعالى إلى ذلـك بقولـه ـ رداً على الكفار ـ: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْـهِ الْقُرآنُ جملةً واحـدةً، كَذَلِـكَ ـ أي أنزلنـاه مفرقـاً ـ لِنُثَبِّتَ بهِ فُـؤَادَكَ﴾، وبقولـه تعالى: ﴿وَقُرآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النّاسِ عَلَى مُكْثٍ﴾. ومنها ما يستلزمه من الشرف له والعناية به؛ لكثرة تردد رسول ربه إليه، يعلمه بأحكام ما يقع له، وأجوبـة ما يسأل عنه، من الأحكام والحـوادث. ومنها أنـه أنزل على سبعـة أحرف، فناسب أن ينزل مفرقاً، إذ لو نزل دفعة واحدة لشقّ بيانها عـادة. ومنها أن الله قدَّر أن ينسخ من أحكامه مـا شاء؛ فكـان إنزالـه مفرقـاً لينفصل النـاسخ من المنسوخ أولى من إنزالهما معاً»[3].

---

(١) الفتح: ١٣/ ٥٣٧.
(٢) الفتح: ١٣/ ٥٤٠.
(٣) الفتح: ٩/ ٨.

ـ ومن أمثلة وقفاته في أسباب النزول ما ذكره في باب ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ﴾، فيقول: «اختلف في الذي نزلت فيه، فقيل: هو الوليد بن المغيرة، وذكره يحيى بن سلام في تفسيره. وقيل: الأسود بن عبد يغوث، ذكره سنيد بن داود في تفسيره. وقيل: الأخنس بن شريق، وذكره السهيلي. وحكى هذين القولين الطبري فقال: يقال هو الأخنس. وزعم قومه أنه الأسود وليس به، وأبعد من قال إنه عبد الرحمن بن الأسود؛ فإنه يصغر عن ذلك، وقد أسلم وذكر في الصحابة»[1].

ـ وأما في القراءات فله كلام طويل، وتلخيصات مفيدة، من ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي القاعِدُونَ مِنَ المؤمنينَ غيرُ أُولي الضَّرر والمجاهدونَ في سبيلِ اللَّهِ﴾[2]، حيث يقول: «واختلفت القراءة في ﴿غير أولي الضرر﴾: فقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم بالرفع على البدل من «القاعدون»، وقرأ الأعمش بالجر على الصفة للمؤمنين، وقرأ الباقون بالنصب على الاستثناء»[3].

• • •

٢٣ ـ ويتكلم على اللغويات بأسلوب سهل واضح، دقيق موجز، وإذا كان هناك خلاف استوعب الآراء إن وجد لذلك فائدة، ويرد على من يخطىء، ويضبط ما يشكل من الألفاظ، مع فوائد لغوية قيمة:

ـ فمن ذلك ما جاء في شرح قوله ﷺ: (من صَلَّى صلاتَنا، واستقبلَ قِبلَتنا، وأكلَ ذبيحتنا، فذلك المسلمُ الذي له ذِمَّةُ اللَّهِ وذمَّة رسولِهِ، فلا تُخفِروا اللَّهَ في ذِمَّته). يقول رحمه الله: «قوله (ذمة الله): أي أمانته وعهده. قوله (فلا تخفروا): بالضم من الرباعي، أي لا تغدروا. يقال: أخفرت إذا

---

(١) الفتح: ٨/٦٦٢ ـ ٦٦٣.

(٢) سورة النساء: الآية ٩٥.

(٣) الفتح: ٨/٢٦٠. وانظر ما كتبناه في «ابن حجر المفسر» من هذا الكتاب.

غدرت، وخفرت إذا حميت، ويقال إن الهمزة في «أخفرت» للإزالة، أي تركت حمايته»[1].

- وفي قوله ﷺ: (. . . إنَّ هذا المالَ خَضِرةٌ حُلْوة، وإنَّ كلَّ ما أنبتَ الربيعُ يَقتُلُ حَبَطاً أو يُلمُّ، إلَّا آكلةَ الخضرة، أكلتْ حتى إذا امتدَّت خاصرتاها استقبَلَتِ الشمسَ فاجترَّتْ وثَلَطَتْ وبالَتْ، ثم عادتْ فأكلَتْ، وإنَّ هذا المال حُلْوةٌ: مَنْ أخذه بحقّه، ووضعَه في حقّه، فنعمَ المعونة هوَ. وإن أخذَهُ بغيرِ حقِّه، كان كالذي يأكلُ ولا يَشبَع)[2].

يقول الحافظ: «قوله (وإن كل ما أنبت الربيع): أي الجدول، وإسناد الإنبات إليه مجازي، والمنبِت في الحقيقة هو الله تعالى. وفي رواية هلال: «وإن مما ينبت»، و «مما» في قوله «مما ينبت» للتكثير وليست من للتبعيض؛ لتوافق راوية «كل ما أنبت». وهذا الكلام كله وقع كالمثل للدنيا، وقد وقع التصريح بذلك في مرسل سعيد المقبري. قوله (يقتل حبطاً أو يلمّ): أما حبطاً: فبفتح المهملة والموحدة والطاء المهملة أيضاً، والحبط: انتفاخ البطن من كثرة الأكل، يقال: حبطت الدابة تحبط حبطاً، إذا أصابت مرعى طيباً، فأمعنت في الأكل حتى تنتفخ فتموت، وروي بالخاء المعجمة من التخبط وهو الاضطراب، والأول المعتمد. وقوله «يلم»: بضم أوله، أي يقرب من الهلاك. قوله (إلَّا): بالتشديد على الاستثناء، وروي بفتح الهمزة وتخفيف اللام، للاستفتاح. قوله (آكلة): بالمد وكسر الكاف، و «الخضر»: بفتح الخاء وكسر الضاد المعجمتين للأكثر، وهو ضرب من الكلأ يعجب الماشية، وواحده خضرة. وفي رواية الكشميهني: بضم الخاء وسكون الضاد وزيادة الهاء في آخره، وفي رواية السرخسي «الخضراء»، بفتح أوله وسكون ثانيه وبالمد، ولغيرهم: بضم أوله وفتح ثانيه، جمع

---

(١) الفتح: ١/٤٩٦.
(٢) الفتح: ١١/٢٤٤.

خضـرة. قولـه: (امتلأت خـاصرتـاها) تثنيـة خاصـرة، بخاء معجمـة وصاد مهملة، وهما جانبـا البطن من الحيـوان. وفي رواية الكشميهني «خاصرتها» بالإفراد. قوله (أتت): بمثناة أي جاءت، وفي رواية هلال «استقبلت». قوله (اجترت): بالجيم، أي استرفعت ما أدخلته في كرشهـا من العلف فأعـادت مضغـه. قولـه (وثلطت): بمثلثة ولام مفتـوحتين ثم طـاء مهملة، وضبـطهـا ابن التين بكسـر اللام، أي ألقت مـا في بطنهـا رقيقاً. زاد الـدارقطني: «ثم عادت فأكلت». والمعنى: أنها إذا شبعت فثقل عليهـا ما أكلت، تحيّلت في دفعـه بـأن تجتـرّ فيـزداد نعـومـة، ثم تستقبـل الشمس فتحمى بهـا فيسهـل خروجه؛ فإذا خرج زال الانتفـاخ فسلمت، وهذا بخـلاف من لم تتمكن من ذلك، فإن الانتفاخ يقتلها سريعاً»[1].

ـ ومن أمثلة استيعابه لـلآراء ما ذكـره في شرح قـوله ﷺ: (... ألا أخبـركم بأهـل النار؟ كـلُّ عُتُلٍّ جـوَّاظٍ مستكبر)[2]. يقـول الحافظ: «قـولـه (عتـل): بضم المهملة والمثنـاة بعـدهـا لام ثقيلة، قـال الفـراء: الشـديـد الخصومة، وقيل: الجـافي عن المـوعـظة. وقال أبـو عبيـدة: العتـلّ: الفظ الشـديد من كـل شيء، وهو هنـا الكافـر. وقال عبـد الـرزاق عن معمـر عن الحسن: العتلّ: الفاحش الآثم. وقال الخطابـي: العتـلّ: الغليظ العنيف. وقـال الداودي: السمين العـظيم العنق والبـطن. وقـال الهـروي: الجمـوع المنوع. وقيل: القصير البطن. قلت: وجاء فيه حديث عند أحمد من طريق عبد الرحمن بن غَنْم، وهو مختلف في صحبته، قـال: سئل رسـول الله ﷺ عن العتل الزنيم؟ قال: (هو الشـديد الخلق المصحـح، الأكول الشـروب، الواجد للطعام والشراب، الظلوم للناس، الرحيب الجوف)»[3].

---

(١) الفتح: ١١/٢٤٧.

(٢) الفتح: ٨/٦٦٢.

(٣) الفتح: ٨/٦٦٣.

ـ ومن فوائده اللغوية ما جاء في شرح قوله ﷺ: (نـزلَ نبيٌّ من الأنبياء تحت شجرة فَلَدَغَتْهُ نملة، فأمر بِجَهَازِهِ فأُخرج من تحتها، ثم أمرَ ببيتها فأُحرِقَ بالنار، فأوحى الله إليه: فهلاّ نملةً واحدة)[1]؟!

يقول ابن حجر: «قوله (ثم أمر ببيتها فأحرق): أي بيت النمل، وفي رواية الزهري ـ الماضية في «الجهاد» ـ: «فأمر بقرية النمل فأحرقت». وقرية النمل موضع اجتماعهن، والعرب تفرق في الأوطان، فيقولون لمسكن الإنسان: وطن، ولمسكن الإبل: عطن، وللأسد: عرين وغابة، وللظبي: كناس، وللضب: وِجَار، وللطائر: عش، وللزنبور: كور، ولليربوع: نافق، وللنمل: قرية»[2].

ـ وفي حديث أبي سفيان وقصته مع هرقل: «... فـدُعيتُ في نفرٍ من قريش، فَدَخلنا على هِرَقْلَ، فأجْلَسَنا بين يديه...»[3].

يقول الحافظ: «قوله (فدعيت في نفر من قريش فدخلنا على هرقل): فيه حذف تقديره: فجاءنا رسوله فتوجهنا معه، فاستأذن لنا، فأذن، فدخلنا. وهذه الفاء تسمى الفصيحة، وهي الدالة على محذوف قبلها هو سبب لما بعدها؛ سميت فصيحة لإفصاحها عما قبلها، وقيل لأنها تدل على فصاحة المتكلم بها، فوصفت بالفصاحة على الإسناد المجازي، ولهذا لا تقع إلاّ في كلام بليغ»[4].

• • •

٢٤ ـ وله في «الفتح» بحوث قيمة في السيرة والتاريخ، وتحقيقات بارعة مفيدة في ذلك:

---

(١) الفتح: ٦/٣٥٦.
(٢) الفتح: ٨/٣٥٨.
(٣) الفتح: ٨/٢١٤.
(٤) الفتح: ٨/٢١٦.

ـ من ذلك ما جاء في «إجلاء بني النَّضِير» الذي وقع على رأس ستة أشهر من غزوة بدر قبل غزوة أُحد، حيث يقول ابن حجر: «وحكى ابن التين عن الداودي أنه رجح ما قال ابن إسحٰق من أن غزوة بني النضير كانت بعد بئر معونة، مستدلاً بقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ﴾، قال: وذلك في قصة الأحزاب. قلت: وهو استدلال واهٍ، فإن الآية نزلت في شأن بني قريظة، فإنهم هم الذين ظاهروا الأحزاب، وأما بنو النضير فلم يكن لهم في الأحزاب ذكر، بل كان من أعظم الأسباب في جمع الأحزاب ما وقع من جلائهم، فإنه كان من رؤوسهم حيي بن أخطب، وهو الذي حسَّن لبني قريظة الغدر وموافقة الأحزاب كما سيأتي، حتى كان من هلاكهم ما كان، فكيف يصير السابق لاحقاً»[1]؟

ـ ومنه ترجيح ما في «الصحيح» من أن «غزوة ذات الرقاع» وقعت بعد «خيبر»، فعند شرحه قول البخاري «باب غزوة ذات الرقاع، وهي غزوةُ مُحاربِ خَصَفَةَ من بني ثعلبة من غَطَفَان، فنزل نخلاً، وهي بعد خيبر؛ لأن أبا موسى جاء بعد خيبر»[2]؛ يقول الحافظ: «قوله (وهي): أي هذه الغزوة. (بعد خيبر؛ لأن أبا موسى جاء بعد خيبر): هكذا استدل به، وقد ساق حديث أبي موسى بعد قليل[3]، وهو استدلال صحيح، وسيأتي الدليل على أن أبا موسى إنما قدم من الحبشة بعد فتح خيبر في «باب غزوة خيبر»، ففيه في حديث طويل: «قال أبو موسى: فوافقنا النبي ﷺ حين افتتح خيبر». وإذا كان كذلك ثبت أن أبا موسى شهد غزوة ذات الرقاع[4]، ولزم

(١) الفتح: ٧/٣٣٠.
(٢) الفتح: ٧/٤١٦.
(٣) وهو الحديث الرابع في الباب المذكور: ٧/٤١٧.
(٤) ذكر أبو موسى الأشعري ـ في حديثه المشار إليه في الفتح: ٧/٤١٧ ـ أنه خرج مع النبي ﷺ في تلك الغَزاة.

أنها كانت بعد خيبر. وعجبت من ابن سيد الناس كيف قال: جعل البخاري حديث أبي موسى هذا حجة في أن غزوة ذات الرقاع متأخرة عن خيبر، قال: وليس في خبر أبي موسى ما يدل على شيء من ذلك. انتهى. وهذا النفي مردود، والدلالة من ذلك واضحة كما قررته. وأما شيخه الدمياطي فادعى غلط الحديث الصحيح، وأن جميع أهل السير على خلافه. وقد قدمت أنهم مختلفون في زمانها، فالأولى الاعتماد على ما ثبت في الحديث الصحيح، وقد ازداد قوة بحديث أبي هريرة وبحديث ابن عمر كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى»(١).

• • •

٢٥ ـ ويتكلم على الأماكن بأسلوب بارع، مع ضبط لما يشكل، وتحقيق، وردود على المخطئين:

وأكتفي هنا بذكر مثال واحد هو أنموذج لتحقيقاته النفيسة في هذا الميدان، حيث دافع فيه عن الصحيحين ورجالهما، وردّ على كبار الأئمة والعلماء في هذا المجال، وذلك عند شرحه حديث أنس عن النبي ﷺ قال: (المدينةُ حَرَمٌ من كذا إلى كذا، لا يُقْطَعُ شجرُها، ولا يُحْدَثُ فيها حَدَثٌ. مَنْ أحدثَ حَدَثاً فعليهِ لعنةُ اللّهِ والملائكةِ والناسِ أجمعينَ)(٢).

يقول الإمام الحافظ رحمه الله: «قوله (المدينة حرم من كذا إلى كذا): هكذا جاء مبهماً، وسيأتي في حديث علي ـ رابع أحاديث الباب ـ : «ما بين عائر إلى كذا»، فعيّن الأول، وهو بمهملة وزن فاعل. وذكره في «الجزية» وغيرها بلفظ «عير» بسكون التحتانية، وهو جبل بالمدينة كما سنوضحه واتفقت روايات البخاري كلها على إبهام الثاني، ووقع عند مسلم: «إلى ثور»، فقيل: إن البخاري أبهمه عمداً، لما وقع عنده أنه

---

(١) الفتح: ٤١٨/٧. والأمثلة في ذلك أكثر من أن تحصر.

(٢) الفتح: ٨١/٤.

وهم. وقال صاحب «المشارق» و«المطالع»: أكثر رواة البخاري ذكروا «عيراً»، وأما «ثور» فمنهم من كنى عنه بكذا، ومنهم من ترك مكانه بياضاً. والأصل في هذا التوقف قول مصعب الزبيري: «ليس بالمدينة عير ولا ثور». وأثبت غيره «عيراً» ووافقه على إنكار «ثور»، قال أبو عبيد: قوله «ما بين عير إلى ثور» هذه رواية أهل العراق، وأما أهل المدينة فلا يعرفون جبلاً عندهم يقال له: ثور، وإنما ثور بمكة، ونرى أن أصل الحديث «ما بين عير إلى أحد». قلت: وقد وقع ذلك في حديث عبد الله بن سلام عند أحمد والطبراني، وقال عياض: لا معنى لإنكار «عير» بالمدينة فإنه معروف، وقد جاء ذكره في أشعارهم، وأنشد أبو عبيد البكري في ذلك عدة شواهد، منها قول الأحوص المدني الشاعر المشهور:

فقلت لعمرٍو تلك يا عمرو ناره   تشب قفا عير فهل أنت ناظر

وقال ابن السيد في «المثلث»: عير اسم جبل بقرب المدينة معروف. وروى الزبير في «أخبار المدينة» عن عيسى بن موسى قال: قال سعيد بن عمرو لبشر بن السائب: أتدري لِمَ سكنا العقبة؟ قال: لا. قال: لأنا قتلنا منكم قتيلاً في الجاهلية فأخرجنا إليها. فقال: وددت لو أنكم قتلتم منا آخر وسكنتم وراء عير، يعني جبلاً، كذا في نفس الخبر.

وقد سلك العلماء في إنكار مصعب الزبيري لعير وثور مسالك: منها ما تقدم. ومنها قول ابن قدامة: يحتمل أن يكون المراد مقدار ما بين عير وثور، لا أنهما بعينهما في المدينة، أو سمّى النبي ﷺ الجبلين اللذين بطرفي المدينة عيراً وثوراً ارتجالاً. وحكى ابن الأثير كلام أبي عبيد مختصراً، ثم قال: وقيل: إن عيراً جبل بمكة، فيكون المراد أحرّم من المدينة مقدار ما بين عير وثور بمكة، على حذف المضاف ووصف المصدر المحذوف. وقال النووي: يحتمل أن يكون ثور كان اسم جبل هناك، إما أُحد وإما غيره. وقال المحب الطبري في «الأحكام» بعد حكاية كلام

أبـي عبيد ومن تبعه: قد أخبرني الثقة العالم أبو محمد عبد السلام البصـري أن حذاء أُحد عن يساره جانحاً إلى ورائه جبل صغير يقـال له «ثـور»، وأخبر أنه تكرر سؤاله عنه لطوائف من العرب ــ أي العارفين بتلك الأرض وما فيها من الجبال ــ فكلٌّ أخبر أن ذلك الجبـل اسمه «ثـور»، وتواردوا على ذلـك. قال: فعلمنا أن ذكر «ثور» في الحديث صحيح، وأن عدم علم أكابر العلماء به، لعدم شهرته وعدم بحثهم عنه. قال: وهذه فائدة جليلة. انتهى. وقرأت بخط شيـخ شيوخنـا القطب الحلبـي في شـرحـه: حكى لنـا شيخنـا الإمـام أبو محمد عبد السلام بن مزروع البصري أنه خرج رسولاً إلى العراق، فلمـا رجع إلى المدينة كان معه دليل، وكان يذكر له الأماكن والجبال، قـال: فلما وصلنا إلى أُحد إذا بقربه جبل صغير، فسألته عنه فقال: هذا يسمّى «ثوراً»، قال: فعلمت صحة الـروايـة. قلت: وكأن هـذا كان مبـدأ سؤاله عن ذلـك. وذكـر شيخنا أبـو بكر بن حسين المـراغي ـــ نزيـل المدينـة ــ في مختصره لأخبار المدينـة أن خَلَف أهل المـدينة ينقلون عن سَلَفهم أن خلْف أحـد من جهـة الشمال جبـلاً صغيراً إلى الحمـرة بتدويـر يسمّى «ثـوراً». قـال: وقـد تحققته بالمشاهدة. وأما قول ابن التين إن البخـاري أبهم اسم الجبل عمـداً لأنـه غلط؛ فهو غلط منـه، بل إبهـامـه من بعض رواتـه، فقـد أخـرجـه في «الجـزية» فسمّـاه، والله أعلم. ومما يـدل على أن المراد بقـوله في حـديث أنس «من كذا إلى كذا» جبلان؛ ما وقـع عند مسلم من طـريق إسماعيـل بن جعفر عن عمرو بن أبـي عمـرو عن أنس مرفـوعاً: (اللهم أني أحـرِّم ما بين جبليها) »[1].

• • •

---

(١) الفتح: ٤/٨٢ ــ ٨٣. وللكلام تتمة، وما ذكرناه كافٍ في بيان المقصود. وقد نقـل الأستاذ المحقق محمد فؤاد عبد الباقي رحمه الله تعالى ــ في شرحه المختصر لصحيح مسلم ــ خـلاصة كـلام الحافظ، فقـال: «ورضي الله سبحـانـه وتعـالى عن أستـاذ الدنيا في علم الحديث الحافظ ابن حجر العسقلاني، حيث قـال في كتابـه قامـوس =

٢٦ ـ كذلك تكلم على الطوائف الكافرة والمبتدعة، بكلام وجيز محقق منصف، وردّ على مذاهبهم، ناقلاً آراء أئمة هذا الشأن:

فقد تكلم على «الزنادقة» و«الثنوية» و«الخرّمية»، وأصول مذاهبهم واعتقاداتهم[١]، وعن الجهمية ـ أتباع جهم بن صفوان ـ الذين ينكرون صفات الله تعالى، ويقولون بالجبر والاضطرار إلى الأعمال[٢]. كذلك تكلم على الخوارج ومذهبهم، وأفاعيلهم وبدعهم[٣]. وأكثر من ذكر آراء المعتزلة، والرد عليهم، ونصرة مذهب أهل السنة والجماعة[٤]. كما ردّ على غلاة الصوفية[٥]، وعلى الفلاسفة في مخرقاتهم[٦]، وعلى الروافض[٧]، وعلى خرافات الكيسانية في زعمهم أن محمد بن علي بن أبي طالب ـ المعروف بابن الحنفية ـ حيّ لم يمت، وأنه المهدي، وأنه لا يموت حتى يملك الأرض[٨]، وعلى المرجئة[٩]، وعلى القدرية الذين ينكرون سبق القدر[١٠].

● ● ●

= السنة المحيط، فتح الباري، في ٢٩ ـ كتاب فضائل المدينة، ١ ـ باب حرم المدينة، ما نصه...» وساق خلاصة ما ذكرناه، وأضاف إليه ما قاله الفيروزابادي في «القاموس»، وما ذكره بعض العلماء المعاصرين. انظر صحيح مسلم: ٢/ ٩٩٥ ـ ٩٩٨.

(١) انظر مثلاً: الفتح: ١٢/ ٢٧٠ ـ ٢٧١.
(٢) الفتح: ١٣/ ٣٤٥، ٣٧٨.
(٣) الفتح: ١٢/ ٢٨٤ ـ ٣٠٢، ١٣/ ٨٥ ـ ٨٦.
(٤) مثلاً: ١٣/ ٣٦٢، ٣٧٣، ٣٧٧، ٣٨٧ ـ ٣٨٨، ٤٤٩، ٤٩٤، ٥٢٩ ـ ٥٣١.
(٥) الفتح: ١٣/ ٣٤٨، مثلاً.
(٦) انظر مثلاً: الفتح: ٧/ ١٨٥.
(٧) مثلاً: الفتح: ٧/ ١٩٥، ٨/ ١٣٩.
(٨) الفتح: ٨/ ٣٢٧.
(٩) مثلاً: الفتح: ١١/ ٣١٥، ٥١٢.
(١٠) مثلاً: ١١/ ٥١٠ ـ ٥١٢.

٢٧ ــ وله تنبيهات وتكميلات وفوائد، هي بمثابة بحوث فذة قيمة نادرة، تنوعت مسائلها، وكثرت عوائدها، وتشعبت مجالاتها:

●● فمنها تنبيهات فقهية: ففي حديث عائشة: «طَيَّبْتُ رسولَ الله ﷺ بيديَّ هاتين حينَ أحرمَ، ولحلِّهِ حينَ أحلَّ، قبل أن يطوفَ. وبَسَطَتْ يدَيها».

يقول: «تنبيه: قوله (حين أحرم): أي حين أراد الإحرام، وقوله (حين أحل): أي لما وقع الإحلال؛ وإنما كان كذلك لأن الطيب بعد وقوع الإحرام لا يجوز، والطيب عند إرادة الحل لا يجوز، لأن المحرم ممنوع من الطيب. والله أعلم»[١].

●● ومنها التنبيه على زيادة في لفظ حديث أو تغيير في لفظه: ففي حديث جابر رضي الله عنه قال: «باعَ النبي ﷺ المُدَبَّر»[٢]. يقول الحافظ: «تنبيهات: الأول: اتفقت الطرق على أن ثمنه ثمانمائة درهم، إلَّا ما أخرجه أبو داود من طريق هشيم عن إسماعيل قال: «سبعمائة أو تسعمائة». الثاني: وجدت لوكيع في حديث الباب إسناداً آخر أخرجه ابن ماجه من طريق أبي عبد الرحمن الأدرمي عنه عن أبي عمرو بن العلاء عن عطاء مثل لفظ حديث الباب مختصراً. الثالث: وقع في رواية الأوزاعي عن عطاء عند أبي داود زيادة في آخر الحديث وهو «أنت أحق بثمنه، والله أغنى عنه»[٣].

وفي «باب لصاحب الحق مقال. ويُذكر عن النبي ﷺ: (لَيُّ الواجِدِ يُحِلُّ عقوبتَه وعِرْضَه) ». يقول ابن حجر: «تنبيه: وقع في «الرافعي» في

(١) الفتح: ٣/٥٨٥.
(٢) الفتح: ٤/٤٢٠. والمدبَّر: هو الذي علَّق مالكه عتقه بموت مالكه.
(٣) الفتح: ٤/٤٢٢.

المتن المرفوع: (ليّ الواجد ظلم، وعقوبته حبسه)، وهو تغيير، وتفسير العقوبة بالحبس إنما هو من بعض الرواة كما ترى»[1].

●● ومنها التنبيه على الاختلاف في كون الحديث من مسند صحابي، أو آخر غيره: ففي حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: (مَنْ قَتَلَ مُعَاهِداً لم يَرَحْ رائحةَ الجنةِ، وإنَّ ريحها تُوجَدُ من مسيرة أربعين عاماً».

يقول الحافظ: «تنبيهان: أحدهما: اتفقت النسخ على أن الحديث من مسند عبد الله بن عمرو بن العاص، إلاَّ ما رواه الأصيلي عن الجرجاني عن الفربري فقال: «عبد الله بن عُمر» بضم العين بغير واو، وهو تصحيف، نبه عليه الجياني»[2].

●● ومنها لبيان سبب الحديث وقصته: فمن ذلك ما جاء في حديث ابن عباس أن النبي ﷺ قال: (أبغض الناس إلى الله ثلاثة: مُلْحِدٌ في الحَرَم، ومُبْتَغٍ في الإسلام سنَّةَ الجاهلية، ومُطَّلِبُ دَمِ امْرىءٍ بغير حقٍّ ليُهَرِيقَ دَمَهُ»[3].

يقول الحافظ: «تنبيه: وقفت لهذا الحديث على سبب، فقرأت في «كتاب مكة» لعمر بن شبة، من طريق عمرو بن دينار عن الزهري، عن عطاء بن يزيد قال: قتل رجل بالمزدلفة ــ يعني في غزوة الفتح ــ فذكر القصة، وفيها أن النبي ﷺ قال: (وما أعلم أحداً أعتى على الله من ثلاثة: رجل قتل في الحرم، أو قتل غير قاتله، أو قتل بذَحْل الجاهلية). ومن طريق مسعر، عن عمرو بن مرة عن الزهري ولفظه: (إن أجرأ الناس على الله)، فذكر

---

(١) الفتح: ٥/٦٢.
(٢) الفتح: ٦/٢٦٩، ٢٧٠.
(٣) الفتح: ١٢/٢١٠.

نحوه وقال فيه: (وطلب بذحول الجاهلية) »[1].

●● أو تنبيهات لغوية على ألفاظ الحديث، ومن ذلك قوله:

«تنبيه: يجوز في «يـا عباس» وفي «يـا صفية» وفي «يـا فاطمـة» الضم والنصب»[2].

«تنبيه: المشط: بتثليث الميم، والأفصح ضمها»[3].

«تنبيـه: قـولـه (البتـة): معنـاه القـطع، وألفهـا ألف وصـل، وجــزم الكرماني بأنها ألف قطع على غير القياس، ولم أرَ ما قاله في كـلام أحد من أهل اللغة، قال الجوهري: الانبتات الانقطاع، ورجل منبتٌّ أي منقطع به، ويقـال: لا أفعله بتة، ولا أفعله البتـة؛ لكل أمـر لا رجعة فيـه، ونصبه على المصدر. انتهى. ورأيته في النسخ المعتمدة بألف وصل. والله أعلم»[4].

ـ وفي قوله ﷺ: (والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن. قيل: ومَنْ يا رسول الله؟ قال: الذي لا يأمن جاره بوائقه). يقـول الحافظ: «تنبيـه: في المتن جناس بليغ، و هو من جناس التحريف، وهو قـوله: «لا يؤمن ولا يأمن»، فالأول من الإيمان والثاني من الأمان»[5].

●● ومنها تكميلات لمعنى الحديث أو مايتعلق به: ومن ذلك قـوله:
«تكملة: جمـع الدارقـطني طرق الأحـاديث الواردة في رؤيـة الله تعـالى في الآخـرة، فـزادت على العشـرين. وتتبعهـا ابن القيِّم في «حــادي الأرواح» فبلغت الثلاثين، وأكثرها جياد. وأسند الدارقطني عن يحيـى بن معين قال: عنـدي سبعة عشر حديثاً في الرؤية صحاح»[6].

● ● ●

---

(١) الفتح: ٢١١/١٢. والذَّحْـلُ: الوِتْـرُ وطلَبُ المكافـأةِ بجنايـةٍ جُنيت عليه من قَتْـلٍ أو جُرْح، ونحو ذلك.
(٢) الفتح: ٣٨٣/٥.
(٣) الفتح: ٣٢٤/٦.
(٤) الفتح: ٤٨٣/٧.
(٥) الفتح: ٤٤٣/١٠.
(٦) الفتح: ٤٣٤/١٣.

٢٨ ــ استنباطه الفوائد الكثيرة من الحديث النبوي الشريف:

وقد شاع ذلك في كتابه، وازدانت به صفحاته، وأذكر هنا مثالاً واحداً وهو ما جاء في كلامه على «حديث الإفك»، فبعد أن شرحه شرحاً مطوَّلاً قال: «وفي هذا الحديث من الفوائد غير ما تقدم: جواز الحديث عن جماعة ملفقاً مجملاً. وفيه مشروعية القرعة حتى بين النساء وفي المسافرة بهن، والسفر بالنساء حتى في الغزو. وجواز حكاية ما وقع للمرء من الفضل ولو كان فيه مدح ناس وذم ناس؛ إذا تضمَّن ذلك إزالة توهم النقص عن الحاكي إذا كان بريئاً عند قصد نصح من يبلغه ذلك؛ لئلا يقع فيما وقع فيه من سبق. وفيه استعمال التوطئة فيما يحتاج إليه من الكلام. وأن الهودج يقوم مقام البيت في حجب المرأة. وجواز ركوب المرأة الهودج على ظهر البعير ولو كان ذلك مما يشق عليه حيث يكون مطيقاً لذلك. وفيه خدمة الأجانب للمرأة من وراء الحجاب. وجواز تحلي المرأة في السفر بالقلادة ونحوها. وصيانة المال ولو قلَّ. وفيه شؤم الحرص على المال. وتوقف رحيل العسكر على إذن الأمير. والاسترجاع عند المصيبة. وتغطية المرأة وجهها عن نظر الأجنبي. وإطلاق الظن على العلم. وإغاثة الملهوف. وعون المنقطع. وإنقاذ الضائع. وإكرام ذوي القدر، وإيثارهم بالركوب. وحسن الأدب مع الأجانب خصوصاً النساء، لا سيما في الخلوة. والمشي أمام المرأة ليستقر خاطرها، وتأمن مما يتوهم من نظره لما عساه ينكشف منها في حركة المشي. وفيه ملاطفة الزوجة وحسن معاشرتها. وأنه لا ينبغي لأهل المريض أن يعلموه بما يؤذي باطنه، لئلا يزيد ذلك في مرضه. وفيه السؤال عن المريض. وفيه أن المرأة إذا خرجت لحاجة تستصحب من يؤنسها أو يخدمها ممن يؤمن عليها. وفيه ذب المسلم عن المسلم، خصوصاً من كان من أهل الفضل، وردع من يؤذيهم، ولو كان منهم بسبيل. وبيان مزيد فضل أهل بدر. وفيه البحث عن الأمر القبيح إذا أشيع وتعرف صحته وفساده بالتنقيب على من قيل فيه هل وقع منه قبل ذلك ما يشبهه

أو يقرب منه. وفيه مشروعية التسبيح عند سماع ما يعتقد السامع أنه كذب. وفيه توقف خروج المرأة من بيتها على إذن زوجها ولو كانت إلى بيت أبويها. وفيه استشارة المرء أهل بطانته. واستعمال «لا نعلم إلّا خيراً» في التزكية. وفيه التثبت في الشهادة. وفطنة الإمام عند الحادث المهم. والاستنصار بالأخصاء على الأجانب. واستشارة الأعلى لمن هو دونه. وأن الحمية لله ورسوله لا تذمّ. وفيه فضائل جمة لعائشة ولأبويها ولصفوان ولعلي وأسامة وسعد بن معاذ وأسيد بن حضير. وفيه أن التعصب لأهل الباطل يخرج عن اسم الصلاح. وجواز سبِّ من يتعرض للباطل. وفيه الندب إلى قطع الخصومة، وتسكين ثائرة الفتنة، وسدِّ ذريعة ذلك. وفضل احتمال الأذى. وفيه أن من آذى النبي ﷺ بقول أو فعل يقتل. وفيه مساعدة من نزلت فيه بلية بالتوجع والبكاء والحزن. وفيه ابتداء الكلام في الأمر المهم بالتشهد والحمد والثناء وقول أما بعد. وفيه مشروعية التوبة. وأن الصبر تحمد عاقبته ويغبط صاحبه. وفيه تقديم الكبير في الكلام. وتوقف من اشتبه عليه الأمر في الكلام. وفيه تبشير من تجددت له نعمة، أو اندفعت عنه نقمة. وفيه الفرح والاستبشار عند ذلك. وإدلال المرأة على زوجها وأبويها. وفيه أن الشدة إذا اشتدت أعقبها الفرج. وفضل من يفوض الأمر لربه. وأن من قوي على ذلك خفَّ عنه الهم والغم. وفيه الحث على الإنفاق في سبيل الخير. ووقوع المغفرة لمن أحسن إلى من أساء إليه أو صفح عنه. وأن من حلف أن لا يفعل شيئاً من الخير استحبَّ له الحنث. وجواز الاستشهاد بآي القرآن في النوازل. والتأسي بما وقع للأكابر من الأنبياء وغيرهم. وفيه التسبيح عند التعجب واستعظام الأمر. وذمِّ الغيبة، وذمِّ سماعها، وزجر من يتعاطاها. وذم إشاعة الفاحشة. وتحريم الشك في براءة عائشة»[1].

• • •

---

(١) الفتح: ٨/٤٧٩ ـ ٤٨١، باختصار.

٢٩ ـ وقد زان كتابه في الكلام على العقائد، فنصر مذهب أهل السنَّة والجماعة وردَّ على المخالفين:

فقد تكلم على معرفة الله بالأدلة، وبحث في علم الكلام، ونقل كلام الثقات في هذا الشأن. كذلك تكلم عن الأسماء والصفات، وشرح أسماء الله الحسنى، وأنه سبحانه يعلم الجزئيات والكليات، لأن الكلام صفة من صفات ذاته سبحانه، وجواز إطلاق لفظ «ذات» على الله تعالى. وأن للَّه ـ تعالى ـ وجهاً وعيناً ويدين؛ مع التنزيه لأنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾. وتكلم على الاستواء، ودعا لالتزام ما جاء عن أهل القرون الثلاثة الأولى. وأن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة، وردَّ على المعتزلة. وبحث في إثبات نسبة الأفعال كلها لله سبحانه، سواء كانت من المخلوقين خيراً أو شراً، فهي لله تعالى خَلْق، وللعباد كَسْب، ولا ينسب شيء من الخَلْق لغير الله تعالى. وأن الروح مخلوقة. وغير ذلك كثير[١].

● ● ●

٣٠ ـ هذا بالإضافة إلى بحوث متنوعة قيمة، وفوائد عامة، وموضوعات شتى:

مثل كلامه على: غراب البين، ومعنى: «يثرب» وأسماء المدينة، ومعنى (يطعمني ويسقيني)، واللواء والراية، وبناء الكعبة والأقصى، وإخوة يوسف، وأبواب الجنة الثمانية، وأنواع الشهيد، وبحث عن الجن، وآخر عن ذي القرنين، وثالث عن حياة الخضر، ومن تسمى بمحمد قبل رسولنا ﷺ، وخاتم النبوة، ومَنْ هم قرابته ﷺ، والمشبَّهون به ﷺ، وأقسام الكفار، ورؤية النبي ﷺ ربه ليلة المعراج، ومَنْ له أجران، وخصال الفطرة، والذين غيَّر النبي ﷺ أسماءهم، ودعاء النبي ﷺ داخل الصلاة، والاسم الأعظم، وعلامات الساعة، والصور، والرؤيا والمنام، وخروج النار

---

(١) وهو في الفتح: ١٣/ ٣٤٤ ـ ٥٣٧، خاصة، وبغيره من الأجزاء.

في أرض الحجاز فأضاءت لها أعناق الإبل ببصرى[1]، وخروجها فتحشر الناس من المشرق إلى المغرب، والدجال وهل هو ابن صياد، وأبحاث في الطب: عن العسل، والحبة السوداء، والكمأة وكيفية التداوي بها، وتكوين الجنين. مع باقات من الزهديات والرقائق، والترغيب والترهيب. ووقفات قيمة عن القبائل وأنسابهم ومساكنهم، وكذا تعبير الرؤيا[2].

● ● ●

٣١ ـ أمانته في النقل، ورد الحق إلى صاحبه، ونعيه على من خالف ذلك:

وهي ميزة انساحت في كل مصنفاته رحمه الله، وبرزت واضحة في «الفتح»، فهو يذكر المصادر التي ينقل منها، أو الأئمة الذين يستشهد بأقوالهم وآرائهم، ولو كان ذلك بضع كلمات. والأمثلة على هذا كثيرة شهيرة، وقد مرَّ في ثنايا هذا البحث شيء كثير من ذلك.

● ● ●

٣٢ ـ ومن مزايا هذا الكتاب إنصاف مؤلفه للعلماء وبحوثهم، وتراجعه عن الخطأ إذا وضح الدليل:

ـ من ذلك ما ذكره في مشروعية «الاشتراط في الحج»، وأدلة ذلك، والرد على من أنكره، ثم قال: «وقد أطنب ابن حزم في التعقب على من أنكر الاشتراط بما لا مزيد عليه»[3].

ـ وفي «باب قدوم الأشعريين وأهل اليمن» يقول: وقد عقد محمد بن سعد في الترجمة النبوية من «الطبقات» للوفود باباً، وذكر فيه القبائل من مضر ثم من ربيعة ثم من اليمن، وكاد يستوعب ذلك بتلخيص

---

(١) سنة ٦٥٤هـ كما في الفتح: ١٣/ ٧٩.

(٢) وكل ذلك مبثوث في ثنايا الفتح، تركت ذكر مواضعها تخفيفاً.

(٣) الفتح: ٤/ ٩.

حسن، وكلامه أجمع ما يوجد في ذلك»[1].

ـ ومن أمثلة تراجعه عن الخطأ ما جاء في «باب فضل المعَوِّذات» حيث يقول رحمه الله: «قوله (باب فضل المعوذات): أي الإخلاص والفلق والناس. وقد كنت جوَّزت في «باب الوفاة النبوية» من «كتاب المغازي» أن الجمع فيه بناءً على أن أقل الجمع اثنان؛ ثم ظهر من حديث هذا الباب أنه على الظاهر، وأن المراد بأنه كان يقرأ بالمعوِّذات أي السور الثلاث، وذكر سورة الإخلاص معهما تغليباً لما اشتملت عليه من صفة الربّ وإن لم يصرح فيها بلفظ: التعويذ. وقد أخرج أصحاب السنن الثلاثة وأحمد وابن خزيمة وابن حبان من حديث عقبة بن عامر قال: «قال لي رسول الله ﷺ: قل هو الله أحد، وقل أعوذ برب الفلق، وقل أعوذ برب الناس؛ تعوَّذ بهن، فإنه لم يتعوَّذ بمثلهن» وفي لفظ: «اقرأ المعوذات دبر كل صلاة» فذكرهن»[2].

• • •

٣٣ ـ ومن مزايا هذا الكتاب أنه يوجز الشرح تارة، ويطيل ويطنب أخرى، حسب أهمية الموضوع وما يرد فيه:

ومن الأحاديث التي أطال الشرح فيها، وأسهب في تناول جنبات موضوعاتها: حديث صلح الحديبية[3]، والمعراج[4]، وعمرة القضاء[5]، وقصة موسى والخَضِر[6]، وقصة الإفك[7]، وحديث بدء الوحي[8]،

---

(١) الفتح: ٨/٩٧.

(٢) الفتح: ٩/٦٢.

(٣) الفتح: ٥/٣٣٣ ـ ٣٥٢.

(٤) الفتح: ٧/٢٠٣ ـ ٢١٨.

(٥) الفتح: ٧/٤٩٩ ـ ٥٠٨.

(٦) الفتح: ٨/٤١٢ ـ ٤٢٢.

(٧) الفتح: ٨/٤٥٥ ـ ٤٨١.

(٨) الفتح: ١/٢٢ ـ ٢٧؛ ٨/٧١٦ ـ ٧٢٢؛ ١٢/٣٥٢ ـ ٣٦١.

ونزول القرآن على سبعة أحرف[1]، والتزويج على القرآن وبغير صَداق[2]، وحديث أم زرع[3]؛ وخصال الفطرة[4]، والصلاة على النبي ﷺ وصفتها[5]، وأسماء الله الحسنى في «باب لله مائة اسم غير واحد»[6]، وحديث الصراط في «باب الصراط جسر جهنم»[7]، والشفاعة في حد السرقة[8]،والقَسامة[9]، وقتال الخوارج[10]، وغير ذلك.

● ● ●

٣٤ ــ وختم شرحه بذكر عدد أحاديث «الجامع الصحيح»:

بالمكرر موصولاً ومعلَّقاً وما في معناه من المتابعة، وعدد أحاديثه موصولاً ومعلقاً بغير تكرار، وكم فيها من المعلَّق، وعدد الأحاديث التي وافقه مسلم على تخريجها، وعدد الآثار الموقوفة على الصحابة فمن بعدهم[11].

● ● ●

٣٥ ــ وأفرد فصلاً بديعاً ما سُبق إليه:

بيَّن فيه أن البخاري يعتني بأن يكون في الحديث الأخير من كل كتاب من صحيحه مناسبة لختمه: «كقوله في آخر حديث «بدء الوحي»: فكان ذلك آخر شأن هرقل. وقوله في آخر: «كتاب الإيمان»: ثم استغفر ونزل» «... وفي آخر «كتاب الوضوء»: واجعلهن آخر ما تكلم به. وفي آخر «كتاب الغسل»: وذلك الأخير إنما بيَّناه لاختلافهم[12].

● ● ●

(١) الفتح: ٩/٢٣ ــ ٣٨.
(٢) الفتح: ٩/٢٠٥ ــ ٢١٦ ومواضع أخرى.
(٣) الفتح: ٩/٢٥٥ ــ ٢٧٧.
(٤) الفتح: ١٠/٣٣٤ ــ ٣٤٨.
(٥) الفتح: ١١/١٥٢ ــ ١٦٩.
(٦) الفتح: ١١/٢١٤ ــ ٢٢٧.
(٧) الفتح: ١١/٤٤٦ ــ ٤٦٣.
(٨) الفتح: ١٢/٨٧ ــ ٩٦.
(٩) الفتح: ١٢/٢٣١ ــ ٢٤٣.
(١٠) الفتح: ١٢/٢٩١ ــ ٣٠٢.
(١١) الفتح: ١٣/٥٤٣.
(١٢) الفتح: ١٣/٥٤٣ ــ ٥٤٤

٣٦ ـ وأختم الكلام على «الفتح» بالإشارة إلى طرف من مصادر الحافظ وموارده في هذا الكتاب:

فمن كتب الحديث والأطراف والمستخرجات ونحوها: صحيح كل من: مسلم، وابن خزيمة، وابن حبان، وأبي عوانة، وابن السكن. والسنن لكل من: أبي داود، والترمذي، والنسائي، ابن ماجه، والدارقطني، والبيهقي، وسعيد بن منصور، وأبي قرَّة، والكجي، وأبي بكر بن الأثرم، والأوسط في السنن لابن المنذر. ومسانيد: أحمد، والبزار، وابن أبي عمر، والحميدي، وأبي يعلى، وابن راهويه والطيالسي، والدورقي، والحارث بن أبي أسامة، والسرّاج، ومسدَّد، وابن أبي شيبة، والفريابي، وعبد بن حميد، وأحمد بن سنان، والهيثم بن كليب، والشهاب، والروياني، والشافعي، ويحيى الحماني، وقيس بن الربيع، والدارمي، والحسن بن سفيان، وأحمد بن منيع، ومسند مالك لابن عدي، ومسند الشاميين للطبراني، ومسند يونس بن عبيد. ومستخرج كل من: الإسماعيلي، وأبي نعيم، وأبي عوانة، والجوزقي، وابن منده، والبرقاني. ومصنف كل من: عبد الرزاق، ووكيع، وابن أبي شيبة، والفريابي. ومستدرك الحاكم، والمعاجم الثلاثة للطبراني. والأطراف لكل من: المزي، وخلف، وأبي مسعود الدمشقي. وأطراف الموطأ للداني، والجمع بين الصحيحين لكل من: الحميدي، والجوزقي، وعبد الحق. وجامع كل من: حماد بن سلمة، والثوري، وابن عيينة، وابن وهب. وموطأ كل من: مالك، وسعيد بن عفير، وابن وهب، ويحيى بن يحيى الأندلسي. ومشكل الآثار للطحاوي، والمنتقى لابن الجارود، ومعجم البغوي، ومختصر البخاري للقرطبي، وغرائب مالك للدارقطني، وأمالي الجرجاني، وأمالي ابن منده. وفوائد كل من: يحيى بن معين، وابن المُقْري، وعلي بن خزيمة، وأبي العباس بن نجيح، وسمّويه، والبيهقي، وعلي بن محمد المصري، وأبي الحسن الفراء الموصلي،

وتمام، وهشام بن عمـار، وأحمد بن شبيب، والخِلَعي، ويـوسف بن يعقوب النجاحي، والفوائد المنتقاة للمخلِّص، وشعب الإيمان للبيهقي، والشمائـل للترمذي، والزهد لابن المبـارك، والزهـريات للذهلي، وزيـادات المسند، ونسخة إبراهيم بن طهمـان، ونوادر الأصـول للحكيم التـرمـذي، ونسخـة نعيم بن حمـاد، والإكليـل للحـاكم، والمـراسيـل لأبـي داود، والمـوطـآت للدارقطني، والأربعين للحاكم، وغـرائب شعبة لابن منـده، والأدب المفرد للبخـاري، والـمحـامـليـات، والأفـراد لأبـي داود، والمـوضـوعـات لابن الجوزي، وتهذيب الآثار للطبري، والجعديات، ونسخة همام، وجـزء هلال الحفار، ومجالس الباغندي الكبير، وزوائد المسانيد للهيثمي، وجامع الأصول لابن الأثير، وتقريب الأسانيد للعراقي، ومسند ابن عباس لـدعلج، ومسند الصحابة الذين نـزلوا مصـر للجيزي، والأبـاطيل للجـوزقي، ومسند عمر بن عبد العزيز للباغندي، والأحاديث المختارة للضياء، والتتبع لمـا في الصحيحين للدارقطني. وغير ذلك.

ومن شـروح كتب الحـديث: شـروح: الكـرمـاني، وابن بـطال، وابن التين، والـداودي، والمهلب، والخـطابـي، وابن الملقن، ومغلطاي، والقطب الحلبـي، والنووي، وكلهـا على البخاري. شـرح مسلم للنووي. المفهم شـرح مسلم للقـرطبـي، شـرح التـرمـذي للعـراقي، شـرح السنـة للبغوي، تهذيب السنن لابن القيم، شرح مسند الشافعي للرافعي، التمهيد لمـا في الموطأ من المعاني والأسانيد لابن عبد البر، الاستذكار في مختصـر التمهيد لابن عبد البر، القبس في شرح موطأ ابن أنس لابن العربـي، شرح الترمذي لابن العـربـي أيضاً، الحاشيـة لابن المنيِّر، شـرح معـاني الآثـار للطحـاوي، الإكمـال في شـرح مسلم لعيـاض، المشكِـل «شـرح مشكـل الصحيحين» لابن الجـوزي، شـرح مسلم لابن الصـلاح، حـاشيـة السنن للمنذري، إعراب المسند لأبـي البقاء. وغيرها.

ومن كتب علوم الحديث والجرح والتعـديل والعلل: علوم الحـديث

لابن الصلاح، محاسن الاصطلاح للبلقيني، علوم الحديث للحاكم، النكت على ابن الصلاح للعراقي، المدرج والفصل والوصل ورواية الآباء عن الأبناء، ثلاثتها للخطيب، رواية الأكابر عن الأصاغر للمنجنيقي، المتفِق للجوزقي، الكامل لابن عدي، الجرح والتعديل لابن أبي حاتم، التعديل والتجريح للباجي، العلل لكل من: الدارقطني، والترمذي، والخلال، وأحمد، وأبي حاتم، وابن المديني، وعلل حديث الزهري للذهلي. مبهمات الخطيب، المبهمات لابن بشكوال، والمبهمات لعبد الغني، التمييز لمسلم. وغير ذلك.

وفي غريب الحديث: المشارق لعياض، المطالع لابن قرقول، غريب الحديث لكل من: الحربي، والنضر بن شميل، والخطابي، وابن قتيبة، وقاسم بن ثابت. ذيل الغريبين لأبي موسى، الغريبين لأبي عبيد، شرح المشارق للشيخ أكمل الدين، الفائق للزمخشري، النهاية لابن الأثير.

وفي التراجم: طبقات ابن سعد، تواريخ البخاري الثلاثة: الكبير والأوسط والصغير، الحلية لأبي نعيم، الاستيعاب لابن عبد البر، أسد الغابة لابن الأثير، التذييل على الاستيعاب لابن فتحون، الصحابة لكل من: الإسماعيلي، وابن شاهين، والباوردي، وعمر بن شبة، وابن منده، وابن حبان، ومطَيَّن، والعسكري، وابن السكن، معرفة الصحابة لأبي نعيم، تجريد أسماء الصحابة للذهبي. الكنى لكل من: مسلم، وأبي أحمد الحاكم، والدولابي، والنسائي. الذرية الطاهرة للدولابي، معجم الصحابة للبغوي، الأنساب للبلاذري، معجم ابن الأعرابي في تسمية شيوخه، التهذيب للمزي، ميزان الاعتدال للذهبي، الضعفاء للعقيلي، والإرشاد في علماء البلاد للخليلي، الرواة عن مالك للخطيب، الثقات لابن حبان، رجال البخاري للباجي، رجال البخاري للكلاباذي. وغيرها.

وفي الفقه وأصوله: الأم للشافعي، المغني للموفق، الوسيط للغزالي، شرح المهذب للنووي، المحيط والهداية في فقه الحنفية، الروضة للنووي، التبصرة «مالكي»، فتاوى القفال، الجواهر الثمينة لابن شاش المالكي، البويطي، المختصر للمزني، الشرح الصغير للفراء الحنبلي، الإشراف لابن المنذر، المدونة، الأحكام للمحب الطبري، شرح المنهاج للسبكي، زيادات الروضة للنووي، الفوائد على المهذب للفارقي، الانتصار لابن أبي عصرون، الخلاصة للنووي، أحكام الوتر لمحمد بن نصر، شرح الأحكام لابن بزيزة، شرح الهداية للسروجي، جامع المحبوبي «حنفي»، صلاة الضحى للحاكم، الحاوي للماوردي، نهاية المطلب في دراية المذهب لإمام الحرمين، الخلافيات للبيهقي، التنبيه «شافعي»، شرح التنبيه لابن الملقن، المهذب للشيرازي، المبسوط، الأحكام لإسماعيل القاضي، شرح التنبيه للجيلي، مختصر ابن الحاجب، المحلى لابن حزم، الزكاة ليوسف بن يعقوب القاضي، صدقة الفطر لجعفر الفريابي، الشرح الصغير للرافعي، حجة الوداع لابن حزم، شرح التنبيه للمحب الطبري، المناسك لسعيد بن أبي عروبة، القواعد للعز ابن عبد السلام، فتاوى قاضيخان الحنفي، الصيام للحسين بن الحسن المروزي، الصيام ليوسف القاضي، السواك لأبي نعيم، الصيام لابن أبي عاصم، اللمع لإبراهيم بن علي الشيرازي، الرسالة للشافعي، المحصول للفخر الرازي. وغير ذلك كثير.

وفي السيرة والتاريخ والأنساب: السيرة لكل من: أبي معشر، وابن كثير، والقطب الحلبي، وابن حيان، ومغلطاي. والسير للوليد بن مسلم، ولأبي إسحاق الفزاري، مغازي ابن إسحاق، مغازي موسى بن عقبة، الردة لسيف بن عمر، والفتوح له، مقتل عثمان لابن شبة، زاد المعاد لابن القيم، شرف المصطفى لأبي سعيد النيسابوري، مغازي الواقدي، زيادات المغازي ليونس بن بكير، الشفا لعياض، الروض الأُنُف للسهيلي،

الخصائص لابن دحية. تاريخ كل من: الطبري، عباس الدوري، خليفة، الفسوي، الحاكم، المسبِّحي، السرّاج. تاريخ بغداد لإسماعيل بن علي الخطبي، تاريخ دمشق لابن عساكر، تاريخ أصبهان لأبي نعيم، تاريخ بخارى لغنجار، تاريخ مرو لأحمد بن سيار. أخبار البصرة لعمر بن شبة، أخبار الخوارج لمحمد بن قدامة الجوهري، الكامل لابن الأثير، تاريخ الإسلام للذهبي، فتوح مصر لابن عبد الحكم، كتاب مكة لابن شبة، مكة للفاكهي، الردة للواقدي، النسب: لكل من ابن حزم، ابن عبد البر، الزبير بن بكار، هشام الكلبي، محمد بن نصر. والأنساب للهمداني، ونسب الأوس لابن القداح. وغير ذلك.

وفي اللغة والأدب: كتاب ليس لابن خالويه، العباب للصاغاني، المحكم لابن سيده، الصحاح للجوهري، العين للخليل، فعلت وأفعلت للزجّاج، النوادر لابن الأعرابي، الأمالي للزجاج، شرح ألفاظ المختصر للأزهري، مجمل اللغة لابن فارس، نوادر اللحياني، المنضد لكراع، المجاز لأبي عبيدة، الكامل للمبرد، المغني لابن هشام، تهذيب اللغة للأزهري، القاموس للفيروزابادي التوضيح لابن مالك، الألفاظ لابن السكِّيت، البارع لأبي علي القالي، شرح سيبويه للسيرافي، المثلث لقطرب، المخصص لابن سيده، فقه اللغة للثعالبي، المثلث لابن مالك، الأمالي للقالي، الفصيح لثعلب. وغيرها.

وفي التفسير وعلوم القرآن والقراءات: تفسير كل من: ابن أبي حاتم، القرطبي، الفخر الرازي، الثعلبي، عبد بن حُميد، جويبر، الطبري، إسماعيل بن أبي زياد الشامي، ابن مردويه، سُنيد، أبي حيان، الفريابي، النقاش، الكلبي، ابن عيينة، الطرطوشي، بقي بن مَخْلَد، أبي الشيخ، مقاتل بن سليمان، الثوري، إسحاق بن راهويه، عبد الرزاق، ابن عطية، ابن المنذر، عبد الغني بن سعيد الثقفي، الزمخشري،

أبـي نصر القشيري، يحيـى بن سلام البصري، ابن كثير، الربيع بن أنس، المـاوردي، أبـي الليث السمـرقنـدي، محيـي السنّـة البغـوي، الشمس الأصبهاني. معاني القرآن لكل من: الفـراء، والزجـاج، والنحّاس. كتـاب السبعة في القراءات لابن مجاهد، الجامع الأكبـر والبحر الأزخـر لعيسى بن عبـد العـزيـز اللخمي ـ وهـو في ثـلاثين مجلداً ـ، النـاسـخ والمنسـوخ لأبـي داود، أسبـاب النزول للواحـدي، أحكام القـرآن للشافعي، مفـردات القرآن للراغب، مبهمات القرآن للسهيلي، مختصر إعـراب القرآن ومعـانيه للزجّاج، إعراب القرآن لمكي بن أبـي طالب.

* * *

هذه خلاصة موجـزة عن هذا الكتـاب العظيم، وخصـائصه ومـزاياه، ومنهـج الحـافظ فيه، وأسلوبـه وموارده[1]؛ استخـرجتها من خـلال قراءتي «للفتـح» والعيش في ظـلالـه فتـرة طـويلة من الـزمن هي من أجمـل أيـام عمري! والموضوع يستحق دراسة تفصيلية، وبحثاً مستقلاً في كتاب مفـرد. وقد قام بعض الأفاضل ببعض الـدراسات لجـوانب من «الفتح»، ومن ذلـك كتاب «توجيه القاري» حيث قام مصنِّفُه باستخراج الفوائد الكثيرة من الفتح، وبوَّبها في أربعة أقسام:

الأول: تنـاول فيه كـلام ابن حجـر على «الصحيـح» وكشف عـادات البخاري ومنهجه في صحيحه. الثاني: ذكـر فيه الأصـول والقواعـد الفقهية المبثـوثة في «الفتـح». الثالث: جمـع فيه مـا ذكره الحـافظ في «الفتح» من اصطلاحات المحدثين. الرابع: جمع فيـه ما بثّـه ابن حجر في «فتحـه» من تراجم الرواة والأعلام.

* * *

(١) وما ذكرناه من المصادر والمـوارد ليس على سبيل الاستيعـاب؛ بل لـلاستدلال على سعة اطلاع الإمام وتنوعه.

القيمة العلمية لفتح الباري، وأقوال العلماء فيه:

لما كمل «فتح الباري» تصنيفاً وقراءة، أقيم لختمه حفل بديع في زمن الربيع في مكان بناه المؤيَّد خارج القاهرة يعرف بـ«التاج والسبع وجوه»، وكان ذلك في يوم السبت الثامن من شعبان سنة (٨٤٢هـ). وعمل ابن حجر وليمة عظيمة بالمكان المذكور، وقرأ المجلس الأخير هنالك، وجلس المصنِّف على الكرسي. قال السخاوي: وكان يوماً مشهوداً لم يعهد أهل العصر مثله، بمحضر من العلماء والقضاة والرؤساء والفضلاء، وقال الشعراء في ذلك فأكثروا، وفرق عليهم الذهب وكان المستغرق في الوليمة المذكورة نحو خمسمائة دينار! وممن شهد الحفل تلميذه الناصر محمد بن السلطان جقمق، كما شهده أركان الدولة، كذلك كان حرص العامة وأصحاب الحرف على مشاهدة هذا الحفل، وفي ذلك يقول البقاعي: «وخرج الباعة وأهل الأسواق، رجالاً ونساءً للفرجة، حتى إني أظن أنه لم يتخلف في ذلك اليوم في القاهرة كبير أحد»[1].

وفرَّق المؤلف على كتَّاب «الفتح» صُرر فضة، ومجامع حَلْوى، وقد أنشد الدجوي في ذلك[2]:

بفتح الباريء انشرح البخاري ... وأحمد ختمه بالفضل جامعْ
أدار دراهماً صرراً فأَنْشى ... وحلْوى فيه تُؤْخَذُ بالمجامعْ

ويعتبر «فتح الباري» أجل شروح صحيح البخاري على الإطلاق، كما أنه أجل كتب ابن حجر رحمه الله وقد أثنى العلماء عليه قديماً وحديثاً، وتنافس الأكابر والعلماء وطلبة العلم في كتابته وشرائه[3]، وتسابقت دور

---

(١) انظر: الجواهر والدرر: ص ٣٢٥ هامش؛ البدر الطالع: ١/ ٩٠؛ الفتح: ١٣/ ٥٤٨.

(٢) الجواهر: ص ٤٢٢؛ الفتح: ١٣/ ٥٥٥.

(٣) انظر ص ٣٦٨ ــ ٣٦٩ من هذا الكتاب. وقد دخل «الفتح» اليمنَ سنة (٩٠١هـ) حيث أرسل سلطانها لاشترائه، فاشتري له بمال جزيل. شذرات الذهب: ٨/ ٢.

النشر في طباعته وخدمته، وأصبح مرجع الباحثين والمؤلفين وطلاب العلم على اختلاف مشاربهم.

وأذكر هنا طرفاً من الثناء على «الفتح» مبتدئاً بمعاصري ابن حجر وتلامذته، فمن بعدهم حتى عصرنا الحاضر. فمن ذلك:

ـ قول العلامة شرف الدين يعقوب بن جلال التَّبَّاني الحنفي ـ (ت ٨٢٧هـ) ـ الذي وصف «الفتح» بأنه: «من أحسن الشروح وضعاً، وأكثرها جمعاً. ولقد طالعته فظفرت فيه بفوائد حسنة، ووجدته أحسن في ترتيبه، وأجاد في تهذيبه، وأبرز فيه معاني لطيفة، وفوائد حديثية حسنة شريفة، جمع فيه فأوعى، ودعا المعاني الأبيَّة فقالت سمعاً وطوعاً؛ فغدوت أسير في رياض مونقة، وأغصان مورقة...»[1].

ـ ويقول العلامة فقيه الشام ومؤرخها ابن قاضي شهبة (ت ٨٥١هـ) في معرض الثناء على ابن حجر: «... **وتصدى للتصنيف فصنف الكثير، ومصنفاته تزيد على المائة، من أجلها شرحه على البخاري، لم يُصنَّف مثله ولا على منواله**»[2].

ـ ويقول أبو البركات محمد بن أحمد الغزي الدمشقي الشافعي (ت ٨٦٤هـ) في «الفتح»: «لم يصنَّف مثله ولا على منواله، وهو يشهد له بالمرتبة العليا في الفنون»[3].

ـ ويقول قاضي القضاة الحنفية أبو الفضل ابن الشحنة (ت ٨٩٠هـ) عن الحافظ ومؤلفاته: «**وألَّف في فنون الحديث كتباً عجيبة، أعظمها شرح البخاري، وعندي أنه لم يشرح البخاريَّ أحدٌ مثله؛ فإنه أتى فيه بالعجائب**

---

(١) الجواهر والدرر: ص ٢٢٤. وهذا قاله في بعض أجزاء الفتح ـ لأنه كمل سنة ٨٤٢هـ ـ فكيف لو رآه تاماً؟!

(٢) المرجع السابق: ص ٢٤٣.

(٣) المرجع السابق: ص ٢٤٨.

والغرائب، أوضحه غاية الإيضاح، وأجاب عن غالب الاعتراضات، ووجَّه كثيراً مما عجز غيره عن توجيهه»[1].

ـ ويقول محدث حلب العلامة أبو ذر ابن البرهان الحلبي (ت ٨٨٤هـ) ـ أحد تلامذة ابن حجر ـ وهو يثني على الحافظ: «... وشرح البخاريَّ شرحاً عظيماً، لم يُشرح البخاري مثله، وتلقاه الناس بالقبول، وسارعوا إلى كتابته وقراءته عليه، وطلبه ملوك الآفاق إلى بلادهم»[2].

ـ ويقول الحافظ السيوطي (ت ٩١١) مثنياً على الحافظ ومصنفاته: **«وصنف التصانيف التي عمَّ النفع بها، كشرح البخاري الذي لم يصنف أحد في الأولين ولا في الآخرين مثله»**[3].

ـ ولما طُلب إلى العلامة القاضي الشوكاني (ت ١٢٥٠هـ) أن يشرح «البخاري»، التزم جادة الإنصاف واعترف للحافظ بالإمامة والسبق، وقال الحديث المشهور: (لا هجرة بعد الفتح)، يعني «فتح الباري»، ولا يخفى ما فيه من اللطف[4].

ـ وقال العلامة أحمد حسن الدهلوي في الحافظ: «وصنف التصانيف التي عمَّ النفع بها، منها شرح البخاري الذي لم يصنف أحد مثله»[5].

ـ ويقول العلامة الدكتور مصطفى السباعي (ت ١٣٨٤هـ) وهو يذكر أشهر شروح صحيح البخاري: «ومن أشهر هذه الشروح أربعة: شرح الإمام بدر الدين الزركشي، واسمه «التنقيح» (ت ٧٩٤هـ). وشيخ الإسلام

---

(١) المرجع السابق: ص ٢٦١. (٢) المرجع السابق: ص ٢٥٤.
(٣) ذيول تذكرة الحفاظ: ص ٣٨١؛ طبقات الحفاظ للسيوطي: ص ٥٥٢.
(٤) فهرس الفهارس: ١/٣٢٢ ـ ٣٢٣، البخاري للندوي: ص ١٤٣.
(٥) حاشية الدهلوي على بلوغ المرام: ص ٩.

ابن حجر (ت ٨٥٢هـ) في فتح الباري، وهو أجلُّ هذه الشروح وأوفاها، وأكثرها شهرة وفائدة. . . »[١].

ـ ويقول الدكتور العلامة عبد الغني عبد الخالق (ت ١٤٠٣هـ) وهو يتكلم عن «الفتح»: «وهو أجلّ شروح البخاري كافة بلا مراء؛ فكل الصيد في جوف الفَرَا»[٢].

●● ومما قيل من الشعر في امتداح «فتح الباري» سواء في مجلس الختم أو في غيره:

ـ قول الإمام العلامة برهان الدين البقاعي (ت ٨٥٨هـ):

شرحُ البخاريّ الذي في ضِمْنه ... نُظمت علوم الشرع مثل بحارِ
في كل طِرسٍ منه روضٌ مزهرٌ ... وبكلّ سطر منه نهرٌ جارِي
قد حُرِّرت فيه مباحث مَنْ مضى ... وكلامهم أضحى بغير غبارِ
وبه زوائد من فوائد جمة ... وفرائد أعييت على النُّظار
شرح الحديث به فكم من مُشكِلٍ ... فيه انجلَى للعين بالآثارِ
يأتي إلى طرق الحديث يضمُّها ... فإذا العِيَان مصدق الإخبارِ
وتزاحمتْ ـ أفديه ـ في تحصيله ... زُمَرُ الملوك فَسَلْ من السُّفّارِ
من فيض أحمد نَبْعُه وله مُنَا ... سَبةٌ به ابتسمت لذي الأفكارِ
إن قلتَ نهرٌ فهو للحَجَر انتمى ... ومن الحجارة مَنبعُ الأنهارِ
أو قلت بحرٌ فعسقلانٌ أصلُه ... والناسُ عالةُ بحرِها الزَّخّارِ[٣]

ـ ويقول الإمام شهاب الدين أحمد بن أبي السعود المنوفي (ت ٨٧٠هـ)[٤]:

---

(١) السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي: ص ٤٤٧.
(٢) الإمام البخاري وصحيحه: ص ٢٣٩.
(٣) الجواهر والدرر: ص ٣٢٩؛ الفتح: ١٣/ ٥٥٢.
(٤) الجواهر والدرر: ص ٣٣٥؛ الفتح: ١٣/ ٥٥٠.

حبر الهدى حافظ الإسلام أحمدُ مَنْ ... له من «الفتح» ذكرى فتح خير نَبِي
يا عالماً شرح الله الصدورَ به ... وباسطَ العلم والآمال لِلطلبِ
شرحتَ صدر البخاري مثل جامعه ... فراح ينشد هذا مُنتهى الطَّلبِ
فحبذا جامعٌ بالشرح صار له ... وقفاً كبحر جرى باقٍ مدى الحِقبِ
أضاء فيه مصابيح مسلسلة ... من الأحاديث أو من لفظك الضربِ
شرح حكى الشمس فالدنيا به امتلأت ... تَغِيبُ زُهْرُ الدراري وهو لم يَغبِ
فلا تحرِّك لساناً يا سراج فقد ... لاح النهار وهَذِي الشمس فاحتجبِ

ــ ويقول الخطيب الأديب برهان الدين بن أحمد المليجي (ت ٨٧١هـ)[1]:

شرحُ البخاري إنه وَافَى بها ... فتحٌ من الباري أطابَ مَقالَها
وشِهابُها فضح الدَّراري جهرةً ... فينا وأخْفَى بدرَها وهلالَها
هو حافظُ العصر الذي في مصره ... أهلُ النُّهى ضربتْ به أمثالَها
شهدت له أن لا سِواهُ مُعْلِناً ... إيضاحَها ومبيِّناً إشكالَها
فتحٌ من الباري فَمِسْكٌ ختامه ... بلغَت به كلُّ الورَى آمالَها
شرحٌ به كتبُ الحديث تألَّقت ... فهو الجديد وغيرُه ما نالَها

ــ ويقول العلامة الأوحد الشهاب أحمد بن مبارك شاه الحنفي (ت ٨٦٢هـ)[2]:

فللَّه فتح طَنَّ في الكونِ ذكرُه ... وغارَ إلى أقصى البلاد وأَنْجَدا
هنيئاً له قد سار بين ذوي النُّهى ... وما سارَ حتى صارَ مثلَك أوْحَدَا

ــ ويقول المحب محمد بن محمد البكري (ت ٨٥١هـ):

وكم من شروح للبخاري عدّةٍ ... طواها بفتح الباري أعجب لما يُطوَى

---

(١) الجواهر والدرر: ص ٣٢٦ ــ ٣٢٧؛ الفتح: ١٣/٥٥٥ ــ ٥٥٦.
(٢) الجواهر والدرر: ص ٣٤٤.

كساهُ جمالاً من عذوبة لفظه فنارتْ به الدنيا وسلَّمت الدَّعْوَى
وتوَّجه الأسماء من كل مُبْهَم خَفيّ على النُّقَّاد يا ويحَ من سوَّى
شهاباً علا أفق السماءِ بدوره تباركَ من أنشا وسبحان من سوَّى[1]

●● بعد كل هذا يتضح لنا عدم إنصاف الكوثري ـ رحمه الله ـ في مقارنته بين «الفتح» و «عمدة القاري»؛ حيث يقول: «وقد بسطنا الموازنة بين شرحي الشهاب ابن حجر والبدر العيني في «تذهيب التاج اللجيني في ترجمة البدر العيني». وشرح البدر أضخم من شرح الشهاب بقدر ثلثه، وأجمع وأوسع، يفي الأبحاث حقها من جميع مناحيها، بحيث لا يحوج القارئ إلى غير كتابه فيما له مساس بشرح الكتاب. والشهاب يسعى في حشد طرق الحديث وألفاظه المختلفة من كتب الأطراف والمستخرجات، وليس الشهاب كل حين بثاقب بينما ترى البدر مكتمل الأنوار من كل جانب!! ولولا مقدمته لكان دونه بمراحل»[2].

ولسنا في حاجة للرد على هذا الكلام، فقد اتضح لنا من دراسة الفتح وأقوال كبار الأئمة ـ حتى الحنفية منهم ـ أن «فتح الباري» هو أجل شروح صحيح البخاري. وتأمل قول الكوثري: «وليس الشهاب كل حين بثاقب، بينما ترى البدر مكتمل الأنوار من كل جانب»! ويعني بالشهاب ابنَ حجر، وبالبدر بدرَ الدين العيني؛ فيا عجباً من هذا الكلام!! ونحن نقرّ للإمامين ـ العسقلاني والعيني ـ بالفضل، وندعو لهما بالرحمة وجزيل الأجر والثواب من الله، فكلاهما خدم الإسلام والسنة النبوية المطهرة.

* * *

(١) الجواهر والدرر: ص ٤٧٩؛ الفتح: ١٣/٥٥٧. وقد أطنب السخاوي في ذكر المدائح في ابن حجر و «الفتح»، انظر: الجواهر: ص ٣٢٦ ـ ٤٨٥؛ وكذا الفتح: ١٣/٥٤٩ ـ ٥٦٣.

(٢) ذيل تذكرة الحفاظ: ص ٣٣٤ هامش (١).

بين فتح الباري وعمدة القاري:

«عمدة القاري» للإمام العلامة المحدث المؤرخ محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد، المشهور ببدر الدين العيني الحنفي، حياته (٧٦٢ ــ ٨٥٥هـ). وكتابه الذي شرح به البخاري ــ وهو «عمدة القاري» ــ كتاب حافل ضخم، يقع في خمسة وعشرين جزءاً.

لم يستمر في كتابه هذا على منهج واحد، فقد أطال جداً في الأجزاء الأربعة الأولى، حيث كانت طريقته في الشرح أنه يورد الحديث ويشرع في شرحه، واضعاً عناوين متنوعة، مثل: بيان تعلق الحديث بالترجمة، بيان رجاله، بيان ضبط الرجال، بيان الأنساب، بيان فوائد تتعلق بالرجال، بيان لطائف إسناده، بيان نوع الحديث، بيان تعدد الحديث في «الصحيح»، بيان من أخرجه غيره، بيان اختلاف لفظه، بيان اللغة، بيان الإعراب، بيان المعاني، بيان البيان، بيان البديع، الأسئلة والأجوبة، بيان سبب الحديث[١]، استنباط الأحكام، فوائد تتعلق بالحديث.

وقد أوقف هذا التفصيل، واختلّ هذا الترتيب والتبويب بعد الجزء الرابع، فاكتفى بمطابقة الحديث للترجمة، وذكر رجاله ولطائف إسناده، ومن أخرجه غير البخاري، وذكر معناه وما يستفاد منه؛ فعل هذا حتى الجزء الحادي عشر، حيث انقطع هذا الترتيب كذلك، فتارة يورد هذه العناوين وأخرى لا يوردها، حتى الجزء السابع عشر، وأما بعده فيتكلم عن مطابقة الحديث للترجمة، ومواضعه في البخاري، ومن أخرجه، والكلام على رجاله، ثم يشرح الحديث دون ذكر عناوين، حتى نهاية الكتاب[٢].

وقد ذكر مؤلف كتاب «بدر الدين العيني وأثره في علم الحديث» عدة مزايا لعمدة القاري على فتح الباري[٣]:

---

(١) انظر: عمدة القاري: ١/١٧ ــ ٣٥؛ شرح حديث (إنما الأعمال بالنيات).

(٢) بدر الدين العيني، لمعتوق: ص ٢١٠ ــ ٢١٤.

(٣) المرجع السابق: ص ٢٢٥ ــ ٢٣٨.

١ ــ تخريج الأحاديث في العمدة أسهل تناولاً منها في الفتح.

٢ ــ في العمدة يذكر مواضع ذكر الحديث في البخاري وعمن أخرجه، بينما ابن حجر يحيل إلى موضع آخر فيه. انتهى. وهذه مزية جيدة وإن كان العيني لا يستوعب في ذكر تكرار الحديث[1]، كما أن الحافظ لم يخلِ كتابه منها، لكنها في «العمدة» أوضح وأكثر.

٣ ــ وأن العيني ينبه على أن الحديث من أفراد البخاري، إذا كان كذلك، كما في الحديث الأول من «باب تضييع الصلاة عن وقتها»، بينما لم يذكر ابن حجر أنه من أفراد البخاري[2]. انتهى.

كذا قال، وهو كلام من لم يتمرس في «الفتح» وطريقة الحافظ فيه، وهو أنه ينبه أحياناً خلال الشرح على أفراد البخاري، ثم يستوعب ذلك في نهاية كل كتاب، ويعدّ ما اتفق عليه الشيخان، وما انفرد به البخاري عن مسلم. والمثال المذكور نبّه عليه الحافظ في نهاية «كتاب مواقيت الصلاة»[3].

وهب أن الحافظ لم ينبه على هذا الحديث وأنه من أفراد البخاري؛ فهل يكفي مثال واحد في كتاب ضخم لاعتبار ذلك مزية لغيره عليه؟!

٤ ــ في العمدة يشرح كل حديث على حدة، بينما في الفتح يورد

---

(١) وقد حاول مؤلف كتاب «بدر الدين العيني» ــ في ص ٢٢٨ ــ أن يستدرك على محمد فؤاد عبد الباقي في ذكره أطراف الأحاديث في «البخاري»، ومثّل لذلك بما في «باب المصلي يناجي ربه عز وجل» وأنه لم يذكر أطرافاً للحديث. انتهى. وقد أخطأ «معتوق» في هذا، فالحديث المذكور قد تكرر في ثمانية مواضع، ذكرها عبد الباقي في الحديث رقم (٢٤١) من الفتح: ١/٣٥٣. وعبد الباقي علامة محقق أفنى عمره في خدمة السنة؛ ولا يستدرك عليه بالنظرة العجلى!

(٢) البدر العيني: ص ٢٢٧.

(٣) الفتح: ٢/٧٦.

أحاديث الباب كلها ثم يشرع في شرحها، دون فصل بين حديث وآخر. انتهى.

وهذا راجع إلى أن أحاديث كل باب تشكل موضوعاً واحداً، فيذكرها ابن حجر ثم يتكلم على كل منها بحسب ترتيبها في الباب، وليس في هذا كبير أمر. وكثيرة جداً هي الأبواب التي لا تحتوي إلَّا الحديث أو الحديثين أو الثلاثة، مما لا يستوجب صعوبة في المراجعة. هذا مع أن الحافظ قد يفصل بين أحاديث الباب في أحايين كثيرة[1].

٥ ــ العمدة أكبر حجماً من الفتح، وعدد صفحاته أكثر، وشرحه للأحاديث أوسع. انتهى.

وهذا منه غاية في العجب؛ فمن قال بأن حجم الكتاب مزية فيه، ولو كان الأمر كذلك لرجح كثير من كتب الحديث بصحيح البخاري، ومن يقول بهذا؟

هذا مع أن الحافظ قد وضع لشرحه مقدمة جليلة ــ هي هدي الساري ــ وأحال عليها في شرحه كثيراً؛ تجنباً للتكرار، ولا يكرر إلَّا في النادر جداً، وذلك إذا بَعُدَ العهد، خاصة في الأجزاء الأخيرة من «الفتح». زد على ذلك أن «تغليق التعليق» هو مكمل للفتح، وقد أحال الحافظ عليه في «الفتح» كثيراً تجنباً للإطالة والتكرار، وذكر منه خلاصة موجزة مفيدة[2]. وعلاوة على ذلك فإن الحافظ أراد في «الفتح» الإيجاز، فإنه قبل

---

(١) مثلاً في الجزء الأول: باب ٣٦ ص ١٩٥ ــ ١٩٦، وباب ٣٧ ص ١٩٧ ــ ١٩٩، وباب ٣٨ ص ١٩٩ ــ ٢٠٣، وباب ٣٩ ص ٢٠٤ ــ ٢١٠، وباب ٤٢ ص ٢١٣ ــ ٢١٧. فقد فصل كل حديث على حدة، وغير ذلك كثير جداً.

(٢) ومؤلف كتاب «البدر العيني» وضع المقدمة جانباً وهي جزء من الفتح، ولم يشر لتغليق التعليق، الذي يمكن اعتباره جزءاً من الفتح، لأن الحافظ وصل فيه تعاليق البخاري، وأحال عليه كثيراً.

تأليفه كان قد شرع في شرح أطال النفس فيه، وكتب منه قطعة، فخشي الفتور عن تكميله على تلك الصنعة، فتركه وابتدأ في شرح متوسط هو «الفتح».

وأما أن شرح الأحاديث في «العمدة» أوسع منها في «الفتح» فليس هذا دائماً، فهناك أحاديث أطال فيها العيني واختصر الحافظ شرحها، كما أن هناك أحاديث أخرى أطنب فيها ابن حجر واختصرها العيني(1).

هذا وإن ابن حجر قد تعمَّد التوسط في شرحه، وحذف ما لا يُحتاج إليه إلَّا في النادر، يقول السخاوي: «. . . وطوّل البدر شرحه بما تعمد شيخنا حذفه من سياق الحديث بتمامه، وتراجم الرواة، واستيفاء كلام اللغويين، ما كان القصد يحصل بدونه، وغير ذلك. وذُكر لشيخنا عن بعض الفضلاء ترجيحه بما اشتمل عليه من البديع؛ فقال بديهة: هذا شيء نقله من شرح لركن الدين، وكنت وقفت عليه قبله، لكن تركت النقل منه لكونه لم يتم، إنما كتب قطعة يسيرة، وخشيت من تعبي بعد فراغها في الاسترسال في هذا المهيع، بخلاف البدر فإنه بعدها لم يتكلم بكلمة واحدة»(2).

وقال القسطلاني عن «العمدة»: «. . . وطوَّله بما تعمد الحافظ ابن حجر في الفتح حذفه من سياق الحديث بتمامه، وإفراد كل من تراجم الرواة بالكلام، وبيان الأنساب واللغات والإعراب والمعاني والبيان،

---

(1) وقد ذكر المؤلف المذكور مثالين للمقارنة بين شرح البدر وشرح ابن حجر ـ ص ٢٣٢ ـ ٢٣٨ ـ : الأول: ذكره من الفتح: ٢/٣٣٧، مع أن الحافظ شرحه في مواضع أخر موجزاً في: ٣/٩٠، ٢٩٩، و ١١/٧٧. الثاني: ذكره من الفتح: ١/٥٩٤ في بضعة أسطر، مع أنه شرحه في نفس الجزء: ص ٣٤٩ ـ ٣٥٣ بتوسع، وأشار لهذا الموضع في الحاشية فقط، وما هكذا تكون المقارنة. وذكر مثالاً توسع فيه ابن حجر بخلاف العيني: ص ٢٣٨ ـ ٢٤١.

(2) البدر العيني: ص ٢٤٤؛ إتحاف القاري: ص ٣٥٠.

واستنباط الفرائد من الحديث، والأسئلة والأجوبة، وغير ذلك»[1].

٦ ــ وأن العيني يبين بعض أخطاء وقع بها شراح البخاري قبله. انتهى. وهذه ليست خاصة بالعمدة، وهي في الفتح أوضح وأجلى وأدق، وقد ذكرنا في «دراستنا للفتح» طرفاً من ذلك.

* * *

وذكر من مزايا الفتح على العمدة:

١ ــ مقدمته هدي الساري.

٢ ــ أنه يمشي على نسق واحد، من أول الكتاب إلى آخره بخلاف العمدة.

٣ ــ وختمه كل كتاب بما فيه من الأحاديث المرفوعة والموقوفة، وما فيها من المكرر، وما وافقه مسلم على تخريجها. وهذا ليس في العمدة.

٤ ــ كما يمتاز بأمانة النقل، وسلاسة العرض، ودقة التعبير، وحسن التلخيص، ووجازة القول[2]. . .

هذا ما ذكره من مزايا الفتح، والدراسة التي قدمناها تعطي الأمر أبعاداً أوسع وآفاقاً أرحب.

هل «عمدة القاري» مأخوذ من «فتح الباري»؟

ذكر كثير من العلماء ــ ابن حجر فمن بعده ــ أن العيني نقل كثيراً من «الفتح» ولم ينسبه لمصدره:

ــ قال ابن حجر في مقدمة كتابه «انتقاض الاعتراض»: «. . . حتى شارف فتح الباري على الفراغ، فصار يستعير من بعض من كتب لنفسه من الطلبة، فينقله إلى شرحه من غير أن ينسبه إلى مخترعه»[3].

---

(١) إرشاد الساري: ١/٤٣.

(٢) «البدر العيني» لمعتوق: ص ٢٣٨.

(٣) نقلاً عن «البدر العيني» لمعتوق: ص ٢٤٦.

ـ ويذكر السخاوي أنه قرأ بخط شيخه الحافظ: «شرح البخاري لبدر الدين العيني، أخذه من فتح الباري لابن حجر، ونقص منه وزاد فيه قليلاً، ولكن أكثره يسوقه بحروفه الورقة والورقتين، وأقلّ وأكثر، أو يعترض عليه اعتراضات واهية»[1].

ـ وقال حاجي خليفة عن «العمدة»: «واستمد فيه من فتح الباري بحيث ينقل منه الورقة بكمالها، وكان يستعيره من البرهان ابن خضر بإذن مصنفه له، وتعقبه في مواضع بما تعمد الحافظ ابن حجر حذفه...»[2].

ـ وقال الشوكاني في ترجمة العيني: «ومن تصانيفه شرح البخاري في أحد وعشرين مجلداً أسماه «عمدة القاري» وكان ينقل فيه من شرح الحافظ ابن حجر، وربما يتعقب ذلك، وقد أجاب ابن حجر عن تلك التعقبات لأنهما متعاصران، وبينهما منافسة شديدة»[3].

ـ ويقول الدكتور عبد الغني عبد الخالق وهو يتكلم عن العمدة: «وهو يعتمد في معظم بحوثه، وأهم نقوله؛ على فتح الباري، كما يظهر عند المقارنة»[4].

ـ وقد أورد الأستاذ السيد أحمد صقر في «تقديمه لفتح الباري» نصوصاً موجودة بنصها في العمدة والفتح، دون الإشارة إلى نقلها من الفتح؛ من ذلك ما جاء في شرح حديث ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إلّه إلاَّ الله وأن محمداً رسول الله...)، يقول البدر العيني في بيان لطائف إسناده: «... ومنها أن فيه رواية الأبناء عن الآباء، وهو كثير لكن رواية الشخص عن أبيه عن جده

---

(١) الجواهر والدرر: ص ٣١٨.
(٢) كشف الظنون: ص ٥٤٨ ـ ٥٤٩.
(٣) البدر الطالع: ٢/ ٢٩٥.
(٤) الإمام البخاري وصحيحه: ص ٢٣٨.

أقل، وواقد هنا روى عن أبيه عن جد أبيه. ومنها أن إسناد هذا الحديث غريب، تفرد بروايته شعبة عن واقد، قاله ابن حبان، وهو عن شعبة عزيز، تفرد بروايته عنه الحرمي المذكور، وعبد الملك بن الصباح، وهو عزيز عن الحرمي تفرد به عنه المسندي وإبراهيم بن محمد بن عرعرة، ومن جهة إبراهيم أخرجه أبو عوانة وابن حبان والإسماعيلي وغيرهم، وهو غريب عن عبد الملك تفرد به عنه أبو غسان مالك بن عبد الواحد شيخ مسلم؛ فاتفق الشيخان على الحكم بصحته مع غرابته»[1]. وهذا عين كلام الحافظ في «الفتح»[2].

●● أما الكوثري ـ رحمه الله ـ فقد خالف كل أولئك، وأبى أن يكون العيني استمد من «الفتح»، فقال في «مقدمته لعمدة القاري» ما نصه: «ومما يزيد شرح العيني مزية على مزاياه أنه كان يطلع على شرح الشهاب ابن حجر جزءاً فجزءاً بواسطة البرهان ابن خضر ـ أحد أصحاب الشهاب ـ وينتقده في مواطن انتقاده، على توافق بين الشرحين في النقول في بعض المواضع، لتوافق مراجعهما. وقد يظن بعضهم أن الثاني ـ العيني ـ أخذ من الأول ـ ابن حجر ـ وليس كذلك، بل ذلك كما قلنا، ويظهر عند الكشف عن مواطن اتفاقهما في مراجعهما ما ذكرناه، وليس أحدهما بأحق من الآخر في النقل عن كتب من تقدمهما»[3].

وهذا اعتراف من الكوثري بأن العيني كان يتابع «الفتح» جزءاً فجزءاً، فهل يعقل أنه لم يستفد منه؟ وهب أن العيني وابن حجر اتفقا في النقل عن نفس المراجع، فهل يعقل ـ أيضاً ـ أنهما ينقلان نفس القدر المشترك بينهما دونما زيادة أو نقصان ولو بعبارة؟ وإذا قبلنا ذلك في النقول، فماذا نقول فيما هو من محض الفكر، وهو موجود في «العمدة» تماماً كما في

---

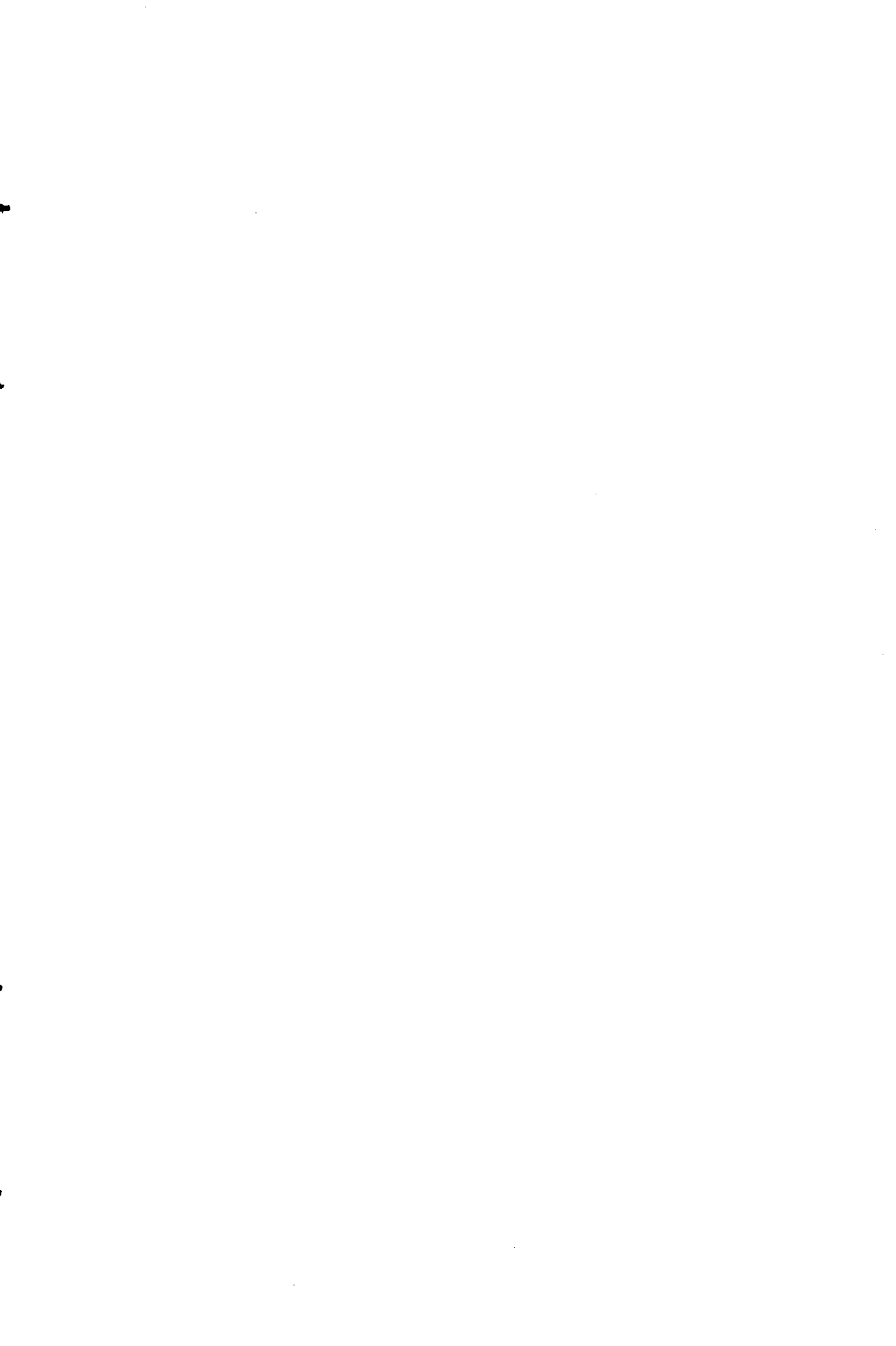
(١) عمدة القاري: ١/١٧٩.
(٢) الفتح: ١/٧٥ ـ ٧٦. وذكر الأستاذ أحمد صقر أمثلة أخرى من هذا القبيل.
(٣) عمدة القاري: ١/٩.

«الفتح»، هل اتفقا في التفكير والاستنباط وصياغة العبارات؟!

لا يمكن تفسير ذلك إلاَّ بالقول بأن العيني استفاد كثيراً من الفتح ـ وهذا يتضح بأدنى تأمل ومقارنة ـ وما يضره ذلك، ولا يحط من منزلته، فهذا دأب العلماء كل يستفيد من الآخر وينقل عنه، لكن ذلك يقتضي الاعتراف لصاحب الحق بحقه وسَبْقه، وإسناد ذلك إليه، وهذا لم يفعله العيني رحمه الله، لمنافسة كانت بين الرجلين.

وأياً ما كان الأمر فكلا الكتابين جليل وقيّم، وقد أفضى ابن حجر والعيني بعملهما إلى ربهما، وقد أحسنا في صنيعهما للمسلمين، فجزاهما الله خير الجزاء، وأجزل مثوبتهما، كفاء ما بذلاه من جهد ووقت في خدمة صحيح البخاري وغيره من الكتب.





الفَصل الرابع عَشر
مَكانَتُهُ العِلْمِيَّةُ وَثَنَاءُ الأَئِمَّةِ عَلَيْهِ

لقد تبوَّأ الحافظ ابن حجر مكاناً علياً في قلوب الناس، واقتعد درجة سامقة عند الأئمة والعلماء، وكان له لسان صدق في الآخرين بعده حتى عصرنا الحاضر. وهو حقيق بتلك المنزلة، وأهل لذلك الثناء الجميل والذكر الطيب، الذي هو عاجل بشراه؛ جزاءً وفاقاً من الله له في الدنيا، مع ما ينتظره ـ إن شاء الله ـ من جزيل الأجر؛ كفاء ما قدَّمه للإسلام بعامة، وللسنة المطهرة بخاصة.

فلقد أثنى عليه أشياخه، ومعاصروه من أقرانه وتلامذته، والأئمة الكبار من بعدهم، وبالغوا في إطرائه، وتبجيله وتفخيم أمره. ونذكر هنا طرفاً من ذلك على سبيل الاختصار، فقد قال السخاوي: «فأما ثناء الأئمة عليه فاعلم أن حصر ذلك لا يُستطاع، وهو في مجموعه كلمة إجماع، لكني أثبت ما حضرني من ذلك الآن على حسب الإمكان»[1].

● ● ●

أولاً ــ ثناء مشايخه وأساتذته وكبار معاصريه عليه وتبجيلهم له

●● ثناء شيخه العراقي (ت ٨٠٦هـ):

ـ من ذلك قوله: «ولما كان الشيخ العالم الكامل الفاضل، المحدث المفيد المجيد، الحافظ المتقن، الضابط الثقة المأمون، شهاب

---

(١) وساق في ذلك فصلاً مطولاً: ص ٢٠٤ ــ ٢٦٧، وألحق به المدائح الشعرية في الحافظ ومصنفاته: ص ٣٢٦ ــ ٤٨٥.

الدين أحمد أبو الفضل بن الشيخ الإمام العالم الأوحد المرحوم نور الدين علي . . . فجمع الرواة والشيوخ، وميَّز بين الناسخ والمنسوخ، وجمع الموافقات والأبدال، وميَّز بين الثقات والضعفاء من الرجال، وأفرط بجدّه الحثيث، حتى انخرط في سلك أهل الحديث، وحصل في الزمن اليسير على علم غزير»[1].

ـ ويقول السخاوي: «وبلغني عن شيخنا العلامة النحوي أبي العباس الحنّاوي قال: كنت أكتب الإملاء عن شيخنا العراقي، فإذا جاء ابن حجر ارتجَّ المجلس له. وعند عرض الإملاء قلَّ أن يخلو من إصلاح يقيده ابن حجر. ومن إجلاله له أنه كان يودعه إذا أراد سفراً، ويهنئه بالسلامة إذا قدم»[2].

ـ ويقول ابن حجر في ترجمة شيخه العراقي: «وشهد لي بالحفظ في كثير من المواطن، وكتب لي خطه بذلك مراراً. وسئل عند موته عمن بقي بعده من الحفاظ، فبدأ بي، وثنَّى بولده، وثلَّث بالشيخ نور الدين»[3].

●● ثناء شيخه ابن جماعة (ت ٨١٩هـ):

يقول ابن حجر في ترجمة شيخه المذكور: « . . . وكان يودّني كثيراً، ويشهد لي في غيبتي بالتقدم، ويتأدب معي إلى الغاية، مع مبالغتي في تعظيمه حتى كنت لا أسميه في غيبته إلاَّ إمام الأئمة»[4].

●● ويقول شيخه برهان الدين إبراهيم الأبناسي (ت ٨٠٢هـ):

«وكان ممن لاحظته عيون السعادة، وسبقت له في الأزل الإرادة،

---

(١) الجواهر والدرر: ص ٢١٠، هذا وعمر ابن حجر لا يتجاوز (٣٣) سنة، إذا فرضنا أن العراقي قال هذا في آخر سني عمره!

(٢) الجواهر والدرر: ص ٢١٢.

(٣) إنباء الغمر: ١٧٢/٥. والشيخ نور الدين هو الحافظ الهيثمي، وولد العراقي هو الحافظ أبو زرعة.

(٤) إنباء الغمر: ٢٤٢/٧؛ الجواهر والدرر: ص ٧٧.

الشيخ الإمام العلامة، المحدث المتقن المحقق، الشيخ شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن الشيخ الإمام العالم صدر المدرسين، مفتي المسلمين أبي الحسن علي الشهير بابن حجر، نور الدين الشافعي؛ لما عنيت به عناية التوفيق، ورعاية التحقيق، نظر في العلوم الشرعية فأتقن حلّها، وحل مشكلها، وكشف قناع معظمها، وصرف همته العلية إلى أشرفها، علم الحديث وهو أفضلها. . . »(١).

●● ويقول شيخه الحافظ البارع برهان الدين الحلبي (ت ٨٤١هـ):

«وهذا الرجل في غاية ما يكون من استحضار الرجال والكلام فيهم، وله مؤلفات كثيرة في تراجمهم. . . وأما الحديث فله معرفة تامة برجاله المتقدمين والمتأخرين بتراجمهم، وهو جملة حسنة، لا أستحضر أني رأيت مثله في معرفة رجاله المتقدم والمتأخر. والله أعلم»(٢).

●● وقال شيخه العلامة أبو بكر الدَّجْوي ـ (ت ٨٠٩هـ) ـ مثنياً على بعض تخاريج ابن حجر:

«فقد وقفت على هذا التخريج البديع مثالاً، المنيع منالاً، الفائق حسناً وجمالاً، فلم يدع لقائل مقالاً، إلَّا أن يقول: هكذا هكذا وإلَّا فلا. فلقد أوتي هذا بسطة في العلم واللَّسْن، وكيف لا؟! وهو الإمام ابن الإمام، أبو الفضل بن أبي الحسن. لقد بهر ابن حجر بفضله العقول والأفكار، كما فاق حجرُه الياقوتَ بل غيره من الحجارة ﴿وَإِنَّ مِنَ الحِجَارةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ﴾. **فإنه جمع فأوعى، وأوعب جمعاً، وأبدع لفظاً ومعنى، وجمع إحساناً وحسناً، فلو شاهد حسنه الجمالُ المِزّي لأطنب في الثناء وأسهب، أو الذهبي لذهب في الإعجاب كل مذهب، أو ابن عبد الهادي لاهتدى به**

(١) الجواهر والدرر: ص ٢٠٥.

(٢) المرجع السابق: ص ٢٣٤.

واقتفى أثره، أو ابن كثير لكاثر ببعضه واستكثره. فشكراً لهذا الإمام شكراً، فلقد جَمَّل مِصْرَه، وجدَّد لها في الحفاظ ذكراً. أوزعه الله شكر ما حمله، كما زين به عصره ومصره وجمَّلَه، وبلَّغه في الدارين سُؤْله وأملَه، وختم بخير عملنا وعمله، إنه بالإجابة جدير وهو على كل شيء قدير»[1].

●● ويقول ابن أبي بكر بن مرزوق العجيسي التلمساني[2] (ت ٨٤٢هـ):

«سيدنا الإمام الحافظ العلامة، العَلَم الفقيه، المحدث المكثر الرواية، البحر الخِضَمّ، وحيد دهره، وفريد عصره، جامع أشتات الفضائل، وحائز خصال السبق بواضح الدلائل»[3].

●● وأما شيخ القراء شمس الدين ابن الجزري[4] ـ (ت ٨٣٣هـ) ـ فقد أهدى مصنَّفه «النشر في القراءات العشر» للحافظ ابن حجر، وكتب على المجلد الأول منه: «هدية من العبد الفقير إلى رحمة الله تعالى، محمد بن محمد بن محمد الجَزَري مؤلفه ـ عفا الله تعالى عنه ـ لخزانة مولانا الشيخ الإمام العلامة حافظ عصره، وشيخ مصره، شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن الشيخ الإمام المرحوم نور الدين أبي الحسن علي بن محمد العسقلاني، المعروف بابن حجر، أجلَّه الله تعالى، وأدام نفع المسلمين بمؤلفاته المفيدة، وفضائله العديدة، وأيامه السعيدة»[5].

ويقول العلامة نسيم الدين عبد الغني المرشدي ـ أحد تلامذة ابن حجر ـ : «**سمعت ابن الجزري يقول: حضرت على العماد ابن كثير،**

---

(١) الجواهر والدرر: ص ٢١٣.
(٢) ذكره ابن حجر في معجم شيوخه، وقال: وسمع مني وسمعت منه.
(٣) الجواهر والدرر: ص ٢٣٥.
(٤) وذكره ابن حجر في معجم شيوخه.
(٥) الجواهر والدرر: ص ٢٢٩.

وعلى غيره من شيوخ الحافظ العراقي؛ فلم أرَ فيهم أحفظ من ابن حجر»[1].

●● ويقول الحافظ الناقد شيخ الإسلام أبو زُرعة ابن الحافظ العراقي ـ (ت ٨٢٦هـ) ـ وقد أثنى على بعض تخاريج ابن حجر:

«وقفت على هذا التخريج الذي لا مثيل له، ووقفت عندما تضمنه من المحاسن المجملة والمفصلة، واعترفت بأنه المجموع الجامع للفوائد، والبحر الحاوي للفرائد، وقضيت العجب مما حواه لمّا أمعنت النظر فيما رواه! وكيف لا يكون بهذه الأوصاف الزاهرة وهو صادر عن صاحب الفضائل الباهرة، **الشيخ الإمام، والسيد الهمام، ذي الأوصاف الحميدة، والمناقب العديدة، جمال المحدثين، مفيد الطالبين، شهاب الدين أبي الفضل، أفاض الله عليه من فضله، وجمع له بين وابِلِ الخير وطَلِّه»**[2].

●● ويقول حافظ الشام ابن ناصر الدين الدمشقي الشافعي ـ (ت ٨٤٢هـ) ـ في بعض مراسلاته:

«إلى مولانا وسيدنا شيخ الإسلام، حافظ الأعلام، ناصر السنة، إمام الأئمة، قاضي قضاة الأمة، أبي الفضل أسبغ الله على الوجود ظلَّ بقائه، ولا أخلانا والمسلمين من عوائد فوائده ونعمائه. إلى أن قال: إنه قائم لجنابكم بوظيفة الدعاء، ومُثْن كلما مرَّ ذكركم الشريف بجميل الثناء، مبتهج بوجودكم سروراً، متطلع إلى أخباركم كثيراً»[3].

●● ويقول العلامة المؤرخ فقيه الشام ابن قاضي شهبة (ت ٨٥١هـ):

«بقية العلماء الأعلام، قاضي القضاة، وصاحب المصنفات التي

---

(١) الجواهر والدرر: ص ٢٣١.
(٢) المرجع السابق: ص ٢٢٢.
(٣) المرجع السابق: ص ٢٣٥.

سارت بها الركبان. كتب الأجزاء والطِّباق بخطه الحسن، وبهر في الحديث، وتميَّز في الفن وشيخه ــ يعني العراقي ــ موجود. واشتهر صيته، وجلس إلى جانب شيخه في حال إملائه. ومهر في الفنون، لكن غلب عليه فن الحديث، فانتهت إليه معرفته بهذا الشأن، وصار إمام زمانه فيه بعد وفاة شيخه. وتصدى لنفع الناس، ودرَّس وأفتى، وولي المناصب الكبار والتدريس بعدة أماكن بالقاهرة، ورحل إليه الطلبة من الآفاق. **وبالجملة: فهو إمام زمانه، وحافظ وقته وأوانه، وعنده من الذكاء والفطنة وصفاء القريحة ما تَحَيَّر فيه الأبصار**»[1].

●● وأما مؤرخ الديار المصرية تقي الدين المَقْريزي[2] ــ (ت ٨٤٥هـ) ــ فقد رجَّح ابنَ حجر على أهل عصره، وقال: «**لو أنفق أحدهم مِلْءَ الأرض ذهباً؛ ما بلغ مُدَّه ولا نَصِيفَه**». وكان يقول: «**ما أعلم الآن من أستفيد منه في الحديث غيره**»[3].

●● ويقول محقق عصره قاضي القضاة شمس الدين القاياتي (ت ٨٥٠هـ):

«**المحاسن التي تفرَّقت في الناس، اجتمعت في ابن حجر**»[4].

●● ويقول الإمام العلامة برهان الدين إبراهيم بن خضر (ت ٨٥٢هـ):

«**حافظ العصر على الإطلاق، وخاتمة علماء السنة إلى يوم التلاق،**

---

(١) الجواهر والدرر: ص ٢٤٣.
(٢) المقريزي: أصله من بعلبك، ونسبته إلى حارة المقارزة ــ من حارات بعلبك في أيامه ــ، ولد ونشأ ومات في القاهرة.
(٣) الجواهر والدرر: ص ٢٣٩ ــ ٢٤٠.
(٤) المرجع السابق: ص ٢٤٢.

أدام الله بهجته، وحرس للأنام مهجته»[1].

● ومن نظم العلاء علي بن العفيف عبد المحسن الدواليبي ـ (ت ٨٦٢هـ) ـ في ابن حجر، قوله[2]:

بحرٌ لمغترفٍ خيرٌ لمعترفٍ ... دُرٌّ لمنتقدٍ نورٌ لمعتقدِ
نظمتُ درَّ ثنائي في مدائحه ... لأنه للمعالي أيُّ منتقدِ
لِبَابِه علماءُ العصر قارعةٌ ... لمّا غدا أوحداً كالشمس في البَلَدِ
تراه في البحث مثلَ البحر يظهر من ... تَلاطُم العلمِ كالأمواجِ بالزَّبَدِ
يا ابنَ السُّراةِ الكرام الغُرّ بيتُك في ... بيت الفضائل والخيرات والسَّنَدِ
أتعبتَ بعدَك مَنْ رامَ اللحاقَ فقد ... أكدت مطالب مَن جارى ولم يَكِدِ

● ● ●

ثانياً ـ ثناء تلاميذه عليه، وتقديرهم له

●● يقول تلميذه الإمام العلامة برهان الدين البقاعي (ت ٨٨٥هـ):

«شيخ الإسلام، وطراز الأنام، علم الأئمة الأعلام، شهاب المهتدين من أتباع كل إمام، حافظ العصر، وأستاذ الدهر، سلطان العلماء، وملك الفقهاء الذي إن سلك بحر التفسير كان الترجمان، والآتي من فرائد فوائده بعقود الجُمان. أو ركب متن الحديث كان أحمد الزمان، وأظهر من خفايا خباياه ما لم يسبق إليه أبو حاتم ولا ابن حبّان. وإن تكلم في الفقه وأصوله علم أنه الشافعي، وأبرز من لوايا رواياه[3] ما لم يتجاسر عليه الإمام[4] ولا الرافعي. أو تيمّم كلام العرب على اختلاف أنواعه؛ فسيبويه والمبرد. وإن عرض العروض أو الأدب على انشعاب أنحائه؛ فالخليل بن أحمد. متى تحدث المتفننون بشيء من العلم؛ كان مالك قياده، وأستاذ نقاده.

---

(١) الجواهر والدرر: ص ٢٤٣.
(٢) المرجع السابق: ص ٣٩٩.
(٣) الروية: النظر والتفكير في الأمور، وجمعها رَوايا.
(٤) لعله يريد الإمام النووي.

أبو الفضل شهاب الدين قاضي القضاة بالديار المصرية والدول الأشرفية، خلّد الله نعمه، وأبّد سعادته، وأيّد همته»[1].

●● ويقول المحدث الحافظ قطب الدين ابن الخيضري (ت ٨٩٤هـ):

«شيخنا الإمام شيخ الإسلام، ملك العلماء الأعلام، إمام الحفاظ فارس المعاني والألفاظ، قدوة المحدثين، أستاذ المحققين، عمدة المخرِّجين، علَم الناقدين، محط رحال الطالبين، ساقي الظمآن من صافي المَعِين؛ لأنه البحر الذي لو رآه ابن معين لصار فيه يعوم، أو البخاري لكان للشرب منه يروم، ولو أدركه الدارقطني لَحَامَ حول حماه واستبطنه، أو الطبراني لم يحلل من رحلته إلاَّ عنده وكان استوطنه. لأنه حامل راية أهل الحديث بكلها، وفارس ميادين علومه كلِّها: لو اجتمع به ابن عساكر، لكان بعسكره من بعض جنده، أو ابن ماكولا الأمير؛ لصار من أنصاره وذوي رفْدِه. ولو سمع به ابن السمعاني؛ لاستمع إلى كلامه. ولو لحقه ابن عبد البر؛ لأقسم بارّاً أنه لا يتمهد في أحواله إلاَّ بدرّ نظامه...»[2].

●● ويقول الإمام العلامة محدث مكة التقي ابن فهد (ت ٨٧١هـ):

«الإمام العلامة الحافظ، فريد الوقت، مفخرة الزمان، بقية الحفاظ، علم الأئمة الأعلام، عمدة المحققين، وخاتمة الحفاظ المبرِّزين، والقضاة المشهورين، أبو الفضل شهاب الدين».

«... وهو إمام علامة، حافظ محقق، متين الديانة، حسن الأخلاق، لطيف المحاضرة، حسن التعبير، عديم النظير، لم تَرَ العيون مثلَه، ولا رأى هو مثلَ نفسه...»[3].

---

(١) الجواهر والدرر: ص ٢٥٨ ـ ٢٥٩.

(٢) الجواهر والدرر: ص ٢٦٣ ـ ٢٦٤.

(٣) الجواهر والدرر: ص ٢٥٠؛ ذيول التذكرة: ص ٣٣٦.

●● ويقول العلامة المحدث ابن خطيب الناصرية (ت ٨٤٣هـ):

«. . . وهو حافظ الإسلام، علامة في معرفة الرجال واستحضارهم، والعالي والنازل، مع معرفة قوية بعلل الأحاديث، وبراعة حسنة في الفقه وغيره، وأخلاق رضية، ومحاضرة حسنة، مع الدين والمداراة ومحبة أهل العلم، والإنصاف في البحث، وهو أحد مشايخي الذين قرأت عليهم بالقاهرة»[١].

●● ويقول محدث القاهرة أبو النعيم رضوان العقبي ـ وهو مُسْتَمْلي ابن حجر ـ (ت ٨٥٢هـ):

«سيدنا وشيخنا، الإمام شيخ الإسلام، قاضي القضاة، منقطع النظير والصفات، أمير المؤمنين في الحديث، جامع أشتات قديم المحدثين والحديث، حافظ العصر، رُحْلَة الدهر»[٢].

●● ويقول العلامة المؤرخ ابن تَغْري بَرْدِي (ت ٨٧٤هـ):

«كان إماماً عالماً، حافظاً، شاعراً، أديباً، مصنِّفاً، مليح الشكل، منوَّر الشيبة، حلو المحاضرة إلى الغاية والنهاية، عذب المذاكرة، مع وقار وأبَّهة، وعقل وسكون، وحلم وسياسة»[٣].

●● ويقول محدث حلب العلامة أبو ذر ابن البرهان الحلبي (ت ٨٨٤هـ):

«قاضي القضاة بالممالك الإسلامية، إمام الأئمة وعالم الأمة، الشيخ الإمام العالم العلامة، الحافظ الناقد الجِهبِذ، خاتمة الحفاظ، حامل راية الإسناد، من لم ترَ عيناي مثلَه، ولا عينُه في فنّه»[٤].

---

(١) الجواهر والدرر: ص ٢٣٨.
(٢) المرجع السابق: ص ٢٤٤.
(٣) المرجع السابق: ص ٢٥١.
(٤) المرجع السابق: ص ٢٥٣ ـ ٢٥٤.

●● ويقول العلامة قاضي القضاة الحنفية المحب أبو الفضل ابن الشحنة ـ (ت ٨٩٠هـ) ـ في ترجمة مختصرة لابن حجر، جاء فيها:

«. . . طار صيته في الآفاق، وحصلت على انفراده في بابه كلمة الاتفاق، هذا مع الذكاء، وصفاء القريحة، وحسن الاستنباط، والنظم الحسن، والنكتة اللطيفة، وحسن تسميته المصنفات ولطف العبارة وانسجامها، وحلاوة المنطق، وحسن المعاشرة والصحبة والتواضع. إلى أن قال: ولم يجتمع لأحد في عصره ما اجتمع له من العلوم والمحاسن، وكان أكمل أهل عصره حين موته، فيما يغلب على ظني وأعتقده. ومحاسنه جمة، وترجمته لا يسعها هذا المكان. . .»[1].

● ● ●

ثالثاً ـ ثناء الأكابر الآخرين

●● يقول الإمام الحافظ المؤرخ الأديب جلال الدين السُّيُوطِي (ت ٩١١هـ):

«شيخ الإسلام وإمام الحفاظ في زمانه، وحافظ الديار المصرية، بل حافظ الدنيا مطلقاً»[2].

ـ ويقول أيضاً: **«فريد زمانه، وحامل لواء السنَّة في أوانه، ذهبي هذا العصر ونضاره، وجوهره الذي ثبت به على كثير من الأعصار فخاره، إمام هذا الفن للمقتدين، ومقدَّم عساكر المحدثين، وعمدة الوجود في التوهية والتصحيح، وأعظم الشهود والحكام في بابَي التعديل والتجريح شهد له بالانفراد ـ خصوصاً في شرح البخاري ـ كل مسلم، وقضى له كل حاكم بأنه المعلّم. له الحفظ الواسع الذي إذا وصفته فحدِّث عن البحر ابن حجر ولا حرج، والنقد الذي ضاهى به ابنَ معين فلا يمشي عليه بهرج**

---

(١) المرجع السابق: ص ٢٦١ ـ ٢٦٢.

(٢) طبقات الحفاظ: ص ٥٥٢؛ ذيول التذكرة: ص ٣٨٠.

هرج، والتصانيف التي ما شبهتها إلّا بالكنوز والمطالب؛ فمن ثَمَّ قُيِّض لها موانع تحول بينها وبين كل طالب. جمَّل الله به هذا الزمان الأخير، وأحيى به وبشيخه سنّةً الإملاء بعد انقطاعه من دهر كثير»[1].

●● ويقول المؤرخ الفقيه ابن العماد الحنبلي (ت ١٠٨٩هـ):

«شيخ الإسلام، علم الأعلام، أمير المؤمنين في الحديث، حافظ العصر... انتهى إليه معرفة الرجال واستحضارهم، ومعرفة العالي والنازل وعلل الأحاديث وغير ذلك، وصار هو المعوّل عليه في هذا الشأن في سائر الأقطار، وقدوة الأمة، وعلّامة العلماء، وحجة الأعلام، ومحيي السنّة، وانتفع به الطلبة، وحضر دروسه وقرأ عليه غالب علماء مصر، ورحل الناس إليه من الأقطار»[2].

●● ويقول العلامة اللغوي المحدث مُرْتَضى الزَّبِيدِي (ت ١٢٠٥هـ):

«أما الحافظ أبو الفضل فهو محض منّة من الله تعالى على مصر خاصة وعلى مَنْ سواهم عامة، وترجمته أُلِّفَتْ في مجلد كبير، وبلغ في هذا الشأن ما لم يبلغه غيره في عصره. بل ومن قبله، وكان بعض يوازيه بالدارقطني. وقد انتفعت بكتبه، وكان أول فتوحي في هذا الفن على مؤلفاته، وحبَّب الله إليَّ كلامه وأماليه، فجمعت منها شيئاً كثيراً، فجزاه الله عنا كل خير»[3].

●● ويقول العلامة الفقيه القاضي الشوكاني (ت ١٢٥٠هـ):

«الحافظ الكبير الشهير، الإمام المنفرد بمعرفة الحديث وعلله في الأزمنة المتأخرة... وشهد له بالحفظ والإتقان القريب والبعيد، والعدو والصديق؛ حتى صار إطلاق لفظ «الحافظ» عليه كلمة إجماع. ورحل

---

(١) نظم العقيان: ص ٤٥.

(٢) شذرات الذهب: ٧/ ٢٧٠ ـ ٢٧١.

(٣) تاج العروس: مادة (ح ج ر).

الطلبة إليه من الأقطار، وطـارت مؤلفاتـه في حياتـه، وانتشرت في البـلاد، وتكاتبت الملوك من قطر إلى قطر في شأنها، وهي كثيرة جداً»[1].

***

(١) البدر الطالع: ١/٨٧ ـ ٨٨.

الفَصل الخامس عَشر
وَفَاتُهُ ومَرَاثِيهِ

●● مرضه وانقطاعه عن المسجد ووفاته وجنازته ودفنه[١]:

انقطع الحافظ ابن حجر في بيته ـ بعد أن عزل نفسه من منصب قاضي القضاة ـ في الخامس والعشرين من جمادى الآخرة سنة (٨٥٢هـ)، ولازم التصنيف والتأليف ومجالس الإملاء، إلى أن ابتدأ به المرض في ذي القعدة من السنة المذكورة، بعد أن رجع من مجلس الإملاء يوم الثلاثاء حادي عشر ذي القعدة. ورجع إلى منزل أم أولاده التي قدمت له طعاماً، فما امتنع من الأكل مراعاة لخاطر أهله.

وثقل عليه المرض، وتغير مزاجه، وأصبح ضعيف الحركة، واستمر مكتوماً، ولا يعلم به أحد، بل يطلع إلى المدرسة للصلوات والإقراء والإملاء. فلما اشتد به الوعك وتضرر بالكتمان[٢]؛ أفصح عن ذلك. وخشي الأطباء أن يناولوه مسهلاً ـ لكبر سنّه ـ فأشير بلبن الحليب، فتناوله، فلانت طبيعته قليلاً، وأدى ذلك إلى نشاط يسير وخفة، سرّ بهما ابن حجر، لكن الكتمان عاوده، وتزايد به الألم، وصار يحس شيئاً ثقيلاً على معدته، فتخلف عن صلاة عيد الأضحى، وهو الذي لم يكن يترك

---

(١) تذكرة الحفاظ: ص ٣٣٧ ـ ٣٣٩، ٣٨٢؛ طبقات الحفاظ: ص ٥٥٣؛ الجواهر والدرر: ص ٢٥٠، ٢٥١ ـ ٢٥٢؛ الدليل الشافي: ١/ ٦٤؛ شذرات الذهب: ٧/ ٢٧٣؛ حسن المحاضرة: ١/ ٣٦٤؛ البدر الطالع: ١/ ٩٢؛ ابن حجر مؤرخاً: ص ١٠٦ ـ ١٠٧؛ تغليق التعليق: ١/ ٧٣ ـ ٧٤.

(٢) هذا ما ذكره السخاوي، بينما ذكر ابن فهد أنه «حصل له إسهال ورمي دم». ومن يصيبه هذا لا يتمكن من حضور الصلوات والإقراء ومجالس الإملاء.

جمعة ولا جماعة، ولكنه تمكن في اليوم الثالث بعده من أداء صلاة الجمعة. ثم توجه إلى إحدى زوجاته واستعطف خاطرها في انقطاعه عنها، وحاللها واسترضاها، وكأنه قد شعر بدنوّ الأجل. وكان «إذا أخبر بالمنامات وشبهها مما يدل على صحته، يقول: أما أنا فلا أراني إلَّا في تناقص، وما أظن الأجل إلَّا قد قرب. ثم ينشد:

ثاء الثلاثين مني أوهنت بدني فكيف حالي بعد ثاء الثمانينا

ويقول: «اللهم حرمتني عافيتك، فلا تحرمني عفوك»!

وتزايد المرض واشتد به، وتردد الأطباء إليه، واشتد الخطب، وعجز الإمام عن التوضؤ، وصار يصلي الفرض جالساً، وترك قيام الليل، وانتابه الصرع.

وهرع الناس إليه أفواجاً، من أمراء وقضاة، وعلماء وطلبة وصلحاء؛ لعيادته والسلام عليه، كالبدر العيني، والبدر ابن التنسي، والقاضي ولي الدين السفطي، وقاضي القضاة سعد الدين ابن الديري الحنفي.

وما إن كانت ليلة السبت المسفرة عن الثامن والعشرين من ذي الحجة، وبعد العشاء بنحو ساعتين، وقد جلس من حوله سبطه وبعض أصحابه يقرؤون سورة (يس) مرة، ويعيدون أخرى، فوصلوا إلى قوله تعالى: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ﴾ ـ حتى فاضت روحه إلى بارئها. وتولى أحدهم تغميضه، كما شُغل ولده ـ في اليوم التالي لموته ـ بتجهيزه وغسله.

وكان وقع المصيبة عظيماً، وبكى الناس عليه، وحزنوا لموته حتى أهل الذمة، وقفلت الأسواق، وغلقت الحوانيت، وشوهدت له جنازة عظيمة، لم يكن بعد جنازة ابن تيمية أحفل منها، حتى قال السخاوي: «واجتمع في جنازته من الخلق ما لا يحصيهم إلَّا الله عز وجل، بحيث

مـا أظن كبير أحـد من سائـر الناس تخلف عن شهـودها، وقفلت الأسـواق والدكاكين».

وتقدم الأعيان بحمل نعشه، وكـان ممن حمله السلطان فمن دونه من الرؤساء والعلمـاء، وجهد الشخص الشـديد الـذي يتمكن من الوصـول إلى نعشه أن يمس النعش برأس أصبعه.

يقول البقاعي: «ومشى أعيان الناس من بيتـه داخل بـاب القنطرة إلى القرافة، حيث دفن، وحضـر السلطان الظاهـر جقمق الصلاة عليـه، ومشى الخليفـة المستكفي بالله أبـو الربيـع سليمان، والقضـاة والعلماء، والأمـراء والأعيـان، بل غـالب الناس في جنـازته، حتى قيـل عن بعض الأذكيـاء إنـه حضر في الجنازة أكثر من خمسين ألفـ إنسان، وكان لموته يوم عـظيم على المسلمين، حتى على أهل الذمة».

وشيّعته القاهرة كلها في موكب مهيب، باكيـة حزينـة، وشقت الجنازة طـريقها في سكـون وجلال وهيبـة نحو «مصلى المؤمني»[1]، وهنـاك افترق الناس صفين ليجتاز النعش من بينهما إلى حيث تلقي السلطان له.

ولمـا وصلت جنازتـه المصلى أمطرت السمـاء على نعشه ــ ولم يكن زمان مطر ــ فيما يرويـه السيوطي فيقـول[2]: «حدثني الشهـاب المنصوري شاعر العصر أنه حضر جنازتـه، فأمـطرت السماء على نعشـه وقد قـرب إلى المصلى، ولم يكن زمان مطر. قال: فأنشدت في ذلك الوقت:

قَــدْ بَـكَـتِ الـسُّـحْـبُ عَـلَى ... قَــاضِــي الـقُـضَــاةِ بِـالـمَـطَـرْ
وانْــهَــدَمَ الــرُّكْــنُ الّــذي ... كَــانَ مُـشِـيـداً مِــنْ حَـجَــرْ»

---

(١) نسبة إلى منشئها الأمير سيف الدين بكتمر بن عبد الله المؤمني (ت ٧٧١هـ).

(٢) حسن المحـاضـرة: ١/ ٣٦٤، طبقـات الحفـاظ: ص ٥٥٣؛ ذيـول التـذكـرة: ص ٣٨٢.

وقد أشار أمير المؤمنين الخليفة العباسي بالتقدم للصلاة عليه، فصلى عليه العَلَم البلقيني بإذن الخليفة بمصلى المؤمني بالرميلة خارج القاهرة، ونقل نعشه إلى القرافة الصغرى حيث دفن بتربة بني الخرّوبي[1] المقابلة لجامع الديلمي، بين تربة الإمام الشافعي والشيخ مسلم السلمي. وأقام الطلبة والقراء والوعاظ على قبره أسبوعاً لعمل الختمات وإنشاد المراثي الكثيرة.

وحصل الضجيج والبكاء والانتحاب أسفاً على فقده، وقوبل نعيه في الأقطار الإسلامية الأخرى بوجوم وحزن عميقين، وصلى عليه المسلمون صلاة الغائب في كثير من البلاد الإسلامية؛ فصلِّيَ عليه بمكة، وبيت المقدس، والخليل، ودمشق، وحلب، وغيرها.

● ● ●

●● مراثيه[2]:

لقد أحب الناس الإمام ابن حجر حباً عظيماً، وكان في حياتهم ملء السمع والبصر؛ فقد عرفوه عالماً فذاً، ومفتياً عبقرياً، وقاضياً عادلاً، وشاعراً مجيداً، ومملياً مبدعاً، وواعظاً مؤثراً، شغل حياتهم فترة طويلة من الزمن بصنوف العلم والمعرفة؛ فلا غرو أن يتخلل حبه شغاف قلوبهم، حتى إن كانوا ليهنئونه بقدوم شهر رمضان المبارك. ولما وقع نبأ موته تزلزلت أفئدتهم، وارتجفت قلوبهم، وسالت مآقيهم، ولهجت ألسنتهم بالدعاء له بالرحمة والرضوان، وأن يخلف الله عليهم مثله، وجادت قرائحهم بالمراثي التي تعبر عما يعتلج في صدورهم.

●● فممن رثاه الأديب شهاب الدين الحجازي[3]، حيث يقول:

---

(١) بالقرب من الإمام الليث بن سعد.

(٢) انظر: ذيول التذكرة: ص ٣٣٩ ـ ٣٤٢، حسن المحاضرة: ١/٣٦٤ ـ ٣٦٦، تغليق التعليق: ١/٧٦.

(٣) هو أحمد بن محمد بن علي الأنصاري الخزرجي، القاهري الشافعي، شهاب =

كـلّ البـريــة للمـنيّــةِ صــائــرَهْ وقَفُـوا لهـا شيئـاً فشيئاً ســائـرَهْ

والنفسُ إنْ رضيتْ بذا ربحتْ وإنْ لم تـرضَ كانت عنـد ذلك خـاسرَهْ

وأنـا الذي راضٍ بـأحكـامٍ مضتْ عن ربنـا البَـرِّ المهيـمنِ صـادرَه

لكنْ سئمتُ العيشَ من بعـدِ الذي قـد خلّفَ الأفكـارَ منـا حـائـرَهْ

هـو شيخُ الاسـلامِ المعـظَّمُ قـدرُهُ مَنْ كــان أوْحَـدَ عصــرِهِ والنـادرَهْ

قـاضي القضـاة العسقـلانيّ الـذي لم تـرفعِ الـدنيا خصيمـاً نـاظـرَهْ

وشهابُ دينِ اللَّهِ ذي الفضل الذي أربـى على عـدد النجـوم مكـاثَـرَهْ

لا تَعْجَبُـوا لعلوِّه فـأبــوه في الـدّ نــيـا عَــلاَ مـن قــبـلهِ والآخــرَهْ

ثـم قـال:

لهفي على المِدَحِ استحالتْ للرِّثَـا وقُصُـورِ أبْيَـاتي غـدتْ متقـاصِـرَهْ

لهفي عليــه عـالمـاً، بــوفــاتــه دَرَسَتْ دروسٌ والمــدارس داثــرَهْ

لهفي على الإمــلاء عُــطِّل بعــدَهُ ومعـاهدِ الإسمـاع إذ هي شـاغـرَهْ

لهفي عليـه حـافظ العصــر الـذي قـد كـان مَعْــدوداً لكـل منــاظَـرَهْ

لهفي على الفقه المهذَّبِ والمحـرَّ رِ حَاوي المقاصد عند كل محاضرَهْ

لهفي على النَّحْــو الــذي تسهـيلُه مُغْنِي اللَّبيب مســاعـدٌ لمــذاكَـرَهْ

لهفي على اللغـة الغـريبــة كم أَرَا نـا معرِبـاً بصحـاحهـا المتـظاهـرَهْ

لهفي على علم العَـروض تقطَّعت أسبــابُــهُ بفــواصــلٍ متغــايــرَهْ

لهفي عليــه خــزانــة العلْمِ التي كـانت بها كـلُّ الأفـاضـلِ مـاهـرَهْ

لهفي على شيخي الذي سعدتْ به صحب وأوجـه نـاظرِيـه نـاضـرَهْ

لهفي على التقصيــر منّي حيث لمْ أمـلا النـواحي بـالنُّـواحِ صـادِرَهْ

لهفي على عذري على استيفاء مـا يحـوي، وعجزي أن أَعُـدّ مـآثـرَهْ

= الدين أبو الطيب، المعروف بالشهاب الحجازي، الشاعر المفلق، أوحد زمانه في الأدب. توفي (٨٧٥هـ). وقد ذاعت مرثيته هذه لترنم الوعاظ والعامة بها.

لهفي على لهفي، وهل ذا مُسْعِدي　　أو كـانْ ينفعني شـديـد محاذرَهْ!
لهفي على مَنْ كـلَّ عـامٍ للهَنـا　　تـأتي الـوفـودُ إلى حمـاهُ مبـادِرَهْ

ثـم قـال:

وسهـرتُ مذ صَـدَحَ النعيُّ بـزجـره　　فـإذا هُمُ مِن مقلَتِي بـالسّـاهـرَهْ
ورُزئـتُ فيـه فـليتَ أنـيَ لم أكُـنْ　　أَوْ ليتَ أني قـد سكنت مقـابِـرَهْ
رزْءٌ جميـعُ النـاس فيـهِ واحـدٌ　　طـوبَى لنفسٍ عند ذلـك صـابـرَهْ
يـا نـومَ عَـيْني لا تَلُمَّ بـمقـلتِي　　فـالنـومُ لا يـأوي لعينٍ سـاهـرَهْ
يـا دمع واسقِ تـربَـه ولـوانّهـا　　بعلومـهِ جـرتِ البحـارُ الـزاخـرَهْ
يا صبريَ ارْحَـلْ ليس قلبـي فارغاً　　سكَنَتْـهُ أحـزانٌ غـدتْ متكـاثـرَهْ
يـا نـار شـوقي بـالفـراقِ تـأجّجي　　يـا أدمعي بالمُـزْنِ كـوني سـاخـرَهْ
يا قبر طِبْ قـد صرتَ بيت العلم أو　　عينـاً بـه إنسـان قـطب الـدائـرَهْ
يا موتُ إنكَ قد نـزلت بذي النّـدى　　ومذ استضفتَ حباك نفساً حاضـرَهْ
يـا ربِّ فـارحَمْـه واسقِ ضـريحَـهُ　　بسحـائبٍ من فيض فضلك غامـرَهْ
يـا نفسُ صبـراً فـالتـأسِّي لائقٌ　　بـوفاةِ أعـظمِ شـافـعٍ في الآخـرَهْ
المصـطفى زين الـنّبيِّيـن الـذي　　حـاز العُـلاَ والمعجـزاتِ البـاهـرَهْ
صلى عليـه اللَّهُ مـا جـالَ الـرّدى　　فـينـا وجـرَّد لـلبـريـةِ بـاتـرَهْ
وعلى عشيـرتِـهِ الكـرامِ وآلـهِ　　وعلى صحـابتـه النُّجـوم الـزاهِـرَهْ

●● ورثاه الشيخ شهاب الدين المنصوري[1] بقصيدة، منها:

بَكَـاكَ العلمُ حتى النحـو أضحى　　مـع التصـريفِ بعـدكَ في جـدالِ
وقـد أضحى البـديـعُ بـلا بيـانٍ　　وقـد سلفتْ معـانيـه الـغَـوالِي
وقـد درستْ دروسُ العلمِ حـزنـاً　　وقـد ضـلّ الجـوابُ عن السؤالِ

---

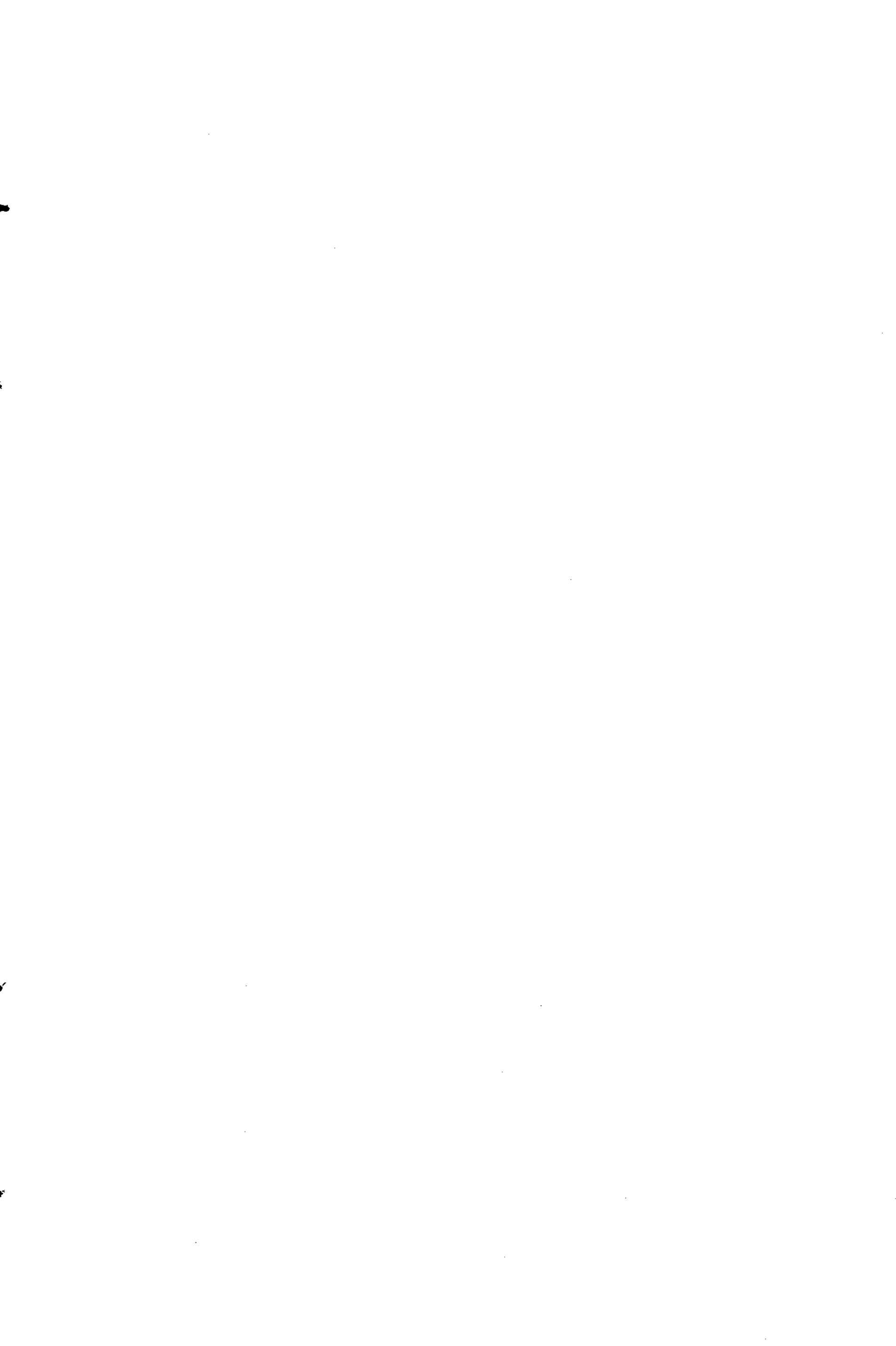
(١) هو أحمد بن محمد بن علي بن محمد السلمي، المنصوري الشافعي ثم الحنبلي، شهاب الدين أبو العباس، ويعرف بابن الهايم، وبالشهـاب المنصوري، وبـالقائم. كان شاعر زمانه، وشعره في غاية الحُسن. توفي (٨٨٧هـ).

تنكـرتِ المعـارفُ فـي عيـانـي — وتمييـزي غـداً في سـوءِ حـالِ
ومـا عـوضت من بـدلٍ وعـطفٍ — سـوى تـوليـدِ سقمي واعتـلالِي
وكمْ جنـتِ المنـونُ على كـرامٍ — وجنـدلتِ الكمـيَّ بـلا قتـالِ
فـيـا قـبـراً ثـوَى فيـه تـهنِّـي — فقـد حِزْتَ الجميلَ مـع الجمـالِ
سـقـاكَ اللَّهُ عـينـاً سَـلْسَبيـلاً — وأسبـغَ مـا عليـكَ من الـظلالِ

وقد رثاه الكثيرون من العلماء والشعراء[1]، وذكر السخـاوي فيضاً من مـراثي شيخه ابن حجـر، رحمه الله رحمـة واسعـة، ورضي عنـه، وأجـزل مثوبته، وأعلى في الجنان درجته. آمين.

***

(١) فممن رثـاه: سبط ابن حجـر، والبـرهـان البقـاعي، ومحيـي الـدين الكـافيـاجي، وابن أبـي السعود المنوفي، والمحب ابن القطان، وغيرهم.



الخاتمة

هذه صفحات مشرقة من سيرة الإمام الحافظ ابن حجر؛ هي ملخص لحياته الشخصية والروحية والعلمية. وقليل مجحف أن يترجم إمام من كبار أعيان القرن التاسع بكتاب، ولكنه ــ فيما نحسب ــ يعطي فكرة متكاملة عن هذه الشخصية الفريدة المتميزة، التي تشكل معلماً بارزاً في تاريخنا الزاهر.

والكلمة الجامعة في حياة الإمام ابن حجر: أنه ما عاش لنفسه قط، ولا ركن لدنياه، ولا تلفت إلى ملاذها؛ بل أفنى عمره في طلب العلم والغدوّ إلى العلماء في البواكر والعشايا، والترحال إليهم في بلدانهم متجشماً في سبيل ذلك كل صعب. وصرف وقته في خدمة دينه وأمته: في الإقراء والإفتاء، والتدريس والقضاء، والتأليف والتصنيف، حتى كان ــ بحق ــ أبرز علماء عصره الذين اشتهروا بكثرة التصانيف، وتأليف الموسوعات. وبقي على ذلك حتى فارق الدنيا، ولقي وجه ربه.

ولقد خلّد التاريخ ذكره، وانتفعت الأمة ــ خاصتها وعامتها ــ بعلومه، في حياته ومن بعد وفاته، حتى عصرنا الحاضر، فأقبلت على تآليفه الماتعة بالدراسة والإفادة، ونهلت من بحار علومه الغزيرة، فتجدد له بذلك الذكر الجميل، والثناء الحسن.

يموت الفتى دهراً ويفنى ادِّكاره وذكركَ يبقى في الطروس مُخَلَّدَا
وما رفعوا في الكتبِ أخبارَ عالمٍ بمأثرةٍ إلَّا وذكرك مبتَدَا

فعشْ وابْقَ واسْلَمْ واغْنَ واغْنَمْ وجُدْ وسُدْ
ودُمْ وارْقَ واكْمُلْ نافذَ الحكمِ مرشِدَا

نـرى كل يـوم منـك عيـداً مبـاركـاً وسعداً على طولِ الزمان مُخَلَّدَا[1]

رحم الله الإمام ابن حجر رحمة واسعة، وأجـزل مثوبتـه، وجزاه خيـر الجزاء، كفاء ما قدمه لدينـه وأمته. وأضـرع إليه سبحـانه وتعـالى أن يجعلنا ممن سلك سبيـل السلف الصالـح المهـديين، والأئمـة المعتبرين، فـاقتدى بهم، واقتفى أثرهم.

وأسأله ــ سبحانه ــ أن ينفع بهذا الكتـاب أجيال المسلمين، ويجعله في سلك (علم يُنتفع به)؛ فينفعني به يوم لا ينفع مال ولا بنون إلاَّ من أتى الله بقلب سليم، وأن يغفر لي ما كبا به جواد القلم، أو زلّت به القدم، إنه أكـرم مسؤول وخير مجيب.

والله يقول الحق وهو يهـدي السبيل، وآخـر دعوانـا أن الحمد لله رب العالمين.

عبد الستار الشيخ

٢١/صفر الخير/١٤١١هـ

١٠/٩/١٩٩٠م

---

(١) من قصيدة طويلة جداً للعلامة فخر الأدباء شمس الدين النواجي، الجواهر والدرر: ص ٤٥٠.

المَـراجع

١ ـ **ابن حجر العسقلاني مؤرخاً**، للدكتور محمد كمال الـدين عز الـدين، عالم الكتب ـ بيروت.

٢ ـ **إتحـاف القاري بمعـرفة جـهـود وأعمال العلمـاء على صحيـح البخـاري**، لمحمد عصام عرار، اليمامة ـ دمشق.

٣ ـ **أسـاس البلاغـة**، للإمـام الـزمخشـري، تحقيق عبـد الـرحيم محمـود، دار المعرفة ـ بيروت.

٤ ـ **أسنى المـطالب في أحـاديث مختلفــة المـراتب**، للشيــخ محمـد درويش الحوت، دار الكتاب العربـي ـ بيروت.

٥ ـ **أصـول الحديث ـ علومـه ومصطلحـه**، للدكتور محمـد عجاج الخـطيب، دارالفكر ـ بيروت.

٦ ـ **الإمام البخاري**، للدكتور تقي الدين الندوي، دار القلم ـ دمشق.

٧ ـ **الإمام البخاري وصحيحـه**، للدكتور عبـد الغني عبد الخـالق، دار المنارة ـ جدة.

٨ ـ **الإمام النووي**، للشيخ عبد الغني الدقر، دار القلم ـ دمشق.

٩ ـ **إنباء الغمر بأنباء العمر**، للحافظ ابن حجر، دار الكتب العلمية ـ بيروت.

١٠ ـ **الأنساب**، للإمام أبـي سعد السمعاني، دار الكتب العلمية ـ بيروت.

١١ ـ **الأعلام**، لخير الدين الزركلي، دار العلم للملايين ـ بيروت.

١٢ ـ **الإعـلان بـالتـوبيـخ لمن ذم التـاريـخ**، للحـافظ السخـاوي، دار الكتـاب العربـي ـ بيروت.

١٣ ـ **إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون**، لإسماعيل باشا البغدادي، دار الفكر ـ بيروت.

١٤ ـ **البـاعث الحثيث شرح اختصـار علوم الحديث لابن كثيـر**، شرح العـلاّمـة أحمد محمد شاكر، دار الكتب العلمية ـ بيروت.

١٥ ــ **بدر الدين العيني وأثره في علم الحديث**، لصالح يوسف معتوق، دار البشائر الإسلامية ــ بيروت.
١٦ ــ **البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع**، للقاضي الشوكاني، دار المعرفة ــ بيروت.
١٧ ــ **بلوغ المرام من أدلة الأحكام**، للحافظ ابن حجر، دار الدعوة ــ تركيا.
١٨ ــ **تاريخ التراث العربي**، لفؤاد سزكين، ترجمة د. محمود فهمي حجازي، نشر دار الثقافة والنشر بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.
١٩ ــ **تبصير المنتبه بتحرير المشتبه**، للحافظ ابن حجر، تحقيق البجاوي والنجار، المكتبة العلمية ــ بيروت.
٢٠ ــ **تبيين العجب بما ورد في فضل رجب**، للحافظ ابن حجر، تحقيق إبراهيم بن إسماعيل آل عصر، دار الكتب العلمية ــ بيروت.
٢١ ــ **تحذير المسلمين من الأحاديث الموضوعة على سيد المرسلين**، تأليف محمد بن البشير الأزهري، دار ابن كثير ــ دمشق، دار التراث ــ المدينة.
٢٢ ــ **تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف**، للحافظ المزي، تحقيق عبد الصمد شرف الدين، المكتب الإسلامي ــ بيروت، والدار القيمة ــ بمباي، الهند.
٢٣ ــ **تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي**، للحافظ السيوطي، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف، دار الفكر ــ بيروت.
٢٤ ــ **تعجيل المنفعة بزوائد رجال الأئمة الأربعة**، للحافظ ابن حجر، دار الكتاب العربي ــ بيروت.
٢٥ ــ **تغليق التعليق**، للحافظ ابن حجر، تحقيق سعيد عبد الرحمن القزقي، المكتب الإسلامي ــ بيروت، دار عمار ــ عمَّان.
٢٦ ــ **تقريب التهذيب**، للحافظ ابن حجر، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف، دار المعرفة ــ بيروت.
٢٧ ــ **التلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير**، للحافظ ابن حجر، بتعليق السيد عبد الله هاشم اليماني، دار المعرفة ــ بيروت.
٢٨ ــ **تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة الموضوعة**، لابن عراق،

تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف وعبد الله محمد الصدّيق، دار الكتب العلمية ــ بيروت.

٢٩ ــ **تهذيب التهذيب**، للحافظ ابن حجر، دار الفكر ــ بيروت.

٣٠ ــ **توالي التأسيس لمعالي محمد بن إدريس**، حققه عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية ــ بيروت.

٣١ ــ **توجيه القاري إلى القواعد والفوائد الأصولية والحديثية والإسنادية في فتح الباري**، جمعه حافظ ثناء الله الزاهدي، الناشر: حافظ عبد الغفور بن محمد، الرئيس العام لجامعة العلوم الأثرية ــ بجهلم، باكستان.

٣٢ ــ **جامع الأصول في أحاديث الرسول**، للإمام ابن الأثير، حققه العلاّمة عبد القادر الأرناؤوط، دار الفكر ــ بيروت.

٣٣ ــ **جامع بيان العلم وفضله**، لابن عبد البر، دار الفكر ــ بيروت.

٣٤ ــ **جزء في طرق حديث «لا تسبوا أصحابي»**، للحافظ ابن حجر، حققه مشهور حسن سلمان، دار عمار ــ عمّان.

٣٥ ــ **جزء الوقوف على ما في صحيح مسلم من الموقوف**، للحافظ ابن حجر، تحقيق أم عبد الله بنت محروس العسلي، المعلا ــ الكويت.

٣٦ ــ **الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر**، للحافظ السخاوي، الجزء الأول، تحقيق د. حامد عبد المجيد، د. طه الزيني، نشر المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ــ القاهرة.

٣٧ ــ **حاشية الدهلوي على بلوغ المرام**، للعلامة أحمد حسن الدّهلوي، المكتب الإسلامي ــ بيروت.

٣٨ ــ **حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة**، للحافظ السيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه.

٣٩ ــ **الدارس في تاريخ المدارس**، لعبد القادر بن محمد النعيمي الدمشقي، تحقيق جعفر الحسيني، نشر مكتبة الثقافة الدينية.

٤٠ ــ **الدراية في تخريج أحاديث الهداية**، للحافظ ابن حجر، صححه وعلق عليه عبد الله هاشم اليماني، دار المعرفة ــ بيروت.

٤١ ـ **الدليل الشافي على المنهل الصافي**، لابن تغري بردي، تحقيق فهيم شلتوت، مكتبة الخانجي ـ القاهرة.
٤٢ ـ **الذهبي ومنهجه في كتابه تاريخ الإسلام**، للدكتور بشار عواد معروف، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه ـ القاهرة.
٤٣ ـ **ذيل طبقات الحفاظ**، للحافظ السيوطي، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.
٤٤ ـ **الرحلة في طلب الحديث**، للخطيب البغدادي، تحقيق الدكتور نور الدين عتر، دار الكتب العلمية ـ بيروت.
٤٥ ـ **الرحمة الغيثية بالترجمة الليثية**، للحافظ ابن حجر، تحقيق د. يوسف المرعشلي، دار المعرفة ـ بيروت.
٤٦ ـ **الرسالة المستطرفة**، للعلاّمة محمد بن جعفر الكتاني، دار البشائر الإسلامية ـ بيروت.
٤٧ ـ **سنن الترمذي**، بتحقيق وشرح العلاّمة أحمد شاكر، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.
٤٨ ـ **السنّة ومكانتها في التشريع الإسلامي**، للدكتور مصطفى السباعي، المكتب الإسلامي ـ بيروت.
٤٩ ـ **سير أعلام النبلاء**، للحافظ الذهبي، مؤسسة الرسالة ـ بيروت.
٥٠ ـ **شذرات الذهب، في أخبار من ذهب**، لابن العماد، الحنبلي، دار الفكر ـ بيروت.
٥١ ـ **شرح نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر**، للحافظ ابن حجر، علق عليه محمد غياث الصباغ، مكتبة الغزالي ـ دمشق.
٥٢ ـ **طبقات الحفاظ**، للحافظ السيوطي، دار الكتب العلمية ـ بيروت.
٥٣ ـ **طبقات الشافعية**، لابن قاضي شهبة، بعناية د. عبد العليم خان، عالم الكتب ـ بيروت.
٥٤ ـ **طبقات المدلسين**، لابن حجر، تحقيق د. عاصم عبد الله القريوتي، مكتبة المنار ـ عمّان.

٥٥ ــ **علوم الحديث**، لابن الصلاح، تحقيق الدكتور نور الدين عتر، دار الفكر ــ دمشق.
٥٦ ــ **عمدة القاري شرح صحيح البخاري**، للبدر العيني، دار الفكر ــ بيروت.
٥٧ ــ **عوالي مسلم**، لابن حجر، تحقيق كمال يوسف الحوت، مؤسسة الكتب الثقافية ــ بيروت.
٥٨ ــ **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، لابن حجر، المكتبة السلفية ــ مصر.
٥٩ ــ **الفضل المبين على عقد الجوهر الثمين**، وهو شرح الأربعين العجلونية، لمحمد جمال الدين القاسمي، تحقيق عاصم بهجة البيطار، دار النفائس ــ بيروت.
٦٠ ــ **فهارس التلخيص الحبير**، إعداد د. يوسف المرعشلي، دار المعرفة ــ بيروت.
٦١ ــ **فهرست فهرست الكتب من مرويات الحافظ ابن حجر**، لمؤلف مجهول، ملحق بكتاب القول المسدد في الذب عن مسند الإمام أحمد، اليمامة ــ دمشق.
٦٢ ــ **قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث**، لمحمد جمال الدين القاسمي، تحقيق محمد بهجة البيطار، دار إحياء الكتب العربية.
٦٣ ــ **القول المسدَّد في الذب عن مسند الإمام أحمد**، لابن حجر، تحقيق عبد الله الدرويش، اليمامة ــ دمشق.
٦٤ ــ **قوة الحجاج في عموم المغفرة للحجاج**، لابن حجر، علق عليه سمير حسين حلبي، دار الكتب العلمية ــ بيروت.
٦٥ ــ **الكاشف في معرفة من له رواية في الكتب الستة**، للذهبي، دار الكتب العلمية ــ بيروت.
٦٦ ــ **كشف الخفا ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس**، لإسماعيل بن محمد العجلوني، صححه وعلق عليه أحمد القلاش، مؤسسة الرسالة ــ بيروت.

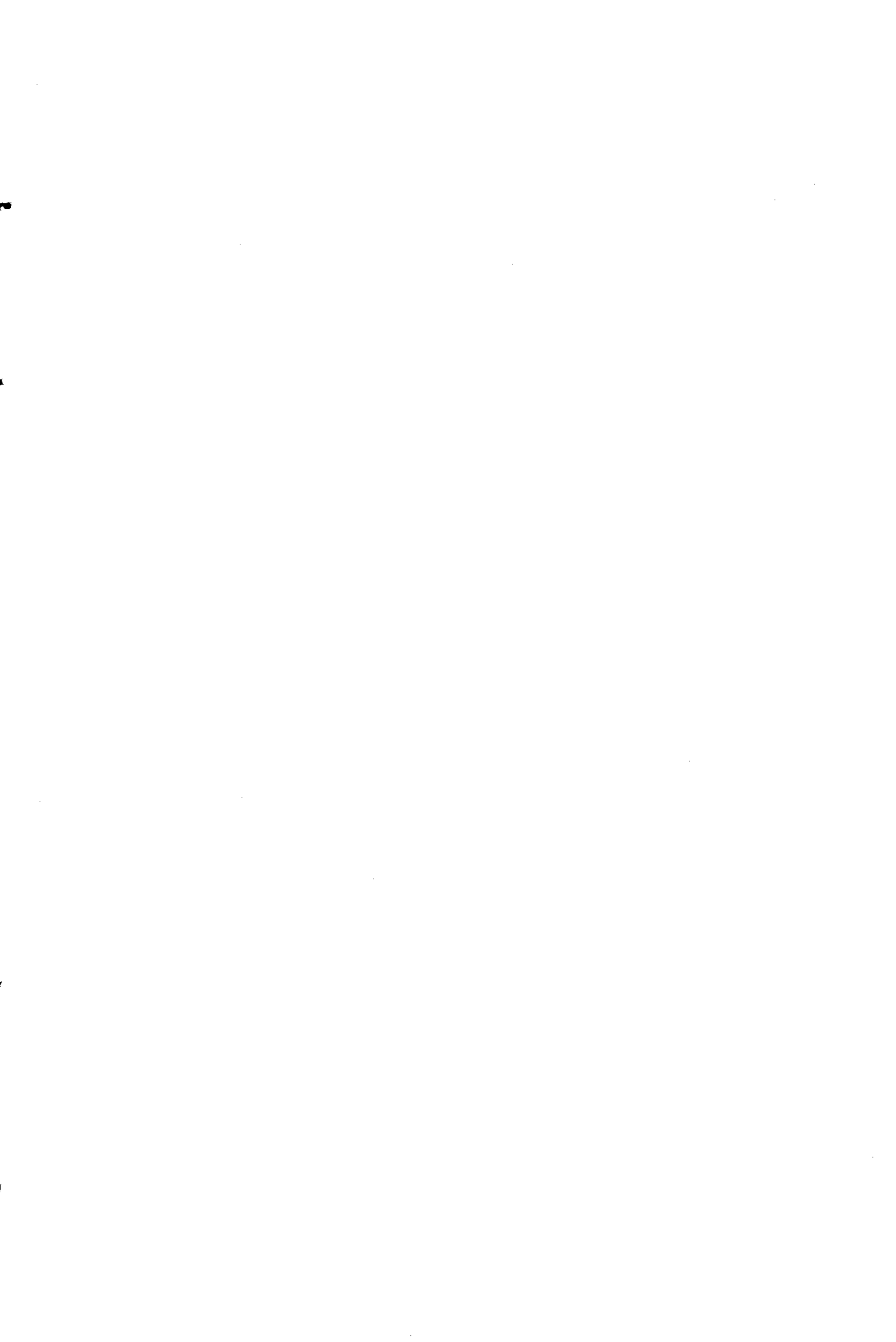
٦٧ ـ **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، لحاجي خليفة، دار الفكر ـ بيروت.
٦٨ ـ **لحظ الألحاظ بذيل طبقات الحفاظ**، لابن فهد المكي، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.
٦٩ ـ **لسان الميزان**، لابن حجر، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ـ بيروت، مصورة عن طبعة دائرة المعارف بحيدرآباد.
٧٠ ـ **مختصر الترغيب والترهيب**، انتقاء ابن حجر، تحقيق المحدث حبيب الرحمن الأعظمي، مؤسسة الرسالة ـ بيروت. **مختصر الترغيب والترهيب**، انتقاء ابن حجر، صححه محمد الطاهر المجدوب، دار التراث ـ القاهرة، المكتبة العتيقة ـ تونس.
٧١ ـ **مشكاة المصابيح**، للخطيب التبريزي، تحقيق المحدث محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي ـ بيروت.
٧٢ ـ **مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك**، للدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور، دار النهضة العربية ـ بيروت.
٧٣ ـ **المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية**، لابن حجر، تحقيق المحدث حبيب الرحمن الأعظمي، دار المعرفة ـ بيروت.
٧٤ ـ **معجم البلدان**، لياقوت الحموي، دار الفكر ـ بيروت، مصورة عن طبعة دار صادر.
٧٥ ـ **معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع**، للبكري، تحقيق مصطفى السقا، عالم الكتب ـ بيروت.
٧٦ ـ **معجم المؤلفين**، لعمر رضا كحالة، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.
٧٧ ـ **المعجم الوسيط**، لأحمد حسن الزيات وزملائه، مجمع اللغة العربية بمصر، نشر دار الدعوة ـ استانبول.
٧٨ ـ **مفتاح السعادة ومصباح السيادة**، لطاش كبري زاده، دار الكتب العلمية ـ بيروت.
٧٩ ـ **المقاصد الحسنة**، للسخاوي، تحقيق محمد عثمان الخشت، دار الكتاب العربي ـ بيروت.

٨٠ ــ **مكانة الصحيحين**، للدكتور خليل إبراهيم ملا خاطر، المطبعة العربية الحديثة ــ القاهرة.
٨١ ــ **ميزان الاعتدال**، للذهبي، تحقيق علي محمد البجاوي، دار المعرفة ــ بيروت.
٨٢ ــ **نظم العقيان في أعيان الأعيان**، للسيوطي، المكتبة العلمية ــ بيروت.
٨٣ ــ **النكت الظراف على الأطراف**، لابن حجر، طبع بذيل تحفة الأشراف للمزي، تحقيق عبد الصمد شرف الدين، المكتب الإسلامي ــ بيروت، والدار القيِّمة ــ بمباي، الهند.
٨٤ ــ **النهاية في غريب الحديث والأثر**، لابن الأثير، تحقيق طاهر الزاوي ومحمود الطناحي، المكتبة العلمية ــ بيروت.
٨٥ ــ **هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين**، لإسماعيل باشا البغدادي، دار الفكر ــ بيروت.

٨٦ ــ **الأسئلة الفائقة بالأجوبة اللائقة**، لابن حجر، تحقيق محمد إبراهيم حفيظ الرحمن ــ الدار السلفية ــ الهند.
٨٧ ــ **تاج العروس**، لمحمد مرتضى الزبيدي، دار الفكر ــ بيروت.
٨٨ ــ **الرد الوافر**، لابن ناصر الدين الدمشقي، تحقيق زهير الشاويش ــ المكتب الإسلامي ــ بيروت.
٨٩ ــ **الزهر النضر في نبأ الخضر**، لابن حجر، علق عليه سمير حلبي ــ دار الكتب العلمية ــ بيروت.
٩٠ ــ **فهرس الفهارس والأثبات**، لعبد الحي الكتاني، باعتناء د. إحسان عباس ــ دار الغرب الإسلامي ــ بيروت.

وغير ذلك.





الفهـــرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

[انتهى، والحمد لله رب العالمين]

أعلام المسلمين

سلسلة تراجم إسلامية تجمع بين العلم والفكر والتوجيه، وتتناول أعلام المسلمين في شتى الميادين.

صدر منها:

١ ـ عبد الله بن المبارك
تأليف محمد عثمان جمال.

٢ ـ الإمام الشافعي
تأليف عبد الغني الدقر.

٣ ـ مصعب بن عمير
تأليف محمد حسن بريغش.

٤ ـ عبد الله بن رواحة
تأليف د. جميل سلطان.

٥ ـ أبو حنيفة النعمان
تأليف وهبي غاوجي الألباني.

٦ ـ عبد الله بن عمر
تأليف محيي الدين مستو.

٧ ـ أنس بن مالك
تأليف عبد الحميد طهماز.

٨ ـ سعيد بن المسيب
تأليف د. وهبة الزحيلي.

٩ ـ السلطان محمد الفاتح
تأليف د. عبد السلام فهمي.

١٠ ـ الإمام النووي
تأليف عبد الغني الدقر.

١١ ـ الشيخ محمد الحامد
تأليف عبد الحميد طهماز.

١٢ ـ السيدة عائشة
تأليف عبد الحميد طهماز.

١٣ ـ الإمام البخاري
تأليف د. تقي الدين الندوي المظاهري.

١٤ ـ عبادة بن الصامت
تأليف د. وهبة الزحيلي.

١٥ ـ عبد الله بن عباس
تأليف د. مصطفى الخن.

١٦ ـ جابر بن عبد الله
تأليف وهبي غاوجي الألباني.

١٧ ـ أحمد بن حنبل
تأليف عبد الغني الدقر.
١٨ ـ كعب بن مالك
تأليف د. سامي مكي العاني.
١٩ ـ أبو داود
تأليف د. تقي الدين الندوي المظاهري.
٢٠ ـ أسامة بن زيد
تأليف د. وهبة الزحيلي.
٢١ ـ معاوية بن أبي سفيان
تأليف منير الغضبان.
٢٢ ـ عدي بن حاتم الطائي
تأليف محيي الدين مستو.
٢٣ ـ مالك بن أنس
تأليف عبد الغني الدقر.
٢٤ ـ عبد الله بن مسعود
تأليف عبد الستار الشيخ.
٢٥ ـ معاذ بن جبل
تأليف عبد الحميد طهماز.
٢٦ ـ الإمام الجويني
تأليف د. محمد الزحيلي.
٢٧ ـ القاضي البيضاوي
تأليف د. محمد الزحيلي.
٢٨ ـ عبد الحميد بن باديس
تأليف مازن مطبقاني.
٢٩ ـ تميم بن أوس الداري
تأليف محمد محمد حسن شراب
٣٠ ـ السلطان عبد الحميد الثاني
تأليف د. محمد حرب.
٣١ ـ السيدة خديجة
تأليف عبد الحميد طهماز.
٣٢ ـ زيد بن ثابت
تأليف: صفوان داوودي.
٣٣ ـ الإمام أبو جعفر الطبري
تأليف: د. محمد الزحيلي.
٣٤ ـ أبو موسى الأشعري
تأليف: عبد الحميد طهماز
٣٥ ـ أبو عبيد قاسم بن سلام
تأليف: سائد بكداش
٣٦ ـ أبو جعفر الطحاوي
تأليف: عبد الله نذير أحمد
٣٧ ـ سفيان بن عيينة
تأليف: عبد الغني الدقر
٣٨ ـ الحافظ ابن حجر العسقلاني
تأليف: عبد الستّار الشيخ
٣٩ ـ العز بن عبد السلام
تأليف: الدكتور محمد الزحيلي
٤٠ ـ عمر بن عبد العزيز
تأليف: عبد الستّار الشيخ